

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية

المجلد الثالث

الأمة العربية : الأوج والإزدهار

القسم الثالث: مظاهر الرقى وإسهامات العرب فى الحضارة الإنسانية

تونس 1428هـ 2007م



إن الآراء والأفكار التي تنشر بأسماء كتابها

لا تحمل بالضرورة وجهة نظر المنظمة

الكتاب المرجع في تاريخ الأمة الإسلامية

المجلد الثالث : القسم الثالث : :

مظاهر الرقى وإسهامات العرب فى الحضارة الإنسانية

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - تونس

(661) صفحة

(ISBN: 978-9973-15-206-0)

يصدر الكتاب المرجع فى تاريخ الأمة العربية بدعم وتمويل

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الإشتراكية العظمى

المقدمـــــــة

يتناول القسم الثالث من المجلد الثالث " مظاهر الرقى وإسهامات العرب فى الحضارة الإنسانية".

فالفصل الأول يدرس إزدهار العمارة والفنون العربية الاسلامية (مدنية وعسكرية) فى مختلف المراكز الحضارية (الحرمين الشريفين بالحجاز، بغداد، سامراء، القاهرة، قرطبة وغرناطة، مراكش، صنعاء وزبيد)، وقد تنوعــت العمــارة فى بنــاء المساجد والزوايا والأسوار والأبواب والأســواق والمــرافق والآبار والجسور....)، ونمــت الفنون بمختلف أصنافها (زخرفة، نقوش كتابيــة، خشب، زجاج، فخار، معادن، منسوجات).

ويطرح الفصل الثاني ما قام به العرب من إنجازات فى ميدان الطرق والمسالك شرقاً وغرباً مما زاد فى وحدة العالم العربى الاسلامى، وأتاح للعرب التنقل والسفر للقيام بمناسك الحج والتجارة والرحلات العلمية فيما بين مختلف المراكز الحضارية العربية، وكان لتلك الحركية آثار مهمة على النشاط العلمى والأدبى. كما يتعرض الفصل الثاني للرياضة ومختلف أنواع التسلية كألعاب الشطرنج والنرد والرقص والتمثيل وإقتناء الحيوانات والطيور، كما يتناول هذا الفصل فى نهايته الأطعمة والأشربة بكل أنواعها فى البيئة العربية والآداب والتقاليد العربية فى هذا المجال.

ويتعرض الفصل الثالث الى إســهامات العرب فى الحـــضارة الإنســـانية فى عـــــدة مجــالات: [الطــب والصيدلة، الرياضيات والفلك، الكيمياء، العلوم الإنسانية (التـــاريخ والفلـــسفة والجغرافيـــا)، والموسيقى والغناء] وهو ما أعطى العرب فى العصور الذهبية حضارة متطورة أفادت الحضارات الأخـــرى شرقاً وغرباً تنهل منها، وتصبح جزءاً لا يتجزأ من الحضارة الإنسانية.

وبهذا القسم "الثالث" يكتمل المجلد الثالث الذى يتناول الأوج والإزدهار.

* * * * * *

المشرف العام : الأستاذ الدكتور المنجي بوسنينه
المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

المشاركون في التأليف (على وفق ترتيب الأبحاث)

1 . أ.د. محمد حمزة الحداد ((مصر)) جامعة القاهرة.
2 . أ.د. غازى رجب محمد ((العراق)) جامعة بغداد.
3 . أ.د. عبد العزيز حميد صالح ((العراق)) جامعة بغداد.
4 . أ.د.رأفت محمد محمد النبراوي ((مصر)) جامعة القاهرة.
5 . أ.د. محمد محمد الكحلاوى ((مصر)) جامعة القاهرة.
6 . أ.د. محمد محمد الكحلاوى ((مصر)) جامعة القاهرة.
7 . أ.د على سعيد سيف محمد ((اليمن)) جامعة صنعاء.
8 . أ.د. سعد بن عبد العزيز الراشد ((السعودية)) وزارة التربية – شؤون الآثار.
9 . أ.د. نيقولا زيادة ((الجمهورية اللبنانية)) الجامعة الأمريكية – بيروت.
10. أ.د. كامل طه الويس ((العراق)) جامعة بغداد.
11. أ. نبيلة عبد المنعم داود ((العراق)) مركز إحياء التراث العلمى العربى – جامعة بغداد.
12. أ. د. كمال السامرائي ((العراق)) جامعة بغداد.
13. أ.د. سامى خلف الحمارنة ((الأردن)) الجامعة الأردنية.
14. أ.د. خالد أحمد كريم السامرائى ((العراق)) مركز إحياء التراث العلمى العربى – جامعة بغداد.
15. أ.د. أحمد يوسف الحسن ((سوريا)) جامعة تورنتو – كندا
16. أ.د. عبادة كحيلة (أبو أدهم) ((مصر)) جامعة القاهرة.
17. أ.د. كامل طه الويس ((العراق)) جامعة بغداد.

الفصل الأول : الفنون والعمارة

1. الحرمان الشريفان .
2. بغداد .
3. سامراء .
4. القاهرة .
5. قرطبة .
6. غرناطة .
7. صنعاء وزبيد .

أولا: الحرمان الشريفان

مقدمة:

عمارة الحرمين الشريفين قبل العصر العباسي:

مرت عمارة الحرمين الشريفين قبل العصر العباسى بعدة مراحل؛ إلا أن العمارة العباسية للحرمين الشريفين أضافت توسعة وتطورا معماريا وفنيا طبقاً لطبيعة التطور والازدهار التى كانت سمة رئيسة من سمات هذه المرحلة فى التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية.

عمارة الحرم المكى الشريف:

تمثل عمارة الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك (86-96هـ/ 705-714م) المرحلة الأخيرة لعمارة الحرم المكى الشريف قبل العمارة العباسية، وقد وصفت عمارة الوليد للحرم المكى الشريف بأنها كانت عمارة محكمة.

وكان ابتداء هذه العمارة فى عام 88هـ/706م والفراغ منها فى عام 91هـ/709م، وعن تلك العمارة يذكر كل من الأزرقى والفاكهى ومن نقل عنهما ما نصه: "وهو – أى الوليد– أول من نقل إليه أساطين الرخام – أى الأعمدة الرخامية– فعمله بطاق واحد بأساطين الرخام ، وسقفه بالساج المزخرف، وجعل على رؤوس الأساطين – أى تيجان الأعمدة – الذهب على صفائح الشبه من الصُّفْرِ – وورد عند الفاكهى أن فى كل اسطوانة ثلاثة وثلاثّين مثقالاً – وأُزِّر المسجد بالرخام من داخله وجعل فى وجه – أو وجوه– الطيقان فى أعلاها الفسيفساء وهو أول من عمله فى المسجد الحرام، وجُعل للمسجد شرافات " .

ويفيدنا هذا النص فى التعرف على الخصائص المعمارية والسمات الفنية لعمارة الوليد للحرم المكى الشريف 88- 91هـ/ 706-709م.

ويمكن القول بأنه لما كانت الأساطين التى أمر الوليد بإحضارها من مصر والشام على قدر زيادته وتوسعته فى المسجد الحرام كما يقتضيه الحال فإن العقود التى كانت تعلوها كانت لا تقل عن ذلك القدر كثيراً وهو ما عبر عنه النص بمصطلح طاق واحد.

وفى ضوء ذلك نستطيع القول بأن عمارة الوليد كانت عبارة عن رواق واحد متصل، يدور على حافة المسجد الحرام حول الكعبة المشرفة.

أما عن حلية هذا الرواق وكسوته فتتجلى فى تلك الصفائح المذهبة التى زُيِّنَتْ بها رؤوس الأساطين – أى تيجان الأعمدة– من جهة وفى الإزار الرخامى الذى يؤزر أسفل الحوائط الداخلية الأربعة للمسجد من جهة ثانية، وفى تلك الزخارف الفسيفسائية التى زينت بها الأجزاء العلوية لواجهات العقود من جهة ثالثة ،

وفى تلك الزخارف المتنوعة التى زُيِّنَ بها السقف الذى كان من أجود أنواع الخشب - وهو خشب الساج- من جهة رابعة.

ومن المرجَّح أن هذه الزخارف كانت على غرار مثيلتها المنفذة على العمائر الأموية الأخرى التى لا تزال باقية حتى الآن ، وبصفة خاصة قبة الصخرة فى القدس الشريف 72هـ/ 691م، والجامع الأموى فى دمشق 86-96هـ/ 705-714م ومثلها فى ذلك زخارف الحرم النبوى الشريف عقب عمارة الوليد أيضاً، وهو ما سنشير إليه فيما بعد.

وفى ضوء هذا التفسير الجديد لنص الأزرقى والفاكهى المتعلق بعمارة الوليد فإنه لا يصح القول بأن الطيقان كانت فى حائط المسجد، وإن زخارف الفسيفساء كانت تعلو وجوه الطيقان فى ذلك الحائط فى قول، أو إنها - أى الطيقان - هى النوافذ وقد كسيت من أعلاها بالفسيفساء فى قول آخر.

كذلك فإنه يحسب لعمارة الوليد أن جدران الحرم المكى الشريف قد تُوِّجتْ لأول مرة بالشرافات، إلا أن المصادر لم تزودنا بأىّ تفاصيل يمكن من خلالها تحديد شكل تلك الشرافات.

عمارة الحرم النبوى الشريف:

تمثل عمارة الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك (86-96هـ/705-714م) المرحلة الأخيرة أيضاً لعمارة الحرم النبوى الشريف قبل العمارة العباسية، وكان ابتداء هذه العمارة فى عام 88هـ/706م، والفراغ منها فى عام 91هـ/709م، وقد تمت هذه العمارة على يد عمر بن عبدالعزيز عامل الوليد على المدينة.

وقد أمره الوليد بهدم المسجد وبنيانه والزيادة فيه وأن يشترى ما حوله من المشرق والمغرب والشام -أى الجهة الشمالية - ويهدم حجرات أزواج النبى (ﷺ) ويدخلها فى المسجد.

وصدع عمر بن عبدالعزيز بالأمر فاستعمل صالح بن كيسان على عمليتى الهدم والبناء التى استغرقت ثلاث سنوات فيما بين 88-91هـ/ 706-709م.

وقد بنى أساس المسجد بالحجارة ، أما الجدران فقد بنيت بالحجارة المطابقة المنقوشة والقصَّة الجيدة والأساطين (الأعمدة) من حجارة حَشْوُها عمد الحديد والرصاص ، وتم هدم حجرات أزواج النبى (ﷺ) ودخلت ضمن المسجد وبُنِىَ على قبر الرسول (ﷺ) وصاحبيه (أبى بكر وعمر رضى الله عنهما) الحظار المزور، ومن مفردات هذه العمارة وعناصرها الرئيسة المحراب المجوف والمقصورة والشرفات والمنارات

الأربع بالأركان ، أما الحليات والكسوات فقد نُفِّذَتْ بالفسيفساء والمرمر (الرخام) وعُمِلَ السقف بالساج وماء الذهب.

والحق أنه كانت لهذه العمارة الأموية للحرم النبوى الشريف فى أواخر القرن الأول الهجرى/ أوائل القرن الثامن م أهميتها الكبيرة ، سواء من حيث التخطيط المعمارى العام للحرم النبوى الشريف ، أو من حيث التفاصيل والمفردات والعناصر ، أو من حيث النقوش الزخرفية والكتابية ، وهو ما سنوضحه فيما يلى:

التخطيط المعمارى للمسجد ومفرداته:

أصبح الحرم النبوى الشريف عقب هذه العمارة الأموية عبارة عن صحن أوسط مكشوف ومقدم (جهة القبلة) ومؤخر (جهة الشام ، أى الشمال) ومجنبتان إحداهما غربية والأخرى شرقية ويشتمل المقدم على خمس بائكات تحصر فيما بينها خمسة أروقة (بلاطات) وتتكون كل بائكة من **17** عموداً وكانت المسافة بين كل عمودين كبيرة ، إذ تتراوح ما بين **9-10** أذرع (أى **4.5-5**م) وتطل البائكة الأولى على الصحن من خلال أحد عشر عقداً، ولما كان جدار القبلة الجديد قد قدم إلى حيث موضعه اليوم ؛ ولذلك نجد أن المحراب المجوف المستجد لا يتوسط جدار القبلة ، وإنما كان أقرب إلى الشرق منه إلى الغرب، ونستطيع أن نرجع السبب فى ذلك إلى أنه كان من باب الحرص على عدم تغيير موضع القبلة القديم ، ويؤكد ذلك ما ورد فى المصادر التاريخية من أن عمر بن عبدالعزيز. لما صار إلى "جدار القبلة دعا مشيخة من أهل المدينة من قريش والأنصار والعرب والموالى فقال لهم: تعالوا، احضروا بنيان قبلتكم، لا تقولوا : غير عمر قبلتنا، فجعل لا ينزع حجراً إلا وضع مكانه حجراً".

وظل المنبر بموضعه القديم أما المقصورة فكانت تحف الرواق (البلاط) الأول مما يلى جار القبلة وتكتنفه طولاً من غرب إلى شرق والمحراب فيها ، على حد قول ابن جبير فى رحلته.

والمؤخر يشتمل على أربع بائكات تحصر فيما بينها أربعة أروقة (بلاطات) وتتكون كل بائكة من **17** عموداً، وتطل البائكة الأولى على الصحن من خلال أحد عشر عقداً وهى تماثل فى ذلك بائكة المقدم.

والمجنبة اليمنى (الغربية) تشتمل على أربع بائكات تحصر فيما بينها أربعة أروقة (بلاطات) وتتكون كل بائكة من **13** عموداً، وتطل البائكة الأولى على الصحن ، من خلال أربعة عشر عقداً.

والمجنبة اليسرى (الشرقية) تشتمل على ثلاث بائكات تحصر فيما بينها ثلاثة أروقة

(بلاطات) وتتكون كل بائكة من **13** عموداً وتطل البائكة الأولى على الصحن من خلال أربعة عشر عقداً ، وهى تماثل فى ذلك بائكة المجنبة اليمنى (الغربية).

أما موضع القبر الشريف فيقع على يسار الرواقين (البلاطتين) الأولين مما يلى الصحن من جهة المشرق ، وكانت مربعة القبر هى نفسها الأسطون (أو العمود) الذى يشغل ركن الصحن من هذه الجهة (أى المشرق).

ويتفق هذا التحديد مع ما ذكره ابن عبد ربه فى مشاهداته بقوله" إنه – أى القبر الشريف – بشرقى المسجد وفى آخر سقفه القبلى – أى المقدم – مما يلى الصحن بينه وبين السور – أى الجدار – الشرقى مثل عشرة أذرع".

ويؤكد ذلك أيضاً الرحالة ابن جبير بقوله: "والروضة المقدسة مع آخر الجهة القبلية (المقدم) مما يلى الشرق، وانتظمت من بلاطاته مما يلى الصحن فى السعة اثنين ونيفت إلى البلاط (الرواق) الثالث بمقدار أربعة أشبار ".

كذلك أضيفت فى هذه العمارة أربع منارات بواقع منارة فى كل ركن، وكانت المنارة الرابعة "مطلة على دار مروان ، فلما حج سليمان بن عبد الملك أذن المؤذن فأطل عليه فأمر سليمان بتلك المنارة فهدمت إلى ظهر المسجد وبابها على باب المسجد "

أما الشرفات التى توّجت جدران الحرم النبوى الشريف لأول مرة منذ إنشائه فتكاد تتفق معظم الروايات على أنها أحدثت على يد عمر بن عبدالعزيز فى هذه العمارة (**88-91هـ/706-709م**)، ومع ذلك فهناك بعض روايات تشير إلى أن عبد الواحد بن عبدالله النصرى والى المدينة هو الذى استجدها عام (**104هـ/722م**).

وليس أدل على أهمية هذه العمارة الأموية من الإشارة إلى تلك المحاولات العديدة التى بذلت من قِبَلِ العلماء والباحثين العرب والأجانب على السواء ، لوضع تصور أو مشروع لتخطيط الحرم النبوى الشريف عقب تلك العمارة المهمة التى أصبحت أثراً بعد عين.

مع ما بذله هؤلاء وأولئك من جهد محمود فإن هذه المحاولات أو المشروعات لا تخلو من مآخذ وأخطاء تتراوح بين القلة والكثرة من مشروع لآخر، ومن أقدم المحاولات لتصور تخطيط الحرم النبوى الشريف عقب العمارة الأموية تلك المحاولة التى قام بها سوفاجيه عام **1947**م. ومحاولة كريزويل.

ومن المحاولات العربية محاولة أحمد فكرى ومحاولة صالح لمعى مصطفى. ومنها محاولة الشهرى، ومحاولة غازى بيشة .

وقد أثبت في دراسة سابقة أن مقدم الحرم النبوى الشريف كان يشمل عقب العمارة الأموية على رواق (بلاط) عمودى يقطع صفوف الأروقة (البلاطات) الخمسة، وكان يتجه من الصحن إلى حافة الرواق (البلاط الأول تجاه المحراب ولا يشقه – أى لا يخترقه– فقد كانت المنطقة التى تتقدم المحراب مسقوفة بسقف خشبى مذهب وكان هذا السقف مجوفاً قليلاً كالمحار (Shallow Shell) وهو ما عبر عنه ابن عبد ربه بقوله : " وفى وسطه سماء (سقف) كالترس المقدر مجوف كالمحار مذهب"، ولعل ذلك ينفى ما أشار إليه البعض من أن هذا السقف كان على هيئة قبة.

كذلك أثبتت هذه الدراسة أن الحظار المزّور الدائر حول القبر الشريف (على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى السلام) كان ذا ستة أركان وانه قد استمر على ذلك إلى ما قبل عام (300هـ/912م)، ثم حدث تغيير له فيما بين هذا العام وعام (439هـ/ 1047م) فأصبح مخمساً، كما هو متفق عليه ومعروف حتى الآن، وكانت الحجرة النبوية الشريفة مربعة، ثم أصبحت مخمسة أيضاً بعد ذلك.

الكسوات والنقوش الزخرفية والكتابية:

لا تقتصر أهمية العمارة الأموية للحرم النبوى الشريف على التخطيط المعمارى، وعناصره ومفرداته المختلفة فحسب وإنما تمتد لتشمل كذلك مواد البناء والكسوات والنقوش الزخرفية والكتابية المتنوعة، وقد سبقت الإشارة إلى أن الحرم النبوى الشريف بنى بالحجارة المطابقة المنقوشة والقصة الجيدة، وأنه عمل بالمرمر (الرخام) والفسيفساء، كما عمل سقفه ومقصورته بالساج والذهب، فضلاً عن النقوش الكتابية المتنوعة، ومن أهمها بطبيعة الحال نقوش جدار القبلة، وقد كتبها "مولى لآل حويطب بن عبد العزى يقال له : سعد حطبة" فى قول أو : خالد بن أبى الهياج فى قول آخر، وكان هذا النقش يشتمل على سورة الفاتحة (أم الكتاب) وبعض سور قصار المفصّل تبدأ من سورة الشمس وتنتهى بسورة الناس وهى أخر سور القرآن الكريم.

وقد زودنا ابن عبد ربه بأقدم وأدق وصف فنى مفصّل معروف لدينا حتى الآن للكسوات والنقوش الزخرفية بالحرم النبوى الشريف، ومنها كسوات جدار القبلة التى تبدأ من أسفل بزخارف رخامية متنوعة تعلوها الفسيفساء حتى بداية السقف الخشبى، وبالنسبة للزخارف الرخامية فقد كانت على هيئة ستة إزارات متتابعة ذات زخارف متنوعة، وعلى ذلك فهى تشبه من وجوه كثيرة مثيلتها التى لا تزال باقية فى العمائر الأموية الأخرى وبخاصة قبة

الصخرة (72هـ/ 619م) والجامع الأموى (86-96هـ/705-714م)، واستعملت أيضاً الزخارف الخشبية فى سقف المسجد والجسور أو العوارض الحاملة له فضلاً عن تيجان الأعمدة وأعتاب الأبواب وواجهات العقود المطلة على الصحن، وكانت غالبية هذه الزخارف الخشبية محفورة ومذهبة ، وعلى ذلك فهى تشبه من وجوه كثيرة مثيلتها التى لا تزال باقية فى العمائر الأموية الأخرى ، ولا سيما سقف المسجد الأقصى بالقدس الشريف.

أما زخارف الفسيفساء فقد كانت كذلك تشبه من وجوه كثيرة مثيلتها التى لا تزال باقية فى العمائر الأموية الأخرى ، ولا سيما كل من فسيفساء قبة الصخرة والجامع الأموى وهو ما يستدل عليه من خلال وصف ابن جبير لها عام (580هـ/1184م) من جهة ، وبعض الإشارات القليلة المتناثرة فى المصادر التاريخية من جهة ثانية، ومن ذلك ما قيل على لسان بعض العمال الذين عملوا هذه الفسيفساء : "إنما عملناه على ما وجدنا من صور شجر الجنة وقصورها"، ومنها ما قيل من أن عمر بن عبد العزيز كان "إذا عمل العامل الشجرة الكبيرة من الفسيفساء فأحسن عملها نفله عمر –أى أعطاه زيادة عن أجره – ثلاثين درهماً".

التخطيط المعمارى لعمارة الحرمين الشريفين فى العصر العباسى:

(132 – 447هـ / 750 -1055م)

التخطيط المعمارى للحرم المكى الشريف:

بدأت أول زيادة للحرم المكى الشريف فى العصر العباسى فى عهد الخليفة أبي جعفر فيما بين عام 137-140هـ/755-758م للحرم المكى الشريف من الجهتين الشمالية والغربية (أى الشق الشامى وأسفل المسجد) وقد ترتب عليها زيادة مساحة الحرم بمقدار الضعف عن ذى قبل، (أى عن العمارة الأموية فى عهد الخليفة الوليد بن عبدالملك) .

أما عمارة الخليفة العباسى محمد المهدى (158-169هـ/ 775-785م) فتمثل هذه العمارة أهم وأكبر زيادة وتوسعة للحرم المكى الشريف قبل التوسعة السعودية الكبرى، وقد تمت هذه العمارة على مرحلتين: الأولى سنة (161-164هـ/778-781) والثانية سنة (167-169هـ/784-786م).

وقد ترتب على الزيادة الأولى فيما بين عام 161-164هـ/778-781م زيادة عدد الأروقة (البلاطات) بكل من الشق الشامى (وهو الشق الشمالى الذى يلى دار الندوة ودار العجلة) والشق الغربى (أى أسفل المسجد إلى

موضع بيت الزيت عند باب جمح) إلى ثلاث أروقة (بلاطات) بعد أن كان بكل منها رواق واحد من عهد المنصور، وكذلك استجدت بالشق الشرقى (أى أعلى المسجد) ثلاثة أروقة أما الشق اليمانى (وهو الشق الذى يلى الوادى والصفا) فقد ظل كما هو رواقا واحدا ، وذلك لضيق المسجد فى تلك الناحية.

وقد تمت معالجة هذا الأمر وحل معضلته ببراعة واقتدار فى الزيادة الثانية للخليفة المهدى فيما بين عامى 167-169هـ/784-786م بحيث زيد فى المسجد من تلك الناحية (أى شق الوادى أو الشق اليمانى) 90 ذراعاً، فزادت أروقة هذا الجانب إلى ثلاثة أروقة كغيرها من الجوانب الثلاثة الأخرى. ويرجع الفضل إلى هذه الزيادة الثانية فى أنه استقرت بمقتضاها حدود الجوانب الأربعة للحرم من جهة، وصارت الكعبة المشرفة تتوسط الحرم من جهة ثانية، وهكذا أصبح تخطيط الحرم المكى الشريف عبارة عن صحن أوسط مكشوف تتوسطه الكعبة المشرفة ويلتف حول هذا الصحن من جوانبه الأربعة أروقة (بلاطات) بواقع ثلاثة أروقة بكل جانب.

وليس أدل على أهمية عمارة المهدى من الإشارة إلى أن الحرم المكى الشريف قد ظل محتفظا بحالته وجوهر تخطيطه الذى انتهى إليه عقب هذه العمارة، مع إجراء العديد من أعمال الصيانة والإصلاح والتجديد والترميم ، ليس فقط خلال العصر العباسى حتى سقوط الخلافة العباسية عام 656هـ/ 1258م وإنما خلال العصرين : المملوكى والعثمانى ، بل حتى الآن .

فمن جهة يلاحظ أنه لم يترتب على كل من الزيادتين اللتين زيدتا فى الحرم المكى الشريف خلال العصر العباسى الثانى (وهما: زيادة دار الندوة بالجانب الشمالى فيما بين عام 281-284هـ/894-897م، وزيادة باب إبراهيم فى الجانب الغربى عام (306هـ/981م) أو (307هـ/ 919م)، أى تغيير فى جوهر التخطيط الداخلى للحرم المكى الشريف، ويرجع ذلك بطبيعة الحال إلى أن كلاً من هاتين الزيادتين كانتا خارجتين عن تربيع المسجد الحرام – كما سبق القول – هذا من جهة؛ ومن جهة ثانية فإن التغيير الذى جرى لسقف الحرم المكى الشريف عقب العمارة العثمانية له فيما بين عامى 979-984هـ/ 1566- 1576م (وهو استبدال الأسقف الخشبية بالأسقف الحجرية المتمثلة فى القباب ، وهو الأمر الذى استلزم إجراء بعض التغييرات والتعديلات والإضافات ؛ حتى يسهل إقامة مثل هذه القباب) لم يترتب عليه هو الآخر أى تغيير أيضا فى جوهر التخطيط الداخلى لعمارة الحرم المكى الشريف،

وهو الأروقة الثلاثة بكل جانب من جوانب الحرم الأربعة؛ ومع ذلك فإن هذه القباب قد أضفت على الحرم طابعه المميز الذى لا يزال يشد الانتباه ، ويلفت النظر حتى الآن ؛ وللدلالة على ذلك حَسْبُنَا أن نشير إلى بعض مشاهدات وأوصاف الرحالة المتأخرين للحرم المكى الشريف ومنهم إبراهيم باشا رفعت، فقد وصف الحرم فيما بين عامى 1318-1325هـ/1901-1908م، بقوله: "المسجد الحرام وسط مكة وشكله مربع تقريبا وفى وسط المسجد يميل إلى الجنوب بيت الله أى الكعبة المكرمة، ويحيط بالمسجد من جهاته الأربع ثلاثة أروقة (بلاطات) فى الأكثر يفصل بين كل رواق وآخر صف من الأعمدة موازٍ لجدار المسجد ووصل بين كل عمودين بعقد من البناء المتين وأقيم على كل أربعة أعمدة قبة محكمة البناء ، فنشأ من ذلك قباب متجاورة ، منها تكون سقف تلك الأروقة..." ثم يضيف فيقول : "هذا الشكل هو الذى تراه بالمسجد إلى يومنا هذا ، وقد وصفناه لك قبلاً".

ووصف هذه العمارة العثمانية البتنونى عام 1327هـ/1910م بقوله: "تمت على أحسن حال بالشكل الذى نراه الآن، وليس لمن بعده (أى السلطان مراد الثالث) من السلاطين إلا عمارات ترميمية أو تكميلية".

أما محمد صادق باشا فقد وصفه عام 1297هـ/1880م وصفاً عاماً دون أن يتطرق إلى عدد الأروقة فقال: "والحرم الشريف فى وسط مكة باتساع منيف طوله مشرقاً مغرباً نحو 192 متراً وعرضه 132متـرا زوايا أضلعه ليست قائمة ، فى دوائره الأربع قباب على أعمدة من المرمر والحجر ، النحت بناؤه متين ، عليه سبع مآذن ، فى وسطه بيت الله الحرام أى الكعبة مربع الشكل تقريباً..."

ثم يضيف قائلاً: "ومتى أوقدت قناديل المطاف مع قناديل القباب فالناظر إلى الحرم يشاهده متلألئاً بالنور ، ككوكب درى يسر الناظرين، والمصلى فى الحرم يستقبل البيت فى أى جهة كان ؛ فالحرم كدائرة نقطة مركزها البيت، كما أن المصلين خارجاً عن الحرم وفى كل البلاد يستقبلونه بحسب الوضع، وقد تيسر لى رسم مسطح الحرم بالبيان ، وأخذ رسم منظره من جملة جهات مع ما حوله من البيوت بواسطة آلة الفطوغرافيا (الكاميرا)..."

وها هو ذا حسين باسلامة (مؤرخ الحرم المكى الشريف فى العصر الحديث) يصف هذه العمارة ثم يقول "وهى التى عليها المسجد الحرام إلى هذا العصر الحاضر (أى حتى تاريخ صدور كتابه 354هـ/1935م)..".

ونضيف على ما تقدم فنقول : إن زيادة كل من دار الندوة بالجانب الشمالى، وزيادة باب إبراهيم بالجانب الغربى، رغم أنه لم يترتب على استحداثهما أى تغيير فى جوهر التخطيط الداخلى لعمارة الحرم المكى الشريف - كما سبق القول - فإنهما قد أضفيا على الحرم المكى الشريف طابعاً متميزاً وشخصية متفردة ، وهو ما تؤكده تلك المساقط والرسوم والصور المتعددة للحرم المكى الشريف قبل التوسعة السعودية الكبرى.

التخطيط المعمارى للحرم النبوى الشريف:

يمكن القول بأن عمارة الخليفة العباسى المهدى للحرم النبوى الشريف فيما بين عامى 162-165هـ/ 779-782م تمثل أهم وأكبر زيادة وتوسعة للحرم النبوى الشريف فى العصر العباسى عموماً والعصر العباسى الأول خصوصاً وقد تركزت بصفة رئيسة فى الجهة الشمالية (مؤخر المسجد أو المسقف الشامى أو سقائف النساء) وهو الأمر الذى اقتضى هدم عمارة الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك من تلك الجهة، وإضافة مساحة جديدة لمسطح الحرم جهة الشمال، وبمقتضاها صار طول الحرم من القبلة إلى الشام (أى من الجنوب إلى الشمال) نحو مائتين وستين ذراعاً، وقد ترتب على هذه الزيادة امتداد طول الصحن جهة الشمال بمقدار خمس أساطين؛ وبالتالى صار كل ضلع من ضلعى الصحن الجانبيين يشتمل على 18 عموداً بدلاً من 13 عموداً و19 عقداً بدلاً من 14 عقداً فى عمارة الخليفة الوليد، وهذا يعنى من جهة أخرى زيادة عدد الأساطين بأروقة كل من المجنبتين : الغربية والشرقية ، فصار كل رواق منها يشتمل على 18 عموداً بدلاً من 13 عموداً فى عمارة الخليفة الوليد ، وليس أدل على هذه الزيادة فى المجنبتين من تلك الأبواب التى فتحت بالجدارين الشرقى والغربى من جهة الشمال ، كما سبق القول.

أما الأساطين الخمس الأخرى التى زادها المهدى فكانت فى مؤخر المسجد المستجد (أى سقائف النساء أو المسقف الشامى) وبمقتضاها صار هذا المؤخر يشتمل على خمسة أروقة (بلاطات).

وهكذا لم تغير عمارة المهدى من جوهر الطراز المعمارى للحرم النبوى الشريف، فقد ظل كما هو عقب عمارة الوليد عبارة عن صحن أوسط مكشوف ومقدم (جهة القبلة) ومؤخر (جهة الشام ، أى الشمال) ومجنبتين إحداهما غربية والأخرى شرقية.

وقد بقى المقدم كما كان عقب عمارة الوليد ، من حيث اشتماله على خمسة أروقة (بلاطات) يقطعها رواق عمودى يتجه من

الصحن إلى حافة الرواق الأول مما يلى المحراب ولا يشقه (أى لا يخترقه)، فضلاً عن المحراب المجوف والمنبر كل فى موضعه ، وعدد الأساطين (17 بكل رواق) والبائكة الأولى تطل على الصحن من خلال أحد عشر عقداً، والقبر الشريف والحظار الدائر حوله كما هو، والمقصورة هدمت وأعيدت فى نفس موضعها، ولكن تم خفضها إلى مستوى أرضية المسجد ، كما سبق القول.

والمؤخر يشتمل على خمس بائكات تحصر فيما بينها خمسة أروقة (بلاطات) وتتكون كل بائكة من 17 عموداً، وتطل البائكة الأولى على الصحن من خلال أحد عشر عقداً وهى تماثل فى ذلك بائكة المقدم المقابلة لها.

والمجنبة اليمنى (الغربية) مع أنها ظلت تشتمل على أربع بائكات فيما بينها أربعة أروقة (بلاطات) إلا أن كل بائكة منها أصبحت تتكون من 18 عموداً ، أى زاد طولها جهة الشمال بمقدار خمسة أعمدة عما كانت عليه فى عمارة الوليد ، ومن ثم صارت البائكة الأولى تطل على الصحن من خلال 19 عقداً عموديا على جدار القبلة.

أما المجنبة اليسرى (الشرقية) فمع أنها ظلت تشتمل على ثلاث بائكات فيما بينها ثلاثة أروقة (بلاطات) إلا أن كل بائكة منها أصبحت تتكون من 18 عموداً ، أى زاد طولها جهة الشمال بمقدار خمسة أعمدة عما كانت عليه فى عمارة الوليد، ومن ثم صارت البائكة الأولى تطل على الصحن من خلال 19 عقداً عمودياً على جدار القبلة .

وليس أدل على أهمية عمارة – وتوسعة المهدى للحرم النبوى الشريف – من الإشارة إلى تلك المحاولات العديدة التى بذلت من قبل العلماء والباحثين لوضع تصور أو مشروع لتخطيط الحرم عقب تلك العمارة المهمة التى أصبحت أثراً بعد عين.

مع ما بذله هؤلاء وأولئك من جهد محمود فإن هذه المحاولات أو المشروعات لا تخلو من مآخذ وأخطاء تتراوح بين القلة والكثرة من مشروع لآخر.

ومن أقدم المحاولات لتصور تخطيط الحرم النبوى الشريف تلك المحاولة التى قام بها أحمد فكرى عام 1961م.

ومنها محاولة صالح لمعى مصطفى، ومحاولة محمد هزاع الشهرى.

ولذلك حرصت على أن أقوم بعمل تصور أو مشروع جديد لتحاشى مثل هذه المآخذ وتلك الأخطاء، وقد اعتمدت فى هذا المشروع على القراءة المتأنية والتمحيص والتحليل الدقيق للروايات والنصوص التاريخية فى كتب المؤرخين

والرحالة ، ومقارنتها بمشاهدات ابن عبد ربه القرطبى للحرم النبوى الشريف التى رجَّحنا أنها كانت قبل عام 300هـ/912م فى دراسة سابقة.

فى ضوء تلك الدراسة وما انتهت إليه من نتائج تم وضع المشروع الجديد الذى أقدمه فى هذا البحث لعمارة الحرم النبوى الشريف عقب زيادة وتوسعة المهدى (162-165هـ/779-782م) وتظهر فيه جميع عناصر ومفردات التخطيط من البائكات والأروقة والرواق العمودى الذى لا يشق الرواق الأول مما يلى جدار القبلة على حد قول ابن عبد ربه والمحراب والمنبر والأبواب والمنارات الثلاث والموضع الصحيح للقبر الشريف والحظار المزّور الدائر حوله ذو الأركان الستة على حد قول ابن عبد ربه أيضاً ، أما أبواب جدار القبلة (التى كانت أربعة أبواب خاصة وليست عامة ، كما سنشير فيما بعد) فقد اقتصرنا فقط على رسم البابين اللذين أشار إليهما ابن عبد ربه القرطبى فى مشاهداته وهما : باب الإمام عن يمين الواقف تجاه المحراب ، والباب الذى عن يساره ، والذى رجحنا أنه هو الشباك الحديد الذى يحدد موضع خوخة آل عمر (ﷺ) من أعلى ، ومن ثم فقد وقعناه شباكاً فى مشروعنا.

هذا ويرجع الفضل إلى عمارة المهدى فى أنه استقرت بمقتضاها حدود الجوانب الأربعة للحرم النبوى الشريف لعدة قرون ، ولم يمسها سوى تغيير طفيف اقتضته عمارة السلطان قايتباى 886-889هـ/1481-1484م فى العصر المملوكى ثم العمارة المجيدية للحرم النبوى الشريف فى العصر العثمانى وذلك فيما بين عامى 1266-1277هـ/ 1849-1860م.

كذلك فقد ظل الحرم النبوى الشريف محتفظاً بحالته ونظامه وجوهر عمارته التى انتهى إليها عقب عمارة المهدى العباسى حتى أواخر القرن 4هـ/10م، وهو ما تؤكده مشاهدات ابن عبد ربه القرطبى ووصفه للحرم النبوى الشريف (قبل 300هـ/912م)، ووصف المقدسى له (375هـ/985م).

وفيما بين أواخر ق 4هـ/10م والربع الأول من القرن 6 هـ/12م حدث تغيير جوهرى فى مقدم المسجد يتمثل فى إلغاء الرواق العمودى (أى موسطة البلاطات على حد قول ابن عبد ربه) الذى يقطع صفوف الأروقة الموازية لجدار القبلة؛ وسقف المنطقة التى تتقدم المحراب، فضلاً عن تغيير صفة القبر الشريف والحظار الدائر حوله إلى الشكل الخماسى ، وقد شاهده الرحالة الفارسى ناصر خسرو عام 439هـ/1047م، بعد أن كان ذا ستة أركان

على حد وصف ابن عبد ربه (قبل عام 300هـ/912م) أيضاً.

وفيما عدا هذين التغييرين فإن الحرم النبوى الشريف ظل محتفظاً بحالته وتخطيطه وجوهر عمارته حتى أواخر العصر العباسى وهو ما تؤكده المشاهدات والأوصاف الواردة فى كتاب الاستبصار عام 528هـ/ 1184م ورحلة ابن جبير عام 580هـ /1184م؛ فضلاً عن المصادر المتعلقة بالتاريخ الحلى للمدينة المنورة كابن النجار والمطرى والمراغى والسمهودى وغيرهم.

المفردات والعناصر المعمارية بالحرمين الشريفين عقب العمارة العباسية 132هـ/750م إلى 447هـ/1055م

المفردات والعناصر المعماريةبالحرم المكى الشريف:

ازدانت عمارة الحرم المكى الشريف خلال العصر العباسى من عام 132هـ/750م إلى عام 447هـ/ 1055م بالعديد من العناصر المعمارية والمفردات التى بنتفع بها كالأساطين (الأعمدة) والطاقات (العقود) والأروقة والأبواب والمنارات (المآذن) والمقاصير والمنابر والقباب والسقايات وغير ذلك ، وهو ما سوف نتطرق إليه فيما يلى:

الأروقة ومفرداتها:

سبق القول أن الحرم المكى الشريف قد أصبح عقب عمارة الخليفة المهدى له يشتمل على ثلاثة أروقة (بلاطات) بكل جانب من جوانبه الأربعة، وقد عبر عنها كل من الأزرقى والفاكهى بمصطلح الصفوف حيث قالا : "ثم هدم المهدى فى أعلى المسجد ثلاثة صفوف ... وجعل بين يدى الطاق الذى كان بناه أبو جعفر مما يلى دار الندوة ودار العجلة وأسفل المسجد ... صفين حتى صارت ثلاثة صفوف وهى الطيقان التى فى المسجد اليوم لم تغير".

أما الحربى فقد ذكر مصطلح الرواق صراحة ، وهو يتحدث عن أبواب الحرم ، ويحدد مواضعها فى كل جانب من جوانبه الأربعة ، ومن ذلك قوله : "الرواق الأيمن... الرواق الأيسر للداخل من باب بنى شيبة... الرواق الذى فى ظهر الكعبة... الرواق الذى يلى الركن اليمانى والحجر الأسود".

والأروقة (البلاطات) هى المساحة المحصورة بين عدة بائكات أو بين بائكتين أو بين بائكة وجدار، ولذلك كان لابد من توافر أعداد كبيرة من الأساطين (الأعمدة)، وتم بالفعل نقل أساطين الرخام من الشام أو من مصر إلى جُدة ومنها إلى المسجد الحرام ، وعُمِلَ لها أساسُ متين وفى ذلك يذكر الأزرقى والفاكهى: "ولما وضع

الأساطين حفر لها أرباضاً ، على كل صف من الأساطين جدر مستقيم ثم رد بين الأساطين جدرات أيضاً بالعرض حتى صارت كالصليب (وردت عند الفاكهى كالمصلبة) على ما أصف فى كتابى هذا، فلما أن قرر الأرباض على قرار الأرض حتى أنبط الماء بناها بالنورة والرماد والجص (لم ترد هذه العبارة عند الفاكهى) حتى إذا استوى بالأرباض على وجه الأرض (وردت عند الفاكهى حتى إذا إستوى البناء على وجه الأرض (وردت عند الفاكهى حتى إذا استوى البناء على وجه الأرض) وضع فوقها الأساطين على ما هى عليه اليوم".

وعن عدد هذه الأساطين يذكر الأزرقى والفاكهى: "وعدد أساطين المسجد الحرام من شقه الشرقى مائة وثلاث أسطوانات ، ومن شقه الغربى مائة أسطوانة وخمس أسطوانات، ومن شقه الشامى مائة وخمس وثلاثون أسطوانة ومن شقة اليمانى مائة وإحدى وأربعون أسطوانة . فجميع ما فيه من الأساطين أربعمائة أسطوانة وأربع وثمانون اسطوانة ، طول كل أسطوانة عشرة أذرع وتدويرها ثلاثة أذرع وبعضها يزيد على بعض فى الطول والغلظ، ومنها على الأبواب عشرون أسطوانة ، وعلى الأبواب التى تلى المسعى منها ست (وردت عند الفاكهى على الأول : والذى يلى المسعى منها ست).

ومنها على الأبواب التى تلى الوادى والصفا عشر ، ومنها على الأبواب التى تلى باب بنى جمح أربع، وذرع ما بين كل أسطوانتين من أساطينه ستة أذرع وثلاث عشرة أصبعاً".

أما الحربى فقد ذكر أن عدد أساطين المسجد الحرام بما فى ذلك الأساطين التى على أبواب المسجد يبلغ **484** أسطوانة ، وذرع ما بين كل أسطوانتين من الأساطين تسع أذرع.

ولا تفوتنا الإشارة هنا إلى أن الأساطين التى استخدمت فى مرحلة إتمام بناء عمارة المهدى فى عهد ابنه وخليفته الخليفة الهادى كانت من الحجارة ثم طليت بالجص، ومن هذه الأساطين الحجرية **18** أسطوانة فيما بين باب أجياد الكبير وباب أم هانئ بالجانب اليمانى (الجنوبى) و**26** أسطوانة فيما بين باب الحزامية (باب البقالين ثم باب إبراهيم فيما بعد) وباب بنى جمح بالجانب الغربى، وبذلك يصل عدد الأساطين الحجارة التى طليت بالجص فى خلافة موسى الهادى إلى نحو **44** أسطوانة ، كما سبق القول.

أما الطاقات (أى العقود) التى تعلو الأساطين فقد اتفق الأزرقى والفاكهى على العدد الإجمالى لها وهو **498** طاقاً، أما من حيث توزيعها على بائكات الأروقة الثلاثة بكل جانب من جوانب الحرم الأربعة، فقد نقص العدد عند

الفاكهى 70 طاقاً فأصبح 428 بدلاً من 498 وهو ما يشير إلى حدوث خطأ من الناسخ.

ومن هذه الطاقات 145 فى الظلال التى تلى الوادى و 142 فى الظلال التى تلى دار الندوة، و112 فى الظلال التى تلى شق بنى جمح (وردت لدى الفاكهى 92)، و99 فى الظلال التى تلى المسعى (وردت لدى الفاكهى49).

أما عقود النوافذ (الطيقان) فقد اتفق الأزرقى والفاكهى على عددها وتوزيعها فقالا: "ومنها فى الطيقان التى تلى بطن المسجد الحرام مائة واحدى وخمسون من ذلك مما يلى دار الندوة ست وأربعون ، ومنها مما يلى باب بنى جمح تسع وعشرون ، ومنها مما يلى الوادى خمس وأربعون ، ومنها مما يلى المسعى إحدى وثلاثون".

أما عن الاختلاف فى عدد الأساطين والعقود عند البلدانيين والرحالة والمؤرخين اللاحقين، فهو من الموضوعات التى تحتاج إلى أن تفرد لها دراسة مستقلة.

أما زيادة دار الندوة فتحتوى على 66 أسطوانة و68 طاقا وزيادة باب إبراهيم تحتوى على 27 أسطوانة و36 طاقا على حد قول الفاسى وابن الضياء المكى.

- **الأبواب**: أصبح الحرم المكى الشريف يحتوى عقب عمارة الخليفة العباسى المهدى على ثلاثة وعشرين بابا ، منها خمسة فى الجدار الشرقى ، وستة فى الجدار الغربى ، وسبعة فى الجدار الجنوبى، وخمسة فى الجدار الشمالى.

وفى ذلك يذكر الأزرقى والفاكهى : "وفى المسجد الحرام من الأبواب ثلاثة وعشرون بابا ، فيها ثلاث وأربعون طاقاً (وردت عند الفاكهى أربعون طاقاً)...".

أما الحربى فقد اكتفى بقوله : "للمسجد الحرام ثلاثة وعشرون بابا" وفى موضع آخر يذكر : "وعدد أبواب المسجد الحرام بباب الإمارة ثلاثة وعشرون باباً".

وقد وصف ابن عبد ربه القرطبى هذه الأبواب قبل عام 300هـ/912م بقوله : "وأبوابه على عمد رخام ما بين الأربعة إلى الثلاثة إلى الاثنين ، وهى ثلاثة وعشرون باباً لا غلق ، عليها يصعد عليها فى عدةٍ من درج".

ومن هذه الأبواب ما كان عبارة عن طاق واحد مثل باب دار القوارير وباب النبى (ﷺ) بالشق الشرقى الذى يلى المسعى وباب أبى البخترى وباب دار زبيدة وباب بنى سهم فى الشق الذى يلى باب بنى جمح (الشق الغربى) وباب دار عمرو بن العاص وباب قعيقعان وباب دار شيبة بن عثمان فى الشق الشامى الذى يلى دار الندوة.

ومنها ما كان عبارة عن أسطوانتين تعلوهما ثلاث طاقات ، مثل باب بنى شيبة وباب

العباس بن عبدالمطلب وباب سوق الليل بالشق الشرقى الذى يلى المسعى.

وباب الخياطين فى الشق الغربى الذى يلى باب بنى جمح ، ومنها ما كان عبارة عن أسطوانة واحدة يعلوها طاقان ، مثل باب بنى عائذ وباب أبي سفيان بن عبد الأسد وباب بنى مخزوم وباب من أبواب بنى مخزوم وباب بنى تيم بن مرة وباب أم هانئ ابنة أبي طالب بالشق اليمانى الذى يلى الوادى.

ومنها ما كان عبارة عن أربع أساطين يعلوها خمس طاقات ، وقد انفرد بذلك باب الصفا (وهو الباب الثالث من أبواب الشق اليمانى الذى يلى الوادى)، وذلك نظراً لأهميته فى أداء المناسك ؛ حيث يخرج منه إلى المسعى بين الصفا والمروة اتباعا لسنة رسول الله (ﷺ)،ومن هنا صار أكثر أبواب الحرم إتساعاً حيث يبلغ إتساعه 17.28م

المنارات: أصبح الحرم المكى الشريف يحتوى عقب عمارة الخليفة العباسى المهدى على أربع منارات (مآذن) بواقع منارة فى كل ركن من أركانه الأربعة، وكان يرتقى إليها بدرج، وعلى كل منارة باب يغلق عليها شارع فى المسجد الحرام، وعلى رؤوس تلك المنارات شراف، ومن هذه المنارات ثلاث ترجع إلى عمارة المهدى ، وواحدة ترجع إلى عمارة والدة الخليفة أبي جعفر، وهى المنارة التى كانت تلى باب بنى سهم وتشغل الركن الغربى فى الجانب الشمالى للحرم.

ومن العناصر والمفردات التى ينتفع بها وترجع إلى العمارة العباسية أيضاً سقاية العباس بن عبد المطلب التى كانت تقع فى المسافة بين بئر زمزم – من جهة الشرق– والكعبة، فضلاً عن زمزم وحجرتها وحوضها.

ومنها ظلة المؤذنين التى استحدثت فى عهد الخليفة الرشيد ، فضلاً عن المنبر العظيم المنقوش ذى الدرجات التسع الذى أهداه للرشيد موسى بن عيسى أمير مصر ، فوضع فى الحرم ، ثم منبر ثان للخليفة الواثق بالله وضع فى الحرم أيضاً.

المفردات والعناصر المعمارية بالحرم النبوى الشريف:

سبق القول أن عمارة الخليفة العباسى المهدى لم تغير من جوهر الطراز المعمارى للحرم النبوى الشريف، فقد ظل كما هو عقب عمارة الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك، عبارة عن صحن أوسط مكشوف ومقدم (جهة القبلة) ومؤخر (جهة الشمال) ومجنبتان إحداهما غربية والأخرى شرقية.

وقد بقى المقدم كما كان عقب عمارة الوليد محتفظاً بالأروقة الخمسة التى يقطعها الرواق العمودى الذى كان يتجه من الصحن إلى

حافة الرواق الأول مما يلى المحراب ولا يشقه (أى لا يخترقه)، والمؤخر يشتمل هو الآخر على خمسة أروقة والمجنبة اليمنى (الغربية) تشتمل على أربعة أروقة ، والمجنبة اليسرى (الشرقية) تشتمل على ثلاثة أروقة.

وقد عبر المغاربة والأندلسيين عن أروقة الحرم النبوى الشريف بالبلاطات وهى المصطلح السائد والمتداول فى أقطار الغرب الإسلامى، وهو ما يستدل من كتابات المؤرخين ومشاهدات البلدانيين والرحالة، فضلاً عن بعض النقوش الآثارية التى لا تزال باقية فى عمائر الغرب الإسلامى.

ولم تغب هذه الحقيقة على السمهودى مؤرخ المدينة فها هو ذا يعلق على وصف ابن عبد ربه وابن جبير ، للمسجد النبوى بقوله: "... هذا ما ذكره ابن جبير إلا أنه عبر فى الجميع بالبلاطات، بدل الأروقة وكذا صنع ابن عبد ربه فى العقد...".

وفى موضع آخر يذكر"...وهو مراد ابن جبير فى رحلته بعد أن ذكر أن فى الجهة القبلية (المقدم) من المسجد خمس بلاطات ، يعنى أروقة...".

أما عن عدد الأساطين (الأعمدة) بالحرم النبوى الشريف فقد كانت على النحو التالى:

المقدم : $5 \times 17 = 85$

المؤخر : $5 \times 17 = 85$

المجنبة اليمنى (الغربية) : $4 \times 18 = 72$

المجنبة اليسرى (الشرقية): $3 \times 18 = 54$

ويتفق هذا العدد مع ما ورد فى غالبية المصادر التاريخية، ويستثنى من ذلك الحربى، فذكر أنها 297 منها 3 بجدار القبر، وابن جبير ذكر أنها 290 على اعتبار أنه لم يدخل فى هذا العدد الأعمدة الستة بالحجرة الشريفة ، وعلى ذلك يصير العدد الكلى عنده 296 عموداً أيضاً.

وقد وصف ابن عبد ربه القرطبى هذه الأعمدة بقوله : "والعمد التى فى البلاطات القبلية (أى بمقدم المسجد) بيض مجصصة شاطة جداً (أى عالية مرتفعة) وسائر عمد المسجد (أى فى كل من المجنبتين والمؤخر) رخام والعمد المجصصة على قواعد عظيمة مربعة ورؤوسها (أى تيجانها) مذهبة عليها نجف (أى عوارض او جسور خشبية) منقشة مذهبة ثم السموات (أى السقف) على النجف ، وهى أيضاً منقشة مذهبة".

ويستدل من هذا الوصف على أن أعمدة المقدم كانت عالية مرتفعة ، وكانت ترتكز على قواعد عظيمة مربعة ، وتعلوها تيجان مذهبة ترتفع فوقها عوارض أو جسور خشبية (حلت محل العقود) تحمل السقف.

ويلقى ابن جبير مزيداً من الضوء على هذه الأعمدة فيذكر أنها "أعمدة متصلة بالسمك (أى السقف) دون قسى (أى عقود) تنعطف عليها ، فكأنها دعائم قوائم وهى من حجر منحوت قطعا قطعاً ململمة مثقبة توضع أنثى فى ذكر، ويفرغ بينهما الرصاص المذاب إلى أن تتصل عموداً قائماً وتكسى بغلالة جيار (الجص أو الكلس) ويبالغ فى صقلها ، ودلكها فتظهر كأنها رخام أبيض".

أما ما ذكره ابن عبد ربه من أن الأعمدة القبلية بيض مجصصة، فذلك راجع إلى كونها كانت مكَسوَّةَ بالقُصّة (أى الجص) أو غلالة جيار على حد قول ابن عبد ربه التى حملت إلى المسجد من بطن نخل (الحناكية الآن)؛ وعلى ذلك فإن أعمدة المقدم ترجع إلى عمارة الوليد.

أما بقية أعمدة المسجد فى كل من الجنبتين والمؤخر فكانت من الرخام ، على حد قول ابن عبد ربه.

وكانت ترتفع فوق تيجان الأعمدة عوارض أو جسور خشبية (حلت محل العقود)، وقد وضعت هذه العوارض أو الجسور فوق التيجان بطريقتين مختلفتين:

الأولى: وهى الأغلب وتتمثل فى أن هذه العوارض أو الجسور قد وضعت بشكل عرضى (أى موازٍ لجدار القبلة) وهذا هو ما تحقق فى جميع أروقة المقدم والمؤخر.

والثانية : وتتمثل فى أن هذه العوارض أو الجسور قد وضعت بشكل طولى (أى عمودى على جدار القبلة) وهذا لم يتحقق فى مقدم المسجد سوى فى الرواق الواقع تجاه المحراب والممتد من الصحن إلى أن ينتهى عند حافة الرواق الأول مما يلى المحراب ، حيث إنه كان لا يشقه (أى لا يخترقه) وقد وصف ابن عبد ربه هذا الرواق العمودى بمصطلح موسطة البلاطات.

كذلك تحقق هذا الاتجاه العمودى أيضاً فى البائكات الداخلية لكل من الجنبتين الغربية والشرقية.

وإذا كانت بائكات الأروقة الداخلية فى المسجد قد تميزت بهذه العوارض أو الجسور الخشبية ، سواء كانت موازية أو عمودية على النحو المشار إليه، فإن البائكات الأربع المطلة على الصحن قد انفردت بأنه ترتفع فوق رؤوس أساطينها (أى تيجان أعمدتها) العقود (الأقواس) وكانت بواقع أحد عشر عقداً موازياً لجدار القبلة بكل من بائكتى المقدم والمؤخر و تسعة عشر عقداً عمودياً على جدار القبلة بكل من بائكتى الجنبتين : الغربية والشرقية.

الأبواب: أصبح الحرم النبوى الشريف يحتوى عقب عمارة الخليفة العباسى المهدى على عشرين بابا ، منها فى المشرق ثمانية أبواب ، وفى المغرب مثلها ، وفى الشام أربعة أبواب".

أما ابن زبالة فقد ذكر أنها أربعة وعشرون باباً ، حيث أضاف أربعة أبواب بجدار القبلة بقوله : "ومما يلى القبلة باب يدخل منه الأمراء من ناحية باب مروان إلى المقصورة ، وعن يسار القبلة الباب الذى تدخل منه المقصورة من موضع الجنائز، وعن يمين القبلة باب بحذائه سواء فى الطرف الآخر – أى فى مقابلته– يدعى باب بيت زيت القناديل ، ذكروا أن مروان عمله، وخوخة آل عمر تحت المقصورة".

ويعلق السمهودى على ذلك فيقول: "فغيره (أى غير ابن زبالة من المؤرخين) لم يعد الباب الذى كان فى القبلة شارعاً فى دار مروان ، لأنه باب داره ، وكذا خوخة آل عمر ، لأنها للدار لا للمسجد، وكذا باب زيت القناديل ، لأنه باب خزانة للمسجد لا يدخل منه عامة الناس، وقد كان موضعه عند زاوية الجدار الغربية مما يلى القبلة وجدوه عند عمارة المنارة التى بباب السلام وسد بجدارها، وأما الباب الذى ذكره عن يسار القبلة فيؤخذ من كلامه أنه كان فى المشرق مقابلا لباب زيت القناديل، وأنه خاص بالمقصورة ولو كان بابا عاما ، لعده من الأبواب التى فى جهة المشرق، وقد ظهر هذا الباب عند هدم المنارة بعد الحريق الذى أدركناه وهو باب صغير وجد مسدوداً عند زاوية جدار المسجد الشرقية ، وكأن الدخول كان منه إلى الخزانة التى تحت المنارة الشرقية اليمانية ، ثم منها إلى المقصورة، ولهذا لَّما بَسَطَ ابن زبالة الكلام على أبواب المسجد فى موضع آخر لم يذكر هذه الأبواب الأربعة ، بل اقتصر على العشرين".

وقد ذكر ابن عبد ربه القرطبي قبل 300هـ/912م أن أبواب المسجد "ثمانية عشر باباً عتبها مذهبة ، وهى أبواب عظيمة لا غلق عليها ، أربعة منها فى الجوف (جدار المؤخر) ، وسبعة فى الشرق وسبعة فى الغرب".

وهذا يعنى أنه قد سد من أبواب الجدارين : الشرقى والغربى بابين بواقع باب بكل جانب قبل زيارة ابن عبد ربه، فأصبح كل جدار منهما يحتوى على سبعة أبواب بدلاً من ثمانية، إلا أن ابن عبد ربه قد أشار فى موضع آخر إلى أنه يوجد على جانبى المحراب بابان : أحدهما عن يمين المحراب ، وهو الباب الذى يدخل منه الإمام ويخرج ، والآخر يسار المحراب ، وقد سد بعوارض من حديد،

ومن المرجّح أن يكون المقصود بهذا الباب هو الشباك الحديد الذى يحدد موضع خوخة آل عمر (ﷺ) من أعلى.

ولما كان جدار القبلة يحتوى على أربعة أبواب خاصة – كما سبق القول – فإن إشارة ابن عبد ربه إلى بابين فقط ، تدل على أنه قد سد البابين الآخرين قبل زيارته، وفى ضوء ذلك يمكن القول : إن أبواب الحرم النبوى الشريف – طبقاً لمشاهدات ابن عبدربه القرطبى قبل 300هـ/912م – كانت تبلغ عشرين باباً منها 7 فى المشرق ، ومثلها فى المغرب و4 فى الشام، و2 فى جدار القبلة ، أحدهما مسدود وهو الباب الواقع على يسار المحراب ، كما سبق القول ، وقد اقتصرنا فى مشروعنا على توقيع هذين البابين فحسب ، وبذلك يصل عدد الأبواب إلى اثنين وعشرين باباً .

أما ابن جبير فقد ذكر : " وللمسجد المبارك تسعة عشر باباً ، لم يبق منها مفتحاً سوى أربعة فى الغرب : منها اثنان ، يعرف أحدهما بباب الرحمة والثانى بباب الخشية ، وفى الشرق إثنان، يعرف أحدهما بباب جبريل عليه السلام والثانى بباب الرجاء... وفى القبلة باب صغير واحد مغلق وفى الجوف (المؤخر) أربعة مغلقة ، وفى الغرب خمس فى الشرق خمسة أيضاً مغلقة ، فكملت بالأربعة المفتوحة تسعة عشر باباً".

المنارات (المآذن):

أصبح الحرم النبوى الشريف يحتوى عقب عمارة الخليفة العباسى المهدى على ثلاث منارات ، اثنتان فى الجوف (مؤخر المسجد) بواقع منارة بكل ركن ، وقد شبهها ابن جبير بالبرجين، أما المنارة الثالثة فهى المنارة الأموية ، وتقع فى الركن الشرقى المتصل بالقبلة ، وقد شبهها ابن جبير بالصومعة ، كما سبق القول.

ويذكر ابن زبالة والحربى أن طول المنارة الشرقية اليمانية 55 ذراعاً ، ومثلها المنارة الشرقية الشامية، أما المنارة الشامية الغربية فطولها 53 ذراعاً ، ويبلغ عرض هذه المنارات الثلاث ثمانى أذرع فى مثلها، إلا أن ابن زبالة قد أشار فى موضع آخر إلى أن طول كل منارة من المنارات يبلغ 60 ذراعاً.

نقوش الحرمين الشريفين عقب العمارة العباسية
132-447هـ/ 750-1055م

أَضْفَتْ العمارة العباسية على الحرمين الشريفين حُلَّةً من الرَّوْنق والبهاء والتألق والإبداع بفضل تلك النقوش الزخرفية والكتابية التى نفذت على مختلف المواد الحجرية والرخامية والجصية والخشبية ، سواء فى عهود الخلفاء الذين أمروا بعمارة الحرمين الشريفين والزيادة والتوسعة فيهما، أو الخلفاء الذين اقتصرت جهودهم وإسهاماتهم على إجراء عمليات الإصلاح والترميم والتجديد والتحلية والتكسيات المختلفة.

نقوش الحرم المكى الشريف

ازدانت جدران وأبواب وأساطين وعقود وأسقف المسجد الحرام؛ فضلاً عن الكعبة والحجر والمقام، وسقاية العباس وزمزم بالعديد من النقوش الزخرفية والكتابية، سواء فى مرحلة الزيادة والتوسعة، أو فى مرحلة عمليات الإصلاح والترميم والتجديد والتحلية، وهو ما سنعرض له فيما يلى:

النقوش الزخرفية:

بدأت عناية الخلفاء العباسيين بكسوة الحرم المكى الشريف وزخرفته وتزيينه، منذ عهد الخليفة أبي جعفر خلال عمارته وزيادته فى المسجد الحرام فيما بين عامى 137-140هـ/755-758م ويتجلى ذلك فى تأزير المسجد، كما يدور من بطنه بالرخام، كما جعل فى وجه الأساطين الرخامية الفسيفساء، فضلاً عن كسوة جدار الحجر (حجر إسماعيل) بالرخام.

وفى عمارة المهدى بمرحلتيها: الأولى (161-164هـ/778-781م) والثانية (167-169هـ/ 784-786م) بلغت أعمال التكسية والزخرفة الغاية فى الدقة والإتقان والإحكام والبهاء والتنوع، ويتجلى ذلك فى العديد من مفردات هذه العمارة وعناصرها المختلفة، ومنها الأساطين الرخامية ورؤوسها المذهبة، وفوق تيجانها كانت توجد ملابن ساج منقوشة بالزخرف والذهب، كذلك لبست الجدران بالرخام الأبيض والأحمر والأخضر والأصفر واللازورد والرخام المموه المنقوش بالذهب، ولم يقف الأمر عند ذلك فحسب، بل لبست جوانب الأبواب أيضاً بالرخام، كما نقشت وجوه طاقات (عقود) الأبواب بالفسيفساء، وكان يعلو بعض الأبواب رواشن ساج منقوشة مزخرفة بالذهب والزخرف.

كذلك كانت جدران المسجد التى تلى بطن المسجد ملبسة فسيفساء وكلها مشجرة بالفسيفساء، منها ألوان من الأشجار على حد قول الفاكهى.

وكانت توجد أعلى الجدران من الخارج روازن منقوشة بالجص ووجوهها منقوشة بالجص كذلك، كما توجت الجدران بالشرافات (272 شرافة ونصف)، وكانت وجوه الشرافات منقوشة بالجص.

وتم تبليط بطن الحجر (حجر اسماعيل) بالرخام المتنوع الألوان ما بين الأبيض والأخضر والأحمر من جهة والأشكال ما بين مزوى وشوابير صغاراً ومداخلا بعضه فى بعض من جهة ثانية.

أما سقف المسجد الحرام فكان السقف الأسفل من الساج والسيلج الجيد، وقد زخرف بالنقوش الزخرفية المذهبة التى كانت تتخللها

النقوش الكتابية ، كما سنشير فيما بعد، أما السقف الذى يلى مؤخره والذى عمل فى عهد الخليفة موسى الهادى (169-170هـ/785-786م) فقد كان عملاً دون عمل المهدى فى الإحكام والحسن.

وإذا كان من الصعوبة بمكان أن نحدد أنواع العناصر الزخرفية لنقوش المهدى بتفاصيلها وطرازها الفنى نظراً لاندثارها، إلا أننا نستطيع أن نلقى بعض الضوء على تلك العناصر وطرازها الفنى اعتماداً على بعض الأدلة الآثارية الباقية التى ترجع إلى عمارة المهدى ، وبصفة خاصة المرحلة الثانية (167-169هـ/784-786م)، وتتمثل هذه الأدلة فى بعض الأساطين ذات النقوش الزخرفية والكتابية المؤرخة عام 167هـ/784م، غير أن ما يعنينا منها فى هذا الصدد هو النقوش الزخرفية (أما النقوش الكتابية فسوف نشير إليها فيما بعد).

وقد نفذت هذه النقوش الزخرفية بالحفر البارز ، وذلك فى أعلى النقش الكتابى وفى أسفله وخلفه (أى الجانب الآخر للأسطون وهو الجانب الذى يخلو من أية نقوش كتابية) وقوام هذه النقوش زخارف هندسية متشابكة ومستطيلات ودوائر أو جامات تحصر فيما بينها أو فى داخلها مراوح نخيلية وأوراق ثلاثية وخماسية وذات ثمانية أطراف وورقة الأكانتس ووريدات وعناصر مجدولة وأوراق العنب وعناقيده.

ولما كانت هذه العناصر الزخرفية هى نفس العناصر التى نراها فى عمائر وفنون العصرين : الأموى والعباسى المبكر – أى قبل نشأة طراز سَامُرَّا الثالث الذى يمثل بحق مولد الفن الإسلامى الخالص– ولذلك يمكن القول بأن العناصر الزخرفية بنقوش المهدى المندرسة كانت لا تخرج عن مثيلتها فى نقوش الأساطين الباقية ، وأنها كانت تعكس خصائص الطراز الفنى الذى يميز الفن الإسلامى فى ذلك الوقت.

وكان الخليفة محمد الأمين هو أول من عُنِىَ بباب الكعبة فأمر فى عام 194هـ/810م) بأن تضرب الصفائح الذهبية على بابى الكعبة والمسامير وحلقتا الباب وعلى الفياريز والعَتَب.

أما الخليفة المتوكل على الله (232-247هـ/846-861م) فقد أمر بعمل الكثير من التكسيات والحليات الزخرفية الرخامية والذهبية والفضية فى أرضية الكعبة وجدرانها وباب الدرجة التى تقع على يمين الداخل إليها، فضلاً عن الحجر والمقام وأعمال الرخام على بعض جدران المسجد بجوار باب الصفا، وكان يأمر بإرسال الصناع وشيخهم ، ومعهم الألواح الرخامية والذهب والفضة والآلات اللازمة لشق الرخام ولعمل الذهب والفضة.

وفى عمارة الخليفة المعتمد على الله (256-279هـ/870-892م) عام 256هـ/870م تم عمل زمزم وبيت الشراب بالفسيفساء ، وزوق منه ما يصلح عليه التزويق؛ وكذلك القبة التى يقال : إنها مجلس ابن عباس (ﷺ)، فقد قام بشر الخادم – وهو متولى العمارة آنذاك، بشد هذه القبة وضببها بضباب الساج ، وخالف بعضها على بعض وهى الطريقة التى كانت تعرف فى ذلك الوقت بالمضلع، فلما أوثقها بالمسامير طلاها بالنَّوْرَة ثم نقشها بالفسيفساء.

وفى عام 271هـ/884م تم تجديد سقف المسجد مما يلى باب بنى سهم (الشق الغربى) بخشب الساج وزوقوه بالتزاويق.

كذلك كان سقف زيادة دار الندوة بالجانب الشمالى للحرم (281-284هـ/894-897م) من خشب الساج المذهب المزخرف.

وقد لفتت هذه النقوش الزخرفية المتنوعة أنظار البلدانيين والرحالة ، فلم يغفلوا الإشارة إليها ضمن مشاهداتهم للحرم المكى الشريف، فها هو ذا ابن عبد ربه يشير إليها (قبل عام 300هـ/912م) فيذكر أن سماوات المسجد (أى أسقفه) مذهبة، وأنه يعلو ثلاثمائة وعشرون عموداً من أعمدة الحرم البالغ عددها أربعمائة وأربعة وثلاثون عموداً رؤوساً (أى تيجاناً) مذهبة، والحجر ملبس بالرخام من داخله وخارجه وأعلاه وقاع الحجر كله مفروش بالرخام، والميزاب مُلَبَّسُ ظاهره وباطنه بصفائح الذهب والصفائح مُسَمَّرَةٌ بمسامير مروّسة من ذهب.

والمقدسى (الذى كتب كتابه عام 375هـ/985م) يصف زخرفة المسجد الحرام بقوله : "قد البست حيطان الأروقة من الظاهر بالفسيفساء ، حمل إليها صناع الشام ومصر ، ألا ترى أسماءهم عليه".

أما ابن جبير فقد وصف عام 580هـ/1184م الشرافات بقوله: "وفى أعلى بلاطات الحرم سطح يطيف بها كلها من الجوانب الأربعة ، وهو مشرف كله بشرافات مبسوطة مركنة فى كل جانب من الشرفة ثلاثة أركان ، كأنها أيضاً شرافات أُخَرُ صغار، والركن الأسفل منها متصل بالركن الذى يليه من الشرفة الأخرى، وتحت كل صلة منها ثقب مستدير فى دور الشبر منفوذ يخترقه ، يضرب فيه شعاع الشمس أو القمر ، فيلوح كأنها أقمار مستديرة، يتصل ذلك بالجوانب الأربعة كلها كأن الشرفات المذكورة بنيت شقة واحدة ، ثم أحدثت فيها هذه التقاطيع والتراكين ، فجاءت عجيبة المنظر والشكل، وفى النصف من كل

جانب من الجوانب الأربعة المذكورة شقة من الجص معترضة بين الشرافات مخرمة فرجية ، طولها زهاء الثلاثين شبراً تقديراً ، تقابل كل شقة منها صفحاً من صفحات الكعبة المقدسة ، قد علت على الشرفات كالتاج".

النقوش الكتابية:

من المعروف أن النقوش الكتابية الإسلامية تعد من المصادر الآثارية المهمة التى يصعب الطعن فى قيمتها أو التشكك فى أصالتها ، فمن جهة يمكن الاستفادة منها فى دراسة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية من الجوانب السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية كافة ومن جهة ثانية يمكن من خلالها دراسة الخط العربى وأنواعه ومراحل تطور كل نوع منها عبر العصور التاريخية المتلاحقة.

وقد حفلت العمارة العباسية للحرم المكى الشريف بالعديد من النقوش الكتابية التى تؤرخ لما قام به خلفاء بنى العباس من عمارة الحرم وتوسعته والزيادة فيه ، أو ما قاموا به من أعمال الإصلاح والتجديد والترميم.

ومع اندثار غالبية هذه النقوش؛ يمكن الاستفادة من نصوصها التى حفظتها لنا المصادر التاريخية فى إلقاء أضواء جديدة على بعض الجوانب التاريخية فى هذه الفترة من جهة؛ كما أنه يمكن من خلال بعض ما بقى من هذه النقوش، حتى الآن أن نحدد نوع الخط السائد آنذاك وخصائصه الفنية.

ومن بين نقوش النوع الأول (أى التى يمكن الاستفادة منها فى دراسة بعض الجوانب التاريخية) التى حفظت لنا نصوصها المصادر التاريخية نقش الخليفة العباسى أبى جعفر الذى يؤرخ لعمارته وزيادته بالحرم فيما بين 137-140هـ/755-758م، وكان هذا النقش مكتوباً على باب بنى جمح بالفسيفساء الأسود فى فسيفساء مذهب بصيغة "بسم الله الرحمن الرحيم ، محمد رسول الله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين" إلى قوله : "غنى عن العالمين" أمر عبد الله (وزاد الفاكهى عبد الله) أمير المؤمنين أكرمه الله بتوسعة المسجد الحرام وعمارته والزيادة فيه نظراً (وزاد الفاكهى منه) للمسلمين واهتماماً بأمورهم ، وكان الذى زاد فيه الضعف مما كان عليه قبل، وامر ببنيانه وردت عند الفاكهى (فأمر ببنائه) وتوسعته فى الحرم سنة سبع وثلاثين ومائة، وفرغ منه ، ورفعت الأيدى عنه فى ذى الحجة سنة أربعين ومائة بتيسير أمر الله (وردت عند الفاكهى ، تيسيراً من الله تعالى) بأمر أمير المؤمنين ومعونة منه له عليه ، وكفاية منه له وكرامة أكرمه الله (زاد الفاكهى عز وجل) بها فأعظم الله

أجر أمير المــؤمنين فيمــا نــوى (وردت عنــد الفاكهى: فيما سوى) من توسعة المسجد الحرام وأحسن ثوابه عليه فجمع الله تعالى (وردت عند الفاكهى: وجمع) له به خير الدنيا والآخرة وأعز نصره (وردت عند الفاكهى (وأعز الله نــصره) وأيّده".

ومن الملاحظ فى هذا النقش أنــه قــد اقتصر على ذكر اسم الخليفة العباسى الثانى (وهو عبد الله) ولقب أمير المــؤمنين طبقــاً لقــراءة الأزرقى، أما الفاكهى فقد كرر فى "قراءته عبــد الله " مرتين قبل لقب أمير المؤمنين، والتكــرار فى هذه الحالة يشير إلى اسم الخليفة (وهو عبد الله) والى اللقب الأول من ألقاب الخلفاء (وهو عبــد الله)، ويدل ما ورد فى هذا النقش على أن الخليفة العباسى الثانى لم يكن حتى تاريخ هذا النقش قد تلقب بلقبه الذى عــرف بــه واشــتهر وهــو (المنصور) وعلى ذلك فإن هذا النقش يتطابق مع الأحداث التاريخية فى ذلك الوقت؛ ومن ثم يمكن القول بأن ما قام به البعض من إضــافة لقــب المنصور إلى النقش الأصلى لدى الأزرقى بقوله: أمر عبد الله أمير المؤمنين المنصور بتوسعة المسجد الحرام..." يعد خطأ تاريخياً كبيراً ؛ لأنه فى هــذه الحالة يحصر تاريخ هذا اللقب فيما بــين عــامى **137-140**هــ/757-754م وهو ما يتعارض مع الحقيقة التاريخية من أن الخليفة أبا جعفــر لم يتلقب بهذا اللقب (أى المنصور) إلا بعد أن تم له القضاء على أخطر ثورتين علويتين فى كل مــن الحجاز والبصرة ، وهما ثورة محمد بن عبــد الله المعروف بالنفس الزكية وثورة أخيه إبراهيم بــن عبد الله ، وذلك عام **145**هــ/**762**م.

ومن نقوش النوع الأول أيضاً نقــوش الناصر لدين الله أبو أحمد الموفق بالله ، التى تؤرخ لعمارته للحرم عام **272**هــ/**885**م، ويــذكر الفاكهى أنها كانت منقوشة فى مواضع كثيرة فى سقف المسجد ، وفى جدار المسجد الذى يلى دار زبيدة (بالشق الغربى للمسجد)، وقــد اقتــصر الفاكهى على ذكر نصوص نقشين مــن هــذه النقوش فحسب.

ويتضمن النقش الأول الصيغة التاليــة :
"بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر الناصر لــدين الله ولى عهد المسلمين أخو أمير المؤمنين – أطال الله بقاءهما – القاضى يوسف بن يعقــوب بعمــارة المسجد الحرام... فى سنة اثنتين وسبعين ومائتين".

أما النقش الثانى فيتضمن : "بــسم الله الرحمن الرحيم ، أمر الإمام الناصر لدين الله أبو أحمد الموفق بالله ولى عهد المسلمين – أطال الله بقاءه – بعمارة المسجد الحرام... فى سنة اثنــتين وسبعين ومائتين".

ومن الملاحظ أن هذين النقــشين قــد اقتصرا على ذكر اسم وألقاب ولى العهد ، دون

الإشارة إلى اسم خليفة الوقت وألقابه (وهو الخليفة المعتمد على الله) وإن كان النقش الأول قد أشار إليه عرضاً وتلميحاً لا تصريحاً من خلال عبارة (ولى عهد المسلمين أخو أمير المؤمنين ، أطال الله بقاءهما)، وعلى ذلك فإن هذه النقوش تتطابق مع طبيعة مجريات الأحداث التاريخية فى تلك الفترة؛ فالخليفة الشرعى – وهو المعتمد على الله– كان مغلوباً على أمره ، ولا حول ولا قوة له؛ وكان الموفق صاحب الحل والعقد والآمر الناهى، وقد زاد نفوذه وعظمت شوكته بعد نجاحه فى القضاء على ثورة الزنج عام 270هـ/883م ولذلك لقب بالسفاح الثانى، وفى ذلك إشارة إلى أن الخلافة العباسية قد ولدت من جديد على يديه، كما لقب بالناصر لدين الله الوارد فى هذين النقشين (وهو ما تؤيده نقوش السكة أيضاً المؤرخة بعام 271هـ/884م وغيرها).

كذلك ورد فى النقش الثانى لقب الموفق بالله ، ولقب الإمام والدعاء له بطول العمر، وفى ذلك إشارة لا تخفى فى أنه هو المتصرف فى أمور الخلافة كلها.

وهكذا تسهم النقوش الكتابية المشار إليها فى إثبات وتأكيد ما ورد فى المصادر التاريخية من جهة ، وفى إلقاء أضواء جديدة على بعض الجوانب التاريخية من جهة ثانية.

أما بالنسبة لنقوش النوع الثانى فلم يتبق منها سوى أربعة نقوش ، ثلاثة منها بحالة جيدة للغاية ، وهى تؤرخ للزيادة ، والتوسعة الثانية للخليفة المهدى عام 167هـ/784م تلك الزيادة التى حدثت فى الشق اليمانى للحرم المكى الشريف (وهو الشق الذى يلى الوادى والصفا) كما سبق القول، ولهذه النقوش الأربعة قيمتها التاريخية والآثارية، غير أن ما يعنينا هنا هو إبراز قيمتها الآثارية والفنية.

والنقش الأول منها على أسطوان يقع فى الناحية الجنوبية للحرم على مدخل باب الصفا ، وهو يطل على الصحن بالقرب من مكان المؤذنين حالياً إلى الناحية الشرقية منه ، وهو يتضمن النص التالى (بسم الله الرحمن الرحيم/ أمر عبد الله محمد/ المهدى أمير المؤمنين/ حفظه الله بإقامة هاتين/ الأسطوانتين علما لطريق/ رسول الله صلى الله عليه/ وسلم إلى الصفا ليتأسا / به حاج بيت الله وعماره/ أعظم الله أجر المهدى/ أمير المؤمنين وآطال بقاه/ على يدى يقطين بن/ موسى وإبراهيم/ بن صالح فى سنة/ سبع وستين ومائة/ مما عمل أهل الكوفة".

والنقش الثانى على أسطوان يلى النقش الأول من الناحية الشرقية تماماً بحيث يمثل الجزء

الثانى من باب الصفا وهو يتضمن النص التالى (بسم الله الرحمن الرحيم/ إن الله وملائكته يصلو/ ن على النبى يا أيها الذين/ آمنوا صلوا عليه و/ سلموا تسليما اللهم صلى/على محمد عبدك و/ نبيك وصفيك أفضل/ما صليت على أحد من/ خلقك اللهم صلى على/ محمد وعلى آل محمد / وأرحم محمدا وآل/ محمد وبارك على محمد/ كما صليت ورحمت وباركت/ على إبراهيم وآل إبراهيم 1/ إنك حميد مجيد عمل الكوفيين) .

والنقش الثالث على إسطوان يقع فى الناحية الجنوبية داخل الرواق فى نفس البائكة التى يقع فيها النقش الأول المؤرخ بعام 167هـ/784م وهو يتضمن النص التالى: (بسم الله الرحمن الرحيم/ أمر عبد الله المهدى محمد/ أمير المؤمنين أصلحه الله/ بتوسعة البا [ب] الأوسط/ الذى بين هاتين الاسطوانتين/ وهو طريق رسول الله/ صلى الـ[له]عليه وسلم/ إلى الصفا عمل أهل الكوفة).

وقد سبق أن تحدثنا عن أهمية النقوش الزخرفية بهذه الأساطين ، أما عن أهمية النقوش الكتابية بها فتتجلى فى نوع الخط الذى نفذت به وهو الخط الكوفى البارز وتثبت هذا الاصطلاح وتؤكده تلك التوقيعات التى وردت بصيغة (مما عمل أهل الكوفة) فى النقش الأول و(عمل الكوفيين) فى النقش الثانى و(عمل أهل الكوفة) فى النقش الثالث.

والحق أن هذه النقوش تمثل مرحلة مهمة من مراحل تطور الخط الكوفى وبلوغه درجة لا بأس بها من الكمال والتجويد والإتقان ، وهو ما تدركه العين بمجرد النظر إليها سواء من حيث جريان النقش على خطة هندسية موضوعة قومت فيها السطور وسوى ما بينها وروعى فيها التناسب بين الحروف، وقد وصلت هذه المرحلة إلى غايتها فى القرن3هـ/ 9م.

نقوش الحرم النبوى الشريف:

ازدانت جدران وأبواب وأساطين وعقود وأسقف الحرم النبوى الشريف، فضلاً عن الحجرة الشريفة، بالعديد من النقوش الزخرفية والكتابية ، سواء فى مرحلة الزيادة والتوسعة ، أو فى مرحلة عمليات الإصلاح والترميم والتجديد ، وهو ما سنعرض له فيما يلى:

النقوش الزخرفية:

بدأت عناية الخلفاء العباسيين بكسوة الحرم النبوى الشريف وزخرفته وتزيينه منذ عهد الخليفة العباسى الأول (وهو الخليفة أبى العباس السفاح (132-136هـ/ 750-754م) كما يستدل من خلال بعض النقوش الكتابية التى حفظها لنا الحربى فى كتابه.

وفى عمارة وتوسعة المهدى للحرم النبوى الشريف فيما بين عامى 162-165هـ/779-782م ازدانت جدران المسجد وعقوده وأبوابه بالفسيفساء، فضلاً عن الزخارف المنفذة على الرخام، وفى ذلك يذكر ابن عبد ربه : " وحيطان المسجد كلها من داخله مزخرفة بالرخام والذهب والفسيفساء أولها وآخرها".

إلا أنه يلاحظ أن الزخارف الرخامية والفسيفسائية التى ترجع إلى العمارة العباسية لم تكن فى نفس مثيلتها من الزخارف الأموية بجدار القبلة ، وهو ما يستدل عليه من مشاهدات ابن جبير ، ووصفه الدقيق لتلك الزخارف.

وكانت أعتاب الأبواب مذهبة ، أما العقود المطلة على الصحن من جهاته الأربع فكانت مزخرفة بخشب منقوش على حد قول ابن عبد ربه أو مغلفة بشراجيب الساج على حد قول صاحب كتاب الاستبصار.

وكذلك أسقف المؤخر والمجنبتين كانت مثل أسقف المقدم منقوشة مدهونة محفورة ومذهبة.

وفى عهد الخليفة المتوكل 232-247هـ/848-862م وبالتحديد فى عام 246هـ/861م تم عمل الفسيفساء فى المسجد (ولم تحدد المصادر موضع هذه الأعمال)؛ فضلاً عن تأزير الحجرة الشريفة وفرش أرضيتها بالرخام.

ويضيف ابن عبد ربه فيذكر "ولبس (أى القبر الشريف) بإزار رخام أكثر من قامة وما فوق القامة مخلق بالخلوق".

كذلك أشار ابن عبد ربه إلى نقوش سور المسجد من الخارج بقوله : "ووجه سور المسجد كله من خارج منقوش بالكدان وكذلك الشرفات"

النقوش الكتابية:

حفلت العمارة العباسية للحرم النبوى الشريف بالعديد من النقوش الكتابية التى تؤرخ لما قام به خلفاء بنى العباس من عمارة الحرم النبوى وتوسعته والزيادة فيه ، أو ما قاموا به من أعمال الإصلاح والتجديد والترميم وذلك على النحو السابق الإشارة إليه فى المحور الثانى من هذا البحث.

مع اندثار هذه النقوش يمكن الاستفادة من نصوصها التى حفظتها لنا المصادر التاريخية فى إلقاء أضواء جديدة على بعض الجوانب التاريخية فى هذه الفترة.

ومن بين هذه النقوش العديدة حَسْبُنَا أن نشير إلى نقش على جانب كبير من الأهمية التاريخية.

وقد أورد الحربى صيغة هذا النقش على النحو التالى : "بسم الله الرحمن الرحيم: لا اله إلا الله وحده لا شريك له، محمد عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، أمر عبد الله عبد الله أمير المؤمنين بتقوى الله وطاعته والعمل بكتاب الله وطاعته وسنة نبيه صلى الله عليه وبصلة الرحم وتعظيم ما صغر الجبابرة من حق الله وتصغير ما عظموا من الباطل وإحياء ما أماتوا من الحقوق وإماتة ما أحيوا من العدوان والجور، وأن يطاع الله ويعصى العباد فى طاعة الله فالطاعة لله ولأهل طاعة الله ، لا طاعة لأحد فى معصية الله ، ندعو إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه ، وإلى العدل فى أحكام المسلمين والقسم بالسوية فى فيئهم ووضع الأخماس فى مواضعها التى أمر الله بها لذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل".

ولهذا النقش أهميته التاريخية فهو يتطابق مع مجريات الأحداث التاريخية فى تلك الفترة، بل يثبت ويؤكد ذلك التحول الذى طرأ على الدعوة العباسية عقب تأسيس دولتهم الجديدة، فبعد أن تأسست هذه الدولة كان لا بد للعباسيين من أن يجدوا أساساً جديداً لتثبيت دعواهم بالخلافة عليه ، فلم تعد وصية أبى هاشم ملائمة لهم بعد تسنمهم الحكم، ذلك لأنها من الناحية السياسية تربطهم بالعلويين، وتظهر أن حقهم بالخلافة جاء عن طريق أبناء الإمام على بن أبى طالب (ﷺ)؛ ثم إنها من الناحية العقائدية تفضح أن جذور حركتهم السرية تعود إلى المنظمة الكيسانية والهاشمية المتطرفة.

وبمعنى آخر فإن حاجة العباسيين إلى تأييد الفقهاء والناس لنظامهم الجديد هو الذى دعاهم إلى أن يتبرؤوا من صلتهم بأبى هاشم ومنظمته المتطرفة ، ويعلنوا تمسكهم بالكتاب والسنة ، وتبرأوا من الغلو ونددوا بأهل الجور ، أى الأمويين الذين فشلوا فى تطبيق مبادئ العدالة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ونادوا بصلة الرحم والعدل والقسم بالسوية ، كما تقربوا إلى الفقهاء ورجال الحديث فى محاولة كسب تأييدهم للنظام الجديد، وقد بدأ هذا التحول الجديد فى عهد الخليفة أبى العباس كما يتضح فى خُطبته وخُطبة عمه داود بن على وما فيهما من مرونة سياسية ومحاولة التوفيق بين العلويين والعباسيين، أما الخليفة الثانى (وهو عبدالله أبى جعفر) فهو أول من أبرز وجهة النظر العباسية بصورة واضحة لا ريب فيها.

أما عن أهمية النقوش الكتابية العباسية بالحرم النبوى الشريف من الناحية الآثارية الفنية فهو من الصعوبة بمكان نظراً لاندثار هذه النقوش تماماً.

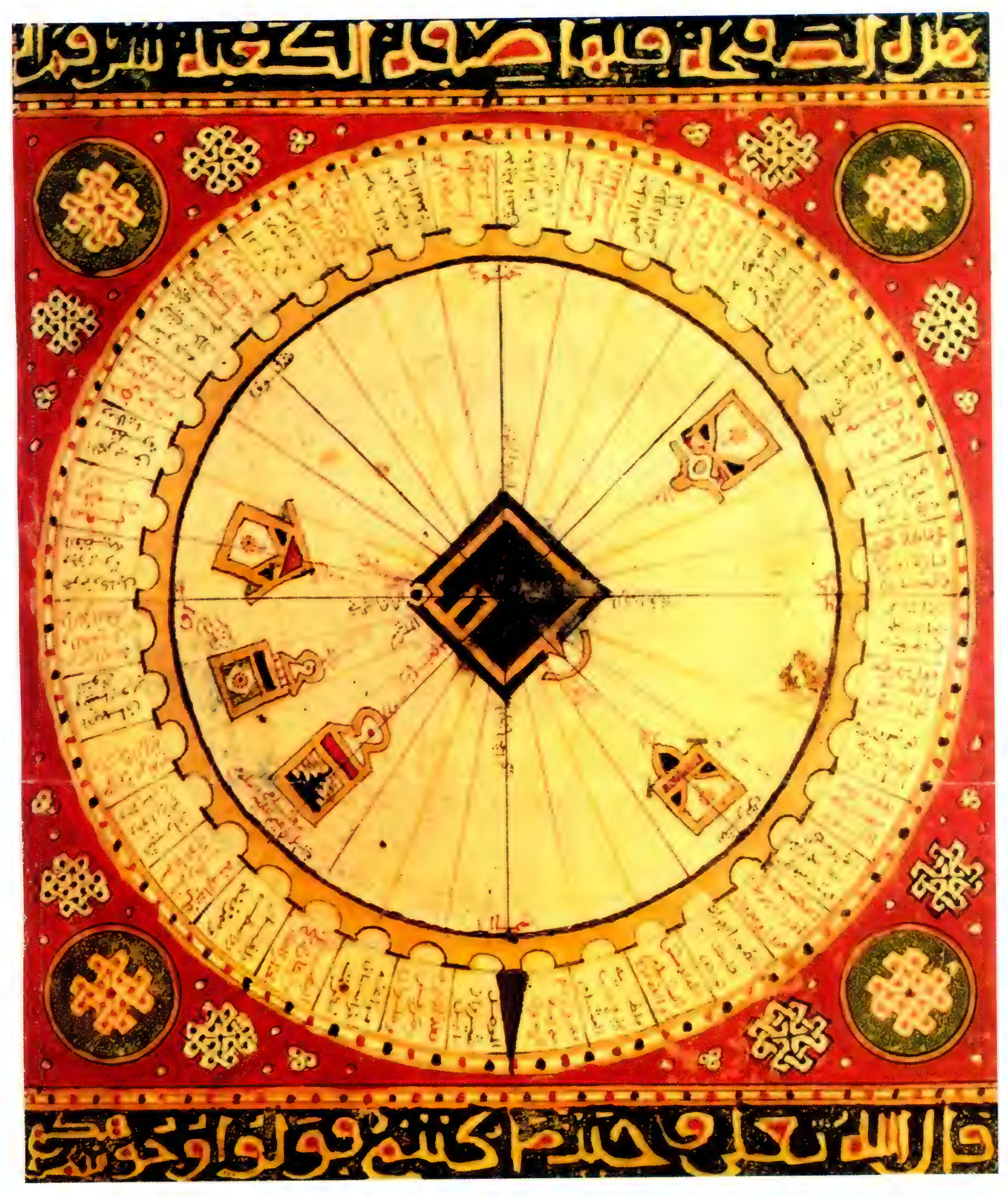
ومع ذلك فإنه من خلال النماذج الباقية من النقوش الآثارية التى ترجع إلى هذه الفترة ، يمكن القول بأن نقوش المهدى فى الحرم النبوى كانت لا تختلف كثيراً عن نقوشه التى لا تزال باقية على الأساطين الأربع بالحرم المكى التى نفذها أهل الكوفة .

أما نقوش المهدى بالحرم النبوى فقد نفذها أهل البصرة، وعلى ذلك نُرجّح أن نقوش المهدى بالحرم النبوى كانت تمثل هى الأخرى مرحلة مهمة من مراحل تطور الخط الكوفى ، ثم سرعان ما خطت هذه النقوش خطوة أكثر تقدما خلال عهد كل من الرشيد والمأمون كما يستدل من النقوش الآثارية الباقية ، حتى بلغت هذه المرحلة غايتها فى أواخر القرن 3 هـ/9م وعلى ذلك يمكن القول بأن نقوش الرشيد والمأمون (لو كانت هذه الأخيرة صحيحة) والمعتضد عام 282هـ/ 895م بالحرم النبوى الشريف كانت هى أيضاً صدى لهذا التطور ولبلوغ تلك الغاية.

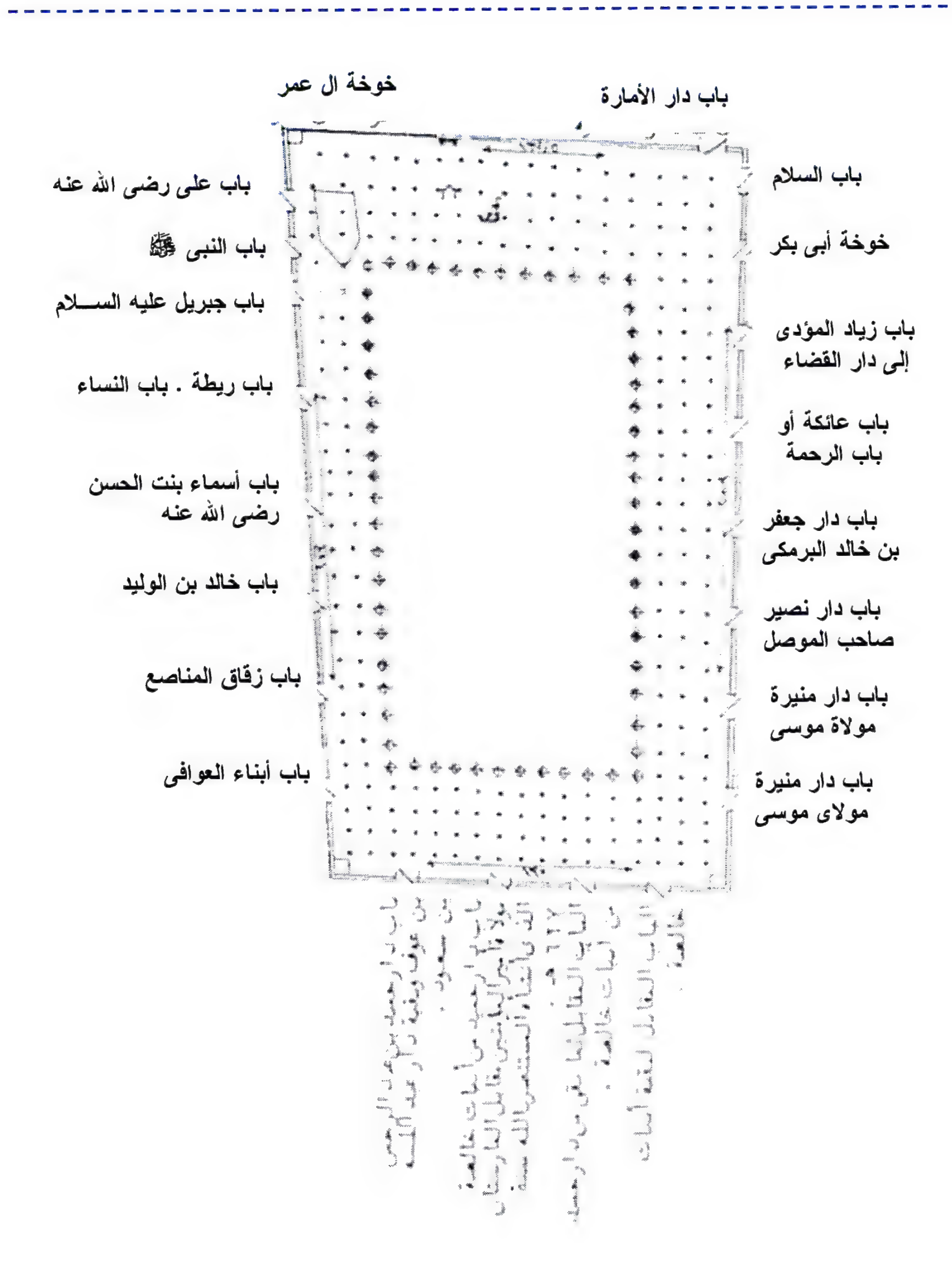
الخاتمة:

إن دراسة عمارة الحرمين الشريفين خلال العصر العباسي من عام 132هـ / 750 م إلى عام 447هـ/ 1055م تتميز بأهميتها من حيث التخطيط والمفردات والعناصر المعمارية والنقوش الزخرفية والكتابية المنفذة على المواد الحجرية والرخامية والخشبية كافة .

أ.د محمد حمزة الحداد
جامعة القاهرة

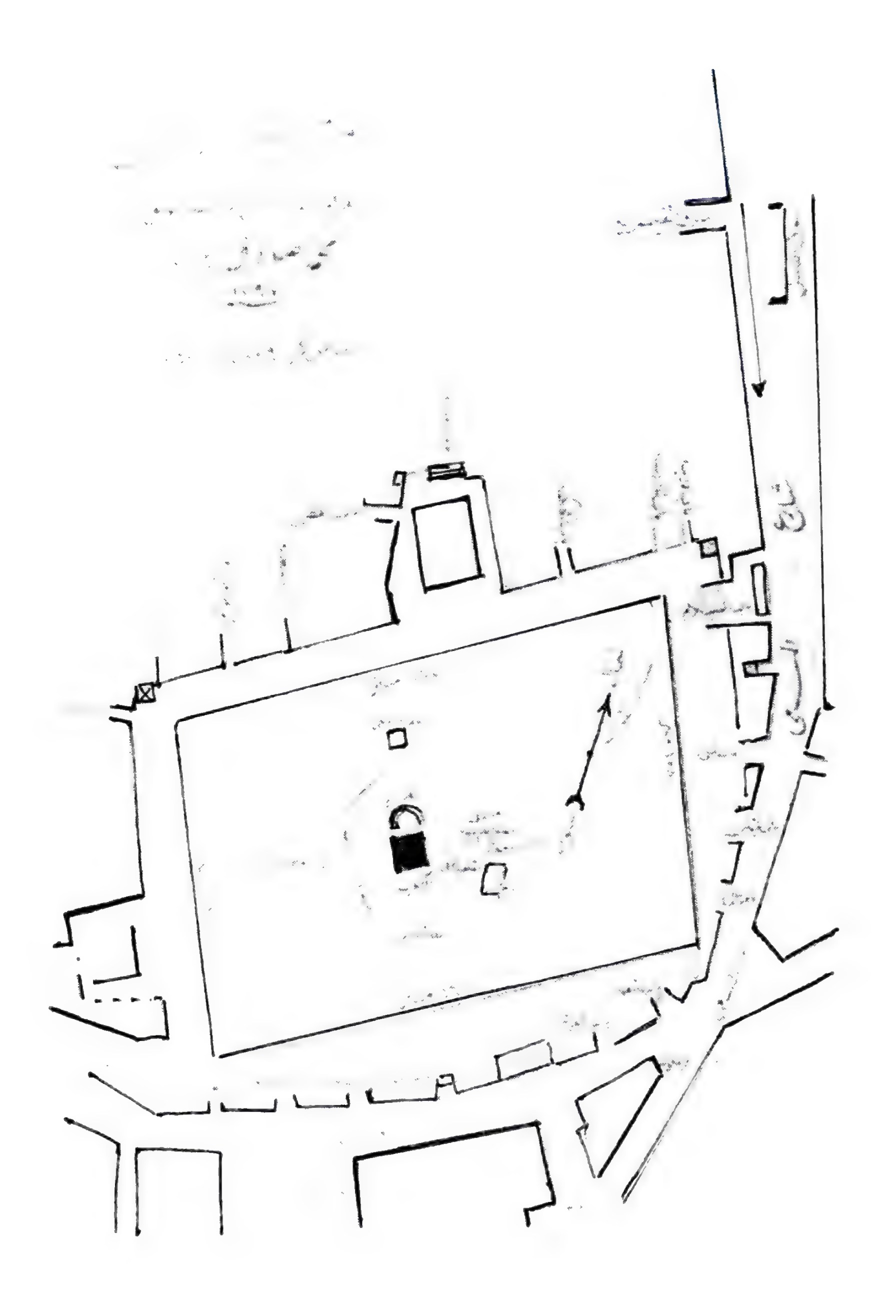


صورة تمثل الكعبة مركزاً للعالم الإسلامى
مخطط مؤرخ سنة 958 هـ (عن الباشا)
المصدر (الفن العربى الإسلامى ص35)



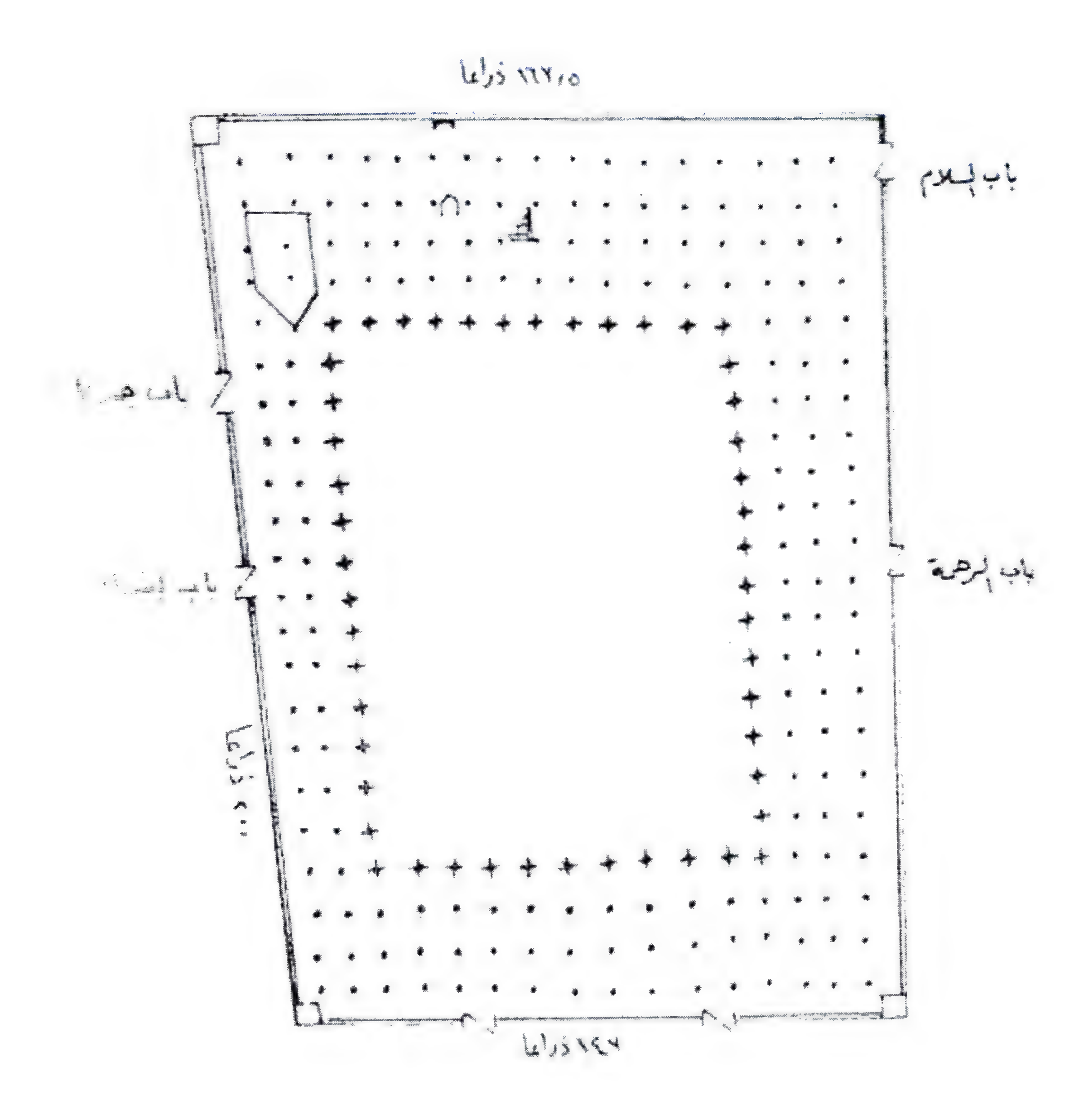
مسقط افقى للمسجد النبوى الشريف عقب عمارة المهدى العباسى

(عن: محمد هزاع الشهرى)

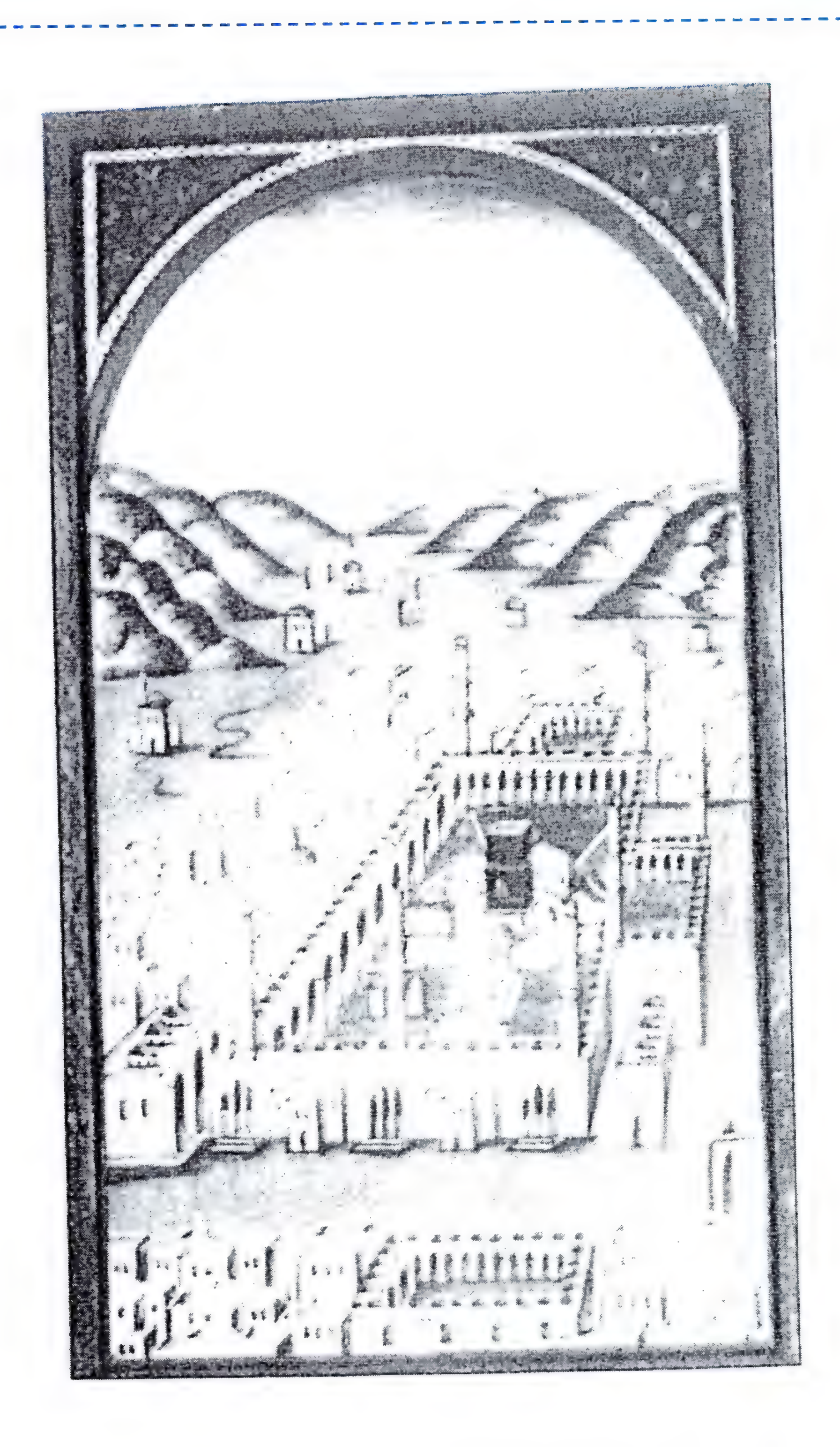


رسم مسطح الحرم المكي كما وضعه محمد صادق باشا سنة 1297هـ/1880م

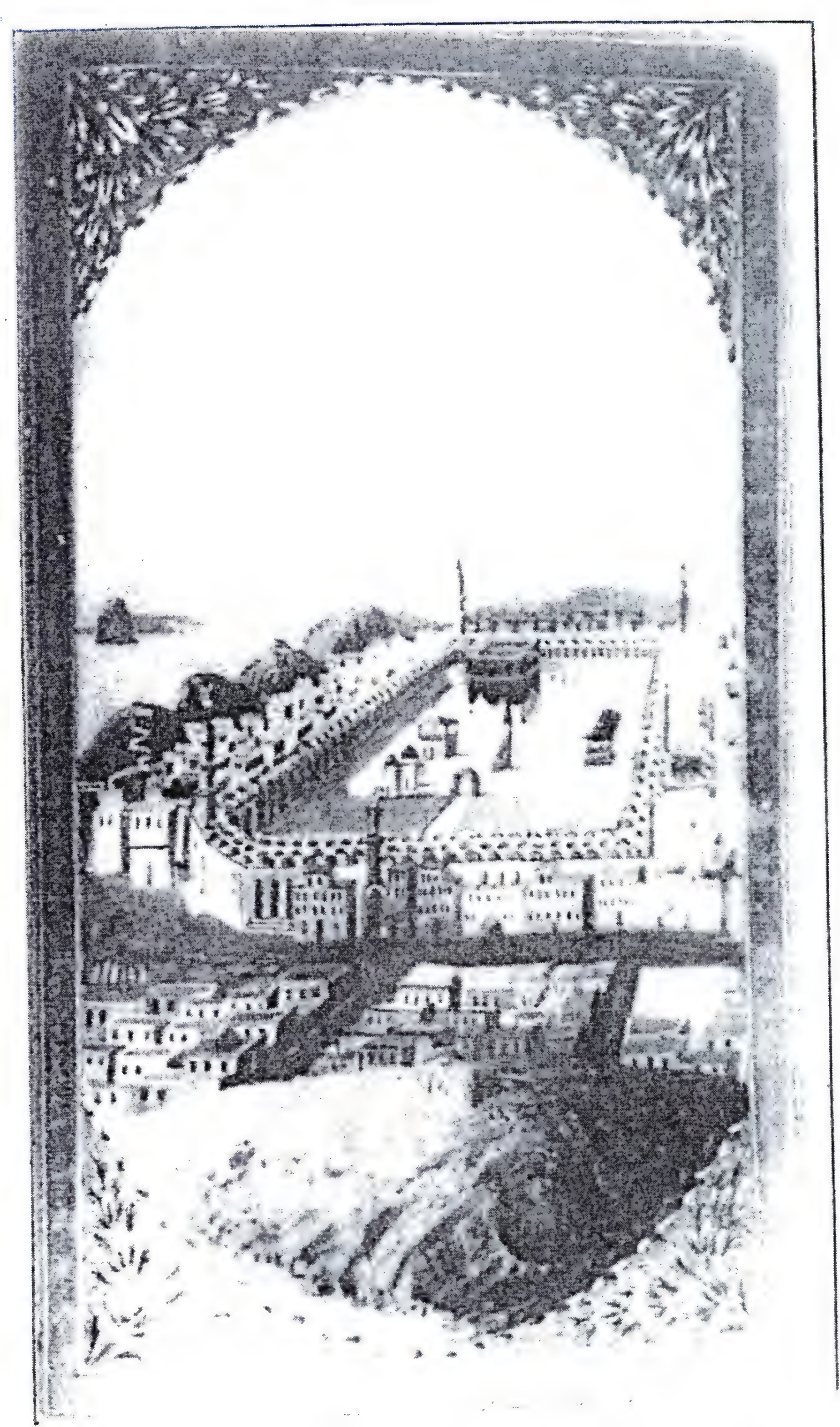
(عن: محمد صادق باشا)



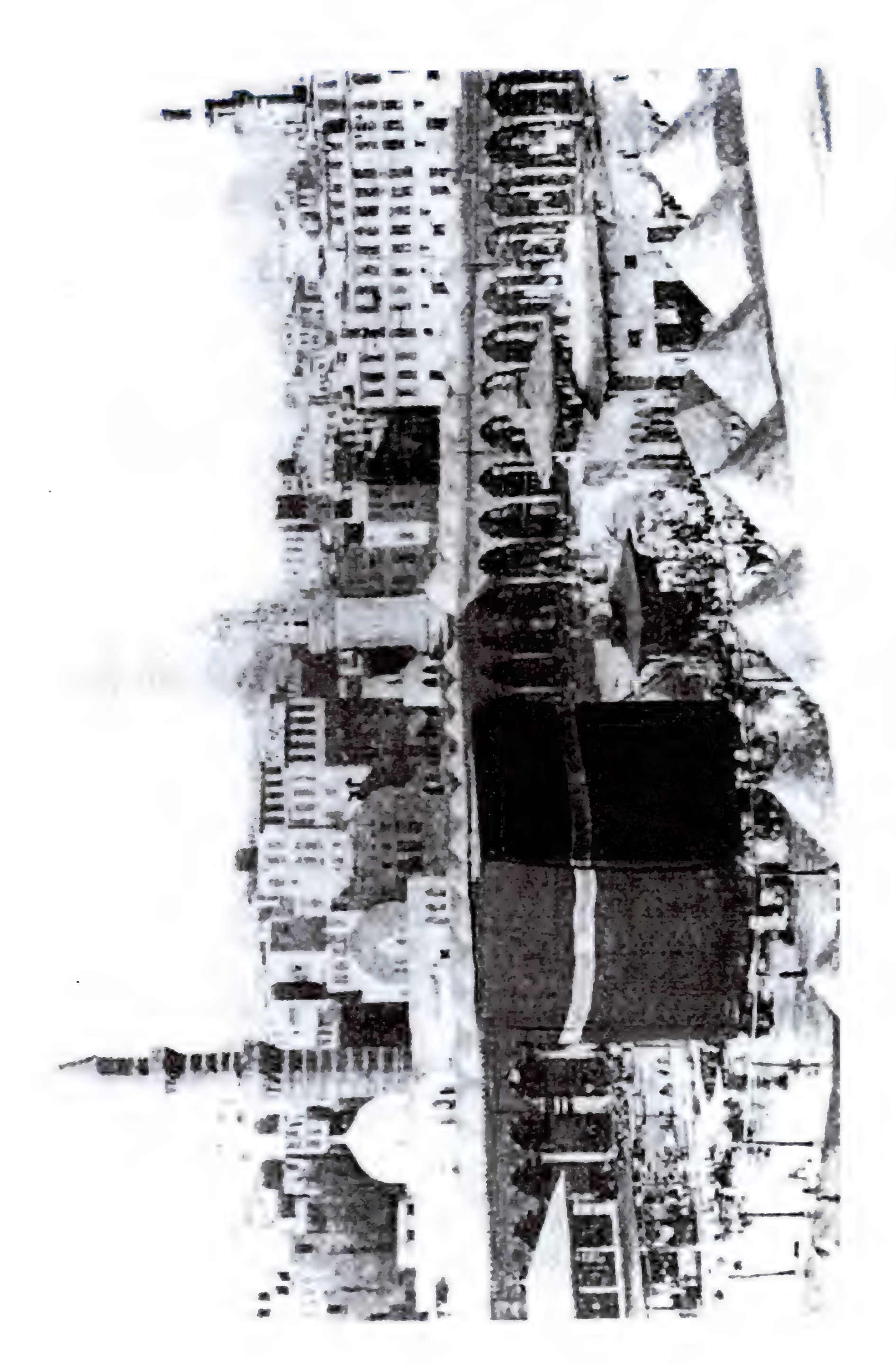
مسقط افقى للمسجد النبوى الشريف عقب عمارة الوليد بن عبد الملك. (عن: محمد هزاع الشهرى)



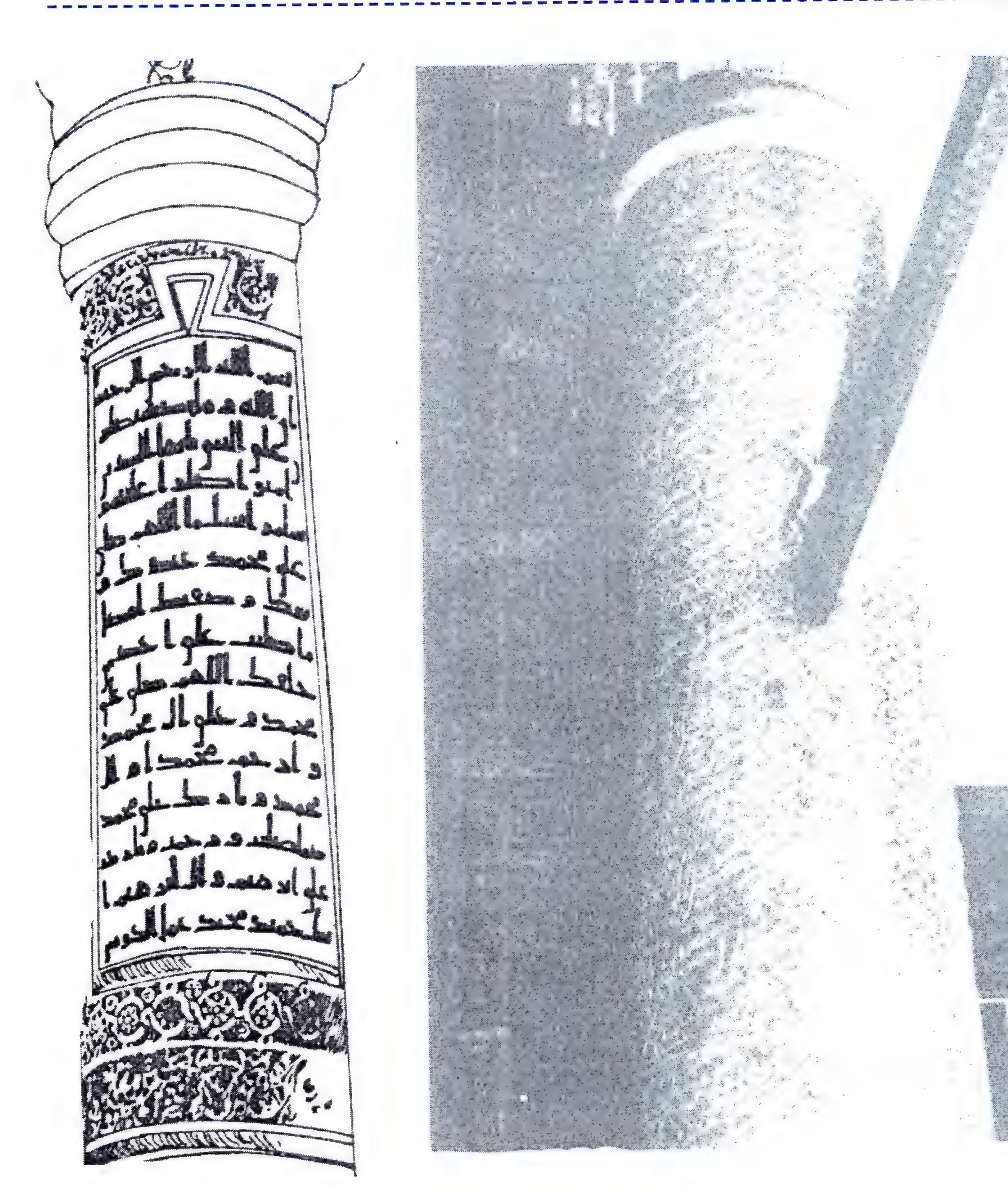
صورة للمسجد الحرام بزيادة دار الندوة وباب إبراهيم فى مخطوط لكتاب موفق الخيرات
بدار الكتب المصرية (عن: الباشا)



صورة للمسجد الحرام فى مخطوط لعبد الله خلوصى مؤرخة بعام 1280هـ/1864م
محفوظة بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة (سجل رقم (18169) (عن: الباشا).



الجهة القبلية و الغربية للمسجد الحرام من الداخل عام 1880م وتظهر بعض الأروقة و القباب التى تسقفها
(عن محمد صادق باشا)



النقوش الزخرفية خلف الأسطوان الأول المؤرخ
بعام 167هـ/784م (عن: الفعر)

تفريغ لنقش الأسطوان الثانى المؤرخ بالحرم
المكى الشريف (عن. الفعر)

مصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية:

- **ابـــن بطوطـــة**، محمـــد بـــن عبـــدالله، ت779هـ/1377م، تحفة النظـار فى غرائـب الأمصار وعجائب الأسفار المعروفة برحلـة ابـن بطوطة، بيروت، ط2، د.ت.

- **ابـــن جـــبير**، محمـــد بـــن أحمـــد، ت614هـ/1217م، تذكرة بالأخبـار عـن اتفاقات الأسفار المعروفة برحلة ابن جبير، تحقيـق حسين نصار، مكتبة مصر، القاهرة، (1992م).

- **ابن حوقل**، أبى القاسم بن حوقل النـصيبى، ت 367هـ/978م، كتـاب صـورة الأرض، دار الكتاب الإسلامى، القاهرة، د.ت.

- **ابن رستة**، **الأعلاق النفيســة**، المجلـد 7، دار إحياء التراث العربى، بيروت (1988).

- **ابن شبة**، أبو زيد عمر بـن شـبة الـنميرى البصرى، ت 262هـ/875م، تـاريخ المدينـة المنورة، 4 أجزاء، تحقيق فهيم محمد شـلتوت، دار الأصـفهانى للطباعـة، جـدة، (1399هـ/1979م).

- **ابن الضياء المكى الحنفى**، الإمام أبى البقاء محمد بن أحمد بن محمد ت (854هـ/ 1450م)، تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة المشرفة والقبر الشريف، تحقيق علاء إبراهيم الأزهرى وأيمن نصر الأزهرى، دار الكتب العلمية، بيروت (1418هـ/ 1997م).

- **ابن ظهيرة**، محمد بن محمد بن أبى بكر القرشى المخزومى ت986هـ/ 1578م، الجامع اللطيف فى فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف، تحقيق على عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة (1423 هـ/ 2003م).

- **ابن عبد ربه القرطبى**، أبو عمر أحمد بن محمد، ت 328هـ/939م، العقد الفريد، 10 أجزاء، تحقيق عبد المجيد الترحينى، دار الكتـب العلميـة، بيروت (1404هـ/1983م).

- **ابن الفقيه**، أبى بكر أحمد بن محمد الهمدانى، ت 340هـ/951م أو 365هـ/ 975م، مختصر كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربى، بـيروت (1988م).

- **ابن فهد**، النجم محمد بن محمد المشهور بعمـر، ت885هـ/ 1480م، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، 4 أجزاء (جـ1-3) تحقيق فهيم شلتوت، (جـ4) تحقيق وتقديم عبد الكريم على باز، جامعة أم القرى، مكة المكرمة 1408هـ/1988م.

- **ابن قتيبة**، أبى محمـد عبدالله بن مسلم،

- **ابن النجار**، الحافـظ محمـد بـن محمـود، ت(647هـ/1249م)، أخبـار مدينة الرسول المعروف بالدرة الثمينة، تحقيق صـالح محمـد جمـال، مطبعـة الرسـالة، مكـة المكرمـة (1366هـ/ 1946م).

- **ابن النديم،** أبو الفرج محمد بن إسحاق، الفهرست، تحقيق الشيخ إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت (1415هـ/1994م)،

- **الأزرقى،** أبى الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد، توفى بعد 247هـ/861م، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، مجلدان، تحقيق رشدى الصالح، ملحس، دار الأندلس، بيروت، ط3 (1403هـ/1983م).

- **الأسدى،** أحمد بن محمد الأسدى المكى الشافعى، ت 1016هـ/ 1657م، إخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام، تحقيق غلام مصطفى، دار الصحوة، القاهرة، ط2 (1985م).

- **الاصطخرى،** أبى اسحق إبراهيم بن محمد الفارسى، ت حوالى 350هـ/961م، المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر الحينى، القاهرة، مراجعة محمد شفيق غربال، تقديم عبد العال عبد المنعم الشامى، الهيئة العامة لقصور الثقافة (سلسلة الذخائر رقم 119)، القاهرة (أول مايو 2004).

- **البرزنجى،** جعفر بن السيد إسماعيل المدنى، ت 1317هـ/ 1899م، نزهة الناظرين فى تاريخ مسجد سيد الأولين والآخرين، تحقيق وتعليق أحمد سعيد بن سلم، مكتبة بن سلم، المدينة المنورة، ومكتبة الرفاعى، القاهرة، ط2 (1418هـ/1998م).

- **البكرى،** أبى عبيد، ت 487هـ/1094م، المسالك والممالك، تحقيق أدريان فإن ليوفن وأندرى فيرى، بيت الحكمة، تونس(1992م).

- **الحموى،** شهاب الدين أبى عبدالله ياقوت، ت626هـ/1228م، معجم البلدان، دار إحياء التراث العربى، بيروت (1979م).

- **خسرو،** ناصر، ت481هـ/ 1088م، سفرنامه، ترجمة يحى الخشاب، تصدير عبدالوهاب عزام، سلسلة الألف كتاب الثانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط 2 (1993م).

- **الديار بكرى،** حسين بن محمد بن الحسن، ت 996هـ/1587م، زرع الكعبة المعظمة ومساحة المسجد الحرام ، تقديم وتحقيق يحى حمزة عبد القادر الوزنة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة (1424هـ/2004م).

- **السمهودى،** نور الدين على بن عبد الله، ت 911هـ/1505م،

- **وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى،** 5 أجزاء، تحقيق وتقديم قاسم السامرائى، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى، فرع موسوعة مكة المكرمة والمدينة المنورة، المدينة (1422هـ/ 2001م).

- **خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى،** تعليق الشيخ إبراهيم الفقيه، طبع على نفقة جعفر الفقيه، ط2 (1403هـ/ 1983م).

- **السنجارى**، على بن تاج الدين بن تقى الدين بن يحيى المكى الحنفى، ت 1125هـ/ 1713م، منائح الكرم فى أخبار مكة والبيت وولاة الحرم، 5 أجزاء، تحقيق جميل المصرى، (جـ 3-4) تحقيق ماجدة فيصل زكريا، (جـ5) تحقيق ملك محمد خياط، معهد البحوث العلمية، جامعة أم القرى، مركز إحياء التراث الإسلامى، مكة المكرمة، (1419هـ/1998م).

- **العباسى**، أحمد بن عبد الحميد، ت بعد 1036هـ/1626م، عمدة الأخبار فى مدينة المختار، نشر أسعد درابزونى الحسينى، د.م، ط2، د.ت.

- **العبدرى**، أبى عبد الله محمد بن أحمد بن سعود، ت بعد 700هـ/1300م، رحلة العبدرى، تحقيق على إبراهيم كروى، قدم لها شاكر الفحام، دمشق (1999).

- **الفاسى**، تقى الدين محمد بن على، ت832هـ/1428م،

- **العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين**، 8 أجزاء، (جـ1) تحقيق محمد حامد الفقى وابنه محمد الطيب، (جـ2-7) تحقيق فؤاد سيد، (جـ8) محمود الطناحين مطبعة السنة المحمدية، القاهرة 1959م، 1962-1967 من 1969م

- **شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام**، جزءان ، تحقيق عمر عبد السلام تدمرى، دار الكتاب العربى، بيروت (1405هـ/ 1985م).

- **الفاكهى**، أبى عبدالله محمد بن إسحاق ت بعد 272هـ/885م، أخبار مكة فى قديم الدهر وحديثه، 6 أجزاء، دراسة وتحقيق عبدالملك بن عبدالله بن دهيش، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، مكة المكرمة (1407هـ/ 1987م).

- **الفيروزآبادى**،مجد الدين محمد بن يعقوب، ت 817هـ/1414م، المغانم المطابة فى معالم طابة، قسم المواضع، تحقيق حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض، (1969م).

- **القطبى**، عبد الكريم بن محب الدين، ت 1014هـ/1605م اعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام علق عليه أحمد محمد جمال وعبد العزيز الرفاعى وعبد الله الجبورى، دار الرفاعى، الرياض، ط2، (1407هـ/1987م).

- **مؤلف مجهول من أهل القرن 6هـ/12م**، الاستبصار فى عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبدالحميد، دار الشئون الثقافية العامة، آفاق عربية، بغداد، ط، د.ت.

- **المراغى**، زين الدين أبى بكر بن الحسين بن عمر أبى الفخر، ت816هـ/1413م، تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة، تحقيق محمد عبد الجواد الأصمعى، المكتبة العلمية، المدينة المنورة، ط2، (1981م).

- **المطرى**، جمال الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد، ت741هـ/ 1340م، التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة، تحقيق محمد عبد المحسن الخيال، نشر أسعد درابزوني الحسيني، د.م (1952م).

- **المقدسى**، محمد بن أحمد المعروف بالبشارى، ت بعد 375هـ/987م، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولى، القاهرة، ط3 (1411هـ/1991م).

- **النهروالى**، قطب الدين محمد بن أحمد بن محمد، ت 990هـ/ 1582م، كتاب الأعلام بأعلام بيت الله الحرام، تحقيق على محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة (1425 هـ/ 2004م).

- **اليعقوبى**، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب، ت بعد 292هـ/904م، كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربى، بيروت (1988م).

- **تاريخ اليعقوبى**، دار صادر، بيروت (1992م).

ثانياً المراجع العربية:

- **أبو خلف**، مروان فايز، الزخارف الأموية فى المسجد النبوى الشريف، مجلة العصور، مج 9، جـ 1، دار المريخ، لندن – الرياض (رجب 1414هـ/ يناير1994م.

- **الأنصارى**، ناجى محمد حسن، عمارة وتوسعة المسجد النبوى الشريف عبر التاريخ، إصدارات نادى المدينة المنورة الأولى،الأدبى (الكتاب رقم 95)، (1416هـ/ 1996م.

- **باسلامة**، حسين عبد الله، (ت 1364هـ/1944م، تاريخ عمارة المسجد الحرام، تهامة، جدة، ط3، (1400هـ/ 1980م).

- **تاريخ الكعبة المعظمة**، تهامة جدة ط 2 (1402،1982م).

- **الباشا**، **حسن**، مدخل إلى الآثار الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة.

- **موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية**، 5 مجلدات، الدار العربية للكتاب، القاهرة (1999م).

- **الحداد**، محمد حمزة إسماعيل

- **النقوش الآثارية مصدراً للتاريخ الاسلامى والحضارة الإسلامية**، المجلد الأول، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة (2002).

- **عمارة المسجد النبوى الشريف فى العصرين الأموى والعباسى**، (دراسة جديدة فى ضوء مشاهدات ابن عبدربه الأندلسى)، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط2، (2004م).

- **الرواق فى العمارة الإسلامية بمكة المكرمة**، دراسة تاريخية آثارية، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة (2004).

- **كتب التاريخ المحلى والرحالة مصدر لدراسة عمارة الأسبلة الحجازية فى مكة المكرمة والمدينة المنورة**، حوليات الآداب والعلوم الإجتماعية، الرسالة 243، الحولية26، مجلس النشر العلمى، جامعة الكويت 1427هـ/ 2006م.

- **خلوصى**، محمد ماجد عباس، عمارة المساجد، تصميم وتاريخ وطراز وعناصر، دار قابس، بيروت (1998م).

- **الدقن**، السيد محمد، كسوة الكعبة المعظمة عبر التاريخ، مطبعة الجبلاوى، القاهرة (1406هـ/ 1986م).

- **رجب، أحمد** ، المسجد الحرام بمكة المكرمة ورسومه فى الفن الإسلامى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة (1417هـ/ 1996م).

- **المسجد النبوى بالمدينة المنورة ورسومه فى الفن الإسلامى**، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة (1420هـ/ 2000م).

- **الزهرانى**، ضيف الله، نفقات عمارة الكعبة المشرفة فى صدر الإسلام حتى نهاية العصر العثمانى، بحوث تاريخية، الجمعية التاريخية السعودية، الرياض، ط2، (1413هـ/19 م).

- **شافعى، فريد**، العمارة العربية الإسلامية، ماضيها وحاضرها ومستقبلها، جامعة الملك سعود، الرياض، عمادة شئون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض (1982م).

- **الشنقيطى**، غالى محمد الأمين، الدر الثمين فى معالم دار الرسول الأمين، دار القبلة، جُدة، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، ط4 (1413هـ/1992م).

- **الشهرى**، محمد هزاع، عمارة المسجد النبوى منذ إنشائه حتى نهاية العصر المملوكى، دار القاهرة للكتاب، القاهرة (2001م).

- **طقوش**، محمد سهيل، تاريخ الفاطميين فى شمال أفريقية ومصر وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت (1422هـ/2001م).

- **عبد الحكيم**، منصور، بيوت الرسول وبيوت الصحابة حول المسجد النبوى، المكتبة التوفيقية، القاهرة (1420هـ/1999م).

- **عبد الغنى، محمد إلياس**، بيوت الصحابة حول المسجد النبوى الشريف، مركز طيبة للطباعة، المدينة المنورة (1417هـ/ 1997م).

- **تاريخ المسجد النبوى الشريف**، مطابع المجموعة الإعلامية، المدينة المنورة، ط2، (1418هـ/ 1997م).

- **العلى**، صالح أحمد، الحجاز فى صدر الإسلام، دراسات فى أحواله العمرانية والإدارية، مؤسسة الرسالة، بيروت (1410هـ/ 1990م).

- **عمارة**، طه عبدالقادر يوسف، نشأة وتطور عمارة وأسماء أبواب المسجد الحرام منذ فجر الإسلام حتى نهاية العصر العباسى، مجلة كلية الآثار،

العدد التاسع 1998م، مطبعة جامعة القاهرة(2001م).

- **العوفى، محمد**، تطور عمارة وتوسعة المسجد الحرام حتى عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود، مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1419هـ/1998م.

- **الفهر**، محمد فهد عبد الله:

- **تطور الكتابات والنقوش فى الحجاز منذ فجر الإسلام حتى منتصف القرن السابع الهجرى**، تهامة جُدة، (1405هـ/1984م).

- **الكتابات والنقوش فى الحجاز فى العصرين : المملوكى والعثمانى، رسالة دكتوراة، غير منشورة**، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة 1406هـ/ 1986م.

- **فكرى**، أحمد، مساجد القاهرة ومدارسها، المدخل، دار المعارف، القاهرة (1961م).

- **فوزى**، فاروق عمر،

- **طبيعة الدعوة العباسية**، دار الإرشاد، بيروت (1389هـ/ 1970م).

- **الخليج العربى فى العصور الإسلامية**، دار القلم، دبى (1403هـ/1983م).

- **الخلافة العباسية**، جزءان، دار الشروق، عمان، الأردن، (1998م).

- **القدحات**، محمد بن عبد الله، جهود الخلافة العباسية فى عمارة الحرمين الشريفين ومشاعر الحج فى الحجاز(132-656هـ)، الدارة، العدد 3، السنة31، دارة الملك عبد العزيز (عدد خاص عن مكة المكرمة1)، الرياض (1426هـ/2005م).

- **كمال**، سليمان صالح، إمارة الحج فى العصر العباسى (132-247هـ/749-861م)، الأمانة العامة لمكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية، جامعة أم القرى (1426هـ/2005م).

- **مالكى**، سليمان عبد الغنى، بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية فى بغداد، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، الرياض 1403هـ/ 1983م).

- **مصطفى**، صالح لمعى، المدينة المنورة ، تطورها العمرانى وتراثها المعمارى، دار النهضة العربية، بيروت (1981م).

- **مطر، فوزية حسين**،

- **تاريخ عمارة الحرم المكى الشريف إلى نهاية العصر العباسى الأول**، تهامة، جدة (1402هـ/ 1982م).

- **تاريخ عمارة المسجد الحرام من العصر العباسى الثانى حتى العصر العثمانى**، رسالة دكتوراه، غير منشورة؛ كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – قسم التاريخ الإسلامى، جامعة أم القرى، مكة المكرمة (1406هـ/ 1986م).

- **ابن منصور**، الشريف محمد، الزيادات فى الحرم المكى الشريف من العصر النبوى إلى العهد السعودى (1416هـ/ 1995م).

- **نواب**، عواطف محمد يوسف، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز فى القرنين : السابع والثامن الهجريين، دراسة تحليلية مقارنة، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض (1417هـ/ 1996م).

- **هورخورنيه**، سنوك، صفحات من تاريخ مكة فى نهاية القرن الثالث عشر، ترجمة محمد السريانى ومعراج مرزا، مكة المكرمة (1411هـ/1990م).

- **الهيلة**، **محمد الحبيب**, التاريخ والمؤرخون بمكة من القرن الثالث الهجرى إلى القرن الثالث عشر, جمع وعرض وعرف، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى, فرع موسوعة مكة المكرمة (1994م)

ثالثاً: المراجع الاجنبية :

- **Bishah**, G, the Mosque of the Prophet, Madinah Through out the first Century A. H. With Special Emphasis on the Umayyad Mosque, Michigan Univeristy, U.S.A. (1979).
- **Creswell**, K. a. C., Early Muslim Architecture, 2 Vol, second Edition, Oxford, the Clarenden Press, , (1969).
- **Creswell**, and Allan, J.W., Ashort account of Early Muslim Architecture, A.U.C. (1989)
- **Hillenbrand**, R., Islamic Architecture, New York, Columbia University Press (1994)
- **Sauvaget**, J., La Mosquee, Omeyyade de Médine, Paris, (1947).

Stern, H., Les Origines de l'architecture de la Mosquée Omeyyade à l'occasion d'un livre de J. Sauvaget, Syria, Vol, XX V III, (1951).The Architecture of the Prophet's Holy Mosquée Al Madinah, Written by members of a Committee Headed by Dr. Muhammed Kamal Ismail Edited by Salma Samar Damluji, Hazar, London, (1998)

ثانيـــاً: بغــداد

بعد انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين سنة 132هـ/749م انتقلــت عاصــمة الخلافــة الإسلامية من بلاد الشام إلى إقلــيم العــراق ، ونتيجة للظروف الطبيعية والحــضارية الجديــدة اختلفت عمارها وتأثرت تأثراً واضحاً في مــواد البناء وفي التخطيط والزخرفة ؛ فقد أنشئت مدن جديدة ازدانت بالقــصور والــدور والمــساجد والأضرحة ودور العلــم والقنــاطر والجــسور وغيرها ، ورغم اندثار معظم آثارهم ، متــأثرة بالظروف الطبيعية والسياسية التي مرت عليهــا فإن المدونات التاريخية تزخر بذكرها وبأوصافها ، ومنها مدينة بغداد المدورة التي بناهــا الخليفــة العباسي أبو جعفر المنصور. وما هو بــاق مــن آثارهم يحدثنا عن حضارة الأمة العربية ومجــدها التليد وهو وشاهد مادى على أصالتها ورقيها.

كانت كل أسرة في الشرق تميــل إلى ان تتخذ لنفسها عاصمة جديدة تحفظ اسمها وتبقــي على ذكرها، فالعباسيون لم يتخذوا من دمــشق حاضرة لدولتهم ؛ لأن بلاد الشام كانت مقــراً لبني أمية الذين يرفــضون انتقــال الخلافــة إلى غيرهم ، كما أنها كانت قريبة من حدود الدولة البيزنطية وتهديداتها فنقلوها إلى العراق قريباً من أنصارهم ، كما أن العراق غني بموارده الطبيعية وفي مأمن من غارات الأعداء.

ومن البديهي والواضح أن باني أيّ مدينة جديدة يجب أن يضع نصب عينيه عدة أمور قبل المباشرة بالتنفيذ. وفي المقام الأول منها وأهمهــا حصانة الموقع بحيث يكون بمنأىً عن الأخطــار الخارجية التي تهددها ثم التفكير بتخطيطها ، وما يمكن ان يبنى من تحصينات تحميها مــن العــدو وتمنعه من دخولها.

وقد تعددت العواصم الانتقالية في أيــام العباسيين قبل بناء مدينة بغداد التي تعدّ في مقدمة المدن العربية الإسلامية التي أنشئت في ظــروف سياسية معقدة.

فقد حاول أبــو العبــاس الــسفــاح (132-136هـ/749-753م) أول الخلفاء العباسيين أن يتخذ من الكوفة عاصمة له إلا أنــه تحول عنها لضعف ثقته بإخلاص أهلها الذين كان معظمهم يعارضون البيت العباسي ويــسعون إلى نقل الخلافة إلى العلويين ، فانتقل إلى موضع في قصر ابن هبيرة ، وأطلق عليــه اســم الهاشميــة (هاشمية الكوفة) ثم انتقل إلى الحــيرة الــتي لم يستقر فيها لقربها من الكوفة ومشاكلها ، فانتقل إلى الأنبار وأنشأ مدينة بــالقرب منــها علــى الفرات سماها الهاشمية أيضاً (هاشميــة الأنبــار). وتوفي أبو العباس السفاح ولم يضع حلاً مرضــياً لمشكلة العاصمة.

ولم يشأ أبو جعفر المنصور (136-158هـ/753-774م) الذي خلف أبا العباس السفاح أن يقيم في الهاشمية الجديدة لسوء موقعها، فبنى بين الكوفة والحيرة مدينة أخرى سماها الهاشمية أيضاً. ما لبث أن هجرها بعد فترة قصيرة ، لأنه شعر بصعوبة إقامته فيها لقربها من الكوفة ، ولقرب معسكرات القبائل العربية التي تثير الفتنة والقلاقل ، وزاد بغضه للهاشمية ظهور حركة الراوندية حين قدموا قصره من خراسان، وتاليههم له واعتداؤهم على جنده، وتعرضه للخطر على أيديهم كل ذلك جعله لا يشعر بالطمأنينة ، فعزم على التفتيش عن موضع جديد يتخذه عاصمة لدولته فارتاد عدداً من المواضع وبعد تمحيص دقيق للمعلومات التي جمعها استقر المنصور على فكرة واضحة وهي أن منطقة بغداد هي أكثر ملائمة لتشييد عاصمته الجديدة عليها فقال " هذا موضع معسكر صالح".

فهو على دجلة حيث العمارة على جانبي النهر ، في حين كانت العمارة على الفرات تقتصر على الضفة الشرقية فقط، ثم لاحظ وقوعها في وسط العراق، ووقوعها على خطوط التجارة وسهولة الاتصال بينها وبين أنحاء المملكة، فضلا عن خصوبة تربتها وإحاطتها بالأنهار والقنوات التي تشكل أسواراً منيعة تحمي الموقع وتمنع الأعداء من الوصول إليه بسهولة.

لكل هذه الأسباب وقع اختيار المنصور على موضع بغداد القريب من مؤيديه الذين قامت على أكتافهم دولة بني العباس ، ولم يتخذ مدينة دمشق القلعة الأموية ، ولا المدينة المنورة المتحفظة في الأمور السياسية والابتعاد عنها، كما أن منطقة بغداد ممتدة سهلة ملائمة لما يحب العرب من السكن في مثل هذه الأراضي قريبة من الماء والكلأ فضلاً عن الظروف الصحية والمناخية الملائمة. وقد أثبتت الأيام صواب رأي المنصور في اختياره لهذا الموضع الذي أجمع كل من استشارهم على أفضليته .

والواقع أن بواعث بناء المدن متعددة : فمنها ما شيد لأسباب عسكرية وبعضها الآخر لأسباب سياسية أو إدارية أو لأغراض الراحة والاستجمام ، أما بالنسبة لمدينة بغداد فإنها بنيت لكل تلك الأسباب المتقدمة فكانت أهم تجربة معمارية عربية إسلامية في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) اجتمعت فيها كل الخبرات الهندسية والتخطيطية والفنية وكان الإسلام مصدر إلهام للعرب والمسلمين في هذا الانجاز العظيم تخطيطاً وعمارة ، ومد ظلالاً حضارية جديدة للإنسانية جمعاء.

واسم "بغداد" ورد في النصوص والوثائق القديمة ، وظل يتردد على السنة السكان محافظاً على شكله دون تغير أو تحوير ، وللمؤلفين

العرب آراء وتخريجات متنوعة في لفظه ومعناه، قد لا يمت إلى الحقيقة بصلة، أما المنصور فقد آثر على أن يطلق على مدينته اسم "مدينة السلام" الذي لم يغلب على الاسم القديم "بغداد"؛ إذ سرعان ما تحول الناس عن الاسم الجديد إلى اسم "بغداد" مرة أخرى واقتصر استعمال اسم "مدينة السلام" على الوثائق الرسمية، وكذلك في دور الضرب في عهد عدد من الخلفاء. أما العاصمة فإنها ظلت تدعو المدينة باسم "بغداد"، وكذلك المؤرخون والشعراء. كما أطلق على المدينة اسم الزوراء والمنصورية والمدينة المدورة، ومع ذلك فقد ظل اسم "بغداد" الموغل بجذوره في هذا الموقع مستمراً حتى يومنا هذا.

وواضح أن بناء المدن والعمائر المختلفة لم يكن من الأمور الآنية المرتجلة وإنما كان يتم على وفق تنظيم وأسس علمية وهندسية مدروسة منذ أول ولوج العرب هذا الميدان، وذلك بوضع العلامات على الأرض أو الرسم على الجلود أو على القماش أو عمل النماذج المجسمة لها.

جند المنصور الخبرات الموجودة في دولته كافة لإنجاز مشروعه الكبير معتمداً على نظام الاستدعاء (الليتورجيا)؛ إذ استدعى المهندسين وأهل المعرفة بالبناء وأهل العلم بالزرع والمساحة وقسمة الأرضين والبنائين والصناع والحفارين والنجارين حتى اجتمع له نحو قرابة ألف من أرباب المهن والصناعات. وأسند مهمة الإشراف على البناء إلى رجال يتصفون بالفضل والعدالة والعفة والأمانة والمعرفة بالهندسة.

ومن الذين أشرفوا على تخطيطها وبنائها الحجاج بن أرطأة وعبد الله بن محرز وعمران بن الوضاح وشهاب بن كثير وأبو حنيفة النعمان بن ثابت الذي تولى ضرب اللبن وعده بالقصب. وكان رباح البنا يتولى بناء سور المدينة.

وهيأ المنصور كل ما تحتاج إليه المدينة من خشب بأنواعه المختلفة وجلب لها الأبواب. أما الآجر واللِّبن فهي مادة متوفرة محلياً، كما هيأ حزم القصب لوضعها بين طبقات البناء؛ لتزيد من تماسكه وقوته. وقد حاول المنصور الاستفادة من الآجر في إيوان المدائن في البناء، ولكن بعد أن هدم جزءاً منه وجد أن نفقات الهدم والنقل تزيد على نفقة إنتاج طابوق جديد في بغداد فأمسك عن تنفيذ هذا المشروع.

وبعد اختيار المهندسين والمخططين مَثَّلَ لهم المنصور "صفتها التي في نفسه" وهي أن تكون مدورة ثم أمر بأن تخط المدينة على الأرض بالرماد وبنفس المساحة والأبعاد "ثم أقبل يدخل من كل باب ويمر في فصلانها وطاقاتها ورحابها وهي مخطوطة بالرماد". ثم أمر بوضع حب القطن على تلك الخطوط وصب عليه الزيت ثم أشعلها "

فنظر إليها والنار تشتعل ، ففهمها وعرف رسمها، وأمر ان يحفر أساس ذلك على الرسم".

واحتفل المنصور بوضع حجر الأساس لمدينته على النحو الذي تتبعه الحكومات في الوقت الحاضر عند بناء المباني المهمة ، فاجتمع حوله كبار رجال دولته ووضع أول لَبِنَة بيده، ويروى أنه قال : "بسم الله ، والحمد لله ، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، ثم قال: ابنوا على بركة الله".

ولما بلغ سور بغداد مقدار قامة أمر المنصور بوقف البناء بسبب ثورة محمد وإبراهيم ذي النفس الزكية ، ثم استأنف البناء وجعلها مدورة.

وتباينت الروايات حول سنة تأسيس المدينة ، ولعل السنة التي أجمع عليها المؤلفون هي 145هـ/762م بداية للتأسيس.

وإذا تفحصنا تخطيط هذه المدينة بغض النظر عما كان يحيط بها من تحصينات كالجداول والأنهار والقنوات والأرباض المحيطة بها وغيرها ، نرى أن المخطط قد وضع عصارة فكره ، ونفذ أقصى ما يمكن من المعوقات والتحصينات أمام من يروم دخولها أو اقتحامها ، وذلك يدل على براعة المهندس العربي و ماله من سعة إدراك وبُعْد نظر.

فقد بنيت المدينة دائرية الشكل ؛ "وذلك أن المربعة إذا كان الملك في وسطها كان بعضها أقرب إليه من بعض ، والمدور من حيث هو قسم كان مستوياً لا يزيد هذا على هذا ولا هذا على هذا "والشكل المدور بحد ذاته فيه اقتصاد في المواد البنائية وفي الزمن المطلوب لإنجاز البناء كما يوحي الشكل المدور بأنه قلعة حصينة يسهل الدفاع عنها أكثر من الأشكال الأخرى ذات الزوايا التي تحجب مدى الرؤيا عن المدافعين خصوصاً أن أكثر المدن الدائرية هي حصون عسكرية أو مدن أسست لهذا الغرض الدفاعي.

والشكل الدائري للمدن والقلاع أصيل في العراق ؛ إذ نراه على المنحوتات الآشورية ، وفي تخطيط مدينة الحضر المشهورة في شمال العراق ، كما عرف هذا الشكل بدرجات متفاوتة من الدقة في أقطار أخرى، إلا أن كل الدلائل تشير إلى أن بغداد المدورة لم تتأثر بأي منها وأن المنصور هو الذي مثل للمهندسين "صفتها التي في نفسه". "فخطّ المدينة وقدر البناء " حتى قيل : إنه " لا يعُرف في أقطار الدنيا كلها مدينة مدورة سواها" هى التي قال رسول ملك الروم عنها للمنصور : "إنك بنيت بناءً لم يبنه احد كان قبلك".

والشكل الدائري يعطي للمدينة بنية محتشدة ، ويقلل المسافة بين أجزائها المبنية وذلك

يساعد على الدفاع عنها بسهولة ويُسر إضافة إلى غيرها من الفوائد الاقتصادية والاجتماعية التي تميز الشكل الدائري عن الأشكال الهندسية الأخرى.

وقد وصف الجاحظ مدينة بغداد بقوله : " قد رأيت المدن العظام والمذكورة بالإتقان والأحكام بالشامات و بلاد الروم وفي غيره من البلدان ، فلم أر مدينة قَطُ ارفع سُمْكاً ولا أجود استدارة ولا أنبل نبلاً ولا أوسع أبواباً ولا أجود فصيلاً ، وهي مدينة أبي جعفر المنصور ، كأنما صبت في قالب ، وكأنما أفرغت إفراغاً" .

وإضافة إلى الشكل الدائري لهذه المدينة، فهي مبنية على شكل حلقات متداخلة موحدة المركز معزول بعضها عن بعض بحيث إذا استطاع العدو اختراق إحداها واجه موانع أخرى تحول بينه وبين مبتغاه.

وتتفق معظم المصادر على أن المنصور أحاط مدينته بخندق وبأسوار منيعة تحميها من الأخطار في فترة تكالب فيها الأعداء على الدولة العباسية التي لم ترسخ أسسها بعد.

والوصف الذي قدمه الخطيب البغدادي في كتابه تاريخ مدينة بغداد هو أدق وأشمل ما قدم عن تخطيط هذه المدينة ، ونستخلص منه ومن غيره من المصادر أن المدينة الجديدة تتألف من: خندق ومسناة – سور أول – فصيل أول – سور ثان – فصيل ثانٍ – المنطقة السكنية والممرات ذات الطاقات الكبرى – فصيل ثالث – سور ثالث – الطاقات الصغرى – ثم الرحبة المركزية حيث قصر الخليفة والمسجد والدواوين وقصور الأتباع ، ولكل من هذه الأقسام ميزته الدفاعية التي أدت دوراً فاعلاً في حمايتها .

الخندق:

فالخندق عريض (40 ذراعاً) كان مبطناً من جانبية بالآجر والنَّوْرَة لحماية السور من ماء الخندق الذي كان يأتيه من نهر كرخايا (فرع من الفرات) ، والغرض من هذا الخندق هو زيادة تحصين المدينة التي جعلها المنصور محلاً لسكناه وسكنى حاشيته وحرسه ورعيته، فهو أول عائق مهم يمنع العدو من التقدم و الوصول إلى جدران السور الأول أو مداخله ، وهو من التحصينات التي عرفتها مدن كثيرة قبل الإسلام و بعده.

السور الأول:

والسور الأول لهذه المدينة ضخم ، تم بناؤه والفراغ من الخندق سنة 149هـ/766م بُنِيَ باللَّبِنِ الكبير الحجم (ذراع × ذراع) ومغلف في الجزء السفلي منه بالآجر والنورة (مسناة) ليحفظه من ماء الخندق، وقد فتحت في

جداره أربعة مداخل في الاتجاهات الأربعة الرئيسة وتقابل مدناً مشهورة سميت باسمها وهي: باب الكوفة وباب البصرة وباب الشام وباب خراسان ويوصل إلى الأبواب بقناطر أو جسور متحركة ، ترفع وتخفض عند الحاجة ، فإذا ما رفعت تعذر الوصول إلى المدينة وانقطعت عما سواها.

وتشير المصادر إلى أن أبواب السور الأول كانت ذات تخطيط فريد و مبتكر في العمارة العربية الإسلامية فهي ذات ممرات مزورّة (منكسرة) إلى جهة اليسار ، فاذا "دخل الداخل من باب خراسان عطف على يساره في دهليز أزج معقود بالآجر والجِص عرضه عشرون ذراعاً ، وطوله ثلاثون ذراعاً والمدخل إليه في عرضه والمخرج منه في طوله" ويوضح ياقوت هذا الازورار فيقول "إنما سميت بالزوراء وذلك لأن المنصور حين عمرها جعل الأبواب الداخلة مزورّة عن الأبواب الخارجة، أي ليست على سَمْتِها".

ومن مزايا المداخل المزورّة أن على الداخل فيها أن يدور بوجهه و جسمه إلى جهة اليسار ، فيصبح بذلك مكشوفاً أمام المدافعين ، فيصيبوا منه مقتلاً ، كما أن الداخل في مثل هذه الممرات لا يمكنه الاندفاع بنفس سرعة الداخل في الممرات المستقيمة فيتوفر الوقت الكافي للمدافعين ليسكبوا على المهاجمين ما استطاعوا من السوائل المحرقة من المزاغل الأفقية في سقف دهليز المدخل كما أن الازورار يحول دون استخدام الباب عند الوصول إليه لتصويب القذائف إلى الأفنية الداخلية.

وهذا النوع من المداخل عربي عراقي أصيل ، نفذ في الحصون الآشورية وفي أسوار مدينة الحضر قبل بناء بغداد المدورة بعدة قرون ، واستمر بناؤه بعد ذلك في تحصينات ومداخل الأسوار والقلاع ومازال قائماً في باب الظفرية (الوسطاني) أحد أبواب سور بغداد الشرقية . وتأثر الصليبيون بهذه المداخل ونقلوها إلى قلاعهم و حصونهم التي بنوها في الشرق ثم إلى أوربا بعد طردهم من الشرق .

والسور الأول سميك في الأسفل ، ويقل سمكه كلما ارتفع إلى الأعلى ، ووضعت بين طبقاته حزم من القصب لتزيد من تماسكه أمام ضربات أسلحة العدو ، لأن اللبن مادة لينة ووضع حزم القصب بين طبقاته تساعد على امتصاص قوة الضربات دون أن يتهشم. وكانت تدعم جدران هذا السور أبراج يرجح أنها أسطوانية الشكل أشبه بالأبراج التي تدعم أسوار أبنية مدينة سامراء التي لا تزال قائمة حتى يومنا هذا .

الفصيل الأول :

ويفصل السور الأول عن السور الثاني فصيل فسيح غير مسكون ، ولم يبن فيه مترل فيوفر للمدافعين ميداناً مناسباً للمناورة و دحر العدو وإعاقته وأبعاد ناره التي قد يستخدمها ضد سكان المدينة. وتنفتح أبواب السور الأول على هذا الفصيل برحبات مستطيلة الشكل (40×60 ذراعاً) على كل من جانبها حائط فيه باب يقفل عند الخطر فينقسم الفصيل إلى أربعة أقسام تُجَزِّئُ القوة المهاجمة الواصلة إليه إلى أربعة أجزاء يصعب الاتصال ببعضها فيسهل القضاء عليها.

السور الثاني (السور الأعظم):

أما السور الثاني (السور الأعظم) فهو أكثر ارتفاعاً وسعة من السور الأول وهذا التفاوت في الارتفاع يعطي فائدة دفاعية رائدة في حالات الحصار ؛ إذ يستطيع المدافعون القائمون فوق السور الأعظم من مراقبة تحركات العدو خلف السور الأول والخندق ، كما يسهل توجيه القذائف إلى صدور العدو المهاجمين. وهذا السور هو الحصن الدفاعي الرئيس في المدينة، وأقواها فهو مبني بالآجر والجص عريض في الأسفل وعليه أبرجة عظام ترتفع فوق السور خمسة أذرع وعلى السور وأبراجه شُرَف مدورة للدفاع عن المدينة .

وعدد أبراج السور مائة وثلاثة عشر برجاً ، وضع ثمانية وعشرون برجاً بين كل بابين إلا ما بين بابي الكوفة والبصرة فهي تسعة وعشرون ، وهذه الأبراج ذات صفة دفاعية فهي أكثر ارتفاعاً من السور فتحمي المدافعين القائمين فوقه ، كما يرجح إنها كانت مزودة بمزاغل تساعد المدافعين على توجيه سهامهم إلى المهاجمين وتحميهم في الوقت نفسه من أسلحة المهاجمين.

أما المداخل المفتوحة في السور الثاني فهي أربعة مداخل مستقيمة تتناظر مع المداخل في السورين : الأول والثالث ويعلو كل مدخل فوق السور غرفة عليها "قبة معقودة عظيمة مذهبة" يؤدي إليها درج علية أبواب تغلق.

والارتفاع الكلي لهذه القبة خمسون ذراعاً وحولها مرتفقات وعلى رأس كل قبة منها تمثال تديره الريح ، لا يشبه نظائره فوق القباب الأخرى ، وربما كانت لهذه الغرف مزاغل عمودية تواجه المداخل في السور الأول من الداخل إضافة إلى مزاغل أفقية مفتوحة فوق دهاليزها شبيهة بتلك التي نجدها فوق مداخل حصن الأخيضر وكانت هذه القباب مجالس المنصور إذا أحب النظر إلى أي من جهات المدينة الأربع .

"وعلى كل من أبواب المدينة الأوائل والثواني باب حديد عظيم جليل المقدار ، كل باب منها فردان" "ولا يغلق الباب الواحد منها و لا يفتحه إلا جماعة رجال" ويتصل أحد البابين برحبة الفصيل الأول ، أما الباب الثاني فيفتح على رحبة الفصيل الثاني. وقد جلب المنصور خمساً من هذه الأبواب من مدينة واسط ، وجيء بباب سادس من الشام ليوضع على باب خراسان، كما وضع على باب الكوفة الخارج باب جيء به من الكوفة من عمل خالد بن عبد الله القسري ، أما الباب الثامن فقد كان من عمل المنصور ليوضع على باب الشام وكان أضعفها ، وكانت هذه المداخل مرتفعة ، بحيث "يدخل الفارس بالعلم و الرامح بالرمح الطويل من غير أن يميل العلم ولا يثنى الرمح .

الفصيلين : الثاني والثالث والممرات ذات الطاقات الكبرى :

وتؤدي المداخل في السور الثاني إلى رحبات مربعة (20 × 20 ذراعاً) إلى يمين ويسار كل منها فصيل ثان عرضه 25 ذراعاً ، يدور حول السور الثاني من الداخل وتشرع فيه أبواب السكك. وتؤدي إلى هذه الرحبة في الجهة المقابلة للداخل إلى "ممر ذي طاقات ، عددها ثلاثة وخمسون طاقاً ، عدا طاق المدخل إليها من الرحبة الذي عليه باب ذو فردين يغلق مصنوع من خشب الساج ، وعرض هذا الممر خمس عشرة ذراعاً و طوله مائتي ذراع وعلى جانبيه بين الطاقات غرف ، استخدمت في البداية كأسواق ، ثم أماكن للحرس من جند وقواد حين أمر الخليفة المنصور سنة 157هـ/773م بنقل الأسواق إلى ربض الكرخ لأسباب أمنية. وقد روعي في هذه الممرات ان تكون حصينة ، لأنها المنفذ الرئيس إلى الرحبة المركزية التي فيها قصر الخليفة فكانت خالية من الفتحات إلا من كوى في سقفها يدخل منها الضوء والشمس ولا يترل منها ماء المطر. وتنتهي هذه الطاقات في الجهة الثانية برحبة أخرى مربعة الشكل ، عشرون ذراعاً في عشرين ، عن يمينها وعن شمالها فصيل ثالث يدور حول السور الثالث من الخارج ويتصل بالرحبات المربعة التي في نهاية الممرات الأخرى. وفي الجهة المقابلة للداخل من هذه الرحبة باب يؤدي إلى أحد الأبواب في السور الثالث وإلى الطاقات الصغرى التي تلي دهليز المدينة الذي منه يخرج إلى الرحبة الدائرة حول القصر والمسجد ، والمداخل الأربعة لهذه المدينة على صورة واحدة في الأبواب والفصلان والطاقات.

المنطقة السكنية :

وتنحصر المنطقة السكنية في المدينة بين الفصيلين : الثاني والثالث ، وكان المنصور قد أمر

بالبناء في هذا الجزء "لأنه أحصن للسور" ، ونظم الشوارع على ما أراد وأقطع جل من يثق بهم من قواده ومواليه داخل المدينة ، وكانت دروبها تنسب إليهم وموثقة من طرفيها بأبواب محكمة. وفي سكة المطبق ما بين بابي الكوفة والبصرة كان يقوم الحبس المسمى بـ "المطبق" وحدد المنصور دخول الرحبة المركزية بالممرات الأربعة ذات الطاقات ورتب على كل باب من الأبواب الرئيسة للمدينة مما يلي الرحاب ستور وحجاب وقائد في ألف جندي "فكان على باب الشام سليمان بن مجالد ، وعلى باب البصرة أبو الأزهر التميمي ، وعلى باب الكوفة خالد العكى وعلى باب خراسان مسلمة بن صهيب الغساني"، وكان لا يسمح لأحد بدخول المدينة إلا راجلاً . ولحماية المدينة من الغرباء والجواسيس نقل الأسواق خارجاً إلى ضاحية الكرخ ، كما ذكرنا آنفاً وبنى مسجداً جامعاً في الكرخ ؛ ليقلل من دخول المصلين إلى المدينة المدورة.

السور الثالث و الرحبة المركزية :

أما السور الثالث المحيط بالرحبة المركزية فيبدو أنه كان بسيطاً أشبه بحاجز داخلي يفصل قصر الخليفة وخاصته ودواوين الدولة عن سائر أجزاء المدينة ، فكان أضعف الأسوار الثلاثة لأن التركيز الدفاعي الرئيس كان على السورين : الأول والثاني وعلى المداخل الأربعة فيهما ، وكان أي من سكك ودروب المنطقة السكنية لا يتصل بهذا السور .

وتؤدي إلى الرحبة المركزية أربعة مداخل فتحت في السور الثالث تتناظر هي والمداخل المفتوحة في السورين : الثاني والأول وتؤدي إلى الطاقات الصغرى التي في كل صف منها ست طاقات، سوى طاقي البابين تلي دهليز المدينة الذي منه يخرج إلى الرحبة الدائرة حول القصر والمسجد ، وليس حول القصر بناء ولا دار ولا مسكن لأحد إلا دار من ناحية باب الشام للحرس وسقيفة كبيرة ممتدة على عمد مبنية بالآجر والجص ، في إحداهما صاحب الشرطة وفي الأخرى صاحب الحرس ، كما تدور منازل أولاد المنصور ومن يقرب من خدمته من عبيده وبيت المال وخزانة السلاح وديوان الرسائل وديوان الخراج وديوان الخاتم وديوان الجند وديوان الحوائج وديوان الاحشام ومطبخ العامة وديوان النفقات.

جامع المنصور:

ويروى أن الحجاج بن أرطأة هو الذي أشرف على تخطيط هذا المسجد ووضع أسسه بأمر من الخليفة المنصور ملاصقاً لقصره المعروف بباب الذهب. بناه باللبن والطين ، وكانت مساحته مربعة (200 × 200 ذراع) "وأساطينه

من الخشب ، كل أسطوانة قطعتين معقبتين بالعقب والغرى وضبات الحديد إلا خمساً أو ستاً عند المنارة ، فإن في كل أسطوانة قطعاً ملفقة مدورة من خشب الأساطين" وقيل : إن القبلة على غير صواب وإن المصلى فيه يجب أن ينحرف إلى باب البصرة قليلاً وإن قبلة الجامع الذي شيده بعد ذلك في الرصافة كانت أدق منها ، ويرجع هذا الانحراف إلى بناء المسجد ملاصقاً للقصر الذي كان غير مستقيم على القبلة.

وبني هذا الجامع على نفس تخطيط مسجد الرسول ﷺ يتكون من مصلى يرجح تكونه من خمسة أساكيب وسبع عشرة بلاطة ومجنبتين لكل منهما رواقان ومؤخرة كذلك ، وكلها تدور حول صحن مكشوف وكان في المسجد منارة ومحرابٌ ومنبر ومقصورة. وأصبح بعد ذلك نموذجاً للمساجد التي بنيت في العصر العباسي.

وفي زمن الخليفة هارون الرشيد أعيد بناء الجامع بالآجر والجص وزاد في نواحيه سنة **192**هـ/**807**م ، وسجل هذا التجديد على لوحة تضمنت اسمه واسم البناء والنجار وتاريخ البناء ، ويبدو أن الخليفة هارون الرشيد صنع لهذا المسجد منبراً خشبياً متحركاً غير المنبر القديم، كان عليه اسمه ، وكان يحفظ في غرفة مجاورة للمحراب بعد انتهاء الخطبة. وضاق المسجد بالمصلين فأضيفت إليه سنة **260**هـ/**873**م أو سنة **261**هـ/**874**م دار مجاورة كانت تعرف باسم (دار القطان) وكانت قديماً ديواناً للمنصور وجعلت مصلى للناس.

وفي سنة **280**هـ/**893**م أمر الخليفة المعتضد بالله تجديد وتوسيع الجامع ، وأضاف إليه جزءاً من قصر الذهب ، ووصله به ، وفتح سبعة عشر عقداً في الجدار الذي كان يفصل الجامع عن القصر ، وكانت ثلاثة عشر عقداً منها تؤدي إلى الصحن وأربعة عقود إلى الرواقين الجانبيين، وأمر بتحويل المنبر والمحراب والمقصورة إلى المسجد الجديد المضاف من قصر الذهب ، فأصبح للمسجد صحنان: صحن الجامع القديم ، والصحن الجديد. وكان وجود الصحنين في المسجد ظاهرة لافتة للنظر ، فقد كتب المقدسي في نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي عن مدينة فسا في إقليم فارس أن " الجامع فيها من أجر له صحنان على عمل جامع مدينة السلام".

وظل جامع المنصور مستعملاً لإقامة الشعائر الدينية خلال القرون الخمسة من حكم الدولة العباسية ، لكنه اندثر وضاعت معالمه ، وهناك محراب عثر عليه في جامع الخاصكي ببغداد ومحفوظ الآن في المتحف العراقي، واستناداً إلى خصائصه الفنية نسبه البعض إلى أواخر

العصر الأموي وبداية العصر العباسي ، وأنه صنع خصيصاً لجامع المنصور في بغداد .

قصر باب الذهب:

أما قصر المنصور المسمى باسم قصر باب الذهب أو قصر الذهب وقصر القبة الخضراء فهو مربع الشكل ، طول ضلعه **400** ذراع ، يقع في مركز المدينة المدورة وفي وسط القصر إيوان ، عمقه ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون في صدره مجلس مربع ، طول ضلعه عشرون ذراعاً وارتفاعه عشرون وسقفه قبة. وفوق هذا المجلس مجلس آخر بنفس المساحة والارتفاع مغطى بقبة مشهورة بالقبة الخضراء والارتفاع الكلي لهذه القبة ثمانون ذراعاً في أعلاها تمثال فارس يدور مع الريح ، ويروى أن هذه القبة كانت كلها عقود مفتحة لئلا يرميها الهواء من علوها في الجو.

وقد حلت بهذا القصر وبالمدينة المدورة أضرار بليغة بسبب الحروب والأعاصير والأمطار والفيضانات ، فقد سقط رأس القبة الخضراء سنة 329هـ/940م وسقطت كلياً سنة 654هـ/ 1256م وزالت آثارها . وبالإضافة إلى ما ذكر من احتياطات لحماية الخليفة وحاشيته داخل هذه المدينة فقد شق فيه نفق سري طويل ، يوصل السائر فيه خارجاً على بعد فرسخين.

يتبين لنا من هذه النظرة الشاملة على تحصينات مدينة بغداد المدورة مدى نضوج الفكر الدفاعي لدى مصممي المدن والحصون في العصر الإسلامي المبكر فمداخلها ورحابها وممراتها ذات الطاقات الكبرى تقسمها إلى أربعة أرباع مستقلة ، وبذلك يمكن السيطرة على العدو في حال اقتحامه للمدينة كما يمكن السيطرة على سكانها بسهولة في حالات الشغب والتمرد. وواضح أيضاً من هذا التخطيط أن المدينة لم تكن في الأصل مدينة بالمعنى المتعارف عليه في بناء المدن ، إنما كانت في الواقع قلعة وحصناً ومركزاً إدارياً كبيراً (دار إمارة) يضم قصراً عظيماً لإقامة الخليفة وحمايته وحماية جهازه ، ومحاطة بالحرس والجند وبكل ما تحتاج إليه من تحصينات في وقت تألبت فيه كل القوى الشريرة المعادية للإطاحة بالدولة العباسية التي لم ترسخ أسسها بعد ولذلك جاءت المدينة في مثل هذه الظروف التي تتسم بالجدية "لا أحكم بناء ولا أحصن أسواراً منها" بعيدة عن كل مظاهر التعقيد والتجميل من حدائق ونافورات ومياه وغيرها من وسائل الراحة والتي أظهرها وافد ملك الروم عند تقييمه للمدينة . فالدخول إليها يوحي بالرهبة بحيث يشعر الإنسان وكأنه يدخل قصراً ملكياً خاصاً محاطاً بالحرس وبالتحصينات ليس إلا. فهي قلعة حصينة ومعسكر مكين تقف مثالاً بارزاً بين أمثلة المدن التي أنشئت قبلها لكن تحصيناتها لا توفر لها صفة المرونة ولا تسمح لها بالتوسع ، ويبدو أن

المنصور بالفعل أرادها مدينة قصر له وجنده. هذا بالنسبة للجانب الغربي من بغداد (الكرخ).

أما بالنسبة إلى الرصافة (بغداد الشرقية) فقد أمر المنصور ببنائها سنة 151هـ/768م لتكون معسكراً لابنه المهدى مقابلة للمدينة المدورة ، وبنى لها سوراً وخندقاً ومسجداً وأجرى لها الماء ، وأمر المهدي بالإقامة فيها مع عسكره. وكانت مساحتها فى مساحة مدينة بغداد المدورة. وسميت باسم معسكر المهدي وبالمهدية أيضاً.

ويبدو أن المهدي قد فضل الإقامة في الرصافة بعد توليه الخلافة ؛ إذ أمر ببناء مسجد فيها قيل : إنه أكبر من مسجد مدينة السلام وأجمل بناء منه ، كما أمر ببناء قصره في قلب المدينة بالقرب من مسجدها الجامع وفضل عدد من الخلفاء سكنى الرصافة وكان لذلك له أثره في توسعها على حساب مدينة السلام فنشأت المحلات والأحياء وكثرت القصور .

ومع انتقال العاصمة العباسية من بغداد إلى سامراء سنة 221هـ/835م فإن بغداد لم تتأثر كثيراً بهذا التغيير ، لأن الناس لم يجدوا عوضاً عن بغداد التي ظلت تنعم بمستوى لائق من الازدهار الاقتصادي والفكري والحضاري ، وظل الخلفاء وذوو السلطان على اتصال دائم بها، وبقيت متأثرة بالحياة السياسية العامة للدولة فكانت مسرحاً للصراع المرير على السلطة بين المعتز والمستعين.

ويبدو أن السور الأول الذي بناه الخليفة المنصور حول الرصافة لم يعمر طويلاً ؛ لأن الخليفة المستعين بالله (248-251هـ/862-865م) عندما لجأ إلى بغداد سنة 251هـ/865م لم يجد إلا بقايا قليلة من سور يحيط بجانبيها شرقاً وغرباً "فأدار عليها سوراً ضخماً منيعاً مشيداً بالآجر والجِص". يبدأ القسم الشرقي منه من ضفة نهر دجلة ويضم داخله المحلات الثلاثة الرئيسة: محلة الشماسية ومحلة الرصافة ومحلة المخرم . ويبدأ القسم الغربي منه من ضفة دجلة أيضاً. ويحيط بالمحلات المهمة حول المدينة المدورة.

وسور المستعين هذا كان عريضاً وقوياً ، كما أنه كان عالياً يصعب تسلقه ونصبت في أعلاه المجانيق والعرادات وفتحت فيه أبواب يصل عددها إلى ثلاث عشرة بوابة ، وحفرت الخنادق حول القسمين : الشرقي والغربي ، وقطعت الأشجار ، وهدمت الدور المتاخمة للسور من الخارج لرصد الأعداء بشكل جيد ، ووضعت عند الأبواب الشداخات وعليها المسامير والأوتاد المدببة التي تعوق تقدم الأعداء. ووضعت المجانيق والعرادات لرمي الحجارة

الكبيرة ، كما ركبت الأبواب المتزلقة لتحمي الأبواب من الداخل.

ويبدو أن سور المستعين لم يقاوم طويلاً ؛ فقد تصدع وتضرر بفعل الحرب وزال واندثر بفعل الفيضانات المدمرة ، كما أن قسماً كبيراً من مواده البنائية نقلت لكي تبنى بها أبنية جديدة.

وبقيت بغداد بعد تداعي سور المستعين لفترة طويلة من غير سور يحميها ويجمع أطرافها ، لذلك عندما عادت الخلافة إلى بغداد مرة ثانية سنة 279هـ/892م أصبح من الواجب حمايتها وتحصينها ؛ لأن المدينة قد توسعت كما اتخذ الخلفاء من مدينة بغداد الشرقية (الرصافة) هذه المرة مقراً رسمياً لهم بدلاً من المدورة حتى نهاية دولتهم سنة 656هـ/1258م ، واتخذوا من القصر المعروف بالحسني (نسبة إلى الحسن بن سهل سكنه المعتضد بعد عودته من سامراء وأنفق عليه أموالا طائلة من أجل عمارته وتوسيعه) فيها دار خلافة لهم بعد أن أضافوا إليه ووسعوه وأحاطوه بسور يميزه عن غيره من القصور ودور الرعية والأسواق المحيطة به والتي صارت تسمى "حريم دار الخلافة" ، وأحاطوها جميعها بسور ثان نصف دائري تقريباً، فتحت فيه تسعة أبواب ، ولم يكن الغرض من هذا السور دفاعياً ، بل كان جداراً عازلاً عن المناطق السكنية ، وقد زالت آثار هذين السورين ، وأصبح من الصعب التثبت من مكانهما وحدودهما، إلا أن العمران في بغداد الشرقية لم يتوقف واستمرت المدينة بالنمو والتوسع مما أوجب إحاطتها بسور عظيم وخندق يحميها من الأخطار التي تهددها.

ففي مستهل حكم الخليفة المستظهر بالله (487 -512هـ/1094-1118م) قام الوزير ابن جهير التغلبي بتخطيط تحصينات بغداد الشرقية سنة488هـ/ 1095م وأمر بجباية الأموال من الناس للإنفاق على إنشاء السور وأذن للعوام بالتفرج والتبرع للمشاركة في البناء، فظهرت بذلك فنون اللهو والألعاب " وحمل أهل المحال السلاح والأعلام والبوقات والطبول ومعهم المعاول والسبلات وأنواع الملاهي من الزمور والحكايات والخيالات فعمل أهل باب المراتب من البواري المقيرة على صورة فيل وتحته قوم يسيرون به وعملوا زرافة كذلك. وأتى أهل قصر عيسى (وهي محلة من محال بغداد) بسميرية كبيرة فيها الملاحون يجذفون .

وأتى أهل سوق يحي بناعورة تدور معهم في الأسواق وعمل أهل سوق المدرسة قلعة خشب تسير على عجل وفيها غلمان يضربون بقسي البندق والنشاب. وأخرج قوم بئراً على عجل وفيها حائك ينسج ... وكذلك الخبازون جاءوا بتنور وتحته ما يسير به والخباز يخبز ويرمي

الخبز للناس ...." وشملت سوراً عظيماً يحيط به خندق واسع ويضمان دار الخلافة وحريمها وأسوارها وما شيد حولها ، ويبدو أنه لم ينجز من هذا السور إلاجزء يسير قدر بمائة قامة فقط . وتوفي المستظهر سنة512هـ-1118م فخلفه ابنه المسترشد بالله (512هـ-1118م/529هـ 1134م) الذي عزم على إكمال ما بدأه والده فقرر في سنة 517هـ/1123م بناء هذا السور وضم داخله دار الخلافة وسورها وجميع المحلات التي أنشئت حولها وحفر بعد ذلك خندق واسع حول السور وبنيت مسناة من الآجر والنَّوْرة تمنع تسرب الماء إلى جدار السور.

ويتكون هذا السور من جدار سميك بني بالآجر والجِصّ عرضه اثنان وعشرون ذراعاً ، ويحيط بالمدينة على شكل قوس كبيرة ، يبدأ من نهر دجلة عند باب المعظم الحالي شمالاً ، وينتهي عند دجلة أيضاً عند الباب الشرقي الحالي جنوباً. وتحيط به مسناة وخندق ، وقد دعم هذا السور بأبراج ضخمة بينها أبراج صغيرة. والواجهة الداخلية للسور زينت بحنايا كبيرة صماء معقودة في أعلاها ، غرضها تقوية السور -على الأرجح- وفتح في السور أربعة مداخل رئيسة منحنية (مزورة وموزعة فيه على أبعاد متفاوتة ، كما فتحت فيه أبواب أخرى ثانوية وسرية. أما أبوابه الرئيسة فهي:

1. باب السلطان (باب المعظم):

سمي بهذا الاسم نسبة إلى السلطان طغرلبك الذي دخل بغداد من هذا المكان. وسمي أيضاً بباب المعظم ؛ حيث يبتدئ به الشارع المؤدي إلى مشهد الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان بن ثابت ، وبقى الباب قائماً حتى سنة 1344هـ/1925م هدم بعدها للأسف الشديد.

ويظهر من الصورة الملتقطة قبل هدم الباب أنه يختلف عن بقية الأبواب ويرجح أنه لم يكن الباب الأصلي الذي بناه العباسيون ، وربما أعيد بناؤه في الفترة العثمانية على الأرجح ؛ إذ هو أشبه بمداخل الحصون والثكنات العثمانية لخلوه من التحصينات التي تتميز بها مداخل المدن عموماً ، والتي نراها في بقية المداخل. ومازالت آثار هذا الباب ظاهرة على واجهة جدار قاعة الشعب المطلة على جامع الازبك الحالي ، ومنها حنايا ومزاغل شبيهة بتلك التي في باب الظفرية .

2. باب الظفرية (الباب الوسطاني):

وهو أقدم مثال قائم في بغداد من المداخل التي ترجع إلى هذه الحقبة ، ويقع قرب ضريح الشيخ عمر السهرودي ، وسمى بباب الظفرية نسبة إلى ظفر أحد مماليك دار الخلافة العباسية ،

وسمي أحيانا بـ" باب خراسان" ويسمى الآن بـ"الباب الوسطاني" لتوسطه جدار هذا السور .

يتكون هذا الباب من برج أسطواني تقريباً بني بالآجر والجص ، يبلغ ارتفاعه حوالي14,50م ومحيطه عند قاعدته 56م تقريباً ، وللبرج بابان أحدهما في الجهة الشمالية الغربية عرضه حوالي 3م يُتوجُهُ عقد مدبب منفرج الزاوية ارتفاعه 4م تقريباً وأمامه قنطرة فوق الخندق تتكون من عقدين مدببين. أما الباب الثاني فيقع في الجهة الجنوبية الغربية من البرج ، عرضه ثلاثة أمتار وارتفاعه حوالي 3،5م يؤدي إلى قنطرة أكبر وأعلى من القنطرة السابقة ، بنى على جانبها جدار عريض فيه مزاغل مستطيلة لرمي السهام وفوقه جدار آخر أقل سمكاً فيه مزاغل أصغر حجماً.

أما داخل البرج فيتكون من غرفة مثمنه طول ضلعها حوالي 3,5 م تعلوها قبة قليلة التحدب ، وفي كل من أضلاع الغرفة تجويف عمقه 2,5م وعرضه 3م وسقفه قبو مدبب فتح في بعضها مزاغل وفي اثنين منها فتح بابا البرج.

وعلى جانبي واجهة المدخل المطل على المدينة نحت أسد صغير من الآجر ناتىء قليلاً عن مستوى الواجهة ، ويعلو عقد الباب وكوشتيه زخرفة من حشوات أجرية نقشت بالزخارف الهندسية والنباتية الدقيقة. والقسم العلوي من البرج محاط بشريط كتابي منفذ بخط الثلث حروفه بارزه فوق أرضية من الزخارف النباتية.

والملاحظ في هذا الباب أن البناء اعتمد مبدأ الازورار في تنفيذه ، كما رأيناه في مداخل مدينة بغداد المدورة ، إلا أن الازورار هنا كان إلى جهة اليمين بدلاً من جهة اليسار.

3. باب الحلبة (باب الطلسم):

سمي بباب الحلبة لأن الأرض التي أقيم عليها كانت حلبة للسباق. وعندما جدد الخليفة الناصر لدين الله سور بغداد الشرقية جدد معه هذا الباب سنة 618هـ/1221م وبنى فيه برجاً ضخماً ثبت عليه تاريخ البناء في الكتابة التذكارية المنقوشة فوقه. وقد أطلق على هذا الباب مؤخراً اسم (باب الطلسم) تأثراً بالزخارف المنقوشة عليه ، والتي عدها بعض العامة طلسماً تحمي المدينة من الشرور والأعداء.

ويظهر من الصورة الملتقطة لهذا الباب قبل هدمه أنه قريب الشبه بباب الظفرية ، فهو يتكون من برج ضخم أسطواني الشكل تقريباً بني بالآجر ، ويتصل بقنطرتين آثارهما ظاهرة في الصورة ، وفتحت في أعلى البرج وفي جوانبه مزاغل عمودية في جميع الاتجاهات ويطوق الجزء العلوي من هذا البرج شريط كتابي بخط الثلث فوق أرضية من الزخارف النباتية الدقيقة تشير

إلى بنائه بأمر من الخليفة الناصر لدين الله. ونصها كما نقلها الرحالة نيبور:

" بسم الله الرحمن الرحيم وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . هذا ما أمر بعمله سيدنا ومولانا الإمام المفترض الطاعة على كافة الأنام ابو العباس احمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين وحجة الله عز وجل على الخلق أجمعين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آبائه الطاهرين ، ولا زالت دعوته الهادية على بقاع الحق مناراً والخلائق لها أتباعا وأنصارا وطاعته المفترضة للمؤمنين أسماعاً وأنصارا.

وافق الفراغ في سنة ثمانى عشر وستمائة وصلواته على سيدنا محمد وآله الطاهرين".

ويعلو فتحة الباب عقد مدبب منفرج الزاوية مؤلف من صنج حجرية معشقة يستند على عمودين صغيرين مندمجين وأسفل كل من طرفي العقد صورة أسد صغير جالس على رجليه الخلفيتين. ويعلو العقد زخرفة تمثل مشهداً محفوراً بمستويين : العلوي منهما قوامه شخص مهيب جالس في الوسط بألبسة فضفاضة مزركشة ، وحول رأسه هالة مدورة تدل على مكانته وقوته، وهو يقبض بكل من يديه لساناً مشقوقاً لحيوان خرافي هائل مجنح فاغراً فاه بأنياب حادة مدببة ويعلو رأسه قرنان معقوفان وانعقد جسم كل منهما بشكل أفعواني. وقد نفذ هذا المشهد فوق أرضية من أغصان وفروع نباتية دقيقة.

4. باب البصلية:

يقع هذا الباب في المنطقة الجنوبية من السور ، وسمي بـ "البصلية" نسبة إلى محلة قديمة كانت يزرع فيها البصل ، وكان يعرف أيضاً بـ "باب كلوا ذا" لأن الطريق منه يؤدي إلى قرية "كلوا ذا" جنوبه كما أنه سمي بـ "الباب المظلم" ومكانه الآن منطقة الباب الشرقي وهدم سنة 1356هـ/ 1937م وكان الإنكليز قد اتخذوه كنيسة.

ويظهر على صورته الملتقطة قبل هدمه آثار عناصر عمارية وزخرفية. ويبدو أن البناء اعتمد في بنائه مبدأ المدخل المنكسر والقناطر التي تربطه بداخل المدينة وخارجها .

يتبين من العرض السابق أن تحصين مدينة بغداد كانت الشغل الشاغل للخلفاء العباسيين إلا أن ما بنوه من تحصينات كثيرة قد تهدمت واندثرت باستثناء باب الظفرية. أما بالنسبة للأبنية المدنية منها والدينية فإن القائم منها قليل جداً ، مقارنة بما ذكرته المدونات العربية ، ولكنها على كل حال تعكس النشاط العماري للعباسيين وتوضح السمات العربية لأبنيتها من

تخطيط وتصميم وزخرفة وعناصر عمارية ومواد بناء وغيرها. وأبرز المظاهر العمارية في بغداد العباسيين هي القباب المخروطة المقرنصة.

القباب المخروطة المقرنصة (البرجية المقرنصة والصنوبرية):

لقد تميز إقليم العراق وإقليم الجزيرة بالقباب المتنوعة الأشكال والأغراض ، ومن أبرزها القباب المخروطة: المضلعة والمسننة والمقرنصة وما تطور عنها من قباب مفردة وأخرى مضاعفة.

والقباب المخروطة المقرنصة المفردة يشكل المقرنص فيها العنصر الأساس في تكوينها بشكل طبقات دائرية يتناقص قطرها كلما ارتفعت إلى الأعلى لتتوج بعد ذلك بقبيبة صغيرة ذات شكل مختلف.

وقد أجمع الباحثون على أن العراق هو الموطن الأصلي للقباب المخروطة المقرنصة. وأنها نشأت وترعرعت في إقليم العراق في العاصمة بغداد على وجه الخصوص ، ولا يمكن أن يكون مولدها في إيران –كما يرى باحثون آخرون– لأن النماذج التي حصلنا عليها من إيران متأخرة عن القباب العراقية ؛ فأقدمها يعود إلى القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) في حين أن أقدم القائم منها في العراق هي قبة الإمام محمد الدوري (النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي) والتي ثبت أن بانيها عراقي الأصل. وهو دليل قوي على أصالتها وأنها نضجت ثم انتقلت من العاصمة بغداد إلى مناطق أخرى من إقليم العراق وإقليم الجزيرة. وإلى منطقة الخليج العربي وجنوبي إيران وبلاد الشام واليمن .

وقد تجلى ذلك ببلاد الشام في بنائين شهيرين شيدهما نور الدين زنكي في مدينة ، دمشق وهما : المدرسة النورية الكبرى ، والبيمارستان النوري ، غطتهما المقرنصات الدقيقة من الداخل ومن الخارج ، وفي هذين البنائين ظهرت بصمات المدرسة العراقية وتأثيراتها واضحة بدليل عدم وجود شبيه ونظير لهاتين القبتين في كل المباني التاريخية في سوريا.

وطراز القباب المخروطة وجد طريقه إلى اليمن – إلى مدينة زبيد على وجه الخصوص – التي تعتبر من أكثر المدن اليمنية احتفاظاً بالقباب المخروطة المقرنصة التي توجت بها مآذن المساجد والمدارس فيها.

ويرجح أن الأيوبيين الذين خلفوا بني زنكي في مقارعة الصليبيين وحكم بلاد الشام هم الذين نقلوا هذا الطراز إلى اليمن وإلى زبيد على وجه الخصوص عند حكمهم له ؛ فقد عُنوا عناية خاصة بهذه المدينة ، وكان لهم دور رئيس في بناء مدارسها ومساجدها والإشراف عليها والعناية

بها. وفي الجامع الكبير بمدينة ثلا شمالي صنعاء قبة مخروطة مقرنصة هي المثال الوحيد خارج مدينة زبيد قائمة فوق أحد أروقة بيت الصلاة ترجع إلى القرن الثامن الهجري (14م) على الأرجح .

وهكذا يتبين أن القبة المخروطة المقرنصة نشأت وتطورت وبرزت بشكليها المفرد والمضاعف بين مدينة الدور شمال سامراء شمالاً والبصرة جنوباً ثم أخذ هذا الطراز بالانتشار خارج حدود اقليم العراق ليمد أجنحته إلى منطقة الخليج العربي وإلى إيران جنوباً ، وإلى إقليم الجزيرة شمالاً ، ومنها إلى بلاد الشام ، وإلى اليمن.

ولم يقتصر البناء العراقي على هذا الطراز الناضج البسيط من القباب المخروطة بل ابتكر طرزاً أخرى: مخروطة مضلعة ومخروطة مسننة ، المفردة منها والمضاعفة ، أي قبتان فوق بعضهما يفصل بينهما فراغ ، وكل من القبتين ذات شكل مختلف كأن تكون الخارجية مخروطة مقرنصة والداخلية نصف كروية أو الخارجية مخروطة مضلعة والداخلية نصف كروية أو مضلعة من الخارج ومخروطة مقرنصة من الداخل، أو مخروطة مسننة من الخارج ومخروطة مقرنصة من الداخل ، وهذا التنوع يدل على براعة البناء ونضوجه الهندسي في الابتكار والتنويع والإخراج.

وأبرز القباب العباسية المخروطة المقرنصة في بغداد هي قبة تربة السيدة زمرد خاتون (الست زبيدة).

تربة السيدة زمرد خاتون (الست زبيدة):

يقع هذا الضريح في الركن الجنوبي لمقبرة الشيخ معروف الكرخي في بغداد ، وينسب خطأ إلى الست زبيدة زوجة الخليفة العباسي هارون الرشيد المتوفاة سنة216هـ/831م. ويرجح الباحثون نسبته إلى السيدة زمرد خاتون المتوفاة سنة599هـ/1202م.

وقد استعمل الآجر والجص في بنائها الذي يتكون من غرفة مثمنة الأضلاع طول ضلعها من الخارج 5,12م وأعلى ارتفاع لها من الخارج أيضاً 9,75م أما من الداخل فهو 8,30م ويعود هذا الاختلاف إلى عدم استواء الأرض المحيطة بالقبة، وسمك الجدران حوالي المترين غطيت من الداخل بطبقة بسيطة من الجص ، وفي وسط جدار القبيلة محراب مجوف بسيط ذو عقد مدبب غطى بطبقة من الجص الخالي من الزخرفة.

أما من الخارج فإن الجدران مكسوة بالآجر فقط على شكل تجويفات ذات عقود مدببة مملوءة بحشوات حفرت عليها زخارف هندسية ونباتية دقيقة. وأما أجمل ما في داخل غرفة الضريح من زخارف فهي مقرنصات منطقة الانتقال ومقرنصات القبة. وغرض مقرنصات

منطقة الانتقال هو عماري بحت لتحويل الشكل المثمن إلى شكل مضاعف الرؤوس لإقامة القبة عليه.

وتعلو سطح غرفة الضريح رقبة مثمنة تستقر عليها قبة مخروطة مقرنصة مكسوة بالجص من الخارج ومن الداخل وتتكون من عشرة طبقات من المقرنصات ، يتناقص قطرها كلما ارتفعت إلى الأعلى حتى تنتهي في أعلاها بشكل قبة صغيرة مضلعة. وقد فتح في الطبقة الأولى من المقرنصات ثلاث نوافذ كبيرة ، كما أن في كل مقرنص من مقرنصات القبة ابتداء من الطبقة الثانية فتحة صغيرة ، ربما للإضاءة ولدخول الشمس أو لتخفيف شدة اصطدام الريح ببدن القبة التي يبلغ ارتفاعها فوق السطح حوالي 13م ومن فوق الأرض 22م.

ويقع المدخل في الضلع الشمالي الشرقي ، ذو عقد مدبب ارتفاعه حوالي 4م وعرضه حوالي 1,75م وعلى يسار الداخل للغرفة سلم عرضه 65-70 سم عدد مراقيه 29 مرقاة مبنية في سمك صلب الجدار يؤدي إلى سطح الغرفة.

وتتقدم مدخل الضريح كنة (سقيفة) او غرفة صغيرة استحدثها حسن باشا والي بغداد سنة 1131هـ/1718م عندما دفنت فيه زوجته كما أعاد كاظم باشا بناء الكنة سنة 1323هـ/1905م وفي سنة 1972/ 1973م عمرت دائرة الآثار العراقية على ترميم الضريح وصيانته.

أما الزخارف فتقتصر على الواجهات الخارجية لجدران الضريح وجميعها منفذة بالآجر على شكل حشوات صغيرة ذات أشكال متنوعة تنتج من تجميعها زخارف متعددة من أشكال مربعات ومستطيلات ومعينات وأشكال نجمية ومتعددة الأضلاع ، وكل هذه الحشوات مزخرفة بعناصر نباتية وهندسية دقيقة ، كما اتبع البناء طريقة التفنن بأوضاع الآجر: أفقي، عمودي، مائل، بارز، غائر ليخرج منها بزخارف حصيرية دقيقة إضافة إلى التفنن بأحجام قطع الآجر. وقد شاع على واجهات الجدران عقود منفرجة مطولة في صدرها شكل مستطيل الضلع السفلي منه ، منبعج إلى الداخل على هيئة عقد مدبب .

وأبنية المدارس من العمائر الأخرى التي تطرز مدينة بغداد ، وبقي قسم منها قائماً حتى الوقت الحاضر أشهرها المدرسة الشرابية (القصر العباسي) والمدرسة المستنصرية ، وسنتناول كلاً منهما تفصيلاً.

المدرسة الشرابية (القصر العباسي):

تقع هذه المدرسة في الزاوية الجنوبية الغربية من وزارة الدفاع العراقية على الضفة الشرقية لنهر دجلة ، ويرجح أنها بنيت من قبل

الوزير شرف الدين اقبال الشرابي ، وقد التي تكامل بناؤها في شوال من سنة 628هـ/1230م.

وقبل ظهور المدارس كان المسجد هو المكان الطبيعي للتعلم ، ثم دخلت إلى جانبه أماكن أخرى كثيرة لتلقي العلم قبل ظهور المدارس المستقلة بشكلها المعروف.

والثابت أن المدرسة – كمؤسسة لها واجباتها ونظامها – ظهرت منذ أواسط القرن الرابع الهجري (10م) وانتشرت وازداد عددها في منصف القرن الخامس الهجري (11م) ، ويعود فضل تأسيسها وإبرازها ونشرها إلى الوزير السلجوقي نظام الملك وكان وراء إنشائها دوافع سياسية ودينية، والمدرسة النظامية في بغداد كانت أشهر وأقدم مدارس العراق قاطبةً، أنشأها نظام الملك ، وتكامل بناؤها سنة 459هـ/1066م إلا أنها اندرست مع غيرها من الأبنية كثير ولكن يرجح أن تخطيطها كان مربعاً أو مستطيلاً ، وحصى ذات مداخل ضخمة وصحن مكشوف حوله مصلى وإيوان واحد أو أكثر وعدد من الغرف والحجرات للسكن وقاعات كبيرة للدرس إضافة إلى المرافق الأخرى كغيرها من المدارس التي بنيت بعدها كالمستنصرية والمرجانية ، وهما مع المدرسة الشرابية تمثل القمة بين المدارس الإسلامية.

بنيت المدرسة الشرابية و زخرفت بالآجر و الجص ، ومدخلها الأصلي يقع في جدارها القبلي ويؤدي إلى مجاز تتصل به دهاليز طويلة متعامدة توصل إلى مرافق المدرسة.

وداخل المدرسة صحن مكشوف مربع الشكل تقريباً (21,5 × 20 م) تحيط به مشتملاتها ، وتتكون من غرف وحجرات صغيرة بطابقين تتقدمها أروقة في الجهات الشرقية والغربية والشمالية ويتوسطها إيوان كبير في الجهة الشمالية. أما الجهة الجنوبية فقد تهدمت عدا بعض الأسس ورجح أنها قاعة كبيرة مفتوحة على الصحن بثلاث فتحات لعلها تمثل مسجد المدرسة.

وخلف الغرف والحجرات في الجهة الشرقية من الصحن دهليز طويل سقفه بارتفاع طابقي البناء ، فتح فيه فتحات مربعة الشكل ، وتطل عليه قاعات كبيرة ، سقوفها بارتفاع الطابقين أيضاً معقودة على شكل قبو متقاطع فيه فتحة مربعة لإدخال الضوء والشمس ، وبعضها مزود بملاقف للهواء (باذهنج ، بدكير، راووق النسيم) لتلطيف الجو وتغير الهواء داخلها.

والإيوان الذي يتوسط الجهة الشمالية من الصحن يعد أهم وأجمل أجزاء المدرسة تخطيطاً وزخرفة وهو مستطيل الشكل (8,5 × 5م) وارتفاعه أكثر من تسعة أمتار يغطيه قبو مدبب

كسي باطنه بالزخارف الآجرية الجميلة التي تبدأ على ارتفاع 5،3م من الأرضية على شكل إفريز جميل يبرز قليلاً عن واجهة الجدار .

أما واجهة الإيوان فتطل على الصحن بعقد مدبب يحيط به إطار من الزخرفة الآجرية البديعة ، وعلى كل من جانبي الإيوان أربعة غرف بطابقين وهي متشابهة الشكل ومتساوية الحجم تقريباً ، يعلو كلاً من مداخلها الأربعة عقد مدبب مفتوح على الأروقة التي تتقدمها في كلا الطابقين.

أما الجهة الغربية من صحن المدرسة فتتكون من تسع حجرات في الطابق الأرضي تعلوها تسع غرف في الطابق الأول ، وهي مشابهة للجهة الشرقية من حيث سعتها وشكل الأروقة التي تتقدمها وكان معظمها مهدماً لكن دائرة الآثار العراقية أعادها إلى حالتها الأولى على نفس نمط الجهة الشرقية.

وجميع الحجرات والغرف في طابقي المدرسة متساوية الحجم تقريباً ومتشابهة يعلو مداخلها عقد مدبب ومفتوحة على الأروقة التي تتقدمها في كلا الطابقين أما سقوفها فهي مستوية وجدرانها الخارجية خالية من النوافذ باستثناء الجناح الغربي من الصحن والحجرتين اللتين على جانبي الإيوان فإن فوق مدخل كل منها فتحة، وداخل الأولى منها سلم يؤدي إلى سطح المدرسة أما السلم الثاني فيؤدي إلى الطابق الأول.

وللقاعات الكبيرة في هذه المدرسة أهميتها فهي تتوزع على الضلعين : الشرقي والجنوبي ، وترتفع سقوفها إلى مستوى طابقي البناء باستثناء قاعة واحدة. وقد سقفت جميعها بأقبية متقاطعة في وسطها فتحات مربعة أو مستطيلة للإنارة والتهوية.

أما الأروقة التي تتقدم الغرف فهي بطابقين ، وتستند عقودها على أكتاف أجرية وتتميز أروقة الطابق الأرضي بجمال زخارفها التي تشكل مجموعة من المقرنصات البديعة الأشكال والتي تعد من أجمل الزخارف الموجودة فيها ، وهي تزين سقوف وعقود هذه الأروقة.

أما زخارف هذه المدرسة فهي شبيهة بزخارف المدرسة المستنصرية ، إلا أنها تختلف عنها من حيث التنوع والأبداع. فهي تتكون من قطع أجرية متعددة الأشكال والأحجام تمتاز بدقة تكوينها وتركيبها، محفورة بعناصر نباتية وهندسية ومجمعة إلى جانب بعضها على وفق تصميم لتكون الزخرفة المطلوبة.

وتتميز الزخارف النباتية بتعدد الأشكال الهندسية التي تحيطها والتي تتكون من خطوط مضفورة ومتشابكة وأشكال مثمنة وسداسية ومثلثة ودائرية ونجمية – خماسية وسداسية وثمانية

وذات الاثني عشر رأساً إضافة إلى شكل الصليب المعكوف والأطباق النجمية ، وجميع هذه الأشكال مملوءة بالعناصر النباتية وموزعة في تقابل وتماثل جميل رائع.

أما العناصر النباتية في هذه الزخرفة فتتكون من أغصان ملتوية وأوراق متنوعة ، أهمها المراوح النخلية الكاملة وأنصافها وأشكالها المركبة بالدرجة الأولى وعناصر كأسية ، كما أن بعض الأشرطة الهندسية تنتهي بأوراق نباتية. فالتنوع في الزخارف ودقتها يجعل بعضها أشبه بالطنافس الإسلامية.

أما أهم العناصر الزخرفية في هذه المدرسة فهي المقرنصات التي نراها تزين المدخل وسقوف وعقود الأروقة المطلة على الصحن في الطابق الأرضي ، وهي تتكون من قطع أجرية صغيرة ، تجمع مع بعضها وتكون صفوفاً من الحنايا المعقودة تتدرج حتى تنتهي في أعلاها بما يشبه القباب المضلعة الكاملة وأنصافها ، وتتميز هذه المقرنصات أيضاً بما عليها من زخارف نباتية دقيقة وتنوعها ودقة تنفيذها والإبداع في حفرها مع تشابه زخارفها مع زخارف المدرسة المستنصرية .

المدرسة المستنصرية :

وللمدرسة المستنصرية مكانتها بين مدارس العالم الإسلامي قاطبة ، فهي واحدة من أجمل وأروع الأبنية العباسية في مدينة بغداد ، وهي أول جامعة عنيت بدارسة مختلف العلوم: الدينية منها والدنيوية. كما أنها أول مدرسة جمعت فيها الدراسات الفقهية على المذاهب الأربعة وألحق بهذه المدرسة دار لتدريس الطب ، وأخرى لعلوم القرآن ، وثالثة لعلوم الحديث.

وتتفق معظم المصادر على أن الخليفة المستنصر بالله بدأ ببنائها سنة **625هـ/1227م** وأكملها سنة **630هـ/ 1232م** وهو ما سُجِّلَ على مدخلها وافتتحت رسمياً سنة **631 هـ/1233م**.

والمدرسة مستطيلة الشكل تقريباً ، مساحتها الكلية حوالي **4836م^2** يتوسطها صحن مكشوف مستطيل **($62,40 \times 27,40$م)** تتوسطه بركة يأتي ماؤها من تحت الأرض من نهر دجلة عن طريق مزملة يصلها الماء بواسطة دولاب تحت المسناة .

وقد اعتمد المصمم العراقي أسلوباً عمارياً متميزاً في توزيع الوحدات البنائية المطلة على صحن المدرسة ، سواء في نظام الاواوين أو المسجد أو المدخل ، وهو ما عرف باسم "الطراز الحيري" الذي يتكون في الأساس من إيوان أوسط ، على جانبيه غرف متناظرة في ترتيبها يتقدمها رواق مفتوح على الصحن أو دونه. وهذا النظام نفذ في المدرسة الشرابية أيضاً.

وتحيط بالصحن مرافق المدرسة التي تتكون من إيوان كبير في كل من الجهتين الشرقية والغربية وإيوان المدخل في الجهة الشمالية ومسجد المدرسة في الجهة الجنوبية وبينها جميعاً غرف وحجرات صغيرة إضافة إلى قاعات كبيرة تقع خلفها في الجهتين الشرقية والغربية .

وثابت أن عدد الأواوين في المدرسة لا يرتبط بعدد المذاهب التي تدرس فيها ، ولعل وجود أربعة أواوين في بعض المدارس جاء تطوراً طبيعياً لتخطيط المسجد ولوظيفته بما فيه من مقدمة ومؤخرة ومجنبتين.

وجدران هذه المدرسة سميكة خالية من النوافذ إلا من بعضها وتنتهي في أعلاها بشرفات عمارية زخرفية على الأرجح .

ويؤدي إلى هذه المدرسة مدخل رئيس ، يقع في الجهة الشمالية ، ترتفع واجهته عن باقي جدران المدرسة حوالي 16م وتبرز عن مستوى الجدار حوالي 5،3م وفتحة المدخل مستطيلة ، عليها زخارف وتعلوها كتابة تذكارية بخط الثلث الجميل ، تتضمن أسباب البناء والغرض منه واسم الباني وتاريخ بناء المدرسة إضافة إلى أدعية و عبارات أخرى.

وكان على الداخل من باب المدرسة أن يجتاز إيواناً شبيهاً بالإيوانين : الشرقي والغربي فيها ، يقابله في الجهة الجنوبية مسجد المدرسة الذي يطل على الصحن بواجهة ثلاثية العقود تتناظر مع الواجهة الداخلية للمدخل ، ويتوسط جدار القبلة ، فيه محراب مجوف على كل من جانبية عمود آجري مندمج و يحملان عقداً مدبباً تزين واجهته زخرفة أجرية جميلة وعلى كل من جانبيه نافذة كبيرة. والسقف الحالي للمسجد مستو بني حديثاً وربما كان في الأصل مقبى كغيره من سقوف الاواوين والقاعات والغرف.

وسقوف اواوين المدرسة اقبية مدببة ارتفاع كل منها تسعة أمتار تقريباً وواجهاتها ترتفع قليلاً عن مستوى جدران البناء عرفت في العصر الإسلامي باسم "بشتاق" وعرفت في حصن الأخيضر (القرن الثاني للهجرة / الثامن للميلاد) كأقدم ظاهرة عمارية في العمارة الإسلامية والملاحظ أن باني المدرسة قد اعتمد العقد المدبب أساساً في تنفيذه للتصاميم المعمارية والزخرفية فيها ، وهذا العقد ابتكار عربي إسلامي استخدم في أبنية إسلامية كثيرة لميزاته العمارية الإيجابية .

وفي هذه المدرسة تسع قاعات كبيرة ذات مساحات متفاوتة تتوزع على الجهتين : الشرقية والغربية ، وترتفع سقوفها بارتفاع الطابقين على شكل أقبية متقاطعة في وسطها فتحات للإضاءة والتهوية وأمام هذه القاعات في

الجهة الشرقية من المدرسة دهليز طويل بارتفاع طابقي البناء سقفه على شكل قبو مدبب ، فيه أربعة فتحات للتهوية وللإضاءة وتنفتح على هذا الدهليز أبواب القاعات إضافة إلى باب آخر صغير فيه درج يؤدي إلى خلوة صغيرة تطل على إحدى القاعات ، كأن يجلس فيها الخليفة لسماع بعض المحاضرات .

ويحيط بصحن المدرسة طابقان من الحجرات والغرف الصغيرة مجموعها ثمانية وسبعون حجرة وغرفة والصعود إلى الطابق العلوي يتم عن طريق ستة سلالم موزعة بين الحجرات والأواوين تؤدي إلى الأروقة التي تتقدم الغرف الصغيرة وعقودها مدببة تستند على سلسلة من الأكتاف الضخمة المبنية بالآجر ؛ عوضاً عن الأعمدة الحجرية التي تخلو منها المدرسة تماماً وتؤدي أربعة من تلك السلالم إلى سطح المدرسة ، اثنان منها عن يمين ويسار المدخل الرئيس واثنان آخران عن يمين ويسار المسجد. أما السلمان الآخران فيقعان إلى يمين ويسار الإيوان الغربي المطل على الصحن.

والحجرات والغرف الصغيرة كانت مخصصة للسكن بالدرجة الرئيسة، أما القاعات الكبيرة فكانت للتدريس والإدارة وغيرها .

ومن أقسام المدرسة المهمة التي أشارت إليها المراجع التاريخية هي دار للقرآن الكريم فيها شيخ لتحفيظ الصبيان يساعده معيد ومن بقاياها الإيوان الغربي المطل على الخارج. ومن جملة الأقسام الأخرى لهذه المدرسة دار للحديث أو للسنة ويرجح أنها كانت تقع ضمن دار الكتب. أما دار الشفاء فكانت تقع قبالة مدخل المدرسة في إيوان سمي بإيوان الساعات الذي أكمل سنة 633هـ/1225م فيه مكان للطبيب الخاص بمرضى المدرسة من طلاب ومدرسين وعنده جماعته الذين يشتغلون عليه بعلم الطب.

وعند مدخل المدرسة أمام دار الشفاء أقيمت ساعة عجيبة ، اندثر أثرها ولم يبق إلا وصفها. فهي عبارة عن دائرة عجيبة فيها صورة الفلك وفيها طاقات ذات أبواب لطاف ، وفي طرفي الدائرة بازان من ذهب في طاستين من ذهب ووراءهما بندقتان من شبه ، وعند مضي كل ساعة ينفتح فما البازين وتقع منهما البندقتان وكلما سقطت بندقة انفتح باب من أبواب تلك الطاقات ، وإذا وقعت البندقتان في الطاستين فإنهما تذهبان إلى مواضعهما من نفسيهما. وتختلف ساعات الليل عن ساعات النهار بظهور أقمار وشموس من فتحات تلك الطاقات فيعلم بذلك أوقات الصلوات وانقضاء الساعات .

وتعد هذه الساعة التي أطلق عليها القزويني "صندوق الساعات" من عجائب الصناعة وتغنى الشعراء بجمالها ونظموا القصائد

في وصفها وعجيب صنعها وطريقة عملها وهي عربية أصيلة. كانت تسمى الساعات المائية الروحانية ؛ لاعتقادهم بأن محركها شيء خفي يشبه الروح في تحريك بعض الأجسام .

والملاحظ على عمارة المدرسة المستنصرية خلوها من الأعمدة الحجرية التي استبدلت بالأكتاف المبنية بالآجر ، وهي ظاهرة غالبة على معظم الأبنية العباسية في وسط وجنوبي العراق على وجه الخصوص ، والسبب في ذلك يعود إلى طبيعة المنطقة التي لا تتوفر فيها الحجارة التي تستخدم في نحت الأعمدة، كما تمتاز الأبنية العباسية بجدران سميكة ، تحمي المدرسة من الضوضاء والضجيج الخارجي ، وتقلل من تأثير تقلبات الطقس الخارجية.

أما تخطيط المدرسة فيتميز بما فيه من تناظر وتقابل في توزيع مرافقها وعناصرها ووحداتها العمارية ، حيث نجد الأواوين فيها متشابهة ومتقابلة ، وكذلك واجهتي المسجد والمدخل الرئيس إضافة إلى ما في توزيع الغرف والحجرات حول الصحن وفي الزخرفة من تناغم وتوازن حيث نجد أن الفنان قد أفرط في استخدام الزخارف الآجرية وانعدم فيها استخدام الجص لهذا الغرض ، لكنه نجح في ذلك نجاحاً عظيماً.

وكانت هذه المدرسة غنية بالكتابات المنفذة بخط الثلث فوق الواجهات الخارجية على وجه الخصوص ، ومازال قسماً منها باقياً في مكانه حتى الوقت الحاضر ، ومن أهمها الكتابة التذكارية التي نقشت على مدخل المدرسة من الخارج فوق أرضية من الزخارف النباتية المحفورة حفراً غائراً دقيقاً ، وتتضمن اسم المنشئ والغرض من الإنشاء وتاريخه مع إضافة الأدعية والتوسلات.

وعلى واجهة المدرسة المطلة على نهر دجلة شريط من كتابة أخرى منفذ بخط الثلث الجميل أكثرها جدد في زمن السلطان العثماني عبد العزيز خان سنة 1282هـ/1865م. وقد نفذت هذه الكتابة بطريقة غرز قطع الآجر المنحوتة بشكل الحروف المطلوبة. وقد يتكون الحرف الواحد من هذه الكتابة من قطعتين أو أكثر وهي منفذة فوق أرضية حصيرية.

ولم يستخدم الجص في زخرفة جدران هذه المدرسة ، بل حفرت الزخارف على حشوات أجرية ، وهي كثيرة ومتنوعة الأشكال أصاب التلف قسماً كبيراً منها بفعل الأهمال والمياه الجوفية و العوامل الطبيعية ، وقد أعادتها دائرة الآثار إلى سابق شكلها ، وهي تتألف من قطع متعددة الأشكال والأحجام غطيت بالزخارف النباتية والهندسية الدقيقة المحفورة بأعماق متفاوتة ثم تجمع إلى جانب بعضها على وفق تصميم سابق يدل على مهارة فنية نادرة

وهي تطرز الأواوين وواجهاتها وواجهات الحجرات المطلة على الصحن والمسجد والمدخل والجدران الخارجية ، كما تزين الواجهة المطلة على نهر دجلة ، وكلها تتكون من عناصر نباتية تمثل أنواع المراوح النخيلية والعنصر الكأسي والزهرات وعناصر هندسية متنوعة. ونلاحظ أن المظهر الهندسي جاء طاغياً على الزخارف النباتية، وهي تتكون من دوائر وخطوط مستقيمة تتشعب باتجاهات مختلفة. ومن الأشكال الشائعة فيها الأطباق النجمية والمتعددة الأضلاع والنجوم والعقود المقصوصة التي نراها في التجاويف الصماء التي تزخرف الواجهة المطلة على نهر دجلة. ونلاحظ أن الأشرطة التي تفصل بين الحشوات تبرز قليلاً عن السطوح النباتية التي تملأ الفراغات ، وهي محورة قليلاً عن الطبيعة .

ولا تفوتنا الإشارة هنا إلى الزخرفة الحصيرية التي تكون أرضية لبعض الكتابات المنفذة على جدران المدرسة ، ولا يزال جزءاً يسيراً منها في الشريط الكتابي المزين للواجهة المطلة على نهر دجلة.

من هذا العرض الشامل للأبنية العباسية القائمة في بغداد من تحصينات وقصور ومساجد ومدارس وأضرحة تتضح لنا أهمية مادة الآجر في البناء واعتمادها مادة رئيسة في الزخرفة وهو ما دفعنا إلى تخصيص مبحث منفصل للزخارف الآجرية نوضح منه طرق إنجازها وتطورها وأنواع الزخارف التي تم تنفيذها على تلك الأبنية.

الآجر في زخرفة العمائر في العراق في العصر العباسي :

حرص الإنسان منذ أقدم العصور على زخرفة الأبنية وأن اختلفت الوسائل والمواد من فترة إلى أخرى ، وعندما بزغت شمس الإسلام كانت نظرته واضحة في هذا الميدان فلم يشجع الرسول ﷺ وخليفته أبي بكر وعمر ﷺ على الإسراف في البناء وزخرفته بسبب انشغالهم بتحرير البلاد وتثبيت أركان الدين الجديد إلا أن هذه النظرة تبدلت ابتداء من خلافة عثمان ﷺ عندما وسع مسجد الرسول ﷺ في المدينة المنورة.

وفي العصر الأموي الذي تميز بنشاط عماري وزخرفي كبيرين شيدت القصور الفخمة والمساجد الرائعة ، وخاصة في زمن الخليفتين عبد الملك بن مروان وولده الوليد بن عبد الملك حيث زينت العمائر بالفسيفساء والجص والحجر، ولا تزال تذكر بمداد من الفخر ، ويشار إليها باعتزاز وما دونته المصادر عنها ، وما هو قائم منها يدل على فخامة البناء وعظمة البنائين ومهارتهم.

وفي العصر العباسي كان الإقبال على الفنون بأنواعها عظيماً وكان تشجيع الخلفاء لها دافعاً قوياً على تطورها وازدهارها وتفاعل

عناصرها فولدت من هذه الحالة الجديدة زخارف إسلامية بحتة بعيدة عن الأصول التي اشتقت منها أو تأثرت بها. وقد بلغت هذه الزخارف قمتها في مدينتي بغداد وسامراء ، وامتد شعاعها إلى أقطار الدنيا شرقاً وغرباً ، وأقبل الفنانون على الزخرفة بها وتنفيذها على الأبنية المختلفة.

ورغم أن الإسلام قد رسم للعناصر الزخرفية حدودها وخصوصاً ما يتصل منها بالرسوم الآدمية ورسوم الكائنات الحية والطيور إلا أنه فتح ذراعيه لبقية العناصر من بنائية وهندسية وكتابات وعناصر عمارية وغيرها ووجدت طريقها إلى الميادين المختلفة.

وميدان الزخرفة بالآجر من أوسع الميادين قاطبة، زخرفت به ظاهر الأبنية وباطنها بأسلوب أبرز فيه الفنان مهارته وقابلياته فأخرج منها أبدع و أروع وأتقن الزخارف وأدقها. ولعل توفر هذه المادة في إقليم العراق ومطاوعتها للزخرفة بالقطع أو الحفر شجع الفنانين على استخدامها وساعد على انتشارها وتطورها وازدهارها في بقاع عديدة من العالم الإسلامي.

وقد اتبع الفنان طرقاً متعددة في تنفيذ الزخارف الآجرية فهي إما بطريقة حفر الزخارف على قوالب الآجر أو بطريقة التلاعب في صف الآجر ينتج عنها زخارف حصيرية أو أشكال هندسية من مربعات ومعينات أو شكل الصليب المعكوف وكلها لا تخلو من تأثير وجاذبية ومهارة. وقد ينفذ الفنان زخارفه بطريقة وضع الآجر بمستويات متفاوتة أو بطريقة تقطيع ونحت قوالب الآجر ليكون منها أشكال متنوعة ينتج من تجميعها وحدات زخرفية بديعة. وقد يحفر الفنان زخارفه فوق الآجر بعد تقطيعه ثم تجميعه وفق تصميم محدد مطلوب وجميع هذه الطرق تعتمد على مهارة وخبرة واسعة طويلة وعلى دراسة هندسية وحسابية دقيقة متقنة تتفق والمساحات المراد تغطيتها بهذه الزخارف.

وأقدم نماذج الزخارف الحصيرية القائمة في العمارة الإسلامية ما نراه في (باب بغداد) بمدينة الرقة (القرن الثاني الهجري/8 م) ونراها في العراق في الحنايا المطلة على الرحبة المركزية في حصن الاخيضر (القرن الثاني الهجري/8م).

وقطع الفنان قوالب الآجر إلى أشكال متنوعة غرزها بين صفوف الآجر وكون منها زخارف جميلة نراها في ضريح إسماعيل الساماني في بخارى (القرن الرابع الهجري/10م). وفي ضريح الإمام محمد الدوري (القرن الخامس الهجري/11م) أضاف الفنان أسلوب التفاوت في مستويات الآجر فظهر في الجمع بين الأسلوبين زخرفة غاية في الدقة والجمال.

وتطورت أشكال الزخارف الحصيرية في العمائر الإسلامية وظهرت داخلها عناصر زخرفية ذات أشكال متعددة كالصليب المعكوف والمعينات والمربعات وغيرها من الأشكال الهندسية الجميلة نجدها في مئذنتي سنجار والجامع النوري في الموصل (القرن السادس الهجري/12م) وفي المدرسة المستنصرية والمدارس الشرابية في بغداد وواسط (القرن السابع الهجري/13م) .

إلا أن أبدع الأساليب الزخرفية على الآجر تمثلت في حفر الزخارف حفراً غائراً خلق منها نماذج فنية رائعة تعد من نفائس التحف في الفن الإسلامي نفذها الفنانون بأسلوب دقيق تبدو كأنها منفذة في الخشب. وأقدم النماذج التي وصلتنا منفذة بهذا الأسلوب ترجع إلى أوائل القرن السادس الهجري/12م.

ولم يقتصر الفنان المزخرف في هذا الميدان على العناصر الزخرفية التقليدية المعروفة فقد أعمل فكره وأدواته ليطور في تلك العناصر وليخلق منها زخارف جديدة ومبتكرة ذات صفات بعيدة عن الأصول التي تأثرت بها أو اشتقت منها.

فاحتلت العناصر الهندسية مكانة بارزة على الآجر، فهي تتكون من خطوط مضفورة ومتشابكة وأشكال مثمنة ومسدسة ومربعة ومثلثة ودائرية ونجمية بشتى أنواعها إضافة إلى شكل الصليب المعكوف. وقد نجد هذه الأشكال مملوءة بالزخارف النباتية والكتابية وجميعها موزعة بترتيب هندسي متناظر جميل.

وفي الواقع أن هذه الزخارف لم تكن ابتكاراً اسلامياً بحتاً ولكن الفنان العربي المسلم بالغ في تجزئتها وخرج منها بأشكال جديدة غاية في الدقة تدل على دراية عميقة بعلم الهندسة والحساب وعلو في الذوق الفني والترتيب ، ولعل أجمل ما وصلنا من هذه الزخارف هو الأطباق النجمية.

ويعتمد تنفيذ الأطباق النجمية على تصميم هندسي مسبق ، يرسمه الفنان على مادة مستقلة ، ثم ينقله وينفذه على ألواح الطابوق بعد تقطيعها إلى أشكال مطابقة لذلك التصميم. ويتكون هذا الطبق من شكل "نجمي" كبير في الوسط ذي رؤوس يتراوح عددها بين خمسة إلى اثنى عشر رأساً أو يزيد وتملأ الفراغات بين الرؤوس بحشوات متعددة الأشكال لكل منها اسمها الخاص .

وقد عرفت زخرفة الأطباق النجمية على الاثار قبل الإسلام وبعده إلا أنها لم تنفذ على الآجر قبل القرن السادس الهجري (12م) اذ نجد أقدم نماذجها على واجهة باب الظفرية (أوائل القرن السابع الهجري/13م) وعلى مئذنتي

سنجار والجامع النوري في الموصل، إلا أن ابدعها على الأطلاق نراها في المدرسة الشرابية (القصر العباسي) والمدرسة المستنصرية (القرن السابع الهجري/13م). والمدرسة المرجانية (القرن الثامن الهجري/14م) وتتنوع هذه الأطباق في البناء الواحد أحياناً لتصل إلى عشرين شكلاً في المدرسة المستنصرية . ووجدت هذه الأطباق طريقها أقطار إسلامية أخرى لتصل أوج تطورها على المواد المختلفة في العصر المملوكي .

وللعناصر النباتية حظ وافر في زخرفة الآجر ، واعتمد عليها الفنان كلياً في ملء الفراغات بين الخطوط الهندسية وهي تتكون من أغصان ملتوية وأوراق متنوعة اساسها المراوح النخيلية وأنصافها وورقة العنب وزهيرات وبراعم تعتمد بالدرجة الرئيسة على الرغبة في ملء الفراغ ، وعلى مبدأ التناظر والتقابل ، وعلى تناسق الحركة واستمراريتها بحيث لايمكن التميز بين بداية الزخرفة ونهايتها وهذا أسلوب جديد اطلق علية الغربيون اسم "أرابسك " وهو الزخرفة النباتية العربية التي عرفت أيضا باسم "الرقش العربي" و"التوريق" و"التوشيح" ووصفت بأنها "لغة الفن الإسلامي "

ومع أن الزخارف النباتية قديمة ووجدت على الآثار قبل الإسلام فإنها صهرت ورتبت ونسقت أجزائها في العصر الإسلامي بحيث بزغت وكأنها شعاع جديد اخترق العالم لأول مرة.

والملاحظ أن زخرفة الآجر اعتمدت العناصر الهندسية والنباتية بصورة خاصة ولم يكن للرسوم الآدمية والحيوانية نصيب إلا في القليل ، ولم تلعب دوراً مهم فيها ، وربما يعود ذلك إلى موقف الإسلام من رسوم الكائنات الحية خاصة وان معظم الزخارف التي أشرنا إليها قد نفذت في أبنية لها صفة دينية.

وأقدم ما وصلنا من رسوم الكائنات الحية على الآجر في العراق صورة أسد منحوتة في الآجر على كل من جانبي الواجهة الداخلية لباب الظفرية، أما منظر الشخص المهيب الجالس وصورة التنينين على جانبيه فيظهر أنها محفورة في الحجر وليست في الآجر.

ومن العناصر المهمة جداً في الزخرفة على الآجر هو الخط العربي بشكليه اليابس واللين. وقد وصلتنا إشارات تاريخية كثيرة حول الكتابات التي سجلت على أبنية شيدت أو جددت في فترات مبكرة كما وصلتنا نماذج من أبنية أجرية حملت مثل هذه الكتابات وكلها منفذة بخط الثلث او بالخط الكوفي وحروفها إما محفورة في الآجر بحيث تكون بارزة فوق أرضية من الزخارف النباتية أو أن حروفها تتكون من قطع أجرية صغيرة منحوتة على وفق شكل

الحرف المطلوب ومغروزة في الجدار كالتي نراها على واجهة المدرسة المستنصرية المطلة على نهر دجلة والمنفذة بخط الثلث.

واستخدم الخط الكوفي في هذا الميدان وأتقن الفنان رسمه وإخراجه بأسلوب فني أخاذ، وأجمله كان على واجهة ضريح الإمام يحيى بن القاسم في الموصل منفذة بخط كوفي مورق مظفور رائع الجمال شكلاً وتنفيذاً مع تشكيلات زخرفية أخرى أطرت بشرائح من أجر مزجج زاد من الزخرفة جاذبية وجمالاً.

ومن العناصر البارزة التي اعتمدها الفنان في الزخرفة الآجرية هو ما يعرف بالمقرنصات أو الدلايات وهي عناصر تشبه خلايا النحل استخدمت لأغراض عمارية وزخرفية وأثرت تأثيراً مهما في تحويل القاعدة المربعة إلى دائرة لإنشاء القبة فوقها ، كما تؤدي وظيفة المساند أو الكوابيل حين تبنى أسفل شرفات المآذن أو تحت الشرفات عموماً ، وقد تستعمل بشكل أفاريز لتزيين الجدران فحسب .

ونلمس بوادر العنصر المقرنص في العصر الأموي ، ونراه بشكل مدرج في أحد بيوت سامراء (القرن الثالث الهجري/9م) ، وزاد استخدامه في البناء والزخرفة ابتداءً من القرن الخامس الهجري/11م كما في ضريح الإمام محمد الدوري، وفي القرن السادس الهجري/12م كان للمقرنص دور مميز في العمارة وزخرفتها ، كما في ضريح السيدة زمرد خاتون ، وأصبح من أبرز مميزات العمائر الإسلامية في واجهات المساجد وفي المآذن والمداخل وأسفل القباب واختلفت أشكالها باختلاف الأزمنة والبقاع.

وأروع استخدامات المقرنصات الآجرية كانت في المدرسة الشرابية وتتكون من قطع اجرية صغيرة يغلب عليها الشكل المثلث والنصف نجمي وبعضها مقعر يتدرج إلى الأعلى وينتهي بشبه قبة أو أنصافها وكلها مكسوة بحلة قشيبة من زخارف نباتية دقيقة تتمثل بأوراق العنب والمراوح النخيلية والأوراق الجناحية ومن المقرنصات الجميلة ما أخرجه الفنان في القرن السابع الهجري/13م في القبة الداخلية لضريح الإمام يحيى بن القاسم في الموصل والتي نفذت بصف الآجر بطريقة أشبه بعظام السمك وتتدرج إلى الأعلى لتنتهي بنجمة ثمانية الرؤوس.

وبعد القرن السابع الهجري/13م استخدمت المثلثات الكروية في العمائر الآجرية لتقوم مقام المقرنصات الحاملة لقبة المدرسة المرجانية (القرن الثامن الهجري/14م) . وزاد الأقبال على المثلثات الكروية في العمائر العثمانية أسفل القباب.

ووصلت الأبنية الإسلامية كمالها الزخرفي في تحلية المسطحات بالآجر المزجج والخزف المعماري والفسيفساء الخزفية وقل الإقبال على الزخارف الآجرية التقليدية.

إن هذا التنوع الذي شاهدناه في زخرفة الآجر " يخلب الألباب فمن تزيينات هندسية بحتة إلى تزيينات زهرية بحتة وزخارف مكونة من امتزاج هذين النوعين ومن تزيينات تحاكي الطنافس المنسوجة إلى مقرنصات تشابه الأحجار المنحوتة ونقوش تماثل الأخشاب المنقورة ". ويؤكد قدرة الفنان العربي المسلم على التجديد والابتكار خلال العصور الإسلامية المختلفة.

مساكن العامة :

بعد هذا العرض الشامل لعمائر بغداد وزخارفها الآجرية نرى لزاما علينا ان نتطرق إلى مساكن العامة في هذه المدينة مع اندثارها وغياب تخطيطها وزخارفها في الفترة المحددة للبحث. فللبيوت العراقية خصوصية متميزة في تخطيطها وعمارتها وفي المواد المستخدمة في بنائها فهي تلائم موقع العراق الجغرافي ومناخه وطبيعة تربته وتتفق مع التعاليم الإسلامية الحريصة على الستر ومنع "الكشف" عن حرمات الدار والتي أكد عليها المجتمع والدولة . وكان لها أثرها الواضح في تخطيط البيت وعمارته .

لقد سجلت المراجع القديمة أسماء أعداد كبيرة من المساكن التي شيّدت خلال العصور الإسلامية المختلفة ، إلا أننا وللأسف الشديد لم نحصل على أوصاف شافية لها منها مساكن العامة ببغداد والتي لم نعرف عنها سوى أسمائها وبعض اوصافها التي يصعب منها معرفة تخطيطها وهندستها وزخارفها .

ولعل السبب في اندثار تلك المساكن يرجع إلى الرغبة الشديدة في التجديد أو في هدم البيوت القديمة للاستفادة من انقاضها في بناء أبنية جديدة، فقد هدم السلاجقة مثلا **170** مسكنا كانت تقع على شواطئ دجلة لغرض الاستفادة من انقاضها في بناء دار السلطنة السلجوقية. كما هدمت الكثير من تلك الدور عقابا لمالكيها على ما أشعلوه من فتن واضطرابات. إن الكثير من بقايا المساكن المهدمة أقيمت فوقها أبنية جديدة فأزالت معالمها نهائيا. كما كانت للعوارض الطبيعية من رياح وأمطار وزلازل وفيضانات مدمرة دورها الفاعل في إزالة تلك المساكن واندثارها ، ولا ننس الغزوات والحروب التي تعرضت لها هذه المدينة فازالت بدورها كثيرا من معالمها العمارية وكل ما يمكن أن نسميه حضارة .

واعتمادا على الروايات التاريخية وما كشفته التحريات والتنقيبات الأثرية خارج بغداد

استطعنا أن نكوّن فكرة عن المساكن العامة في هذه المدينة خلال الفترة العباسية المحددة للبحث لأن البيوت القائمة حاليا في الأزقة والطرقات القديمة الضيقة من بغداد كلها تعود إلى فترة الاحتلال العثماني وبعيدة عن تصميم البيوت العباسية . فقد كانت الجدران الخارجية بسيطة صماء ليس بها فتحات أو نوافذ تطل على الخارج وإن وجدت فتكون عالية ولا تقابل نوافذ الدور التي تواجهها, وعموما تكون صغيرة تسمح بمرور ضياء الشمس والهواء وتمنع نظرات الفضوليين من الشارع .

وأهم ما في المساكن العباسية هو الدهليز أو الممر الذي يصل بين الباب الرئيس وصحن الدار ووسطها. وكان يعنى بتجديده وتوسعته فهو وجه الدار وأول ما يمر فيه الداخل إلى مرافقه المختلفة. وخير مثال للدهاليز الشاخصة في العراق من الفترة العباسية دهليز قصر الأخيضر الذي يرتقي إلى النصف الثاني من القرن الثاني الهجري /الثامن الميلادي الذي يربط بين المدخل الرئيس وبقية أجزاء القصر.

والفناء المكشوف (الصحن) من العناصر التخطيطية المهمة التي أقبل عليها العراقيون وغيرهم من سكان الشرق منذ أقدم الأزمنة بسبب الحرارة القاسية التي تنوء بحملها المنطقة عموما . كما أن لهذا الصحن أهمية في منع ضرر كشف المحارم الناتج عن فتح النوافذ إلى الخارج. وقد أقبل العباسيون على استخدام الصحن في بيوتهم ورصفه بالآجر المربع الأصفر اللون تتوسطه عادة شجرة واحدة أو أكثر وأحيانا نافورة .

إن أهم مشتملات المسكن التي تطل على الصحن هو الإيوان، وعلى كل من جانبيه غرفة واحدة أو أكثر ويتقدم الجميع رواق قائم على أعمدة. وقد يعاد هذا الترتيب حول صحن آخر من البيت فيكون الأول للاستقبال والثاني للحريم. أما إذا كان البناء من جهتين متقابلتين من نفس الصحن فأنها تكون مساكن تسكن صيفا وأخرى تسكن شتاء . أما المساحة المتبقية حول الصحن فتشغلها حجرات أخرى تستخدم لمنافع الدار.

إن من أهم النماذج لبيوت العصر العباسي في العراق البيوت الأربعة في قصر الأخيضر، ويلاحظ هنا ان كل بيتين متقابلين منها متشابهين. فالبيت الشمالي الشرقي والشمالي الغربي يتكون كل منهما من فناء مكشوف تطل عليه من الجهتين : الشمالية والجنوبية وحدتان بنائيتان ، تتكون كل وحدة من إيوان أوسط ، على جانبيه حجرتان، ويتقدم الثلاثة رواق مفتوح على الفناء بثلاثة عقود مدببة . اما البيتين الجنوبيين فينعدم فيهما الرواق الذي يتقدم الحجرات.

إن البيتين الشماليين ينطبق وصفهما تماما على ما أطلق عليه اسم: "الطراز الحيري والكمين والأروقة " اذ يروى أن الخليفة العباسي المتوكل على الله كان أول من أدخل هذا الطراز إلى العمارة الإسلامية، إلا أن الدلائل الأثرية تؤكد أنه كان معروفا في العهود التي سبقت الإسلام وكذلك في العصر الإسلامي قبل عصر المتوكل . ولكن يظهر أن العباسيين اتخذوا منه طرازا رسميا وخصوصاً في سامراء .

والملاحظ أن العنصر العماري الرئيس في قصر الاخيضر هو الإيوان الذي عرف منذ أقدم الأزمنة لإضفاء الفخامة والجمال ولتوفير مكان واسع ومسقوف يؤدي وظيفة البهو. والواقع أن البنائين المسلمين قد تنبهوا إلى أهمية الإيوان والصحن المكشوف والترابط الوظيفي بينهما ، فللصحن أهمية كبيرة في تنظيم الحرارة داخل البيت بما يتلاءم وفصول السنة المختلفة ، وله أهمية كبيرة في توزيع الضياء على الوحدات البنائية المطلة عليه والاحتفاظ بالهواء البارد لفترة طويلة ، إضافة إلى فوائده الأخرى في ترشيح الهواء من الأتربة العالقة وتقليل الضوضاء الداخلة إلى الدار بسبب الانفتاح نحو الداخل وقلة النوافذ المفتوحة إلى الخارج.

إن مادة البناء الرئيسة في مساكن العامة في سامراء كانت اللبن والجص وما يعرف باللبن الكلسي. أما الآجر، أي الطوب كما يسميه المصريون، فقد استخدم في بناء مجاري المياه وفي تبليط الارضيات وبناء بعض العقود ، كما استخدم الخشب في التسقيف وفي وضعه بين طبقات البناء للزيادة في قوته ومتانته.

لقد أظهرت التنقيبات الأثرية في خرائب مدينة سامراء الواسعة الأرجاء أن الدور السكنية فيها قد اعتمدت الجص في تزيينها. لقد تبين أن الجدران بعامة كانت مؤزرة من الداخل بالزخارف الجصية الجميلة إلى ارتفاع قد يزيد قليلا على المتر، وربما أحاطت الزخارف الجصية أيضا بالأبواب والنوافذ والحافات العليا من الجدران وكذلك بواطن العقود في بعض الأحيان. ومما يلاحظ أيضا في داخل الحجرات يكثر وجود المشكاوات البنائية التي تعلوها أو تتصل بها التوزيرات الجصية المزخرفة. ان الغرض من وجودها كان زخرفيا وفى نفس الوقت استعملت لوضع آلات الإضاءة والزينة. وليس من المستبعد أن مثل هذه الأنماط الزخرفية كانت مستخدمة في مساكن العامة والخاصة في بغداد .

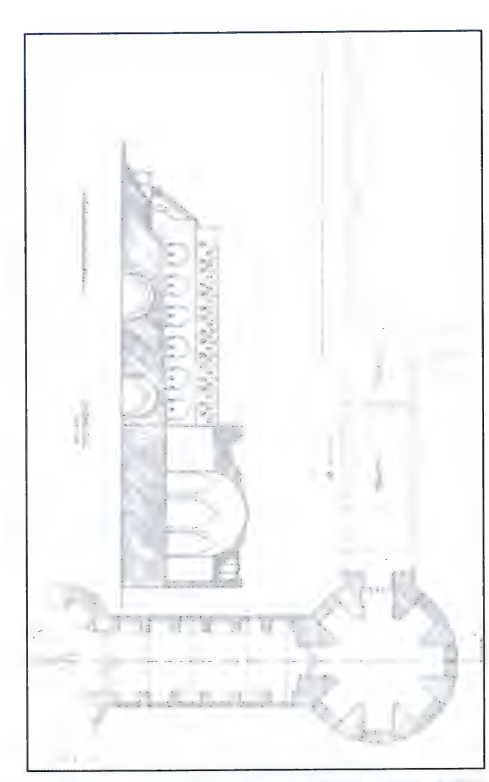
لقد كشفت تنقيبات الهيئة العامة للآثار العراقية عن عدد من البيوت السكنية في سامراء، يزيد عدد حجرات بعضها على خمسين حجرة

وقاعة. ومن أشهر تلك البيوت المكتشفة الدار القريبة من أسوار الجامع الكبير (جامع الملوية)، أطلق عليها اسم (بيت الزخارف) بسبب ما يمتاز به من الإفراط في استخدام تلك الزخارف بما في ذلك توزير الجدران الخاصة بالحجرات وبقية مشتملات الدار. ومما يلاحظ هنا أنه قد استعين أيضا بالكثير من الزخارف الملّونة.

ولابد من القول بهذا الخصوص : إن بنائي مساكن العامة في بغداد لم يهتموا بالزخارف الجصية ، كما اهتم بها البناؤون في سامراء، إذ لم يصل إلينا من الأبنية في بغداد ما يدل على الاهتمام بها. إن الزخرفة بالآجر كان هو المفضل، وهذا واضح من العمارات التي تناولناها بالدراسة سابقا ، والتي كانت الزخارف الآجرية هي وحيدة المستخدمة فيها.

أ.د غازي رجب محمد
جامعة بغداد



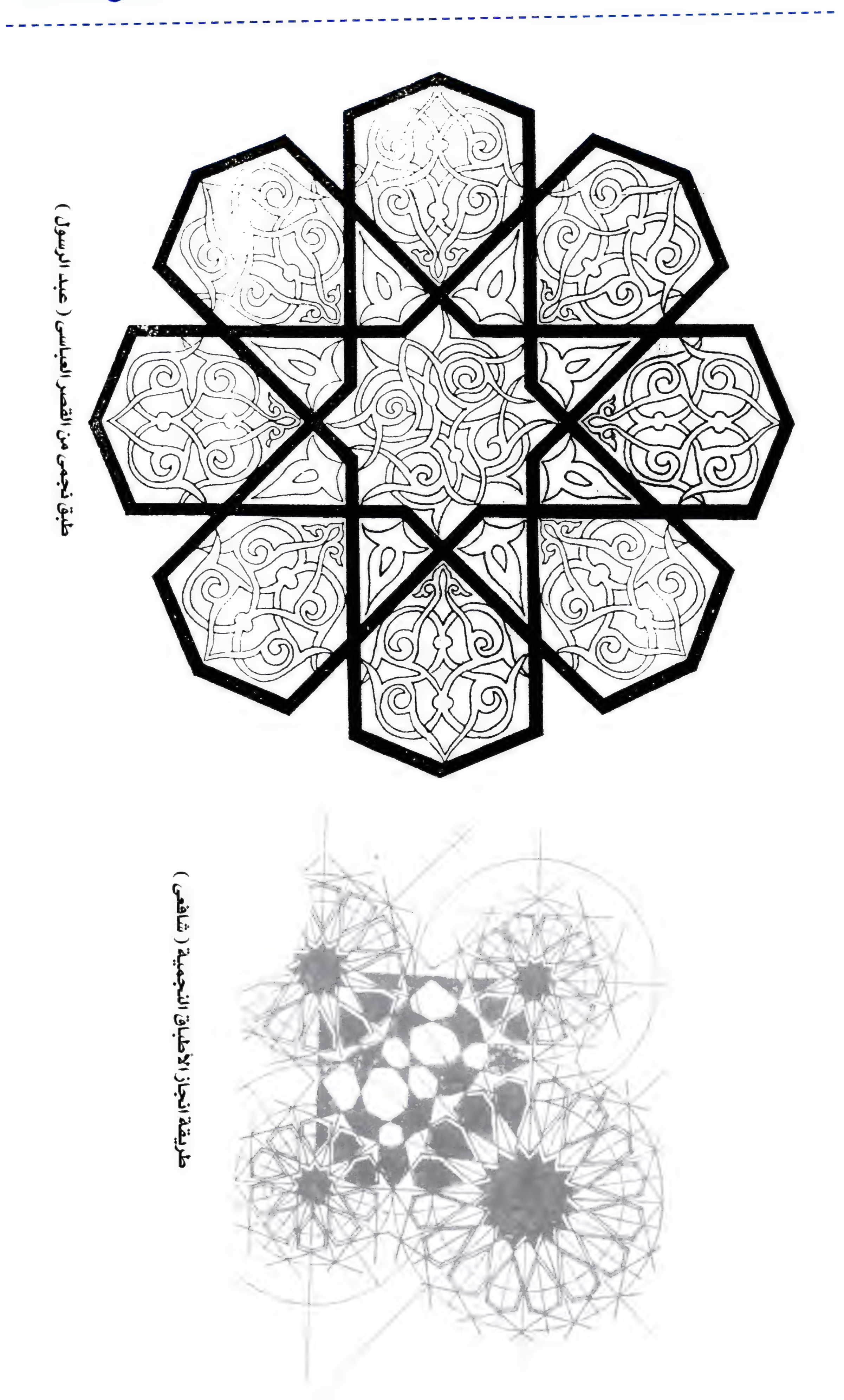


باب الظفرية - سور بغداد الشرقية- مخطط ومقطع (الجنابي)

باب الظفرية (الوسطاني) - سور بغداد الشرقية



المدرسة الشرابية (القصر العباسى)



طبق نجمي من القصر العباسي (عبد الرسول)

طريقة انجاز الأطباق النجمية (شافعي)

المصادر والمراجع

1) المصادر :

- **ابن الجوزي**، عبد الرحمن بن علي (ت. 579هـ/1183)، مناقب بغداد، بغداد، مطبعة دار السلام، 1923.

- **ابن خلدون**، عبد الرحمن (ت. 808هـ/1406)، مقدمة، بيروت، دار الكشاف، 1959.

- **ابن رستة**، أبو علي أحمد بن عمر (ت. 279هـ/902)، الاعلاق النقيسة، ليدن، مطبعة بريل، 1891.

- **ابن الطقطقي**، محمد بن علي (ت. 709هـ/1309)، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، بيروت ، دار صادر ، 1960.

- **ابن الفقيه**، أحمد بن محمد (ت. 340هـ/951)، بغداد مدينة السلام، باريس، دار الطليعة للطباعة والنشر، 1977.

- **ابن الفوطي**، عبد الرزاق بن أحمد (ت. 723هـ/1323)، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابقة، بغداد ، المطبعة العربية، 193 .

- **ابن الفوطي**، عبد الرزاق بن أحمد (ت. 723هـ/1323)، تلخيص مجمع الآداب في مجمع الألقاب، بغداد، 1963.

- **ابن المجاور**، ابو الفتح يوسف بن يعقوب (ت. 690هـ/1291)، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة تاريخ المستبصر، ليدن ، مطبعة بريل، 1954.

- **الأربلي**، عبد الرحمن شنبط قنيتو(ت.ئ717هـ/1317)، خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك، بيروت، مطبعة جاورجيوس ، 1885.

- **الأصبهاني**، أبو القاسم حسين بن محمد الراغب، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء البلغاء، بيروت، 1961.

- **الخطيب البغدادي**، أحمد بن (ت. 463هـ/1071) علي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، 14 جزء، القاهرة، مطبعة السعادة، 1931.

- **سبط بن الجوزي**، يوسف بن قزاد علي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، حيدر آباد الدكن، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، 1951.

- **السيوطي**، جلال الدين بن عبد الرحمن (ت. 911هـ/1515)، تاريخ الخلفاء، القاهرة، مطبعة السعادة، 1952.

- **الطبري**، ابن جرير (ت.310هـ/922)، تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 10 أجزاء، القاهرة، دار المعارف، 1969.

- **الفيروز آبادي،** مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، مطبعة دار المأمون، 1938.

- **المقدسي، محمد بن أحمد (ت. 364هـ/957)**، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، مطبعة بريل، 1909.

- **المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت.845هـ/1442)**، خطط المقريزي المسماة المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جزءان، بولاق، مطبعة دار التحرير، 1270 هجرية .

- **ياقوت الحموي،** شهاب الدين أبو عبد الله، (ت. 626هـ/1228)، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1965.

- **اليعقوبي،** أحمد بن إسحق (ت. 278هـ/891)، البلدان، ليدن، مطبعة بريل، 1892

2)المراجع :

- **الأعظمي** ، خالد خليل ، الزخارف الجدارية في آثار بغداد ، بغداد، دار الرشيد للنشر ، 1980.

- **الألفي،** أبو الصالح، الفن الإسلامي، أصول فلسفة مدارسه، القاهرة، مطابع دار المعارف بمصر، 1969.

- **التونجي،** نجاة يونس ، المحاريب العراقية ، بغداد، وزارة الإعلام، 1976 .

- **جمعة، إبراهيم،** قصة الكتابة العربية ، القاهرة ، دار المعارف للطباعة والنشر ، 1947.

- **الجنابي** ، طارق جواد ، دراسات في العمارة العراقية في العصور الوسطى، بغداد، دار الحرية للطباعة ، 1983 .

- **جواد مصطفى،** وسوسة، أحمد، دليل خارطة بغداد، المفصل في خطط بغداد قديما وحديثا، بغداد مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1958 .

- **حسن، زكي محمد،** فنون الإسلام، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1948 .

- **حميد، عبد العزيز،** "الزخارف المعمارية"، موسوعة حضارة العراق، ج 9، بغداد، دار الحرية للطباعة، 1985.

- **حميد، عبد العزيز وآخرون،** الفنون الزخرفية العربية الإسلامية، بغداد، جامعة بغداد، 1982.

- **حيدر كامل محمد،** المدارس العباسية القائمة في العراق، مخططها وعمارتها، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد ، 1986 .

- **ديوه جي،** سعيد ، تاريخ الموصل، بغداد، مطبعة مديرية دار الكتب، 1982 .

- **سامح،** كمال الدين، العمارة الإسلامية في مصر، القاهرة، مطبعة مصر – الألف كتـــاب (دون تاريخ) .

- **سترك " السوس "**، دائرة المعارف الإسلامية، مترجم، ج 12.

- **سفر، فؤاد ومصطفى محمد علي،** الحضر مدينة الشمس، بغداد، مؤسسة رمزي للطباعة، 1974.

- **سلمان،** عيسى، وآخرون، العمارات العربية الإسلامية في العراق، الجزء الأول، تخطيط مدن ومساجد، بغداد، دار الرشيد، 1982 .

- **شافعي،** فريد، العمارة العربية في مصر الإسلامية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970.

- **صالح،** عبد العزيز حميد، "التحصينات الدفاعية في بغداد الشرقية "موسوعة الجيش والسلاح، الجزء الثالث، بغداد ، دار الحرية للطباعة، 1988.

- **العاني،** علاء الدين أحمد، المشاهد ذات القباب المخروطية في العراق، بغداد، دار الحرية للطباعة، 1983.

- **عبد الرسول،** سليمة، الأصول الفنية لزخارف القصر العباسي ببغداد، بغداد، دار الحرية للطباعة، 1980.

- **عثمان ،** أحمد عبد الستار، الإعلام بأحكام البنيان، لأبن الرامي، دراسة اثرية معمارية، الإسكندرية، 1988.

- **العلي،** صالح أحمد، بغداد – مدينة السلام، بغداد، مطبعة المجمع العلمي،1985.

- **العميد،** طاهر مظفر، تخطيط المدن العربية الإسلامية، بغداد، مطبعة جامعة بغداد، 1986.

- **العميد ،** طاهر مظفر، بغداد مدينة المنصور المدورة، النجف، مطبعة النعمان ، 1967 .

- **عواد ،** ميخائيل ، صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي ، بغداد ، دار الرشيد للنشر، 1981.

- **غالب،** عبد الرحيم، موسوعة العمارة الإسلامية، بيروت، المطبعة العربية، 1988.

- **فارس،** بشر، سر الزخرفة الإسلامية، القاهرة، مطبعة المعهد الفرنسي، 1952.

- **فكري،** أحمد، مساجد القاهرة ومدارسها، المدخل، الإسكندرية، دار المعارف، 1961.

- **فكري،** أحمد، مساجد القاهرة ومدارسها، الجزء الأول – العصر الفاطمي، القاهرة، دار المعارف بمصر، 1965.

- **القاضي،** صباح محمود عبد اللطيف، بيوت سامراء في ضوء التنقيبات الحديثة، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى قسم الآثار، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1988.

- **القصيري،** اعتماد يوسف، "الإحداث وأعمال الصيانة التي جرت على بناء المدرسة المستنصرية "بحث في كتاب المستنصرية في التاريخ ، بغداد ، 1986.

- **محمد،** غازي رجب، العمارة العربية في العصر الإسلامي في العراق، بغداد، مطبعة التعليم العالي والبحث العلمي، 1989.

- **محمد، غازي رجب،** " التحصينات الدفاعية في مدينة بغداد المدورة، موسوعة الجيش والسلاح، الجزء الثالث، بغداد، دار الحرية للطباعة، 1988.

- **مرزوق،** محمد بن العزيز، الفن الإسلامي تاريخه وخصائصه، بغداد، مطبعة اسعد، 1965.

- **معروف،** ناجي، المدرسة الشرابية أو القصر العباسي في قلعة بغداد، بغداد، مطبعة العاني، 1961.

- **مورتكات،** أنطون، الفن في العراق القديم (مترجم)، بغداد، مطبعة الأديب البغدادية، 1975

- **الموسوي،** مصطفى عباس، العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية، بغداد، دار الرشيد للنشر، 1982.

- **ناجي،** عبد الجبار، دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، البصرة، مطبعة جامعة البصرة، 1986.

- **النقشبندي،** ناصر محمود، الدينار الإسلامي في المتحف العراقي، بغداد، مطبعة الرابطة، 1953.

- **نيبور،** كارستن، رحلة نيبور إلى العراق، ترجمة محمود الأمين، بغداد ، دار الجمهورية، 1965.

- **يوسف،** شريف، تاريخ العمارة العراقية في مختلف العصور، بغداد، دار الرشيد للنشر، 1982.

3)المراجع الأجنبية :

- **Creswell** , K. A. C. , Early Muslim Architecture , 2 Vols , Oxford , 1932 – 1940 .
- **Creswell** , K. A. C. , A short account of E.M.A. , Harmonds worth , 1958 .
- **Herzfeld** , E. , Art " Damascus : Studies in Architecture " , Ast Islamica IX , Newyork, 1942 .
- **Keal** , S.J. , Some thoughts on the Aywan , Studies in Honor of G.C. , Miles , Beirut , 1974 .
- **Sarre F.** , und Herzfeld , F. , Archaologische Reise im Euphrat und Tigris – Gebiet , 4 Vols , Berlin , 1911 – 1920

ثالثـــا: سامراء

تعد مدينـــة سَامُـــرّاء العاصمـــة العباسية الرئيسة الثانية بعد مدينة بغداد أوسع المدن المندرسة في العالم اليوم من حيث المساحة ، حيث تمتد خرائبها من الشمال إلى الجنوب مسافة (34) كيلومترا، ويتراوح عرضها من الشرق إلى الغرب من أربعة إلى ستة كيلومترات . كما أنها أيضا من أقصر المدن الكبيرة في العالم المتحضر عمرا ؛ إذ لم تدم أكثر من (57) سنة عاصمة للخلافة العباسية ، فلم تلبث طويلا بعد ذلك لتتحول إلى تلول وكثبان ترابية .

إن مدينة سامراء التي تقع على بعد (120) كيلومترا إلى الشمال من بغداد عبارة عن مجموعة لا حصر لها من التلول والكثبان المتفاوتة في الارتفاع، باستثناء القليل جدا من الشواخص البنائية القديمة فيها. ومع ذلك فإن من جملة ما تتميز به هذه المدينة سهولة تحديد معظم شوارعها والكثير من مواقع قصورها ومبانيها العامة ودورها السكنية وبخاصة عن طريق الصور الجوية.

الاسم :

لقد عرفت المدينة في أول عهدها بـ (سُرَّ مَنْ رَأى)، ومن البديهي أن يكون هذا الاسم الواضح المعنى والدلالة كثير الورود في المدونات التاريخية المبكرة الخاصة بالعصر العباسي، وكذلك في المصادر التاريخية والأدبية المتأخرة التي تطرقت بإسهاب إلى كل ما يتعلق بتاريخها والمراحل التي مرت بها من الناحيتين : العمارية والسياسية بدءا من تاريخ تشييدها سنة 221 هـ (835م) على يد الخليفة العباسي الثامن المعتصم بالله بن هارون الرشيد، وانتهاءاً بتركها في عهد المعتمد على الله سنة 279هـ (892م). لقد ورد الاسم أيضا بنفس الصيغة على جميع ما ضرب بها من مسكوكات؛ ذهبية كانت أو فضية أو نحاسية.

أما بخصوص ما يذكره ياقوت الحموي من أن المدينة لما عمرت وكملت واتسعت واتسق نظامها عرفت باسم (سُرُورُ مَنْ رَأَى) ثم اختصرت فقيل (سرّ من رأى)، ولما خربت وتشوّهت خلقتها سميّت بـ (ساء من رأى) ثم اختصر الاسم إلى (سامراء) فهو قول بعيد عن الواقع ضارب في الخيال. وقد رجّح بعض المختصين المحدثين أن كلمة سامراء قد اشتقت من اسم لمستوطن قديم عرفه الآشوريون والبابليون باسم (سوموريم) **Summurim**، أو باسم (سورمارتا) **Su-ur-mar-ta**، وأن المؤرخ القديم (أميانوس مرسيلينس) الذي كان برفقة الجيش الروماني الذي اجتاز لمنطقة سنة (363) ميلادية قد أشار إلى الموقع وسماه (سوميرة)، وعلى ذلك فإنه ليس من المستبعد أن يكون

للاسم ارتباط بالسومريين الذين عاشوا في وسط العراق وجنوبه منذ الألف الرابع قبل الميلاد على الأقل. وليس غريبا أن نجد الكثير من المختصين المحدثين يشككّون في مصداقية تلك التسمية، فهم يرون انه على الرغم من جلاء أو وضوح معنى (سر من راى) قد حوّر ، بل اشتق من اسم (سامراء) الأقدم عهدا. ومما يزيد في ترجيح الرأي الأخير ما ذكره المسعودي المتوفي سنة 346 هجرية من أن المعتصم لما اهتدى إلى موضع سامراء، وكان هناك دير للنصارى "... سأل بعض أهل الدير عن اسم الموضع، فقال : يعرف بسَامُرّا، فقال له المعتصم : ما معنى سامرا؟ قال : نجدها في الكتب السالفة والأمم الماضية أنها مدينة سام بن نوح ..."، ويذكر الطبري المتوفى سنة 310 هجرية (922م) بهذا الخصوص نقلا عن أحمد بن خالد قوله: "بعثني المعتصم سنة 219 هجريةوقال لي : اشتر لي بناحية سامراء موضعا ... فأتيت الموضع فاشتريت سامراء ....الخ ".

ومهما يكن من أمر فإن الموقع كان معروفا ومستغلا قبل العصر العباسي بأمد طويل، فقد ذكر أنه كانت في المنطقة ثلاث قرى عامرة وهي (المطيرة) في أقصى الجنوب و(الكرخ) في الوسط و(الماحوزة) في أقصى الشمال كما كان هناك ما لا يقل عن أحد عشر ديرا للنصارى. منها دير كبير في وسطها يروى: "أن المعتصم أقام في ذلك الدير أو قريبا منه ثلاثة أيام يتصّيد .... فلما استطاب الموضع دعا بأهل الدير واشترى منهم أرضهم بأربعة آلاف دينار ...".

ومن هنا يتضح أن لموقع سامراء مميزات كبيرة في عالم تخطيط المدن . فمن الناحية الدفاعية كانت المياه تحيط به من ثلاث جهات : نهر دجلة من جهة الغرب والقاطول الأعلى من جهة الشرق والشمال. أما من الجهة الجنوبية فالموقع محمي بقلعة كبيرة مثمنة التخطيط معززة بعدد من الأبراج الدفاعية تعرف بـــ (القادسية) كانت قد شيّدت قبل سامراء بزمن طويل .

السبب في الانتقال من مدينة بغداد:

قبل النظر في الأسباب التي حملت المعتصم على ترك مدينة بغداد والبحث عن عاصمة جديدة، لابُدَّ ان نوضح للقارئ الكريم أن ذلك القرار قد ارجعه القدامى من المؤرخين العرب إلى أكثر من سبب واحد، إلا أن أهمها – على ما يبدو – كان الاحتكاك غير الودي المستمر بين غلمان الخليفة الأتراك الجفاة البعيدين عن التحضر وسكان مدينة بغداد الأكثر تحضرا. فكثيرا ما كانت تلك الاحتكاكات تفضي إلى شجار وتصادم مسلح كانت تؤدي إلى الكثير من الخسائر الماديّة فضلا عن الإيذاء الجسدي الذي يصل إلى القتل في بعض الأحيان. فإذا

صح ما ذهب إليه المؤرخون بهذا الشأن فلا ندري هل كان الانتقال إلى عاصمة جديدة حماية لأهل بغداد من الجنود الأتراك ؟ أم لحماية هؤلاء الغلمان من غضب أهل بغداد ؟ ويرى بعض المحدثين من المؤرخين أن المعتصم كان " في موقف حرج ؛ إذ لم يكن في استطاعته معاقبة حرسه الخاص ولا المواطنين".

ومن المعروف أن المعتصم كان قد بدأ بجمع الغلمان الترك منذ أن كان وليا للعهد في خلافة أخويه الأمين ثم المأمون وازداد عددهم إلى درجة كبيرة أثناء خلافته ليصل زهاء سبعين ألفا. والسبب الذي حدا به إلى جمع ذلك العدد الهائل منهم كان على الأرجح بسبب الاعتقاد السائد آنذاك أن الأتراك كانوا يتّسمون بصفات البداوة الأصيلة فعرف عنهم الشجاعة والمثابرة والصمود في القتال ، فضلا عن الصدق والأمانة والولاء المطلق لسيدهم. لقد أشار إلى ذلك بوضوح كل من الجاحظ واليعقوبي والطبري والمسعودي وغيرهم من قدامى الأدباء والمؤرخين العرب .

ومن البديهي أن موضوع الغلمان الترك والمشاكل التي صاحبت وجودهم في بغداد لا يمكن أن يكون السبب الوحيد الذي دفع المعتصم إلى البحث عن عاصمة جديدة إذ لم يكن من الأمور السهلة عليه ترك مدينة السلام التي كانت قد تطوّرت واتّسعت إلى درجة كبيرة في عهد والده هارون الرشيد (170-193هـ/ 786-809م) وعهد أخيه المأمون (198-218هـ / 813-833م) بخاصة انه لم يكن قد مضى على تشييد بغداد سوى اثنين وسبعين عاما . فإذا كانت المصادر التاريخية قد سكتت عن ذلك فلابد أن تكون هناك أسباب أُخرى حملت المعتصم، أو على الأقل شجّعته، على اتخاذ مثل ذلك القرار المهم ، وعلى الخصوص إذا أخذنا بنظر الاعتبار النفقات الباهظة التي تتطلبها إقامة عاصمة تليق بمركز أو مكانة الخلافة العباسية .

في اعتقادي أن هناك سببين مهمين آخرين حملا المعتصم على اتخاذ ذلك القرار. السبب الأول: رغبته في أن يقيم صرح مدينة تخّلد اسمه في التاريخ أسوة بجده المنصور بالله الذي شيّد مدينة السلام في موضع بغداد القديمة بين سنتي 145-149 هجرية (762-766م). أما السبب الثاني: فربما يعزى إلى الخسائر الفادحة التي تسببها الفيضانات المتكّررة التي كانت وما تزال تتعرض لها مدينة السلام ، لا من طغيان نهر دجلة في فصل الربيع فحسب ، بل من فيضانات نهر الفرات أيضا الذي لم يكن مجراه يبعد عنها بأكثر من ثلاثين كيلومترا من جهتها الغربية فضلا عن فيضانات الأنهر الفرعية القريبة من مدينة السلام مثل نهر (ديالى) ونهر (العظيم).

اختيار الموضع :

عندما فكّر المعتصم فى الانتقال من مدينة السلام لم يكن في ذهنه موقع أو مكان معين كان يريد أن يشيّد عاصمته الجديدة فيه ، إذ يذكر اليعقوبي، وهو مصدرنا الرئيس هنا، أن المعتصم أراد أولا أن يشيد مدينته الجديدة في المنطقة الواقعة إلى الشمال من بغداد مباشرة وهو الموقع الذي كان يعرف بـــ(الشماسّية)".. فضاقت عليه أرض ذلك الموضع وكره أيضا قربها من بغداد فسار بحله وترحاله شمالا إلى موقع قرية (البردان) وهي من قرى مدينة السلام ...." التي تبعد عنها قرابة خمسة وثلاثين كيلومترا .

ثم يستمر المعتصم بالسير شمالا حتى يصل إلى قرية تعرف بـــ (المطيرة) ليتجه منها إلى بقعة أرض محصورة بين نهري القاطول الأوسط (الذي يعرف أيضا بنهر القائم) ودجلة حيث استقر رأيه عليها. إلا أنه بعد أن اختط موضع المدينة واقطع القطائع و"جدّ في البناء حتى بنى الناس القصور والدور وقامت الأسواق ... ارتحل من القاطول إلى سر من رأى"، التي تقع إلى الشمال قليلا من الموقع الأول. ويعزى السبب في ترك الموضع بعد أن شرع في البناء إلى صلابة الأرض الشديدة عند حفر الأسس. أما الموضع الجديد فإنه يقع قريبا من ضفة نهر دجلة الشرقية إلى الجنوب قليلا من دير للنصارى كان يعرف باسم (دير السوسي) وقد اشترى المعتصم أرضه من أصحابه الرهبان كما سبق ذكره .

أما السبب الذي حمل الخليفة على اختيار هذا الموضع لمدينته الجديدة فيعزى إلى جملة أمور، ربما أهمها أنه موقع حصين طبيعيا ؛ إذ تحيط به المياه من ثلاث جهات ووجود قلعة حصينة من الجهة الرابعة ، كما سبق ما تزال بقاياها موجودة حتى يومنا هذا.

ومن مميزات الموقع الجديد أيضا ارتفاع أرضه النسبي عن مستوى النهر مما يجعل المدينة بمنأى عن خطر فيضانات دجلة والأنهر القريبة الأخرى. ومنها أيضا أن الأرض الجديدة واسعة جدا ومنبسطة فكان بالإمكان أن تمتد شمالا وجنوبا دون عائق لمسافات طويلة .

تخطيط المدينة :

لقد اتبع المعتصم تخطيطا يختلف بعض الاختلاف عن نهج المحررين العرب الأوائل عند تمصيرهم لكل من مدينتي البصرة والكوفة في العراق، وكذلك يختلف عن الطريقة التي انتهجها جده المنصور عند شروعه في بناء مدينة السلام. فبالنسبة لمدينتي البصرة والكوفة نلاحظ – كما جاء في المصادر التاريخية والبلدانية – أن المخططين قد اتبعوا نظاما مشابها بعض الشيء للنظام الدي كان متبعا في أقاليم الشرق الأدنى

قبيل الإسلام وهو النظام المركزي ذو الأصول الرومانية المتأثر إلى درجة كبيرة بالنظام الشبكي الشبيه برقعة الشطرنج، ذلك النظام الذي كان متبعا في أقاليم الشرق الأدنى قبيل الميلاد وبعده المتأثر بالفنون الهلنستية. ومن المعروف أن النظام الهلنستي في تخطيط المدن قد طوّره الرومان إلى ما يعرف بالنظام المركزي، وقوامه كتله وسطيّة تضم القصر والمعبد الرئيس تتصل به أو تنتهي عنده من الجهات الرئيسة أربعة شوارع تحصر بينها القطاعات السكنية لسكان المدينة. والواقع أن العرب المسلمين قد اتبعوا – على ما يبدو – نظاما مركزيا أو قريبا من النظام المركزي عندما مصّروا كلا من البصرة والكوفة وإن لم يشر البلدانيون العرب بشكل واضح إلى شوارع وسكك المدينتين، حيث نلاحظ أن المسجد الجامع في الغالب كان يتوسط المدينة ، ملاصقا من جهته الشمالية لدار الإمارة ومن جهته الأخرى رتّبت الأسواق، تحيط بكل ذلك قطائع القبائل العربية التي تضم دور السكن والمساجد الصغيرة والحمامات وغير ذلك من مبان عامة فضلا عن الدور السكنية التي تخص بقية السكان

ونلاحظ أن النهج نفسه قد اتبع تقريبا عند تخطيط مدينة السلام باستثناء أن المدينة هنا كانت دائرية تماما. فهناك أربعة شوارع يبدأ كل منها من عند واحد من مداخل المدينة الأربعة وتنتهي عند المركز حيث قصر الخلافة والمسجد الجامع ودواوين الدولة والأسواق الرئيسة، وإن كان القدامى من المؤرخين المسلمين قد ذكروا أن التخطيط الذي اتبع هنا كان على شكل حلقات متتابعة تبدأ من المركز وتنتهي بالأسوار الدفاعية ثم الخندق. في حين أن بعض المختصين المحدثين يرون أن ما اتبع في تخطيط مدينة المنصور هو ما يعرف بنظام الشبكة الدائرية ذات النواة الارتكازية.

أما بالنسبة إلى سامراء فالأمر مختلف، إذ لم توجد خطة مسبقة لما يجب ان يكون عليه شكل العاصمة. ومع ذلك يمكن القول ان التخطيط كان يجمع بين النظامين المركزي و الشبكي وإن كان أميل إلى النظام المركزي. ولاشك ان العامل الذي أسهم إسهاما رئيسا في التخطيط هنا هو الاستطالة الشديدة التي تميزت بها رقعة الأرض التي شيّدت عليها سامراء. وربما أيضا بسبب الرغبة الملحّة في البناء عند أولي الأمر وكذلك عند عامة الناس وهم يفضلون البناء قريبا من ضفة نهر دجلة، وكذلك بسبب كون المنطقة الصالحة للبناء أساسا محصورة بين نهري (دجلة) و(القاطول الأعلى) القريبين من بعضهما في منطقة سامراء .

ولا شك في أن مثل هذه المدينة المترامية الأطراف لا يمكن أن يتم بناؤها إلا بحشد أعداد

غفيرة جدا من العمال المهرة و المهندسين، ولذلك نجد أن المعتصم يكتب في أشخاص الفعلة والبنائين وأهل المهن من حدادين ونجارين وأصحاب سائر الصناعات، ويأمر أيضا "... في حمل الساج وسائر الخشب والجدوع من البصرة وما يليها من بغداد وسائر السواد، ومن أنطاكية وسائر سواحل الشام، وفي حمل عملة الرخام وفرش الرخام فاقيّمت باللاذقية وغيرها دور صناعة الرخام. وافرد قطائع الأتراك عن قطائع الناس جميعا وجعلهم معتزلين عنهم لا يختلطون بقوم من المولّدين ولا يجاورهم إلا الفراعنة ...".

ومن البديهي أن يختار المعتصم أصلح المواضع ليشيّد عليها قصور الخلافة، فأمر ببناء دار الخلافة الرئيس الذي عرف بين الناس بـــ (قصر العامة) أو بـــ (الجوسق الخاقاني) على ضفة نهر دجلة وأختار مواقع جيدة أيضا لبقية القصور. ويكتب اليعقوبي بخصوص تخطيط المدينة: " ... ثم خطّ القطائع للقواد والكتاب والناس وخطّ المسجد الجامع ووسّع صفوف الاسواق وجعلت كل تجارة منفردة وكل قوم على حدتهم على مثل ما رسمت عليه أسواق بغداد ".

ولا نريد هنا ان نطيل على القارئ في سرد التفاصيل التي اوردها لنا المؤرخون فيما يخص توزيع القطائع على القواد العسكريين والكتاب وعامة الناس. ويكفي ان أقول بان المعتصم اقطع قادته الكبار الاراضي السكنية على نحو متميّز هدفه الاساس عزلهم هم والجنود الذين كانوا يعملون بإمرأتهم جهد الامكان عن بقية السكان . من ذلك انه اقطع القائد التركي (اشناس) في الجزء الشمالي من المدينة في موقع يعرف بـــ (كرخ سامراء) ما يزال سور هذه القطيعة المشيّد باللبن ، أي بالآجر غير المشوي، المدعوم بعدد كبير من الأبراج نصف المستديرة شاخصاً حتى يومنا . اما القائد التركي الكبير الآخر (الافشين) فقد اقطعه في الجزء الجنوبي من المدينة وكأنما اراد بذلك ان يبعد الأول عن الثاني. كما اقطع في الجزء الجنوبي من المدينة ايضا لقواد خراسان واصحابهم من الجند. واقطع القائد (وصيف) وأصحابه موقعا في الجهة الشرقية بعيدة عن الاسواق والزحام. في حين اقطع القائد (خاقان عرطوج) واصحابه مما يلي قصر (الجوسق). ووزّع القواد العرب واصحابهم في مناطق متفرقة من المدينة .

وفي مدينة عظيمة السعة مثل سامراء لابد ان يكون هناك الكثير من الشوارع الرئيسة والدروب والسكك الفرعية. فقد كانت حسب وصف اليعقوبي الذي عاصر المدينة تماما انه كانت تقطعها على الاقل أربعة شوارع رئيسة تمتد طولا من الشمال إلى الجنوب. أولها من جهة

الغرب: اي بدءا بضفة نهر دجلة الشرقية شارعا موازيا للنهر عرف بـــ (شارع الخليج) حيث كانت هناك: "الفرض والتجارات التي ترد من (بغداد) و(واسط) و(كسكر) وسائر السواد من (البصرة) و(الأبلة) و(الأهواز) وما اتّصل بذلك من (الموصل) و(عربايا) و(ديار بكر)".

أما الشارع الثاني الموازي له فقد كان اهم واطول واوسع شوارع سامراء إطلاقا هو العصب الرئيس للمدينة ؛ إنه (الشارع الاعظم) الذي كان يعرف في بادئ الامر بشارع (السريحة) ثم غلبت عليه التسمية الثانية. كان طوله على عهد المعتصم اقل قليلا من عشرين كيلومترا ، يمتد من اقصى جنوب المدينة حيث المنطقة المعروفة بـــ (المطيرة) التي شيّدت عندها قطيعة القائد التركي (الافشين) إلى اقصى شمال سامراء آنذاك حيث قطيعة القائد التركي الشهير الآخر (اشناس) الذي حبس ثم صلب قبيل نهاية عهد المعتصم .

لقد كانت على الشارع الأعظم من جهته الغربية تقع دار الخلافة (الجوسق) الذي اقامه المعتصم. وتقع على جانبيه ايضا بعض دواوين الدولة مثل ديوان الخراج والكثير من القصور الكبيرة وبعض القطائع مثل قطيعة الحسن بن علي المأموني وقطيعة هارون بن نعيم وسوق الرقيق ومجلس الشرط والحبس الكبير والكثير ايضا من الدور السكنية الخاصة بعامة الناس، كما يخبرنا بذلك اليعقوبي. يتصل ذلك الشارع ايضا بـــ "السوق العظمى حيث لا تختلط بها المنازل، كل تجارة منفردة وكل أهل مهنة لا يختلطون بغيرهم". ويتصل الشارع الاعظم ايضا وعلى ما يبدو بالجامع القديم الذي كان قد أقام صرحه المعتصم في طرف الحير... المسجد الجامع والاسواق من احد الجانبين ومن الجانب الآخر القطائع والمنازل وأسواق أصحاب البياعات الدنية مثل أصحاب الفقاع والهرائس والشراب ...الخ ".

لقد تميّز الشارع الاعظم ليس بامتداده العظيم حسب بل ايضا بعرضه الملفت للنظر. فقد ذكر اليعقوبي ان عرضه كان مائتي ذراع: أي حوالي (110) متر. ويمكن ان نتتبع بقايا الشارع الاعظم من الصور الجوية بدءا من قطيعة إشناس ولغاية حدود القصر الذي شيّده فيما بعد المتوكل على الله وهو (القصر الجعفري) الذي سوف نتناوله بالدراسة في هذا البحث.

الثالث ويعرف باسم (شارع الحير الأول) كان يمتد من شمال سامراء إلى حير الوحوش، أي إلى حديقة الحيوانات التي كانت تقع في الجنوب الشرقي من المدينة. اما الشارع الرابع فهو (شارع برغامش) كان يقع إلى الشرق من شارع

(الحير الأول) . ولم يذكر لنا اليعقوبي اتجاه بقية الشوارع التي كانت تمتد من الشمال إلى الجنوب بشكل واضح تماما .

أما الشوارع الكبيرة المعترضة أي التي كانت تمتد من الشرق إلى الغرب فليس بين أيدينا معلومات واضحة عنها مع الاسف، وإن كان واحد منها على الارجح كان يعرف باسم (شارع ابي احمد) نسبة للقائد العسكري احمد بن هارون الرشيد أخي المعتصم الذي كانت قطيعته تقع عليه. وقد ذكر ان دار الطبيب (ابن بختيشوع) كانت تقع عند اول ذلك الشارع تليها قطائع قواد خراسان والقواد العرب وغيرهم، أما قطيعة ابي احمد بن الرشيد نفسها فكانت تقع عند منتصفه تقريبا.

وإذا إنتقلنا في الكلام عن الجانب الغربي من سامراء فإن العمارة فيه كانت قليلة ومحدودة جدا. ويعزى السبب في ذلك إلى ارتفاع الارض وتموجها الشديد ومن ثم قلة المزروعات فيها بسبب صعوبة وصول مياه السقي إليها . ومع ذلك فقد ربط المعتصم الجانبين الشرقي والغربي بجسر وإن كنا لا نعلم حتى الآن موضعه بالضبط. وتذكر المصادر المتيسرة ان المعتصم شيّد في الجانب الغربي بعض العمائر التي سوف نتطرق بالحديث عن واحد منها لاحقا .

وتذكر المصادر التاريخية ايضا انه قد زرع عددا ليس بالقليل من البساتين والاجنة في سامراء فقد حمل النخيل وأشجار الفاكهة إليها من بغداد والبصرة ، كما حملت الغروس إليها ايضا من شمال بلاد الرافدين والشام ومن بعض الاقاليم الاسلامية الاخرى.

لقد عرف عن هذا الخليفة بحروبه ايضا مع البيزنطيين حيث تمكن من الحاق الهزيمة بهم في معارك كثيرة، كان من اهمها المعركة التي انتهت بفتحه مدينة (عمورية) في قلب بلاد الأناضول. وإنه لمن الانصاف ان نقول هنا بان المعتصم قد حقق هذه الانتصارات ولم يسبقه إليها أحد من الخلفاء او الامراء اللهم باستثناء ما كان قد تمّ خلال الفتوحات على عهد الخليفتين الراشدين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وهو أمر لم يكن بخاف على أحد. لقد توفي المعتصم بالله في سامراء سنة 227 هجرية (841م) عن عمر يناهز السادسة والاربعين ودفن في قصر (الجوسق) .

آثار المعتصم بالله المعمارية والفنية في سامراء :

إن ما خلّفه المعتصم من عمائر وآثار شاخصة في سامراء هي ليست قليلة فضلا عن انها على درجة كبيرة من الأهمية. يقع في مقدمتها قصره الكبير (الجوسق) الذي عرف ايضا في المصادر التاريخية بقصر (العامة). والذي يستفاد

مما كتبه اليعقوبي انه اول بناء ضخم يقام في سامراء، او انه على الاقل واحد من أقدم وأضخم العمائر التي شيّدها هذا الخليفة في عاصمته الجديدة. لقد عرف القصر بالاسم الثاني؛ اعني قصر العامة، لان الخليفة كان يجلس فيه للنظر في قضايا الناس يومي الاثنين و الخميس من كل اسبوع.

يعد هذا القصر الذي كان يقع على الشارع الاعظم من جهته الشرقية اكبر القصور من حيث المساحة في بلاد الرافدين حيث اقيم على ارض تنوف مساحتها على (175) هكتارا. كان مدخله الرئيس مواجها لضفة نهر دجلة الشرقية، وكانت تتقدمه من تلك الجهة مسناة ضخمة يرفعها عدد كبير من الدعامات يتم الهبوط منها بسلالم إلى بركة كبيرة واسعة مستطيلة الشكل ملاصقة تقريبا لنهر دجلة.

لقد كان الرحالة البريطاني روس J. Ross الذي إجتاز بسامراء بسنة 1836م وهو في طريقه إلى (الحضر) أول من لفت الانتباه من الاوربيين إلى هذا القصر عندما نشر ملاحظاته عنه في احدى الدوريات العلمية في بريطانية، وقد ذكر ايضا انه باستثناء مدخله الرئيس كان عبارة عن مجموعة خرائب. ومع ذلك يتبين لنا من وصف روس لهذا القصر ان بعض اقسامه وخاصة المركزية منه كانت ما تزال قائمة أو على الأقل واضحة المعالم عند زيارته له في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

ومع اندثار معظم أقسام هذا القصر، فإن ما تبقى منه يجعله واحدا من أكثر القصور حضورا في بلاد الرافدين من التي ترتقي إلى الحقب الاسلامية. إن افضل اقسامه التي كانت و ما تزال شاخصة قائمة منذ مطلع القرن العشرين على الاقل مدخله الرئيس المطل على نهر دجلة الذي كان يعرف بين الناس باسم (باب العامة). إنه من نوع المداخل الثلاثية التصميم يبلغ ارتفاعه حوالي (13) مترا. يتقدم كل من فتحاته الثلاث إيوان عمقه حوالي سبعة عشر مترا أوسعها الايوان الاوسط، حيث يبلغ عرضه حوالي سبعة أمتار. اما بقية أقسام القصر فقد تحول أغلبها إلى كثبان وتلول متفاوتة في الارتفاع.

لقد خضع (الجوسق) منذ اوائل القرن العشرين إلى أعمال المسح الشامل ثم التنقيب العام. وقد تبين نتيجة لتلك التحريات ان عرض جبهته المطلة على نهر دجلة تزيد على (200) مترا في حين ان عرض الجبهة المقابلة لها عند الطرف الشرقي تبلغ حوالي (700) مترا. لقد قام أولا المهندس الفرنسي فيوله Viollet في سنة 1907 ميلادية بدراسات وتنقيبات محدودة جدا في بعض جوانبه. ووضع نتيجة لمسوحاته

وحفائره الموجزة مخطط تصوّريا هندسيا شبه كامل لأقسام القصر كافة.

وبدءاً بسنة 1910 ولمدة اربع سنوات متتالية تولّت بعثة أثارية ألمانيّة برئاسة الاستاذين فرديك زارة F. Sarra وارنست هرتسفيلد E. Hertzfeld القيام بتنقيبات علمية واسعة في موقع مدينة سامراء كان نصيب هذا القصر منها كبيرا جدا. لقد استمرت الحفائر هنا سبعة اشهر كاملة إستعان فيها المنقبون بعدد يتراوح بين (250) و(300) عاملا فضلا عن سكة حديد لنقل الاتربة والانقاض. ومع ذلك لم يتم التنقيب الا في اماكن محدودة جدا منه بسبب مساحته الشاسعة، اذ تبلغ سعته الكلية، بما في ذلك حدائقه الواسعة (175) هكتارا، أي ما يزيد قليلا على (437) الفا من الامتار المربعة. حتى أن هرتسفيلد قد ذكر لاحدى الصحف الالمانية في حينها أنه إذا ما اريد الكشف عن جميع جوانب هذا القصر فان البعثة تحتاج إلى عشرين سنة من التنقيبات المتواصلة.

لقد تمّ التنقيب في مساحة تقرب من 14 ألفا من الامتار المربعة ضمن الاقسام الرئيسة من القصر وبخاصة القسم المركزي. وقد ازيل في سبيل الكشف عن ذلك الجزء من البناء حوالي (32) الف متر مكعّب من الاتربة والانقاض خلال تلك المدة.

لقد كشفت هذه التنقيبات أن القسم المركزي من القصر يضم قاعة الاستقبال الرئيسة او ما تعرف بقاعة العرش. إن قاعة الاستقبال هذه كانت مربعة الشكل طول كل ضلع من اضلاعها الداخلية عشرة امتار ونصف كانت تعلوها على الارجح قبة شاهقة لا نعلم شيئا عن شكلها او عن زخرفتها او عن الطريقة التي اتبعت في إنارتها. انها بلا شك مجلس الخليفة الرسمي، كان فيها يستقبل الناس ومنها تدار شؤون الدولة في عهد المعتصم بالله وفي عهود معظم الخلفاء الذين اعقبوه في سامراء.

لقد لاحظ المنقبون انه كان يتوسط كل جدار من جدرانها الاربعة مدخل يفضي إلى قاعة مستطيلة الشكل طولها (38) مترا وعرضها (5.10) متر يقوم سقفها على صفين من صفوف الدعامات. تفضي القاعة الجنوبية منها إلى ما يعرف بـ (قسم الحريم) الذي يضم عددا ليس بالقليل من القاعات والمشتملات البنائية المعقدة. وقد تبين أيضا ان عددا من تلك القاعات قد زيّنت جدرانها أنواع الرسوم المائية المتباينة في الوانها وأحجامها تشتمل على رسوم آدمية وحيوانات فضلا عن بعض العناصر النباتية والهندسية. وربما من اكثر تلك المصورات

الجدارية أهمية وشهرة ولم يغفل عنها كتاب في الفنون الاسلامية، رسم سيدتين يرتدين لباس الرقص وهن يقمن بتناسق تام ببعض حركات الرقص الايقاعية.

أما القاعة المستطيلة الشرقية فتفضي إلى الرحبة الكبرى، وهي فناء مكشوف رحب طوله حوالي (350) مترا وعرضه (180) مترا. وجد المنقبون أن الجزء الغربي منه كان مرصوفا بالآجر المربع الشكل ذي المقاسات الكبيرة ، في حين وجد ان أرض الجزء الشرقي من الرحبة الكبرى ترابية غير مرصوفة بالآجر؛ إن هذا الجزء من الرحبة الكبرى كان على الارجح مشغولا بحديقة غناء تليق بهذا القصر الكبير. وقد ذكر المنقبون في تقاريرهم أنهم وجدوا بقايا قناة للمياه مشيدة بالآجر كانت تفصل الجزئين الشرقي والغربي من الرحبة الكبرى؛ أي تفصل الحديقة عن الفناء المرصوف بالآجر.

يقع عبر تلك الرحبة من جهتها الشرقية ما يعرف بـــ (ساحة السباع)؛ انه بناء صمم على الأرجح ليكون سجنا خاصا يودع فيه المحتجزون من كبار رجال الدولة أو بعض الهاشميين المغضوب عليهم. وتدل بقايا هذا البناء انه عبارة عن ساحة مكشوفة مبلطة بالآجر دائرية الشكل منخفضة كثيرا عن مستوى الارض المحيطة بها، كان يتم الوصول إليها عن طريق مرقاة بست عشرة درجة. وقد لوحظ أن هذه الساحة تكتنفها من جميع جهاتها حجرات صغيرة منقورة في الصخر مربعة الشكل متساوية بالمساحة ارضيتها ترابية جميعها غفل من النوافذ .

وهناك في الجهة الشمالية من الرحبة الكبرى تم الكشف ربيع سنة **1988** م عن بركة دائرية كبيرة مكسّية بألواح الرخام الابيض الممتاز المستورد على الأرجح من اقليم آسيا الصغرى يبلغ قطرها (25) مترا تقريبا وعمقها حوالي متر ونصف. وقد كشفت التنقيبات حول البركة او قريب منها عن قاعات ومجالس فاخرة البناء وحمامات كبيرة . كما تم الكشف في السنة التالية في موقع قريب من النهاية الغربية لرحبة القصر عن بركة اخرى (ربما فوارة) مرتفعة قليلا عن مستوى الارض تجمع بين التدوير والتثمين؛ دائرية في الوسط ومثمنة من جهتها الخارجية، طول كل ضلع من اضلاعها الثمانية ستة أمتار ونصف. وقد تبين نتيجة التنقيبات ما يدل أن قبة خفيفة كانت تعلوها، كانت على الارجح قبة خشبية. وقد لوحظ ان هذه البركة كانت ايضا مكسّية بالرخام الناصع البياض.

وفي الجهة الجنوبية من القصر عبر الرحبة الكبرى موقع بيت المال فضلا عن حجرات كثيرة ومشتملات خاصة بالشرطة أو الحرس. والى جانب ذلك تمّ كذلك الكشف عن ساحة

للعب الصولجان Polo Ground كانت ملحقة بالقصر من جهته الشمالية الشرقية. ولابد من الاشارة أيضا إلى انه قد ظهر نتيجة للتنقيبات أن الكثير من قاعات ومشتملات القصر بما في ذلك مجلس الخليفة والقاعات الاربع التي تكتنفها وجدت مزيّنة بأنواع الزخارف الجصية الناتئة والغائرة التي سوف نتناولها بشيء من الدراسة في آخر هذا البحث.

وقبل الفراغ من الكلام على هذا القصر لابد من التنويه بان ما يعرف بـ (الجوسق) هو في الواقع مجمع كبير يضم ما لا يقل عن ثلاثة قصور كبيرة لا شك ان واحد منها على الاقل كان قد شيد بعد ايام خلافة المعتصم وهو القصر الذي يعرف بـ(الجوسق المحدث) الذي تمّ تشييده على الأرجح في السنوات الأولى من خلافة المتوكل على الله.

وعلى الرغم من أن الطبري يذكر ان المعتصم بالله قد دفن في هذا القصر فانه لم يتم الكشف خلال حفائر البعثة الالمانية أو الحفائر العراقية التي تبعتها ما يمكن ان يستدل منها على موقع ذلك القبر. وهذا امر ليس بغريب بسبب سعة مساحة رقعة الارض التي كان يشغلها هذا القصر كما سبق ذكره.

ونحن نعلم من المصادر التاريخية ايضا ان المعتصم باللة قد شيّد عددا آخر من القصور في سامراء إلى جانب (الجوسق)، مثل (الوزيري) الذي أشرف على بنائه كاتبه (ابن الوزير) الذي لا نعلم شيئا عن موقعه في الوقت الحاضر الا ان المؤرخين يذكرون انه كان يقع على الشارع الاعظم إلى الجنوب قليلا من (الجوسق).

من القصور التي شيّدها المعتصم ايضا قصر ضخما كشفت عنه حفائر الهيئة العامة للآثار العراقية سنة 1937 م يقع على الضفة الغربية لنهر دجلة على بعد (14) كيلومترا إلى الشمال من موقع سامراء الحالية في موقع يعرف في الوقت الحاضر بـ(الحويصلات). إنه على الارجح الذي يقول عنه الطبري أنه من القصور التي شيّدها المعتصم للنزهة والصيد، وفي رواية أخرى انه بناه من أجل ولده أحمد بن المعتصم الذي اسكنه فيه. أما عن إسمه الذي عرف به في المصادر التاريخية القديمة بـ (قصر الجص) فربما سمي بذلك لكونه مكسوا من الداخل والخارج بكساء جصي كثيف.

وجدت بقايا هذا القصر على الضفة الغربية لنهر دجلة إلى الشمال قليلا من قصر (الجوسق) كانت تحيط به على ما يبدو الحدائق والبساتين. فقد كشفت الحفائر الأثرية التي نفذهّا الهيئة العامة للاثار العراقية قبل الحرب

العالمية الثانية بقايا هذا القصر ووجدت ان معظم حجراته وقاعاته الرئيسة قد زينت بالزخارف الجصية التي ترتقي على الارجح إلى أيام خلافة المعتصم الا ان الحفائر الاثرية لم تكتشف أي دليل مؤكد يثبت ذلك.

لقد أظهرت التنقيبات أن القصر كان مربع الشكل تماما (140 ×140 م) ، تبلغ مساحته الكلية، بما في ذلك حدائقه و ساحاته المكشوفة، ما لا يقل عن (130) ألف متر مربع (360×360م) وإن ما لا يقل عن بقايا ربع بقايا هذا القصر قد جرفته مياه نهر دجـــلة .

وقد تبين للمنقبين ان قاعة كبرى مربعة الشكل تعلوها في الاصل قبة منيفة كانت تحتل مركز القصر؛ ومن البديهي أن تكون القاعة الخاصة بمجلس الخليفة، طول كل ضلع من اضلاعها (5.15) مترا أي ان مساحتها تزيد بأكثر من مرتين على مساحة القاعة المماثلة لها في (الجوسق). لقد كانت هذه القاعة المركزية تتصل من وسط كل ضلع من أضلاعها الاربعة بقاعة مستطيلة يتقدم كل منه ايوان واسع يطل على فناء مكشوف. ان هذا التصميم المعماري يذكرنا بوصف المؤرخين والبلدانيين العرب لقصر المنصور المعروف بـــ (قصر القبة الخضراء) في المدينة المدوّرة من حيث الشكل والتصميم. وقد لوحظ إن هذه القاعة وكذلك الكثير من حجراته الرئيسة كانت مزيّنة بالزخارف الجصية من النوع الذي كان شائعا في عصر سامراء الأول مما يرجح أنه من القصور التي أقام صرحها الخليفة الأول كما أشار إلى ذلك المؤرخون .

أما بالنسبة إلى المسجد الجامع الذي شيّده المعتصم فلا نعلم شيئا عن تخطيطه أو تفاصيله المعمارية إذ لم يشر أي من البلدانيين القدامى إلى وصفه، كما أننا لم نتمكن حتى الآن من العثور على موضعه، وإن كان بعض المختصين يرجحون انه كان يحتل بقعة من الارض قريبة من ضفة نهر دجلة الشرقية إلى الجنوب قليلا من قصر (الجوسق) .

خلافة الواثق بالله :

لقد أفضت الخلافة بعد وفاة المعتصم إلى ولده ابي جعفر هارون الذي لّقب بالواثق بالله (227-232هـ/842-847م) وعرف عند المؤرخين العباسيين بالمأمون الأصغر لأدبه الجم وفضله وما كان يتسم به من شجاعة نادرة. ولم يكن هذا الخليفة شاعرا فحسب ، بل ليس بين خلفاء بني العباس من كان أكثر رواية للشعر منه. لقد اتسم عهد الواثق بالهدوء النسبي حيث كان عهده خالياً من الثورات أو الحروب الخارجية باستثناء بعض المشاكل الداخلية ، ربما من أهمها تطاول أعراب بني سليم ومضايقاهم

للناس في المدينة المنوّرة وحواليها. فوجه الواثق إليهم في شهور سنة 230 هجرية (844م) قائده حماد بن جرير إلا أن بني سليم هزّموا الجيش العباسي وقتلوا حمادا، مما ترتب على ذلك تفاقم الأمر إلى حد كبير بما في ذلك اختلال الأمن في المنطقة، فما كان من الخليفة إلا أنه بعث إليهم بجيش لجب على رأسه أشهر قائد لديه ، وهو (بغا الكبير) فهزمهم وأخذ رؤساءهم أسرى وليستتب النظام والقانون مرة أخرى في المنطقة .

ومن الأحداث المهمة الأخرى التي وقعت في أيامه سنة 231 هـ (845م) الحركة التي عُدّت على ما يبدو عصيانا واقم بتنظيمها في بغداد أحمد بن نصر الخزاعي حفيد مالك بن الهيثم أحد قادة الدعوة العباسية المعروفون وجماعة معه وسرعان ما تمّ القضاء عليها وهي في مهدها وقبض على قادقا وسيّروا إلى سامراء ليعاقبوا هناك.

لقد عرف عن الواثق أيضا أنه كان بارا بآل البيت من العلويين حتى قيل : إنه ما مات منهم أحد في زمنه وهو فقير. غير أنه كان مثل أبيه معتزلي المذهب عنيفا في محاسبة من لا يقول من الفقهاء بخلق القرآن الكريم ، إلا أنه على ما يبدو قد تغاضى عن معاقبة أهل السنة من الفقهاء في أواخر أيامه. وفي عهده أيضا تمّ الفداء بين المسلمين والروم فأطلق سراح الكثير من أسرى المسلمين الذين كانوا محتجزين لدى الروم .

أما عن إنجازاته ومشاريعه العامة والخاصة في سامراء فكانت على ما يبدو قليلة جدا، فلم يشر المؤرخون إلا إلى قصر واحد شيّد في عهده عرف بـ(الهاروني). يذكر ياقوت الحموي أنه كان يقع على الضفة الشرقية من نهر دجلة إلى الجنوب قليلا من قصر الجوسق . إلا أننا لا نعلم بشكل مؤكد موقعه إذ يبدو أن أهل سامراء في القرون الأخيرة قد نقضوا معظم أقسامه في سبيل الحصول على الآجر ليستفيدوا منه في البناء. وكل ما نعلمه عن تفاصيل ذلك القصر العمارية النبذة التي جاءنا بها الطبري الذي ذكر أن وسط القصر كان يضم "... قبة مرتفعة في السماء بيضاء، كأنها بيضة ... حولها وفي وسطها ساج منقوش مغشّى باللازورد والذهب، وكانت تسمى قبة المنطقة ... ". ومن البديهي أن تلك القبة الشامخة التي أشار إليها الطبري كانت تعلو قاعة العرش ؛ أي مجلس الخليفة من ذلك القصر الذي لم نحظ – مع الأسف – ببقاياه.

لم تدم خلافة الواثق بالله طويلا فقد كانت أقل قليلا من ست سنوات حيث وافاه أجله المحتوم في سامراء بمرض الاستسقاء عن عمر يناهز الثانية وثلاثين ، وقيل : ست وثلاثين .

سامراء على عهد المتوكل على الله:

بويع لجعفر بن المعتصم بن هارون الرشيد بالخلافة في اليوم الذي توفي فيه الواثق ولقّب في بادئ الأمر بالمنتصر بالله ثم استبدل اللقب فيما بعد بالمتوكل على الله (232- 247هـ/ 847-861م) ويعد عهده الذي دام (15) سنة تقريبا ثاني أطول العهود قياسا بسني عهود بقية الخلفاء الذين اتخذوا من سامراء عاصمة لهم، كما أن عهده قد عرف بالرخاء فكان الأكثر استقرارا وازدهارا في تاريخ المدينة؛ فمما لا ريب فيه أن سامراء قد عاشت في عهده أزهى سنواتها.

لقد عرف عن المتوكل بمخالفته لآراء وطروحات المعتزلة جملة وتفصيلا وبخاصة ما يتعلق منها بخلق القرآن الكريم ، خلافا للخلفاء الثلاثة الذين سبقوه في الحكم وهم المأمون والمعتصم والواثق الذين كانوا من أشد أنصار المعتزلة يحاسبون من لا يقول بخلق القرآن من الفقهاء. لقد مال المتوكل بشدة إلى مناصرة أصحاب المذاهب السنّية الأربعة ودفاعه عنهم وتقريب أصحاب الحديث منهم ، وعرف عنه أيضا الكرم الشديد والمبالغة بالعطايا.

أما ما يتعلق بالأوضاع العامة فلم تقم في أيامه الطويلة سوى القليل من الثورات والانتفاضات، ربما أهمها تلك الحركة التي قام بها محمد بن البعيث في أذربيجان التي تمّ القضاء عليها سنة 235هـ (849م). ومنها أيضا وثوب أهل مدينة حمص بعاملهم أبي المغيث موسى بن إبراهيم مرتين ببلاد الشام؛ الأولى سنة 240 هجرية (854م) والثانية في السنة التالية. وكذلك عصيان قبائل (البجاة) أو (البجة) في جنوب مصر وشمال السودان بسنة 241 هجرية (855م) بامتناعهم عن دفع الجزية، فأرسل المتوكل لحربهم جيشا لجبا بقيادة محمد بن عبد الله القمي فدحرهم فعادوا إلى ما كانوا عليه من دفع الجزية المقررة.

وفي سنة 235 هجرية (849م) نصب أولاده الثلاثة ولاة للعهد بشكل متتابع ، وهم على التوالي محمد المنتصر وعبد الله المعتز وإبراهيم المؤيد، وقسم الأقاليم والبلدان التابعة للخلافة العباسية فيما بينهم. وعقد لكل واحد منهم لواءين ؛ أحدهما أسود وهو لواء العهد، والآخر أبيض وهو لواء العمل.

ومن الأحداث المهمة التي وقعت في عهد المتوكل أيضا فداء الأسرى المسلمين الذين كانوا محتجزين لدى الروم، حيث جرت عملية إعتاق كبيرة بين الخلافة العباسية والدولة البيزنطة بسنة 241 هجرية.

وعرف عن المتوكل رغبة هائلة نحو العمران وبخاصة إنجاز العديد من المشاريع الإروائية.

فانصرف طول مدة خلافته بشكل عظيم نحو البناء عموما في سامراء حتى قال عنه ياقوت الحموي : "لم يَبْنِ أحد من الخلفاء بسر من رأى من الأبنية الجليلة مثل ما بناه المتوكل"، حتى ليذكر أن من جملة المشاريع المهمة التي ترتبط بالعمران وبشؤون الرعية، مثلا تنفيذه مشروعاً إروائيا ضخماً أمّن إيصال الماء إلى داخل المدينة عن طريق قنوات إروائية غائرة ذات نظام مزدوج مغلّفة كليا بالآجر والنورة. فبسبب عمق تلك القنوات كانت المياه تتدفق فيها بسهولة ويسر. وقيل أيضا : إنها كانت تعتمد ليس فقط على ما ينساب إليها من نهر دجلة ، بل تتغذى أيضا على المياه الجوفية المحفوظة في باطن الأرض. لقد كانت تلك القنوات تستمد الماء من موقع عند نهر دجلة يقع إلى الشمال قليلا من سامراء ثم تخترق وسطها لتنتهي في أقصى جنوب المدينة.

لقد ساعد هذا المشروع الإروائي في إيصال المياه إلى كل مكان تقريبا في سامراء مما يسّر إلى درجة كبيرة التوسع في البناء والعمران ، حيث تم التغلب على مشكلة الحصول على ما يكفي من الماء لانجاز المشاريع البنائية الجبارة فضلا عن سقي الحدائق والبساتين والشوارع المشجّرة داخل مدينة سامراء دون خشية الابتعاد عن ضفة النهر.

المساجد الجامعة :

تقدم أن الجامع الأول الذي أقام صرحه المعتصم عند تشييد المدينة ، كما يذكر المؤرخون، كان قد ضاق بالمصلين فاضطر المتوكل إلى بناء مسجد جامع جديد يفي بالغرض المطلوب . يقول اليعقوبي بهذا الشأن : إن "... الجامع القديم الذي لم يزل يجمّع فيه إلى أيام المتوكل ضاق على الناس فهدمه وبنى مسجدا جامعا واسعا في طرف الحير.. المسجد الجامع والأسواق من أحد الجانبين ومن الجانب الآخر القطائع والمنازل وأسواق أصحاب الصناعات الدنيّة...". ويذكر ياقوت الحموي أن المتوكل: "... بنى مسجدا جامعا كبيرا وأعظم النفقة عليه وأمر برفع منارته لتعلو أصوات المؤذنين فيها حتى ينظر إليها من فراسخ ، فجمع الناس فيه وتركوا المسجد الأول..".

لم يبق من جامع المتوكل في الوقت الحاضر سوى جدرانه الأربعة الرئيسة التي يبلغ ثخنها (65.2) مترا وارتفاع ما تبقى منها يزيد قليلا على عشرة أمتار. إن الجدران الأربعة تشكل مستطيلا كبيرا (240 × 156م) مدعوما من الخارج بأربعة وأربعين برجا مستديرا الغرض منها التقوية والإسناد فقط. لقد كان للمسجد ستة عشر مدخلا موزعة على جدرانه الأربعة. ولاحظ أيضا أنه يتوسط الجدار القبلي محراب

كبيرمستطيل الشكل قد تهدم معظمه، وقد أعادت الهيئة العامة للآثار العراقية ترميمه وصيانته في السبعينات من القرن الماضي. ويلاحظ في أعلى الجدار القبلي أيضا صف مؤلف من أربع وعشرين نافذة مستطيلة الشكل تنتهي في أعلاها بعقود خماسية الفصوص الغرض ، منها إدخال ما يكفي من الضوء لإنارة حرم المسجد الواسع (240 × 92م). إن هذه النوافذ الأربع والعشرين، وكذلك أربع نوافذ أخرى موزعة على الجدارين الشرقي والغربي، كانت على الأرجح مفرغة أو مخرمة ذات زخارف هندسية متشابكة هي التي عرفت في المصادر الإسلامية بـــ (الشمسيات). إنه ابتكار اختصت به العمارة العربية الإسلامية وأصبح من أشهر معالمها، شأنها في هذا شأن شمسيات نوافذ المسجد الجامع الذي أقام صرحه الأمير أحمد بن طولون في الفسطاط بعد حوالي عشرين عاما على تشييد جامع المتوكل في سامراء ، ومن المعروف أن أحمد بن طولون قد نشأ وترعرع في سامراء "فلا بد أنه قد صحب معه عددا من المعماريين والحرفيين وكذلك عددا من الفنانين العراقيين الذين شاركوا في بناء عمائره ومدينته التي عرفت بـــ (القطائع) وجامعه وقصره ".

أما مئذنة هذا المسجد الجامع الضخمة الحلزونية الشكل المشيّدة بالآجر التي يصل ارتفاعها إلى (52) مترا فإنها تبعد عن منتصف جداره الشمالي بأكثر قليلا من (27) مترا. تقوم هذه المئذنة الصلدة غير المجوّفة على قاعدة مربعة إرتفاعها من مستوى الأرض المحيطة أكثر قليلا من أربعة أمتار ، وطول كل ضلع من أضلاعها (38) مترا تقريبا. يمكن للمؤذن أن يصل إلى قمتها عن طريق منحدر يبدأ من المدخل الأوسط لجدار المسجد الشمالي يوصله إلى أعلى القاعدة ، ثم عن طريق ممر أو منحدر لولبي خارجي يلف حول محور المئذنة خمس لفات عكس اتجاه عقارب الساعة توصله إلى قمة المئذنة التي كانت على الأرجح مسقّفة بقبة خشبية.

لقد كان وضع هذا الجامع عندما اجاز به الرحالة البريطاني روس Ross سنة 1834 ميلادية على ما يبدو هو نفسه الذي هو عليه اليوم. ومن الواضح أن خلو الجامع من سقوفه ومشتملاته الداخلية يعزى بشكل أساس إلى نقض السكان المحليين لها مستفيدين من أخشابه وجره في البناء. ربما بدأت عملية النقض عقب العودة بكرسي الخلافة إلى بغداد وهجران الناس للمدينة رويدا رويدا في غضون القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي والقرون التي أعقبته .

إن أولى الحفائر المنتظمة في هذا المسجد الجامع نفّذتها البعثة التنقيبة الألمانية قبيل الحرب

العالمية الأولى. وبما أن المساحة الداخلية لهذا المسجد الجامع كبيرة جدا ؛ إذ تبلغ حوالي (38) ألفا من الامتار المربعة وذلك يجعله أكبر مسجد جامع في العالم حتى يومنا هذا فقد اضطرت البعثة إلى إجراء حفائر في مواضع ضيّقة ومحددة منه داخل أروقته وصحنه الفسيح، منها في ثلاثة مواضع صغيرة داخل حرم المسجد ، وفي موضع واحد داخل كل من المجنبتين والمؤخرة والأخير في موضع واحد بوسط الصحن المكشوف . لقد تمكنت بعثة التنقيب عن طريق هذه الحفائر المختزلة الشبيهة بما يعرف بالمجسات، الاختبارية الحصول على مخطط شبه كامل و قريب جدا من الصحة لهذا المسجد الفسيح الأرجاء .

لقد تبين نتيجة لتلك الحفائر المقتضبة أن الحرم كان يشتمل على تسعة أساكيب وأربعة وعشرين بلاطة تحددها تسعة صفوف من الدعامات الضخمة التي تتوازى مع جدار القبلة وأربعة وعشرون صفا منها تتعامد مع الجدار نفسه. يتقدم الحرم صحن فسيح تكتنفه من جهتيه : الشرقية والغربية مجنبتان تقوم كل منها على أربعة صفوف من الدعامات البنائية أو الروافع التي تتوازى مع الجدارين الشرقي والغربي. أما المؤخرة فكانت تحتوي على ثلاثة صفوف من الدعامات التي رتّبت على النسق نفسه التي رتّبت بها الدعامات في حرم المسجد.

لقد أظهرت حفائر البعثة الألمانية أن جميع دعامات المسجد المشيّدة بالآجر كانت مثمنة الشكل تقوم على قواعد مربعة، تلتصق بأربعة جوانب من بدنها المثمن أعمدة رخامية لها قواعد وتيجان كأسية الشكل.

ويذكر المنقبون الألمان في تقاريرهم المنشورة أن سقوف بيت الصلاة والمجنبتين وكذلك المؤخرة كلّها من الخشب تستند مباشرة على الدعامات دون الاستعانة بالعقود، ليس فقط لأن الحفائر الأثرية لم تكشف لنا عن أجزاء من العقود أو القناطر ، بل أيضا لأنه ليست هناك آثار للعقود ظاهرة على وجهات الجدران الأربعة الداخلية للمسجد الجامع.

وكشفت بعثة التنقيب عن بقايا نافورة أو فّوارة كبيرة في وسط الصحن المكشوف، الفوّارة التي كتب عنها حمد الله المستوفي أنها كانت منقورة من قطعة واحدة من الرخام الصلد الوردي اللون قطرها سبعة عشر ذراعا وثخنها نصف ذراع. وأظهرت الحفائر أيضا أن الماء كان يصل إلى تلك الفوّارة عن طريق قناة مغلقة مشّيدة بالآجر مخفيّة تحت تباليط المسجد كانت تأخذ الماء على الارجح من (قناة المتوكل) التي كانت تجري بمحاذاة المسجد الجامع من جهته الغربية.

وفي خلال سنتي **1963** و**1964** م قامت بعثة للتنقيب أوفدتها الهيئة العامة للآثار العراقية برئاسة كاتب هذا البحث بالكشف عن جميع ما تبقى من جوانب هذا الجامع الكبير حيث رفعت من داخل مشتملاته وأروقته آلاف الأطنان من الأتربة والأنقاض. ظهر نتيجة لذلك العمل الشاق الشكل أو التخطيط الكامل والدقيق للمسجد الجامع. ولم تكن هناك اختلافات كثيرة مع المخطط الذي سبق ووضعه هرتسفيلد باستثناء أن عدد الأروقة في كل من المجنبتين الشرقية والغربية ظهرت في المخطط الجديد أكثر مما كانت عليه في مخطط هرتسفيلد ببلاطتين: أي أن عددها الحقيقي هو (**24**) بلاطة بدلا من (**22**) في مخطط البعثة الألمانية وكذلك في المخطط الذي وضعه للمسجد الجامع فيما بعد الأستاذ كرسويل. وبذلك يكون مجموع دعامات الجامع الكبير في سامراء (**480**) دعامة بدلا من (**464**). وقد كشفت بعثة التنقيب العراقية بما لديها من الدلائل الأثرية عن أن صحن المسجد الفسيح كان يحيط به من جوانبه الأربعة صف واحد من العقود: أي أنه كانت هناك بائكة واحدة تطل على الصحن من جهاته المختلفة.

فإذا صح اجتهاد هيئة التنقيب العراقية بهذا الخصوص فسيكون تخطيط هذا المسجد الجامع شبيها إلى حد ما مع تخطيط المسجد الجامع في (حرّان)، المدينة التي تقع خرائبها في شمال شرق بلاد الرافدين الذي كشفت عنه بعثة تنقيب بريطانية في أواخر الخمسينات من القرن العشرين.

لقد تبين نتيجة للتنقيبات العراقية الأخيرة أن حرم المسجد وكذلك المجنبين والمؤخرة الأكثر ارتفاعا من الصحن الوسطي المكشوف بمقدار ثلاثين سنتيمترا كانت مكسوة بالرخام الأبيض الصقيل في حين أن الصحن الوسطي كان مبلّطا بالآجر المربع الكبير. وتبين نتيجة لتحليل بقايا أخشاب السقوف التي تمّ العثور عليها أثناء التنقيبات أنها كانت من بعض أنواع الصنوبرات التي يكثر وجودها في المناطق الجبلية بشمال بلاد الرافدين ولم نجد ما يدل على الاستعانة بخشب الساج في تسقيف هذا المسجد الجامع.

وإذا انتقلنا إلى موضوع أساليب الزخرفة التي اتبعت هنا فقد كشفت الحفائر الأثرية عن كميات كبيرة من الزخارف الجصية التي كانت على ما يبدو تزين الجزء الأسفل من بعض جدران الجامع الداخلية. كما كشفت حفائر البعثة الألمانية وبعدها العراقية عن الكثير من مكعبات الفسيفساء الملوّنة الزجاجية والحجرية كانت تزين المحراب والمنطقة المحيطة به، الا أنه لم يعثر على شيء منها في مواقعها الأصلية.

وتم الكشف أيضا خلال تنقيبات بعثة التنقيب العراقية ما يدل على الاستعانة ببلاطات من الزجاج المربع السميك (50 × 50 × 6 سم) لكسوة الواجهات الداخلية للجزء الأسفل من جدار القبلة في حرم المسجد إلى ارتفاع متر واحد تقريبا. وفي اعتقادنا أن هذا ما قصده المقدسي الذي وصف لنا هذا المسجد الجامع في القرن الرابع الهجري بقوله : إن جدار القبلة الداخلي كان مكسوا بـــ (المينا) العاكسة للصور التي مكّنت المصلين من مشاهدة من كان يدخل إلى الحرم من جهة الصحن.

إن ما يعرف بـــ (جامع الملوية) ليس المسجد الجامع الوحيد الذي شيّد في عهد المتوكل على الله في سامراء ، فمن المعروف أن هذا الخليفة عندما قرر بعد بضع سنوات من بداية عهده أن يشيّد لنفسه عاصمة جديدة إلى الشمال قليلا من مدينة سامراء شيّد فيها مسجدا جامعا مناسبا يعرف في عصرنا الحالي باسم (جامع أبي دلف) مع أننا لسنا على يقين من أين جاءت التسمية. هل هي نسبة إلى القائد العربي المعروف (القاسم بن عيسى بن أبي دلف العجلي) أحد قواد المأمون ، ثم صار واليا من قبل المعتصم على دمشق ، ذلك القائد صاحب الوقائع المشهورة الذي جمع بين طرفي الكرم والشجاعة المنقطعة النظير. أم أن التسمية جاءت نسبة إلى القائد (عبد العزيز بن أبي دلف) الذي كان قد تولى في عهد المعتز بن المتوكل أمارة (إقليم الجبل) الأقليم الذي كان يضم مدن (أصفهان) و(الري) و(همدان). وعلى الرغم من أن القاسم ابن عيسى كان قد توفي في خلافة المعتصم بسنة 225 أو 226 هجرية (839-840م)، أي قبل أن يتولى المتوكل على الله أمر المسلمين بست سنوات على الأقل فإنه نسبة هذا المسجد الجامع إليه هو الأرجح بسبب ان اسمه وشجاعته وكرمه ظل في ذاكرة العراقيين لفترة طويلة جدا.

ومهما يكن من أمر التسمية فإن جامع أبي دلف أصغر من حيث المساحة من جامع الملوّية (213×135 متر) ومع ذلك فهو ثاني أكبر المساجد الجامعة التي شيّدت في العصر العباسي وفي العصور اللاحقة ، لا في العراق فحسب ، بل في جميع أرجاء العالم الإسلامي. إن من أولى الملاحظات على هذا الجامع أنه يختلف عن جامع الملوية من حيث التصميم والتخطيط على الرغم من أن مئذنته تشبه إلى حد كبير مئذنة جامع سامراء فهي ليست حلزونية فحسب، بل تحتل موقعا مشابها لموقع مئذنة جامع سامراء الكبير فهي منفصلة عنه وتبتعد قليلا عن منتصف ضلعه الشمالي من جهته الخارجية ، مع كونها أصغر حجما وأقل ارتفاعا حيث تلف

ثلاث لفّات حول محورها بدلا من خمسة ولا يزيد ارتفاعها الكلي عن (5.17) مترا.

أما عن أوجه الاختلاف فيلاحظ أن جدرانه الأربعة الرئيسة مشيدة باللبن بدلا من الآجر ولذلك تحولت في معظمها عبر القرون المتعاقبة إلى كثبان طينية متفاوتة في الارتفاع. كما يلاحظ أيضا أن المصمم أو المعمار قد استعان في تشييد أقسامه الداخلية بالقناطر البنائية الضخمة ذات العقود المدببة: أي أن سقوف المسجد الجامع الخشبية هنا لا تستند على الركائز أو الدعامات مباشرة، كما هو الأمر مع جامع سامراء، بل على بوائك ذات عقود مدببة ترفعها دعامات بنائية مستطيلة الشكل لا تزال قائمة في أماكنها الأصلية وبشكل جيد من الحفظ . ويعود الفضل في بقائها إلى البعد النسبي لموقعه عن المستوطنات السكانية التي أقيمت بعد عصر سامراء.

لقد كان جامع أبي دلف مكسوا من الداخل والخارج بكساء جصي أبيض ثخين، غير أننا لم نجد بين مخلفات هذا الجامع ما يمكن أن نستدل منه على ضروب الزخارف التي استخدمت في تزينه وإن كنا لا نستبعد أن الاستعانة هنا كانت أيضا بالزخارف الجصية شأنه في هذا شأن المسجد الجامع في سامراء.

المنجزات المعمارية الأخرى في عهد المتوكل :

ومن البديهي أن المساجد الجامعة لم تكن المشاريع الإنشائية الوحيدة التي أقام صرحها المتوكل في سامراء ، فقد شيّد إلى جانب ذلك الكثير من القصور الفخمة. ذكر المؤرخون أسماء سبعة عشر قصرا منها انفق على بنائها أموالا طائلة.

فمن قصور المتوكل التي لا يزال بعض أقسامها شاخصة (قصر بلكوارا). يتبين أن أطلال هذا القصر تحتل اليوم مساحة واسعة الأرض تطلّ على دجلة في القسم الجنوبي من سامراء. يذكر المؤرخون القدامى أن هذا القصر الذي كان يعد واحدا من أجمل القصور في سامراء قد أنفق عليه المتوكل أكثر من عشرين مليون درهم شيّده من أجل ابنه المعتز بالله وذلك بين سنتي 240–245 هجرية (854–859م). وليس هذا بغريب فالقصر كما تظهره الدراسات الأثرية الحديثة كثير التعقيد واسع المساحة إذ يبلغ امتداد جداره الخارجي المدعوم بعدد كبير من الأبراج أكثر قليلا من ألف متر.

لقد نفذت بعثة التنقيب الألمانية قبيل الحرب العالمية الأولى تنقيبات واسعة في أطلاله، غير أنه بسبب سعة هذا القصر الهائل تركزت

التنقيبات في القسم المركزي منه حيث مجلس الخليفة المؤلف من قاعة الاستقبال الكبرى وما يحيط بها من مشتملات. وكشفت الحفائر الألمانية عن الكثير من الزخارف الجصية المتنوعة التي كانت تزين عددا ليس بالقليل من قاعاته وحجراته.

لم تقتصر نشاطات المتوكل المعمارية على المساجد الجامعة والقصور ، بل تعدّت إلى جملة مشاريع عامة أخرى منها إقامة حديقة واسعة للحيوانات تقع في القسم الجنوبي شرقي المدينة عرفت بـ (حير الوحوش) تدل بقاياها على أنها كانت ذات مساحة واسعة ومنحرفة ومسوّرة بجدار من اللبن ، امتدادها من الشمال إلى الجنوب ثمانية كيلومترات من جهة وستة كيلومترات من الجهة الأخرى، في حين يبلغ عرضها حوالي كيلومتر واحد. ويذكر بهذا الخصوص أن المتوكل كان يطلب من ولاته في الأمصار أن يرفدوها بكل غريب من الحيوانات الوحشية حتى باتت تضم أنواع الحيوانات البرية غير الأليفة كالأسود والنمور والفيلة والقردة والضباء والحمير الوحش والإيائل والأرانب والنعام وغيرها. مما كان يؤتى بها من مختلف الأقاليم القريبة والبعيدة. ومع ذلك لابد من القول بأن هذا لا يعني أن (حير الوحوش) التي أقام صرحه المتوكل كان الأول في سامراء ، فقد ذكر أنه كان ملحقا بدار الخلافة على عهد المعتصم موضعا خاصا لحفظ العديد من الحيوانات الغريبة والوحشيّة ، ولكنها على ما يبدو كانت أصغر مساحة بكثير وحيواناتها أقل عددا وتنوعا.

ومن مشاريع المتوكل العامة إقامة عدد من حلبات خاصة بالفروسية وسباق الخيل في سامراء والمتوكلية. والواقع أن ساحات الفروسية وحلبات السباق في سامراء قد بلغ عددها حدا لم تبلغه أي مدينة أو حاضرة من الحواضر في جميع أرجاء الأقاليم الإسلامية المترامية الأطراف لا قبل بناء هذه المدينة ولا بعدها.

ومع ذلك لابد من القول هنا بإنها لم تكن كلّها قيد الاستعمال في وقت واحد كما أننا لسنا متأكدين أن جميع تلك الحلبات تعود إلى أيام المتوكل.

وربما من الغريب أن حلبات السباق هذه لم يتم الكشف عنها خلال تحريات المهندس الفرنسي فيولة أو خلال تحريات وحفائر البعثة الألمانية قبل الحرب العالمية الأولى، ويعزى السبب في ذلك إلى كثرة التلول والآكام والخرائب القائمة التي تغطي موقع المدينة المترامي الأطراف حيث يصعب على من يتجول بينها أن يكوّن

فكرة واضحة عن أشكالها واتجاهاتها. ولاشك أن الذي ساعد على الكشف عن حلبات السباق هذه الصور الجوية التي التقطت للموقع في الثلاثينات من القرن العشرين وكذلك الحفائر الأثرية الواسعة التي قامت بها الهيئة العامة للآثار العراقية بين سنتي (1936–1940م).

من هذه الحلبات واحدة بيضيّة الشكل تحتل موقعا قريبا من المسجد الجامع من ناحيته الشمالية يبلغ أقصى امتداد لها (5.5) كيلومترا وبذلك تستطيع الخيل الركض ذهابا وإيابا لمسافة (11) كيلومترا بدأ من نقطة الانطلاق. أما الحلبة الثانية فتقع إلى الشمال قليلا من موقع الحلبة الأولى. إنها تساويها في المسار تقريبا إلا أنها قد صممت على شكل مثلث متساوي الساقين ضلعه الأوسط على شكل نصف دائرة تقريبا وهو أمر بديهي بالنسبة إلى ساحة لسباق الخيل. وهناك عند رأس المثلث مسطبة أو دكّة مرتفعة كانت قد أعدّت فيها مجالس لعلية القوم من المشاهدين .

الثالثة والأخيرة في سامراء حلبة تبدو متطوّرة تماما من حيث التصميم، الأساس فيها التقاء أربعة أطواق أو حلقات (دوائر) متماسة رتّبت حول دكّة مركزية كبيرة مربعة الشكل ومرتفعة. تتألف كل حلقة من هذه الحلقات الأربع من طوقين متوازيين يدوران دون انقطاع أربع مرات حول المربع المركزي (مرة واحدة في كل دائرة). وقد وجدت فوق تلك الدكة آثار بناء كان على الأرجح هو المكان المعد لجلوس الخليفة وحاشيته وضيوفه فى أثناء السباقات. مع الطول الكامل للدوائر الأربع فإنها تزيد على خمسة كيلومترات فأبعد ما يمكن أن تصل إليه الخيل فى أثناء السباق عن النظارة حيث مجلس الخليفة لا تزيد على ستمائة متر.

أما حلبة السباق الأخيرة فقد تمّ الكشف عن بقاياها في مدينة المتوكلية التي تقع على بعد قرابة (20) كيلومترا إلى الشمال من سامراء، إلا أنه لوحظ أن البناء لم يتكامل فيها حيث هجرت المدينة قبل أن يفرغ من إعدادها للسباقات .

وإلى الشرق قليلا من حلبة السباق الثالثة هناك بقايا البركة الشهيرة التي شيّدها المتوكل ، وأطنب في وصفها المؤرخون ، وعرفت في كتب التاريخ باسم (البركة الجعفرية). لقد كانت البركة تتقدم (قصر الحير) الذي كان قد أقام صرحه المتوكل لصق نهر القاطول الأعلى إلى الشرق قليلا من دار الخلافة . لقد وصف البحتري هذه البركة بأكثر من قصيدة، أشهرها التي من أبياتها :

يـــا مـــن رأى البركـــة الحـــسناء رؤيتهـــا
والآنـــســـات إذا لاحـــت مغانيهـــا

يحسبها أنها في فضل رتبتها
تعد واحدة والبحر ثانيها
ما بال دجلة كالغيرى تنافسها
في الحسن طورا وأطوارا تباهيها
كأنما الفضة البيضاء سائلة
من السبائك تجري في مجاريها
إذا النجوم تراءت في جوانبها
ليلا حسبت سماء ركبت فيها

ويفهم من هذه الأبيات ، ومن غيرها من قصائد البحتري أن للبركة حوضاً واسعاً تطل عليه دكّتان مرتفعتان تكتنفهما من كل جانب البساتين والرياض الغنّاء فيها أنواع الطيور ، منها الطواويس والببغاوات وغيرها. كان الماء فيها سريع الجريان بفضل نهر يدخل إليها من وسطها ويغذيها ثم يخرج منها، ويذكر البحتري أيضا أنه قد نصبت على جانب واحد من جوانب البركة على الأقل دواليب مائية تديرها النعام بشكل مستمر. ويفهم من قصيدة أخرى له أنه كان هناك تمثال لدولفين كبير يطل على تلك البركة، ومن المعروف أن العرب كانت تتفاءل بالدلافين بعد أن كانت تقدسها في العصور السابقة للإسلام .

لم تجر حتى الوقت الحاضر حفائر أثرية في بقعة الأرض التي تحتلها البركة ولو أن موقعها معروف لنا تماما. ويلاحظ أن هناك في الموقع منخفضاً غير طبيعي مربع الشكل يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه زهاء مائتي متر ، وعلى جهتيه الشرقية والغربية مرتفعان يمتدان على طول الضلعين الجانبيين . ويحد المنخفض من جهته الجنوبية بقايا قصر كبير، ومن جهة المنخفض الشمالية آثار نهر كان ينحدر إلى موقع البركة بعد أن يخترق حير الوحوش من وسطها .

المدينة المتوكلية :

ويعد بناء المتوكل لعاصمته الجديدة (المتوكلية) إلى الشمال من سامراء أعظم الأنجازات المعمارية لهذا الخليفة وخاتمتها. إنها المدينة التي امتد العمران فيها من الشمال إلى الجنوب لمسافة ثلاثة فراسخ: أي حوالي خمسة عشر كيلومترا ، ومن جبهة نهر دجلة في الغرب إلى القاطول الأعلى في الشرق أكثر قليلا من أربعة كيلومترات. ويمكن للزائر أن يشاهد حتى يومنا هذا بقايا السور الضخم الذي كان يكتنف بالمتوكلية من جهته الجنوبية الذي يبلغ طوله حوالي (5.4) كيلومتر، إنه مشيّد باللبن ومدعوم بعدد كبير من الأبراج المستديرة .

ومما هو جدير بالملاحظة هنا أن الدور والقصور والشوارع والسكك قد خطّت بشكل منتظم ومتسق كما تشهد بذلك الصور الجوية التي التقطت للموقع . يقول اليعقوبي إن المتوكل

أقطع ولاة عهده وسائر أولاده وقواده وكتابه وجنده وسائر الناس القطائع فيها ثم أمر بنقل جميع الدواوين من سامراء إليها. وامتداد العمران فيها امتدادا عظيما فإنه لم يستغرق بناؤها كثيرا حيث شرع في بنائها في أواسط سنة 245 هـ (859م) وأتمّ معظمها في أواخر السنة التالية.

وفي سبيل تأمين المواصلات بين (المتوكلية) و(سامراء) مدّ الشارع الأعظم لمسافة تقترب من خمسة عشر كيلومترا باتجاه الشمال وجعله رحبا إلى درجة لافتة للنظر ؛ إذ لم يسبق لمدينة في التاريخ أن يكون شارعها الأعظم على مثل تلك الرحابة. ونحن نعلم أنه قد شق على جانبي ذلك الشارع الرحب قناتين للشرب وللزراعة ، وفي الوقت نفسه للمساعدة في عملية البناء. وكانت الأشجار والحدائق النظرة – على ما يبدو – تكتنف الشارع الأعظم من الجانبين بغية تجميل المدينة وتأمين التنسيق العام لها على أفضل وجه فضلا عن تلطيف الجو . واستُعِيَن بهاتين القناتين أيضا لسقي حدائق الكثير من القصور المطلّة على هذا الشارع الذي كان المتوكل قد أقطع الطبقة العليا من الناس على جانبيه. وقد نفذّت الهيئة للآثار العراقية قبيل الحرب العالمية الثانية تنقيبات مكثّفة في عدد منها ، ولاحظت أنها تضم مجموعة كبيرة من القاعات والحجرات والمشتملات البنائية الأخرى ، فضلا عن عدد من الافنية المكشوفة التي كان بعضها على الأرجح حدائق داخلية.

ولم يلبث أن اتصل البناء بين سامراء والمتوكلية فصار امتداد مدينة سامراء الكبرى على عهد المتوكل، كما سبق ذكره، من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال نحو (34) كيلومترا، ومن المؤكد انه امتداد لم تبلغه مدينة أخرى في العصور الوسطى.

أما القصر الجعفري الواسع الأرجاء، القصر الذي زادت مساحته على (225) ألف من الأمتار المربعة فلا نعلم عن تخطيطه شيئا ؛ إذ لم يشهد حتى الآن حفائر أثرية منظمة، لكن الذي نعلمه من المصادر التاريخية أنه قد أنفق على بنائه ما لا يقل عن خمسين مليونا من الدراهم، إنه أكبر مبلغ من المال ينفق على أي من مشاريعه المعمارية أو الإروائية. ليس هذا فقط ، بل أنه قد نقض في سبيل إتمام بنائه قصرين كبيرين كان قد شيّدهما في بداية عهده في سامراء هما (المختار) و(البديع)، وذلك لغرض الاستفادة من ساجهما الثمين المستورد من جنوب شرق آسيا في تسقيف بعض المجالس والقاعات الرئيسة في قصره الجديد .

ومع كل ذلك فإن المتوكل لم يسكن في هذا القصر الواسع الأرجاء سوى تسعة أشهر وثلاثة أيام حيث لقي حتفه فيه على يد شرذمة من

حرسه التركي الخاص في الخامس من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين (861م) عن عمر يناهز السادسة والأربعين، وقد أمر الخليفة الجديد بدفنه في القصر نفسه.

ومن المعروف أنه ليس هناك اتفاق واضح بين القدامى من المؤرخين العرب على التاريخ المحدد لاغتيال المتوكل على الله إلا أن الطبري وكذلك ابن الأثير يروون أن ذاك كان الرابع أو الخامس من شوال سنة 247 هجرية.

وفي اليوم التالي لاغتيال المتوكل ذهب معظم القادة العسكريين إلى القصر الجعفري حيث قرأ عليهم أحمد بن الخصيب رسالة عليهم من المنتصر أعلن فيها أن الوزير الفتح بن خاقان قد اغتال المتوكل فقتله للثأر منه . وبعد ذلك بايع الناس للخليفة الجديد .

ومن المعروف أن المنتصر بالله كان الابن الأكبر للمتوكل ، وكان في الخامسة والعشرين عندما بويع له بالخلافة. ويبدو أن المنتصر كره العيش في المتوكلية وفي القصر الجعفري الذي شيده والده فانتقل إلى سامراء بعد عشرة أيام مع قواده وجنده.

لقد أنفق المتوكل على البناء والمشاريع الأخرى خلال مدة خلافته التي بلغت خمسة عشر عاما أموالا طائلة، حيث يذكر أن مجموع ما صرفه من أموال على القصور وغيرها من المشاريع مثل المساجد الجامعة والمشاريع الإروائية والطرق وغير ذلك كان زهاء (294) مليون درهم ، وفي هذا يقول المسعودي : إن النفقات لم تكن في عصر من العصور ولا في وقت من الأوقات مثلها في أيام المتوكل.

سامراء في عهود ما بعد المتوكل :

لقد تولى الخلافة بعد المتوكل ابنه وولّي عهده الأول (المنتصر بالله). وقد ظن الكثير من المؤرخين القدامى والمحدثين أن للخليفة الابن يد في قتل أبيه بسبب ما يروى من أن والده كان قد عزم على تقديم أخيه (المعتز) عليه في ولاية العهد. ومع ذلك فإن هؤلاء المؤرخين لم يقدموا ما يكفي من الأدلة الشافية أو المقنعة لإلصاق تلك التهمة الخطيرة بالمنتصر بالله ، وبخاصة أن بعض المؤرخين قد ذكروا عن المنتصر بعد توّليه الخلافة أنه كان يسب الأتراك ويقول فيهم : "هؤلاء قتلة الخلفاء". ويبدو أن القادة الأتراك كانوا يبادلونه الشعور نفسه ، فلم يكونوا يكنّون له شيئا من الحب أو المودّة. ويذكر أن هؤلاء القادة الترك الميالين للشغب والاستهتار بالخلفاء لم يستطيعوا أن ينالوا منه لما كان يتسم به من شجاعة وفطنة وتحرز. والواقع أن هذا الخليفة على رأي المؤرخين كان فضلا عن شجاعته عادلا وكريما وحليما ومنصفا . ليس هذا فقط بل كان محسنا للرعية وصولا لهم. وبسبب ذلك مالت إليه

قلوب الناس مع شدة هيبتهم له. إلا انه عندما تولى الخلافة خلع أخويه (المعتز) و(المؤيد) من ولاية العهد التي عقدها لهما المتوكل ، كما سبق ذكره.

تعد نهاية عهد المتوكل نهاية عصر الازدهار بالنسبة لسامراء عموما، وإن كان هناك من يرى من المؤرخين والبلدانيين أن عهد الاضمحلال كان قد بدأ بنهاية عهد المنتصر. ففي أول عهده المنتصر هجرت (المتوكلية) ولم يتجاوز عمرها السنتان بما في ذلك المدة الزمنية التي استغرقها البناء، وهي بلا منازع تعد واحدة من أقصر المدن الكبيرة عمرا في التاريخ أن لم تكن أقصرها جميعا.

وبترك الخليفة للمدينة نقض الناس دورهم هناك ونقلوا أخشابها وما يمكن الاستفادة منه إلى سامراء مع أن الكثير من تلك الدور والقصور لم يكن قد تكامل البناء فيها بعد فتحولت سريعا إلى خراب في خراب. يقول اليعقوبي بأن المنتصر عندما انتقل إلى سامراء: "...أمر الناس جميعا بالانتقال وأن يهدموا المنازل ويحملوا النقض إلى سر من رأى ... فخربت قصور الجعفري ومنازله ومساكنه وأسواقه في أسرع مدة ، وصار الموضع موحشا لا أنيس به ولا ساكن، فيه الديار بلاقع ، كأنها لم تعمر ولم تسكن ... ". وهكذا قضت عليها الأقدار بالموت والإقفار بعد مقتل المتوكل لتتحول سريعا إلى خراب ينعق فيها البوم .

لقد تحوّل (القصر الجعفري) جميعه إلى كثبان متفاوتة في الارتفاع، وما تزال بعض أقسامه وخرائب بركته الواسعة القريبة من ضفة نهر دجلة عند الزاوية المحصورة بين نهر دجلة من جهة والقاطول الأعلى من الجهة الأخرى تشاهد واضحة المعالم وبخاصة عن طريق الصور الجوية. ويمكن للزائر أن يتلمس سور القصر الجنوبي الذي يفصله عن المتوكلية.

لقد استقر الخليفة الجديد في دار الخلافة، وقيل : في قصر (الجوسق المحدث)، غير أن المنيّة عاجلته بعد أقل من ستة أشهر على توليه أمور المسلمين ، وذلك في الخامس من ربيع الآخر من سنة 248 هجرية (863م) عن ست وعشرين سنة. لقد توفي بعد مرض لم يهمله أكثر من ثلاثة أيام. وقيل : إنه قد أُطعم فاكهة مسمومة دسها له بعض القادة الترك ففصد وتوفي.

ومن البديهي بسبب قِصَرِ أيام المنتصر بالله ألاّ تكون هناك الكثير من الأحداث الجسام في عهده. وربما أهمها إعداده وإرساله جيشا كبيرا من سامراء بقيادة القائد (وصيف) لغزو الروم زاد تعداده على عشرة آلاف مقاتل. أما بالنسبة إلى المشاريع البنائية فليس بين أيدينا إشارات إلى مبان مثل القصور أو بعض المشاريع الإروائية التي

نفذها هذا الخليفة الشاب في سامراء أو في غيرها من المدن أو الأقاليم العربية والإسلامية.

بوفاة المنتصر بالله باتت الخلافة لأول مرة ألعوبة بيد القادة الترك يبايعون من يريدون وينحّون عنها من يريدون ، فبايعوا في الرابع من ربيع الآخر من سنة 248هـ (862م) أحمد بن محمد بن المعتصم ولقّبوه بالمستعين بالله (248-251 هـ / 862-866م). وفي أول عهده ومَع الكثير من الانتفاضات وأعمال الشغب، منها أعمال غوغائية مصحوبة بالكثير من العنف قام بها الجند وبعض الصعاليك والعامة ببغداد وسامراء سنة 248هـ (862م) ففتحوا أبواب السجون وأخرجوا من فيها من السجناء وأحرقت ونهبت في المدينتين نتيجة لأعمال الشغب تلك الكثير من دور العامة والاسواق.

وفي سنة 251 هـ (866م) تفاقمت الخلافات والمشاكل بين الخليفة المستعين والقادة الترك وبخاصة بعد قتله للقائدين التركيين (وصيف) و(بغا) بسبب بعض الجرائم التي ارتكباها. ومن المعروف أن الخليفة في أوائل عهده كان تحت تأثيرهما حتى قال بعض الشعراء في ذلك :

خليفة في قفص بين وصيف و بغا
يقول ما قالا له كما تقول البَبَّغَا

لقد اضطر الخليفة بسبب تلك الخلافات الجسيمة والمُلِحّة إلى ترك عاصمته واللجوء إلى بغداد رافضا العودة إلى سامراء ، على الرغم من محاولات القادة الترك لإقناعه بذلك. فما كان من هؤلاء إلا أن أصدروا قرارا بعزله عن الخلافة وتولية المعتز بن المتوكل بدلا عنه. ثم عقد القادة العسكريون في سامراء العزم على مهاجمة بغداد لإجبار المستعين على التخلي عن كرسي الخلافة ، فما كان من المستعين إلا أن أمر بإقامة سور كبير ليحيط ببغداد بجانبيها الشرقي والغربي. ومع أن ذلك السور قد شيّد في فترة زمنية قياسية لم تزد على بضعة أشهر فإنه صمد تماما أمام هجمات جيش سامراء الذي كان تعداده قرابة خمسين ألفا ، لمدة بلغت عاما كاملا تقريبا .

إلا أن الأمور تعقّدت إلى درجة كبيرة بالنسبة إلى أهل بغداد بسبب الضائقة الغذائية الخانقة نتيجة للحصار الطويل الذي ضرب حول المدينة. فلم يلبث أن انحلّ نتيجة لذلك أمر المستعين فسعى القادة العسكريون في الصلح بين الجانبين، وتم الاتفاق على انسحاب جيش سامراء إلى ثكناته على أن يتنازل المستعين عن الخلافة. وهكذا قضي الأمر، فبعد أن خلع المستعين نفسه انحدر إلى واسط فأقام بها تسعة أشهر موكلا به، ثم ردّ إلى سامراء حيث قتل

هناك بأمر من القادة الاتراك وله من العمر إحدى وثلاثون سنة.

لقد تولى الخلافة في سامراء المعتز بالله (252-255هـ/867-869م) رسميا بعد تنازل المستعين وله من العمر تسع عشرة سنة. وكان المعتز مستضعفا من الأتراك حيث كانوا يلحون عليه على الدوام في طلب الأموال والهبات. وعندما لم يبق شيء في بيت المال أرغموه بسنة 255 هجرية على خلع نفسه لمصلحة محمد بن الواثق الذي لقّب بالمهتدي بالله (255-256هـ/869-870م) .

لقد عرف عن المهتدي أنه كان متعبدا وعادلا وقويا في أمر الله، فأغلق الملاهي وحرم الغناء وأمر بإخراج القيان والمغنين والمغنيات من سامراء ونفيهم إلى بغداد، وأمر أيضا بقتل السباع التي في دار السلطان وطرد الكلاب وإبطال الملاهي، لقد كان المهتدي شجاعا إلا أنه لم يجد ناصرا ولا معينا. ومن أهم الأحداث التي وقعت في أيامه بداية ظهور حركة الزنج في أقصى جنوب العراق. كان ذلك في شوال من سنة 255 هجرية (868م) قادها رجل يدعى علي بن محمد ، زعم أن نسبه يرجع إلى الحسين بن علي بن أبي طالب. لقد عرف هذا الرجل في المصادر التاريخية الإسلامية بـــ (صاحب الزنج) ثم بـــ (الخبيث). لقد عاث الزنج فسادا واحتلوا (الابلة) وأحرقوها ثم دخلوا (عبادان) وهزموا جيوش الخلافة التي أرسلت لمحاربتهم .

لم تدم أيام المهتدي طويلا، لقد قتله الأتراك بعد أن أمضى في الخلافة أقل من سنة واحدة . ولا نريد أن ندخل هنا في تفاصيل الأحداث التي صاحبت أو أدت إلى تلك النهاية المأساوية لذلك الرجل الصالح .

أما الإنجازات المعمارية التي ترتقي إلى تلك الحقب القصيرة المتعاقبة فلم ترد إشارات إلى عمارات أو مشاريع مهمة أخرى اللهم إلا عمارة واحدة تقع على ربوة عالية قريبا من الضفة الغربية لنهر دجلة قبالة قصر الجوسق تقريبا عرفت في المصادر الحديثة بـــ (قبة الصليبية). يرى غالبية المعنيين بالآثار الإسلامية أن البناء شيّد ليكون ضريحا أو مشهدا للخليفة المنتصر بالله الذي كان قد توفي سنة 248هـ (862م) تلبية لرغبة أم الخليفة المنتصر السيدة (حبشية). ويذكر أيضا أن الخليفتين المعتز والمهتدي ربما كانا قد دفنا في هذا المشهد أيضا. فقد ذكر الطبري أن المعتز والمهتدي قد دفنا في مقبرة المنتصر نفسها التي عرفت آنذاك باسم (قصر الصوامع). وهذا ما رجحه أيضا المنقب الألماني هرتسفيلد الذي قام ببعض التنقيبات في هذا الموقع ووجد هياكل عظمية لثلاثة أشخاص مدفونين فيه.

يتألف البناء من حجرة كبيرة مربعة من الداخل (30.6 × 30.6م) ومثمنة من الخارج، في منتصف كل من جدرانه الأربعة مدخل يفضي إلى رواق مبلّط بالآجر يحيط بحجرة الدفن من جميع جوانبها ، وهو مسوّر من الخارج بجدار مثمّن. ومن المؤكد أن قبة عالية كانت تعلو الحجرة الداخلية التي كان يزيد ارتفاعها دون القبة عن خمسة أمتار.

ومع بساطة تخطيط البناء فإننا نقف أمام تخطيط يعد ابتكارا رائعا يضاف إلى مجمل الابتكارات التي قدمها العرب المسلمون في مجال العمارة، وأمام أقدم المشاهد المستقلة في العمارة العربية والإسلامية قاطبة .

سامراء في دورها الأخير:

بعد مقتل المهتدي استقر رأى القادة العسكريين على مبايعة أبي العباس أحمد بن المتوكل بالخلافة ولقّب بالمعتمد على الله (256-279هـ/870-892م) والذي يعد عهده أطول العهود في سامراء حيث دامت خلافته ثلاثة وعشرين عاما تقريبا. وفي عهده تفاقمت حركة الزنج في جنوب العراق واجتاحوا ثغر العراق البصـــرة سنـــة (257هــ-870م) ، حيث خربوا معظم أحيائها وقتلوا غالبية سكانها الذي يقدّر بنحو ثلثمائة ألف نفس . فعظم الأمر على الخليفة وعلى أولي الأمر في سامراء فتّم تجهيز جيش لجب كان على رأسه أبي أحمد طلحة بن المتوكل أخي الخليفة المعتمد الملقب بالموفق وقد انضم إليه فيما بعد ابنه أبو العباس أحمد، كان ذلك في سنة 258هـــ (871م) .

وظلت المعارك دائرة بين الجيوش العباسية والزنج حتى سنة 270 هجرية (883م) حيث تم دحرهم بشكل نهائي وقتل (الخبيث) وأسر بقية رؤسائهم ومن ثم القضاء كليا على تلك الحركة التي استمرت لمدة تزيد على (14) عاما راح ضحيتها أكثر من مليون ونصف مليون نفس فضلا عن تخريب عدد كبير من المدن وقتل وتشريد معظم سكانها بما فيها البصرة والأهواز والابلة ورام هرمز وواسط.

وشيّد المعتمد في عهده قصرا منيفا عرف بـــ (المعشوق) في حوالي سنة 274 هجرية (887م) أقيم قريبا من ضفة نهر دجلة قبالة دار الخلافة من الجهة الغربية. يقول اليعقوبي إن المعتمد بالله أقام "... بالجوسق وقصور الخلافة ثم انتقل إلى الجانب الغربي بسر من رأى فبنى قصرا موصوفا بالحسن سمّاه المعشوق ، فنزله فأقام به". وقد أشاد البحتري بالمعشوق في واحدة من قصائده التي مدح بها المعتمد.

لقد شاهد بقايا هذا القصر الرحالة المغربي (ابن جبير) الذي كان قد اجتاز به سنة 580 هجرية (1184م) وهو في طريقه إلى الموصل.

كما أشار إليه (ابن بطوطة) الذي زار العراق سنة 727 هجرية (1326م) . والواقع أن آثاره الباقية اليوم تدل على صدق ما كتب عنه المؤرخون والبلدانيون فهي تشهد على عظمته وجماله وفخامة بنائه.

تقع خرائب قصر (المعشوق) الذي يعرف بين الناس في الوقت الحاضر بـــ (العاشق)، على بعد (125) كيلومترا إلى الشمال من بغداد قريبا من الضفة الغربية لنهر دجلة إلى الجنوب قليلا من قصر المعتصم (قصرالجص). لقد شيّد هذا القصر على مصطبة بنائية عالية أقيمت فوق مجموعة من الروابي الطبيعية يكتنفه سور مدعوم بعدد كبير من الابراج فضلا عن خندق عميق يحيط به من جميع جوانبه. وليس في ذلك أدنى غرابة فلابد من إضفاء الحماية الكافية لهذا القصر لبعده عن العمران .

لقد قامت البعثة الألمانية للتنقيب قبل الحرب العالمية الأولى بإجراء حفائر بسيطة في بقايا هذا القصر الذي ما يزال –حتى يومنا هذا– أجزاء كبيرة منه شاخصة وبخاصة أقسامه الخارجية. وفي السبعينات من القرن العشرين واصلت الهيئة العراقية العامة للآثار تلك الحفائر فكشفت عن جميع جوانبه بما في ذلك مخططه الكامل. وقد تبين أن البناء مستطيل الشكل طوله من الشمال إلى الجنوب (131) مترا ومن الشرق إلى الغرب (96) مترا تتوسطه قاعة واسعة مربعة الشكل (5.10×5.10م) كانت تعلوها قبة مرتفعة. ولوحظ أن كل جدار من جدرانها الأربعة كان يتوسطها مدخل يفضي إلى قاعة مستطيلة كبيرة تكتنفها من جوانبها الأربعة قاعات واسعة مستطيلة الشكل. وهناك مشتملات بنائية كثيرة أخرى و أفنية مكشوفة وسراديب لا يتسع المجال هنا للدخول في تفاصيلها.

ولوحظ أيضا أن القاعات الرئيسة في القصر وكذلك الكثير من الحجرات الأخرى كانت مزينة بالزخارف الجصية الكثيرة الشيوع في قصور سامراء ودورها السكنية عموما. أما عن الطريقة التي اتبعت في الزخرفة فكانت بعامة توزير الأجزاء السفلى من الجدران الداخلية للقاعات والحجرات المهمة لارتفاع يتراوح بين (110-120) سنتيمترا بدءا من مستوى التبليط تقريبا. ولوحظ أيضا أن هناك أفاريز بعرض (30) سنتيمترا تقريبا من الزخارف الجصية رتّبت بشكل يكتنف المداخل والنوافذ في جميع القاعات والحجرات من التي شملتها الزخرفة تقريبا. وقد قامت الهيئة العامة للآثار العراقية بدءا بسنة 1963 بترميم وصيانة هذا القصر، وظلت أعمال الصيانة جارية فيه لغاية أواسط التسعينات من القرن العشرين.

لقد أقبل الناس في سامراء إقبالا منقطع النظير على الزخرفة بالجص، ربما مردّ ذلك كان الرفاه الاقتصادي والميل نحو الترف ، حتى باتت تلك الزخارف خاصة من خواص هذه المدينة ، ومن ثمّ صارت لها أهمية كبيرة في تاريخ الفنون العربية الإسلامية. ويحتفظ المتحف العراقي ومتحف برلين في الوقت الحاضر بكميات كبيرة جدا من المسطحات الجصية المزخرفة التي استخرجت من سامراء. وما تزال مئات الأمتار المربعة منها شاخصة على الجدران في أماكنها الأصلية في العمارات التي تمّ الكشف عنها في أثناء التنقيبات التي نفّذتها الهيئة العامة للآثار العراقية في السنوات الأخيرة فقامت بعد ذلك بصيانتها وحمايتها.

إن من الملاحظات الأولية عن هذه الزخارف أنها تعتمد جميعا وبشكل أساس على العناصر النباتية والهندسية، فقد لوحظ أنها غفل تماما من الرسوم الآدمية أو رسوم الحيوانات وكذلك غفل من النقوش الكتابية إلا فيما ندر.

لقد قسّم المختصون زخارف سامراء الجصية على ثلاثة طرز رئيسة. أقدمها الطراز الأول الذي هو أقرب الطرز الثلاثة إلى زخارف العصر الأموي. الأساس في هذا الطراز تفريعات شجيرات العنب بما في ذلك الأغصان والأوراق والعناقيد والحوالق. وعلى الرغم من أن التفريعات عادة حلزونية أو انفعوانية إلا أنها قد رتّبت بعامة بشكل شبه هندسي يغلب عليه الجمود حيث يلاحظ أن أوراق العنب، وهي في معظمها خماسية الفصوص، تتجهه دوما برؤوسها إلى الأعلى في حين أن العناقيد تتدلى دائما إلى الأسفل.

أما الطراز الثاني فما هو إلا مرحلة أخيرة أو متقدمة من مراحل تطوّر الطراز الأول نحو التبسيط حيث فقدت الأوراق والعناقيد الكثير من خصائصها الأساسية فباتت أقرب إلى الزخرفة التجريدية الحديثة. ويمكن للمتخصص أن يتتبع بسهولة هذا التطوّر خطوة بعد أخرى. وغني عن البيان أن السبب في تبسيط الزخرفة هنا يرجع إلى الرغبة في تسريع العمل بسبب الإقبال الشديد لأصحاب الدور والقصور على الزخرفة بالجص حتى نهاية عصر المتوكل على الأقل.

وبالنسبة للطراز الثالث في زخارف سامراء الجصية الذي ظهر في منتصف عصر سامراء تقريبا أنه يختلف بشكل أساس عن زخارف الطرازين : الأول والثاني. لقد تميز الطراز الجديد بصفات رئيسة ظاهرة ربما أهمها اعتماد أسلوب القطع المائل في الزخرفة **slant-cut** وثم تكرار الوحدات الزخرفية بشكل لا نهائي يجعلها أقرب إلى زخرفة المنسوجات. ومن

جوانب الاختلاف الأخرى أيضا الاعتماد على المراوح النخيلية الكاملة أو على نصف المروحة فضلا عن المفلوقة والمركبة سواء كانت بشكلها المفصص أو الغفل من الفصوص. ولا بد من التوضيح هنا بأن ظهور الطراز الثالث في الزخرفة لا يعني انتهاء العمل بالطرازين : الأول والثاني، والواقع أنهما ظلا قيد الاستعمال طيلة عصر سامراء وبخاصة الطراز الثاني غير أن استخدامهما بات على نطاق ضيق جدا .

نهاية المطاف :

لقد توفي الأمير طلحة أبو أحمد الموفق في مدينة السلام في شهر صفر من سنة 278 هجرية (891م) ، وبوفاته تعقّدت الأمور إلى درجة كبيرة بالنسبة للمعتمد ، ويبدو أن تخوّفه من القادة الترك وما يحوكون من دسائس ضدّه بات كبيرا فصار يخشى أن يلاقي المصير نفسه الذي لاقاه الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه. وباعتقادي أن هذا الخوف، ولنقل الريبة منهم كانت العامل الرئيس في القرار غير المعلن الذي اتخذه بترك مدينة سامراء والعودة بكرسي الخلافة إلى مدينة السلام ، ولو بصورة مؤقتة.

وسواء كان قرار المعتمد دائميا أو مؤقتا فإن المنية قد عاجلته ببغداد في شهر رجب من سنة 279 هجرية (892م) ليخلفه في الخلافة ابن أخيه أبو العباس أحمد بن الموفق الذي لقّب بالمعتضد بالله (279-289هـ/892-902م).

لقد كان المعتضد – على ما يبدو – هو صاحب القرارالنهائي في ترك سامراء والعودة بكرسي الخلافة إلى بغداد لتتخذ للمرة الثانية مقرا للخلافة العباسية والتي استمرت كذلك حتى احتلالها بيد الغزاة المغول سنة 656 هجرية (1258م). ويذكر أيضا أن المعتضد هو الذي أمر بنقل دواوين الدولة مجددا من سامراء إلى بغداد .

وإذا نظرنا في الجوانب الأخرى التي ساعدت المعتضد بالله على اتخاذ هذا القرار الخطير فلا يمكن أن نستبعد منها العامل الاقتصادي. فإن سامراء التي باتت في القرن الثالث الهجري أكبر المدن امتدادا في العالم وواحدة من أكثرها كثافة من حيث السكان نجد أن الأراضي الصالحة للزراعة فيها كانت محدودة جدا. ولذلك نلاحظ أن بعض الخلفاء ينفذون مشاريع إروائية للمساعدة على النهوض بالزراعة فيها وفيما حولها ، وبخاصة المتوكل على الله الذي تبنى مشروعا إروائيا كبيرا عندما أمر بحفر نهر كبير أو إعادة حفر نهر قديم مندرس يسبق الإسلام سمي في عهده بـــ (النهر الجعفري) طوله حوالي (63) كيلومترا يتفرع من ضفة نهر دجلة الشرقية شمال مدينة المتوكلية بحوالي (60) كيلومترا لسقي الأراضي الصالحة للزراعة الواقعة

بين تكريت وسامراء من الجهة الشرقية، إلا أن هذا المشروع فشل فشلا ذريعا فلم يَجْرِ فيه الماء إلا جريا ضعيفا رغم المبالغ الكبيرة التي أنفقت عليه .

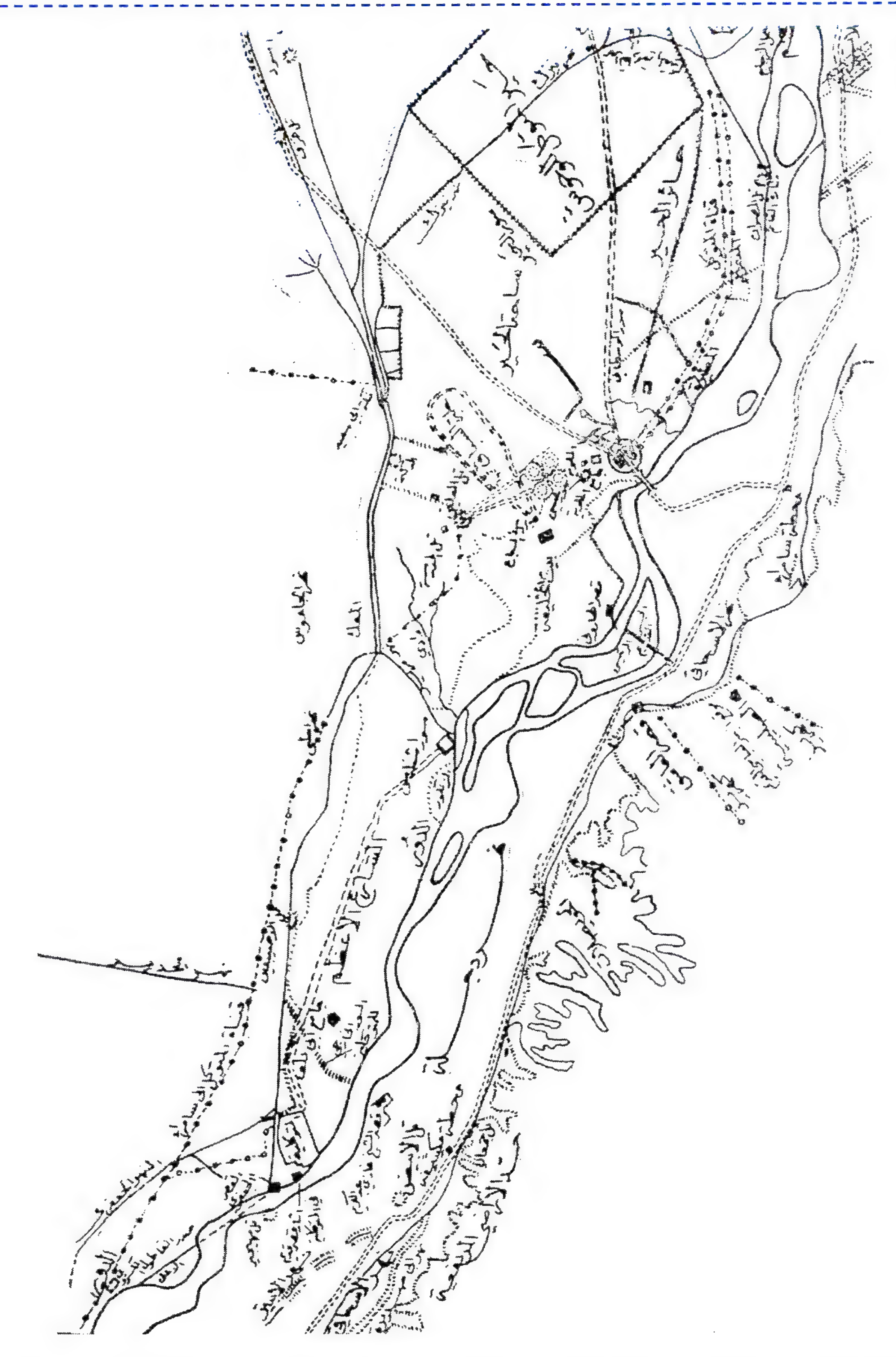
وربما من جملة الأسباب التي ساعدت أيضا في اتخاذ القرار على ترك مدينة سامراء أنها كانت غفل تماما من الأسوار الدفاعية التي لو وجدت لأضفت الحماية الكاملة على سكانها ، ليس فقط حمايتها من قبل الجيوش الغازية ، بل أيضا من هجمات أو غزوات الأعراب أو عصابات اللصوص التي كانت تتخذ من المناطق المتاخمة أو القريبة منها مأوى لها . يذكر الطبري على سبيل المثال أن سامراء قد تعرضت مرتين على الأقل لغزوات الأعراب وقطّاع الطرق .

ولذلك فإن الناس رويدا رويدا هجروا سامراء وبدءوا بالانتقال إلى مدينة بغداد. فلم يمض نصف قرن على ذلك حتى تحولت تلك المدينة العظيمة إلى خراب يستخرج منها الناس الآجر وغيره من مواد البناء لينقلوه إلى بغداد والمدن المجاورة للاستفادة منه في بناء مشتملاتهم العمارية. لقد قال في ذلك ابن المعتز الذي ولد وترعرع في سامراء:

قد أقفرت سر من را
وما لشيء دوام
فالنقض يحمل منها
كأنها آجـــــام
ماتت كما مات فيل
تسلّ منه العظام

يقول ياقوت الحموي بهذا الشأن: "... خربت حتى لم يبق منها إلا موضع المشهد الذي تزعم الشيعة أن به سرداب القائم المهدي ، ومحلة أخرى بعيدة عنها يقال لها : كرخ سامراء، وسائر ذلك خراب يباب يستوحش الناظر إليها بعد أن لم يكن في الأرض كلها أحسن منها ولا أعظم ولا آنس ولا أوسع ملكا منها، فسبحان من لا يزول ولا يحول". وبمرور الزمن تحولت سامراء إلى كثبان رمل وتراب تحتل رقعة واسعة جدا من الأرض ليس فيها من الآثار الشاخصة إلا القليل. أهمها بقايا جامع المتوكل ومئذنته الحلزونية الشكل، وكذلك المدخل الرئيس لقصر الخلافة وبقايا جامع أبي دلف في المتوكلية وما ظل شاخصا من قصر المعشوق على الضفة الغربية لنهر دجلة وغيرها من الآثار العمارية القليلة التي تطرقنا إلى أكثرها وأهملنا القليل منها للاختصار.

أ.د. عبد العزيز حميد صالح
جامعة بغداد



خارطة تمثل القسمين الشمالى والأوسط من مدينة سامراء الاثرية كما وضعها الدكتور أحمد سوسة
(عن : أحمد سوسة)

المدخل الرئيس لقصر الجوسق المعروف بباب العامه



مئذنة جامع أبي دلف في المتوكلية



جانب من القسم الشمالي لقصر المعشوق الذي شيّده المعتمد على الله في حدود سنة ٢٧٦ هجرية



زخارف جصية من طراز سامراء الثاني وجدت تزين جدران قاعة في دار كبيرة
كشفت عنها حفائر عراقية قرب جامع الملوية في سامراء

المصادر والمراجع

1) المصادر:

- **ابن الأثير**، علي بن محمد الشيباني الجزري، (ت 630هـ/ 1233م)، الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، بيروت – لبنان، 1967.

- **ابن بطوطة** ، محمد بن عبد الله اللواتي، (ت 779هـ/ 1377م)، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، تحقيق علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة، بيروت، 1985 .

- **ابن جبير**، محمد بن أحمد، (614هـ/1217م)، رحلة ابن جبير، دار ومكتبة الهلال، الطبعة الثانية، بيروت ، 1986.

- **ابن خلكان**، أحمد بن محمد بن أبي بكر، (ت 681هـ/1282م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى، القاهرة، 1948.

- **الأندلسي**، عبد الله بن عبد العزيز البكري، (ت 487هـ/ 1094م)، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، منشورات عالم الكتب بيروت، بالافسيت عن طبعة القاهرة، 1945.

- **الحموي**، أبو بكر بن علي، (ت 837هـ/1433م)، ثمرات الأوراق، القاهرة 1971

- **الحموي**، ياقوت بن عبد الله الرومي، (ت 626هـ/1228م)، معجم البلدان، دار بيروت للطباعة والنشر ودار صادر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى. بيروت، 1957.

- **السيوطي**، جلال الدين عبد الرحمن، (ت 911هـ/1505م)، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، 1975.

- **الطبري**، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، (ت 310هـ/922م) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، الطبعة الرابعة، القاهرة 1979

- **المستوفى**، حمد الله، نزهة القلوب، الجمعية الملكية الآسيوية، لندن، 1928.

- **المسعودي** ، علي بن الحسين، (ت 346 هـ/957م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، في أربعة أجزاء، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1964.

- **المقدسي**، محمد بن احمد (ت 380هـ/990 م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبعة بريل، ليدن، 1877.

- **اليعقوبي** ، أحمد بن واضح، كتاب البلدان، (ت 292هـ/904م)، طبعة بريل، ليدن، 1892.

2) المراجع:

- **الأنصاري**، عبد الرحمن الطيّب، قرية الفاو، صورة للحضارة العربية قبل الإسلام في المملكة العربية السعودية، جامعة الرياض، الرياض 1377-1402هـ.

- **باقر، طه، وسفر**، فؤاد، المرشد إلى مواطن الآثار والحضارة، الرحلة الأولى (من ست رحلات)، سلسلة الثقافة الشعبية (45)، مديرية الفنون والثقافة الشعبية بوزارة الإرشاد، بغداد، 1962.

- **السامرائي**، يونس الشيخ إبراهيم، تاريخ مدينة سامراء، ساعد المجمع العلمي العراقي على طبعه، الطبعة الأولى ، بغداد، 1968 .

- **سلمان**، عيسى والعزي، نجلة وعبد الخالق، هناء ويونس، نجاة: العمارات العربية الإسلامية في العراق، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، في جزئين ، بغداد، 1982.

- **سهراب**، عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية المعمورة، (عاش في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي), تحقيق هانس فون بريك، فينا، 1929.

- **سوسة**، أحمد، ري سامراء، مطبعة المعارف، في جزئين، بغداد 1948-1949

- **شافعي**، فريد محمود، العمارة العربية الإسلامية، ماضيها وحاضرها ومستقبلها، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض، 1982.

- **صالح**، عبد العزيز حميد، تحصينات بغداد الدفاعية، موسوعة الجيش والسلاح، في خمسة أجزاء، وزارة الثقافة والإعلام بغداد، 1988.

- الزخرفة في الجص، موسوعة حضارة العراق، في ثلاثة عشر جزءا ، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد، 1985.

- **علي، عبد الرحمن**، بركة ثانية بدار الخلافة في سامراء، سومر، المجلد 50، الهيئة العامة للآثار والتراث، بغداد، 2002، (تحت الطبع)

- **العميد ، طاهر مظفر**، العمارة العباسية في عهدي المعتصم والمتوكل ، وزارة الإعلام ، بغداد 1976

- تخطيط المدن الإسلامية، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد 1985

- **لين بول، ستانلي**، طبقات سلاطين الإسلام، ترجمه عن الفارسية مكي طاهر الكعبي، بغداد 1957

- **مديرية** الآثار القديمة، حفريات سامراء 1936 - 1939، في جزءين ، مطبعة الحكومة ، بغداد 1940

- **متز، آدم**، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، في جزءين، مكتبة الخانجي، القاهرة، دار الكتاب العربي، بيروت، 1967.

3) المراجع الاجنبية :

- **well**، K.A.C. A short account of Early Muslim Architecture, Lebanon, 1968
- **Herzfeld**, E., Erster forleufiger Berischt uber die Ausgrabungen von Samarra, Berlin, 1912
- Der Wandschmuck der Bauten von Samarra und seine Ornamentik, Die Ausgrabungen von Samarra, Erster Band, Verlag Dietrich Reimer Ernst Vohlin, Berlin, 1923
- Metteilung uber die Arbeiten der Zweiten Kampagne von Samarra, der Islam, V, 1914
- **Ross**, J., Notes on two Journeys from Baghdad to the ruins of Hadhr In Mesopotamia in 1836 and 1837، J. R. G. S., IX, pp. 446-447، London 1839
- **Viollet**, H., Description du Palais de al-Moutasim, Fils d`Haroun al-Raschid a Samarra, Paris, 1908.

رابعاً: القاهرة

استطاع جوهر الصقلي قائد جيوش الخليفة المعز لدين الله الفاطمي (341-365هـ) أن يفتح مصر يوم 18 شعبان سنة 358 هـ ويؤسس مدينة القاهرة التي أحاطها بسور من اللبن على هيئة مربع، طول ضلعه 1200 مترا، وتواجه أضلاعه الجهات الأصلية، وكان سمكه يزيد على المترين، وفتح في كل ضلع بابين، وفي سنة (480 هـ/1087م)، قام بدر الجمالي وزير الخليفة المستنصر بالله ببناء سور ثلان خارج سور جوهر، وشيد بدر الجمالي سوره أيضاً باللبن أما الأبواب فكانت من الحجارة. وفي سنة (569هـ/1173 م)، شيد السلطان صلاح الدين الأيوبي سورا ثالثا بالحجارة أحاط به القاهرة ومصر وقلعة الجبل، ولا يزال بعض بوابات بدر الجمالي موجودة حتى يومنا هذا ، وهي باب النصر وباب الفتوح في الشمال، وباب زويلة في الجنوب وازدهرت في مدينة القاهرة الفنون والعمارة في العصر الفاطمي.

أولا : الفنون :

تطورت الفنون التشكيلية كالخط والتصوير والنحت على الحجر الجص، والفنون التطبيقية كالخزف والفخار، والزجاج والبلور الصغرى، والخشب والعاج، والنسيج، والمعادن بمدينة القاهرة في العصر الفاطمي تطورا واضحا كما يلي :

أ- الفنون التشكيلية :

1- الخط:

أدي الخط العربي في حياة القاهرة وحضارتها دورا فنيا لا يقل أهمية وفاعلية عن دوره كوسيلة للكتابة والتفأهم، ولم تبخل عليه القاهرة برعايتها فأعطته من مظاهر العناية والتقدير ومن دفعات التجويد والتطوير ما وصل به إلي المكانة الممتازة الجديدة بها، حتى أن الخط العربي أصبح في بعض المراحل التاريخية علامة القاهرة المميزة لعمائرها ومنتجاتها الصناعية والفنية المختلفة التي تزدان به، ولقد تميز الخط العربي بعدة خصائص فنية لم تتوفر لغيره من الفنون العربية الإسلامية ذلك أن مرونة حروفه وسهولة حركته وقابليته للتشكيل والزخرفة أدت كلها إلي إطلاق العنان أما م الخطاط القاهرة الذي اخذ يشكل حروفه علي حسب المساحات المخصصة لكتابة كتاباته وزخرفتها بشتى الأساليب الزخرفية المتنوعة التي كانت تعبر عن ذوقه السليم وإدراكه التام لأصول فن الخط العربي وفهمه لأسرار حروفه وأشكالها .

وترجع أسباب عناية المسلمين بالخط العربي إلي انه كان الوسيلة الأساسية التي كتب بها القران الكريم، كما انه كان الوسيلة الأساسية أيضاً للعلم والتعليم عند المسلمين، كذلك ما شاع عند المسلمين في العصور الوسطى من تحريم الإسلامي لتصوير الكائنات الحية ، ومن ثم وجد المسلمون

في الخط متنفسا لمواهبهم الفنية يعوضهم عن التصوير ويغنيهم عن التعرض للسخط .

وقد عرفت القاهرة الخط العربي بنوعيه ؛ الكوفي المبسوط والنسخ المقور، وظهرت ملامح كل منهما وشاع في القاهرة شأنها في ذلك شان البلدان العربية الإسلامية الآخري استعمال الخط الكوفي في الكتابات التسجيلية التاريخية، وفي تدوين المصاحف، وعلى شواهد القبور والكتابة به على العمائر الدينية والمدنية والمدنية والعسكرية الفاطمية وعلى النقود الذهبية والفضية والنحاسية والبرونزية، أما الخط النسخ فقد استعملته القاهرة في نفس الوقت على البردي والورق ونسخ الكتب والوثائق لسهولته وسرعة الكتابة به في المراسلات العادية والمعاملات اليومية.

ومن أهم أنواع الخط الكوفي: الكوفي البسيط ويمتاز بأنه لا توريق فيه ولا تعقيد ولا ترابط بين الحروف ، ومع ذلك كله فان المتقن من هذا النوع البسيط لا يخلو من طابع زخرفي رصين وهادئ ، وقد ظهر هذا في النقود التي ضربها الخليفة المعز لدين الله الفاطمي، والكوفي المورق الذي يتميز بأنه يخرج من أطراف حروفه سيقان نباتية دقيقة محملة بالوريقات المختلفة الأشكال وزخرفت نهايات حروفه بما يشبه الفروع عندما تخرج من السيقان وظهر هذا النوع من الخط على النقود الفاطمية المضروبة بدارسك القاهرة، وفي الكتابات بالجامع الأزهر، وجامع الحاكم بأمر الله، والكوفي المزهر يمتاز بأن الحروف تزينها زخارف نباتية كالمراوح النخيلية أو الأوراق النباتية التي تتصل بالحروف عن طريق أفرع نباتية تخرج من نهايات الحروف أو الحروف الوسطى، وتكثر الزخرفة النباتية بحيث تملأ جميع الفراغات الموجودة بين الحروف. وهذا النوع من الخط يمثل مرحلة متقدمة من مراحل تطور الخط الكوفي ؛ لما يمتاز به من جمال وزخرفة ، وقد نشأت بعض أنواع الخط الكوفي وتطورت في القاهرة ثم انتقلت منها إلي غيرها من البلدان الإسلامية المجاورة لها، ذلك أن الخط الكوفي المورق تطور في القاهرة إلي صورة الكوفي المزهر الذي بلغ درجة كبيرة من النضج والتطور في القاهرة الفاطمية، كما يتضح في الكتابات الكوفية بالجامع الأزهر. وجامع الحاكم بأمر الله بالقاهرة ، كما يتضح أيضاً في الدنانير الفاطمية، منها دينار ضرب القاهرة سنة **518**هـ، وكذلك الكتابة الموجودة في بعض الألواح الخشبية الفاطمية التي عثر عليها في بيمارستان قلاوون، كما ظهر أيضاً على بعض أطباق الخزف ذي البريق المعدني الفاطمي. ومن أنواع الخط الكوفي: الكوفي المضفور أو المجدول الذي تتداخل بعض حروفه مع بعضها الآخر أو تضاف إليه عناصر زخرفية مجدولة تضفى عليه مظهر الضفر والتداخل وظهر على بعض المنتجات الفنية الفاطمية بمدينة القاهرة.

ومنذ القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي بدا الخط النسخ ينافس الخط الكوفي

وينتزع منه مكان الصدارة كخط تسجيلي رسمي، وبلغ من تطور الخط النسخ اشتقاق عدة خطوط منه ذات صفات متميزة مثل خط الثلث. وعاشت القاهرة وتابعت منذ أواخر العصر الفاطمي حركة تطوير الخط النسخ، واستعمل هذا الخط لأول مرة على المنسوجات الفاطمية في عهد الخليفة المستعلى بالله (487-495 هـ) إذ رسم النساج البسملة على قطعة من النسيج تحمل اسم الخليفة ووزيره الأفضل بن بدر الجمالي بالخط النسخ، ثم أكمل النص الكتابي عليها بالخط الكوفي الذي اعتاده من قبل، غير أن هذا التردد في استعمال الخط النسخ لم يستمر طويلا؛ إذ لا وصلتنا بعض قطاع المنسوجات من عصر هذا الخليفة أيضاً ، عليها الكتابة بالخط النسخ وحده.

وفي ضوء ما سبق يتضح لنا أن فنون وعمارة القاهرة في العصر الفاطمي قد ظهر عليها العديد من أنواع الخط العربي بشقيه الكوفي البسيط، والمورق، والمزهر، والمضفر، وكذلك الخط النسخ.

2-التصوير :

أدت القاهرة دورا أساسيا في رقى الحضارة والثقافة في العصر الفاطمي، وكان من مظاهر ذلك ازدهار فن التصوير، وابتكار أساليب جديدة في مجاله، وكثرة الرسامين ورعايتهم .

وقد دخلت القاهرة في العصر الفاطمي على التصوير الإسلامي أسلوب استغلال الألوان في خداع النظر، وفي التعبير عن العمق والبروز، أو ما يسمى في المصطلح الفني بالبعد الثالث، ويتضح ذلك مما حدث في أحد مجالس الوزير الفاطمي أبي الحسن البازوري (442-450هـ/1050-1058م)بالقاهرة حيث تطور النقاش بين الرسامين الشهيرين ابن عزيز والقصير إلي تنافس: فتحدى ابن عزيز زميله أنه في استطاعته أن يرسم راقصة على سطح جدار بحيث تبدو لمن ينظر إليها كأنها خارجة منه، ورد القصير على تحدي زميله بأنه يستطيع أن يرسم الراقصة كأنها دالة في الجدار. وطلب الوزير من الرسامين المتنافسين أن ينفذ كل منهما تحديه، وفعلا أتما كلاهما العمل وكشفا عن صورهما، وكم كانت دهشة المشاهدين حينما وجدوا أن كلا منهما قد نفذ وعده بكل دقة : فرسم أحدهما صورة الراقصة بثياب بيضاء على أرضية سوداء بدت كأنها خارجة من الحائط، ورسم الآخر الراقصة بثياب حمراء على أرضية صفراء، فبدت كأنها داخلة في الحائط: أي أن الرسامين استغلا تأثير الألوان في خداع النظر. ويتضح من هذه القصة التي رواها المقريزي في خططه مدى الاحتفاء بفن التصوير في القاهرة في العصر الفاطمي.

كذلك استخدم المنظور في بداية العصر الفاطمي على يد أسرة من الرسامين كان يطلق عليها اسم "بني المعلم". وقد ازدهر التصوير في القاهرة الفاطمية واتخذ في تزويق منتجات الفنون

التطبيقية المختلفة من خزف ونسيج وأخشاب وغيرها، كما ابتكر الرسامون أساليب جديدة للتعبير.

وقد وصلنا بعض نماذج الصور المرسومة بالألوان المائية على الجص تزخرف جدران مبنى ، ترجع إلي العصر الفاطمي، وقد عثر على هذه الصور سنة 1934م في أثناء حفائر أثرية أُجريت بجوار أبي السعود في جنوب القاهرة، وتم نقلها إلي متحف الفن الإسلامي بالقاهرة ويبلغ عدد هذه الصور أربع صور، الأولى تمثل رجلاً جالس وحول رأسه هالة وفي يده اليمنى كأس وينظر للأمام وعلى رأسه عمامة يظهر من جانبيها خصلتان من الشعر، والصورة الثانية رسم طائرين متقابلين، تعلوهما فروع نباتية حمراء ، والصورة الثالثة رأس شاب يلتفت إلي اليسار، والصورة الرابعة رسم سيدة تتدلى عصابة من رأسها للجهة اليمنى.

وبالإضافة إلي الابتكارات التي شهدها فن التصوير في القاهرة الفاطمية من حيث الأسلوب بتميز التصوير بابتكارات في الموضوع خاصة في الفنون التطبيقية ، ولاسيما الخزف ذو البريق المعدني الذي بلغ في القاهرة الفاطمية مستوى عاليا في جودة الصناعة والأسلوب الفني.

وتنقسم موضوعات الرسوم على الخزف الفاطمي إلي نوعين كل منهما صدى لطبقة من طبقات أهل القاهرة. وأحد هذين النوعين هو النوع التقليدي الذي عرف في العراق وإيران وغيرهما من أقطار العالم الإسلامي، ويشتمل على رسوم ذات طابع أرستقراطي تمثل مناظر من حياة البلاط والحاشية المترفة والأثرياء ومسيراتهم ومتعهم من رقص وعزف وشرب وصيد. أما النوع الآخر فيشتمل على مناظر مستمدة من حياة العامة وما فيها من كدح ولهو ، فنجد مثلا مناظر الحمالين أو الشيالين، والمصارعة، والمبارزة بالعصي أو التحطيب، ومناقرة الديكة، وقد ظهر هذا النوع الشعبي من الموضوعات لأول مرة في القاهرة في عصر الفاطميين.

ومن الموضوعات التصويرية التي جاءت على الأخشاب المحفورة في القاهرة في العصر الفاطمي، وخصوصاً تلك التي حفرت في الألواح التي عثر عليها في بيمارستان السلطان المنصور قلاوون الذي أقيم على أنقاض القصر الغربي الفاطمي الذي شيده الخليفة العزيز وأتمه الخليفة المستنصر، ومنها رسوم مطربين ومطربات وعازفات على آلات موسيقية وراقصين وراقصات ورسم أمير جالس على أريكة في يده اليمنى كأس وفي اليسرى زهرة وعلى رأسه عمامة وإلي يساره الساقي يصب الخمر في كأس والي يمينه بائع يقدم إليه صينية ذات غطاء، رجال يسيرون منفردين أو بجانب إبل عليها هودج. أما رسوم الصيد فكثيرة وتشمل الصيد بالباز وصيد الأسد، ورسوم الطيور الجارحة ومعها فريستها كالغزال والبط، ورسوم الحيوانات والطيور المختلفة كالباز والتيس والطاووس والحيوانات الخرافية.

3-النحت على الحجر والجص :

ورثت القاهرة الفاطمية التقاليد الفنية للنحت وعمل التماثيل التي صنعت النهوض بهذا الفن. وقد وصلنا من القصور والعمائر الفاطمية بالقاهرة بعض ألواح الرخام بها رسوم كائنات حية منحوته نحتا بارزا، والبعض الآخر تحف مستقلة جميلة عبارة عن حمالات أزيار من الرخام تزخرفها تماثيل صغيرة ورسوم منحوتة آدمية وحيوانية غاية في الإتقان. وقد عثر على هذه الألواح الرخامية في بعض العمائر المملوكية مثل خانقاه بيبرس الجاشنكير بالجمالية، وخانقاه فرج بن برقوق بالعباسية وهي محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة. وزخرف هذا الألواح الرخامية رسوم حمامات متقابلة ورسوم أسماك أو رسم شجرة الحياة التي جاءت على شكل شجرة على جانبيها أسدان، وأحيانا أخري طاووسان، وأسلوب هذه الرسوم المنحوتة معروف في الطراز الفاطمي بمصر. ولا شك أن استخدام رخام القصور الفاطمية بالقاهرة في تشييد العمائر المملوكية يدل على أن هذا الرخام كان ذا قيمة كبيرة ؛ لجمال زخارفه .

ومن هذه الألواح الرخامية المحفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة لوح مزخرف بأسلوب النحت البارز عليه رسوم عبارة عن فرعين نباتيين يتقاطعان مشكل أربع جامعات أو مناطق لوزية بأحدها صورة حوتين يبتلعان شخصين كل منهما يمسك دورقا وكأسا، وفرقها شكل حيوان له جناح ورأس آدمي. وفي الطرفين طائرين متواجهين لكل منهما رأس آدمي، وتزخرف إطار اللوح صف من الأسماك المتتابعة . هذا بالإضافة إلي بعض الكلج الفاطمية ذات الزخار البارزة.

كذلك ازدهار فن النحت على الجص في القاهرة الفاطمية، منها مجموعة من المحاريب الجصية القاهرية من العصر الفاطمي ، بها زخارف منحوتة عليها عناصر نباتية وهندسية وكتابية ومن بينها المحراب الفاطمي الموجود بالجامع الطولوني الذي أقامه الوزير الأفضل بن بدر الجمالي باسم الخليفة المستنصر بالله ، وعلى هذا المحراب كتابة بالخط الكوفي المزهر .

وتعد جدران الجامع الأزهر وعقوده غنية بالزخارف النباتية والكتابية غاية في الدقة والإتقان وترجع إلي العصر الفاطمي، وكذلك الحال في محراب جامعة الجيوشي، ومحراب مشهد السيدة رقية اللذان يرجعان للعصر الفاطمي أيضاً.

ويتضح النحت على الحجر في العصر الفاطمي في الزخارف الهندسية بمدخل جامعة الحاكم ومئذنته، وبوابات القاهرة الحجرية وهي النصر والفتوح وزويلة، وكذلك زخارف واجهة الجامع الأقمر.

كما عرفت القاهرة الفاطمية صناعة التماثيل من الفخار والخزف التي عثر على العديد منها في حفائر الفسطاط وكانت تستخدم كلعب للأطفال وهي على شكل آدمي أو فرس، وبعضها على هيئة كباش أو أسود، أو قطة ترضع

صغارها ، كذلك صنعت تماثيل من الحلوى للأطفال. ومن التماثيل المعدنية العازفة الدف وهي جالسة متربعة وفي يدها الدف وعلى رأسها تاج بزخارف بارزة وتحلى رقبتها بعقد وفي يدها سواران. هذا بالإضافة إلي تماثيل سباع وغزلان وأرانب تنسب إلي العصر الفاطمي.

كما زودتنا المصادر التاريخية بمعلومات عن تماثيل كانت تنحت من الذهب والفضة والأخشاب الثمينة على أشكال آدمية وحيوانية وطيور وتقدم على صواني من الذهب في مجلس الخليفة الفاطمي أثناء الاحتفال بعيد وفاء النيل، وكانت هذه التماثيل توزع في الصواني مع صواني أخري للأطعمة من مائدة القصر على جميع الحاضرين للاحتفال عدا قاضي القضاة .

كما استخدم الفاطميون بالقاهرة الفسيفساء أو الرسم بواسطة لصق فصوص من الزجاج الملون على طبقة من الملاط أو المونة بعضها إلي جانب بعض بحيث تعبر عن صور الأشياء المطلوب رسمها، كما حدث في قصور بعض الخلفاء. وقد ازدهر فن التزويق بالفسيفساء في هذا العصر. واشتهر في مصر صناع فسيفساء كانوا يسهمون في صناعتها خارج مصر .

ب : الفنون التطبيقية :

1-الخزف والفخار

- الخزف :

الخزف ذو البريق المعدني :

باستيلاء الفاطميين على مصر سنة **358** هـ/**969** م ازدهرت صناعة الخزف والفخار ازدهارا كبيرا وساعد على ذلك الرخاء الاقتصادي الذي كانت تتمتع به الدولة الفاطمية. ويؤكد ذلك ما ذكره الرحالة الفارسي ناصر خسرو الذي زار مصر في عصر الخليفة المستنصر وعلى وجه التحديد بين عامي (**439-441**هـ/**1047-1049**م)،بأن سكان مصر يصنعون الفخار والخزف من كل نوع، وأن الخزف المصري كان رقيقا وشفافا، حتى لقد كان ميسورا أن ترى من باطن الإناء الخزفي اليد الموضوعة خلفه، وتصنع منه الأقداح والكؤوس والأطباق وتزين بألوان تشبه لون قماشا البقلمون وهي ألوان تختلف باختلاف أوضاع الآنية .

وقد ظهر الخزف ذو البريق المعدني في منتصف القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي في كل البلدان الإسلامية تقريبا، وهو ابتكار إسلامي خالص غير مسبوق، لم تعرفه الحضارات السابقة على الإسلام ولم يهتد إليه الصينيون مع تقدمهم الملحوظ في صناعة الخزف والبورسلين ويرجع السبب في ابتكاره إلي أن الإسلام حرم استعمال الأواني المصنوعة من الذهب والفضة لما بها من

ترف وبذخ فابتكر المسلمون هذا النوع من الخزف ليكون بديلا عن هذه الأواني.

ويشتمل هذا النوع من الخزف على رسوم آدمية وحيوانية وطيور وزخارف نباتية وهندسية وكتابية. ومن أهم الموضوعات التي جاءت عليه مناظر الرقص والموسيقى والشراب والصيد ومناظر من الحياة الاجتماعية اليومية مثل رسم الحمال وكلبه، ولعبى التحطيب (المبارزة بالعصى)، والمصارعة، ومهارشة الديكة، كذلك وردت الزخارف النباتية بكثرة على هذا النوع من الخزف ومن أهمها زخارف الأرابيسك. ومن الزخارف الكتابية بالخط الكوفي المورق أو المزهر بعض العبارات الدعائية والأقوال الطريفة مثل "نعمة شاملة وبركة كاملة وسعادة متواصلة"، "من خفى طرفه نم ظرفه"، "من حرم الوفا أمن الجفا"، وغيرها .

وقد زودنا الخزف ذو البريق المعدني بأسماء الصناع الذين حرصوا على تسجيل أسمائهم على منتجاتهم ومنهم مسلم بن الدهان، وعلي البيطار، ومترف أخو مسلم بن الدهان، وجعفر البصري، والطيب، وأحمد الصياد، والشريف أبو العشاق، وابن الساجي، وأبو الفرج، وإبراهيم الصمري وغيرهم. ومن الصعب تحديد الفترة الزمنية التي عاش فيها كل من هؤلاء لعدم ورود معلومات عنهم في المصادر التاريخية.

- الخزف ذو الزخارف المحزوزة أو المحفورة تحت الطلاء تقليدا للخزف الصيني:

حاول الصناع المصريون تقليد الخزف المصنوع في الشرق الأقصى والمنسوب إلي أسرة سونج Song الصينية، فأنتجوا هذا النوع من الخزف ذي الزخارف المحزوزة أو المحفورة تحت الطلاء الزجاجي الشفاف أو ذي اللون الواحد مثل الأخضر بدرجاته المختلفة والأزرق، والأصفر وغيرهم حيث كان الطلاء يتجمع في أجزاء الزخارف المحزوزة أو المحفورة فتبدو بلون داكن عن سائر التحفة ، وكان يزخرف هذا النوع من الخزف زخارف آدمية وحيوانية وطيور.

- الخزف المرسوم بالوان متعددة تحت الطلاء والمسمى بخزف الفيوم :

كان هذا النوع من الخزف يزخرف بأسلوب البطانات الملونة بالأبيض والأخضر والأزرق والأصفر أو ببعض هذه الألوان، وتزخرفه رسوم بسيطة تتكون من أشرطة هندسية بسيطة، ويشيع في زخارف هذا النوع من الخزف البقع المرشوشة أو المنثورة تغطي سطح الإناء إلي جانب الرسوم الحيوانية والنباتية، كما يزخرف بعض الأواني كتابة كوفية مورقة تتضمن عبارات دعائية مثل : "بركة كاملة"، وعثر على كميات كبيرة من هذا النوع من الخزف في حفائر الفسطاط ، ويقال إنه عثر على بعض القطع منه في الفيوم فعرف باسم خزف الفيوم .

الفخار :

ازدهرت أيضاً صناعة الفخار بالقاهرة في العصر الفاطمي ، ومنها القلل التي كانت تصنع من الفخار غير المطلي لاستخدامها في تبريد ماء الشرب في فصل الصيف.

كما وصلنا العديد من شبابيك القلل الفاطمية، وتتميز بأن زخارفها تشتمل على رسوم آدمية متنوعة وطيور كالحمام والطواويس والنسور، وحيوانات كالأرانب والغزلان والفيلة والجمال والسباع، أو حيوانات خرافية تشبه مثيلاتها على الخزف والخشب والنسيج الفاطمي، كذلك يوجد على بعض الشبابيك زخارف نباتية أو هندسية أو كتابية.

وشاع أيضاً بالقاهرة في العصر الفاطمي الأختام الفخارية غير المطلية لطبع زخارف على الكعك الذي كان يصنع في بعض المواسم والأعياد بالقاهرة في ذلك العصر خاصة في شهر رمضان. وكان يزخرف هذه الأختام كتابات كوفية خاصة بالطعام مثل : "كل واشكر" أو "كل هنيا" أو "بالشكر تدوم النعم" أو "كل واشكر مولاك"، كما كان يزخرف هذه الأختام زخارف ن-باتية وهندسية وحيوانية، وهناك العديد من نماذجها بالمتاحف المختلفة.

كذلك ظهر في العصر الفاطمي بالقاهرة قوارير النفط أو الكفيات المصنوعة من الفخار إلي جانب لعب الأطفال المصنوعة من الفخار على أشكال طيور وحيوانات وأشكال آدمية كالعرائس، فضلا عن المسارج الفخارية .

ب-الزجاج والبِلَّوْر الصخري :

الزجاج :

حققت صناعة الزجاج بالقاهرة في العصر الفاطمي تقدما وضاحا. ويؤكد ذلك ما ذكره الرحالة ناصر خسرو الذي زار القاهرة في العصر الفاطمي من أن البقالين والعطارين في القاهرة كانوا يضعون ما يشتريه الناس منهم في أوان زجاجية يعطونها لهم دون مقابل، كما ذكر أنه شاهد نوعاً فاخراً من الزجاج بالقاهرة يشبه الزمرد كان يباع بالوزن لنفاسته، كما أشار إلي سوق القناديل بجوار جامع عمرو بن العاص.

وكانت مراكز صناعة الزجاج قد أنتشرت في الفسطاط والفيوم والأشمونين والشيخ عباده والاسكندرية ومدينة حابو وقوص وأخميم وأسيوط والمنيا والبهنسا وهوارة وأطفيح وسقارة وغيرها تمثل جميع الأساليب الصناعية المعروفة في صناعة وزخرفة الزجاج من صنع بالألوان المختلفة والحز والإضافة بخيوط رفيعة من زجاج وبالنفخ في القوالب وبالقطع وبالبريق المعدني والتذهيب الذي شاع استخدامه في أواني هذا العصر .

وقد صنع من الزجاج: الأكواب والقنينات والكؤوس والمصابيح الزجاجية الموجود نماذج منها بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة أو المتحف الإسلامي ببرلين ، ومنها كأس من الزجاج أخضر

شفاف به زخارف بارزة عبارة عن خطوط هندسية وعبارة كوفية مكررة تسع مرات تقرأ منها كلمة "الله"، ينسب إلي مصر في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ، وهذه الكأس محفوظة بمتحف برلين. كما يحتفظ نفس المتحف أيضاً بكوب من الزجاج به زخارف مختومة ومضافة، عبارة عن خيوط سميكة ومتعرجة تمتد على جانبي الإناء طوليا ، مثلها مثل المقبض الذي يدفع إلي الاعتقاد بأنه كان يستخدم بمثابة المصباح وهو يرجع إلي القرن(4 هـ/10م). ومن ذلك أيضاً مشكاة زجاجية ذات بدن كروي ورقبة منفرجة وقاعدة منخفضة بها زخارف هندسية تشبه المشكاوات المملوكية المموهة بالمينا عثر عليها المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالفسطاط ترجع إلي القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي .

وعُرفت القاهرة في العصر الفاطمي إنتاج نوع من الزجاج السميك صنع تقليدا للبلور الصخري زخرف بأسلوب القطع والحفر. ومن أبدع التحف الزجاجية السميكة المزينة بالقطع، كؤوس القديسة الألمانية هدويج ويبلغ عددها أربعة عشر كأسا موزعة بين المتاحف والمجموعات الفنية الأوربية ، مثل المتحف البريطاني بلندن، والمتحف الجرماني في نورمبرج ومتحف ركسي في أمستردام، وكنوز كنيسة لندن وغيرها. وهذه الكؤوس من الزجاج السميك ذات الزخارف المقطوعة والمحفورة ، وهي تشبه الدلو في شكلها العام ويزينها زخارف عبارة عن أسود وطيور وعنقاء ونسر وزخارف هندسية ونباتية. ومن التحف الزجاجية التي صنعت تقليدا للبلور الصخرى مقلمة من الزجاج السميك بالمتحف الإسلامي ببرلين .

وعرف الزجاجون في القاهرة في العصر الفاطمي أيضاً نوعا آخر من الزخرفة البارزة بأسلوب القطع يتألف من طبقة خارجية أو عليا من زجاج ملون تضاف فوق طبقة سفلى من زجاج شفاف. وكانت الزخارف تقطع في زجاج الطبقة العليا الملونة فتبدو بارزة فوق الطبقة السفلى، ومنها كاس بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة يرجع إلي أوائل العصر الفاطمي. كما وصلنا من العصر الفاطمي بالقاهرة بعض المكاييل الزجاجية والآلاف من الصنج الزجاجية التي تشهد بتقدم صناعة الزجاج في العصر الفاطمي.

البِلَّوْر الصخري :

هو نوع من الأحجار يشبه الزجاج ولكنه أشد صلابة وأكثر جمالا من الزجاج، وهو يشكل ويزخرف بطريقة القطع، ولا تزال منتجاته تلفت الأنظار، بما تمتاز به من صفاء وشفافية وذلك دفع الناس إلي الاهتمام به إلي جانب أن البعض كان يعتقد فيه من دلالات سحرية ورمزية، فقد قيل أن الملوك كانوا يؤمنون بفائدة الشرب في الأواني المصنوعة من البلور الصخري ، وكان بعض الناس يتخذونه تمائم لطرد الأحلام المفزعة والسيئة.

وكانت مصر تستورد حجر البلور الصخري في أول الأمر من بلاد المغرب، ثم اكتشفت أنواع جيدة منه في إقليم البحر الأحمر في العصر الفاطمي. ولقد أشاد ناصر خسرو بالبلور الصخري الذي اكتشف في البحر الأحمر وذكر انه أجمل من البلور الذي كان يستورد من بلاد المغرب.ويبدو أن اكتشاف البلور في اقليم البحر الأحمر كان له أثر كبير في ازدهار صناعة البلور بالقاهرة في بداية العصر الفاطمي . وأدى إلي انخفاض سعره.

وكان للمحنة الكبرى التي حلت بخزائن الخليفة المستنصر الفاطمي سنة (454 هـ/1062 م)، أثر واضح في انتقال عدد كبير من الأواني البلورية بطرق مختلفة إلي خزائن الكنائس والمتاحف والملوك والعظماء بأوربا مثل كاتدرائية سان ماركو في البندقية ومتحف فيينا، ومتحف فيكتوريا وألبرت بلندن، ومتحف اللوفر بباريس، وقصر بيتي في فلورنسا، وقد اعتبرت هذه التحف البلورية من أثمن ما يعتز به من تراث فني، وكان المسيحيون يعدون البلور رمزا للنقاء الروحي، كما حرصوا على أن يحفظوا في الأواني البلورية بعض تراثهم المقدس من الدم وغيره، فضلا عن أنهم كانوا يجملون بقطع من البلور تحفهم الثمينة المصنوعة من مواد أخري .

ومن أهم التحف البلورية إبريق في كاتدرائية سان ماركو بالبندقية صنع للخليفة العزيز بالله (365-386هـ/975-996م) على بدنه زخرفة عبارة عن أسدين متقابلين وعليه كتابة باسم الخليفة العزيز بالله، وهناك إبريقين من البلور، الأول محفوظ بمتحف فيكتوريا وألبرت، والآخر بمتحف اللوفر بباريس .

كما وصلنا من تحف البلور الصخري أنواع مختلفة من حيث الوظيفة والشكل والحجم ، مثل قنينات العطر والمكاحل والمسارج والأباريق والفناجين والصحون والقوارير والكؤوس والعلب وقطع الشطرنج والمحابر والأختام. وهذه التحف تشهد على ازدهار تلك الصناعة بالقاهرة في العصر الفاطمي.

ج – الخشب والعاج :

الخشب:

جرى العرف عند علماء الفنون الإسلامية على تقسيم الأخشاب الفاطمية التي وصلنا منها العديد من التحف إلي ثلاث مراحل لها خصائصها ومميزاتها. وهذه المراحل هي :

المرحلة الأولى : وتمثل فترة انتقال من أسلوب الحفر المائل أو المشطوف الذي كان سائداً في العصرين الطولوني والأخشيدي وبين الطراز الذي سيعم إبان القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. فقد أصبحت العناصر الزخرفية محفورة حفرا عميقا وأصبحت تبدو مجسمة بعض الشيء وأقل حجما عن ذي قبل، كما أصبحت الوحدات الزخرفية تشكل موضوعا متكاملا وليس تكرارا زخرفيا. ويمكن نسبة الأخشاب الفاطمية التي تنطبق عليها هذه المميزات إلي

الثلث الأول من تاريخ الدولة الفاطمية ، أي أنها لا تتجاوز نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. ويمثل هذه المرحلة باب من الخشب عثر عليه في الجامع الأزهر ومحفوظ حاليا بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة. باسم الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي الذي قام بإصلاح الجامع الأزهر سنة 400هـ/ 1010 م. وهذا الباب يتألف من مصراعين بكل مصراع سبع حشوات مستطيلة، الحشوة العليا عبارة عن كتابة بالخط الكوفي المورق باسم الخليفة الحاكم، تم تبديل هاتين الحشوتين عند إعادة تركيبهما، فانتقل النص الأيمن وحل محل النص الأيسر، وحل النص الأيسر محل الأيمن. أما بقية الحشوات فقوامها زخارف نباتية محفورة حفرا مائلا.

المرحلة الثانية : تتميز أخشاب هذه المرحلة بأن الفروع النباتية تشكل تموجات وحلزونات، فأكثر ظهور ورق العنب وكيزان الصنوبر. وأواني الزهور التي يخرج منها فروع نباتية متموجة إلي جانب زهور الرسوم الآدمية والحيوانية والطيور والأشكال الخرافية المركبة، والعناصر الكأسية والمراوح النخيلية، وأصبح الحفر على عدة مستويات. وتنسب أخشاب هذه المرحلة إلي القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. ويمثل هذه المرحلة مجموعة من الألواح الخشبية عثر عليها في بيمارستان قلاوون ويرجح أنها كانت مستعملة بالقصر الغربي الصغير الذي شيده الخليفة العزيز وأتمه المستنصر. وهذه الألواح محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة وعليها الموضوعات التالية : مناظر صيد وقنص، ومجالس شراب وطرب، ومناظر رقص، ورسوم قتال، ورسوم طيور جارحة ومعها فريستها، ورسم الأسد والغزال والبط والأرانب والصقور والطواويس والتيوس بالإضافة إلي رسوم الحيوانات الخرافة كالبراق والطيور ذات الوجوه الآدمية. كما ينسب إلي هذه المرحلة أبواب الكنيسة المعلقة بمصر القديمة، وكنيسة دير البنات، وثلاثة أحجبة في كنيسة أبي سيفين.

المرحلة الثالثة : تتميز أخشاب هذه المرحلة بازدياد عدد النباتات ذات الأصل الهليني ، مثل كيزان الصنوبر وورقة العنب الخماسية الشحمات، وقرون الرخاء، والفروع المزدوجة، والكأس الثلاثي، والأرابيسك، فضلا عن استخدام الأشكال الهندسية للحشوات الصغيرة بواسطة أجزاء حابسة أو معشقة لهذه الحشوات يطلق عليها سدايب. الطريقة الصناعية لم تعرف قبل العصر الفاطمي بالقاهرة، ويمثل هذه المرحلة باب مسجد السيدة نفيسة ومحراب الخليفة الآمر بأحكام الله المؤرخ بسنة 519 هـ والذي عثر عليه بالجامع الأزهر والمحفوظ حاليا بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، كما يحتفظ نفس المتحف بمحراب السيدة نفيسة المؤرخ بسنة 532-541هـ / 1137-1147م، ومحراب السيدة رقية ، وغير ذلك من التحف الخشبية التي ترجع إلي العصر الفاطمي كما اشتهر العصر

الفاطمي بالخشب المدهون والأخشاب المطعمة والمرصعة بالعاج.

العاج :

كذلك شاعت صناعة التحف من العاج بالقاهرة في العصر الفاطمي ، منها حشوة تشتمل على نقش لغزال في الوسط يعلوه طائر باسط جناحيه، ويوجد أسفله رسم بطة تطير في الهواء ترجع إلي القرن 5 هـ/11 م، وتوجد حشوة أخري سداسية الأضلاع بمتحف فيكتوريا وألبرت قوات زخرفتها أرنبان متدابران يعلوهما طائر باسط جناحيه، ومن التحف العاجية المهمة التي ترجع للعصر الفاطمي (القرن 5 هـ/11م) إطار شبه مربع يتألف من أربع حشوات محفوظ بمتحف برلين به زخارف آدمية وحيوانية وطيور تمثل موضوعات صيد وقنص وشراب وطرب، كما توجد مجموعة من أبواق لصيد تزينها زخارف محفورة غاية في الإتقان لحيوانات الصيد وطيور في أوضاع مختلفة داخل دوائر موزعة في أشرطة، كذلك توجد مجموعة من لعب الأطفال صنعت من العاج أو العظم وغيرهما.

النسيج :

نالت الأقمشة الفاطمية بالقاهرة شهرة عظيمة؛ لأن النساج المصري تفنن في نسجها وزخرفتها، ونسج أنواع عديدة منها، مثل العنابي والسقلاطون والديباج والديبقي وغيرها. وكان من الطبيعي أن يهتم الخلفاء الفاطميين بالقاهرة بصناعة النسيج لأنهم كانوا في حاجة إلي كميات كبيرة من المنسوجات لأنفسهم ولرجال بلاطهم وللكسوة الشريفة وللخلع التي كانوا يمنحونها في بعض المناسبات لأتباعهم ورجال حكوماتهم. وللدلالة على اهتمام الحكومة الفاطمية بالنسيج أن المقريزي يذكر لنا أن دار الوزير الفاطمي يعقوب بن كلس بالقاهرة تحولت بعد وفاته إلي مصنع حكومي للنسيج وصارت تعرف باسم دار الديباج. كما أشار الرحالة ناصر خسرو إلي أنواع الأقمشة التي شاهدها في القاهرة في العصر الفاطمي منها نسيج القصب الملون الذي تصنع منه العمائم والطواقي وملابس النساء، كما ذكر أنه لا ينسج في أي مكان أخر قصب يوازيه في الجودة والجمال، ولم يكن يباع من إنتاج القصب المنسوج شيئا حتى أن أحد أمراء فارس أرسل إلي القاهرة عشرين ألف دينار ليشتري بها حلة كاملة منه ولكن رسله ظلوا بضع سنين دون أن يوفقوا في مهمتهم أو يحصلوا على قطعة واحدة دون علم ناظر الطراز. ويذكر المقريزي أن هذا الإشراف الجيد أدى إلي ضمان تحصيل الضرائب المفروضة على صناعة النسيج التي بلغت في يوم واحد من إنتاج بعض المصانع في عهد الوزير يعقوب بن كلس مائتي ألف دينار، ويضيف المقريزي بأن هذا شيء لم يسمع قط بمثله في بلد. وقد استخدم الفاطميون بالقاهرة في صناعة الأقمشة الصوف والكتان والحرير وأنشأوا خزانة الكسوات. واتفق علماء الآثار والفنون على

تقسيم المنسوجات الفاطمية إلي أربعة مراحل زمنية هي :

المرحلة الأولى : تمثل عصر المعز (362-365هـ)،والعزيز(365-386 هـ) والحاكم (286-411هـ) وزخارفها عبارة عن أشرطة كتابية توازيها أشرطة أخري بها جامات سداسية أو بيضية الشكل أو معينات قد تتداخل بعضها في بعض ، ومنها رسم حيوان أو طائر أو رسم حيوانين أو طائرين متقابلين أو متدابرين أو رسم وردة، ويلاحظ أن شريط الرسوم الزخرفية محصور بين سطرين متعاكسين من الكتابة الكوفية.

المرحلة الثانية : وتشتمل على عصر الظاهر (411-427 هـ) ، والمستنصر (427-487هـ)، وتتميز منسوجات هذه الفترة باتساع الأشرطة الزخرفية وزيادة وحداتها ، وكان قوامها جامات ومناطق صغيرة فيها رسوم طيور وحيوانات محورة عن الطبيعة وتحصرها سطور من الكتابة الكوفية المتعاكسة، ويزين الفراغ بين قوائم الحروف بفروع نباتية دقيقة.

المرحلة الثالثة : تمثل عصر الخليفة المستعلى (487-495 هـ)، والآمر(495-524هـ)، تظهر فيها إلي جانب العناصر القديمة عناصر جديدة كالأشرطة والجدائل التي تتموج وتتداخل فتحصر بينها جامعات تضم رسوم طيور أو حيوانات أو كؤوس بها فاكهة، وقد نرى سطورا من الكتابة الكوفية باسم الخليفة ووزيره، كما يبدأ ظهور خط النسخ.

المرحلة الرابعة: تمثل عصر الخليفة الحافظ حتى نهاية الدولة الفاطمية (526-567 هـ). قوام زخرفة هذه المرحلة جدائل تتقاطع وتتشابك فتؤلف جامات ورسوم حيوانات أو رسوماً نباتية، والكتابة بخط النسخ، كما تمتاز بالأشرطة الواسعة التي تغطي قطعة النسيج.

المعادن :

يعد الذهب والفضة والنحاس أهم المعادن الخام التي استعملتها القاهرة في صناعة منتجاتها المعدنية، كما عرف صناعها استعمال المعادن المكونة من أكثر من مادة مثل النحاس الأصفر والبرونز، وقد تعددت طرق صناعة التحف المعدنية القاهرية في العصر الفاطمي ، أهمها الصب والطرق، وتتلخص طريقة الصب في إعداد قوالب معينة من المعدن تتخذ نفس الشكل المراد تنفيذه – ثم يصب فيه المعدن فيتشكل مثله، وبعد تجمد المعدن تجري عملية الزخرفة على سطحه ، ولا تستعمل هذه الطريقة في كل المواد المعدنية ولكن استعمالها كان مقصورا على مادتي البرنز والنحاس، أما طريق الطرق فتتم بوضع ألواح معدنية على السندال المصنوع من الحديد والمنتهي عند طرفه بجزء من الصلب ليتحمل عملية الطرق ، ثم يطرق على المعدن بمطرقة تشبه الجاكوش. وبعد هذه العمليات الصناعية التي ينتج عنها تشكيل المعدن في صورة الإناء أو

التمثال المراد صنعه تنعم التحفة حتى تصبح ملساء وينظف ما يكون عالقا بها من الشوائب. كذلك أجاد صناع القاهرة عدة طرق زخرفة أهمها الحز والترصيع بالمينا. والحز هو أجراء حزوز أو نقوش خفيفة غير غائرة على سطح المعدن وفقا لرسم معين يعده الصانع قبل تنفيذه في يقوم بنقله على سطح المعدن تمهيدا لحزه بآلة الحز الخاصة. أما طريقة الترصيع بالمينا فيقوم على أساس صب المينا في فصوص معدنية صغيرة أشبه ما تكون بالقوالب ، وبعد حرقها في فرن خاص تلصق هذه الفصوص على سطح المعدن في الأماكن المخصصة لها علي حسب الزخارف، والمينا عبارة عن مادة كالزجاج يمكن إذابتها مع بعض الأكاسيد للحصول على ألوان مختلفة. وهناك طريقة أخري للترصيع بالمينا أسهل من الطريقة الأولى وتتلخص في حفر الرسوم المراد زخرفتها حفرا عميقا على سطح التحفة ثم تصب في الأماكن والشقوق المحفورة مادة المينا وبعد حرقها في فرن خاص نحصل على المينا البراقة الألوان. واستعملت هذه الطريقة في زخرفة الحلي الذهبية الفاطمية ، ومنها قرط من الذهب محفوظ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة عليه كتابة كوفية نصها: "الله خير حافظا".

وينسب للقاهرة في العصر الفاطمي مجموعة من التماثيل البرونزية الصغيرة التي يتخذ الواحد منها شكل حيوان أو طائر أو إنسان. وكانت تستعمل كمباخر أو صنابير لانية المياه أو أجزاء من الأدوات وبخاصة النافورات المائية (الفسقيات) التي كانت تزود بها الدور والقصور الفاطمية بالقاهرة، ومنها عقاب من البرونز. ذي الزخارف المحفورة بمتحف بيزا بإيطاليا. ومنها تمثال على هيئة أسد من البرونز ، وتمثال علي شكل ظبي وهما محفوظين بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، وكذلك أيل من البرونز في متحف ميونخ، وهو تمثال مجوف على هيئة حيوان الأبل وعليه رسوم نباتية كتابة كوفية منفذة بطريقتي الحفر والحز. ويحتفظ كل من متحف اللوفر ومتحف برلين والمتحف البريطاني بلندن بنماذج من هذه التحف الفاطمية، ومنها أيضاً التيس بمجموعة كبيرة بلندن والحصان بالمتحف الأثري بقرطبة والأرانب البرية بالمتحف الإسلامي، والطاووس بمتحف اللوفر وتعرف باسم الأكوامانل، فإلي جانب التماثيل عرف صناع المعادن الفاطميون الأدوات المعدنية المختلفة كالمناضد البرونز التي يحتفظ متحف الفن الإسلامي بثلاثة منها. وهناك العديد من التحف المعدنية ذات الأشكال والوظائف الأخرى كالهاون والصحون والأواني والشماعد وحوامل المسارج والأباريق والأسطل والعلب والصناديق والمرايا المعدنية وقطع الحلي الذهبية والفضية والنحاسية من عقود وقلائد وأساور وأقراط ودمالج وخواتم وخلاخيل وغيرها.

النقود :

كما عرفت القاهرة الفاطمية شتى أنواع النقود الذهبية والفضية والنحاسية التي ضربت بدار سك القاهرة المعزية ، وهي الدار التي شيدها الخليفة الآمر بأحكام الله سنة 516 هـ وضربت بها نقود الغرة والنقود التذكارية ونقود الخزانة إلي جانب تلك التي كانت تستعمل في المعاملات اليومية.

ثانيا : العمارة:

شهدت القاهرة الفاطمية نهضة كبيرة في مجال العمارة الدينية والمدنية والعسكرية. ومن أهم أنماط العمارة الدينية المساجد والمشاهد والقباب الغنية بعناصرها المعمارية والزخرفية، والعمارة المدنية وهي القصور والحمامات والدور وغيرها، والعمارة العسكرية من أسوار وبوابات وأبراج، هذا فضلا عما ذكرناه سابقا من الثراء الكبير الذي يختلف في مجال الفنون التشكيلية كالخط والتصوير والنحت والفنون التطبيقية كالخزف والفخار والزجاج والبلور الصخري والخشب والعاج، والنسيج والمعادن.

العمارة الدينية :

أ-المساجد :

يحتل المسجد في الإسلام المكانة الأولى بين العمائر الإسلامية ، وقد ارتبطت الفنون الإسلامية على اختلافها بالمسجد وبعمارته وأثاثه وشعائره، ولا عجب في ذلك فالمساجد بيوت الله، وتعميرها من أفضل القربات إلي الله ، وأسس لتقام فيه الصلاة. عماد الدين ، ومن ثم علت منزلة المسجد عند المسلمين، ولم تقتصر وظيفة المسجد في أول الأمر على الصلاة ، بل كان المسجد مركز الحكم والإدارة والدعوة والتشاور في ذلك كله، كما كان محل القضاة والإفتاء والعلم والأعلام وغير ذلك من أمور الدين والدولة، ومن أهم المساجد الفاطمية : الجامع الأزهر، جامع الحاكم، الجامع الأقمر، جامع الصالح طلائع، وفيما يلي هذه المساجد :

1- الجامع الأزهر :

يُعدّ أول جامع يشيد بالقاهرة الفاطمية، أنشأه القائد جوهر الصقلي بأمر مولاه المعز لدين الله رابع الخلفاء الفاطميين بشمال أفريقيا(341-362هـ) وأولهم بمصر (362-365 هـ)، واستمر بناؤه عامين من سنة (359 هـ/971م) إلي سنة (361هـ/973م)، كان الغرض منه أن يكون مسجدا جامعا للقاهرة، وكذلك معهدا لتعليم الطلاب الفقه الشيعي ونشره. وكان تصميمه الأصلي يتألف من صحن يحيط به ثلاثة أروقة أكبرها رواق القبلة، والرواقان الآخران في الجانبين. ويشتمل رواق القبلة على خمس بلاطات تمتد موازية لجدار القبلة، أما الرواقان الجانبيان فيشتملان على بلاطات متعامدة على جدار الرواق. وبرواق القبلة مجاز قاطع سقفه أعلى من سقف المسجد وتتوج تقاطعه مع بلاطة المحراب قبة ترجع إلي عصر المماليك، وكانت قد حلت محل القبة الفاطمية الأصلية. وكان في طرفي بلاطة

المحراب قبتان ولكنهما زالتا. وكان مدخل الجامع في وسط الجدار الشمالي الغربي .

ولقد أجري في العصر الفاطمي الكثير من أعمال الاصلاح والتجديد والإضافة في عصر الخليفة الحاكم بأمر الله في سنة (400 هـ/1009م)، وفي عهد الخليفة الآمر بأحكام الله سنة (519 هـ/1125م) ؛ إذ عمل للجامع محراب خشبي موجود حاليا بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة. وفي سنة 544 هـ/1149م أضاف الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمي (526-544هـ) بلاطة تحيط بصحن الجامع من جوانبه الأربعة، وأقام على رأس المجاز القاطع من جهة الصحن قبة بديعة تزينها الزخارف الجصية البارزة الجميلة التي تعد نموذجا فنيا فاطميا رائعا .

وحدث في عصر المماليك إضافات وتجديدات مهمة للجامع الأزهر: في سنة(709 هـ/1309م)، بنيت المدرسة الطيبرسية على يمين المدخل الرئيس من الخارج ، وقد شيدها الأمير علاء الدين طيبرس الخازنداري نقيب جيوش السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وفي سنة(714هـ/1340م)، بنيت المدرسة الأقبعاوية على يسار المدخل الرئيس من الخارج في مواجهة المدرسة الطيبرسية، وقد شيدها الأمير علاء الدين أقبغا عبد الواحد أستادار الملك الناصر محمد، وفي سنة (844 هـ/1440م)، شيد الأمير جوهر القنقبائي خازندار الملك الأشرف برسباي المدرسة الجوهرية، التي تقع في الطرف الشمالي الشرقي عند باب السر للجامع الأزهر. وفي سنة (981 هـ-1486م)، جدد السلطان قايتباى (872-901هـ)، مدخل الجامع الأصلي، وشيد مئذنة على يمينه، وفي سنة 915هـ بنى السلطان الغوري مئذنة ذات رأسين بالقرب من الزاوية الغربية لصحن المسجد.

أما الإضافات الكبيرة فكانت على يد عبد الرحمن كتخدا في سنة(1167هـ/1753م)، إذ أضاف إلي رواق القبلة أربع بلاطات من جهة القبلة صارت أرضيتها أعلى من أرضية المسجد الأصلي، وزود هذه الزيادة محراب ومنبر، وبنى قبة تتقدم المحراب، كما بنى لنفسه ضريحا عند الركن الجنوبي، وفتح بالقرب منه بابا سمي باب الصعايدة، وأقام جنوبي الباب مئذنة. وأضاف خلف جدار المسجد الجنوبي الغربي رواقا سمي رواق الصعايدة، وفتح بابا خلف جدار القبلة شرقي المحراب سمي باب الشربة، وأقام خلفه مئذنة، كما جدد واجهة المدرسة الطيبرسية. أما الواجهة الرئيسة الحالية للجامع الأزهر ومدخلها الذي أطلق عليه اسم باب المزينين فيرجع إلي عهد عباس حلمي الثاني في سنة (1315هـ/ 1898م) .

2- جامع الحاكم بأمر الله:

يقع هذا الجامع في نهاية شرع المعز لدين الله الفاطمي، حيث يلاصق سور القاهرة الشمالي بعد إعادة بنائه على يد بدر الجمالي، الذي أدخل هذا الأثر ضمن حدود القاهرة الجديدة بعد أن كان

خارجها عندما وسع المدينة. ويعرف هذا الجامع أيضاً بجامع الخطبة والجامع الأنور. استطاع الخليفة العزيز بالله (365-386 هـ) وضع أساس هذا الجامع سنة(380هـ/990م) ثم أنجز عمارته الحاكم بأمر الله سنة(403هـ/1012م)، حيث عرف الجامع باسمه.

يتميز هذا الجامع بعدة مميزات معمارية أهمها وجود المدخل البارز الذي يتوسط واجهته الرئيسة الشمالية الغربية الذي يعد الأول من نوعه في العمارة الإسلامية بمصر، وفي وجود القباب الثلاث جهة دار القبلة كما كان في الجامع الأزهر، وفي وجود المجاز الذي يقطع صفوف البلاطات عموديا على اتجاه المحراب، وفي استخدام الدعامات بدلا من الأعمدة كما في جامع أحمد بن طولون، وفي مئذنتيه الفريدتين بطرفي واجهته الغربية، وفي الأشرطة الزخرفية والكتابية، وأخيرا في مساحته الكبيرة التي تلي مساحة جامع أحمد بن طولون .

يشغل هذا الجامع مساحة مستطيلة الشكل تبلغ 120 متر x 113 متر، ويتوسطه صحن مكشوف مستطيل الشكل طوله 78 متر وعرضه 66 متر، تحيطه أربعة أروقة أكبرها رواق القبلة الذي يشتمل على خمس بلاطات يقطعها المجاز في مقابل بلاطتين في الرواق المقابل، وثلاث بلاطات في الرواقين الجانبيين، وتطل هذه الأروقة على صحن الجامع بواسطة عقود مدببة واسعة بها فتحات مستطيلة للإضاءة والتهوية. وتوجد شرفات مدرجة أعلى واجهات الأروقة المشرفة على الصحن.

وتطل الواجهة الرئيسة لهذا الجامع على شارع المعز لدين الله حيث يتوسطها المدخل البارز على شكل برجين صغيرين يحصران بينهما مدخل الجامع، وكان يوجد في الأصل أربعة مداخل بهذه الواجهة غير المدخل الرئيس، وبطرفي هذه الواجهة مئذنتان إحداهما بالطرف الغربي والأخري في الناحية الشمالية ولهما أهمية خاصة في تاريخ العمارة الإسلامية بالنسبة للمآذن نظرا لتصميمها وقدمها ؛ إذ لم يحدث تغيير بها من عصر الحاكم وعصر بيبرس الجاشنكير حين جددهما وأضاف لهما عام (703 هـ/1303م) إضافات إثر سقوطهما بسبب الزلازل التي حدثت، عام(702 هـ/1302م). قامت طائفة البهرة في الفترة الأخيرة بترميمه وتجديده تحت إشراف المجلس الأعلى للآثار.

3-الجامع الأقمر :

يقع هذا الجامع في شارع المعز لدين الله الفاطمي، شيده الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمي بإشراف وزيره المأمون البطائحي سنة (519هـ/ 1125م). وتم تجديده عام (799هـ/ 1397م) على يد الأمير يلبغا بن عبد الله السالمي احد مماليك السلطان الظاهر برقوق، كما هدم بعض فقهاء السلطان مئذنة هذا الجامع بعد حدوث ميل بها عام 815 هـ، ثم

جدده بعد ذلك سليمان أغا السلحدار سنة (1236هـ /1821م).

شيدت الواجهة الرئيسة لهذا الجامع بانحراف بسيط، نظرا لبناء الجامع على ناصية شارعين وترتب على ذلك عدم انتظام أضلاعه الخارجية، لذلك عمد المعمار إلي الفراغ الناتج بين الجدار الشمالي والواجهة الغربية بثلاث غرف ، واحدة على يمين المدخل واثنتان على يساره. وتبلغ مساحة هذا الجامع من الداخل 28 متر طولا و 17.5 متر عرضا، وأهم ما يميز هذا الجامع واجهته الحجرية، وتغطيته من الداخل لقباب متجاورة ضحلة .

وتعد واجهته هي أول مثال لواجهة تزخرف بالزخارف الحجرية في العمارة الإسلامية بالقاهرة بهذا الأسلوب المتماثل، فقد حفرت الزخارف بتماثل على واجهة هذا الجامع، وكذلك المدخل بحيث شملت هذه الزخارف عناصر عديدة منها الأشكال المحارية المشعة والحنايا المصمتة المعقودة والمحمولة على اعمدة دقيقة، وأشكال الصرر، والمشكاوات، والورود، والمعينات، والمزهريات، والشطوف المقرنصة التي تعد من العناصر المعمارية الجديدة في العمارة الإسلامية بمدينة القاهرة، فضلا عن أشرطة الكتابة الكوفية المزهرة على واجهته والتي تحمل من بينها نص التأسيس وتاريخ البناء عام 519 هـ .

ويتوسط الجامع من الداخل صحن صغير مكشوف مربع الشكل، طول ضلعه عشرة أمتار، ويحيط بالصحن أربعة أروقة أكبرها رواق القبلة الذي يشتمل على ثلاث بلاطات بواسطة ثلاث بوائك. وبالأروقة الثلاثة الأخري بلاطة واحدة فقط. ويتوسط جدار القبلة المحراب الذي جدده الأمير يلبغا السالمي على هيئة دخلة مجوفة معقودة بعقد منكسر يرتكز على عمودين رخاميين. ويغطي بلاطات الأروقة جميعا قباب صغيرة ضحلة متجاورة فيما عدا بلاطة المحراب بالرواق الرئيس ومناطق انتقالها من أشكال المثلثات الكروية. أما مئذنة هذا الجامع فتقع أعلى المدخل وتتكون من دورتين أسطوانيتين يفصل بينهما شرفة ترتكز على حطات مقرنصة ويحيطها درابزين خشبي ويتوج قمتها شكل القلة.

4- جامع الصالح طلائع:

يعد هذا المسجد آخر المساجد الفاطمية في قاهرة المعز، ويقع خارج باب زويلة، شيده الوزير الصالح طلائع بن رزيك سنة(555هـ/1160م) ليدفن فيه رأس الحسين بن علي رضي الله عنه التي كانت مدفونة في عسقلان، ولما انتهى الصالح من بناء الجامع لم يمكنه الخليفة الفائز من دفن الرأس فيه، حيث بنى الخليفة المشهد القائم الآن بجوار مسجد الحسين وتم دفن الرأس الشريفة فيه.

ويعد مسجد الصالح طلائع من المساجد المعلقة بالقاهرة ويرتفع عن مستوى أرض الشارع بحوالي أربعة أمتار فوق بعض الدكاكين أسفل ثلاث من واجهاته الحجرية الأربعة. وتقع الواجهة الرئيسة

في الناحية الشمالية الغربية والتي يتقدمها سقيفة المدخل المكونة من بائكة من خمسة عقود منكسرة، ترتكز على أعمدة رخامية ذات تيجان كورنثية .

ويشتمل الجامع على أربعة أروقة حول صحن كبير مكشوف أكبرها رواق القبلة المكون من ثلاث بلاطات تسير عقود بائكتها موازية لجدار القبلة، في حين توجد بلاطة واحدة في الأروقة الثلاثة الأخري تطل على صحن الجامع بعقودها القاطمية المنكسرة.

ويوجد برواق القبلة مجاز قاطع عمودي على محراب المسجد الموجود في دجلة عميقة معقودة بعقد منكسر محمول على عمودين مثمنين من الرخام. ويقع المنبر إلي جانب المحراب ، وهو من أعمال الأمير بكتمر الجوكندار الذي أضافه إلي المسجد عام (699 هـ/1299م) وهذا المنبر يحمل النص التأسيسي وتاريخ عمله المذكور .

وكانت مئذنة الجامع قد شيدت فوق الباب الرئيس بالواجهة الغربية إلا أنها هدمت وشيد بدلا منها مئذنة أخري أُزيلت سنة 1926 بسبب حدوث خلل بها، وقد ألحق الصالح طلائع بهذا الجامع صهريجا كبيرا وعمل له ساقية تمده بالمياه، وأقيمت به أول جمعه بعد إنشائه بحوالي مائة عام، وأُصيب بالزلزال الذي حدث سنة 702 هـ ولكن الأمير سيف الدين بكتمر اهتم بتعميره وتجديده.

المشاهد والقباب:

1-قباب السبع بنات :

تقع جنوب الفسطاط في المنطقة المعروفة بعزبة خير الله الجديدة على مقربة من مبنى خيالة الشرطة بعين الصيرة، وقد شيدت سنة (400هـ/ 1010م) .

يذكر المقريزي أن هذه القباب بآخر القرافة الكبرى مما يلي مدينة مصر، وهي مشاهد على سبعة من بني المغربي قتلهم الحاكم بعد فرار الوزير أبي القاسم الحسين بن علي المغربي إلي مكة. لم يتبق من هذه القباب سوى أربعة فقط. فضلا عن وجود قاعدتين باقيتين أخريين اكتشفتهما لجنة حفظ الآثار سنة 1944م ولم يظهر أثر للقبة السابعة.

وقد شيدت هذه القباب من الحجر متجاورة في وصف واحد غير مستقيم. وتتكون كل قبة من حجرة مربعة الشكل بكل ضلع من أضلاعها الأربعة فتحة باب معقودة بعقد مدبب. ويوجد على كل جانب من جانبي فتحة الباب المعقودة بالضلع الجنوبي الشرقي للقبة الثانية حنية محراب، يلي حجرة القبة المربعة (التربيع السفلي) منطقة الانتقال ، وهي عبارة عن حنية ركنية في كل ركن من الأركان الأربعة، يتوسط أواسط منطقة الانتقال فتحة شباك معقودة بعقد مدبب، تعلو فتحة الأبواب، يلي ذلك رقبة القبة وهي مثمنة، وفتح بكل ضلع منها فتحة شباك معقودة. والقباب الأربع المتبقية متشابهة من حيث

التخطيط والمساحة تقريبا. أما وصفها من الخارج فكل منها تتكون من ثلاثة طوابق : الطابق الأرضي وهو التربيع السفلي وفتح بكل ضلع منه فتحة باب معقودة. الطابق الثاني ويرتد إلي الداخل عن مستوى الطابق الأرضي وهو منطقة انتقال القبة حيث في الأركان عبارة عن شكل درج واحد، ويوسط كل ضلع من هذا الطابق فتحة شباك معقودة. أما الطابق الثالث فهو رقبة القبة وهي مثمنة ، وبكل ضلع منها فتحة شباك معقودة وهي ترتد إلي الداخل عن مستوى الطابق الثاني .

2-مشهد الجعفري وعاتكة :

يقع مشهد الجعفري والسيدة عاتكة في الساحة التي تضم مشهد السيدة رقية أيضاً بشارع الخليفة بالقرب من جامع أحمد بن طولون.

مشهد الجعفري :

ينسب إلي أحد أئمة الشيعة وهو محمد بن الأمام جعفر الصادق المتوفي سنة 209 هـ، ويرجح أن هذه القبة كانت في الأصل زاوية أو مسجد صغير في نفس المكان الذي سكنه محمد بن الجعفري، ثم أعيد عمارته في عصر الدولة الفاطمية، وقد رجعها فهرس خريطة القاهرة للآثار الإسلامية إلي سنة (514هـ/1120م) وهو مشيد بالأجر. ويشغل هذا المشهد مساحة مربعة الشكل طول ضلعها خمسة أمتار وارتفاعها حتى منطقة الانتقال ثلاثة أمتار ، كان يقع مدخلها بوسط الضلع الشمالي الغربي، ويقع مدخله الحالي في وسط الضلع الشمالي الشرقي، ويؤدي إلي داخل القبة وهي حجرة مربعة تقريبا طول ضلعها 3.8 متر يتوسط أرضها تركيبة خشبية وبصدر هذه الحجرة حنية محراب. وتتكون منطقة القبة في كل ركن من الأركان الأربعة من حطتين من المقرنصات المعقودة بعقود مدببة، وبوسط كل ضلع فتحة شباك ذات عقد ثلاثي، ثم بعد ذلك خوذة القبة .

مشهد السيدة عاتكة :

يقع ملاصقا لمشهد الجعفري من الجهة الشمالية الغربية. وقد أرخته خريطة القاهرة للآثار الإسلامية سنة (519هـ/1125م). وينسب هذا المشهد على الأرجح إلي السيدة عاتكة بنت زيد بن عمر التي عاصرت الرسول (ﷺ) وهاجرت معه إلي المدينة المنورة ، وتزوجت محمد بن أبي بكر الصديق الوالي على مصر في خلافة الأمام علي بن أبي طالب وتزوجها بعد وفاة الزبير بن العوام وجاءت معه إلي مصر، ومات كلاهما بها.

وتخطيطه المعماري يشبه تخطيط مشهد الجعفري، ولكن قبة مشهد عاتكة بها تضليعات خارجية وداخلية، وبصدر المشهد دخلة المحراب، ويتم الدخول للقبة من خلال باب بوسط الواجهة الشمالية الشرقية. ويتوسط أرضها تركيبة خشبية.

2-مشهد السيدة رقية :

ينسب هذا المشهد إلي السيدة رقية ابنة الإمام علي بن أبي طالب، وقد أقيم كمشهد من مشاهد الرؤيا ، حيث لم يثبت أن السيدة رقية قد حضرت لمصر أو دفنت بها.

يقع هذا المشهد بشارع الأشرف بالقرب من جامع أحمد بن طولون أمام قبة شجر الدر. أمر بإنشاء هذا المشهد علم الأمرية زوجة الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله سنة (527هـ /1133م) وانتهت من بناء القبة سنة (533هـ/1339م)، وقد زودت هذا المشهد بمحراب خشبي من خشب الساج الهندي، وهذا المحراب موجود حاليا بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة. وجدد هذا المشهد الأمير عبد الرحمن كتخدا سنة 1175م، ثم جدده بعد ذلك الخديو عباس حلمي الأول وأضاف إليه المقصورة الخشبية .

يحتل هذا المشهد مساحة مستطيلة الشكل، ويتقدمه من الجهة الشمالية الغربية سقيفة تشرف على الخارج ببائكة معقودة من ثلاثة عقود مدببة. ويصدر السقيفة باب المدخل على جانبيه محرابان. ويؤدي هذا الباب إلي داخل المشهد (القبة). والمشهد من الداخل يتكون من مساحة مستطيلة الشكل يبلغ طول جدار القبلة 12 متر، وهي مقسمة إلي ثلاثة أقسام، القسم الأوسط وهو الرئيسي وبه الضريح المعطى بقبة. ويتميز هذا المشهد باحتوائه على زخارف وكتابات كوفية بالغة الأهمية من العصر الفاطمي .

وهناك بعض المشاهد والقباب الفاطمية الأخرى مثل إخوة يوسف ، أبو الغضنفر ، وخضره الشريفة ، ويحيى الشبيه.

العمارة المدنية:

وتشتمل على القصور مثل القصر الشرقي الكبير والقصر الغربي الصغير، والدور مثل قاعة الدردير، والحمامات مثل حمام أبو السعود وحمام السكرية ، وهي على النحو التالي :

القصور:

القصر الشرقي الكبير :

شيده القائد جوهر الصقلي ليقيم فيه الخليفة المعز لدين الله عند وصوله إلي مصر، وكان يقع بالقرب من السور الشرقي لمدينة القاهرة، ولذا أطلق عليه اسم القصر الشرقي الكبير ، وكل ما نعرفه عن هذا القصر مستمد من المصادر التاريخية لأنه غير موجود حاليا. وكان يمتد من المكان الذي يوجد به المشهد الحسيني الآن إلي الجامع الأقمر، وكانت له تسعة أبواب. ففي الناحية الشرقية كانت توجد أبواب العيد والزمرد وقصر الشوك، وفي الناحية الغربية كانت توجد أبواب البحر والذهب والزهومة، وفي الناحية القبلية كانت توجد أبواب تربة الزعفران والديلم، وفي الناحية البحرية كان يوجد باب الريح فقط. وكانت أسماء هذه الأبواب تدل على معان خاصة، فسمي باب

العيد لأنه الخليفة كان يخرج منه في يومي العيد إلي المصلى التي كانت خارج باب النصر، وباب الزمرد وكان يتوصل منه إلي قصر الزمرد وموضعه الآن بشارع حبس الرحبة بالجمالية، وباب البحر وكان يخرج منه الخليفة عندما كان يقصد التوجه إلي شاطئ النيل بالمقس، وباب التربة وكان يتوصل منه إلي مقابر الخلفاء التي كانت بداخل القصر .

وقد أضاف الخلفاء الفاطميون العديد من قاعات القصر الشرقي وأفاضوا في زخرفته وكانت أرضة هذا القصر مرصوفة بالفسيفساء، وأسقفه مزخرفة بزخارف ذهبية جميلة، وفي وسط افنيته النافورات التي يجري منها الماء الصافي في أنابيب من الذهب والفضة إلي أحواض وقوات مرصوفة بالرخام، كما تكثر بحدائقه الطيور البديعة والحيوانات الغريبة. أما الستائر فكانت مصنوعة من الحرير الموشي بالذهب ومرصعة بالجواهر والياقوت ، وعليها رسوم الحيوانات والطيور والرسوم الآدمية.

وقد زود الخلفاء الفاطميون هذا القصر بالعديد من التحف والطرائف ما لا يكاد يصدقه عقل، وقد جمعوا كل ذلك في خزائن، كان بعضها في داخل القصر والبعض الآخر في مبان ملحقة به. وقد وصف المقريزي في خططه تلك الخزائن وما تضمه وصفا دقيقا، ومن هذه الخزائن: خزائن السلاح، وخزانة الكتب، وخزانة الكسوات، وخزائن الجوهر والطيب والطرائف، وخزائن الفرش والأمتعة، وخزائن السروج، وخزائن الشراب، وخزائن التوابل. وقد تطورت القاهرة وعلا شأنها وذاع صيتها وازداد عمرانها وتعددت أبنيتها فأعجب بها الرحالة الفارسي ناصر خسرو فذكر أن حوانيتها لم تقل عن عشرين ألفا، وخاناتها وحماماتها لا يمكن حصرها، وكانت أبنيتها أعلى من الأسوار الحصينة، وفي كل منها خمس أو ست طبقات. وكانت البيوت في المدينة مبنية بناء "نظيفا محكما"، وكانت مفصولاً بعضها عن بعض بحدائق ترويها مياه الآبار.

القصر الغربي الصغير:

شيده الخليفة العزيز بالله بن المعز وأتمه الخليفة المستنصر بالله. وكان يقع غربي القصر الكبير، لذلك سميت بالقصر الغربي الصغير. وقد أقيم على أنقاض هذا القصر بيمارستان السلطان المنصور قلاوون بشارع المعز لدين الله ، وكذلك المساكن التي تجاوره إلي شارع الخليج. وقد أعيد استخدام الألواح الخشبية التي كانت موجودة في هذا القصر في سقف البيمارستان ، ولكن وضعت على ظهرها وهذه الألواح عليها مناظر محفورة تمثل الحياة الاجتماعية في القاهرة الفاطمية، وموجود معظمها حاليا بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة. كذلك عرف هذا القصر أيضاً بقصر البحر ، وكان يشرف على البستان الكافوري المعروف بالبغدادية وغيره من البساتين الأخري.

وكان يفصل القصر الشرقي عن القصر الغربي فضاء متسع يقف فيه عشرة آلاف عسكري ما بين فارس وراجل. وهذا الفضاء يطلق عليه بين القصرين ، ولا زالت هذه التسمية تطلق على هذه المنطقة حتى وقتنا هذا. كما كان يصل بين القصر سرداب تحت الأرض يسلكه الخليفة راكبا بغلته عندما يتنقل من القصر الشرقي للقصر الغربي بعيدا عن أعين الناس.

الدور :

قاعدة الدردير :

توجد بمنطقة الكحكيين بجوار مقام سيدي الدردير خلف قبة الغوري ونسبت للشيخ الدردير ، خطأ وربما كان يعيش فيها فعرفت باسمه. ويتم الدخول إليها من خلال مدخل منكسر بالجهة الغربية يؤدي إلي الدرقاعة التي تتوسط القاعة. وتتكون هذه القاعة من درقاعة وسطى يتعامد عليها إيوانان أحدهما شمالي والآخر جنوبي.

والدرقاعة مربعة الشكل يبلغ طول ضلعها ستة أمتار وتنخفض أرضها بمقدار 30 سم عن مستوى أرض الإيوانين، ويشرف عليها الإيوانين من الجهة الشمالية، ومن الجهة الجنوبية بفتحة معقودة بعقد مدبب بكامل اتساعها، أما الضلعان : الشرقي والغربي فيشغل كل ضلع دخلة معقودة بعقد مدبب، ويغطي الدرقاعة سقف خشبي يرتفع منسوبه عن منسوب سقف الإيوانين ، وهو عبارة عن شخشيخة تطل بكامل مسطح الدرقاعة، وقد شيدت القاعة من الحجر الجيري ما عدا الأقبية من الآجر ونصفي القبة بالإيوانين أيضاً، ويلاحظ أنها كانت مغطاة بثلاث طبقات من البياض ، وهذا يدل على ما جرى عليها من الترميم والتجديد. وقد رجعها حسن عبد الوهاب للعصر الفاطمي اعتمادا على وجود بعض الألواح الخشبية تشبه الألواح التي عثر عليها في بيمارستان قلاوون المقام على أنقاض القصر الغربي الصغير. وبرهن كريزول على أنها فاطمية بعناصر معمارية فاطمية كالعقد المنكسر الذي ظهر بالأزهر ومشهد يحي الشبيه سنة 545هـ وجامع الصالح طلائع سنة 555 هـ.

الحمامات:

حمام أبو السعود:

كشفت عنه حفائر دار الآثار العربية (حاليا متحف الفن الإسلامي) بمنطقة كوم الجارح إلي الشمال الشرقي من ضريح أبو السعود الجارحي. ويدل تخطيطه وبقايا جدرانه على أنه متأثر بتخطيط الحمامات الرومانية ؛ إذ يشتمل على حجرة فسيحة تمثل القاعة الباردة التي كانت مخصصة لخلع الملابس والاسترخاء، وعرفت بالمسلخ أو المخلع في حمامات القاهرة ،وإلي اليسار منها حجرة القاعة الدافئة التي تؤهل المستحم للدخول إلي الغرفة الساخنة، وبعد ذلك القاعة الساخنة أو قاعة الاستحمام وتضم في صدرها حوض الاستحمام ، ويعلوه ما يشبه

السلسبيل ، على شكل دخلة في الجدار تضم ثلاث حنايا معقودة، الوسطى منها أكثر اتساعا من الجانبين. وتدل جدران هذا الحمام على أنه كان مزوداً بفرن آخر يقع خلف الجدار الشمالي لحجرة الاستحمام.

وعثر في أنقاض هذا الحمام على بقايا تصاوير جصية نفذت بالفريسكو أهمها صورة تمثل شاب جالس يمسك بيده كأس ويرتدي ثوبا تزينه حليات زخرفية وعلى رأسه عمامة ويتدلى من رأسه خصلتان من الشعر، وصورة تمثل رأس شاب يلتفت لليسار، وصورة لسيدة تتدلى عصابة رأسها جهة اليمين، ورسم يمثل طائرين متقابلين .

حمام السكرية :

يقع في مواجهة مدخل جامع المؤيد شيخ بباب زويلة. وله مدخل صغير وفتحة منخفضة حتى تفصل من بالداخل عن الخارج وتوفر لهم الهدوء. وتمنع التيارات الهوائية. يفتح هذا المدخل على دهليز منحرف يهبط إلي المسلخ بست درجات يتوسطه دعامة خشبية تحمل السقف الخشبي الحديث ويفتح به ثلاثة مناور على شكل قباب خشبية صغيرة ذات رقاب مثمنة. وفي الضلع المواجه للداخل بابان : أحدهما يؤدي إلي سلم صاعد إلي سطح الحمام المستوقد، والثاني يؤدي إلي دهليز مغطى بقبو به فتحات للإضاءة. وبصدر الدهليز باب يؤدي إلي بيت أول، ويتكون من إيوان واحد مربع المساحة تغطيه قبة بها ثقوب للإضاءة. وبنهاية البيت الأول باب يؤدي إلي باب الحرارة، يتكون من مساحة مثمنة وسطى يتعامد عليها أربعة إيوانات. أما المنطقة الوسطى المثمنة فقد غطيت أرضها بالرخام الأبيض ويتوسطها فسقية مثمنة يعلوها قبة ضحلة تغطي المنطقة الوسطى المثمنة تتحول إلي الاستدارة أسفل القبة .

العمارة العسكرية :

ويقصد بها أسوار القاهرة وأبوابها حيث تعد القاهرة هي المدينة الإسلامية الوحيدة التي شيد لها ثلاثة أسوار خلال الفترات الزمنية المختلفة، السور الأول إقامة جوهر الصقلي في عهد الخليفة المعز لدين الله،، والسور الثاني شيده بدر الجمالي في عهد الخليفة المستنصر بالله، والسور الثالث بناه بهاء الدين قراقوش في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي.

استطاع جوهر الصقلي قائد جيوش الخليفة المعز لدين الله فتح مصر يوم 18 شعبان سنة 358هـ وتأسيس مدينة القاهرة وأحاطها بسور، ووجد جوهر في جدران السور والقصر (تعرجات) غير معتدلة فلم تعجبه . وهذا السور غير منتظم الأضلاع يبلغ طوله حوالي ألف ومائتي متر من الشمال إلي الجنوب، وألف ومائة متر من الشرق إلي الغرب تقريبا، وقد شيدت هذه الأسوار من الطوب اللبن وكان عرضها يبلغ قُرابة مترين يكفي لكي يمر فوقه فارسان جنبا إلي جنب على حد قول المقريزي الذي أبدى دهشته من حجم الطوب المستعمل في هذا

السور عندما شاهد بقايا هذا السور سنة 803 هـ من باب البرقية حتى درب بطوط وتبلغ مساحة الطوبة 60 سم في 40 سم، وربما كان السبب في بناء هذه الأسوار بهذا السمك هو تمكين الحامية المدافعة عن القاهرة من التجمع السريع عند أي نقطة معرضة لأن يتسورها العدو أو يهاجموها بطريقة أو بأخري .

وفتح جوهر في هذا السور ثماني بوابات ، بابان في كل ضلع، باب النصر وباب الفتوح بالضلع الشمالي، وباب البرقية وباب القراطين بالضلع الشرقي، وباب الفرج وباب السعادة بالضلع الغربي، وباب زويلة بالضلع الجنوبي. وقد اشتملت هذه الأسوار بداخلها على القصر والجامع والدواوين وخطط القبائل التي جاءت مع جوهر الصقلي .

وكان الغرض من بناء هذا السور واضح منذ البداية وهو تأسيس مدينة ملكية محصنة ضد هجمات العباسيين أو القرامطة ، إذا ما فكر أي منهما في الاستيلاء على القاهرة وطرد الفاطميين منها ؛ لذلك أحاط جوهر بسوره بالإضافة إلي ما سبق بيت المال ودار الضرب والمكتبة ومقابر الخليفة والمذبح ودار الأسلحة والإصطبلات وغيرها – وقام جوهر الصقلي سنة (360 هـ/971م) بحفر الخندق من الجهة الشمالية ليمنع اقتحام عساكر القرامطة مدينة القاهرة. وعندما هاجم القرامطة القاهرة في شهر ربيع الأول سنة (361 هـ/ ديسمبر 971م) فشلوا في عبور الخندق ودخول القاهرة، وهذا يبرهن على أن السور قد حقق الغرض الذي بنى من أجله. ويؤكد المقدسي أن القاهرة كانت محصنة تحصينا قويا بقوله: "أنها محصنة بأبواب محددة على جادة الشام ، ولا يمكن لأحد دخول الفسطاط إلا منها؛ لأنهما بين الجبل والنهر".غير أن ابن دقمان يذكر هدفا أخر أرستقراطيا قصده جوهر من بناء سوره يختلف عن هدف التحصين ؛ إذ يقول : إن جوهر بنى القصر لمولاه المعز حتى يكون هو وأعوانه وجيوشه في معزل عن عامة الشعب.

ولم تعمر أسوار جوهر الصقلي أكثر من ثمانين عاما ، ولم تعد هذه الأسوار صالحة لتحقيق الأغراض الدفاعية عن المدينة، لذلك قام الخليفة المستنصر بالله بإصدار تعليماته إلي وزيره بدر الجمالي بإنشاء سور آخر لمدينة القاهرة. فقام بدر الجمالي بتوسيع مساحة القاهرة بمقدار 150 مترا إلي شمال السور القديم وحوالي ثلاثين مترا إلي الشرق ومثلها إلي الجنوب. وشيد بدر الجمالي أسواره وبواباتها خلف أسوار وأبواب جوهر وموازية لها وبنفس أسمائها، كما بناها كلها من الحجر المنحوت المثبت في مداميك منتظمة ما بين عامي (480هـ و485 هـ). وكان من نتيجة هذه التوسعات في الناحية الشمالية أن أصبح جامع الخليفة الحاكم بأمر الله داخل القاهرة المعزية بعد أن كان خارج اسوار جوهر. وما زال ثلاثة من أبواب بدر الجمالي

الحجــرية قائمة حتى يومنا هذا ، وهي باب النصر وباب الفتوح شمالا وباب زويلة جنوبا، كما تخلف من أسوار بدر الجمالي الجزء الذي يصل بين بوابتي النصر والفتوح شمالا وجزء يمتد زُهاء خمسين مترا إلي الجنوب من بوابة النصر، وجزء آخر يمتد حوالي مائة متر إلي غرب بوابة الفتوح، وتصل هذه الأسوار تجميعا بالبوابات ممر فسيح يجري على سطح الطابق الثاني الذي أقيمت فيه فتحات لرمي السهام. وتتميز بوابات بدر الجمالي بضخامتها ، من حيث ارتفاعها الشاهق الذي يزيد عن عشرين مترا أو من حيث الكتل الحجرية التي استخدمت في بنائها .

وعاشت هذه الأسوار قُرابة خمسة وثمانية عاما فقط ، ثم بدأت تتصدع وحدث النزاع بين الوزيرين الفاطميين شاور وضرغام وهو الذي كان من نتيجته حرق الفسطاط. وحضر إلي مصر أسد الدين شيركوه ومعه صلاح الدين يوسف بن أيوب وأسفرت الأحداث عن تعين صلاح الدين وزيرا للخليفة العاضد الفاطمي، ورأى صلاح الدين أن يعيد تجديد المتصدع والمتهدم من أسوار بدر الجمالي وشرع في ذلك فعلا فيما بين عامي (565-567هـ) فجدد السور الشمالي، ثم السور الجنوبي وأحاط عواصم مصر الإسلامية وفيها القاهرة بسور واحد وأهم بواب بدر الجمالي الحجرة الباقية حتى اليوم هي:

1-باب النصر (480 هـ/1087م):

كان أول باب إقامة الأمير بدر الجمالي وزير الخليفــة المستنصر بالله الفــاطمي في سنــة 480 هــ. ويتكون هذا الباب من برجين أو بدنتين مربعتين ، وهما مستطيلتا القاعدة وبارزتان خارج البوابة وخارج الأسوار التي شيدها بدر الجمالي حول القاهرة. كما نقش على البرجين أو البدنتين في الحجر أشكال تمثل بعض آلات الحرب من سيوف وتروس تزودنا بفكرة عن أشكال الآلات الحربية وقتذاك .

ويتوسط البدنتين باب مرتفع شاهق به فتحة من أعلاه تسمى سقاطة كي تُصب منها المواد الحارقة والزيت المغلي على من يحاول اقتحام الباب من المهاجمين، ويعلوها شريط من الكتابات بالخط الكوفي يحيط بالبدنتين. وبالباب اسم المنشئ وتاريخ الإنشاء وفوقه إفريز آخر تعلوه فتحات المزاغل لرمي السهام.

2-باب الفتوح (480 هـ/1087 م) :

هذا الباب على نفس السور الذي شيد عليه باب النصر من أعمال الأمير بدر الجمالي وزير الخليفة المستنصر بالله الفاطمي في سنة 480هـ، ويقع باب الفتوح بجوار جامع الحاكم بأمر الله الفاطمي، ولقد بنى هذا الباب من برجين أو بدنتين مقوستين يحصران بينهما الباب المرتفع الشاهق، ويلفت الانتباه النقوش المنحوتة في الحجر من رؤوس كباش على الكوابيل المقامة أعلى المدخل، ويعد هذا هو النموذج الوحيد في

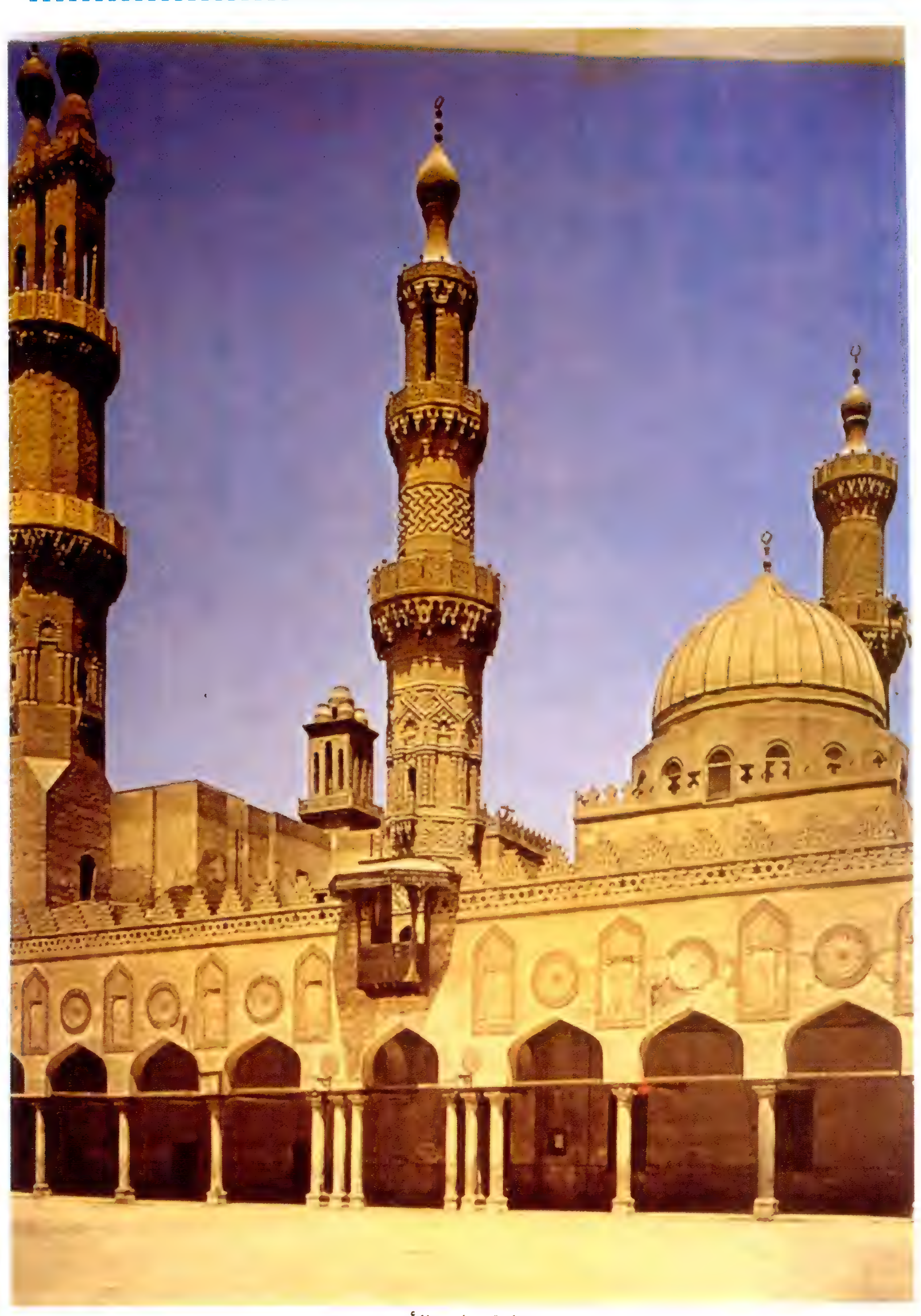
العمارة الإسلامية بمصر. وفي جانبي البرجين طاقتان كبيرتان تدور حول فتحتهما حلية مكونة من اسطوانات صغيرة ، وهو نوع من الزخارف راج فيما بعد في تزيين دوائر العقود.

3-باب زويلة (484 هـ/1091 م):

هو أحد أبواب ثلاثة فقط بقيت من أبواب القاهرة الفاطمية التي قام بتشييدها الوزير الفاطمي بدر الجمالي. وسمي باب زويلة بهذا الاسم نسبة إلي قبيلة زويلة من قبائل البربر التي جاءت مع جيش القائد الفاطمي جوهر الصقلي من المغرب.

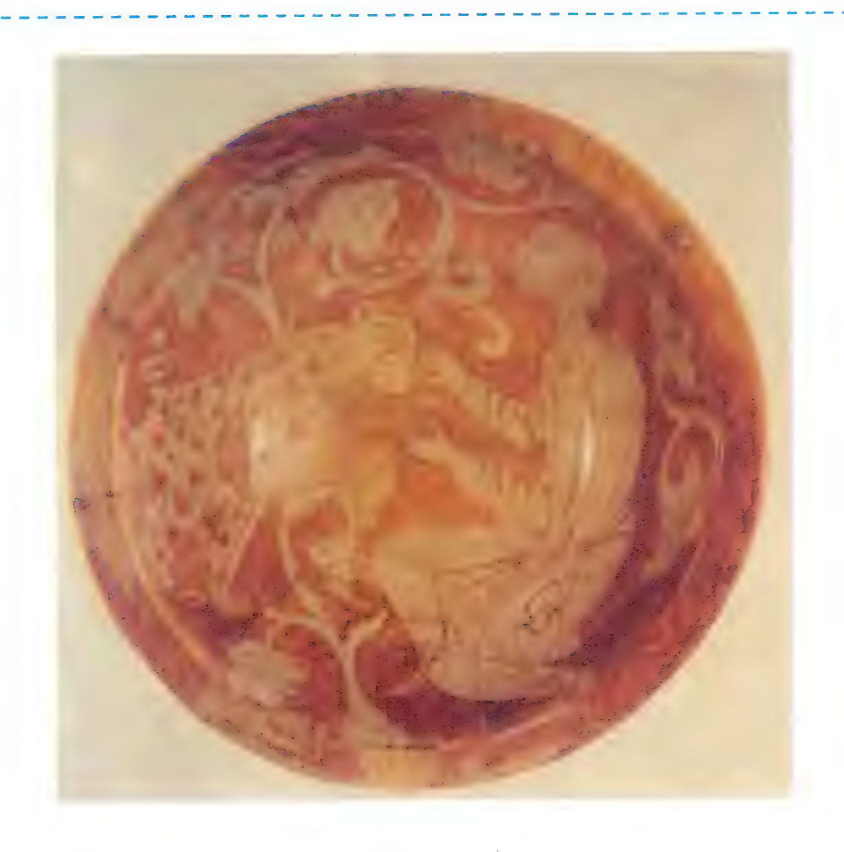
وباب زويلة يشبه إلي حد كبير باب الفتوح يتكون من بوابة عظيمة معقودة على جانبيها برجان عظيمان مقوسان عند القاعدة وأكثر استدارة من برجي باب الفتوح، ويشغل باب زويلة مساحة مربعة تقريبا طول كل ضلع من أضلاعها حوالي 25 مترا، يشتمل على ممر مسقوف كله بقبة ترتكز على أربعة مثلثات كروية، وتوجد حجرة أعلى البرجين تشرف على مدخل البوابة، كما يلاحظ وجود ثلاث فتحات مزاغل بأعلى واجهتي البرجين، ويعلو البرجين حاليا مئذنتا جامع السلطان المؤيد شيخ المحمودي الملاصق لباب زويلة.

أ . د.رأفت محمد محمد النبراوي
(جامعة القاهرة)



مئذنة جامع الأزهر

المصدر : الفن العربى الإسلامى جـ 2 , صـ 216



طبق من الخزف ذى البريق المعدنى الفاطمى عليه رسم الحمال وكلبه



طبق من الخزف ذى البريق المعدنى الفاطمى عليه توقيع مسلم بن البرهان



قدر من الخزف المرسوم بالوان متعددة تحت الطلاء والمسمى بخزف الفيوم عليه عبارة دعائية نصها : "بركه كاملة "



قدر من البلور الصخرى الفاطمى عليه رسم اسدين متقابلين و كتابة باسم الخليفة العزيز بالله



لوح خشب فاطمى عثر عليه فى بيمارستان قلاوون عليه مناظر مختلفة من الحياة الاجتماعية بمصر



محراب خشبى فاطمى صنعه الخليفة الآمر باحكام الله للجامع الأزهر سنة ٥١٩هـ كما هو موضح عليه



داخل مدرسة السلطان الغورى – المصدرالفن العربى الإسلامى جـ 1 ص54

المصادر والمراجع

أ . المصادر العربية :

- **ابن دقماق** (إبراهيم بن محمد المصري، ت 809 هـ/1407 م)
الانتصار لواسطة عقد الأمصار، القاهرة 1314 هـ/1896 م.
- **علوي** (ناصر خسرور، ت 443هـ/1061م)
سفرنامة ، ترجمة د. يحيى الخشاب، القاهرة 1945 م
- **القلقشندي** (شهاب الدين أحمد، ت 821 هـ/1418 م)
صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة 1914-1928.
- **المقدسي** (شمس الدين أبو عبد الله محمد، ت 387 هـ).
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1411 هـ/1991 م.
- **المقريزي** (تقي الدين أحمد بن علي، ت 845 هـ/1442 م)
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، طبعة بولاق، 1270هـ/ 1853 م.

ب-المراجع العربية :

- **أحمد فكري**:مساجد القاهرة ومدارسها، الجزء الأول، الإسكندرية،1961.
- **أحمد عبد الرازق أحمد**: الفنون الإسلامية حتى نهاية العصر الفاطمي، كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة، 2001 م
- **أحمد عبد الرازق أحمد**: العمارة الإسلامية في العصرين العباسي والفاطمي، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، 2002 م.
- **آمال العمري**: ود/علي الطايش: العمارة في مصر الإسلامية في العصرين الفاطمي والأيوبي. مكتبة الصفا والمروة، القاهرة، 1996م.
- **ول كازانوفا**: تاريخ ووصف قلعة القاهرة: ترجمة د. أحمد دراج، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1974 م.
- **حسن الباشا**: الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، الجزء الأول، دار النهضة العربية، القاهرة، 1965 م.
- **حسن الباشا**: التصوير (بحث في كتاب القاهرة: تاريخها فنوها آثارها لحسن الباشا وآخرين، مؤسسة الأهرام، القاهرة، 1970 م).
- **حسن الباشا**: مدخل إلي الآثار الإسلامية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1990 م.
- **حسن عبد الوهاب**: تاريخ المساجد الأثرية، جزءان – القاهرة ، 1946 م.
- **حسني محمد نويصر** : الآثار الإسلامية ، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 1998 م.

– **حسين عليوة:** الخط (بحث في كتاب القاهرة. تاريخها فنونها آثارها لحسن الباشا وآخرين).

– **حسين عليوه** : المعادن (بحث في كتاب القاهرة. تاريخها فنونها آثارها لحسن الباشا وآخرين).

– **رأفت محمد النبراوي وآخرون:** الصنج الزجاجية للسكة الفاطمية المحفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، القاهرة، 1997م.

– **رأفت محمد النبراوي** : الخط العربي على النقود الإسلامية (بحث في مجلة كلية الآثار– جامعة القاهرة، العدد الثامن، 1997 م).

– **زكي محمد حسن** : كنوز الفاطميين ، القاهرة، 1937 م.

– **زكي محمد حسن:** فنون الإسلام ، دار الفكر العربي، القاهرة، 1948 م.

– **زكي محمد حسن** : أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية، القاهرة، 1956 م.

– **سعاد ماهر محمد:** مساجد مصر وأولياؤها الصالحون الجزء الأول، القاهرة، 1971 م.

– **شحاته عيسى إبراهيم** : القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، بدون تاريخ.

– **صالح بن قرية:** المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامي إلي سقوط دولة بني حماد، الجزائر، 1986 م.

– **عبد الرحمن زكي:** قلعة صلاح الدين وما حولها من الآثار، القاهرة، 1971م.

– **عبد الرحمن فهمي محمد** : النسيج، (بحث في كتاب القاهرة: تاريخها فنونه آثارها لحسن الباشا وآخرين).

– **عبد الرحمن فهمي محمد:** مسجد الصالح طلائع (بحث في كتاب القاهرة: تاريخها فنونها آثارها لحسن الباشا وآخرين).

– **عبد الرحمن فهمي محمد** : أسوار القاهرة وأبوابها (بحث في كتاب القاهرة: تاريخها فنونه آثارها لحسن الباشا وآخرين).

– **عبد الرؤوف علي يوسف** : النحت (بحث في كتاب القاهرة: تاريخها فنونه آثارها لحسن الباشا وآخرين).

– **عبد الرؤوف علي يوسف** : الخزف (بحث في كتاب القاهرة: تاريخها فنونه آثارها لحسن الباشا واخرين).

– **عبد الرؤوف علي يوسف** : الفخار (بحث في كتاب القاهرة: تاريخها فنونه آثارها لحسن الباشا وآخرين).

– **عبد الرؤوف علي يوسف** : الزجاج (بحث في كتاب القاهرة: تاريخها فنونه آثارها لحسن الباشا وآخرين).

– **عبد الرؤوف علي يوسف** : البلور الصخري (بحث في كتاب القاهرة: تاريخها فنونه آثارها لحسن الباشا وآخرين).

- **عبد الرؤوف علي يوسف:** الخشب والعاج (بحث في كتاب القاهرة: تاريخها فنونه آثارها لحسن الباشا وآخرين).
- **عبد الله كامل موسى:** الفاطميون وآثارهم المعمارية في إفريقية ومصر واليمن، الطبعة الأولى، دار الآفاق العربية، القاهرة، 1421 هـ/2001 م.
- **عبد الناصر ياسين:** الفنون الزخرفية الإسلامية في مصر منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية العصر الفاطمي، الطبعة الأولى، الجزء الأول، الإسكندرية، 2002 هـ.
- **مايسة داورد:** الكتابات العربية على الآثار الإسلامية منذ القرن الأول الهجري حتى أواخر القرن الثاني عشر للهجرة، الطبعة الأولى ، القاهرة، 1991م.
- **محمد سيف النصر أبو الفتوح** : منشآت الرعاية الاجتماعية بالقاهرة حتى نهاية عصر المماليك، مخطوط رسالة دكتوراه مقدم لكلية الآداب بسوهاج- جامعة أسيوط، 1980 م.
- **محمود أحمد** : دليل موجز الآثار العربية بالقاهرة، القاهرة، 1938 م.
- **مصطفى عبد الله شيحة:** مدخل إلي العمارة الإسلامية، القاهرة، بدون تاريخ .
- **فريد شافعي** : العمارة العربية في مصر الإسلامية، المجلد الأول، القاهرة، 1970 م.
- **وليم قازان:** المسكوكات الإسلامية، بيروت، 1404هـ/ 1983م.

خامساً: قرطبة

المقدمة:

يهتم موضوع هذه الدراسة بإبراز الدور الحضاري والثقافي لمدينتي قرطبة وغرناطة بوصفهما من أعظم مدن الأندلس قاطبة، وقد شهدت مدنهما أحداثاً تاريخية عظيمة، بل شكلت حضارتهما نموذجاً فريداً أمام باقي مدن العالم الإسلامي، فمن حضارة قرطبة الإسلامية نهلت معارف الغرب، وكان مسجدها الجامع بمثابة الجامعة العلمية الأم التي أسهمت في بزوغ شعاع المعرفة في أوروبا، وكان لعلمائها ومؤلفاتهم الريادة والسبق في بناء الثقافة الأوربية الحديثة، ولم تكن غرناطة أيضا ببعيدة عن تلك المكاسب الحضارية التي حققتها قرطبة بعدّها آخر المدن الأندلسية التي ظلت تصارع من أجل البقاء حتى القرن (9هـ/15م)، حيث أدت دوراً حضارياً بارزاً في تاريخ الأندلس الإسلامية بوجه خاص، وأوربا بوجه عام ، حيث ظلت فنونها المعمارية والزخرفية نبراساً تهتدي به مدارس الفن في أوروبا، وليس أدل على ذلك إلا ما خلفته حضارتها من آثار معمارية وزخرفية تسابق في حفظها وصيانتها ملوك أسبانيا، فشرعوا القوانين التي تصونها من العبث والدمار، وذلك اقتناعاً منهم بأن الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس هي آخر حلقات الأوج والازدهار التي عرفتها أسبانيا، وعلى هذا سوف يكشف موضوع هذا البحث عن مكانه تلك المدينتين من الناحية الحضارية، وما تضمه من آثار وتحف فنية شكلت في مجموعها مدرسة فنية عربية إسلامية فريدة.

مدينة قرطبة:

عاشت قرطبة ما يقرب من ثلاثة قرون قاعدة الدولة الإسلامية بالأندلس ومركز الفتوح والغزوات التي تنطلق منها إلى جميع الجهات بقصد الجهاد والذود عن دولة الإسلام في الأندلس ، وإلى جانب ذلك كانت قرطبة تمثل مركزاً آخر للحركة الثقافية الإسلامية ليس في الأندلس فحسب ، بل في كل أوروبا ، وقد ظلت قرطبة تحتفظ بمكانتها الرفيعة حتى بعد سقوط الخلافة الأموية ، فقد احتفظت بمركزها الحضاري والثقافي والديني في ظل حكم الطوائف ثم المرابطين والموحدين إلى أن سقطت في أيدي الأسبان في سنة (633هـ/1236م). نتيجة هزيمة الموحدين في معركة العقاب وانكسار دولة الإسلام في الأندلس وقد أكد على ذلك الكثير من المؤرخين والرحالة حيث وصفها الرحالة الإصطخري بقوله في كتابه المسالك والممالك : "إن قرطبة من أعظم مدن الأندلس وقد جعلها في وسط الأندلس ، يتفرع منها الطرق إلى سائر جهاته".

أما ابن حوقل فذكرها بأنها "أعم مدن الأندلس ، وليس بجميع مدن المغرب لها شبيه ولا بالجزيرة والشام ومصر يدانيها في كثرة الأهل وسعة رقعة وفسحة أسواق ونظافة محال وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق".

أما المؤرخ والجغرافي محمد بن أبي بكر الزهري فيصف قرطبة بقوله : "...هي مدينة عظيمة تقع على ضفة النهر المسمى بالوادي الكبير وليس في بلاد الأندلس نهر يسمى باسم عربي إلا هذا ...وهي مروج يانعة وغدران ماء لامعة والجبل الذي عليها يُدْعَىُ بتاج العروس ، ومن عجائب قرطبة الجامع الذي ليس في الإسلام مثله ،كذلك وصفها الحميري فقال : "بإنها قاعدة الأندلس وأهم مدائنها ومستقر خلافة الأمويين بها ، وآثارهم بها ظاهرة، وفضائل قرطبة ومناقب خلفائها أشهر من أن تذكر ، وهم أعلام البلاد وأعيان الناس ، اشتهروا بصحة المذاهب وطيب المكسب وحسن الزي وعلو الهمة وجميل الأخلاق ، وكان فيها أعلام العلماء وسادات الفضلاء وتجارها مياسر وأحوالهم واسعة ، وهي في ذاتها مدن خمس يتلو بعضها بعضا وبين المدينة والمدينة سور حاجز ، وفي كل مدينة ما يكفيها من الأسواق والفنادق والحمامات وسائر الصناعات.ومدينة قرطبة تقع على ساحل متسع على الضفة الشمالية من النهر الكبير يشرف عليها من الجانب الشرقي جبل العروس وهي تتوسط جميع مدن الأندلس ، وكانت طرق التجارة تصب إليها وتخرج منها إلى جميع الجهات.وقرطبة مدينة أندلسية قديمة يرجع تاريخها إلى العصر الروماني وهي عاصمة الولاية الأندلسية المسماة بهذا الاسم ، وتمتاز تربتها بالخصوبة حيث تزرع الحبوب والكروم وغابات الزيتون وحدائق البرتقال والليمون ، كما توجد المراعي بين سفوح المنحدرات في الجبال المعروفة "بجبال الشارت" .

ويبدأ تاريخ عمران قرطبة في العصر الإسلامي مع بداية السمح بن مالك الجولاني في عام (**100**هـ/ **719**م)، الذي قام نيابة عن الخليفة عمر بن عبد العزيز في تجديد أسوار المدينة وإعادة بناء قنطرة قرطبة ، وقد اتسعت رقعة مدينة قرطبة في زمن ولايته لتشمل أطراف أحواز أشبيلية من الغرب ومدينة جسبان من الشرق.

وكانت قرطبة تشتمل على خمس مدن رئيسة كل مدينة كان عليها سور كبير شيد بالحجر ، وكان لكل مدينة أسواقها الخاصة ومساجدها وحماماتها وكانت مدينة قرطبة الرئيسة أو الوسطى تضم المسجد الجامع والقنطرة وكانت محاطة بأربعة مدن تابعة لها ممتدة منها، ومن حولها : فإلى الجنوب منها تقع مدينة شقندرة وإلى الشرق كانت تقع مدينة الزاهرة وإلى الشمال كانت تقع مدينة الرصافة وإلى الغرب كانت تقع مدينة الزهراء.

تخطيط مدينة قرطبة :

كان تخطيط مدينة قرطبة على شكل مستطيل يمتد من الجانب الجنوبي والشمالي زهاء الكيلو متر تقريبا بمحاذاة النهر ، أما الجانبان الشرقي والغربي فكان امتدادهما زهاء الكيلو متر ونصف تقريبا. وكانت المدينة محاطة بأسوار ضخمة مشيدة من حجر ، وكانت لها سبعة أبواب رئيسة وزعت على النحو التالي: في منتصف الضلع الشمالي للمدينة يوجد باب

القنطرة يقابله في الضلع الجنوبي باب الهدى، وكان يربط بين البابين طريق سالك يعرف باسم "المحجة الكبرى" ، كما كانت تضم أسوار المدينة خمسة أبواب أخرى اثنتان في الجانب الشرقي، أولها يعرف باسم باب ابن عبد الجبار والثاني معروف بالباب الجديد. أما الجانب الغربي فكان يضم ثلاثة أبواب الأول منها إلى النهر كان يعرف بباب أشبيلية أو باب العطارين ، وكان الباب الثاني يعرف بباب عامر القرشي ، والباب الثالث كان يتوسط البابين السابقين ويعرف بباب الجوز أو بطليوس.

قد ظلت مدينة قرطبة في بداية الدولة الإسلامية على هذا النحو من حيث التخطيط إلى أن قامت فيها الخلافة الأموية الأندلسية فشهدت تطوراً جديداً يتفق وعظمة دار الخلافة وذلك جعلها مقصد الناس فزاد عمرانها ورقعتها وتدفق عليها الناس من كل صوب وأصبحت للمدينة لأول مرة عمران يمتد خارج أسوارها القديمة فتكونت بذلك المدينة الثانية ، وكان يمتد بين المدينتين سوق مشتركة تعرف بسوق "شيلار" كانت تقع على جانب الطريق الواصل بين قرطبة ومدينة الزاهرة، وما زالت مدينة قرطبة محتفظة بهذا الاسم العربي إلي الآن فتعرف المنطقة الممتدة خارج سورها الشرقي باسم الشرقية ، وكانت تضم نحو ست أرباض أو أحياء ، أولها يعرف بربض شبدر وربض قرن بريل وربض البرج وربض منية عبد الله وربض قتيبة المغيرة وربض الزهرة ثم اتسعت المدينة من جانب الشمال نتيجة بناء الأمير عبد الرحمن مدينة الرصافة، وكان بها ثلاثة أرباض : ربض باب الهدى وربض مسجد أم سلمى وربض الرصافة ، كما اتسعت المدينة تجاه الغرب نتيجة بناء الخليفة عبد الراضي الناصر مدينة الزهراء في عام(335هـ/936م)، وقد اتصلت المباني والعمران بين المدينتين ، وكان هذا الجانب من عمران قرطبة يضم قرابة تسعة أرباض هي : ربض الرقاقين وربض مسجد الشفا، وربض مسجد سرور وربض بلاط مغيث وربض حمام الأنبري وربض الجن القديم وربض الروضة وربض مسجد الكهف وربض حوانيت الريحاني.

وكانت تمتاز قرطبة بحصانة أسوارها التي شيدت من الحجر الجيري الذي كان يقطع من الجبل الأسود الذي كان يقع في شمال المدينة ، وكانت تلك الحجارة خفيفة سريعة التآكل أمام العوامل الجوية وذلك تطلب ترميمها على مر العصور، وكان يدعم أسوار المدينة أبراج عالية مصمتة، وقد أشارت المصادر التاريخية إلي أن أول من قام بأعمال الترميم في أسوار قرطبة في العصر الإسلامي هو السمح بن مالك الخولاني في عام (100هـ/ 716م)، ثم قام بتجديد أسوارها الأمير عبد الرحمن الداخل في عام (149هـ/776م)، ثم تعاقبت أعمال الترميم على أسوار المدينة في عصر المنصور بن أبي عامر ثم في عصر المرابطين والموحدين وبعد سقوط قرطبة تداعى معظم أسوار المدينة نتيجة إهمال أعمال الترميم،كذلك كان من أهم مظاهر تحصين المدينة

الخفير الذي كان يعدّ خط الدفاع الأول عن المدينة وكان يقدر امتداد الخندق على حسب وصف البكري بثلاثين ألف ذراع ، أي ما يعادل 22كم، وكانت مدينة قرطبة تحتوي على واحد وعشرين ربضاً عامراً بالسكان والأبنية والأسواق والمساجد والحمامات، وكان من أهم معالم المدينة الداخلية الشارع الأعظم المعروف بالمحجة الكبرى أو بالسكة الكبرى،كان يعد الطريق الرئيس الذي يمر في وسط المدينة ، ويتصل من الجانب الشمالي بباب الهدى ، ومن الجانب الجنوبي بباب القنطرة،وكان يقطع امتداد الطريق الرئيس من المنتصف طريق آخر يمتد من الشرق إلي الغرب حيث يتصل من الجانب الغربي بباب عامر ، ومن الجانب الشرقي بباب عبد الجبار ، وكان يتفرع من حول الطريقين الأرباض والأحياء والتي كانت غالبا ما تسمى باسم المسجد أو السوق الواقع بها. وكان من أهم وأشهر حوارى قرطبة وأزقتها الزقاق الكبير وزقاق الشبلارى ودرب أبي الأصحاب ، ومن أسماء الأحياء حي الخندق والقرفة والزقاقين والنشارين ، كما كان لقرطبة دور مشهورة بوظائفها مثل دار الصدقة التي أنشأها الخليفة المستنصر بالله في الجانب الغربي من المسجد الجامع ودار الطراز والخلع التي أنشأها الأمير عبد الرحمن الأوسط وكانت تقع غربي قصر الخلافة في مقدمة السوق ، ودار السكة والنقود والتي أنشأها أيضا الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وكان موقعها بالقرب من باب العطارين، ومن الجانب الغربي دار الصياغة ، وكانت تقع في الركن الشمالي الغربي من قصر الخلافة وكانت تحتوى على دار للرهائن ويتزل بها المستعربون من أهل طليطلة مثيري الفتن ، ودار المحبس التي كانت تقع على مقربة من قصر الخلافة ، وكانت تعرف باسم الدويرة.

قصر الخلافة:

كان قصر الخلافة في قرطبة يقع في الركن الجنوبي الغربي من المدينة على مقربة من سورها ، وكان يشرف على سهل الوادي الكبير، وكان موقع القصر قبل بنائه يشغله دار رومانية اتخذها الولاة عند فتح قرطبة مقرا لدار الإمارة .وكان موقع القصر محاطا بسور ضخم يحيط به من الخارج البساتين والرياض ، أما الأجزاء التي كان بها مباني داخل الأسوار – والتي كانت تشتمل على القاعات والمجالس والمناظر ووحدات السكن الخاص بإقامة الحاشية وغيرها – فقد يبلغ اتساعها ومساحتها زهاء عشرة أفدنة وكانت عموم مباني قصر الخلافة في قرطبة تتكون من قسمين : أولهما يقع في الجهة الشرقية وهو يضم مجالس الديوان ، وثانيهما يقع في الجهة الغربية وكان يضم قصر إقامة الخليفة والحرم الخاص به ، ثم مجموعة الحدائق والبساتين من حوله وقد أفادت المصادر التاريخية في التعرف على أسماء بعض القصور أو القاعات التي كانت تقع داخل قصر الخلافة منها قصر الزاهي والمبارك والسرور والرشيق والكامل ...الخ

وكان الأمير عبد الرحمن الداخل هو أول من قام بأعمال ترميم وتجديد لمباني القصر القديمة أما عبد الرحمن الأوسط فقد شيد لنفسه قصرا خاص لسكناه وبنى بجواره مجالس خاصة للاستقبال والحفلات أما الخليفة الناصر فهو يعد بحق المؤسس الحقيقي لقصر الخلافة في قرطبة وقد أكد على ذلك المقري بقوله:- أنه لم يبقى فيه "أبنية الأوله فيها اثر محدث أما بتجديد أو بتزويد"واصبح قصر قرطبة معروفا بالقصر الكبير وظل منذ فتح قرطبة مركز للحكم وكان يضم بداخله مقبرة تعرف بالروضة دفن فيها أمراء وخلفاء بني أمية بالأندلس.وكان للقصر أبواب منها باب السدة كان يقع أما رصيف النهر الكبير في الجهة القبلية وباب العدل في الجهة الشرقية والذي فتحه الأمير عبد الله بن محمد أمام المحجة العظمى وفي مواجهة المسجد وكان يتميز هذا الباب بوجود ستائر من حديد كتب عليه "يدخل منها الرعية أما للسلام على الخليفة أو تقديم شكواهم" أما الجانب الشمالي من أسوار القصر فكانت تحتوي على بابين أولهما يعرف بباب الصناعة لكونه كان يؤدي إلى دار الصناعة بقرطبة والثاني كان يعرف بباب قورية كذلك كان لقصر قرطبة أبواب منها باب الجامع وباب الحديد وباب الجنان وباب الوادي .وكان بقصر قرطبة حمام فخم ضخم المساحة كشفت عنه أعمال التنقيب الأثري وكان يحتوي على عدة قاعات وفوارة وكانت قاعته مغطاة بقباب ومازالت أطلال قصر الخلافة قائمة إلى اليوم.

موارد المياه والسقاية بمدينة قرطبة:

توافرت المياه في قرطبة وأرضها من مصدرين رئيسيين المصدر الأول من نهر الوادي الكبير والمصدر الثاني من المياه الجوفية وكان لأهل قرطبة نظام هندسي خاص لاستخراج المياه عن طريق آلات رفع تعرف باسم النواعير ، وهي أشبه ما تكون بنظام السواقي الحالية ، وكانت هذه النواعير تشاهد بأعداد كبيرة على امتداد ضفتي نهر الوادي الكبير في قرطبة كذلك عرفت مدينة قرطبة نظاماً متطوراً في حركة توزيع المياه على الأرباض من خلال شبكة من القنوات الجوفية تمتد تحت الأرض إلى أن تتصل بسقايات منتشرة في الأرض والأحياء ، وكانت تلك القنوات تبنى بالآجر وتمتاز باتساعها وكانت المياه تنقل من السقايات إلى المنازل عن طريق السقائين الذين كان لهم أماكن خاصة على نهر الوادى ، وكانوا يخضعون لمراقبة المحتسب، كما كان هناك نظام آخر لنقل المياه إلى المساجد ، فقد ذكر المقرى "أن المياه كانت تنقل إلى جامع قرطبة وقصور الخلافة من جبال قرطبة على مسافات بعيدة عن طريق قنوات من الرصاص وتضم قرطبة نحو ستة عشر سقاية للماء".

متنـــزهات المدينة:

كان لمدينة قرطبة عدة متنـــزهات مشهورة، منها قصر السرادق في شمال قرطبة ومتنـــزه السد ومتنـــزه قصر الرصافة ومتنـــزه النواعير، كما كان بقرطبة عدد من المنى منها منية نصر بناها أبو الفتوح نصر ومنية عبد الرحمن

الأوسط، ومنية عبد الله أنشأها الأمير عبد الله بن محمد على شاطئ الوادي الكبير ، وكانت تحيط بها الحدائق والبساتين ، وقد أصبحت هذه المتنـــزهات في القرن الخامس الهجري متنـــزهات للعامة.

أهم المعالم الأثرية في مدينة قرطبة

أولاً الرصيف:

كان يمتد على الجانب الأيمن من النهر في محاذاة السور الجنوبي للمدينة طريق مرصوف بالحجارة يعرف باسم الرصيف ، يبدأ من الطرف الشرقي قرب باب شيلار ، وينتهي عند المصلى في الطرف الغربي بالقرب من باب أشبيلية ، وكان هذا الرصيف يحد الأسوار الواقعة في الجانب القبلي من قصر الخلافة ، وكان منظر عبور السفن في نهر الوادي الكبير – متجهاً نحو مدينة أشبيلية أو قاده منها – منظراً جميلاً يجيء الخاصة والعامة لرؤيته ، وكان للأمير عبد الرحمن الأوسط شرفة في قصره تشرف على الرصيف بغرض رؤية السفن وهي تعبر النهر ، وكان هذا الرصيف يضم مصلى كبيراً يعرف بمصلى المضاءة يستخدم في صلاة العيد وصلا ة الاستسقاء ، نظرا لاستواء أرضه ، وقد شيد فيها الأمير عبد الرحمن الناصر محرابا جديدا وظل رصيف النهر الكبير في قرطبة من أهم معالم المدينة.

ثانياً القنطرة:

تعد قنطرة المدينة من أهم معالم قرطبة التاريخية والأثرية ، وهى تمتد فوق مجرى نهر الوادى الكبير لتصل بين مدينة قرطبة ومدينة شقندة ، وقد شيدت تلك القنطرة في عهد الإمبراطور الروماني أغسطس في القرن الأول الميلادي وكانت عمارتها غالبا ما تتعرض لمخاطر نتيجة فيضان نهر الوادي الكبير فأدى ذلك إلى تداعيها أو هدم جزء منها وكانت قنطرة قرطبة عند الفتح الإسلامي للأندلس قد انتهت تماما ولم يبق من عمارتها إلا بعض قواعدها في الماء فقام والى قرطبة السمح بن مالك الخولانى في (101هـ/720م)، بإعادة بنائها وشيدها على أقواس وجعل أرجل عقودها على قواعد بنيت بأحجار نقلت من سور قرطبة الذي كان قد تداعى .

وقد حرص أمراء وخلفاء قرطبة على ترميم القنطرة وصيانتـها حيـث أمر الأمير هشام بن عبـد الرحمـن بترميمها في عام (161هـ/778م)، وأنفق عليها أموالا عظيمة وباشر بناءها بنفسه،وفي عام(330 هـ/942م)، قام الخليفة عبد الرحمن الناصر بإصلاحها وفي عام (360هـ/ 973م)، أمر الخليفة الحكم المستنصر بإعادة إصلاح القنطرة وبتدعيم أرجل عقودها، ومازالت القنطرة قائمة إلى اليوم ، ويبلغ امتدادها على النهر 223م وعرضها 8م وارتفاعها من منسوب قواعدها إلى أعلاها 15م وتحتوى على سبع عشرة قوسا شيدت من حجارة ضخمة وقد أمدنا المقرى بوصف شامل لقنطرة قرطبة مع اسـم المهندس أو العريـف الـذي قـام ببنائهـا فقال : إن قنطرة قرطبة إحـدى

عجائب الدنيا بنيت زمن عمر بن عبد العزيز على يد عبد الرحمن بن عبيد الله الغافقي ، طولها ثمانمائة ذراع وعرضها عشرون ذراع ، وعدد حناياها ثماني عشرة ، وعدد أبراجها تسعة عشرة برجاً.

ثالثاً: مدينة الزهراء :

كان عصر عبد الرحمن الناصر (300-350هـ/ 912-961م) عصر عظمة ورخاء ومجد بالرغم مما شهده من فتن وحروب مستمرة، ويعد في الواقع من أعظم عصور المسلمين في الأندلس، لاسيما من نواحيه الحضارية والمعمارية والفنية، وبلغت الدولة الأموية بالأندلس في عهده ذروة القوة والبهاء. ولم تحل مهام الحرب والسياسة دون قيام الناصر بأعمال الإنشاء العظيمة، وكان في مقدمتها إنشاء مدينة الزهراء. وكانت قرطبة عاصمة الأندلس قد بلغت آنذاك أوج العظمة والاتساع، وكانت بمعاهدها ودورها وأسواقها وعمائرها تضيق بما يتطلبه ملك كالناصر "كلف بعمارة الأرض وإقامة معالمها". فلما بلغ الناصر لدين الله ما أراد من توطيد ملكه، وسحق أعدائه في الداخل والخارج؛ رأى أن يقيم قرب قرطبة ضاحية ملوكية فأنشأ مدينة الزهراء.

وكانت بواعث الملك والسياسة ورغبة عبد الرحمن الناصر في "تخليد الآثار الدالة على قوة ملكه وعز سلطانه وعلو همته" دافعاً أساسياً لبنائه للزهراء. ويقال : إن الذي أوحى إلى الناصر ببنائها جاريته ومحظيته "الزهراء" ؛ إذ إنه ورث من إحدى جواريه مالاً كثيراً فأمر أن يخصص لافتداء الأسرى المسلمين، ولكنه لم يجد من الأسرى من يفتدى، فأوحت إليه الزهراء بأن ينشئ بهذا المال مدينة تسمى باسمها وتخصص لسكناها، ولا تعدو هذه القصة عن كونها رواية خيالية تناقلها المؤرخون، إذ من المعروف أن عبد الرحمن الناصر قد رصد لبناء هذه المدينة ثلث جبايته، أما اسم الزهراء فقد يكون صفة للمدينة تفاؤلاً بازدهارها أو لكثرة أزهار بساتينها المحيطة بها، ولعله تحريف من اسم كوكب الزهرة، وكان الناصر قد نصب على باب المدينة الشرقي تمثالاً لامرأة ، لعله كان يمثل فينوس اليونانية، وأنه كان من بين التماثيل الكثيرة التي شاهدها المسلمون في أطلال المدن الرومانية بالأندلس مثل ملقة وإشبيلية، وأعادوا استخدامها لغرض زخرفي.

وشرع عبد الرحمن الناصر في بناء المدينة في أول المحرم سنة (325هـ - 936م)، وظل العمل جارياً بها حتى وفاته سنة (350هـ -961م)، وأوكل أمر الإشراف على بنائها إلى ابنه وولي عهده الحكم المستنصر الذي أتم بناءها بعد توليه الخلافة واختار لها الناصر موقعاً على السفح الجنوبي المتدرج لجبل العروس (Sierra Morena) على بعد خمسة أميال غربي قرطبة، كما ذكر المؤرخون، وهي مسافة تعادل ثمانية كيلو مترات حالياً، ولم تشيد المدينة على نهر الوادي الكبير مباشرة، إذ تقع على بعد كيلو مترين شمالي النهر. وأنفق الناصر في بنائها مبالغ ضخمة ، فقد وصلنا عن ابن غالب الغرناطي

نقلاً عن بعض ممن أشرفوا على النواحي المالية في بنائها أن "النفقة فيها كل عام ثلاثمائة ألف دينار عيوناً ذهباً ، وأنه حصر جميع الإنفاق في مدة بنائها فكان مبلغه خمسة عشر بيت مال". وعن عدد العاملين في بنائها يذكر ابن غالب نقلاً عن مسلمة بن عبد الله "المهندس الناظر في بنائها" أن "عدة حذاق البُناة بها في كل يوم ثلاثمائة بنّاء، وعدة حذاق النجارين مائتا نجار، وعدة الأجراء في كل يوم خمسمائة أجير تتمة ألف عامل ، حاشا من كان يخرج فيها من أعلاج النصارى عبيده". وقد جلب الناصر الأحجار والرخام لعمارتها من أماكن شتى داخل الأندلس وخارجها، "وكان يضرب فيها من الصخر المنجور [الأحجار المنتظمة الشكل] العريض الضخم كل يوم ستة آلاف صخرة، سوى صخر التبليط والتأسيس. وجلب إليها الرخام من تونس وقرطاجة الأفريقية، وجلب إليها سوارى [أعمدة] الرخام أربعة آلاف وثلاثمائة سارية وأربعاً وعشرين سارية، وجلب إليها من بلاد الروم على يد ربيع الأسقف حوضاً منقوشا بالذهب، ينقل هويناً من مكان إلى مكان، حتى وصل إلى البحر، ورفع منه إلى بلده: فكان عبرة لمتأمله، وجلب إليه أحمد بن حزم حوضاً ثانياً منقوشاً، فيه تماثيل لا قيمة له [لا يقدر بمال]، احتيل في اجتلابه من بلاد الشام، فوضعه في بيت المنام من المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس". وقد أفاض مؤرخو العصور الوسطى في وصف قصور الزهراء ومجالسها، ومنها مجلس كان يسمى مجلس القلبق أو القيلق استغرق بناؤه خمساً وعشرين سنة "وكان سمكه من الذهب والزجاج الغليظ الصافي وحيطانه مثل ذلك، وكانت له قراميد من الذهب والفضة. وفي وسطه صهريج من الزئبق. وفي كل جانب من المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على أقواس من العاج والأبنوس على سوار من الزجاج الملون". وعملاً على ترغيب العامة في سكناها أمر الناصر "مناديه ينادى: ألا من أراد أن يبنى بجوار السلطان فله أربعمائة درهم، فسارع الناس إليها". وشيدت المدينة على ثلاثة مدرجات متساوية الحجم تقريباً "مدينة فوق مدينة سطح الثلث الأعلى يوازى على الجزء الأوسط وسطح الثلث الأوسط يوازى على الثلث الأسفل وكل ثلث منها له سور، فكان الجزء الأعلى منها قصوراً يقصر الوصف عن صفاتها، والجزء الأوسط بساتين وروضات والجزء الثالث فيه الديار والجامع".

ويمكن القول – بناء على ما ذكره الغرناطي– أن المدينة شغلت مساحة على هيئة شكل هندسي شبه منحرف، يبلغ طول ضلعه الشمالي **3908** ذراع (**2176.7**م)، وضلعه الجنوبى **2700** ذراع (**1503.9**م)، وضلعه الشرقي **1073** ذراع (**579.6**م)، وضلعه الغربي **1380** ذراع (**768.6**م)، وذلك بالذراع الرشاشى، وهو يعادل **55.7**سم بالنظام المتري.

ولكن الزهراء لم تعمر طويلاً، فقد لبثت قاعدة للخلافة حوالي أربعين عاماً فقط منذ

سكنها الناصر سنة 329هـ (939-940م) إذ قام الوزير محمد بن أبي عامر (الحاجب المنصور) بنقل قاعدة الحكم إلى ضاحية جديدة أنشأها لنفسه بجوار قرطبة سماها الزاهرة، وذلك بعد أن تغلب على الدولة وحجر على الخليفة هشام المؤيد، ثم كانت المحنة الكبرى التي تعرضت لها المدينة في عصر الفتنة التي واكبت سقوط الدولة الأموية في الأندلس، فقد هاجمتها قوات البربر ومعها سليمان المستعين سنة (401هـ-1010م)، وفتكوا بحاميتها وسكانها، وأحرقوا المسجد والقصر، وعاثوا في ديارها فساداً، ولم يغادرها إلا بعد أن صارت أطلالاً دارسة.

واتخذت أطلال الزهراء بعد سقوط قرطبة في يد القشتاليين سنة (633هـ - 1236م) مقطعاً لأحجار البناء، وأخذت هذه الأطلال تنقرض تدريجياً وتطويها الأرض بتوالي العهود والحقب حتى اندثر ذكرها وضاعت معالمها، وتحول موقعها إلى تلال وكيمان. وظل الأمر على ذلك حتى استطاع الأستاذ (بدرو دى مادراثو Pedro De Madrazo) التوصل إلى تحديد موضعها، ونجح في إجراء أول حفائر أثرية في أطلالها سنة 1854م.وقد بدأت بها الحفائر رسمياً سنة 1910م تحت إشراف المهندس (ريكاردو بلاسكيث بوسكو Recardo Velazquez Bosco) وتم إعلانها ضمن الآثار القومية سنة 1923م، ولا تزال الحفائر وأعمال الترميم جارية بها حتى الآن.

وقد كشفت الحفائر عن مساحة مستطيلة من المدينة يبلغ طولها من الشرق إلى الغرب 1518م، ومن الشمال للجنوب 740م، ويحيط بها سوران حجريان متوازيان يحصران بينهما فصيلاً ينقسم بواسطة أبواب إلى مجموعة من الحجرات المستطيلة كانت مخصصة للجند المكلفين بحراسة المدينة، ويشتمل السور الخارجي منهما على أبراج مربعة تبرز عن سمت واجهته الخارجية، وشيدت مباني المدينة بالفعل على ثلاثة مدرجات تنحدر من الشمال إلى الجنوب، ويفصل بين كل منها سور، ويشتمل المدرج العلوي على بقايا قصور الخلافة التي كان يطلق عليها "السطح الممرد" أو "السطح العلى"، ومنها المجلس الغربي والمجلس الشرقي، وبعض دور الخاصة ومنها دار جعفر ودار الملك ودار البحيرة. فى حين يشتمل المدرج الأوسط على الحدائق والمتنزهات وهو ما يتوافق مع ما ورد في النصوص التاريخية. وكشف إلى الشرق من الحدائق بقايا مسجد المدينة الجامع ، في حين كان المدرج الأدنى مخصصاً لسكن العامة ولا يزال هذا القسم مجهولاً، لم يكتشف بعد.

وتعد المباني السكنية التي كشفت عنها حفائر الزهراء أقدم النماذج الباقية للمباني السكنية في العمارة الأندلسية، لاسيما فيما يتعلق بعمارة القصور، ويمكن القول أن تخطيط قصور هذه المدينة كانت تتبع طرازين كلاهما ذو أصول مشرقية: الأول طراز الدار، وكانت مخصصة

للسكن وتقوم حول فراغ مركزي يتمثل في الصحن أو البهو الذي تتوزع حوله جميع الغرف والقاعات، ويشبه في ذلك تصميم المجموعات السكنية في القصور الأموية المبكرة في بادية الشام ، ومنها قصر المنيا القريب من الشاطئ الشمالي الشرقي لبحيرة طبرية، وينسب بناؤه إلى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (86 - 96 هـ / 705 - 715م)، وكذلك المجموعات السكنية على جانبي ما يعرف بقاعة العرش في قصر المشتى (126-127هـ/ 743-744م) على بعد 20 ميلاً جنوبي عمان. ومن أبرز أمثلة هذا الطراز في عمائر الزهراء دار الملك.

ومن المواضع التي اكتشفها المهندس الآثارى (فيليث إيرناندث Felix Hernandez) سنة 1944م، وأشرف على ترميمها الأستاذ (رفائيل مانثانو مارتوس Rafael Manzano Martos) فيما بين سنتي (1977و1980م). وتتكون من مساحة مستطيلة يبلغ طولها من الشرق للغرب 45.20م، ومن الشمال للجنوب 23م، يتوسطها صحن أو بهو مكشوف مربع طول ضلعه 19.30م، وتتوسط القسم الغربي من هذا الصحن بركة ماء أو بحيرة نسبت إليها الدار وعرفت بها، وتتكون البحيرة من مساحة مربعة طول ضلعها 5.60م وعمقها 1.65م، ويوازى ضلعها الغربي من الداخل درج سلم هابط يؤدى إلى قاعها، وتصب فيها قنوات ماء تمتد على هيئة خطوط متوازية وتقسم الصحن إلى أربع مناطق مستطيلة. وتتوسط الضلع الشمالي من الصحن فتحة باب تؤدى إلى درج سلم ذو جناحين كان ينتهي إلى سطح الدار، كما يفتح بطرفي هذا الضلع بابان، يؤدى الشرقي منهما إلى ممر يؤدى بدوره إلى دار جعفر وبهو الأعمدة المجاورين، أما الغربي منهما فيؤدى إلى المخدع (الحنية) الشمالية للقسم الغربي من الدار. وبكل من الضلع الشرقي والضلع الغربي للصحن بائكة تتكون كل منهما من ثلاثة عقود حدوة فرس ترتكز على عمودين وسطيين، وتؤدى كل بائكة منهما بالداخل إلى قاعتين عرضيتين متجاورتين يفصل بينهما جدار تتوسطه فتحة باب ويحف بكل منها من الجهتين الشمالية والجنوبية حجرات (حنايا - مخادع).

أما الطراز الثاني من المباني السكنية في الزهراء فهو طراز القصر أو الجناح أو المجلس وكان مخصصاً للاحتفالات والاستقبالات الرسمية، ويتكون من مساحة مستطيلة تتوسطها قاعة تعرف بقاعة الأعمدة وتشتمل على ثلاث أو خمس بلاطات متوازية تفصل بينها بائكات ذات عقود ترتكز على أعمدة، وتمتد البائكات عمودية على الجدار الرئيس، وعلى جانبي هذه القاعة مجموعة من الغرف (الحنايا) وتتقدم القاعة بلاطة عرضية أو سقيفة (برطل) تشرف على صحن أو بهو ببائكة ذات عقود محمولة على أعمدة. ويشبه هذا الطراز في تخطيط قاعة العرش في قصر المشتى السالف ذكره، وكذلك تخطيط المجموعة

(161-162هـ/778-779م) على بعد 120 ميلاً جنوبي بغداد، ولعله متأثر أيضاً بطراز المساجد المبكرة التي كانت بلاطات ظلة القبلة بها تمتد عمودية على جدار القبلة مثل المسجد الأقصى، والذي انتقل تأثيره إلى جامع قرطبة عند تأسيسه على يد عبد الرحمن بن معاوية فيما بين سنتي (168-172هـ/784-788م)، وهو النموذج الذي اتبع في تخطيط المساجد الأندلسية، ومنها مسجد مدينة الزهراء ، وسوف يلي الحديث عنه. ومن أبرز أمثلة هذا الطراز في عمائر الزهراء مجلس عبد الرحمن الناصر المعروف بالمجلس الفاخر وقصر ابنه الحكم المستنصر الذي يعرف أيضاً بدار الجند.

ويقع مجلس عبد الرحمن الناصر بالقسم الشرقي من السور الشمالي للمدرج الأوسط من المدينة، وسقفه الحالي المجدد مسامة لأرض المدرج العلوي، وقد اكتشف هذا المجلس المهندس الآثاري فيليث إيرناندث سنة 1944م، وقام بترميم جدرانه وإعادة تجميع أعمدته وعقوده مما اكتشفه في موقعه فى أثناء الحفائر. وقد عدّه العديد من العلماء المحدثين "المجلس الشرقي" الذي ورد ذكره في المصادر التاريخية، وكان الأستاذ جوميث مورينو أول من أطلق عليه المجلس الفاخر (El Salon Rico) تمييزاً له عن غيره من مجالس الزهراء، وهي التسمية التي شاع إطلاقها عليه حتى الآن على الرغم من عدم وجود سند تاريخي لها. وقد عثر على اللوحة التأسيسية لهذا المجلس ، وهي من الحجر الجيري نقش عليها النص بخط كوفي مزهر، وورد بها اسم عبد الرحمن الناصر وتاريخ البناء سنة 345هـ (956م)، بالإضافة إلى مجموعة من قواعد وتيجان الأعمدة نقش عليها اسم الناصر وبعض أسماء الرخامين والنقاشين والمشرفين على البناء، منهم (فتح النقاش) و(جعفر) و(شكر الفتى الكبير)، وتحمل بعض التيجان تواريخ منها تاج (رقم 4513) يحمل تاريخ 340هـ، وآخر (رقم 4510) يحمل تاريخ 361هـ، فضلا عن مجموعة من اللوحات الرخامية وشقافات لأواني وصحون خزفية من النوع المعروف بالخزف ذى الفواصل الجافة (Seca Cuerda) والخزف المزخرف تحت الطلاء باللونين الأخضر والأسود، وقد تم ترميمها، وبعضها محفوظ في متحف مدينة الزهراء، والبعض الآخر محفوظ بالمتحف الوطني للآثار بمدريد.

وتتقدم المجلس من الناحية الجنوبية بركة أو بحيرة صناعية مربعة طول ضلعها 19.20م، بضلعها الشمالي درج سلم هابط يؤدى إلى قاعها، ويبلغ عمقها 1.65م، أما المجلس نفسه فيدخل إليه من خلال بلاطة عرضية أو سقيفة أو ما يعرف في الاصطلاح الأندلسى بالبرطل، وهي مساحة مستطيلة طولها من الجنوب إلى الشمال 7م، ومن الشرق إلى الغرب 20.25م، تفتح بضلعها الجنوبى بائكة ذات خمسة عقود كحدوة فرس ترتكز على ستة أعمدة الطرفيان منها مدمجان. وتحف بالسقيفة

مجنبتان مربعتان يتوصل إلى كل منها من داخل السقيفة من خلال فتحة باب يتوجه عقد حدوة فرس، كما يتوصل إليها من خارج المجلس من خلال فتحة باب مماثلة بالضلع الجنوبي لكل منها.

أما الضلع الشمالي للسقيفة فتفتح فيه ثلاثة أبواب ، أوسطها أكثرها اتساعاً ، ويشتمل على بائكة ذات ثلاثة عقود كحدوة فرس ترتكز على أربعة أعمدة، أما البابان الجانبيان فيشتمل كل منهما على بائكة ذات عقود توأمية من نوع حدوة الفرس أيضاً، وتؤدى هذه الأبواب الثلاثة إلى القاعة المركزية الوسطى بالمجلس، وهى عبارة عن مساحة مستطيلة طولها من الجنوب إلى الشمال 17.50م وعرضها من الشرق إلى الغرب 2.025م تعرف بقاعة الأعمدة (Salon Columnario)، وتنقسم هذه القاعة بواسطة بائكتين إلى ثلاث بلاطات تتعامد على الجدار الشمالي وأوسطها أكثرها اتساعاً، وتتكون كل بائكة من ستة عقود كحدوة فرس ترتكز على سبعة أعمدة رخامية الطرفية منها مدمجة بالدعامات والأكتاف البنائية بطرفي كل بائكة، ويتوسط الجدار الشمالي للبلاطة الوسطى عقد حدوة فرس مصمت زخرفت صنجاته بالحجر المشهر، وتحدد هيئته طرة مستطيلة ، ومن الواضح أنه كان مخصصاً لتحديد موضع كرسي الخليفة. ويحف بهذه القاعة – بكل من الجهتين الشرقية والغربية – حجرة مستطيلة أو حنية يفصلها عن القاعة الوسطى جدار تتخلله فتحة باب، وتتوسط الضلع الشمالي لكل حنية فتحة باب تؤدى إلى حجرة أو خزانة مربعة، في حين تتوسط الضلع الجنوبي لكل منها فتحة باب آخر تؤدى إلى مجنبة من المجنبتين بطرفي السقيفة الأمامية التي تتقدم القاعة.

وتكسو أرض المجلس بلاطات من الرخام يبلغ عرض الواحدة منها حوالى متر، وكان يؤزر جدرانه لوحات رخامية مماثلة يتراوح ارتفاعا مهما بين 68و75سم، كما أن صنجات عقوده وكوشاته وكذلك الجزء العلوى من جدرانه كانت تكسوها طبقة من الجص تحليها زخارف عربية مورقة منفذة بطريقة الصب في قوالب، وقد عثر على كم هائل من بقايا هذه الزخارف الجصية وأعيد وضع بعضها على جدران وعقود المجلس، وعثر فى أثناء الحفائر على قواعد وتيجان وأعمدة مهشمة من الرخام، بعضها يميل إلى الزرقة وهو نوع من الرخام اختصت به جبال قرطبة، وبعضها وردى اللون من جبال Cabra مدينة قبرة، ورممت الأعمدة ووضعت بالتناوب عند إعادة بناء بائكتى القاعة الوسطى بالمجلس.

أما فيما يتعلق بحدائق ومتنزهات الزهراء فقد كشفت الحفائر في المدرج الأوسط للمدينة عن بهوين مستطيلين كبيرين من النوع الذي اصطلح علماء الآثار الأسبان على تسميته بالبهو المصلب أو ذى التخطيط المتقاطع (Patio de Crucero)، لأنه يتكون من مساحة مستطيلة أو مربعة تنقسم بواسطة قنوات مائية وأحياناً ممرين متقاطعين في منتصفه إلى أربعة أحواض

كبيرة تزرع بالأشجار والنباتات المختلفة، وتتوسطه بركة أو بحيرة صناعية أو نافورة. ويقع البهو الأول في القسم الشرقي من المدرج الأوسط للمدينة، ويقع البهو الثاني إلى الغرب منه مباشرة ويفصل بينهما سور مفرد. ويعد هذان البهوان أقدم الأمثلة الباقية لهذا النوع من الأبهاء والتي ارتبطت بعد ذلك ارتباطاً وثيقاً بعمارة القصور الأندلسية، ومن أمثلته: بهو قصر الجعفرية بسرقسطة الذي شيده المقتدر بالله أبو جعفر أحمد بن هود خلال فترة حكمه فيما بين عامي (438 -474هـ / 1046 -1081م)، ووصل هذا النوع من الأبهاء إلى ذروة تكوينه المعماري والفني في بهو الأسود (Patio de Los Leones) بقصور الحمراء بغرناطة، وينسب بناؤه مع المجموعة المعمارية المحيطة به إلى السلطان محمد الخامس الغني بالله من سلاطين بني نصر.

كما كشفت الحفائر شرق المدرج الأوسط للمدينة عن أطلال المسجد الجامع وكان عبد الرحمن الناصر قد شرع في بنائه في 3 رجب سنة (329هـ /941م)، واستغرق بناؤه 48 يوماً فقط، ويتكون من مساحة مستطيلة طولها 48.50م، وعرضها 29.50م. وقد شيد على قاعدة بنائية مستوية مرتفعة عن مستوى الأرض، إذ تنحدر الأرض الطبيعية في موضع الجامع من الشمال إلى الجنوب، وتدل بقاياه على أنه كان مشيداً بالحجر والآجر معاً. ولاتزال أساسات الجامع وبعض الأجزاء السفلية من جدرانه ودعاماته وأعمدته باقية حتى الآن وذلك يعطينا فكرة واضحة عن تخطيطه. وتدل تلك البقايا على أن جدران الجامع كانت سميكة وتدعمها من الخارج أكتاف حجرية مربعة، وينقسم الجامع من الداخل إلى قسمين: الشمال الغربي وهو صحن مربع، كان يدخل إليه بواسطة ثلاثة أبواب محورية، وتتوسطه فسقية مثمّنة، وتشغل كل ضلع من أضلاع الصحن- فيما عدا الضلع الجنوبي الشرقي- بلاطة تشرف على الصحن ببائكة ترتكز على ثمانية أعمدة رخامية أدمجت الطرفية منها بدعامات بنائية في الأركان لمقاومة الدفع الأفقي لعقود البائكات. أما القسم الثاني من مستطيل الجامع فتشغله ظلة القبلة، وكانت تشتمل على خمس بلاطات تفصل بينها أربع بائكات تسير عقودها عمودية على جدار القبلة، وكانت هذه العقود ترتكز على أعمدة رخامية لا تزال بقاياها قائمة في موضعها - وكذلك أعمدة الصحن- حتى الآن. أما المئذنة فكانت تقع بالضلع الشمالي الغربي للجامع بجوار باب الدخول، وقد اندثرت تماماً الآن. ويرجح أنها كانت تشبه المئذنة التي أقامها عبد الرحمن الناصر بالمسجد الجامع بقرطبة سنة (340 هـ - 951 م)، أي أنها كانت تتكون من بدنين مربعين، العلوي منهما أقل حجماً.

الزاهرة :

لم يقتصر بناء المدن وتشيد القصور والمنيات على أمراء وخلفاء بني أمية في الأندلس فقط، بل قام به أيضاً بعض كبار رجال دولته، ومن هؤلاء الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر، فلم يكد يمضي عامان على وفاة الخليفة الحكم المستنصر حتى كان ابن أبي عامر قد عظم نفوذه، واستفحل سلطانه، وولاه الخليفة هشام المؤيد الحجابة مع جعفر المصحفي سنة (367 هـ -977م)، ولم يلبث ابن أبي عامر أن وثب بالمصحفي فعزله، وتمكن من الاستئثار بالحجابة وانفرد بتدبير شئون الدولة بعد أن حجر على الخليفة هشام المؤيد الذي صار "لا ينسب إليه تدبير، ولا يرجع إليه من الأمور قليل ولا كثير"، ولم يتبق لهم من رموز الحكم " إلا الرسم السلطاني في السكة والدعوة والاسم الخلافي". ولما صفت له الأمور "سما إلى ما سمت الملوك إليه من الاختصاص بقصر يترله وبلد يسكنه"؛ فبنى مدينة الزاهرة. وكان من أسباب بنائها تخوفه من الدخول إلى قصر الخليفة أو تعرضه لمؤامرة ضده، ويبدو أنه أراد أن يسجل بلغة العمارة والبنيان ما وصل إليه من نفوذ وسلطان، وأنه لا يقل عن الناصر والمستنصر، ومما يؤيد ذلك اختياره اسماً لمدينته الجديدة يشترك مع الزهراء في المعنى وينتمي لغوياً لنفس المصدر. واختار لها موضعاً جنوب شرقي قرطبة على نهر الوادي الكبير وقريباً منها حتى عدّت الزاهرة ربضاً قائماً بذاته من أرباض الشرقية، وكان الموضع الذي شيدت به يعرف بمترل ابن بدر ويسمى أيضاً (أَلُسن) بضم اللام.

وشرع ابن أبي عامر في تشييدها سنة (368هـ - 978م)، واكتمل بناؤها في عامين. فقد انتقل إليها وسكنها سنة (370هـ- 980م)، وصارت المقر الفعلي للحكم ؛ إذ نقل إليها الدواوين وأنشأ بها القصور والإسطبلات والمخازن، وأحاطها بأسوار عالية وأقطع أرضها لوزرائه وقُوّاده وكُتّابه فشيدوا بها القصور والدور، وقامت فيها الأسواق وأقبل الناس على سكناها فاتسعت رقعتها حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة.

وبعد وفاة المنصور ابن أبي عامر سنة (392هـ - 1002م)؛ سكنها ابنه وخلفه في الحجابة المُظَفَّر عبد الملك ومن بعده أخوه عبد الرحمن بن أبي عامر المُكَنَّى بشَنْجول الذي كان سبباً في اشتعال الفتنة التي عرفت بالفتنة القرطبية، وكانت سبباً في سقوط الخلافة الأموية بالأندلس. وعندما استغل محمد بن هشام بن عبد الجبار – الذي لقب بالمهدي- خروج عَبد الرحمن بن أبي عامر بالجيش للغزو في الشمال وثار على الخليفة هشام وعزله في جمادى الآخرة سنة (399هـ -فبراير 1009م)، أمر محمد بن المغيرة ابن عمه وصاحب شرطته بهدم الزاهرة وأسوارها "وقلع أبوابها، وتشعبت قصورها ... وسوَّغ الناس أنقاضها، فبلغوا من تدمير تلك المدينة الجليلة ما لم يبلغه الدهور المتعاقبة، فأصبحت بلقعاً كأن لم تغن بالأمس". وتحول

موضع الزاهرة –التي لم تعمر سوى ما يقرب من ثلاثين عاماً– إلى خرائب وأنقاض حتى طوتها الأرض ولم يعد لها ذكر، وهكذا تكون قد شاركت الزهراء ، ليس في الاسم فقط ، بل في المصير والتاريخ أيضاً.

رابعا المنية العامرية :

تعد من المنيات الشهيرة بضواحي قرطبة، أسسها المنصور محمد بن أبي عامر سنة (369هـ –979م)، وذلك على بعد حوالي ثلاثة كيلومترات غربي الزهراء، وأحاطها بسور. وقد اكتشف موقعها وأجرى به حفائر الأستاذ ريكاردو بيلاثكيث بوسكو (**Recardo Velazquez Bosco**) سنة **1910**م، إلا أن مالك الأرض الواقعة بها دمر ما اكتشف منها سنة **1921**م. وكان ما اكتشف منها يشبه القصر الغربي بمدينة الزهراء، وكان قصر العامرية يتكون من ثلاث قاعات متوازية، تحيط بها من الشرق والغرب غرف مربعة تتوزع ثلاثة في كل من الجهتين، وكان يتصل بهذه الغرف بركة كبيرة طولها **49.70**م وعرضها **28**م وعمقها **3**م أقيمت كلها من الحجر.

خامساً: مساجد قرطبة:

أشارت معظم نصوص الرحالة والمصادر التاريخية إلى مكان بقرطبة من أعداد كبيرة من المساجد تقدر بحوالي ثلاثة آلاف وثمانمائة وسبعة وسبعين مسجداً، وقد أورد لنا ابن بشكوال في كتابه الصلة أسماء بعض هذه المساجد منها مسجد الإسكندراني، ومسجد القلاسين ومسجد الزيتونة، وكانت بعض هذه المساجد صغير تقام فيه صلاة الجمعة والخطبة منها مسجد أبي عثمان، وكانت مساجد قرطبة تمتاز بكونها مساجد ومدارس في نفس الوقت تقام فيها دروس العلم وكان بقرطبة مكاتب لتعليم الأيتام وتحفيظ القرآن الكريم، وقد ذكر ابن عذارى أن الخليفة الحاكم المستنصر بالله اتخذ المؤذنين يعلمون أبناء الضعفاء والمساكين القرآن حول المسجد الجامع بكل ربض من أرباض قرطبة وأجرى عليهم المرتبات وعهد إليهم في الاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم ، وعدد هذه المكاتب سبعة وعشرون مكتباً حول المسجد ثلاثة وباقيها في كل ربض من أرباض المدينة.

جامع قرطبة:

شيد جامع قرطبة فوق هضبة صخرية في الجزء الواقع في نهاية الجانب الجنوبي الغربي من المدينة على مقربة من القنطرة المقامة على نهر الوادي الكبير، ويحيط بالمسجد من الخارج طريق من جميع جهاته يفصل بين واجهات المسجد وأحياء المدينة القديمة التي تتميز بتعرج أزقتها وضيق ضروبها، وكان لجامع قرطبة تاريخ حافل في الأندلس فكان يجمع بين وظيفته كمسجد لدولة الإمارة ثم الخلافة ومركز آخر للتعليم ومركز للمهام الكبرى، فكان يعقد فيه مراسم مبايعة الأمير أو الخليفة، وكانت تعلن من فوق منبره عظام الحوادث وتقرأ الأوامر والأحكام الخلافية إلي جانب مكان يعقد فيه من مجالس

القضاء والمناظرات العلمية ، كذلك كان يضم خزائن بيت المال.

وعمارة المسجد تشغل مساحة إجمالية تقدر بحوالي 24300متراً مربعاً، وقد مر المسجد بعدة مراحل معمارية مهمة منذ إنشائه وسوف تكشف الدراسة عن كل مرحلة وأهم سماتها المعمارية والفنية.

أولاً:جامع قرطبة إبان فتح المدينة:

تقاسم المسلمون مع أهل قرطبة كنيستهم العظمى المعروفة باسم "بسنت بجنت" إبان فتح المسلمون لقرطبة حيث بنوا في الجزء الشرقي من الكنيسة مسجداً جامعاً صغيراً وضع قبلته حنش الصنعاني وأبو عبد الرحمن الحنبلي وكان ذلك في عام(79 هـ -698 م)، ولم تمدنا المصادر التاريخية بالتخطيط المعماري للمسجد في ذاك الوقت ، ولكننا يمكن أن نضع تصوراً لتخطيطه ، فهو كان ضئلية المساحة والتكوين المعماري مستطيل الشكل يحتوى على ظلة واحدة وصحن.

جامع قرطبة في عهد عبد الرحمن الداخل (168 هـ- 786 م) :

بدخول عبد الرحمن بن معاوية المرواني قرطبة واتخاذها مقراً لإمارته بدأ يتطلع إلي إنشاء مسجد جامع يتفق ومكانة إمارته الجديدة، وعلي أثر ذلك قام الأمير عبد الرحمن بمصالحة أصحاب الكنيسة عليها من أجل إدخال مساحتها ضمن مشروع بناء مسجده الجديد وبالفعل تمت مصالحتهم علي تعويضهم بناء كنيسة جديدة خارج المدينة مقابل أن يتخلوا للمسلمين عن كنيستهم التي تقع بالشطر المقابل لجامع قرطبة القديم .

وشرع الأمير عبد الرحمن بهدم جميع المباني القديمة وأقام مكانها مسجده الجديد ، وكان تخطيطه يتكون من مساحة مستطيلة تمتد من الشرق إلي الغرب، كما شيدت جدرانه بالحجارة وقد دعمت بدعائم قويه اتخذت هيئتها هيئة أبراج الأسوار ، وتوج المسجد من أعلي بصف من الشرافات المسننة وقد قسمت مساحة المسجد من الداخل إلي قسمين قسم مغطي (ظلة القبلة) وآخر مكشوف (الصحن) وضمت ظلة القبلة تسعة بلاطات تميزت الوسطى منها بأنها أكثر اتساعاً وارتفاعاً كما جاءت عقود بلاطات ظلة القبلة عمودية علي جدار المحراب وغطيت ظلة القبلة بسقف خشبي مسطح مكون من عوارض ومربعات تعرف في المصطلح باسم سموات أو مصندقات وقد حفرت أخشاب الأسقف وذُهِّبَتْ بشتى ضروب الفن الأندلسي ، ويعلو هذا السقف سقف آخر هرمي الشكل غطيت حطاته ببلاطات القرميد، وتميزت عقود ظلة القبلة بأنها من النوع المتجاوز كما استخدم لأول مرة العقود المركبة وذلك بغرض الربط بين مجموعة العمدة التي تحمل أرجل العقود وهي طريقة مبتكرة استعاض بها عن استخدام الأوتار الخشبية في عملية الربط بين الأعمدة .

كما تميزت أرجل عقود ظلة القبلة بأنها لم ترتكز على تيجان الأعمدة مباشرة ، بل على وسائد حجرية ، كذلك تميزت أرجل العقود

المزدوجة بأنها زادت من ارتفاع سقف المسجد ، وقد ساعد ذلك على إضاءة ظلة القبلة وإدخال أكبر كمية ضوء، ومن أهم ابتكارات هذه المرحلة استخدام الأحجار والآجر في صنجات عقود ظلة القبلة بطريقة مبتكرة تؤكد على عبقرية المعماري الأندلسي في تلك الفترة هذا إلى جانب التأكيد على اختلاف مادة بناء عقود المسجد عن طريق استخدام الألوان ؛ فقد جاء نتيجة تناوب أو تعاقب استخدام صنجة حجرية بلون الأصفر وثلاثة صفوف متلاصقة من الآجر الأحمر لتكون صنجة أخرى وقد ساعد تعاقب اللون الأصفر مع الأحمر على إكساب أشكال العقود مظهرا زخرفيا جديدا ويرى العالم الأسباني جوميث مورينو أن طريقة استخدام العقود المزدوجة نظام مقتبس من عقود الجسور الرومانية، ويستدل بذلك على أن عقود جسر مدينة ماردة المعروف بجسر المعجزات ولكن في الحقيقة لا توجد علاقة بين النموذجين حيث جاء تعاقب الآجر في عقود الجسر مع الأحجار في الدعائم أما عقود جامع قرطبة جاء التعاقب في صنجات العقد نفسها ، وهو نظام مبتكر تماما ربما ساعد على ابتكاره هو محاولة المعماري الأندلسي التقليل من استخدام الأحجار بغرض التخفيف نظرا لازدواج عقود المجلس من جانب و زواج الأعمدة من الدعائم الحاملة لأرجل عقود المستوى الثاني من جانب آخر ، أما عن صحن المسجد فهو مستطيل الشكل غرست في أرضية الأشجار و تشرف عليه ظلة القبلة من خلال بائكة مكونة من تسعة عقود ترتكز أرجلها على دعائم حجرية.

مرحلة الأمير هشام بن عبد الرحمن الملقب بالداخل (172هـ-788م):

اقتصرت مرحلة الأمير هشام بن عبد الرحمن بعمل الصومعة للمسجد وميضأة ومقصورة لصلاة النساء وكان موقع صومعة الأمير هشام التي شيدها بالجامع بعيدة عن موقع الصومعة الحالي، وقد كشفت أعمال التنقيب الأثرى التي قام بها المهندس "دون فيليث هرنانديث" عن موقع أساس صومعة الأمير هشام، وقد حدد لنا أبعادها حيث كانت من مربع طول ضلعه 6 متر. وقد أشارت المصادر التاريخية إلى أن صومعة قرطبة في عهد هشام بن عبد الرحمن قد شيدت بالحجارة،وكان ارتفاعها يقرب من 20 متر تقريباً.

جامع قرطبة في عهد عبد الرحمن الأوسط:

تولى عبد الرحمن الأوسط إمارة الأندلس بعد وفاة أبيه الحكم الربضي في عام (206هـ/820م)، وقد أسهم الأمير عبد الرحمن في إعمار جامع قرطبة من خلال مرحلتين أساسيتين أولهما كانت في عام (218هـ/833م)، عندما أضاف إلي مساحة ظلة القبلة بلاطتان واحدة في الجانب الشرقي والثانية في الجانب الغربي، وقد تميزت عقود بوائك تلك المجنبات بأنها جاءت على نفس امتداد عقود بوائك البلاطات التي أضيفت إلي مساحة ظلة القبلة من الناحيتين الشرقية والغربية ، أما الإضافة الثانية

فكانت في عام (234هـ/848م)، وقد تميزت هذه الإضافة بأنها زادت من مساحة ظلة القبلة من جهة حائط القبلة، حيث أمر الأمير عبد الرحمن الأوسط بهدم جدار القبلة وإضافة مساحة جديدة في الجانب الجنوبي في اتجاه باب المدينة القبلي، وقد قدرت المساحة التي أضيفت إلي ظلة القبلة بحوالي 23 متر تقريباً، وقد نجح معماري المسجد في ضبط اتجاه عقود البوائك في المساحة المضافة مع امتداد عقود البوائك في ظلة القبلة، ويمكن التعرف على موقع بداية هذه الزيادة عند أرجل العقود الضخمة التي تقع في مواجهة المحراب.

ومن أهم الملامح المعمارية لتلك المرحلة إقامة محراب جديد عوضاً عن المحراب الذي هدم مع الزيادة، كذلك زيادة رقعة ظلة القبلة،حيث أصبحت تتكون من عشرين أسكوباً عرضياً وإحدى عشرة بلاطة عمودية، تتميز البلاطة الوسطى بأنها أكثر اتساعاً، كذلك أضيف لصحن المسجد رواق رابع في المؤخرة فأصبح المسجد بعد هذه الإضافة يتكون من صحن وأربع ظلات أكبرها امتداداً وعمقاً ظلة القبلة،كذلك اتخذ تخطيط المسجد العام مسقطاً مستطيل الشكل أبعاده من الشمال إلي الجنوب 130م، ومن الشرق إلي الغرب 75م^2 ، ومن الملامح المعمارية لمسجد قرطبة أيضا بعد زيادة عبد الرحمن الأوسط، هي إعادة تدعيم جدران المسجد من الخارج عن طريق استخدام أكتاف ضخمة أضفت على حوائط المسجد شكل أسوار الحصون، كما توجت جدران المسجد من أعلى بصف من الشرفات المسننة أو المدرجة، وهى التي أضفت على عمارة المسجد وواجهاته الخارجية جمالاً وروعة.أما أبواب المسجد في تلك المرحلة فكانت موزعة على النحو التالي:

ثلاثة أبواب في الجانب الشرقي يقابلها مثلها في الجانب الغربي، وباب سابع يقع في مؤخرة المسجد، وقد أشرف على عمارة جامع قرطبة في تلك الفترة اثنان من فتيان الأمير عبد الرحمن الأوسط ، هما نصر ومسرور.

جامع قرطبة في عهد أبناء عبد الرحمن الأوسط (241هـ/949م)

أظهر الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط اهتماماً كبيراً بجامع قرطبة بعد وفاة والده، حيث حرص على اتمام ما بدأه الأمير عبد الرحمن الأوسط من أعمال معمارية وزخرفية كان من أهمها بناؤه لمقصورة الجامع، وهو يعد أول من اتخذها كمصلى من أمراء بني أمية في الأندلس وجعل لتلك المقصورة ثلاثة أبواب، وقد تميزت المقصورة بعظم مساحتها حيث كانت تمتد لتشمل ما يقرب من ثلاثة أعمدة من بلاطة المحراب، كما قام الأمير محمد بزخرفة أسقف المسجد، ويرجع إليه الفضل في بناؤه للباب المعروف بباب (سان إستبان).

أما الأمير المنذر فينسب إليه إعادة ترميم ما تداعى من زخارف المسجد، كما شيد بصحن المسجد قبة عرفت باسم قبة الخزانة كانت تحفظ

فيها الأموال الموقوفة على المسجد كما ينسب إليه تجديده لسقاية المسجد.

أما الأمير عبد الله بن محمد فيرجع إليه بناء الساباط الذي كان يربط بين القصر والمسجد، كان ينتقل من عليه عبر حائط جدار القبلة إلي أن يصل إلي مقصورة المسجد، وقد فتح له في حائط القبلة باب خاص كان يفضي من المسجد إلي الساباط والعكس.

جامع قرطبة في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر 340هـ/950م

كان من أهم ملامح عمارة الخليفة عبد الرحمن الناصر في جامع قرطبة بناؤه لصومعة جديدة عوضا عن الصومعة القديمة التي أنشأها الأمير هشام بن عبد الرحمن، والتي أصبح موقعها بعد أعمال الزيادة التي ألحقت بصحن المسجد في وسط الصحن، كذلك كان ارتفاعها لا يتماشى مع مساحة المسجد، فدفع هذا الخليفة عبد الرحمن الناصر إلي بناء صومعة جديدة تتوافق عمارتها مع مساحة الجامع ومكانته، وقد شيدت الصومعة من الحجارة واتخذ مسقطها شكل مربع تضم بداخلها سلمين أحدهما للصعود وآخر للهبوط، وللصومعة أربع واجهات تحتوي على أربع عشرة نافذة شكلت بعضها على هيئة نوافذ توأمية والبعض الآخر على هيئة فتحات توجت بعقود حدوية تعد من أهم السمات الخاصة بالعمارة القرطبية الأندلسية، كذلك كان يعلو صومعة جامع قرطبة ثلاث تفاحات اثنتان من ذهب والثالثة من فضة.

جامع قرطبة في عهد الخليفة الحكم المستنصر 351هـ/961م

تعد عمارة جامع قرطبة في عهد الخليفة الحكم المستنصر من أهم المعالم التي أكسبت جامع قرطبة قيمة فنية فريدة وجعلته من أجمل وأفخم مساجد الإسلام، وكانت تلك الأعمال قد نفذت في إطار فني فريد يجمع بين التصميم الهندسي والإبهار الزخرفي حيث وصلت تلك الأعمال إلي حد كبير من التعقيد نتيجة مجموعة المعالجات المعمارية في شبكة الروافع سواء في الأعمدة أو العقود الحاملة للأسقف المقبة والمسطحة وأيضا الإبهار الفني في التكوينات الزخرفية وطرق تنفيذها على مواد مختلفة من خشب ورخام وحجر وغيرها، وقد نفذت تلك الأعمال بأسلوب فني غير مسبوق، وهو الأمر الذي جعل بعض الباحثين يؤكدون أن عمارة جامع قرطبة وزخارفه هي حالة فريدة في تاريخ العمارة الإسلامية قاطبة، بل أصبح جامع قرطبة موئلاً خصباً ينهل منه عرفاء الفنون في الشرق والغرب معا. ومن أهم ملامح عمارة جامع قرطبة في تلك الفترة هي أعمال الزيادة التي أضيفت إلي مساحة ظلة القبلة من الجانب الجنوبي، وقد تطلبت تلك الزيادة هدم جدار القبلة والمحراب القديم، وقام المعماري بمد بوائك البلاطات في جهة الجنوب بمقدار 46 متر تقريبا، وقد حافظ المعماريون على ربط بوائك العقود القديمة بالجديدة في إطار فني فريد مستخدمين في ذلك شبكة معقدة من الروافع

المزدوجـــة، سواء في الأعمدة أو في العقود التي أخذت هيئتها مظهراً زخرفياً إلي جانب وظيفتها المعمارية.

جامع قرطبة في عهد المنصور بن أبي عامر:

ذكر المقري أعمال الزيادة التي قام بها المنصور بن أبي عامر لجامع قرطبة فقال:"ولما عزم (أي المنصور) على زيادته هذه، جلس لأرباب الدور التي نقل أصحابها عنها بنفسه، فكان يؤتى بصاحب المترل فيقول له:إن هذه الدار التي لك يا هذا أريد ابتياعها لجماعة المسلمين من ماهلم ومن فيئهم لأزيدها في جامعهم وموضع صلاقم فشطط واطلب ما شئت".

وهذا النص السابق يؤكد أن المنصور بن أبي عامر كان حريصاً بأن يعوض أصحاب الدور التي كانت تشغل موقع الزيادة في الضلع الشرقي من المسجد.

وتعد زيادة المنصور بن أبي عامر الزيادة الخامسة التي ألحقت بعمارة جامع قرطبة وهي الزيادة الأولى التي اتجهت تجاه الشرق، وذلك لأسباب رئيسة تتضح في سببين : أولهما أن ذلك كان يستدعي هدم جدار القبلة ومحرابه الرائع الحديث الإنشاء آنذاك، والسبب الثاني عدم توفر مساحة ؛ إذ كان الجامع قد اتصل بناؤه تقريباً بسور المدينة الجنوبي المشرف على نمر الوادي الكبير،كذلك لم يكن في استطاعة ابن أبي عامر زيادة الجامع من الجهة الغربية ؛ إذ يحد الجامع في هذه الجهة الطريق الرئيس ـــ المحجة العظمى ـــ والقصر الخلافي.أما من الجهة الشمالية فإن الزيادة فيها كانت تعني هدم مئذنة عبد الرحمن الناصر، فضلاً عن أنها لم تكن لتضيف لظلة القبلة مساحة جديدة.

ومن هنا لم يجد ابن أبي عامر بدا من توسعة الجامع من الجهة الشرقية، وكانت تشغل أرضها مجموعة من الدور، فقام بهدمها المنصور بعد أن اشتراها من أصحابها، وشرع في تلك الزيادة سنة (377هـــ-987م)، واستغرق العمل بها عامين ونصف.

وقد أضاف المنصور لظلة القبلة ثماني بلاطات عمودية على جدار القبلة، وموازية في ذات الوقت لبلاطات الجامع السابقة، وذلك بعد أن هدم الجدار الشرقي للجامع وجعل في موضعه عقوداً كبيرة على هيئة حدوة الفرس ترتكز على أعمدة مزدوجة، وحافظ معمار المنصور على الأسلوب الفني الهندسي في نظام البوائك القديمة، واستكمل على غرارها نظام العقود المزدوجة، إلا أن صنجات عقود الزيادة العامرية قد خلت من الآجر، وصارت جميعها من الأحجار، والتي طلى بعضها باللون الأحمر لمحاكاة أسلوب المشهر السائد في عقود بائكات الجامع، وفتح في الجدار الشرقي سبعة أبواب على غرار الجدار القديم، وتتخلل بائكات الزيادة العامرية دعامات تتوازى عرضياً مع الدعامات التي تتخلل بائكات ظلة القبلة القديمة بزياداتها.

جامع قرطبة بعد سقوط المدينة في أيدي الأسبان:

ظل جامع قرطبة على الصورة التي كان عليها في عهد المنصور بن أبي عامر، إلي أن قامت

الفتنة الكبرى التي أنهت عصر الخلافة الأموية، وبدأت قرطبة تتعرض لضربات البربر إلي جانب أعمال تدمير وتخريب واسعة طالت العمائر الدينية والمدنية بصورة كبيرة، ومنذ ذلك الوقت أخذت قرطبة تفقد دورها السياسي والثقافي في ظل عصر ملوك الطوائف ومن جاء بعدهم من المرابطين والموحدين إلي أن سقطت المدينة في أيدي الأسبان بعد هزيمة الموحدين في معركة العقاب عام(611هـ-1206م)، ومع دخول الأسبان إلي قرطبة في عام 1236م، قاموا بتحويل مسجدها الجامع إلي كنيسة عرفت باسم سانتا ماريا العظمى، واتخذ فيها الملك فرناندو الثالث المصلى المعروف "بيسان كلمنتي" في الجزء الجنوبي من المسجد إلي أن أدركت الحكومة الأسبانية قيمة المبنى من الناحية المعمارية والفنية فقامت بإعلان المسجد الجامع في قرطبة أثراً قومياً وكان ذلك في عام 1882م.

الفنون الزخرفية الأندلسية في قرطبة:

يعدّ الفن الأندلسي في عصر الخلافة الأموية في قرطبة مرحلة متصلة بالفن الأموي في المشرق الإسلامي ، بل استمراراً له مع بعض التأثيرات المحلية الأندلسية.

ومن أهم سمات الفن القرطبي الأندلسي استخدام العقود الحدوية، والمفصصة والمتشابكة ذات الألوان، كما تميز الفن الأندلسي في قرطبة باستخدام العقود المزدوجة أو المركبة والقباب ذات الضلوع، وكذلك استخدام الفسيفساء والنقوش الجصية والمقرنصات ، إلي جانب ذلك أنتجت مصانعها أعظم التحف الفنية التي شكلت من مواد مختلفة على الحجر والرخام والخشب والزجاج والعاج والمعادن والجص ، وغيرها.

وبالفعل لقد نالت قرطبة شهرة واسعة في العالم وقصدها أهل المشرق والمغرب إذا أصبحت دار الهجرة للعلم كذلك كانت مركز إشعاع للحضارة في أوروبا المسيحية حيث أصبحت التقاليد الفنية القرطبية صاحبة تأثير امتد بشكل واضح في فنون أسبانيا المسيحية وجنوب فرنسا، وقامت في قرطبة كذلك صناعات فنية أنتجت لنا أشهر المنسوجات والتحف الزجاجية والبلورية والخزفية والعاجية، وكان لكل صناعة عارفون بأسرارها ، وكانت تلك الصناعات تخضع لمراقبة المحتسب، وسوف نعرض لنماذج من تلك المنتجات الفنية التي أنتجتها مصانع قرطبة.

التحف المعدنية:

اشتهرت مدن الأندلس في العصر الإسلامي بصناعة المعادن ، مع قلة ما وصلنا منها ، وقد كشفت لنا المصادر التاريخية عن توفر خامات المعادن بأنواعها في الأندلس ، وكذلك عن المصانع التي شيدت في مدنها من أجل أعمال التعدين أو صياغة المعادن.

وعن خامات المعادن بأرض الأندلس يقول البكري : "ومعدن الذهب بنهر لارده يجمع بها منه كثير، ويجمع أيضاً في ساحل لشبونة، ومعادن الفضة بالأندلس كثيرة في كورة تدمر وجبال حمة بجانة، وبإقليم كرتيش من أعمال

قرطبة معدن فضة جليل وباكشوبنة معدن القصدير لا نظير له يشبه الفضة... ومعدن الزئبق في جبل البرانس، ومن هناك يتجهز به إلي الأفارقة،ومعدن الكبريت الأحمر بالأندلس، ومعادن الكبريت الأصفر كثيرة...ومعادن الشبوب والحديد والنحاس والرصاص بالأندلس أكثر من أن تحصى " ، كما حفلت نصوص المؤرخين بإشارات عديدة حول الصناعات المعدنية بالأندلس، وتبوئها مكانة كبيرة، حيث كانت تصنع منها قطع الأثاث كالطسوت والأباريق والأكواب والمباخر وكراسي العشاء والمهارس والصناديق ومطارق الأبواب.

كذلك كانت تصنع منها وسائل الإضاءة مثل القناديل والثريات والتنانير والشماعد وكذلك كانت تصنع منها أدوات الزينة كالمكاحل والموارد و الحلي بأنواعها، إلى جانب صناعات أخري عديدة منها التحف والأسلحة والسكة وأدوات الحياكة والكستبانات والمضارب الحديدية والمقصات، وأدوات الكتابة كالمحابر والأدوات الفلكية مثل الإسطرلابات وغيرها، ويكفي أن نشير إلى ما ذكره المقري حول أشغال النحاس التي كانت تزين أبواب جامع قرطبة" حيث كان للمسجد بمدينة قرطبة عشرون بابا مصفحة بالنحاس الأندلسي ومخرمة تخريما بديعا يعجز البشر ويبهرهم، وكان بكل حلقة بنهاية الصفة، وكان باب مقصورة هذا الجامع " من الذهب "هذا بخلاف ما عثر عليه من تحف لتماثيل رائعة بمدينة الزهراء.

ومن الجدير بالذكر أن الأندلسيين قد استخدموا في زخرفة المعادن طرقا عديدة ، منها التكفيت بخيوط الذهب والفضة أو طريقة الزخرفة بالحز أو الحفر أو التخريم أو التطعيم. وسوف نذكر بعض الأمثلة لتلك القطع المعدنية التي عرفتها مدن الأندلس ومنها:

الأباريق والقناديل:

من أشهر الأباريق التي تنسب إلي قرطبة

1. إبريق من البرونز على شكل طائر "الطاووس" ، وهذا الإبريق يحتفظ بنقش يمثل توقيع الصناع أحدهم بحروف لاتينية **Opus Salomonis Erat** والآخر بالخط الكوفي "عمل عبد الملك النصرانى".

ومن حيث الأسلوب الفني للإبريق فهو يعبر عن مدى ما وصلت إليه صناعة المعادن في القرنين : السادس والسابع الهجريين (13/12م) من حيث مراعاة النسب أو المنظور العام للطائر. ويتضح ذلك من خلال النسبة بين حجم رجل الطائر والبدن ، وكذلك النسبة بين امتداد الرقبة وسمكها وبين حجم الرأس، إلي جانب التعبير بالحركة بواسطة فتحة المنقار وأصابع الأرجل، وأما عن الأسلوب الزخرفي، فقد جمع الفنان بين النقوش الكتابية والزخارف الهندسية والنباتية في تنفيذ موضوعاته الزخرفية ؛ إذ نجد أن الفنان قد شغل بدن الطائر بزخارف محفورة قوامها زخارف نباتية محورة نفذت على منطقة الذيل ، أما الزخارف الهندسية فقد

جاءت على هيئة تمشيرات نصف دائرية نفذت على بدن الطائر وهي تشبه إلى حد كبير قشور السمك، كما شغل الفنان جناحي الطائر بزخارف هندسية على هيئة خطوط مستقيمة.

2. قنديل من البرونز له فوهة طويلة دون غطاء، له مقبض شكل على هيئة رأس حيوان ذى رقبة طويلة، وتشبه هذه التحفة سبع قطع أخري إحداها من مدينة طليطلة والأخريات من الأندلس.

3. قنديل مصنوع من البرونز ذى فوهة طويلة عليها غطاء ويعلوه مقبض صغير شكل علي هيئة حيوان صغير، أما مقبض القنديل فقد شكل بأسلوب زخرفي حيث صنعه الفنان على هيئة رأس غزال ينبعث من رأسه مجموعة قرون، ومن رقبته دلايات ويرجع هذا القنديل إلى القرنين : الرابع والخامس الهجريين.

الكستبانات:

من الجدير بالذكر أن وجود هذه القطع بكميات كبيرة يؤكد وجود مصانع أو ورش خاصة لإنتاج أدوات الحياكة بمدن الأندلس بشكل متطور ، وذلك تماشيا مع إنتاج المنسوجات الأندلسية وبخاصة الحريرية منها والمطرزة، حيث بلغت أقاليم الأندلس شهرة واسعة في صناعتها وتسابقت فيما بينها على زعامة تلك الصناعة، وأصبحت مدن الأندلس في العصر الإسلامي تمثل المراكز الرئيسة لصناعة جميع أنواع المنسوجات الحريرية. وليس أدل على ذلك مما كان بحونة مدينة "المرية" وحدها من مغازل لإنتاج المنسوجات الحريرية قدر إعدادها الرحالة الإدريسي فقال: "وكان بها – أي المرية – من كل الصناعات، كل غريب وذلك أنه كان بها من طُرُزِ الحرير **800** طراز يعمل بها الحلل والديباج والسقلاطوني، والجرجاني، والستور المكللة المعينة والخمر والعتابي والمعاجر وصنوف أنواع الحرير" . وعلى ذلك ليس من المستغرب أن تكون هناك مصانع لإنتاج أدوات الحياكة يتبارى أصحابها في جودة منتجاتها وجمال زخارفها. وقد وصلت من هذه الكستبانات العديد، نذكر منه :

1. كستبان مصنوع من البرونز محفوظ بمتحف مدريد الوطني وعليه اسم الصانع في القسم العلوي من الكستبان ، وقد وقعه بالخط النسخي في إطار زخرفي ، ينسب للقرنين الرابع والخامس الهجريين (**10–11**م).

ونجد أن هذا الكستبان من صنع "خير" يمتاز بأسلوب مميز لإنتاجه حيث نراه يقسم بدن الكستبان إلى ثلاثة أقسام رئيسة هي القسم العلوي لتوقيع الاسم والقسم الأوسط "البدن" فقد زود بزخارف عبارة عن حفر غائر بغرض حرفي بحت حيث يساعد تلك الحفر على تحكم الصانع في مسار الإبرة، أما القسم الأسفل فقد شغله الفنان بمجموعة من الإطارات البارزة تضم بداخلها زخارف هندسية عبارة عن دوائر

وهشيرات غائرة ... وفي بعض النماذج لإنتاج "خير" تضم الإطارات الزخرفية هذه من الداخل كتابات كوفية تحتوي على عبارات دعائية أو زخارف نباتية محورة.

الآلات الفلكية:

ازدهرت صناعة الآلات الفلكية بالأندلس بجميع أشكالها واشتهرت كل من قرطبة وأشبلية وطليطلة بصناعة هذه الآلات وبخاصة الإسطرلاب الذي نقل العرب فكرة صناعته عن اليونان، وانتقل إلى الأندلس عن طريق الصناع السوريين، وقد نجح الأندلسيون نجاحا كبيرا في تفهم آلة الإسطرلاب وابتكروا منها أشكالاً مختلفة وبرعوا في تطويرها وحققوا من خلالها إنجازات علمية كثيرة وذلك جعل الأوربيون يقتدون الإسطرلابات الأندلسية أو يتخذونها نماذج ليضعوا على غرارها.

وقد ساعد على صناعة الإسطرلابات الأندلسية وجود علماء متخصصين في علوم الفلك والهندسة والحساب ازدانت بهم مدن الأندلس،من هؤلاء الفقيه أبو بكر أحمد بن محمد بن أحمد بن أبي عيسى الأنصاري الذي كان متقدما في علوم الهندسة والفلك بالأندلس والمتـوفي في القـرن (4 هـ - 10 م)، والفقيه إسماعيل بن بدر بن محمد الأنصاري المعروف بابن الختام ، وهو من أهل قرطبة ، وكان عالما بالفلك والهندسة توفي بأشبيلية (418هـ-1027م)، والفقيه أبو القاسم أحمد بن عبد الله بن عمر بن الصفار وكان بارعاً فى علم الهندسة والنجوم ، له كتاب في العمل بالإسطرلاب، توفي بمدينة دانية في عام (426 هـ - 1035م)، وغير هؤلاء العلماء الكثير والكثير وكان من أعظم ما حققه علماء الأندلس عن طريق الآلات الفلكية محاولتهم قياس محيط الأرض ووضع جداول فلكية لحركة الكواكب وتحديد شكل مساراتها ,وقد استخدموا الإسطرلاب بشكل واسع من أجل تحديد مواقيت الصلاة والتنبؤ بالفصول حيث رسموا الكرة السماوية على الإسطرلاب.

التماثيل :

كشفت حفائر الزهراء عن تمثال من البرونز لوعل ارتفاعه 40 سم، يزن جسمه بزخارف نباتية قد رسمت داخل أشكال بيضاوية، وهو معروض بمتحف قرطبة، وأغلب الظن أنه كان جزءاً من نافورة في أحد قصور الزهراء، وقد كان الماء يجري في فمه عن طريق أنبوبة تمتد وسط جسمه لتصعد إلي رقبته، ويذكرنا هذا التمثال بالتماثيل المعدنية الفاطمية.

قنينة من الفضة لها غطاء متصل بها بواسطة سلسلة وهي تزدان بزخرفة نفذت بطريقة الطرق، قوامها عقود حدوية الشكل وزخارف نباتية من صناعة قرطبة.

التحف العاجية :

لم يصل فن النقش على العاج في فن من الفنون السابقة على الإسلام أواللاحقة عليه إلى ما وصل إليه في مدن الأندلس في القرن الرابع والخامس الهجري/العاشر والحادي عشر الميلادي

وهى الفترة التي ازدهرت فيها كثير من الفنون بتشجيع من الحكام الأمويين بالأندلس ولذا فقد حملت معظم التحف العاجية التي وصلتنا من الأندلس أسماء الأمراء أو كبار رجال الدولة من أصحاب المناصب التي صنعت لهم، وقد امتازت معظم التحف العاجية باحتوائها على تواريخ صنعها مما ساعد الباحثين على التعرف على السمات الفنية لكل فترة .

ومعظم الأشكال الفنية للتحف العاجية الأندلسية عبارة عن علبة صغيرة تشبه الصناديق بعضها دائري وبعضها مستطيل الشكل ، وكانت هذه العلب تستخدم لحفظ الحلي والعطور ، وقد تميزت العلب العاجية الأسطوانية بالغطاء النصف الكروي أو البيضاوي، فى حين امتازت العلب المستطيلة بالغطاء المسطح أو الهرمي ،وكانت لهذه العلب مقابض مصنوعة من الفضة أو من النحاس المموه بالذهب, ومن الجدير بالذكر أن الأندلسيين كانوا يحصلون على العاج عن طريق إرسال القوافل التجارية عبر الصحراء المغربية إلى غانا فيحملون منها العاج بكميات كبيرة وهو ما ساعد على توفر مادة العاج بالأندلس،وقد تأسست بمدينة قرطبة مدارس فنية للحفر على العاج بتشجيع الأمراء الأمويين في القرنين (4-5هـ/10-11م)، ورعايتهم ومن الجدير بالذكر أن فن الحفر على العاج بالأندلس يدين بالفضل من حيث النشأة إلى مصر في العصر الفاطمي, حيث انتقل منها عبر المغرب ، بل ربما نشأت صناعة العاج في الأندلس على أيدي صناع مصريين عملوا في القصور الأموية، وهو أمر ليس بجديد ، حيث سبق أن استقدم من الإسكندرية عند بناء قصور الزهراء صناعاً من مصر، , ومهما كان الأمر فقد سجل الصناع الأندلسيون تفوقا كبيرا في هذا المجال لم يضارعهم فيه أحد. وقد فسر علماء الفن هذه الظاهرة بأن مهارة الصناع الأندلسيين في الحفر على الخشب أدت إلى اكتسابهم خبرة في صناعة الحفر على العاج .

ومن الغريب أن الصناع الأندلسيين لم يُعْنَوْا بالحفر على العاج بعد القرن الخامس الهجري /11 م ربما يعزى ذلك لدخول الأندلسيين مرحلة سياسية جديدة منذ أوائل القرن (6هـ/12م)، تحت حكم المرابطين .

ومن هذه التحف العاجية نرى تحفة عبارة عن صندوق مستطيل عليه غطاء مسطح محفوظ في كنيسة فيترو **Fitero** ورد عليها اسم الصانع (خلف) ضمن نص كتابي منقوش على جوانب غطاء الصندوق بالخط الكوفي جاء فيه (بسم الله ، بركة من الله ويُمْن وسعادة وسرور لأحب ولادة مما عمل بمدينة الزهراء سنة خمس وخمسين وثلثمائة عمل خلف).

زخارف الجدران :

أدت زخارف الجدران في الفن الأندلسي دوراً بارزاً،حيث تميز الفن الأندلسي بشكل عام بكراهية الفراغ، ولذلك أصبح الفن الأندلسي

من أهم سماته تكسية الواجهات الداخلية للمباني بتكسيات مختلفة منها ما هو من الجص أو الرخام أو الخشب أو الخزف أو غيرها.

وجامع قرطبة ومدينة الزهراء خير شاهد على ذلك، حيث جاءت العقود المركبة في جامع قرطبة، وكذلك تكسيات الجدران في مدينة الزهراء تعبر عن مدى ما وصل إليه الفن القرطبي من تطور وازدهار في هذا المجال، فقد عثر في الحفائر التي أجريت في موقع القصر القديم بقرطبة على قطع محفورة من الرخام ترجع إلي عصر عبد الرحمن الأوسط (309هـ/815م)، وتتميز زخارف تلك المعثورات بأنها تحتوى على زخارف نباتية وهندسية، وفي مدينة الزهراء جاءت جدران القصور والقاعات الداخلية وبواطن العقود، وقد كسيت بالجص المنقوش بأسلوب فني بديع مع ألوان زاهية.

التحف الخشبية:

امتاز الفن القرطبي الأندلسي بدقة الصناعة والأسلوب الفني، وبخاصة في مجال الحفر على الخشب، ومنبر المسجد الجامع في قرطبة كان تحفة زمانه ، وقد أخبرنا المقري عند حديثه عنه بأنه كان مصنوعاً من شتى أنواع الخشب من الساج والأبنوس والعود، وأنه كان مكوناً من ست وثلاثين ألف وصلة (حشوة) سمرت بمسامير الذهب والفضة وفي بعضها نفيس الأحجار، وأن عدد درجاته تسع، وأن النفقة بلغت **3575** ديناراً، وقد أحكم عمله ونقشه في سبع سنين، وكان يعمل في صنعه ثمانون صانعاً.

ومنبر مسجد الزهراء حيث أمر الخليفة الناصر باتخاذ منبر بديع وأحيط حوله مقصورة عجيبة، وهو ما وصفه لنا المقري أيضا.

وهذه المنتجات أو التحف القرطبية مع أنها اندثرت فإن النصوص التاريخية قد حفظت لنا أوصافها ، وما بقى منها في جامع قرطبة يؤكد على قيمتها الفنية.

أ.د. محمد محمد الكحلاوي
(جامعة القاهرة)

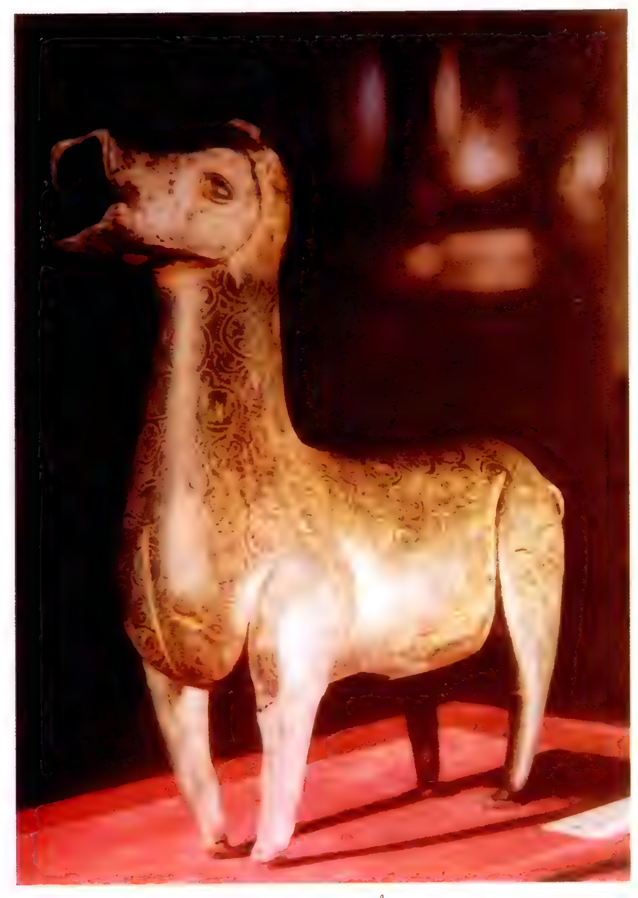


السور الجنوبى لمدينة قرطبة

سور قرطبة الباب المدور المعروف باب عامر القرشى



تحفة عاجية محفوظة بكنيسة (فيترو) Fitro



تمثال لوعل عُثر عليه بمدينة الزهراء

سادساً : غرناطة

غرناطة مدينة عظيمة من أحسن بلاد الأندلس تقع على النهر المعروف باسم"شفيل" وقد أجمع المؤرخون على أن مدينة غرناطة هي إحدى المدن التابعة للبيرة أو أنها ربض من أرباضها، وذكر المقري أن فتح غرناطة من قبل المسلمين كان في عام (92هـ-712م)، وقد سميت غرناطة اليهود لأن أهلها كانوا من اليهود أو ربما لكثرة اليهود بها، كما سميت غرناطة شام الأندلس أو دمشق، وتتميز مدينة غرناطة بموقعها في وسط الأندلس يحدها من الجنوب جبل شلير ، ومن الشرق جبل شلير والحرية، ومن الشمال مدينة جيان ، ومن الغرب لوشة ونهر شنيلي، وهي تقع على واد عميق وفي هذا الوادي ربوتان كبيرتان تقع عليها مدينة غرناطة ويمر النهر المعروف باسم حدرة بين الربوتين، والربوة الجنوبية تعرف باسم ربوة الحمراء والربوة الشمالية تعرف باسم ربوة البيازين والقصبة، وقد اختلف بعض الباحثين حول تسمية غرناطة من الناحية اللغوية ، فذكر الحموي أنها سميت بهذا الاسم لأن الرمان كان يزينها لكثرته ، في حين يرجع بعض الباحثين الأسبان إلى أن الاسم يرجع إلى زمن القوط، وقد أجمع المؤرخون على جمال غرناطة وطيب هوائها، وأشادوا بذكر محاسنها فذكر عنها "بأنها من أحسن بلاد الأندلس ، وهي مسرح الأبصار ومطمع الأنفس رائعة المنظر كثيرة الأمطار والأنهار والبساتين والشجر والفواكه، وبها حبوب كثيرة وأشجار مختلفة ألوانها، كان يصنع فيها أشهر المنسوجات الحريرية المعروفة باسم المختم ، أي ذي الألوان العجيبة ، وكانت المراكب التجارية تحمل الحرير الخام من مدن غرناطة إلى موانئ البحر المتوسط في إيطاليا وفرنسا وأرغونة وإفريقية وقد وصف ابن الخطيب أهم منتجاتها الزراعية فقال بحر من بحار الحنطة ومعدن من معادن الحبوب المفضلة والحرير والسكر .

وقد تميز لباس أهل غرناطة عن غيرهم في المدن الأندلسية الأخرى بلباس يعرف بالفاشي المصبغ والكتان والحرير.

أما المدينة فكانت تضم – كما سبق – ربوتين يحيط بكل منهما سور عظيم تدعمه الأبراج، وقد فتحت في هذه الأسوار أبواب وكان يخترق المدينة من الداخل شوارع ضيقة متعرجة، ومتقاطعة تضم أحياء سكنية مازال بعضها يحتفظ بأسمائه القديمة، ومن أشهر تلك الأحياء البيازين الذي ما زال يمثل إلى اليوم أكبر أحياء غرناطة وما زال هذه الحي يحتفظ إلى حد كبير بخططه ودروبه الأندلسية الإسلامية القديمة.

وحي البيازين يقع في شمال غرناطة في تجاه هضبة الجراء الذي يفصله عنها نهر حدرة ، ويمتد الحي من سفح التلال حتى أسوار المدينة، وكان يزدان هذا الحي بالمساجد والحمامات ذات الطابع العربي الأندلسي، ولحى البيازين ثلاثة أبواب ما زالت قائمة بعقود عربية ذات طراز إسلامي إلى اليوم ، أولها باب البيازين ويقع في

نهاية السور القديم للمدينة وباب فحص اللوز وباب الزيادة ، وكان بحي البيازين مسجدان كبيران حولا مع سقوط غرناطة إلى كنيستين هما كنيسة سان فادرو، وكنيسة سان خوسية ، كما حولت مآذن المساجد إلى أبراج لتلك الكنائس .

وكان حي البيازين يعد من أهم أحياء غرناطة الإسلامية ومسكن الأثرياء من كبار رجال الدولة والتجار، وأصبح بعد سقوط غرناطة من أعظم أحياء الموريسك بها .

وكانت بغرناطة أرباض عديدة مزدحمة بالسكان والخطط والعمائر منها ربض البيضاء ويقع في الجزء الشمالي من غرناطة، وربض المرابطين وربض الفخارين وكلها كانت من ارباض الجانب الشمالي أما أرباض النصف الجنوبي فهي ربض قمارش وربض المنصور، وربض الأجلى وربض الرمان وغيرها من الأرباض.

وكان لغرناطة الإسلامية عشرون بابا، لم يبق منها قائما حتى الآن إلا ثلاثة، وهناك باب رابع أعيد بناؤه في فترة حكم الأسبان وهو باب البيرة ويقع في شمال غرب المدينة ويفتح على شارع يعرف بنفس الاسم .

أما أسوار المدينة فقد اندثر معظمها ولم يبق منها إلا أجزاء قليلة بالجهة الشمالية الغربية وهي تمتد بمقدار كليو متر تقريبا ، كما بقيت أجزاء من أسوار المدينة بالجهة الشرقية ، وهي تتكون من سورين يفصلهم فصيل وهو نظام دفاعي اشتهرت به التحصينات الدفاعية في الأندلس ، ويعرف بنظام البربكان أو السور الداخلي أو السور البراني.

متنـــزهات غرناطة :

اشتهرت مدينة غرناطة باحتوائها على أرباض كانت تكثر فيها البساتين والزروع ، وكان أهل غرناطة يترددون عليها بغرض المتعة والراحة وكان من بين أشهر متنـــزهات غرناطة متنـــزة " حور مأمل " نسبة إلى خادم ملك غرناطة " باديس بن حبوس " ولاحتواء هذا المتنـــزه على أشجار من أشجار الحور ، ويقع هذا المتنـــزه على الضفة اليمنى لنهر " شنيلى " جنوب غرب الحمراء وجنوب غرب البيازين وكان مقصدا للشعراء والأدباء.

متنـــزه نجد :

كان من أكبر متنـــزهات غرناطة وكان يشرف على بسيط غرناطة وكان يعد من أشهر متنـــزهات غرناطة في القرن(8 هـــ/14 م) .

متنـــزه السبيكة :

كان يقع خارج غرناطة ، وقد ذكره المقري ضمن متنـــزهات غرناطة ، وفقا لما ذكره أبو جعفر الألبيرى في شعره عند رحيله من غرناطة فقال :

ولما وقفنا للوداع وقد بدت
قباب بنجد قد علت ذلك الوادي
نظرت فألقيت السبيكة فضة
لحسن بياض الزهر في ذلك النادي

وذكر المقري نقلا عن ابن زمرك في وصف نجد والسبيكة فقال :

يامَنْ يَحِنُّ إلى نجد وناديها
غرناطةٌ قد سوت نجد بواديها
قف بالسبيكة وانظر ما بساحتها
عقيلة والكثيب الفرد جاليهــا

ومن متنــــزهات غرناطة أيضا متنـــزه عيد الدوع، وكان موقعه بأعلى تلال البيازين يشرف على المروج، وكان متنــــزهاً بديعاً يغص بالمروج والحدائق الغناء وكان يعد من أجمل مواضع الدنيا لكثرة مائه وشدة خضاره .

وقد شهدت مدينة غرناطة تطوراً عمرانيا كبيرا منذ القرن الرابع الهجري – العاشر الميلادي ، بعد أن سقطت الخلافة الأموية بقرطبة واستولى البربر على البيرة وهو ما جعل أهل البيرة ينتقلون إلى غرناطة ، ومنذ ذلك الوقت أصبح اسم غرناطة يتردد وأسواقها تنمو ، وأصبحت مركزا للتجارات الواردة والصادرة من الشرق والغرب، وأخذت تنمو تدريجيا إلى أن حلت محل مدينة البيرة كلية، وبوصول البربر إليها جعلها "زاوي بن زيري" عاصمة ملكه فقام على بنيانها "حبوس الصنهاجي" حيث أعاد تحصين أسوارها وجدد عماراتها وخلفه ابن باديس ونهج نهج أبي في تعمير المدينة وتحصينها إلى أن استولى عليها المرابطون سنة 1089م، ثم الموحدون سنة 1146م، وفي نهاية عهدهم ضمت مملكة غرناطة إلى مملكة ابن هود وفي 1237م ضمها محمد بن يوسف بن نصر صاحب حصن أرجون إلى ملكه ، وقد تميزت مدينة غرناطة عن غيرها من المدن الإسلامية الأندلسية بأنها استطاعت أن تقاوم حركة الاسترداد المسيحي الأسباني للمدن الإسلامية إلى ما يقرب من قرنين ونصف تقريبا تخللتها صراعات دامية في معارك غير متكافئة بين أسبانيا المسيحية وبين مملكة غرناطة الصغيرة، إلى جانب ما عانته مملكة غرناطة من صراعات داخلية وفتن ، كل ذلك كان يعجل بانهيار آخر المدن الإسلامية الباقية في الأندلس، وقد تطلع حكام غرناطة من بني الأحمر إلى سلاطين بنى مرين بالمغرب الأقصى طلبا للنجدة ضد الزحف الأسباني من جانب، كما عملوا على عقد المعاهدات الواحدة تلو الأخرى، كل ذلك بغرض تمديد أمد حياة غرناطة ولو لفترة قصيرة ، ولكن انتهت دولة الإسلام في الأندلس بسقوط غرناطة في عصر أبي عبد الله آخر ملوك الأندلس وذلك في(2 يناير– 1492م).

قصر الحمراء :

وهو يقع على الربوة الشمالية من غرناطة ويحيط به أشجار كثيفة والصعود إليه عبر طريق صاعد يفضي إلى ثلاث طرق عريضة يؤدى كل منها إلى باب، الأوسط يؤدى إلى قصر " جنة العريف ، "أما الطريق الأيمن فيؤدى إلى أبراج الحمراء، والطريق الثالث وهو يقع على اليسار يؤدى إلى باب الشريعة وهو أول أبواب الحمراء، والطريق المؤدى الى باب الشريعة هو طريق صاعد ممهد على جانبيه تغص بالأشجار وفساقي المياه، وكانت هذه الغابة في عصر الدولة الإسلامية متنزه يعرف باسم السبيكة، ويعد باب الشريعة من الأبواب المهمة لقصور الحمراء نظرا

لكون الخليفة كان يجلس فيه ليتلقى شكاوى الرعية ومظالمها . وأجمل ما في باب الشريعة ذلك العقد الأندلسي الحدوي الذي سطر فوقه كتابات عربية كتبت بالخط الأندلسي تضمنت اسم المنشئ وتاريخ الإنشاء نصه "أمر ببناء هذا الباب المسمى باب الشريعة ، أسعد الله به شريعة الإسلام ، كما جعله فخرا باقيا على الأيام، مولانا أمير المسلمين السلطان المجاهد العادل أبو الحجاج يوسف ابن مولانا السلطان المجاهد المقدس أبي الوليدين نصر كافي الله في الإسلام صنائعه الذاكية وتقبل أعماله الجهادية ، فتيسر ذلك في شهر المولد المعظم من عام تسعة وأربعين وسبعمائة، جعله الله عزة وافية وكتبه في الأعمال الصالحة الباقية".

ويعد قصر الحمراء جزء صغير من مدينة الحمراء أو من قصبة الحمراء أو قلعة الحمراء وهي المنطقة التي كانت تضم قصر الحاكم ودور الوزارة والحاشية ومجموعة القلاع والتحصينات التي تحميه. وقد نشطت غرناطة بعد أن تغلب عليها محمد بن الأحمر الناصري في (635هـ –1238م)، الذي أنشأ داخل أسوار المدينة قصر حصين أطلق عليه اسم الحمراء القديمة واتخذه مقرا لملكه ونقل إليه الماء من نهر حديرة وإحاطه بسور ودعمه بأبراج كبيرة .

وفي أواخر القرن السابع الهجري أقام السلطان محمد بن محمد الأحمر ثاني سلاطين غرناطة الملقب بالغالب بالله حصنا جديدا وقصرا ملكيا فخما، وأنشأ ابنه محمد إلى جوار القصر مسجدا كبيرا، وقد تلاحقت أيادي سلاطين بنى الأحمر على عمارة القصر وأضاف كل منهم إضافة جديدة، إلا أن القصر أخذ شكلا جديدا، ونما من الناحية المعمارية والفنية في عصر السلطان يوسف أبو الحجاج الذي صبغ على الحمراء ذوقا فنيا بديعا ، حيث أطلق للفنان الأندلسي حرية كاملة في أن ينسج من خياله ابتكارات وروائع زخرفية فريدة.

وقصر الحمراء يقع في قمة الربوة حيث يرتفع عن سطح الأرض بمقدار 700 متر تقريبا ويحيط بالقصر أسوار ضخمة ما زالت شاخصة إلى اليوم ويتخلل تلك الأسوار أبراج كبيرة وأبواب عظيمة منها برج الحراسة الذي يقع في الركن الغربي من الهضبة، وبرج قمارش الذي يقع خلف قاعة السفراء، وبرج المتزين وبرج العقائل وبرج الأثير وبرج الأميرات، وكل هذه الأبراج تقع في الجانب الشمالي من الهضبة.

أما اشهر أبواب الحمراء الباقية هي باب الغدور وباب الطباق السبع وباب السلاح وباب النبيذ الى جانب باب الشريعة سالفة الذكر.

أهم المعالم في قصر الحمراء :

يعد قصر الحمراء أشهر وأعظم أثر إسلامي باقٍ من حضارة الأندلس، كما أنه يعد من أروع أمثلة العمائر المدنية في العصر الإسلامي لما يضمه من أبنية نفذت بأساليب فنية فريدة ومبتكرة ، سواء من حيث التخطيط أو من حيث أشكال العقود والأسقف المقرنصة والأعمدة الرخامية

الرشيقة المنحوتة بدقة متناهية، والقاعات الفسيحة والساحات المكشوفة والفوارات المقامة على أجسام السباع والنوافذ التي تشرف على المروج والحوائط التي كسيت بشبكات المعينات الجصية والرخامية والواجهات التي غطيت بالفسيفساء المزججة في إطار فني وزخرفي لا نظير له، وقد لمح الفنان الغرناطي بعبقريته الفذة ونظراته الصائبة ما كان ينتظر غرناطة من مصير آت، وأنها سوف تقضى نَحْبهَا، كما لقيت أقرانها في قرطبة وأشبيلية وسرقسطة وملقة وغيرها من مدن الأندلس الإسلامية، ولذلك عمد الفنان أن يزين حوائط القصر وواجهاته الداخلية والخارجية بعبارة واحدة يتحسر فيها المصير المحتوم للقصر وهى عبارة "لا غالب إلا الله " ؛ فهذه العبارة توضح انعكاسا حقيقيا وحالاً سياسية مضطربة ومخاطر خارجية كانت تهدد مدينة غرناطة من حين لآخر، ولذلك لم نجد هذه العبارة في أثر إسلامي آخر ، ولم نقرأها إلا على جدران الحمراء .

والباحث في عمارة كنوز الحمراء قد تعجزه الحيلة في تحديد ما سيبدأ في ذكره من وصف لتلك المجموعة المعمارية الفنية الإسلامية الفريدة، ويمكن أن نقسم حديثنا عن قصر الحمراء من خلال قسمين رئيسين القسم الأول يضم أعمال يوسف الأول(1334 –1354م)، والقسم الثاني ويضم أعمال ابنه محمد الخامس من (1354-1391م)، والذي يتضمن بناء واستكمال القصور السلطانية.

أعمال يوسف الأول من (1334 -1354م):

ينسب إلى يوسف الأول بناء السور الذي يحيط بهضبة الحمراء والأبراج الخارجية وكذلك باب الشريعة وقصر البرطل الذي يعد من اقدم قصور الحمراء الباقية وتخطيطه عبارة عن مستطيل الشكل واجهته مكونة من بائكة من خمس عقود يتميز العقد الأوسط منها باتساعه وارتفاعه وتشرف تلك البائكة على بركة كبيرة ورياض كثيرة تغوص فيها الأشجار والزروع ، ويتقدم العقد الأوسط من واجهة القصر فوارة ماء وفي الزاوية الشرقية من القصر يوجد بناء اتخذ تخطيط هيئة البرج مكون من طابقين وزخرفت واجهاته بالزليج وشبكة المعينات، ويجاور قصر البرطل مسجداً صغيراً مستطيل الشكل غطى بقبة كما ينسب إلى يوسف الأول بناؤه لمجموعة من الأبراج مثل برج الأسيرة وبرج الشرفات وبرج السيد .

أعمال محمد الخامس من (1354-1391 م) :

قام السلطان محمد الخامس باستكمال أعمال والده في قصر الريحان وقمارش وبنائه لبهو السباع وقاعاته وتلك القصور تعد أكبر مجموعة معمارية متكاملة باقية في العالم الإسلامي .

قصر الريحان : أو فناء الريحان وتخطيطه مستطيل الشكل يتوسط أرضيته فوارة ماء غرس من حولها أشجار الريحان ، تضمن فناء الريحان نقش كتابي مكتوب بالخط الأندلسي يقرأ "النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أبي عبد الله أمير المؤمنين ثم الآية الكريمة "وما النصر إلا من عند الله العزيز

الحكيم"وفي نهاية الفناء يوجد مدخل أندلسي عليه بارة"ولا غالب إلا الله" وهي عبارات تؤكد الحال السياسية التي كانت تعيشها مملكة الحمراء .

قاعة السفراء:وهي تقع في الجانب الشمالي من فناء الريحان وتعرف أيضا ببهو قمارش وهي تعد من أعظم معالم قصر غرناطة من حيث المساحة والفخامة وقد زينت واجهات قاعة السفراء الداخلية والخارجية بزخارف جصية ملونة شكلت عناصرها الزخرفية من وحدات هندسية ونباتية وكتابية، ويغطى قاعة السفراء قبة خشبية مقرنصة، ويتقدم قاعة السفراء رواق مستطيل يمتد في خط متوازٍ مع امتداد واجهة قاعة السفراء يعرف باسم رواق البركة، وفي الجانب الشرقي توجد الحمامات السلطانية، وهي تمثل أقدم أبنية الحمراء .

بهو السباع : وهو من أعمال السلطان محمد الخامس الذي يرجع إليه الفضل في بناء المجموعة الثالثة من أبنية قصور الحمراء ، وقد خطط بهو السباع على شكل مستطيل أبعاده(28م) طولاً × 15 م عرضاً ويلتف حول الصحن من جهاته الأربع رواق توجت واجهاته بعقود مقرنصة حملت أرجلها على أعمدة رخامية رشيقة , وعلى جانبي بهو السباع توجد سقايتان غطيت كل منها بجوسق عليه قبة رائعة حملت على أعمدة رخامية بديعة , أما وسط الصحن فقد زين بفوارة حملت على مجموعة تماثيل شكلت على هيئة الأسود , وقد وصف الفنان مجموعة التماثيل ضمن حركة تشغيل الفوارة حيث جعل الماء يخرج من أفواه الأسود ، ومن على جانبي بهو السباع توجد قاعات القصر فعلى الجانب الشرقي توجد قاعة الملوك أو قاعة العدل وفي الجانب الجنوبي توجد قاعة بنى سراج والتي تزدان بقبتها المقرنصة وفي الجانب الشمالي توجد قاعة الأختين نسبة إلى لوحتين متماثلتين من الرخام كانت تزين القاعة من الداخـــل، وقد غطيت قاعة الأختين بقبة مقرنصة بديعة.

والحقيقة أن مجموعة قصور الحمراء وبخاصة بهو السباع وقاعاته تعد من أعظم ما أنتجته قريحة الفنان المسلم , الذي يؤكد على رؤية فنية في غاية التعقيد ترتكز على كراهية الفراغ ولذلك استطاع الفنان الغرناطي في القرن 14م أن يغير من مفاهيم ونظريات كثيرة منها الإبهار الفني سواء من الناحية المعمارية أو الزخرفية في عمارة القصر على الرغم من حال عدم الاستقرار التي كانت تعيشها مملكة غرناطة من جراء التهديدات المسيحية الأسبانية فلم يؤثر ذلك في عضد الفنان الغرناطي بل ذهب يرسخ عن طريق الفن وجوده وكيانه.

ومن آخر معالم الحمراء قصر جنة العريف الذي يتكون من فناء شديد الاستطالة يتوسط أرضه مجرى مائي على جانبيه قنوات صغيرة يخرج منها الماء ومن خلف تلك القنوات تغوص أرض الفناء بالأشجار والزروع المختلفة ، أما في طرفي الفناء من الناحية الشمالية والجنوبية فتوجد أبنية القصر التي نظمت فتحاتها لتشرف على تلك

الرياض والبرك التي تؤكد على رؤية جديدة لدى الفنان المسلم بشكل عام , والأندلسي على وجه الخصوص من ناحية هندسة الحدائق والرياض وصناعة جر المياه وتشغيلها في نظم وحيل هندسية غاية في التعقيد.

أهم سمات العمارة في غرناطة :

يعدّ الفن الغرناطي قمة تطور الفن الإسلامي في المغرب والأندلس ؛ إذ وصل الفن الإسلامي في عصر بني نصر في غرناطة إلى ذروته الفنية والمعمارية وذلك بوصول العناصر والأساليب الفنية والمعمارية التي ظهرت فيما قبل في الفن الأموي في عصر الخلافة بقرطبة وفي ملوك الطوائف في قرطبة، وسرقسطة , وأشبيلية ، والمرية ، ومالطة ، وفي فن المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس إلى قمة نضوجها. وقد انعكس ذلك بوضوح في قصور غرناطة وخاصة في قصور الحمراء , وأيضا انعكس في التحف الفنية التي أنتجت في فترة الدولة النصرية بغرناطة مثل الخزف، والنسيج، والمعادن، الأخشاب، إلخ...

وقد ظهرت في الفن الغرناطي في فترة بني نصر العناصر المعمارية كافة متجانسة ومتسقة مع العناصر الزخرفية .

التحف الفنية المنسوبة لغرناطة :

1- جرار الحمراء : وصل فن الخزف الأندلسي إلى قمة تطوره في عصر دولة بنى نصر بغرناطة، وكانت مالقة وغرناطة والمرية من أهم المدن التي كانت تنتج هذا الخزف، على أن مالقة كانت تعد أهم مراكز إنتاج الخزف في فترة مملكة غرناطة .

بلا شك فإن أعظم ما أنتجه الفنان الغرناطي في دولة بني نصر من الخزف هي جرار الحمراء ذات الحجم الكبير والزخارف الرقيقة. وتعد هذه الجرار فريدة في نوعها من حيث الصنعة والزخرفة، ويمكن نسبة هذه الجرار إلى القرن من 13-15م، وهي تأخذ شكلاً بيضيّاً مع قاعدة ذات قطر قليل من أسفل ورقبة مخروطية من أعلى ويدين تخرجان من أعلى بدن الجرة حتى تلتصقا بالرقبة المذكورة ، ويعرف هذه الجرار عدد ليس بالقليل وهي :

- جرة باليرمو بصقلية : التي تعود إلي أواخر القرن 13 وأوائل القرن 14م، والمحفوظة في Galleria Regionale Della Sicilia وهي من الخزف ذي البريق المعدني ، ويصل ارتفاعها إلى 128 سم، ذو البريق المعدني المزخرف أيضا باللون الأزرق . ويبلغ طولها 135 سم. وهي بذلك تعد أطول الأعمال الخزفية الغرناطية. ويمكن نسبة هذه الجرة إلى الجرار المتطورة الحديثة من جرار الحمراء. كذلك تعد هذه الجرة قمة ما وصل إليه الخزف الأسباني في العصور الوسطى , وأيضا تعدّ واحدة من أهم الأعمال المهمة والرئيسة في الخزف العالمي، وقد جاءت ألوان هذه الجرة باللون البني والأبيض ذي البريق المعدني على أرض زرقاء ملونة , ولهذه الجرة رقبة مخروطية مقسمة إلى أشرطة طولية مزخرفة بزخارف نباتية وهندسية بالتناوب , أما

البدن فهو في زخرفة شريطين عريضين كبيرين يفصل بينهما شريط كتابي صغير يضم عبارة "اليمن والإقبال" منفذة بالخط النسخي الأندلسي. أما الشريط العلوي فهو مقسم إلى مناطق عن طريق عقود مفصصة كبيرة تضم بداخلها شريطاً كتابياً يحتوى على نفس العبارة السابقة " اليمن والإقبال".

– ثريا السلطان أبو عبد الله محمد الثالث سلطان غرناطة : تعد هذه الثريا واحدة من أهم القطع النصرية في القرن(8هـ– 14م). وهي مؤرخة بشهر ربيع الأول لعام (705 هـ – 1305 م). وهي محفوظة في متحف الآثار الوطني بمدريد .

وصنعت هذه الثريا من البرونز، وتبلغ ارتفاعها 170 سم وقطرها من أسفل 80 سم، ويرجح أن هذه الثريا تم صنعها في أحد المصانع الملكية في غرناطة , وذلك لمسجد الحمراء الذي هدم بعد في عام (898هـ– 1492 م).

– سيف السلطان أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة : وهو سيف بغمدة محفوظ في متحف الجيش بمدريد، طول السيف 97 سم وطول الغمد 77سم، وقد أخذ هذا السيف وغمده من أبي عبد الله بعد معركة Lucena التي وقعت في عام (888هـ– 1483م). والسيف مصنوع من الفولاذ وله مقبض من الصلب المطعم بالفضة والمينا ذات الألوان الأحمر والأخضر، وقد نفذ بهذه المينا زخارف نباتية مختلفة , وأيضا آيات قرآنية منها "الله خير حافظاً" وفي وسط هذه اليد جزء عاجي زخرف أيضا بزخارف نباتية , وينتهي هذا المقبض من أسفل برأس تنين . أما الغمد فمصنوع من الخشب المغطى بالجلد والديباج والفضة المزخرفة بزخارف نباتية مختلفة وحمالة السيف صنعت من الحرير والفضة .

–علبة من العاج والفضة أبعادها 9.4 سم طولاً و11.5 سم قطراً تؤرخ هذه العلبة بنهاية القرن 13م وهي محفوظة في سرقسطة في Cabildo Metropolitan وهي مزخرفة بالتلوين ورقائق الذهب . وقد زخرف غطاء العلبة وبدنها بزخارف هندسية قريبة من خلايا النحل ويوجد حول بدن العلبة شريط كتابي نسخي عبارة عن موشح يقرأ كالتالي :

ياحق عين الحقيقة أسمى
وأودعوني أن الأمانة قسمي
لم أضع وديعتي طول عمري
وبهذا العلو أعلى الناس إسمي
لن صلح إلا المليح .

ويحيط بهذه العلبة شريطان طوليان يتقاطعان في وسط غطاء العلبة على هيئة دائرة , وقد زخرف هذان الشريطان بزخارف كتابية عبارة عن كلمة مكررة ومنفذة بالخط الكوفي.

الخلاصة :

تعد قصور الحمراء في غرناطة متحفاً مفتوحاً ، يشهد على عبقرية الفنان المسلم في الأندلس ، حيث تميز الفن الغرناطي بأنه فن دنيوي، ثرى، متكامل النسب، شديد التناسق، يتعامل مع

المساحات بدقة، وينسج على الواجهات خيوطاً فنية رقيقة وأشكال هندسية معبرة ، وكثافة من التوريقات النباتية، إلى جانب الإسراف في استخدام التكسيات بأنواعها، سواء الجصية أو من الفسيفساء أو من بلاطات الزليج، كذلك تميز الفن الغرناطى باستخدام المقرنصات في أشكال نجمية معقدة وبزخم زخرفي كبير نفذت على مواد مختلفة من الحجر والرخام والجص والخشب وغيرها. إن أبنية الحمراء مازالت تعبر في قوتها عن مضامين ودلالات لم يكشف النقاب عنها بعد ، فهي رصيد شامخ لشعب بلغ قمة التطور في التمتع بحاضره ، إلى جانب قمة التشكك في غده، وسجل عرفاء غرناطة وثيقة منقوشة بشتى دروب الفن، على أبنية الحمراء وجنانه، وهندسة حدائق تؤكد قدر ما بلغه عرفاؤها من مكانة في صناعة الجمال، ونسيج الخيال على الواقع، كما تتأكد عبقريتهم في حركة المزج بين توزيع الخمائل والجنان ومنظومة العمائر والقاعات والمقاعد والأفنية والسقايات والبرك، التي استقاها عرفاء غرناطة من وصف الجنة في القرآن الكريم والسنة، ولذلك جاءت عمارتها وزخرفتها على غير ما هو مألوف، في أبنية القصور والجنان في الفنون الأخرى .

النتائج :

كشفت الدراسة السابقة عن مكانة مدينتي قرطبة وغرناطة، بالنسبة لتاريخ الأندلس، كما أوضحت الدراسة أهم الآثار المعمارية وما كان في مدينتي قرطبة وغرناطة، كذلك أوضحت الدراسة عمارة مدينة الزهراء، وما كانت عليه إبان إنشائها من تطور معمارى وزخرفي بديع، كذلك أوضحت الدراسة الإسهامات الشرقية والمغربية في بناء الحضارة الأندلسية ، أوضحت الدراسة نتائج الحفريات الأثرية الحديثة في منطقة الزهراء وقرطبة ، وأهمية هذه النتائج في تغيير بعض المفاهيم الخاطئة، كذلك أوضحت الدراسة مراحل عمارة مسجد قرطبة مبينة السمات المعمارية والفنية لكل مرحلة، كذلك بينت الدراسة أثر الفن المعماري القرطبي في أوروبا لما كشف موضوع البحث عن عظمة المنتجات الفنية التي تنسب إلى قرطبة كالتحف المعدنية والآلات الفلكية، والتحف العاجية ، والتحف الخشبية، والتي ما زالت تزين متاحف أوروبا .

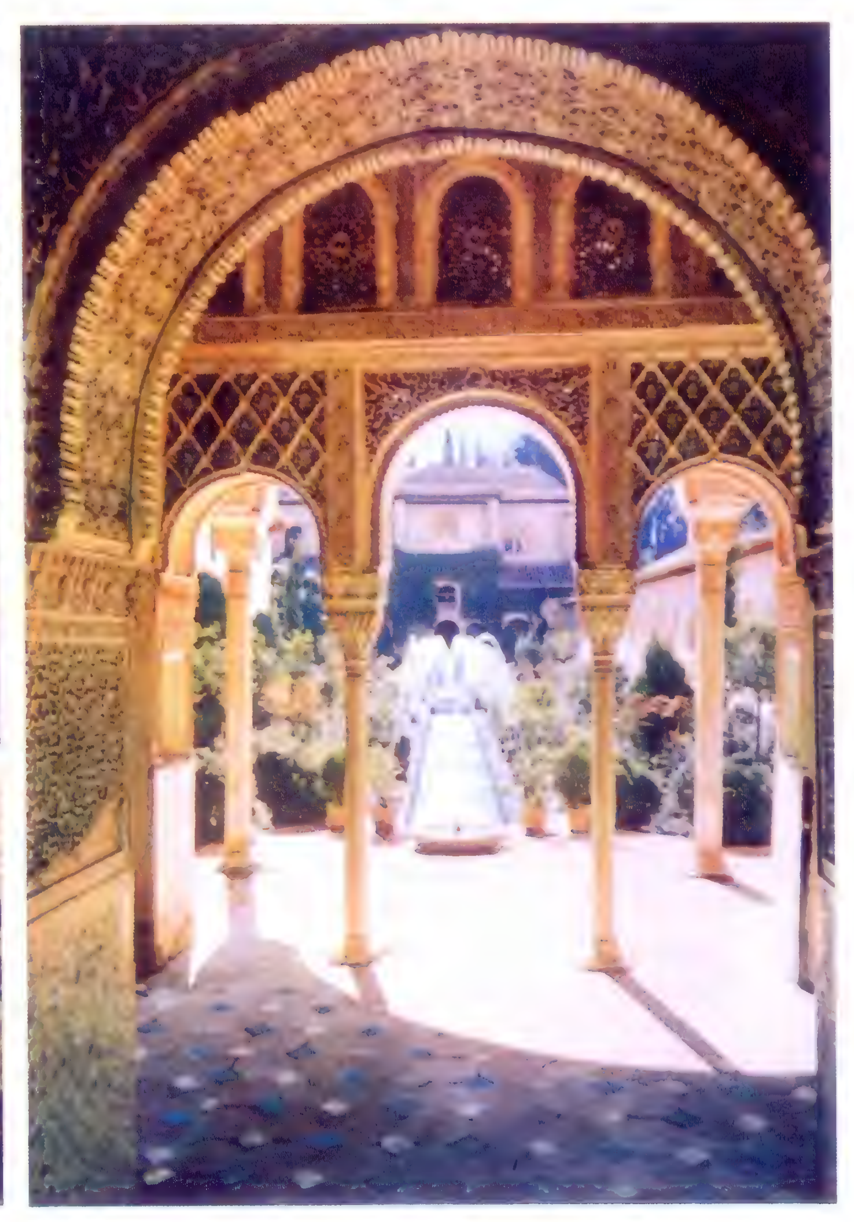
وبالنسبة لغرناطة كشفت الدراسة عن مكانه المدينة وتميز موقعها، وعن ملامح عمارتها الإسلامية وبخاصةَ درة فنوها المعمارية في قصور الحمراء، حيث كشف البحث عن المراحل المعمارية والمعالم الأثرية، في قصور الحمراء إلى جانب دراسة أعظم ما أنتجت غرناطة من التحف الإسلامية كجرار الحمراء الشهية، والتحف العاجية، وغيرها و وكانت تشكل في مجموعها قيمة فنية فريدة تزين بها متاحف الغرب.

الخاتمة :

يتضح من الدراسة السابقة مدى الإسهامات الكبيرة التي قدمتها حضارة قرطبة وغرناطة، ليس في العصر الإسلامي فحسب , بل

بعد أن سقطت تلك المدن في أيدي الأسبان، فقد فطن الأسبان إلى ما تضمه تلك المدن من كنوز معمارية وفنية وأدبية، فَسَنُّوا القوانين التي تُجَرِّمُ الاعتداء على تراث الحضارة الإسلامية في الأندلس وقاموا بترميم ما تداعى من أبنيتها، وعملوا على كشف ما توارى منها تحت الثرى , فأعادوا كشف مدينة الزهراء , وفتحوا قصور الحمراء وسرقسطة لملايين الزائرين من أنحاء العالم ؛ إيماناً منهم بقيمتها الحضارية التي لا يضارعها مثيل.

أ.د. محمد محمد الكحلاوي
(جامعة القاهرة)

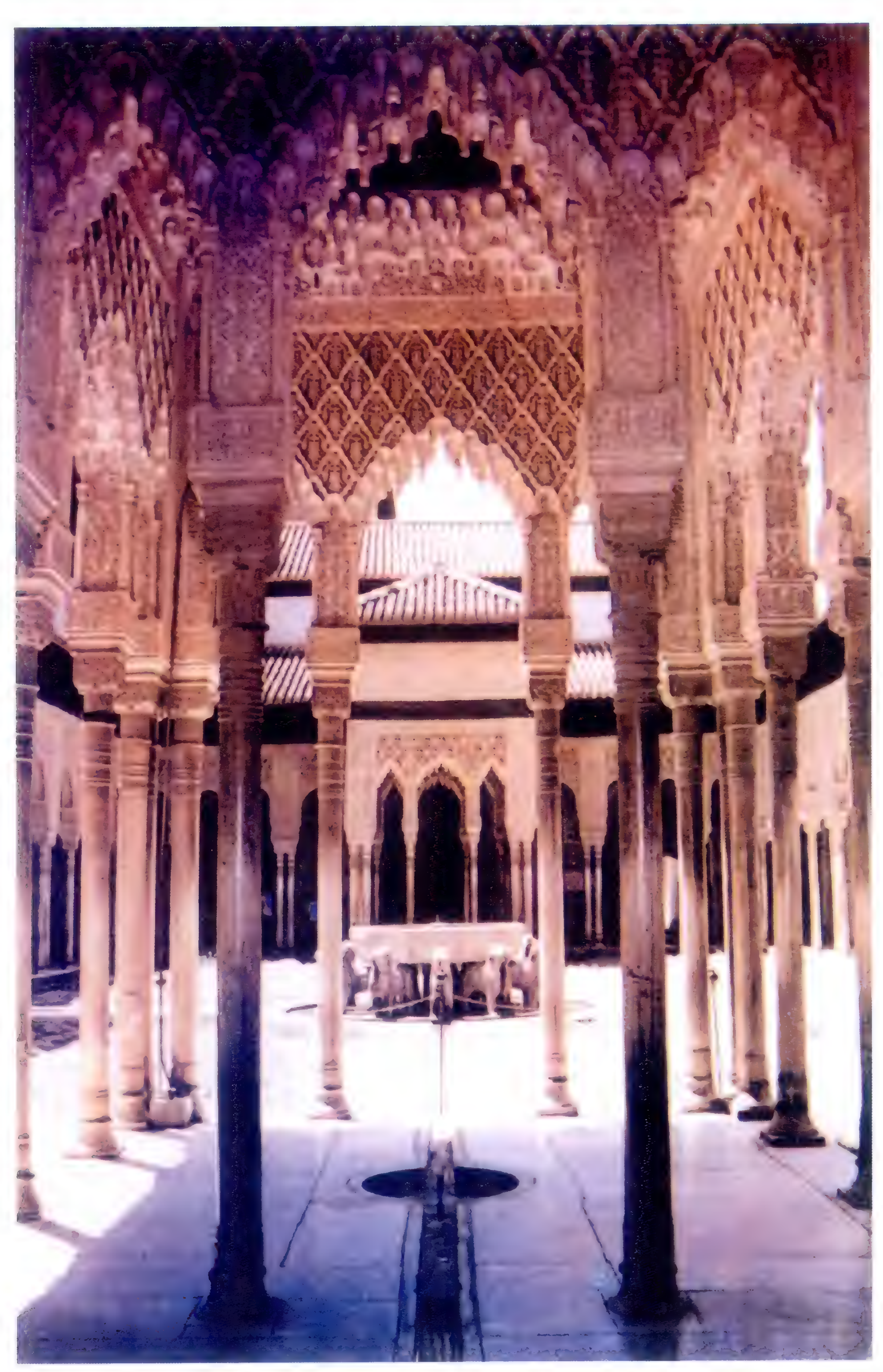




قصر جنة العريف - أبنية القصر و المجرى المائى



قصر الحمــراء بغرناطة ـ قاعــة السفــراء



- قصر الحمراء - غرناطة - بهو السباع

المصادر والمراجع

1): المصادر

- **الإدريسى** (أبو عبيد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودى) ق6هـ/12م.
-**نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، جزآن، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
- **الحميرى** (أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم) جمعه سنة 866هـ/1461م.
-الروض المعطار في خبر الأقطار، منتخبة من الكتاب حققها ليفي بروفنسال ونشرها تحت عنوان "صفة جزيرة الأندلس" مصحوبة بترجمة باللغة الفرنسية، القاهرة، 1937م .
- **ابن حيان** (أبو مروان حيان بن خلف بن حسين ابن حيان بن محمد) ت 469هـ/1076م
-المقتبس في أخبار بلد الأندلس، قطعة تختص بخمس سنوات من خلافة الحكم المستنصر (سنوات360-970/364-974م)، تحقيق د. عبد الرحمن على الحجى، بيروت،1965م.
- **ابن الخطيب** (لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن على) ت 776هـ/1374م
-أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، القسم الثاني، نشره وحققه ليفي بروفنسال تحت عنوان "تاريخ إسبانية الإسلامية"، بيروت ، 1956م .
- **الزهرى** (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر) ت 545هـ/1150م
-كتاب الجغرافية وماذكرته الحكماء فيها من العمارة وما في كل جزء من الغرائب والعجائب، نشر وتحقيق محمد حاج صادق، مجلة الدراسات الشرقية ، المعهد الفرنسي بدمشق، المجلد (21)، سنة 1968م.
- **ابن سعيد الأندلسي** (أبي الحسن على بن موسى ابن عبد الملك) ت 685هـ/1286م.
-المُغرب في حلى المَغرب، القسم الثالث الخاص بالأندلس وهو كتاب "وشي الطُّرُس في حلى جزيرة الأندلس"، تأليف ابن سعيد وآخرين ، جزآن، تحقيق د. شوقي ضيف، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ، 1978م.
- **ابن عذارى** (ابو عبد الله محمد المراكشى) المتوفي بعد 712هـ/ 1312م
-البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق ج . س كولان وليفي بروفنسال، الطبعة الثالثة، (4) أجزاء، دار الثقافة، بيروت، 1983 .
- **العذرى** (أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس العذرى المعروف بابن الدلائى) ت478هـ/1085م
-ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، قطعة من الكتاب حققها ونشرها د. عبدالعزيز الأهوانى تحت عنوان "نصوص عن الأندلس"، مطبوعات المعهد المصرى للدراسات الإسلامية، مدريد، 1965م.

- **ابن غالب الغرناطى** (محمد بن أيوب) (من أهل القرن 6هـ/12م)
- فرحة الأنفس في أخبار الأندلس، قطعة من الكتاب، تحقيق د. لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، مجلد (1)، الجزء (2)، 1375هـ/1955م.
- **المقــرى** (شهــاب الدين أحمد بن محمد التلمسانى) ت 1041هـ/1631م
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، 10أجزاء، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، الطبعة الأولى، القاهرة، 1367هـ/ 1949م.

2) : المراجع العربية والمعربة:

- **السيد عبد العزيز سالم**
- تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، من الفتح العربى حتى سقوط الخلافة بقرطبة، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د.ت .
- في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1985م.
- قرطبة حاضرة الخلافة، جزآن، دار النهضة العربية، بيروت، 1971 -1972.
- **جودة هلال ومحمد محمود صبح**
- قرطبة في التاريخ الإسلامى، المكتبة الثقافية (72)، القاهرة نوفمبر 1962م.
- **جوميث مورينو ، مانويل**
- الفن الإسلامى في أسبانيا ، ترجمة د. لطفي عبدالبديع و د. السيد عبدالعزيز سالم، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، د . ت . 1978م
- **كريزويل ، ك . ا . س**
- الآثار الإسلامية الأولى، ترجمة عبدالهادى عبلة وأحمد غسان سابو، دار قتيبة، دمشق، 1984م .
- **محمد عبد الله عنان**
- الآثار الأندلسية الباقية في أسبانيا والبرتغال، الطبعة الأولى، القاهرة، 1956م .
دولة الإسلام في الأندلس، الخلافة الأموية والدولة العامرية، العصر الأول، القسم الثاني، الطبعة الثالثة، مكتبة الخانجى، القاهرة، 1988م.

3): المراجع الأجنبية:

Golvin,L.; Note sur un decor de marbre trouve a Madinat Al-Zahra, Al-Andalus, Vol. XXV, Fasc.1, 1960,

- **Manzano Martos**, Rafael; Casas y Palacios en La Sevilla Almohade sus antecedentesicos, En "Casas y Palacios De Al-Andalus, Barcelona,1995
- Marianne Barrucand, Achim Bednorz; Arquitectura Islamica en Andalucia, Berlin, 1992.

- **Ocana Jimenez,Manuel**; Capiteles Epigrafiadas de Madinat Al-Zahra, Al-Andalus, Vol.IV, Fasc.1, 1936-1939.

- **Pavon Maldonado**, Basilio; Ciudades Hispanomusulmanas, Madrid, 1992.

- **Pavon Maldonado**, Basilio; La loza domestica de Madinat Al-Zahra, Al-Andalus, Vol. XXXVII, Fasc.1, 1972.

- **Pavon Maldonado**, Basilio; Tratado de Arquitectura Hispanomusulmanas, I, Agua, Madrid, 1990.

- **Torres Balbas**, Leopoldo; Al-Madina Al-Zahira La Ciudad de Almanzor, Al-Andalus, Vol. XXI, 1956.

- **Torres Balbas**,Leopoldo; Restauraciones de las ruinas del Salón Rico de ABD AL-RAHMAN III en Madinat Al-Zahra, Al-Andalus, Vol. XIII, Fasc.2, 1948.

- **Valve Bermejo**, Joaquin; Notas De Metrologia Hispano-Arabe,El Codo en la Espana Musulmana, Al-Andalus, Vol. XLI, Fasc. 2, 1976

سابعاً : صنعاء وزبيد

المقدمة:

إن هذا البحث الموسوم بالفنون والعمارة المدينة والعسكرية لمدينتي صنعاء وزبيد، ما هو إلا محاولة متواضعة نعطي من خلاله صورة نرجو من الله أن تكون واضحة المعالم متكاملة الجوانب عن هذا النوع من الأبنية والفنون .

وتكمن أهمية هذا النوع من الأبنية والفنون في هاتين المدينتين في أهما مازالتا حَيَّتَيْنْ ومسكونتين وتحتفظان بأروع التراث المعماري والفني ، وعلى أصالتهما المعمارية والفنية ومقوماتهما الحضارية العربية، إضافة إلي أن العمارة والفنون في صنعاء وزبيد تتجلى فيهما الأساليب الفنية والتصميمات المعمارية الإسلامية.

وكانت مدينة صنعاء عند ظهور الإسلام تتبع إدارياً الإدارة الفارسية، ويحكمها وال فارسي هو "باذان" الذي أعتنق الإسلام وولاه الرسول (ﷺ)على مدينة صنعاء، ثم تعاقب الولاة عليها من قبل الرسول (ﷺ) والخلفاء الراشدين ثم خلفاء بني أمية، وبني العباس، وكانت هذه المدينة هي قصبة إقليم اليمن.

وعندما بدأ الاستقلال عن طاعة الخلافة العباسية، وأصبحت مدينة زبيد (204هـ-820م) عاصمة لدولة بني زياد وإقليم تهامة وكان الكثير من أمراء هذه الدولة يتطلعون إلي الاستيلاء على مدينة صنعاء، وخاضوا معارك مع الدويلات الأخرى التي نشأت في صنعاء كدولة بني يعفر الذين خطبوا باسم الخليفة العباسي المعتمد على الله والأمير الزيادي أبو الجيش إسحاق ، ثم الدولة الزيدية التي ما فتئت تتطلع إلي الاستيلاء على مدينة صنعاء ، ولم تستقر فيها لأن المدينة – كما أشرت – كانت مثار نزاع للسيطرة عليها .

وظلت مدينة صنعاء العاصمة الرئيسة لإقليم اليمن كله حتى في فترات حكم ولاة الدول التي تعاقبت عليها كدولة بني يعفر والدولة الزيدية والدولة الصليحية .

وأن كانت زبيد في فترات تاريخية تأخذ هذا الدور وخصوصا في فترات الحسين بن سلامة، آخر أمراء دولة بني زياد وفي بعض فترات حكم الدولة الأيوبية، ودولة بني رسول، إلا أنها استطاعت أن تحتفظ بأن تكون عاصمة رئيسة لدولة بني زياد والدولة النجاحية وعاصمة لإقليم تهامة على مدار التاريخ .

هذا وقد اعتمدت الدراسة في هذا البحث على الدراسة الميدانية لكل من المدينتين، معتمدة على المنهج الوصفي الأثري مع استخدام المنهج التاريخي، وذلك بدراسة المدينتين من حيث نشأة المدينتين وتخطيطهما وحاراتهما والمنازل، والأسواق، والحمامات والأسوار، والبوابات، والأبراج، والتوسع العمراني لهما، ومن الفنون المنسوجات، والمسكوكات ، وفنون الكتاب .

إضافة إلي العديد من المصادر والمراجع التي كان لها الأثر الكبير في إخراج هذه الدراسة.

1- صنعاء :

تعد صنعاء المثل الحي للعمارة والفنون الإسلامية في اليمن بما تضمه من منشآت دينية ومدنية وعسكرية، وما تحويه من فنون زخرفية ومشغولات يدوية شملت مختلف هذه الأنواع.

وقد ظلت هذه المدينة بطول فتراها التاريخية محط أنظار الرحالة من العرب والمستشرقين، الذين أفاضوا في وصفها ، فكان منهم المنصف المتحري الدقة ومنهم من أخذ ببهرجة ورونق عمارها وزخرفتها فأطلق لخياله العنان في الوصف ،فها هو ذا الريحاني يقول : "أيُّ صنعاء مثلك التاريخ فكنت مليكة الزمان ، ومثلك العلم فكنت ربة العرفان ، ومثلك الأساطير فكنت سيدة الجن والجان..." .

أجل إن صنعاء في محاسنها لا تخيب للزائر أملا، فكلما دنوت منها فهو عكس الحقيقة في أكثر المدن ازداد رونقها وازداد إعجابك بها، فهي في مقامها الطبيعي فريدة عجيبة وفيها الهواء أعذب من الماء، والماء أصفى من السماء... فبناؤها أجمل هندسة وأكثر إتقانا لأن الأسلوب عربي لا يشوبه شيء أجنبي .

وصنعاء نسبة إلي صنعاء بن أزال بن عامر، وهي من الفعل: صنع، وتجمع صفاوات وهي مبان من القصور والحصون، كما أها نسبة إلي جودة الصنعة في ذاها وهي مشتقة من الجذر القديم : صنع، بمعنى حصن ومنع.

هذا وكان اسمها القديم أزال، فلما وافتها الحبشة نظروا إليها ورأوها مبنية بالحجارة قالوا، هذه صنعة وتفسيرها بلساهم حصنة فسميت صنعاء، وأزال من أزل يأزل، أي تمنع وتحصن، كما سميت أيضا باسم سام نسبة إلي سام بن نوح، حيث يذكر أن سام بن نوح اجتوى وكره السكني في أرض الشمال، وأقبل طالعا يرتاد أطيب البلاد، حتى صار إلي اليمن فوجدها أطيب البلاد مسكنا وارتاد اليمن فوجد صنعاء أطيبها

وتسمى صنعاء في النقوش اليمنية القديمة (هـ جـ ر ن/ ص ن ع و) وهجرن بلغة النقوش اليمنية تعني المدينة المحصنة.

الموقع:

تقع مدينة صنعاء ضمن الهضبة الشرقية لليمن في الأحواض المنخفضة لهذه الهضبة، وبالتحديد عند سفح جبل نقم، الجبل الجوي للمدينة، الذي يعليه تجمع غيوم المطر في الصيف وذلك كان له الأثر الكبير في اختيار موقع المدينة، إضافة إلي وقوعها في سهل منبسط وخصب تتوافر فيه المياه الجوفية والتربة التي تشكلت من خلال تلك الصخور المليئة بالمعادن، لذلك تم اختيار موقع المدينة وإقامة مجتمع حضاري فيها. كما أها تحتل مركزا وسطا بالنسبة لخطوط الطول والعرض فهي تقع على خط طول (44,15 درجة) شرقا، ودائرة عرض(15,15درجة) شمالا، ويشير أحد

الباحثين إلي أن مدينة صنعاء تقع على دائرة عرض(15,23درجة) شمالا وخط طول (44,23درجة). وترتفع عن مستوى سطح البحر بنحو 2350م ويحيط بها من جهة الشمال تلال منخفضة تتكون من الحجر الجيري، وعلى الجانب الشرقي فإن حافة حوض صنعاء محزوزة بصورة عميقة والجبال التي تشكل الجوانب الشرقية والغربية والجنوبية لسهل صنعاء صخور بركانية .

تاريخ المدينة :

لقد دار حول تاريخ مدينة صنعاء روايات كثيرة وأساطير تتفق وتتشابه في أن المدينة قديمة البناء، وربما كانت قد بدأت بشكل قرية صغيرة في سفح جبل نقم ، ثم تطورت إلي مدينة صغيرة، وتشير الدراسات العلمية إلي أن الملك السبئي هلك أمر بن كرب إل وتر يهنعم ملك سبأ وذي ريدان، أمر باختطاط مدينة صنعاء في النصف الثاني من القرن الأول الميلادي، ووطن فيها قبيلتي سبأ وفيشان وبالتحديد في سنة(70)م كما جاء في نقش من عهد الملك هلك بن أمر، وذكر معها مدينة شعوب "القسم الشمالي من مدينة صنعاء" وبها سمي أحد أبواب صنعاء القديمة باب شعوب، كما ذكرت أيضا بنقش يعود إلي سنة (90م) من أيام الملك السبئي ذمار علي ، ثم توالي ذكرها حتى عام(525م) ،ولذلك فإنه من الممكن القول بأن صنعاء قد عرفت باسمها وكمدينة في حوالي فترة ميلاد المسيح عليه السلام، كما يبدو أنها قد اكتسبت أهميتها بعد الغزو الحبشي لليمن عام (525م) وحلت محلها ظفار العاصمة الحميرية، كما أنها كانت مقراً للملك الحميري ذي نواس (يوسف أسار يثأر) ثم مقرًا للولاة الفرس الذين خلفوا ذا نواس، حتى اهتدى باذان الفارسي عامل كسرى أبرويز الثاني في صنعاء للإسلام عام 6 هـ/ 628م .

صنعاء في العصر الإسلامي :

كانت صنعاء عند ظهور الإسلام تتبع الإدارة الفارسية ويحكمها وال من قبل الدولة في عاصمتها المدائن، وهو باذان الذي كان يراقب ما يدور في مكة من أحداث، وقد استجاب مع أهل اليمن لدعوة الرسول (ﷺ)سنة 6هـ/628م وعينه الرسول(ﷺ) واليا على صنعاء، إلي جانب ذلك أرسل الرسول (ﷺ) الدعاة إلي اليمن من صحابته لنشر الدين الإسلامي فيها .

وتعاقب على مدينة صنعاء ولاة من قبل الرسول، ثم من قبل الخلفاء الراشدين من بعده، ثم في عهد الدولة الأموية والدولة العباسية، وكانت صنعاء طوال تلك الفترات العاصمة الرئيسة لإقليم اليمن، مع وجود مدن أخرى اتخذت كعواصم للدويلات التي استقلت عن عاصمة الخلافة العباسية.

ولقد شهدت مدينة صنعاء ميلاد أول مسجد خارج المدينة المنورة وثالث مسجد بني في الإسلام بعد مسجدي قباء والمسجد النبوي، الذي بني بأمر من الرسول (ﷺ) في السنة السادسة للهجرة علي يد وبر بن يحنس

الأنصاري حين أرسله الرسول (ﷺ) واليا عليها فقال له : "ادعهم إلي الإيمان ، فإن أطاعوك فاشرح لهم الصلاة، فإن أطاعوك بها فمر ببناء المسجد في بستان باذان ما بين الصخرة الململمة إلي غمدان واستقبل به الجبل الذي يقال له: (ضين)".

ثم بنيت جبانة صنعاء مصلى العيدين بأمر من الرسول (ﷺ) ، حيث أمر الرسول فروة بن مسيك المرادي وأبان بن سعيد أن يتخذا مسجداً بصنعاء في بستان باذان ... ثم قال: "اتخذوا لعيدكم مصلى" فدعوه إلي ناحية الحقل فقال: بل يكون المخرج من ناحية القبلة "الشمال" ، فصعدوا إلي غمدان فنظروا موضع الجبانة فسأل عنه فقيل : موضع معسكر الحبش فقال : لأنزلنه ولأجعلنه مصلى ما بقي.

وفي أثناء بناء الجبانة بنى فروة مسجدا للصلاة عرف باسمه ، وبنيت مساجد أخرى ووسعت في الدولة الأموية. أما في العصر العباسي فنجد أنه ظهرت هناك مبان أخرى مدنية في مدينة صنعاء كدار السك (دار ضرب النقود) في عهد محمد بن خالد البرمكي والي الخليفة هارون الرشيد وكذلك غيل البرمكي نسبة إليه .

وعندما تسلم الخليفة المأمون زمام الحكم واتساع رقعة الدولة الإسلامية وصعوبة السيطرة على أطرافها خرجت بعض قبائل تهامة (الأشاعرة وعك) فأرسل لهم المأمون محمد بن زياد الذي أسس الدولة الزيادية (204هـ/819م- 402هـ/1011م) واتخذ من زبيد عاصمة له مع بقاء الولاء للخلافة العباسية اسميا.

ثم ظهرت دولة بني يعفر وذلك بعد أن عهد الخليفة العباسي المعتمد للأمير محمد بن يعفر الحوالي سنة257هـ/870م بحكم صنعاء ومخاليفها واتخذت من مدينة صنعاء وشبام مقراً لها .

ثم قامت الدولة الزيدية في مدينة صعدة سنة 284هـ/879م عندما عاد إليها الإمام الهادي إلي الحق يحيى بن الحسين، وكذلك ظهرت الدعوة الإسماعيلية برئاسة ابن حوشب وعلي بن الفضل، وقد تمكن علي بن الفضل من الاستيلاء على صنعاء سنة 293هـ/905م من أيدي اليعفريين، وأُجبروا على قبول الولاة والطاعة له وإقامة الخطبة وضرب السكة باسمه، وبعد مقتل علي بن الفضل سنة 303هـ/915م استعاد اليعفريون صنعاء وظلت صنعاء مثار نزاع بين تلك الدويلات حتى سنة 444هـ/1052م حين دخلها السلطان علي بن محمد الصليحي واتخذها مقراً لدولته، وبعد وفاته تولى ابنه المكرم الذي نقل العاصمة إلي ذي جبلة وبعد وفاته أعقبته السيدة بنت أحمد 532هـ/ 1137م التي عينت واليها على صنعاء حاتم الهمداني الذي أعلن استقلاله في صنعاء وأسس دولة بني حاتم سنة 533هـ/1138م وبعد وفاته سنة 560هـ/1164م تولى ابنه علي، ومع قيام دولة بني حاتم ظهرت دولة بني المهدي في تهامة بعد بيعته بالقضيب سنة 538هـ/1143م

والذي استطاع القضاء على دولة بني نجاح سنة 554هـ/1159م وفي أثناء ذلك ظهر التحرك الأيوبي للاستيلاء على اليمن الذي تم سنة 568هـ/ 1172م .

وبعد هذا العرض الذي كان لابد منه في إلقاء الضوء على موقع المدينة وتاريخها ، والذي سيكون له الأثر في تخطيط وبناء المدينة وسبب اختيار موقعها وأثر ذلك في بناء المدينة واستخدم مواد بنائها التي جلبت من الجبال المحيطة بها بالنسبة للأحجار والتربة بالنسبة لصناعة الطوب المحروق ، وكذلك الجص والنورة في تغطية جدرانها واستخدامها كمواد رابطة .

أما بالنسبة للعرض التاريخي فإن الاستقرار السياسي وما يتبعه من رخاء اقتصادي ينعكس دائما على العمارة والفنون ، وذلك يلقي الضوء على تعدد الدويلات التي حكمت صنعاء، وتنازعت عليها وما يلحق ذلك من تدمير وبناء وتوسع ، وهذا ما مثلته بجلاء مدينة صنعاء في الفترة التي يضمها البحث. وبما أن البحث يشمل قسمين من أقسام العمارة الإسلامية : العمارة المدنية والعسكرية ، فسوف نبدأ بالعمارة المدنية و التي تشمل تخطيط المدينة حضرياً والمنازل والأسواق والحمامات والآبار و الأسبلة.

تخطيط المدينة:

بدأ الاستيطان الحضري لمدينة صنعاء قبل الميلاد بعدة قرون ؛ إذ لا يوجد بين أيدينا دليل يمكن أن يحدد البدايات الأولى لهذا الاستيطان، ومن الأرجح أنها بدأت بشكل قرى متناثرة في قاع صنعاء ثم اندمج بعضها مع بعض بسبب حاة كلّ للآخر.

وقد ذكرت صنعاء كمدينة في النقوش اليمنية القديمة في عهد الملك هلك أمر بن كرب أيل وتر في نقش يعود إلي سنة 70م باسم هجرن صنعو ، أي المدينة المسورة.

وهناك نقش يذكر أن الملك "شعرا وتر" سور مدينة صنعاء حيث ذكر كلمة جنأ/ صنعاء، والتي تعني سور صنعاء، ومما يؤيد ذلك ما ذكره الهمداني من أنه كان لصنعاء تسعة أبواب ، وأن سورها كانت تمشي فيه ثمانية خيول مجتمعة.

ويمكن تحديد بعض أجزاء من المدينة تعود إلي فترة ما قبل الإسلام (العصر السبئي) هي عضادات باب ستران والبوابة الجنوبية للقلعة (قصر السلاح) وجزء صغير من السور القريب من القلعة وبما أن للقلعة باباً قديماً ذا مدخل منحني فإنه من الممكن أن تكون موقع المدينة.

أما في العصر الإسلامي وبعد دخول أهل اليمن في الإسلام فقدكان لتوجيهات الدين الإسلامي الحنيف الأثر في التخطيط الحضري للمدينة وشهدت صنعاء حركة ازدهار على كل الأصعدة وتزايدت مساحات العمران التي كانت تتجه نحو الغرب، دون التوسع نحو الشرق بسبب أن المدينة بنيت على سفح جبل نقم فحدها من الشرق.

وكانت صنعاء في بداية العصر الإسلامي مقسمة إلي قسمين الأول يعرف باسم القطائع الذي كانت تعيش فيه الطبقة الحاكمة من أبناء الفرس الذين أتى بهم سيف بن ذي يزن لطرد الأحباش من اليمن، والذي بمقتله استولوا على الحكم في اليمن، وتزوجوا يمنيات وسمي ما أنجب منهم بالأبناء ، أما القسم الثاني فكانت تسكنه قبيلة بنو شهاب الأصلية، وقد حدد موقع الجامع الكبير الاتجاه الرئيس لتطور المدينة في صدر الإسلام، وكان لبناء الجامع الكبير الأثر البالغ في ازدهار حركة العمران حوله فبنيت الأسواق والمنازل وأخذت المدينة بالتوسع. وقد كان أول توسع عمراني لمدينة صنعاء عندما قام الصحابي الجليل فروة بن مسيك المرادي ببناء جبانة صنعاء (مصلى العيدين) خارج سورها الشمالي بأمر من الرسول (ﷺ) حيث قال: " اتخذوا لعيدكم مصلى" ، وشيد فروة بالقرب من الجبانة مسجد عرف باسمه إلي اليوم ، وبنيت حول الجبانة المنازل والدور كانت الدور شارعة عن يمين وشمال ، باسقة في الهواء وهي من أبهى العمارة وأحسنها صنعة وأجل منازل صنعاء، وكانت مساكن ولاة من يرد من العراق وحاشيتهم، كما كان يسكنها بعضاً من التجار والأغنياء، وعرف هذا الحي بحي فروة بن مسيك الذي مازال يحمل التسمية إلي اليوم، واستمر التوسع العمراني للمدينة حتى بلغ السائلة.

ومما يشهد على هذا التوسع ما شهدته صنعاء من حركة ازدهار عمراني كبير مثل تخطيط الشوارع والدروب في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد ، وقد سجل هذا الازدهار الكبير إبرازي بقوله: "استكملت عمارة صنعاء وكثر ريفها وكثر الخير فيها والإتيان من جميع النواحي إليها حتى بلغ عدد دورها مائة ألف دار وعشرون ألف دار وعدد مساجدها عشرة ألف مسجد وسقايا جمة وكانت الدور رفيعة البنيان عظيمة الشأن وقد بلغت قيمة بعض الدور إلي ألف دينار ، وفي سنة أربع وثمانين ومائة كان الوالي على صنعاء من قبل الخليفة هارون حماد البربري، وكانت صنعاء أعمر ما كانت يومئذ، إلا أن صنعاء لم تستمر في نموها الحضري فقد تعاورتها أسباب سياسية وأخرى طبيعية، أما السياسية فإنه عندما دخل الإمام الهادي إلي الحق يحي بن الحسين مدينة صنعاء سنة (288هـ/900م)، كانت عدد دور صنعاء (120ألف دار ثم تقلصت إلي (30 ألف) دار.

وقد شهدت مدينة صنعاء الاستقرار وتامين المصير فقد عدت دور صنعاء في عهد أسعد بن يعفر وأخيه عبد الله فوجدت نيفاً وثلاثين ألف دار، وتقلصت عدد الدور في أيام ابن وردان و قحطان موالي بني يعفر فأصبحت (14 ألف) دار كما أنها عدت في أيام أبي جعفر بن الضحاك فوجدت (6000) دار، وفي سنة 353هـ/964م خربت من الدور (1800) وفي سنة (344هـ/955م-365هـ/975م) خربت (74) داراً من دور النزول و(13) حماما أما

المساجد و السقايات فما لا يحصى، أما في سنة (381هـ/991م) فكان عدد دور صنعاء (1040) داراً منها (35) دار لليهود .

وعدت الحوانيت العامرة والخربة بصنعاء فبلغ (700)حانوت أخرب منها الكثير، وعدت المساجد العامرة فبلغت(160) مسجداً، وعدت الحمامات العامرة فبلغت(12) حماماً، وعدت المعاصر "معاصر السمسم" فبلغت (54) معصرة، وعدت مطاحن القرض الذي يدبغ به الجلود فكانت (33) مطحنة .

ويصف أحد المؤرخين مدينة صنعاء في تلك الفترة بقوله: "وعم الخراب بصنعاء وغيرها من بلاد اليمن من عام (405هـ- 1014م/ 448هـ -1056م) لكثرة الخلاف السياسي وكانت صنعاء وأعمالها كالخرقة الحمراء تتخطفها الحدأ، لها في كل سنة أو شهور سلطان غالب عليها حتى ضعف أهلها وانتقلوا إلي كل ناحية ، وهذا معناه نقص الاستيطان الحضري فيها وتوالي الخراب وقلت العمارة و أصبح عدد دورها ألف دار بعد أن كانت في عهد الرشيد مائة ألف دار.

هذا عن الأسباب السياسية أما الأسباب الطبيعية فنجد أن الكوارث الطبيعية عبثت بمصالح التحضر في مدينة صنعاء ، فقد أدى زلزال حدث عام 212هـ/827م إلي تخريب شديد للمساكن والناس، كما كان للسيل العظيم الذي حدث سنة 262هـ-875م تدمير كبير فقد شمل وحده تخريب أكثر من 6000دارسكنية في صنعاء.

وتنفست صنعاء الصعداء مرة أخرى في عهد السلطان علي محمد الصليحي الذي تولى ترميم السور بالحجر والجص وركب عليه سبعة أبواب هي(1- باب غمدان 2- باب دمشق 3- باب السبحة 4- باب الخندق الأعلى "يدخل من خلاله السيل" 5- باب الخندق الأسفل "يخرج من خلاله السيل" 6- باب النصر 7- باب الشرعة .

وبعد وصولها إلي السائلة نجد أنها قد توسعت غربا ، وذلك إبان العهود الإسلامية المتعاقبة ففي خلال عهود الدولة الهمدانية في القرن الخامس الهجري والأيوبية في القرن السادس الهجري، وتوسعت المدينة وامتدت إلي غربي السائلة ومد سورها إلي باب السبح، وأنشئ حي عرف بالنهرين وفي الطرف الجنوبي أقيم مقر الحاكم وعرف ببستان السلطان .

هذا وبلغ رقعة مدينة صنعاء التي يشغلها الحيزالمحاط بالسور نحو 118هكتار "1.18كم²" وطول محيطها أي طول السورالمحيط بالمدينة القديمة فيبلغ6.2كم

ويعتمد تخطيط المدينة على نظام توزيع الوحدات السكنية المتجاورة (بلك) ــ بحيث يكون لكل تجمع سكني مسجد وحمام ومقشامة(بستان) لتمويل سكان الحارة بما يحتاجونه من خضار وفاكهة ــ وهذا النوع يعرف بالحارة، والتي سميت نسبة إلي المسجد الموجود فيها.

كما اعتمد المعمار في بناء منازل صنعاء على نظام الطوابق المتعددة ، أي البناء الرأسي وذلك حفاظاً على رقعة الأرض الزراعية ، وهذا ما دأب عليه اليمنيون من الحفاظ على الأراضي الزراعية سواء في اختيار المدن أو بناء المنازل.

حارات المدينة :

اتبع في تخطيط المدن الإسلامية في العصور الإسلامية الأولى على نظام الخطط (الحارات) وذلك بعد أن يُحدد موقع المسجد ودار الإمارة ويتم توزيع الخطط عل حسب القبائل ويسند لكل قبيلة تنظيم خططها لحاراتها ويشرف عليها مهندس، ومن تلك المدن البصرة والكوفة والفسطاط ....الخ

أما بالنسبة لمدينة صنعاء فإن المدينة بنيت قبل الإسلام – كما مر – وبالتالي نجد أن المسجد الذي يعّد في تخطيط المدينة الإسلامية المحور الرئيس للمدينة قد بني في صنعاء في حديقة القصر ، ومن الصعوبة بمكان اعتباره محور المدينة مع أنه بني إلي جواره السوق وبعض المرافق الأخرى للمدينة، ومن خلال الملاحظات العامة لحارات المدينة تبين الآتي:–

1– ضيق الحارات وعدم انتظامها في الطول والعرض من مكان إلي آخر وذلك لا يتناسب مع المباني المرتفعة والتي وفرت حيزا كبيرا من الظل.

2– انحدار مستوى سطح الحارات بسبب وقوع المدينة على منحدر، واختلاف مستوياته من مكان إلي آخر.

3– الحارات المتفرعة من الشوارع غالبا ما تنتهي بشكل مغلق ، بعد أن تكون قد التوت عدة مرات بشكل منتظم.

4– هى تتميز حارات المدينة بأن لكل حارة ساحة أو ميدان يطلق عليها "صرحة" وهي غير منتظمة الشكل، وتعّد نقطة التقاء أو تفرع لعدة شوارع.

5– وجود بعض أجزاء من حارات المدينة تعد كتجمع سكني يفضي إليها مدخل واحد، وتطل من الناحية الخلفية على بستان (المقشامة) والتي تعتبر المتنفس لذلك التجمع، ويمكن سرد حارات المدينة الحالية بالشكل الآتي:–

1– شعوب 2– معمر 3– نعمان 4– السلام 5– العلمي 6– الفليحي 7–الجلا 8– الغزالي 9– الزمر"ازدمر" 10–الخراز 11– طلحة 12– الوشلي 13– داود 14– سبأ 15– سوق البقر 16– شكر 17– يروم 18– القاسمي 19– الأبهر 20– بحر رجرج 21– باب اليمن 22– موسى 23– الحميدي 24– الحلقة 25– نصير 26– دار الجامع 27– الشهيدين 28– ضفير 29– المدرسة 30– البكيرية 31– صلاح الدين 32– المفتون 33– ياسر 34– الطواشي 35– عقيل 36– الأبزر 37– معاد 38– الجديد 39– غرقة القليس 40– زبارة 41– سمرة 42– محمود 43– الباشا.

شوارع المدينة:

ترتبط مقاييس شوارع المدينة الإسلامية بعوامل مختلفة ، منها ما هو متصل بنظام التخطيط ، ومنها ما هو مرتبط بطبيعة الموقع والمناخ، إضافة إلي القيم الإسلامية ، والعادات وقد تقاربت مقاييس شوارع المدينة الإسلامية، ولاسيما أن جل الدراسات الأثرية والحضارية والتاريخية للمدينة الإسلامية وضعت شوارع المدينة الإسلامية بالتعميم وأكد الوصف على "ضيق شوارعها والتوائها" ، بل إن البعض اتهم المسلمون بإفساد الشوارع، وتشير الروايات إلي أن مقاييس الشوارع العامة والرئيسة في بعض المدن التي مصرت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب كان عرض شارعها الرئيس **60** ذراعاً ، وما سواها **20** ذراعاً والزقاق **7** أذرع، وجعلوا وسط كل خطة "حارة" رحبة فسيحة لمربط الخيل.

أما بالنسبة لصنعاء فنجد أن لطبيعة مدينة صنعاء اختلافاً حيث سكنت المدينة وهي قائمة بخططها وشوارعها و سورها ، وقد اعتمد في شوارعها على النحو الآتي

1– عدم استقامة شوارعها وضيقها وعدم امتدادها لمسافات طويلة وتفرعه إلي حارات ولا يوجد شارع يقطع المدينة بطولها أو عرضها وأحيانا يفاجأ المرء بإغلاق الشارع واختلاف ذلك من مكان إلي آخر .

2– عدم استواء سطح الشوارع بسبب وقوع المدينة على منحدر من الأرض.

3– تعد أهم الشوارع تلك التي تبدأ من البوابات ولكنها قصيرة سرعان ما ينحسر داخل الحارات، ومثال ذلك الشارع المتجه من باب اليمن إلي سوق الملح ويذوب فيه .

4– أغلب الشوارع تتجه من الشرق إلي الغرب أو العكس ، أما الجهتين الشمالية والجنوبية فقلما يبدأ منها سوى شارع باب اليمن وربما كان للمناخ أثره على ذلك.

5– تلتقي الشوارع داخل ساحات "صرحات الحارات".

6– يعد شارع قبة البكيرية في شرق المدينة من أطول شارع في المدينة الذي يبدأ مرورا من باب شعوب شمالاً، حتى باب السلام جنوباً مارا بمحاذاة السور.

منازل المدينة:–

عندما تذكر مدينة صنعاء يتبادر إلي الذهن منازلها ذات الطراز المتميز سواء في عمارتها وأسلوب بنائها أو ما تحمله من عناصر زخرفية تزين واجهاتها، وعندما تنظر إليها ، وكأنك تنظر إلي لوحة أبدعها الفنان ، وهي تعكس الحقيقة كلما دنوت منها في أكثر المدن ازداد رونقها وازداد إعجابك بها.

إن هذه المنازل بارتفاع بعضها المميز الذي يصل إلي ست أو سبع طوابق يعطي منظر لا يكون إلا في مدينة صنعاء.

ويبدو أن مثل هذه المنازل كان موجوداً قبل الإسلام ــ قصر غمدان ــ أما أول وصف لهذه المنازل فهو ما ذكره ابن رستة بقوله : "هي مدينة كثيرة الأهل طيبة المنازل ترتفع واحد بجانب الآخر مزخرفة بالجص والأجر والاحجار المشذبة ، وذكر ذلك الهمداني و الرازي ونقل عنهم ليكوك" وهكذا فإن النمط الصنعاني في بناء المنازل يعد قديم الجذور، وظل المعمار يتوارث ذلك النمط المعماري الذي يمكن إدراكه حتى في المنازل الحديثة ، وأقدم المنازل المتبقية حدث لها تحديث وتغيير خصوصاً أجزاءها العلوية التي دائما ما تتعرض للخراب بسبب العوامل الجوية ، أما الأجزاء السفلية فمن المحتمل أن بعضها يصل عمره إلي800 سنه تقريبا.

الملاحظات العامة للمنازل الصنعانية:

ــ تتميز المنازل الصنعانية بالأسلوب المتبع في ترتيب استخدام مواد بنائها من الحجر في الطوابق السفلية والأجر في الطوابق العلوية.

ــ عدم وجود فتحات نوافذ في الطوابق السفلية من المنازل ، كما لو كانت قلعة حربية، وتزداد الفتحات كلما اتجهنا إلي الأعلى وتكون معظم المنازل مجمع سكني بمدخل واحد يفتح على ساحة صغيرة تطل عليها المنازل بمداخلها ويشترك بعضها مع بعض في إطلالتها على الحديقة (المقشامة) بنوافذها الخلفية، التي من الصعوبة إدراك تلك الحديقة من الشارع .

ــ التفرد في تنفيذ الواجهات، بحيث يكون من النادر اتصال منزلين متجاورين في واجهة واحدة، أو التشابه فيما بينهما مع الاتفاق في الطراز الفني.

ــ يغلب على المنازل الشكل المستطيل والمربع لمسقطها الأفقي وتتفاوت في مساحتها وارتفاعاتها.

ــ استخدام المعمار الطريقة البنائية في اليمن القديم وذلك بحيث تكون المداميك السفلية أعرض من العلوية وهذه الطريقة تعطي قوة تحمل للمبنى واستمرارية.

ــ تتميز المباني الصنعانية بوجود غرف علوية يطلق عليها(المفرج) وتمتاز بسعة نوافذها وانخفاض مستواها بحيث يتيح للجالسين متعة النظر إلي الخارج.

ويمكن أن نجمل تخطيط المنزل الصنعاني في الآتي:–

إذا صح القول أن حضارة اليمن تنعكس في معمارها فإن مدينة صنعاء لاريب هي مثلها الأروع ، ولا تزال مدينة صنعاء تحتفظ بهندستها المعمارية العربية ؛ لأن الأسلوب العربي فيها لا يشوبه شيء أجنبي وهي مبنية بالحجارة البيضاء والسوداء (الحبش) ولذا يجدر بنا القول أن منازل صنعاء تكاد تكون متشابهة في تخطيط منازلها بطوابقها المتعددة (لوحة 1) (شكل2).

أ– المداخل :

تتباين المداخل من منزل إلي أخر من حيث الاتساع والارتفاع وذلك بحسب ثراء صاحب البيت، وهو عبارة عن فتحة مستطيلة الشكل يعلوها عقد نفذت واجهاتها بالحجارة البيضاء

والسوداء (الأبلق) ويزينها في بعض الأحيان بنقوش زخرفية، ويعلو فتحة المدخل عتبات من الحجر، وغالبا ما تكون فتحات المدخل متجهة نحو الجنوب (العدني) وذلك لمرور التيار الدافئ إلي المترل في الشتاء والبارد في الصيف وأحيانا يكون المدخل على هيئة حجر، ويغلق عليها أبواب خشبية مكونة من مصراع واحد تفتح فيه فتحة صغيرة تسمح بدخول الإنسان تسمى (خوخة)

ب- الطابق الأرضي :

يتكون من عدد من الغرف أغلبها تكون مرتبة في صفين يفصل بينهما ممر مستطيل يبدأ في بعضها بعد المدخل بسلم يؤدي إلي الطوابق العلوية وأحيانا يكون السلم في نهايته، وتكون أول غرفة بجوار المدخل مخصصة للحبوب وربما يكون بها مدفن للحب، ويوجد بها مطحن (رحى) أما الغرف الباقية فتخصص لمعيشة الحيوانات وتفتح هذه الغرف بأبواب واسعة تستطيع الحيوانات الدخول والخروج منها بيسر وتطل على الممر، وهذا الطابق عادة ما يبنى من الحجر (حجر الحبش) ولا تظهر فيه فتحات (نوافذ) سوى فتحات صغيرة للتهوية.

أما السلم فنجد أن درجاته تدور حول دعامة مربعة أو مستطيلة مبينة من الحجر تسمى القطب والتي تصل ارتفاعها إلي أعلى سطح المترل .

ج- الطابق الأول:

يتبع في تخطيطه نظام الطابق الأرضي وذلك باحتوائه على عدد من الغرف استخدمت في المنازل الكبيرة كمخازن للحبوب ، وفي المنازل المتوسطة يحتوي على الديوان ، وهو مكان متسع مستطيل الشكل يطل على الشارع بنوافذه الكبيرة التي تعلوها ستائر جصية (تعرف في اليمن باسم القمريات) ويستخدم لجلوس الضيوف، و يفتح على حجرة الوسط وبجانبيه غرفة أو غرفتين للاستقبال أما في المنازل الصغيرة فتخصص غرفة للمعيشة مع وجود المطبخ .

د- الطابق الثاني :

يتم الوصول إليه عن طريق السلم الصاعد، يتصدره فتحة على شكل مدخل يغلق عليه باب خشبي يفضي إلي قاعة وسطى تعرف باسم الحجرة وهي عبارة عن ساحة تفتح عليها غرف النوم والمطبخ والحمام وتطل هذه الغرف على الشارع بنوافذ منخفضة يغلق عليها مصاريع خشبية فيتصدرها أحيانا من الخارج مشربيات خشبية، وهذا الطابق مخصص لأسرة صاحب المترل من النساء ولأطفال

هـ- الطابق الثالث:

يتطابق في تخطيط بالطابق الثاني ويخصص لأفراد الأسرة سواء كانوا متزوجين أو عزاباً فإذا كانوا متزوجين فيفرد له طابق خاص.

و- المفرج:

عبارة عن غرفة مستطيلة الشكل يتوج المترل الصنعاني ويتوسط سطحها وتعّد من أهم مميزات

المنزل في صنعاء، ويتميز باتساع نوافذه وارتفاعها و تفتح من ثلاث جهات ويعلوها عقود نصف دائرية غطيت بالقمريات (ألواح من الرخام المرققة) أو ستائر جصية معشقة بالزجاج الملون.

ز- المرافق :

من الضروريات في المنزل عموماً وجود هذه المرافق من حمامات ومطابخ ومنها المنزل الصنعاني، حيث وجد فيها الحمام عبارة عن غرفه مستطيلة الشكل مغطاة من الداخل بطبقة من القضاض حتى يمنع تسرب المياه، ويحتوي على مرحاض مكون من مصطبة حجرية يتوسطها فتحة تتصل بمجرى يصل إلي حجرة تجمع المخلفات، أما المطبخ فيقع عادة في الطوابق الوسطى وخاصة المخصصة للنساء، وهو عبارة عن غرفة مستطيلة يوجد في جدارها الشمالي مصطبة مرتفعة عن سطح الغرفة مقسمة إلي عدة أقسام يوضع في كل قسم تنور ويعلو المداخن شكل جمالوني فتحت في جوانبه فتحات تسمح بتصريف الدخان ، كما يوجد به مكان مخصص للغسل يتصل بمجرى تصريف المياه.

ح- واجهات المنازل :

تعد واجهات المنازل الصنعانية من أجمل وأروع ما أبدعه يد المعمار اليمني في صنعاء ، وعندما تنظر إلي مدينة صنعاء فكأنك تشاهد لوحة فنية أبدعتها يد المعمار، بما تحمله هذه الواجهات من زخارف جميلة كونت تلك اللوحة التي انفردت بها المدينة إضافة إلي ما يتخلل الواجهات من مداخل ونوافذ وقمريات ومشربيات .

ونجد أن الطوابق السفلية للمنزل الصنعاني تبنى من الحجارة باللونين الأسود والأبيض، وذلك أضفى على هذه الطوابق نوعا من الإيقاع الجميل، أما الطوابق العليا فتبنى من الآجر وفيها فتحت النوافذ التي تزداد عددا وتتسم كلما اتجهنا إلي الأعلى، على عكس الطوابق السفلية الخالية من النوافذ وتتركز هذه النوافذ في غرف النوم التي غالبا ما تكون متمركزة في الجهة الجنوبية وتنعدم في الجهة الشمالية بسبب البرودة شتاء ، وهي مستطيلة الشكل يغلق عليها مصراعان من الخشب ويعلوها عقد نصف دائري غشي بالقمريات أو بالستائر الجصية المعشقة بالزجاج وذلك لتوفير الضوء في الدخل، والقمريات المستخدمة اتخذت أشكالا مختلفة إما عبارة عن دائرتين متماستين أو دائرة ويفصل بينها وبين النوافذ رفوف خشبية.كما أن المعمار قد قام بعمل نوافذ وهمية تبدو من الخارج حقيقية وذلك للتوازن الفني بين الواجهات التي تمت فيها النوافذ مع التي انعدم فيها(التماثل والسمترية) كما تعد الزخرفة الآجرية من أكثر العناصر تمييزا للمنازل الصنعانية، وقد نفذت بشكل أشرطة أفقية (حزام) تفصل بين الطوابق وخاصة المبينة من الآجر، وقد نفذت تلك الزخارف بواسطة قوالب الآجر البارزة وبأوضاع ينتج عنها تلك الزخرفة التي غلب عليها الخطوط الزجزجية (المتعرجة).

السوق :

من الملامح الرئيسة للمدن الإسلامية أنها ذات طابع تجاري ، بل نجد هناك مدن أنشئت أصلا كمركز تجاري سواء قبل الإسلام أو في العصرالإسلامي، ونشأة الأسواق في المدن الإسلامية كان من محاور النهضة بعمرانها فهي من متطلبات الجماعة الإسلامية وأحد ركائز الاقتصاد،لأن المدن تتفاضل بالأسواق وكثرة الأرزاق.

ونشأة الأسواق في المدن الإسلامية ترجع إلي عهد الرسول (ﷺ) فقد أنشأ سوقا للمدينة قريبة من دورها، وكان هذا السوق بداية لتطور عمراني استمر بعد ذلك في المدن الإسلامية في عصورها المتتابعة، وكانت السوق في المدينة عبارة عن ساحة خالية من البناء ، وبدأ البناء في الأسواق على عهد معاوية بن أبي سفيان الذي بدأ بالبناء في سوق المدينة المنورة . ثم تتابعت بناء الأسواق وتسقيفها في معظم المدن الإسلامية.

أما في صنعاء فعد سوقها أبرز معالمها الرئيسة المميز لها، والتي تعد نتاجا حضاريا وماديا لعصور متتالية على اعتبارها من أسواق العرب الجاهلية والتي استمر حتى اليوم ومن المحتمل أن مساحة السوق كانت في بداية الأمر صغيرة ثم راحت تتسع لتشمل مبان ملحقة به وهي السماسر (الخانات) ومعاصر السمسم والتي يوجد فيها حوالي 40 منها تتوزع حول السوق وتبلغ مساحة السوق الحالية 48.000م^2 المبني منها 27.000م^2 يتخللها بساتين مساحتها 4.250م^2 في حين أن مساحة السماسر 6.400م^2.

ويمكن أن نجمل القول بأن سوق صنعاء يتميز بالآتي:

أولاً: أن شوارع السوق ضيقة بشكل عام وغير مستقيمة تبعا لتخطيط شوارع المدينة - كما أسلفنا.

ثانياً: مباني المتاجر (الدكاكين) لا يزيد ارتفاعها عن طابق واحد ، ولا يتواجد فيها أماكن للسكن، كما يظهر على المتاجر البساطة والبدائية.

ثالثاً: تتوزع منطقة السوق على أسواق فرعية يتخصص كل فرع بنوع يبيع سلعة معينة، وحرفة معينة. وتتوزع حول السوق مبان مكملة لنشاط السوق وهي السماسر التي تخصص لإقامة التجار ودوابهم ومخازن لبضاعتهم.

هذا ويمكن تقسيم السوق في صنعاء إلي أقسام :

أولاً: أسواق بيع السلع

وتتركز هذه الأسواق في موضع شرق السوق ووسطه،وكما قلنا يختص كل فرع بنوع من السلع أو صنعة معينة ومنها:

1- سوق الملح 2- سوق الخبز 3-سوق القات 4- سوق الفضة 5- سوق الحب 6- سوق الحلبة والملح 7- سوق المعطارة 8- سوق الزبيب 9- سوق القشر 10- سوق الفتلة (القماش) البز 11- سوق العنب 12- سوق الحنة 13- سوق النحاس 14- سوق البقر

15- سوق الحمير 16- سوق الحطب 17- سوق الكوافي 18- سوق المصباغ 19- سوق المدر .

ثانياً: الأسواق الحرفية

وهي تختص بإنتاج وصناعة الأدوات مثل أدوات البناء والزراعة والتجارة والأثاث المنزلي، ومن هذه الأسواق سوق الجنابي (الخناجر)، وسوق العسوب (أي الجنابي وأحزمتها)، سوق المحدادة (الحدادين)، سوق المنجارة (النجارين).

ثالثاً: السماسر

السماسر هي مبان تخصص لإقامة الغرباء من التجار ، أثناء نزولهم السوق وتنقلهم لعرض بضائعهم، والإقامة فيها بأجر، وتقوم هذه المنشآت بوظيفتين أساسيتين هما عرض البضائع وتخزينها، وإيواء التجار ، وهي أقرب إلي وظيفة الوكالة المتعارف عليها في مصر والشام وكان بعضها تحت إشراف حكومي والبعض خاص، والسماسر في صنعاء تكون وقفا خاصا إيرادها يخصص لمسجد من المساجد ، مثال ذلك ما قام به أحمد بن المنصور ت1006هـ/1597م من بناء سمسرة العنب و أوقفها على جامع الروضة .

الوصف المعماري للسمسرة:

هو عبارة عن مبنى يدور حول فناء مركزي تدور حوله بقية أجزاء المبنى، ويتصدرها مدخل بسيط قياسا بحجم السمسرة ، وهو يتألف من عقود تدور حول فتحة المدخل التي أصبحت داخل حجرة وبجوار المدخل غرفة الحارس، ويشغل الطابق الأرضي حجرات تطل بفتحاتها على الفناء، ثم طابق أول يدور حول الفناء تفتح حجراته على ممرات تدور حول الفناء مشكلة بائكة من الأعمدة والعقود خصصت هذه الحجرات مخازن أما الطابقين الثاني والثالث فكانت تشغله حجرات تفتح على ساحة وسطية تغطي الفناء الموجود في الطابقين الأرضي والأول، وخصصت لسكن التجار، وهذه الحجرات عبارة عن مساحات صغيرة مربعة ذات سقف مقبي ومسطح، وتضاء بواسطة فتحات نوافذ مفتوحة على الخارج أو على الفناء.

الحمامات :

تعد الحمامات العامة من المنشآت المدنية التي تؤدي خدمة النظافة المرتبطة بدعوة الإسلام للعامة من سكان المدينة، ونظمت سلطات المدينة إنشاءها وما يتصل بها من تزويدها بمصادر الماء وقنوات الصرف، وما يصدر عن بنائها من دخان، وتتحكم أحيانا في تحديد مواضعها .

وقد حرصت سلطات المدينة في تصميم الحمامات على طهارة الماء، مما استوجب تصميم أحواض الماء وقنواته بطريقة معينة، كما نظمت الأحكام الفقهية العمل داخل هذه الحمامات، وخضعت لإشراف المحتسب بما يكفل لها الاستمرار علي وفق القيم الإسلامية.

وقد اشتمل الحمام معماريا على مدخل صغير يؤدي إلي ممر منكسر ينتهي بغرفة سميت المشلح أو المخلع ــ لخلع الملابس وحفظها ــ وبها يجلس

الحمامي، ثم يتصل بها الغرفة الثانية وهي الدفئة وبها أحواض ماء والهواء الساخن المار عبر الأنابيب الفخارية بحوائط القاعة لتدفئتها، وتتصل بحجرة ثالثة هي بيت الحرارة أو الحجرة الساخنة وهي مزودة "بمغطس"، وأرضيات الحجرات مفروشة بالرخام وجميع الحجرات مغطاة بقباب بها فتحات تغشيها قطع زجاجية تسمح بدخول الضوء.

أما في مدينة صنعاء فهي كمثلها من المدن الإسلامية تحتوي على العديد من الحمامات وتعد من المعالم التاريخية للمدينة، وتتناثر في أرجاء المدينة ، وتعود هذه الحمامات إلي فترات زمنية مختلفة بداء من ما قبل الإسلام كحمام ياسر والذي يقال : إن بانيه هو الملك (ياسر يهنعم) من ملوك حمير ، وأقدم هذه الحمامات يتطابق في تخطيطه مع الحمامات الرومانية .

ويمكن أن نجمل خصائص الحمامات في مدينة صنعاء على النحو التالي:

أنها مازالت تؤدي خدماتها إلي اليوم مع قدمها، و يغلب عليها أنها لا تفتح بمداخلها على الشوارع ، بل يؤدي إليها ممرات صغيرة ضيقة ومنكسرة.

وتحيط بها المنازل من جميع الجهات عدا حمام شكر الواقع مباشرة على السائلة وتنخفض أرض الحمام عن مستوى سطح الأرض وذلك بهدف الاحتفاظ بالحرارة لفترات طويلة، كما يكون مركز التدفئة أعمق من ذلك بحوالي (5,م) والتدفئة المركزية معمولة من سلسلة من الأقبية البرميلية عرضها وارتفاعها (1م) تسير من مركز التدفئة في اتجاه الحجرات الساخنة والغلاية عبارة عن قدر كبير قطره (3-2م) مصنوع من البرونز أو النحاس.

وتتفق جميع الحمامات في أسلوب التسقيف، حيث استخدمت في جميعها القباب والأقبية، ويفتح في القباب فتحات صغيرة مغطاة بالزجاج للسماح للضوء، كما تتفق في تزويدها بالمياه، وذلك من خلال الآبار التي بجوارها.

أما عملية تصريف المياه فإن ذلك يتم من خلال الانحدار الموجود في أرض الحمام فتتجمع في حفرة يتم تصريفها بعد ذلك إلي خزان بعيد عن الحمام أو يتم تصريفها إلي المقشامة ، أما من حيث التخطيط فإن الحمامات في صنعاء لا تختلف عن تخطيط الحمام في أي مدينة إسلامية فهو يتكون من ثلاث حجرات رئيسة هي:

1-حجرة المخلع 2- الحجرات الدافئة 3- الحجرات الساخنة، وتخطيطه على النحو الآتي:

يبدأ بمدخل منكسر يؤدي إلي ردهة متسعة يتوسطها نافورة ويغطيها قبة، ومنها يصل الداخل إلي المخلع والذي يتصل بممر صغير إلي الغرفة الدافئة، وقد وجد في بعض الحمامات غرفتان وثلاث ، ومنها يصل إلي الغرفة الساخنة (شكل 3) ، ويقع خلف الغرف الساخنة منطقة الغلايات.

أما مواد البناء المستخدمة في تشييد الحمام فهي الحجارة وخصوصاً البازلت (الحبش) فتبنى به الحوائط الخارجية وأحيانا الداخلية وتمتد حتى

قرب مستوى سطح السقف ، ثم يتم استكمال البناء وخصوصاً التغطية بالآجر التي عادة ما تكون قباب وأقبية، ويتم تكسية جدران الحمام من الداخل عادة بمادة الجص وتغطى بطبقة دهان، وما زال في صنعاء القديمة حوالي 14حماما يعمل حتى اليوم، فقد جاء في وصفها أنها حسنة المخالع والخزائن مرتفعة القبب مفيئة الجامات كثيرة الماء واسعة المغاطس والأحواض نظيفة يتداولها الرجال والنساء أياماً.

الآبار:

اعتمدت مدينة صنعاء في مياهها على الآبار ، وكانت تلك الآبار سببا في تواجدها بكثرة.

الوصف المعماري للآبار:

1-البئر والفوهة:

والبئر عبارة عن حفرة عميقة يتم حفرها إلي الأعماق قد تصل إلي أكثر من 40م للبئر علي حسب مستوى منسوب المياه الجوفية، ويتم بناء البئر من أسفل إلي أعلى ثم تتوج في فوهة البئر بحائط حجري يدور حول الفوهة بارتفاع معين لتثبت عليه بكرة السحب.

2-المدرج(المرنع):

وهو عبارة عن منحدر يسير لمسافة تتساوى مع عمق البئر وتكون نهايته مع خروج الدلو ممتلئاً بالماء وإمكان صبه في الحوض، وهذا الدلو يربط بحبل يمر على البكرة المثبتة على عارض خشبي يستند على كتلة البناء المواجهة لفوهة البئر، والطرف الثاني للحبل يكون للسحب بواسطة الجمال التي تسير في هذا المنحدر، وعند الفوهة يقوم أحد الأشخاص بإمالة الدلو وصبه في الحوض الذي يفتح فيه فتحات توزيع المياه إلي الأماكن المطلوبة توزيع المياه إليها ، ثم طور اليمانيون المدرج (المرنع) حيث غطوه من الشمس بإحداث سقف للفوهة.

هذا ويمكن تقسيم البئر في مدينة صنعاء إلي نوعين:

أولاً: الآبار الملحقة بالمنازل:

وهي حفرت بئر خاصة بكل مترل أو لمترلين أو مجموعة من المنازل، فعندما يكون خاصّاً بمترل فإنه يكون من خلال غرفة صغيرة في الطابق الأرضي للمترل، وغير متسع، ويمكن توصيل المياه إليه مباشرة إلي الطابق الثاني ، بواسطة بكرة السحب بحيث يثبت عليها دلو مثبت عليه حبل يسحب بعد ملئه بالماء.

ثانياً : الآبار العامة:

ارتبط هذا النوع من الآبار من المنشآت العامة كالمساجد والحمامات، ويعتمد في وصفه الوصف السابق، لذا تعدّ الآبار بملحقاتها نمطاً معمارياً قد تنفرد به مدينة صنعاء؛ وذلك لعدم وجود أنهار دائمة الجريان، ثم اعتمادهم في الشرب على الآبار ويرتبط بالآبار الأسبلة ، إلا أن أغلب الموجودة حاليا في صنعاء تعود إلي القرن الماضي، وربما تكون هذه الأسبلة قد بنيت على أو ضاع الأسبلة القديمة .

وتخطيط السبيل في صنعاء يمتاز بالبساطة فهو عبارة عن مربع الشكل مقام على أرضية مستقلة ومبني بحجر الحبشي، ويرتفع عن مستوى سطح

الأرض بدرجتين (50سم) يفتح في إحدى واجهاته شباك يتوجه عقد نصف دائري يعلوها لوحة كتب عليها البسملة والتاريخ ثم يتوج السبيل من الأعلى شرفات ويغطي السيل قبة أقيمت على حنايا ركنيه أو مقرنصات.

أما من الداخل فهو عبارة عن صهريج للماء باتساع الغرفة، وغطي هذا الصهريج بطبقة القضاض لمنع تسرب الماء.

السور:

عند الحديث عن تخطيط المدينة ذُكر السور؛ لأن الارتباط واضح بين التوسع العمراني للمدينة والذي يلحقه توسع في السور، وبالتالي يختل شكل السور فيصبح غير منتظم ، وهذا ما حدث لسور صنعاء.

تاريخ السور:

كانت صنعاء حتى وقت قريب محاطة تماما بسورها، وذلك منذ أن سورها ووصل حيطان دورها الملك السبئي (شعر أوتر) ، ولعل ذلك كان في القرن الثاني الميلادي، في حين يعتقد بعض المؤرخين أن سور صنعاء نشأ بنشأة المدينة، سواء كانت عاصمة أو مدينة إستراتيجية مهمة فإنها كانت مكان مطامع الدول والقبائل، فكان لابد من إنشاء سور يحميها من الأعداء.

ولم تتحدث المصادر التاريخية عن سور صنعاء فيما قبل الإسلام وصدر الإسلام إلا من شذرات قليلة تعطينا انطباعا أن المدينة كانت مسورة، وفي ذلك يشير الرازي إلي أن النبي (ﷺ) عندما بعث وبر بن يحنس الأنصاري إلي صنعاء نزل في الكنيسة عند بابها.

وقد تعرض للهدم عدة مرات حيث جاء في شرح الدامغة بأن الإمام الداعي يوسف بن يحي بن أحمد الناصر بن الإمام الهادي هدم درب (سور) صنعاء وأن قيسا الهمداني قد عمره، ويذكر الرازي أن محمد بن يعفر الحوالي والوالي العباسي علي بن الحسين المعروف(بحفتم) الذي وصل صنعاء 259هـ- 872م قد أعاد بناء السور وفي سنة 550هـ 1155م استعاد الأئمة الزيديون صنعاء وهدموا السور الذي بناه بنو حاتم ، كما أن السلطان حاتم بن أحمد اليامي قد أمر بهدم السور في أثناء حروبه مع الإمام أحمد بن سليمان، وفي سنة 570هـ 1575م قام علي بن حاتم بهدم السور عندما أدرك أن السلطان توران شاه الأيوبي يُعّد هجوما على صنعاء، كما نصحه الصنعانيون بإعادة بناء السور خوفا من عودة الأيوبيين حتى نزل عند رأيهم، وبعد فترة بسيطة بني السلطان سيف الإسلام طغتكين بن أيوب سور صنعاء وأضاف إليه الجهة الغربية من المدينة (غرب السائلة)، وأدخل في حدوده الحي الذي عرف باسم بستان السلطان 579-590هـ/ 1184-1194م. ثم توالي الهدم والبناء حتى العصر الحاضر .

وسوف ندرس السور من خلال : البوابات، وبقايا جسم السور، والأبراج والقناطر

أولاً : البوابات :

من خلال السرد التاريخي لسور صنعاء تبين أن السور كان دائم التجديد والتوسع والتي يرافقها دائما اختلاف وتغير في شكله تبعا لحركة النسيج العمراني للمدينة وذلك كما حدث عند إنشاء بستان السلطان في عهد سيف الإسلام طغتكين بن أيوب 594هـ/1197م. وهذا التوسع العمراني كان يصحبه ازالة أبواب وإنشأ غيرها وتحمل أسماء غير تلك السابقة، مثل باب مدينة صنعاء، باب المصرع وباب الكشوري، فباب المصراع هو من الأبواب القديمة غير المعروف زمن بناؤها ، وربما تكون قد بنيت عندما بنى شعرا أوتر سور المدينة، ومن المرجح أنه يقع بالقرب من مسجد الشهيدين، وذلك لأن بسربن أرطأة العامري عندما ذبح ابني عبيد الله بن العباس قثم وعبد الرحمن كان على باب المصرع. وبنى إزاء قبريهما مسجداً عرف بمسجد الشهيدين، ويوضح ليكوك مواقع هذه الأبواب التي ذكرها الرازي، فباب المصرع يقع في الجهة الشمالية للمدينة (بحسب موقع مسجد الشهيدين)، وموقع باب صنعاء ربما يكون في الطرف الشمالي الشرقي للسوق. وأما باب الكشوري، فمن الصعوبة تحديد مكانه. أما التجديد الذي حدث للسور في عهد السلطان علي بن محمد الصليحي 438هـ/ 1046م – 459هـ/1066م فقد أحدث في السور سبعة أبواب هي:-

1- باب غمدان 2- باب دمشق 3- باب السبحة 4- باب الخندق الأعلى 5- باب الخندق الأسفل 6- باب النصر 7- باب الشرعة.

وفي سنة 596هـ /1200م ظهر لأول مرة اسم باب شعوب وهذا الباب يقع في الجهة الشمالية للمدينة، وقد ذكرت شعوب في النقوش اليمنية قبل مدينة صنعاء، وتتفق معظم المراجع التاريخية على أن لسور صنعاء القديمة ستة أبواب منها ثلاثة جنوبية هي باب ستران وباب اليمن وباب خزيمة وبابان شماليان هما باب شعوب وباب الشقاديف وباب غربي هو باب السبحة . ولم يتبق من تلك الأبواب سوى باب اليمن.

باب اليمن :

يعُد باب اليمن أشهر أبواب مدينة صنعاء ويقع في الجزء الجنوبي من المدينة، الباب أعيد بناؤه في عهد فيضي باشا القائد العثماني سنة 1316هـ-1898م وهو عبارة عن كتلة بناء مبنية من الأسفل بأحجار البازلت (الحبش) يعلوها مدما كان من حجر الطف الأحمر وآخران من الطف الرمادي وآخران من الحبش وهكذا حتى قمته وهذه الطريقة في البناء تعرف باسم الأبلق أو المشهر، ويتوسط الكتلة البنائية باب متسع يغلق عليه مصراعان من الخشب المصفح.

أما الواجهة الخارجية فيكتنف المدخل برجان نصف دائريان يليهما في اتجاه فتحة المدخل زخارف منفذة بالأحجار الملونة عبارة عن عمودين مندمجين بارزين عن سطح البناء يعلوهما

كورنيش تزين واجهته أشكالا هندسية وتمتد كتلة المدخل في الاتجاه الشرقي والغربي، وقد نفذت طريقة البناء في الواجهة الخارجية للمدخل على النحو التالي:

نفذت المداميك السفلية بحجر الحبش، ثم استكمل البناء بالآجر، ويزين قمته شريط زخرفي عبارة عن زخرفة المعينات المتكررة، ويعلوها صف من الشرفات المدرجة ومما يجدر ذكره أن باب شعوب كان قريب الشبه مع باب اليمن؛ إذ إنه هدم قبل سنة1382هـ /1962م وكذلك باب السبحة الذي هدم في سنة1386هـ/1966م.

ثانياً :جسم السور

كان سور صنعاء – علي حسب ما ذكرته المراجع وما أثبتته الخرائط – يحيط بالمدينة من جميع الجهات، وتقطعا لسائلة المدينة من الشمال إلي الجنوب بادئة بقناطر عليها ومنتهية بمثلها، وكان جسم السور مبنياً من الطين ومدعوماً من الخارج بالحجر لدرجة أنه كان يبدو وكأنه حائط من الحجر، وكانت معظم أجزاء السور السفلية يوجد بها قاعدة من الحجر الرمادي الصلد (الحبش) أما الأجزاء القريبة من البوابات فقد بنيت بكاملها من الحجر ذي اللون الأزرق (الحبش)، ومن الداخل توجد قاعدة من الحجر والجص يصل ارتفاعها إلي قامة الإنسان، وقد احتفظت مدينة صنعاء بسورها إلي العام 1962م, وكان ارتفاع السور يتراوح ما بين 7ــ 10م ويمكن تقديم وصف لما تبقى من السور وتوضيح قدر المستطاع لما كان عليه.

1- الجزء الجنوبي شرق باب اليمن .

بقي من هذا الجزء ما يقارب 50م قبل باب ستران، حيث يقع قصر السلاح، كما توجد بقايا لثلاثة أبراج متهدمة تحيط بها المنازل ويبدو الانقطاع بين تلك الأبراج وأبراج قصر السلاح والتي تظهر من بين المنازل مرتفعة في مستواها.

2- الجزء الجنوبي غرب باب اليمن

يمتد هذا الجزء بمحاذاة شارع الزبيري، ويتخلله عشرة أبراج ذات مسافات تكاد تكون متساوية. وهذه الأبراج تبدأ من البرج الذي يقع بجوار السائلة، ويمتد حتى البرج الذي يليه المنازل المقامة على جسم السور والتي تمتد لتلتقي بالكتلة البنائية لباب اليمن وتبلغ مسافته حوالي ثلث الجزء.

هذا وقد أُحدثت فتحة تقع فيما بين البرج الثالث والرابع من جهة السائلة تؤدي إلي شارع، ويلاحظ أن بعض المنازل داخل السور تلتصق بجسم السور في هذا الجزء بينما البعض الآخر يسير موازياً للسور، أما مناطق ظهور السور فيتراوح ارتفاعاتها ما بين 4ــ 6م .

3- الجزء الجنوبي غربي السائلة

لم يبق من هذا الجزء إلا جزء بسيط تظهر عليه بعض الأبراج ولا توجد أرض فضاء، ومن المحتمل أنها كانت بستان السلطان , كما أنه من المفيد في هذا الجزء أنه يمكن معرفة سمك السور

وخاصة عند الأبراج ، لأن بعضها مازال بحال جيدة. وينتهي هذا الجزء بقطع حاد في الجهة الغربية من السور يمكن من خلاله مشاهدة عرض السور الذي يصل إلي ما يقارب من 7 أمتار في جهته السفلي، و6أمتار في جهته العليا ، كما يظهر فيه ارتفاع السور الذي يصل إلي نحو 6م ، وهو ما يدعونا إلي القول بأنه كان ارتفاع السور أكثر من ذلك. ثم تظهر المنازل المبنية على جسم السور على جانبي الشارع المطل عليه السور، ويوجد جزء متهدم بطول 10م خلف مبنى البنك المركزي .

4- الجزء الشرقي

يعد هذا الجزء من الأجزاء الواضحة من السور، ويمتد من قصر السلاح جنوباً حتى ميدان باب شعوب شمالاً ويتخلله 27 برج منها 13 تقع ملاصقة لقصر السلاح وقد أحدث فيه فتحة تؤدي إلي شارع اللقية المار أمام القبة البكيرية والواقع أن هذا الجزء يعّد من أكثر أجزاء السور وضوحاً في بقاياه إلا أنه من أكثر الأجزاء عرضة للتلف والإهمال، وينقسم هذا الجزء إلي قسمين:

أ- قسم يمتد من فتحة شارع اللقية إلي قصر السلاح ويحتوي على 18 برجا

ب- قسم يقع على يسار فتحة الشارع ويتميز بعدم الاستواء في ارتفاعاته، ويظهر عليه التآكل الشديد في سمك السور ويتراوح ارتفاع السور ما بين 1ـ5م وسمكه يصل من الأعلى إلي 50سم وفي الأسفل يتراوح ما بين 3,2م.

خامساً : الجزء الشمالي:

يمتد هذا الجزء من الفتحة التي تقع على ميدان باب شعوب في نهاية الطرف الشمالي الشرقي للمدينة إلي امتداد شارع اللقية وهذه الفتحة واسعة.

ولسهولة ومرونة الوصف يمكن تقسيمه إلي أربعة أقسام :

يمتد من فتحة باب شعوب حتى قبل باب شعوب بحوالي 20م، وفيها نجد أن المنازل محاطة بجسم السور إلا ما ظهر منها من خلال الفواصل بينها، ويتراوح عرضه ما بين 50سم-2م، وكما يلاحظ جزء منه طوله حوالي 156م يليه منازل ثم فتحة باب شعوب التي تحدها المنازل حالياً تمتد من فتحة باب شعوب وحتى بداية بستان الهبل وغير موجود تماماً.

ج ـ يمتد من بداية بستان الهبل ويمر بمحاذاة البستان شمالاً حتى يلتقي بالسائلة، وهذا الجزء يعد في بعض المواضع أحسن حالاً من غيره كما يتميز بعدم ملاصقة المنازل له. ويتراوح ارتفاع السور بين الأبراج بين 10-10.5م، وعرضه 3.5-5م، وسمكه من الأعلى 15سم-40سم والمسافة بين الأبراج من الأعلى 33.5-36.5م ومن الأسفل 31.5-34.5م، هذا ويتخلل السور 7 أبراج إحداها بحجم كبير وهي التي تقع عند التقاء السور بالسائلة، حيث كانت توجد القناطر المقامة على السائلة .

د ـ يقع هذا الجزء في الجهة الشمالية غرب السائلة ويمتد من طرف البرج الكبير السابق

الإشارة إليه وحتى نهاية ما تبقى من السور في هذه الجهة ويبدأ من طرفي البرج الكبير، حيث يوجد برج آخر مقابل للسابق والذي لم يبق منه إلا النصف تقريباً مطلاً على القناطر، وبعد السير شمالاً محاذياً للسائلة أحدثت فتحة في جسمه تؤدي إلي مدخل شارع وفي طرفه يوجد برج يقع على الزاوية التي يميل عندها السور في اتجاهه نحو الغرب ومواجهاً جهة الشمال، وقد أقيمت المنازل ملاصقة له بشكل كلي ، أما السور في جهته الغربية فقد أزيل نهائياً.هذا وكان السور المشيد من الطين يجدد سنوياً بعد نزول الأمطار.

الأبراج " النوبات " :

البرج هو بناء مرتفع اتخذ شكلا مربعاً أو مستطيلا أو مستديراً ، ويكون إما منفردا أو جزءاً من بناء. وقد وجد في العمارة نوعان من الأبراج الأول ما يتصل بالبناء ويكون دعامة ساندة لجدرانه الخارجية ويكون مرتفعاً يشكل عنصراً معمارياً ملحقاً بسور المدينة أو القلعة أو غيرها، أو يحتل أركانه أو يكتنف البوابات .

أما الثاني فهو البرج المستقل الذي لا يتصل بغيره ويستخدم للاستطلاع وإرسال الإشارات، ويمكن تسميته بالمنار .

كما يمكن القول بأن البرج قد ظهر بظهور السور.

وبما أن سور مدينة صنعاء يرجع إلي النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي فإنه من المؤكد أن هذا السور كان مزوداً بعدد من الأبراج للدفاع والحراسة وتدعم السور ، وقد عد الرحالة الانجليزي **Scott** سنة **1302**هـ/**1885**م **128**برجاً في صنعاء بما فيها تلك التي تكتنف البوابات ومن خلال وصف ليكوك للسور وما يتخلله من أبراج فإنه يذكر "وتبرز أبراجا نصف دائرية من السور كمناطق محصنة وبين كل برج وآخر مسافة **40**م تقريباً ، وبعض هذه الأبراج كانت ذات تحصينات حربية بما تحويه من مزاغل (فتحات للسهام) بأعداد مناسبة، وبعضها بني كلياً بالحجر، والبعض الآخر السفلي منه بالحجر وأكمل بالطين.

وهذه الأبراج هي :

يوجد في الجزء الجنوبي شرقي باب اليمن بقايا ثلاثة أبراج متهدمة أما الجزء الجنوبي غرب باب اليمن فيوجد به عشرة أبراج , وفي الجزء الجنوبي غرب السائلة فإنه تظهر بقايا الأربعة أبراج، وتظهر في هذه الأبراج التغطية بالحجر في الأجزاء السفلية منها أما في الجزء الشرقي فتبلغ عدد الأبراج في هذا الجزء زُهاء **27** برجاً ويقع **13** منها ملاصقة لقصر السلاح ، أما الجزء الشمالي فإن ما تبقى من هذا الجزء من السور ملاصقاً لبستان الهبل نجد **5** أبراج أُخَرَ يقع عند الزاوية التي ينكسر عندها مسار السور ليوازي السائلة، ويوجد عند نقطة التقاء السور بالسائلة برج كبير يصل بالقناطر، وهذا البرج يوجد به غرف وفتحات ونوافذ حيث إنه مسكون حالياً من قبل بعض الأشخاص . كما يوجد على الطرف الآخر للسائلة وفي نهاية القناطر برج آخر لم يبق منه إلا النصف تقريباً،

كما يوجد برج عند الزاوية التي يميل عندها السور فيها ناحية الغرب ويمكن أن نعطي مقاسات بعض الأبراج : الارتفاع يتراوح بين 6.5-8 متر، والقطر من الأعلى يتراوح بين 8-11متر، القطر من الأسفل يتراوح بين 9-12متر.

القناطر :

يشق مدينة صنعاء القديمة في ثلثها الغربي مجرى منخفض يتراوح عمقه بين 4-6 تعرف بالسائلة وتمر بها مياه الأمطار الآتية من جنوب المدينة وشوارعها وتسير باتجاه الشمال وتطل عليها المنازل من الجانبين.

توجد في جانبيها الشمالي والجنوبي قناطر مبنية من الحجر ، بها فتحات لمرور الماء وربما هذه القناطر قد بنيت لربط شرق المدينة بغربها، ولا تزال توجد بقايا لأجزاء بسيطة من هذه القناطر بجوار البرج الموجود شمال السائلة، وقد أورد Serjent سنة1404هـ/ 1983م صورة يظهر فيها القناطر الجنوبية ، أما القناطر الحديثة الواقعة وسط السائلة حاليا فقد أقيمت سنة 1388هـ/ 1968م، لانتقال الناس من شرق المدينة إلي غربها.

الفنون:

سوف نستعرض بالدراسة للفنون التي أنتجتها يد الفنان اليمني في مدينة صنعاء ، حسب موادها وهي، الخشب، والمنسوجات، والمسكوكات ، وفنون الكتاب.

أولا : الخشب :

بما أن البحث يتحدث عن الفنون والعمارة في مدينتي صنعاء وزبيد ما بين القرنين 2-5هـ/8-11م فإنه لم يصلنا من مدينة صنعاء من المشغولات الخشبية - فترة البحث - سوى السقف الخشبي (الثانوي والمصندقات) للجامع الكبير بصنعاء، والذي يرجع تأريخه إلي سنة 265هـ/878م كما هو مزبور على لوحة في الرواق الغربي عند جدار المئذنة الغربية، وكما أيدته المراجع التاريخية حيث ذكرت ، وأما عمارته هذه وسقوفه المتقنة وصنعته المحكمة فإنه عمل ذلك كله بأمر الأمير محمد بن يعفر بن عبد الرحمن الحوالي في سنة خمس وستين ومائتين من الهجرة الطاهرة النبوية صلوات على صاحبها وسلام، وجميع أخشابه التي في الجانب القبلي (الشمالي) والعدني (الجنوبي) والغربي من الساج هذا وتعلو أروقة المسجد سقوف خشبية نفذت عليها زخارف متنوعة عكست مدى اهتمام ورعاية الفنون لهذا النوع من الفن خلال العصور الإسلامية ويمكن تقسيم الأساليب الفنية المتبعة في تنفيذ سقف الجامع الكبير بصنعاء، إلي طرز ثلاثة:-

الأول:- تميزت زخارفه باشتمالها على عناصر فنية ذات صلة بطراز العصر الأموي، وتمثل ذلك في الأفرع النباتية الحلزونية التي تخرج منها ورق الأكانتس، وأخرى تنتهي بوريقات نباتية متعددة الأشكال وأفرع نباتية تخرج منها أوراق العنب

وعناقيده وأخرى تخرج منها كيزان الصنوبر وعناصر مجنحة وحبات اللؤلؤ.
وقد غطت هذه الزخارف سقف (الأسكوب الثاني والثالث والرابع والخامس) من رواق القبلة.

الثاني :- يتميز بأن عناصره ذات صلة بزخارف وطراز سامراء الثالث إلي جانب زخرفة الأرابيسك وقد غطت هذه الزخارف بقية أجزاء السقف التي ترجع إلي التجديدات التي أجراها الأمير إبراهيم بن محمد بن يعفر في سنة 265هـ/878م المتمثلة في زخارف سقف الرواق الغربي.

الثالث:- يتميز بأن زخارفه تكاد تتشابه مع زخارف القرن السادس الهجري مثل عنصر الطبق النجمي، وزخارف هندسية وأشكال الجفوت اللاعبة، وزخرفة البيضة والسهم.
وقد غطت هذه الزخارف واجهات العوارض في الرواق الشرقي.

وقد تم عمل السقف على النحو التالي:-
يتكون السقف من عوارض رأسية تتقاطع مع أخرى أفقية لتشكل مناطق مربعة أو مستطيلة تقسم من الداخل إلي مناطق أخرى، ثم بعد ذلك تزين بالزخارف ثم ترفع وتثبت في أماكنها، وعن طريق الإطارات تركب العوارض بحيث يكون ركن المربع في منتصف ضلع العارضة السابقة، فتتخذ شكلا معينا، وكانت زخارف هذه الأسقف يستخدم فيها التلوين والتذهيب، مما استوجب الحفاظ عليها وحمايتها بتغطيتها بطبقة سميكة من الشمع.

وبعد الانتهاء من عمل السقف المزين بالزخارف والمصندقات ـ تترك مسافة تتراوح بين 50-60سم لعمل سقف آخر لحماية السقف السابق، والمكون من عوارض خشبية يغطيها أفرع خشبية صغيرة (قصع) ثم تغطى من الأعلى بمادة لا تسمح بمرور الماء (القضاض) .
وأما المسافة المتروكة بين السقفين فغالبا ما استخدمت كخزائن لحفظ المصاحف القديمة التالفة كما حصل في هذا الجامع.

ثانياً : المنسوجات:

تعد مدينة صنعاء من أهم المراكز العظيمة الشأن في صناعة المنسوجات، ويقول ابن رستة "وتجلب من صنعاء الجلود والأدم والبغال المشعرة والأنطاع والبرود المرتفعة والمصمت والأردية" ويبلغ سعر البرود عندهم 500 دينار وهو يدل على أن صنعاء كانت أهم مركز حضاري في اليمن لصناعة ونسج البرود وكتب إسحق بن الحسين عن أثواب يمنية صنعت في صنعاء ، وثمة مكان (طراز) يصنعون فيه المنسوجات المعروفة باسم السعيدية ينسج في صنعاء، وذكر الخاقاني أن حرير الخز من الكوفة والوشي من صنعاء، وهي منسوجات جميلة، وذكر ذلك أيضا النويري في كتابه نهاية الأرب في فنون الأدب أن الأنسجة المخططة لليمن والواشية المشجرة لصنعاء وهي تطريز لنهاية الثوب تعرف باسم أنسجة صنعاء ، كما يصف المقدسي أن ما تشتهر

به صنعاء القماش السعيدي، ويذكر ابن حبيب في شرحه، أنه شَبه طرائق الدم في أذرعهن بطرائق تلك الدروع، لأن تلك البرود تضرب في اللون إلي الحمرة، ويورد ابن رستة وصفا لصادرات صنعاء .... منها أردية مخططة وعباءات، ويضيف ابن منظور بأن التزيدية بها خطوط حمر تشبه بذلك طرائق الدم، ويضيف الشاعر:

برد القيان جمال الحسن فاحتملوا
فكلهـا بالتزيدات معلـوم

ويتضح من قطع النسيج المحفوظة في المتاحف والمجموعات الخاصة أن الصناع اليمنيين لم يقبلوا على زخرفة وتصوير الطيور والحيوانات فكان جل اهتمامهم منصبا على الزخارف الكتابية بالدرجة الأولى والزخارف النباتية، فكانت منسوجاتهم كأنها ثوب الربيع مما يوحي على أن صنعاء بصناعاتها التزمت بأقوال الرسول صلى الله علية وسلم عن التصوير، ومعظم المنسوجات إما مطرزة بخيوط القطن الغير ملونة ، أو بخيوط قطنية مطلية بماء الذهب.

ومعظمها تشير إلا أنها صنعت بطراز الخاصة بصنعاء وبعضها يحمل أسماء الخلفاء العباسيين في القرنين **4.3**هـ/**10.9**م كما يحمل أسماء أمراء اليمن وسلاطينها. وهناك قطعة نسيج محفوظة بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة صنعت بطراز الخاصة بصنعاء تعود إلي القرنين **4.3**هـ/**10.9**م .

وتحمل اسم الأمير الرسي الداعي سوف بن يحيى، وقطعة أخرى بمتحف لوند بالسويد تحمل اسم المعتمد على الله العباسي **276**هـ/**889**م تشير إلي أنها صنعت بطراز الخاصة بصنعاء، كما أن هناك قطعة أخرى هامة تمدنا بمعلومات جديدة عن طرز أخرى تحمل عبارة مطرزة بالخط الكوفي نصها "بفضل طراز الخلافة بصنعاء" وهذه العبارة تشير إلي أنه كان هناك طرز خاصة بالخليفة ورجال بلاطه وحاشيته.

إضافة إلي ذلك هناك طراز آخر عرف باسم طراز الملوك حيث يحتفظ متحف الفن الإسلامي بالقاهرة بقطعة من المنسوجات يزين جزئها السفلي شريط من الكتابة الكوفية وهي كلمة مكررة نصها "لا مالك أو لا خالد" ويزين جزئها العلوي شريط من الكتابة الكوفية نصه "صنع بطراز الملوك بصنعاء سنة مايتين" وتعود هذه القطعة إلي عهد الخليفة المأمون هذا فضلا عن البرود والحبر والتزيدية ويمكن أن نجمل بالقول على أن اسم مدينة صنعاء قد ورد على النسيج بعدة أساليب هي :

أ – طرازالعامة بصنعاء

ب– طراز الخاصة بصنعاء.

ج– طراز الخلافة .

د – طراز الملوك.

وهذا يدل على أن مدينة صنعاء كانت في فترة العصر العباسي الأول وبداية الثاني عبارة عن ورشة عمل للمنسوجات الخاصة والعامة، وهي

المدينة التي تقوم بتزويد عاصمة الخلافة بما يحتاجونه من أقمشة ومنسوجات .

إلي جانب أن متحف الفن الإسلامي بالقاهرة يحتفظ بقطع نسيج تحمل تواريخ 266هـ/879م، 282هـ/ 895م، 28هـ/ 898م، 331هـ/ 942م، وأن هذه التواريخ تقع في حكم دولة بني يعفر الذين ارتفع شأنهم منذ بداية العصر العباسي الثاني وتقلدوا مناصب الحكم والإدارة في صنعاء من قبل الخلفاء العباسيين وهذه القطع النسيجية تم العثور عليها في الحفريات الأثرية التي أجريت بمدينة الفسطاط بمصر ويدل ذلك على أن النسيج اليمني كان له إقبال شديد في مصر وبلاد الشام.

ثالثاً: المسكوكات:

ومع بداية العصر العباسي بدأت المساهمة من بعض المدن اليمنية ومنها مدينة صنعاء في سك النقود المختلفة من فلوس ودراهم ودنانير، وأقدم ما وصلنا هو فلس نحاس ضرب باليمن سنة 156هـ/773م، وذكر اليمن مكان الضرب غير صحيح ، لأن اليمن لا يمكن أن تكون دار ضرب ولكنه من المرجح أن تكون صنعاء هي مكان الضرب على اعتبار أنها مركز الإقليم ومقر الوالي، وآخر ضُرب سنة 157هـ/ 774م وثالث ضُرب سنة 158هـ/ 775م.

ونجد إشارات تاريخية تتحدث عن دار ضرب في صنعاء فيذكر الرازي "وبنى محمد بن خالد البر مكي سنة 183هـ/799م دار البرمك التي كانت تعرف بدار الضرب بصنعاء ، وكانت هذه الدار في الموضع الذي يقال : له سوق التبانين، وكانت لها أبواب بالعقود الكبار، وكانت دارا واسعة، وكانت الناحية كلها دورا له، وقد بقي من عقود دار الضرب عقدان إلي سنة سبع وأربع مئة". وضلت في صنعاء دار الضرب تؤدي عملها إلي فترات متأخرة حيث ظل اسمها منقوشا على السكة، وكانت دار ضرب صنعاء وصعدة من أهم دور الضرب اليمنية.

وقد وصلنا دراهم ترجع إلي سنة 169هـ/775م تحمل اسم صنعاء والوالي العباسي هو العباس بن محمد بن إبراهيم بن محمد كما وجد درهم ضرب صنعاء يحمل اسم الخليفة هارون ويرجع إلي سنة 173هـ/ 789م كما يحمل اسم الوالي العطاء بن غطريف، وتوإلي سك النقود في صنعاء.

أما الدنانير فترجع أقدم الدنانير العباسية المعروفة في صنعاء إلي عهد الخليفة المعتصم بالله، وتم ضربها سنة 221هـ/836م وهي دنانير سوية وزنها 4جم ، ولكن أخذ وزنها ينقص بعد المعتصم، وقد أورد العش إحصاءً بالنقود المضروبة بصنعاء ، وقد اتبعت الدنانير العباسية المضروبة في اليمن طراز الدنانير العباسية حيث نجد أن كتابات مركز الوجه عبارة التوحيد (لا إله إلا الله وحده لا شريك له). وفي الهامش (محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) وفي مركز الظهر عبارة "محمد رسول الله". وفي الهامش عبارة (بسم الله ضرب هذا الدينر بصنعاء سنة...)

كما سايرت الدنانير المضروبة في صنعاء التغير الذي حدث في الكتابات المسجلة على العملة العباسية، حيث نقشت الآية القرآنية "لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله" على وجه الدينار .

وسك في دار ضرب صنعاء الإمام الهادي إلي الحق يحيى بن الحسين ـ الذي اتخذ من مدينة صعدة مقرا له سنة 288هـ/900م ـ دينارا والذي يعد أقد م عملة ضربت في عهد الدولة الزيدية باليمن.

فنون الكتاب:

لم يأتِ القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي إلا وأضحت صنعاء مدينة يرحل إليها طلاب العلم وكان لهذا النشاط العلمي أثره في ازدهار فن الكتاب الإسلامي.

وقد أدى العثور على المخطوطات في الجامع الكبير الذي حوى ما يقارب من 40.000 صفحة مصحف كريم يرجع تاريخها إلي القرون الخمسة الأولى من الهجرة النبوية إلي فتح باب البحث العلمي سواء من ناحية الكتابة أو تطور الخط.

وقد قام أحد الباحثين بدراسة ميدانية لبعض هذه الأوراق وتوصل إلي ما يأتي :

1- بلغت عدد الأوراق مايقرب من 40.000صفحة من أكثر من ألف مصحف، إضافة إلي بعض الوثائق والتمائم ، بينها أكثر من 700مصحف كتب على الرق وحوالي 350-400 على الورق .

2- مع معرفة المسلمين منذ مطلع القرن الثاني الهجري فإن انتشاره كان بطيئا حيث شاع في القرن 5هـ/11م ، لذا تكمن أهمية الدراسة التي تناولت هذه الرقوق.

3- تؤكد هذه المخطوطات على مدى تقدم فن الكتاب في اليمن بصفة عامة وصنعاء بصفة خاصة منذ فترة مبكرة .

4- من خلال فحص هذه الأوراق أمكن التوصل إلي نتائج عديدة، أكثرها أهمية هو التفرقة في حين ينسب إلي صنعاء عاصمة إقليم اليمن وما ينسب إلي غيرها، وقد قسمت تلك الأوراق إلي خمس مجموعات.

الأولى: كتبت أوراق هذه المجموعة بالخط الحجازي، ولا يوجد عدد ثابت للأسطر والصفحة، وتم الفصل بين السور بزخارف ملونة على أشكال هندسية دوائر ومعينات .

الثانية : ازدادت الزخرفة التي تفصل بين السور، وقد اتخذت أشكال مستطيلات أو مربعات زينت بأشكال العقود المتجاورة، ويتراوح عدد الأسطر في الصفحة مابين 13-19 سطرا .

الثالثة:- غلب على أوراقها الزخرفة النباتية وخاصة الأفرع المتموجة التي تخرج منها أوراق نباتية، والتي تتشابه مع زخارف سقف الجامع الكبير بصنعاء ترجع إلي الفترة الأموية، واعتمد فيها الألوان : الأصفر والبرتقالي والأخضر، وتتراوح عدد الأسطر في الصفحة بين 14-17.

الرابعة: فيها جمع الفنان بين الزخارف الهندسية

والنباتية، وخرجت من الأشرطة التي تؤطر الكتابات تفريعات نباتية، وكأنها تخرج من زهرية، واستخدم في زخارفها اللون الأحمر والأخضر .

الخامسة: تميزت كتاباتها بالخط الكوفي الجيد بالمقارنة مع بقية الأوراق وكبر حجمها وقد استخدم في اثنين منها إطارات تحيط بالكتابة ويمكن رجوعها إلي القرن الثاني الهجري .

الخط العربي:

لقد اهتم اليمنيون بوجه عام وفي صنعاء بوجه خاص بالخط العربي ، وقد اشتهرت مدينة صنعاء بشكل مميز في خط المصاحف الصنعاني المكسر والتحسين الذي لا يلحق به من جودته .

وظهر خطاطون مشهورون نسخوا المصاحف الشريفة واتخذوا من الخط مهنة لهم ، وكان محمد بن أحمد المصاحفي في صنعاء أكتب أهل الأرض، وبرز على بن صالح العماري ثم الصنعاني الذي حسن الخط إلي حد يقصر عنه الوصف وأحمد بن دغيش الصنعاني الذي كان ذا خط يسحر، ورزق سعد الله الصنعاني وغيرهم. وقد سخروا ألوان الحبر المختلفة لإبراز بعض العناوين أو الآيات وغيرها مما يحتاج إلي إبراز ، وكانوا يكتبون بهذا اللون أو ذاك ويضعون خطا تحتها بلون مغاير أو يكتبون ما يريدون إبرازه بخط آخر أكبر.

التذهيب:

تحتفظ دار المخطوطات بصنعاء بنسخة مخطوطة غير مؤرخة من كتاب "مجموع زيد بن علي بن الحسين " في علم الحديث تضم الجزء الأول إلي السادس كتب متنه بالخط النسخي المتقن بمداد أسود وأزرق على أرضية مذهبة وتحتوي غرر الأجزاء الستة على زخارف هندسية ونباتية مذهبة، إضافة إلي مخطوطات مذهبة تعود إلي فترات تاريخية متأخرة عن فترة البحث.

2- زبيـــــــــد

التسمية والموقع :

زَبيد بفتح أوله وكسر ثانيه اسم لأحد أودية اليمن وتنسب إلي زبيد الأصغر بن رمعة بن سلمة ابن زبيد الأكبر الذي ينتهي نسبه إلي سـبأ بـن يشجب بن يعرب بن قحطان وقيل إن زبيد هـو أحد مخاليف اليمن وقصبته والحصيب هو الاسم القديم لمدينة زبيد ، والحصيب هو الاسم القـديم لمدينة زبيد، وسميت زبيد باسم الوادي، الـذي بنيت عليه المدينة والتي كانت تسمى الحـصيب. وتقع المدينة في موقع وسط في سهل تهامة علـى النصف بين الجبال والبحر، (حيث تبعد عن كل منهما مسافة 25كم) ومن جنوبها واديها المسمى زبيد ومن شمالها وادي رماع ومن شرقها الجبـال ومن غربها البحر، كما أنها تقع بمحاذاة الطريـق الرئيس الرابط بين محافظتي تعز والحديدة، وتقدر مساحتها الحالية بحوالي 245 هكتار منـها 92 هكتار المدينة القديمة داخل السور .

نشأة المدينة :

قبل اختطاط المدينة كان موقعهـا أرضـا زراعية ورعوية وبها بئر قديم وحول هذه الأرض كانت هناك قصور يسكنها قوم من بني كليـب ومهلهل وبجوار تلك القـصور توجـد قـرى صغيرة متناثرة منها المنامة والنقير غـربي البلـد وجيبجر شرق البلد من بناء دقيانوس وكانـت تسكنها قبيلة الأشاعرة ، وعندما أمر الرسـول (ﷺ) الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري ببناء مسجد في تلك القرى ومنها الحـصيب ، بـنى المسجد بمنطقة الحصيب وبدأ الناس يتجمعـون حول المسجد الذي عُدّ النواة الأولى لبناء المدينة التي بدأت بالتوسع شيئا فشيئا حتى دخلت سنة 202 /817م ، وفيها ورد إلي الخليفة العباسي المأمون كتابا من عامله باليمن ، خبره بخـروج قبيلتي الأشاعرة وعك عن طاعة الخلافة العباسية، حينها أمر الخليفة بتسيير حملـة إلي الـيمن — يكون ابن زياد أميرا وابن هشام وزيرا والـتغلبي قاضيا- لاسترداد تهامة وأوصاه أن يبني مدينة في وادي زبيد من بلاد الأشاعرة وبعد أن أخـضع المنطقة لسلطة الخلافة العباسية، اختط مدينة زبيد وكان مبتدؤها يوم الاثنين الرابع من شهر شعبان من سنة 204هـ الموافق 820/1/23م وقـد صاغ ابن الديبع أرجوزة حول مدينة زبيد لما قال فيها:

زبيد بالتحقيق يأخا الرشـد
واخططها في شهر شعبان وقد
مضى من الهجرة ضعف المائة
وأربـع من سنوات الهجـرة

وفي هذا التاريخ بدأت زبيد تتخذ شـهرة باتخاذ ابن زياد عاصمة لها، وقد اُتخـذت زبيـد عاصمة لدول ثلاث تعاقبت عليها هي دولة بني زياد 204ـ402هـ 820ـ1011م، دولـة بني نجاح 402هـــ- 553هـــ/ 1011- 1158م، دولـة بـني المهـدي 554هــــ /1158م- 569هـ/1173م.

تخطيط المدينة:

قبل اختطاطها من قبل ابن زياد كانت عبارة عن قرى متفرقة أهمها قرية الحصيب التي اكتسبت أهميتها ببناء مسجد الأشاعر والذي بوجوده فيها توسعت المدينة وقد وصفها المؤرخون بأنها "مدورة الشكل عجيبة الموضع"، في حين وصفها المقدسي وقال: " أنها بغداد اليمن"، ويمكن القول أنها ذات شكل دائري ، وكان أول من وضع تصوراً لمساحة المدينة هو ابن المجاور الذي ذكر أن مساحتها 945 معاد، وقال الخزرجي : وهذا غير صحيح ؛ إذ أنها مسحت في أيام الملك المجاهد الرسولي سنة 763هـ /1361م فجاءت 636 معاد ونصف وثمن المعاد ثم مسحت في عهد الدولة الأفضلية سنة 767هـ/ 1365م فجاءت مساحتها 624معاد ونصف وهو الأقرب إلي الصواب مما ذكره ابن المجاور.

وتنقسم المدينة إلي أربعة أقسام عبر شارعين متعامدين، الأول يبدأ من باب سهام شمالاً، وينتهي في باب القرتب جنوباً مارا بالسوق القديم ومسجد الأشاعر وسط المدينة، الثاني يمتد من باب الشبارق شرقاً إلي باب النخل غربا وهو محور اتجاه السوق، وعلى ذلك قسمت المدينة إلي أقسام أربعة يطلق عليها (أرباع) هي

1- ربع الأعلى 2- ربع المجنبذ 3- ربع الجامع 4- ربع الجزء.

ويمكن أن نحدد مواقع أقسام (أرباع) المدينة على النحو التالي :-

أولا : ربع الأعلى (ربع العلى) : ويقع في الجزء الشمالي الشرقي، ويحده شرقا قرية محوى قيس وغربا شارع باب سهام وشمالاً سائلة مقبرة العرق وجنوبا شارع باب الشبارق ،ويشمل حارات الزيالع والقيسارية والحصيب وخزيجة وسوق المملاح الأول والجابي والمعرص.

ثانيا: ربع المجنبذ: ويقع في الجزء الجنوبي الشرقي للمدينة، ويحدها شرقا القلعة والمدرسة الكمالية، وغربا شارع المدرسة الدعاسية، وشمالاً شارع باب الشبارق، وجنوبا جزء من سور المدينة الجنوبي ويشمل الحارات السودن والمرباع والسويقة والشريجة والحائط والخليفة المعز بن طغتكين والمجهد .

ثالثا: ربع الجامع : ويقع في الجزء الشمالي الغربي للمدينة ، يحده شرقا شارع باب سهام وغربا السور الشمالي الغربي للمدينة وباب النخل، وشمالا السور الشمالي للمدينة وجنوبا شارع الحديقة الموصل إلي باب النخل ويشمل الحارات المصلى والجامع وسوق المملاح الثاني والعلوي والمخلولة.

رابعا : ربع الجزء : ويقع في الجزء الجنوبي الغربي للمدينة ، يحده شرقا شارع المدرسة الدعاسية وغربا قرية الطور وشمالا شارع الحديقة وجنوبا بالقرتب ويشمل الحارات الطور والندوح والهنود والسائلة والجورة وعريش العامري والمحرق والملبان والفرحانية .

وفيها الدور السكنية عبارة عن كتل متصلة ببعضها لاعتمادها في البناء الاتجاه الأفقي والنظام

المفتوح، وكل مجموعة من الدور تشترك مع بعضها في الوظائف والخدمات من مبان دينية واجتماعية وخدمية، إضافة إلي السوق الذي يُعدّ المحور الرئيس لكل ربع، ويفصل بين تلك التجمعات شوارع وأزقة لتسهيل حركة السير.

المنازل :

والمنازل في زبيد عبارة عن بناء مستطيل أو مربع يتكون من طابق واحد في الأغلب وطابقين أحيانا، تتوسطه ساحات مكشوفة تتوزع حولها عناصر المبنى لتؤدي وظيفتها الإنشائية والخدمية ، وتتكون من .

(مربعة وليوان وقُبل وصفة) وفي جوانب القُبل تتوزع عناصر المبنى المساعدة من (حمام ومرحاض وبئر ومطبخ ومخزن) وأحياناً غرفة أخرى، لهذا اتسمت المنازل بيد بالبساطة والوضوح في التعبير، وذلك بسبب الموقع والمناخ الذي كان له الأثر الكبير في توزيع الوحدات المعمارية والأفنية.

تخطيط المنزل في زبيد:

يُعدّ الفناء الجزء الرئيس في منازل زبيد الذي يطلق عليه القُبل، وهو عبارة عن فناء مكشوف مستطيل أو مربع يتوسط وحدات المنزل وتفرش أرضه بالتراب وترش بالماء لتلطيف درجة الحرارة، ويوجد في أحد أركان المنزل بئر تمد المنزل بما يحتاجه من المياه، كما يزين أركانه أشجار النخيل والتي تعمل على وجود الظل في الفناء والأرض الرطبة وعند مرور تيار الهواء الحار يبرد ثم يمر إلي وحدات المنزل باردا، وغالبا ما يستخدم هذا الفناء للمعيشة اليومية ثم يأتي بعد ذلك في الأهمية (الليوان والمربعة والمبرز).

وهو عبارة عن قاعة مستطيلة أو مربعة، وتقع عمودية على محور المدخل أو موازيا له، وتكون أرضه ترابية وأحيانا تغطى بطبقة من الأسمنت، وترتفع أرضه عن مستوى سطح الفناء بنحو متر تقريبا، وتعد هذه القاعة بالمقاعد المصنوعة من الخشب وجريد النخل وبارتفاع حوالي **90** سم، وغالبا ما تستخدم هذه القاعة للاستقبال.

ومن نافلة القول أن الليوان يطلق على القاعات التي تكون في المنازل الكبيرة والتي تعكس ثراء أصحابها، أما المربعة فهي للمنازل الصغيرة والمتوسطة وأصحابها محدودو الدخل، والمبرز صفة يطلق على التسميتين، وتتوزع فتحات النوافذ إلي الخارج وإلي الداخل المطل على الفناء، وتغطى جدرانه الداخلية والخارجية بطبقة جصية مع بعض التشكيلات الزخرفية حول فتحات النوافذ والمداخل، ويقابل المبرز الصفة. وهي عبارة عن إيوان مستطيل أو مربع يفتح على الفناء (القُبل) بواسطة بائكة من عمود أو دعامة تحمل عقدين وأحيانا عقد واحد، وأرضيتها منخفضة عن أرض القُبل بنحو **90**سم وترابية وأحيانا تغطى بطبقة إسمنتية، وتقع قبالة المبرز يفصل بينهما الفناء، وسطح أرضها مساوٍ لسطح أرضه الفناء، وتستخدم للمعيشة اليومية في فصل الصيف وتطل على

الفناء بواجهة زخرفية، كما تفتح بعض نوافـذها على الفناء فقط.

وتتوزع على جانبي الفناء بقية الوحدات الخدمية للمنزل من مطبخ وحمام ومغسلة ومخزن، وإذا كان هناك طابق آخر فنجد أنه يعلو المبرز أحيانا فناء مفتوح من الأعلى ويستخدم للجلوس في فصل الصيف ليلاً. ويتم الوصول إليه بواسطة سلم، وأحيانا تكون هناك غرفة تعلو المبرز وهي عبارة عن فناء مكشوف ذات جوانب مبنية يفتح في أحدها مدخل وتستخدم أحيانا لاستقبال النساء ونجد جميع الوحدات تطل على الفناء بواجهة مزدانة بالزخارف الأجرية والجصية التي قوامها زخارف هندسية وأشكال معينات ومثلثات.

السور :

نشأة السور :

عندما أمر الخليفة المأمون محمد بن زياد بإخضاع قبائل تهامة وإعادتها لحوزة الخلافة العباسية أمر أن يتخذ له مقرا فكان أن أنشأ مدينة زبيد سنة **204هـ/820م** ومن الطبيعي أن يدير عليها سورا ، وذلك لأن موقعها في منطقة سهلة ووسط قبيلتي الأشاعروعك التي كانت وراء سبب مجيء ابن زياد التي أخضعها بالقوة، إضافة إلي ذلك فإن المصادر التي بين أيدينا تشير إلي كلمة اختطاط وهذه الكلمة في بناء المدن تدل على أن المدينة ذات سور ومسجد وسوق ودار للإمارة، كما يمكن أن نستدل مما أورده المقدسي إذ ذكر أن زبيد كان عليها حصن من طين بأربعة أبواب في حين نجد كثيراً من المراجع التاريخية تذكر أن أول من أدار حولها سورا هو الحسين بن سلامه أحد موالي بني زياد.

ونتيجة لاتساع المدينة وازدياد عمرانها خارج السور قام الحسين بن سلامة – عندما وصل إلي سدة الحكم في زبيد (كوصي) – بعمل سور للمدينة يضم بداخله تلك التجمعات السكنية التي نشأت خارج السور.

ولذلك يذكر المؤرخون أن الحسين أول من أدار حولها سورا يذكر الحضرمي أنه أول من سورها وبوبها في القرن الرابع الهجري بعد غزوة علي بن الفضل على صنعاء وزبيد سنة **393هـ/1002م**.

ونتيجة للصراع بين ابن المهدي والنجاحيين حول السيطرة على زبيد قام الوزير النجاحي أبو منصور من الله الفاتكي ببناء سور حول المدينة وذلك سنة "بضع وعشرين وخمسمائة" ونظرا للهجمات التي شنها ابن المهدي على المدينة ومحاولة اقتحامه- والتي نجح فيها سنة **554هـ/1151م** والتي كان لها أثر كبير على السور، وبعد دخوله زبيد كان أول ما قام به هو بناء سور جديد للمدينة المتعرض للخراب والهدم ولم يستمر حكم ابن المهدي إذ سرعان ما سقطت زبيد سنة **569هـ/1163م** على يد توران شاه الذي أباح المدينة وبسببه تعرضت منشآت المدينة العسكرية للخراب والهدم،

وظلت تلك المنشآت مخربة حتى سنة 589هـ /1163م, عندما قام سيف الإسلام طغتكين بن أيوب ببناء سور جديد حول زبيد سنة 589هـ/1163م وأضاف إليها سور آخر يحيط بالسور الأول، وركب على السور أربعة أبواب، ثم تتابع تجديد السور حتى سنة 1382هـ/1962م.

وصف السور :

جاء في رسم ابن المجاور: سور دائري لمدينة زبيد يتكون من ثلاثة أسوار :الأول من بناء الحبشة (النجاحيين) ، والثاني من بناء الدولة المهدية ، والثالث من بن سيف الإسلام طغتكين، إضافة إلي رسم ثلاثة دوائر ملاصقة للسور تدل على أن زبيد اتسعت كثيرا وخرجت خارج السور.

وكان بناء السور المذكور باللبن والطين وأبوابه وشراريفه بالآجر في الهواء نحوا من عشرة أذرع، وقال ابن المجاور : عددت أبراج مدينة زبيد فوجدها مائة برج وتسعة أبراج بين كل برج وبرج ثمانون ذراع قال: يدخل في كل برج عشرون ذراعا فيكون دور البلد عشرة آلاف ذراع وتسعمائة ذراع، أما ما تبقى من السور فيرجع إلي فترة متأخرة. وصفة السور على النحو التالي:

السور الشمالي الشرقي :

لم يبق من هذا السور سوى جزء بسيط يلامس الجدار الشمالي من الكتلة الشمالية من باب الشبارق وربما كان بعده يميل قليلاً نحو الشمال حتى يصل إلي نوبة (برج) الكدف ويحتوي على 9 أبراج لم يبق منها إلا برج الكدف يسير بعد ذلك حتى يصل إلي باب سهام، ومن برج الكدف إلي باب سهام كان يحتوي على 14 برجا ، وبذلك تكون عدد أبراج هذا الجزء من السور23 برجا لم يبق منها سوى برج الكدف

السور الشمالي الغربي :

ويمتد من باب سهام شمالا حتى باب النخل غربا، ويسير من ركن التكنة القريبة لباب سهام بشكل مقوس حتى يصل إلي برج أبي حسين وكان يحتوي على 14 برجا لم يبق منها سوى برج أبي حسين ثم يمر بعد تلك البرج بشكل غير منتظم حتى يصل إلي باب النخل ، وكان يحتوي على 10 أبراج مارا بالتكنة الشمالية لباب النخل، وكان يحتوي على 24 برجا لم يبق منها أي برج.

السور الجنوبي الغربي:

يمتد هذا الجزء من السور من باب النخل غربا حتى باب القرتب جنوبا ، ويبدأ من ركن التكنة الجنوبية لباب النخل ويتجه جنوبا مرورا بالمنازل الحالية للمدينة تتخلله حتى يصل إلي باب القرتب ، وكان عدد أبراجه 33برجا ، بقي منها اثنان هما برج الغصينة وبرج دريب نسبة إلي المنازل المجاور لهما.

السور الجنوبي الشرقي :

يسير هذا الجزء من السور من باب القرتب جنوبا حتى يصل إلي باب الشبارق شرقا،

مارا بالمنازل وبعض الأبراج حتى يصل إلي برج الصديقية ثم يمتد نحو الشمال على شكل خط مستقيم حتى يتصل بالبرج الجنوبي الشرقي للقلعة المعروف ببرج النصر وبعده يتجه شمالا حتى برج المدرسة ثم يتجه بعده بشكل مستقيم حتى يتصل بالثكنة الجنوبية لباب الشبارق.

ويعد هذا الجزء من السور من أكثر الأجزاء المتبقية وذلك بسبب وجوده حول القلعة، وكان يحتوي على 23 برجا ، وقد بقي من أبراجه 5 أبراج وقد تَمَّ تشييد السور بمادة الطوب المحروق (الآجر) والجص، ويؤكد المؤرخون أن السور مبني بالطين اللبن ثم قام السلطان الأفضل عباس بن المجاهد على سنة 771هـ/ 1369م بتغطية السور من الداخل والخارج بالآجر، وتتخلل السور فتحات المسافة فيما بينها ذراعان (110سم) وهي عبارة عن فتحة مستقيمة (مزاغل) تبعد عن الأرض بنحو 1م يتجه أحداها نحو اليمين والأخرى نحو اليسار وترتفع عن الأرض بنحو 3م في حين نجد أنه كان ارتفاع السور عشر أذرع وسمكه عند القاعدة عشر أذرع، أما المسافات بين الأبراج فكانت تتراوح بين 23، 24 م وهو بذلك يتشابه مع سور صنعاء على اعتبار أن بانيهما هو سيف الإسلام طغتكين بن أيوب.

وكان ينتهي السور من الأعلى بممر للجند المدافعين عن المدينة تحميهم جدران ساترة تزينها شراريف، لم يتبق منها شيء ، وربما كانت شرافات يحتمي بها الجند في أثناء رمي السهام، وقد أُشير إلي ذلك بالقول وكان بناء السور باللبن والطين وأبوابه وشراريفه بالآجر .

أبراج السور :

يطلق على البرج في زبيد (النوبة)، والبرج – بالضم – الركن والحصن ويجمع على بروج وأبراج. وسميت بذلك لظهورها وارتفاعها ، وقد عرفت الأبراج في العمارة الحربية قبل الإسلام وفي العصر الإسلامي وبما أن مدينة زبيد مسورة فمن الطبيعي أن يتخلل هذا السور أبراج ويذكر ابن المجاور بقوله: "عددت أبراج مدينة زبيد فوجدهًا مائة برج وتسعة أبراج بين كل برج وبرج ثمانون ذرع ويدخل في كل برج عشرون ذراعا إلا برج فانه مائة ذراع وقد توزعت هذه الأبراج على محيط السور والتي لم يتبق منها سوى 12برجا منها 4تشترك مع أبراج القلعة ووجدت منها أشكال متنوعة.

1– أبراج نصف دائرية، ولم يبق منها سوى اثنان هما البرج الجنوبي لباب الشبارق وبرج الكدف.

2– أبراج ثلاث أربع دائرة، وهذا هو الغالب على ما يشاهد من بقية أبراج المدنية، وهي البرج الشمالي من باب الشبارق والجزء العلوي من باب النخل وأبراج القلعة كلها تقريباً.

3– أبراج مضلعة، وهي عبارة عن نصف مثمن ومثمن كامل وذلك ما نشاهده في الطابق الأرضي والأوسط من مبنى السجن ويرجع إلي فترة السلطان الأشرف الإسماعيلي الثاني وكذلك في الطابق الأرضي من باب النخل .

4- أبراج دائرية، وفيها تظهر استدارة البرج كاملة ، ومن أمثلة ذلك ما تبقى من الأبراج هي برج حسين والصديقة وبرج شرق باب سهام

5- أبراج مربعة، ولم يبقى منها سوى برج واحد يقع في الجهة الشرقية لباب القرتب وصفة بناء هذه الأبراج أنها تتكون من طابقين الأعلى معظمها مكشوف، وبعضها مغطى بسقف، وهي بذلك تكون غرفتين فوق بعضها يتخلل جدرانها مزاغل إما مفردة أو مزدوجة ، كما في أبراج البوابات إلي جانب ذلك تحتوي على سقاطات .

المزاغل:

هي عبارة عن فتحات لرمي السهام وتتخذ شكلا على هيئة شق رأسي ضيق من الخارج ومتسع من الداخل بحيث يسمح بحرية حركة الجند، ولم يقتصر وجودها على عمارة بعينها بل وجدت في جميع الحضارات، وقد وجد في أبراج وأسوار زبيد أنواع منها:-

1- فتحات صغيرة مربعة من الداخل والخارج، وربما كان هذا النوع هوالغالب على مزاغل أبراج وأسوار زبيد وتتكون من الداخل من دخلة معقودة بعقد مدبب.

2- فتحات مستطيلة الشكل، وهي عبارة عن فتحة مستطيلة تظهر من الخارج والداخل على هيئة شق في الجدار ، وبعضها تتسع الفتحة من الداخل بحيث تكون دخلة مستطيلة معقودة يتوسطها شق المزاغل .

3- المزاغل المزدوجة وهي تتكون من دخلات مستطيلة تتوسطها فتحات رمي السهام.

4- مزاغل مشتركة مع السقاطات، وهي عبارة عن فتحات مختلفة الأشكال محمولة على كوابل من الآجر في أرضها فتحة إلي الأسفل لرمي المواد الحارقة والسهام , وفي نفس الوقت شغلت جدرانها الجانبية بمزاغل , وقد شغلت هذه السقاطات أبراج والثكنات .

البوابات :

جاء في وصف المدينة أنه يتخلل سورها أربع بوابات تتجه إلي الجهات الأصلية، وهي باب الشبارق، وباب النخل، وباب سهام، وباب القرتب.

أولا : باب الشبارق :

وينفذ إلي الجهة الشرقية، وهو عبارة عن كتلة يفتح في منتصفها فتحة مدخل متوجه بعقد مدبب يرتفع عن سطح الأرض بنحو 3.5م ويرتكز على كتفين يعلوه صف من زخرفة التسنين، ويكتنف المدخل برجان أحدهما شمالي والآخر جنوبي، فالبرج الشمالي شبه دائري يبرز أكثر من الآخر ناحية الخارج في اتجاه نحو فتحة المدخل مما يجعله يتقدم ليشبه وكأنه منكسر.

أما البرج الجنوبي فهو يماثل الشمالي ولكنه أقل بروزاً منه، ويعلو فتحة المداخل والبرجين جدار ساتر خلفه ممر للجند، وفتح في هذاالجدار مزاغل لرمي السهام، وهي على مستويين الأولى تقع في واجهة الطابق الأرضي للممر ، وهي على هيئة

صفين أحدهما فوق الآخر والثاني تقع في واجهة الطابق الأول وتتكون من صفين أيضاً، يلي البرج من الجهة الشمالية للجدار الشمالي للممر جدار مماثل للجدار الجنوبي المقابل له، ويكون حجرة ذات طابقين، وتلتصق بكتلة المدخل الثكنات العسكرية، وهي تكتنف كتلة المدخل من الجانبين يتخلل واجهاتها مزاغل وسقاطات، ومهمتها إقامة الجند فيها، وبعد تجاوز فتحة المدخل نصل إلي دركاة مستطيلة قسمت إلي قسمين الأولى مغطاة بسقف خشبي فيها فتحة مدخل تؤدي إلي ممر الطابق الأرضي للبرج الشمالي وقد اتخذ الشكل الدائري للبرج، ثم فتحة تتجه نحو اليسار تؤدي إلي الطابق الأرضي للبرج الجنوبي، كما أن المعمار قد قام بفتح باب في جدار البوابة الجنوبي تؤدي إلي حجرة مربعة فيها باب في الجدار الشرقي لها يؤدي إلي الطابق الأرضي للبرج ، وبعد الدخول ينعطف الداخل يمينا بمحاذاة الجدار الغربي ليصل إلي ممر يؤدي إلي سلم يصعد إلي الطابق الأول من البوابة.

ثانيا : باب سهام :

يفتح في الجهة الشمالية ويعد بابها الرئيس وسهام نسبة إلي وادي سهام.

وهو عبارة عن كتلة بنائية يتوسطها فتحة المدخل ويتوجها عقد مدبب مزدوج ، الداخلي يغلق عليه مصراعا باب من الخشب ويكتنف الفتحة برجان دائريان، كما يوجد إلي الجهة اليمنى من الفتحة قاعة مغطاة بقبو، ويتوج كتلة المدخل جدار ساتر فتح في جداره مزاغل وفي أرضه سقاطات , ويلي الجدار الساتر ممر يليه واجهة الغرفة التي تعلو الدركاة وفي طرفها الغربي باب تكتنفه ثلاث شبابيك، وقد زينت واجهة الغرفة بزخارف نباتية وهندسية.

وقد فتحت مزاغل في جدران الأبراج في الطابق الأرضي والأول وعدد من السقاطات، أما الوصف من الداخل فيتشابه إلي حد ما مع وصف باب الشبارق من حيث وجود الدركاة والممرات والغرف في الأبراج والسلم المؤدي إلي الطابق الأول والفتحات التى تفضي إلي المدينة.

ثالثا: باب النخل :

يفتح هذا الباب إلي الجهة الغربية منها ، وكان يعرف باسم باب غلافقة نسبة إلي ميناء المدينة، وهو عبارة عن كتلة بنائية يتوسطها مدخل منكسر ببرج واحد، ويتجه الداخل نحو اليسار ليصل إلي مساحة مربعة محصورة بين كتلة المدخل والواجهة الشمالية للثكنة الجنوبية، ثم يتجه نحو اليسار ليصل إلي فتحة المدخل التي يتوجها عقد مدبب ويوجد على جانبي الفتحة مزاغل , ويعلو فتحة المدخل فتحات نوافذ مغشاة بستائر مخرمة ويتوجها عقود نصف دائرية، ويعلو كتلة المدخل جدار ساتر فتحت فيه مزاغل.

ويكتنف المدخل برج من الجهة الغربية مكون من طابقين فتحت في جدارنه مزاغل، وصفة المدخل والبرج من الداخل كما مر في باب الشبارق مع اختلافات استدعتها شكل المدخل المنكسر.

رابعا: باب القرتب:

يقع في الجهة الجنوبية وينفذ إلي قرية القرتب الذي سمي باسمها، وهذا الباب عبارة عن كتلة مستطيلة الشكل تتصدر واجهته فتحة متوجة بعقد مدبب ويعلوه جدار ساتر فتح في الجدار مزاغل بمستوى الطابقين، ويكتنف فتحة المدخل من الجهة الشرقية غرفة وسلم في ركنها الجنوبي الشرقي حجرة صغيرة .

وصفة المدخل تتشابه مع ما سبق إلا أن هذا المدخل ليست له أبراج.

ويكتنف جميع البوابات من الجانبين ثكنات عسكرية لاتقل أهمية عن الأبراج ؛ وذلك بما تحمله من عناصر دفاعية مثل المزاغل والسقاطات.

وقد خضع تخطيط تلك الثكنات لعملية إقامة الجند فقسمت إلي أروقة بواسطة بوائك تحمل عقودا، وهذا التقسيم قد لا ينطبق على الجميع إلا أن الأغلب أخذ نفس التخطيط وذلك بسبب ما تمليه الحاجة لذلك وهي إقامة الجند وتعرف اليوم بالعنابر وربما تأثر هنا التخطيط بالعمارة العثمانية ؛ لأن هذه الثكنات معظمها تعود للتجديدات المتأخرة في العصر العثماني .

القلعة:

تقع القلعة في الطرف الجنوبي الشرقي للمدينة، ويعد سورها الشرقي جزءاً من سور المدينة، وتحيطها الشوارع والمنازل من الجهة الغربية ويتقدمها من الجهة الشمالية الميدان أما الجهة الجنوبية فيتقدمها أرض فضاء. ويبدو أن القلعة قد بنيت على تل مرتفع، وقد روعي عند اختيار موقعها أن تكون بعيدة عن السكان، في طرف المدينة ، وهي بذلك تتشابه مع كثير من قلاع المدن متل صنعاء قصر السلاح وتعز القاهرة، وقلعة دمشق، وقلعة الجبل بالقاهره .والقلعة عند اختيار بنائها في نفس الموقع لم تبن كقلعة ، بل بنيت كقصر للأمير محمد بن زياد – دار للإمارة – يقول في ذلك ابن المجاور: " لما أقام ابن زياد زبيد بنى شحار بن جعفر دار الملك في زبيد ذات طول وعرض بالآجر والجص بناءً وثيقاً وكان له باب عال بالمرة ينظرون منه على فرسخين, وقد بقي الباب على حاله إلي أن هدمه الملك المسعود يوسف سنة **618**هـ/ **1321**م، وقد أضيفت له قصور أخرى في عهد خلفائه الزياديين ومن بعدهم النجاحيين وصولا إلي عهد الناصر أحمد الرسولي سنة **822**هـ/ **1419**م الذي قام بهدمها جميعا وبناء قصر واحد مكانها عرف باسم الدار الناصري الكبير والذي مازال معروفاً بهذا الاسم حتى اليوم .

ويمكن إيجاز تخطيط القلعة على النحو الآتي :

اتخدت مساحة متعددة الأضلاع في بعض جوانبها استطالة , فالواجهة الشمالية تمتد من برج مدرسة الإسكندرية حتى الركن الشمالي الغربي لدار الضيافة وهذه الواجهة ليست على استقامة واحدة حيث تمتد باستقامة واحدة حتى البرج الغربي للسجن ثم تنكسر نحو الجنوب، ويتخللها ستة أبراج، أما الواجهة الغربية فهي تمتد من الركن الشمالي الغربي لدار الضيافة حتى

برج الزاوية الجنوبية الغربية ، وتمثل واجهات لعدد من المنشآت المعمارية منها الواجهة الغربية لدار الضيافة وللثكنة العسكرية، ولا تحتوي على أبراج.

أما الواجهة الجنوبية فهي تمتد من برج الزاوية الجنوبية حتى برج باب النصر، وشكلها متعرج، كما أنها تمثل واجهات لعدد من المنشآت منها الواجهتان الجنوبية والشرقية للثكنة العسكرية المجاورة للبرج، والواجهة الجنوبية لمخزن الحبوب، الواجهتان الغربية لمخزن السلاح والواجهة الجنوبية لثكنة باب النصر، ويتخلل جدارها برجين.

الواجهة الشرقية، وتمتد من باب النصر حتى برج الزاوية الشمالية الشرقية للقلعة، ويتخلل جدارها ثلاثة أبراج وعدد من الثكنات العسكرية، وتتكون القلعة من باب النصر والسجن والثكنات العسكرية، وعنابر السلاح ومخازن الحبوب ودار الإمارة ودار المالية ومقر الحاكم ودار الضيافة وساحة البستان , والذي جر إليه عين ماء جارية وبنيت بالآجر والجص إلي جانب بئرين كبيرتين احدهما للبستان والثانية للسجن، ومدرسة الإسكندرية.

مدخل القلعة:

يقع في الجزء الأيسر من الواجهة الشمالية للقلعة، وهو عبارة عن فتحة مستطيلة الشكل معقودة بعقد مدببة ذو زخرفة مفصصة، وعند الدخول يتجه الداخل أولا يمينا بين البرجين ثم يتجه يسارا حتى يصل إلي ساحة مكشوفة محصورة بين برجي البوابة وواجهات الممرات المؤدية إلي البرجين وباب الدخول ويكتنف المدخل برجين أحدهما شرقي وآخر غربي، الشرقي، وهو مكون من شكل دائري مدعوم بجدار ساند ويتكون من طابقين فتحت فيه مزاغل وسقاطات وهو بذلك يشبه أبراج بوابات المدينة أما الغربي فيبدأ بجدار من فتحة المدخل حتى يصل إلي البرج الذي اتخذ شكلا أسطوانيا دعم الجزء السفلي بجدار ساند، ويفتح في جداره مزاغل، ونجد الوصول بين البرج وفتحة المدخل عبارة عن ممر فتحت فيه مزاغل، ويتوج البرجين وفتحة المدخل جدار ساتر فتحت فيه مزاغل.

القنوات :

عبارة عن أنابيب تمتد من مصدر الماء إلي المكان المراد وصوله إليه، ومن حيث مادة صناعتها وجدت أنواع: الأول مصنوع من المعدن والثاني من الأنابيب الفخارية والثالث بناء مغطى ومكسوّ بطبقة ملاط وقد نفذت قنوات زبيدمن الأنابيب المصنوعة من الفخار المحروق، وهذه القناة كانت تمتد من مصدر الماء بالجبال الواقعة شرق المدينة بواسطة الأنبوب الفخاري غير ظاهر حتى يصب في حوض كبير خارج المدينة، ومنه تتفرع ثلاث قنوات تتجه نحو المدينة وتمر بجوار ضريح الشيخ طلحة الهتار، و تتجه إحداها نحو الشمال الغربي للمدينة وتصل حتى باب سهام،وتمد السكان خارج المدينة بالماء، والثانية تصل إلي المدينة عن طريق باب الشبارق ثم تسير حتى باب النخل والثالثة تصل إلي القلعة، وتعد

هذه القناة من أقدم القنوات في اليمن، إذ ترجع في عملها إلي سنة 553هـ/ 1118م وقد قام بعملها القاضي الرشيد أبو الحسن أحمد بن إبراهيم ت563هـ/1167م والذي كان أوحد عصره في علم الهندسة وفي ذلك يشير الحضرمي إلي أن القناة أنشئت في العهد الزيادي، كما ذكر ذلك المقدسي والذي ذكرأن المنشآت التي أقامها الحسين بن سلامة هي منشآت الزياديين، وأن القناة قام بتوسيعها القاضي الرشيد في عهد وزراء الدولة النجاحية.

الأسبلة:

تميزت الأسبلة بالبساطة، فهي تتكون من مساحة صغيرة مربعة أو مستطيلة بنيت جدرانها بالآجر وكسيت جدرانها الخارجية بطبقة جصية أما الداخل فقد غطيت بطبقة من القضاض، ويغطي السبيل قبة نصف كروية ، فتح في أحد جدرانها فتحات صغيرة معقودة تسمح باستخراج مياه الشرب وفتح في جانب آخر فتحة لملء خزان السبيل بالماء، وتنتشر هذه الأسبلة في مدينة زبيد بجوار المساجد والأسواق ، وكذلك الأسوار والأبراج .

السوق :

تعد زبيد من المدن التجارية المهمة ، يصفها الإدريسي بقوله: "مدينة كبيرة وأهلها مياسير أهل ثروة ومال والمسافرون إليها كثيرون ، و بها مجتمع التجار من أرض الحجاز وأرض مصر وأرض الحبشة، الصاعدون في مراكب جدة، وأهل الحبشة يجلبون رقيقهم إليها، ويخرجون منها ضروب الأفاويه الهندية، والمتاع الصيني وغيره ويذكر القلقشندى أن زبيد فرضة اليمن وبها مجتمع التجار، وكان يتم تصدير التجارة واستيرادها عن طريقين : أحدهما الطريق البري والذي يصل مابين زبيد والحجاز ومصر طريق الحج المصري من مصر إلي مكة ومن مكة إلي زبيد والعكس وثانيهما عن طريق البحر من ميناء زبيد المسمى غلافقة إلي مصر عن طريق ميناء عيذاب أو الطور أو السويس و أيضا إلي الحبشة والصين والهند والعكس.

ويقع السوق في مركز المدينة، وكان له دور كبير في نمو المدينة العمراني حيث قسمت من خلاله المدينة إلي أربعة أقسام كما سبق، وقسم السوق إلي أربعة أقسام لكل ربع ويعد من الأسواق المتخصصة، وهو بذلك يشبه سوق صنعاء من حيث التخصص لبيع السلع ، فعلى سبيل المثال سوق الحب(المحناطة) ، سوق المعطارة، وسوق العيش (الخبز) ، وسوق السمن، وسوق اللحم ، وسوق الخضر وغيره.

و طريقة بناء السوق عبارة عن شوارع ضيقة مغطاة تفتح عليها محلات صغيرة لا يتجاوز عرض المحل الواحد 2م ، ويتكون من طابق واحد فقط, بالإضافة إلي السوق المذكور الذي كان يعد من الأسواق اليومية والداخلية وكانت هناك أسواق أسبوعية، وتسمى باسم اليوم الذي تعقد فيه السوق، وكان سوق زبيد الأسبوعي في منطقة الأهواب، وإلي جانب ذلك كانت هناك

أسواق موسمية وهي تقام بمناسبة معينة وكان سوق زبيد يقام في موسم حصاد النخيل.

الحمامات:

من المنشآت الأخرى التي تزخر بها مدينة زبيد الحمامات، وقد أشار المقدسي إلي مرافق زبيد بأنها أكثر من مرافق مكة وأن حماماتهم نظيفة، وتشمل أحواض الوضوء، وهذه الحمامات هي المباني المخصصة للاستحمام ومزودة بالماء الحار والغرف الحارة ليعرق المستحم، وهي التي يطلق عليها خطأ في صنعاء الحمام التركي، وتتكون من غرفة باردة تسمى المخلع تليها غرفة دافئة وبها حوض ماء حار ثم الغرفة الساخنة، وتكون بها غرف للأفراد، وفي أغلب الأحيان كانت تقام هذه الحمامات إلي جوار المساجد.

الفنون في مدينة زبيد:

على الرغم من الشهرة التي تتمتع بها مدينة زبيد بالإنتاج شتى ضروب الفنون فإنه لم يصلنا في فترة البحث إلا الشيء اليسير والذي نتكلم عن تباعاً:

اولا: المنسوجات :

اشتهرت زبيد بالحياكة منذ تأسيسها حتى العصر الحالي ويصفها المقدسي بأنها أشبه ببوابة الصين وميناء بحري لليمن، وأورد الخزرجي مواد دعيت زبيدا، وقد فرضت ضرائب على منتجاتها من الحرير والأقمشة، إضافة إلي أن زبيد اشتهرت بزراعة العطب (القطن) في واديها المسمى زبيد ووادي رماع، لاويذكر سرجنت، أن أصحاب زبيد من زارعي القطن أعفوا من الضرائب، وماتزال زراعة العطب(القطن) في وادي زبيد مستمرة حتى اليوم.

وكانت صناعة الأقمشة في زبيد تمتاز بصبغة النيلة التى لا نظير لها والتي شبهها البعض باللازورد ، ومنها صنعت الثياب النفيسة بدقة متناهية يصعب التفريق بينها وبين ما كان يصنع في الشام، وفي مدينة زبيد ظهرت مصانع للغزل والنسيج منذ بداية القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي حيث أضحت زبيد سوقا تجارية بين صنعاء وعدن، واستمرت هذه المصانع تغطي اليمن من منسوجاتها المختلفة من اللحف والبرد والفوط حيث بلغ عدد مصانعها 150 ، مصنعا ومنها انتشرت صناعة النسيج إلي بقية مدن الساحل التهامي في اليمن .

كما اشتهرت زبيد بصناعة الأصباغ المستعملة لصبغ الملابس المنتجة من تلك المصانع والتي كان يستدعى وجود معامل لإنتاج الأصباغ خصوصاً أنه كان هناك منسوجات تصدر إلي خارج زبيد حيث كان الحمل (حمولة الجمل) الواحد 122بردة إضافة إلي الحرير الخالص والمخلوط بالكتان.

ثانيا: العملة

تجمع المصادر على أن مدينة زبيد أُنشئت سنة 204هـ/820م على يد الأمير محمد بن زياد ، ويذكر عمارة اليمني أن أمراء بني زياد ظلوا موالين للخلافة العباسية ويخطبون لهم ويَسُكُّون العملة باسمهم، وعندما بدأ الضعف يدب في عاصمة الخلافة وانقسام البيت العباسي استقل

الأمير الزيادي إسحاق بن إبراهيم الملقب بأبي الجيش عن الخلافة العباسية سنة 293هـ/905، وتشبه بالملوك وظهر بمظهر المستقل، وكانت الدولة الزيادية تعد أكبر قوة سياسية في اليمن حتى أن أمراء بني يعفر في شبام وصنعاء طلبوا الحماية من الأمير الزيادي وأظهروا التبعية له وأقاموا له الخطبة ونقشوا اسمه على السكة، ويعتبر الأمير أبو الجيش أول أمير زيادي ينقش اسمه على السكة، وقد ظهر اسمه على الدنانير العباسية الزيادية المضروبة في زبيد وهي تحمل التواريخ:

341هـ/952م، 342هـ/953م، 346هـ/957م، 347هـ/958م، 348هـ/959م، 349هـ/960م، 350هـ/961م، 352هـ/962م، 357هـ/968م، 359هـ/970م، 362هـ/972م.

وقد نشر (روبرت دارلي) دينارا زياديا ضرب زبيد سنة 346هـ 957م وصفته على النحو التالي :

الوجه : المركز: لا إله إلا الله وحده لاشريك له.

الهامش1 : بسم الله ضرب هذا الدينار بزبيد سنة ست وأربعين وثلاثمائة.

الهامش 2 لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله

الظهر: المركز: الله محمد رسول الله إسحاق بن ابراهيم.

الهامش 1: وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا

الهامش 2: ونترل من القرآن ما فيه شفاء ورحمة.

ويلاحظ هنا أن العبارة التي كانت ترد على السكة العباسية وهي "محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله قد استبدلت بالآيتين "وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ، ونترل من القرآن ماهو شفاء ورحمة" وهاتان الآيتان كثيرا ما نشاهدها على سكة الدولة الزيدية، ولم تقدم المصادر التاريخية العلاقة التي كانت تربط الدولتين، كما وجد دينار. ضرب زبيد يحمل اسم المؤيد نجاح يرجع إلي عهد الخليفة القائم بأمر الله وضرب سنة 444هـ/ 1052م. وبعد أن تسلم السلطان علي بن محمد الصليحي الموالي للخلافة الفاطمية سك مسكوكات في زبيد وصنعاء وتحمل اسم الخليفة الفاطمي واسمه من ذلك دينار صليحي فاطمي ضرب زبيد سنة445هـ/1053م.

الوجه: المركز: المستنصر بالله أمير المؤمنين.

الهامش الخارجي: محمد رسول الله أرسله.

الهامش الداخلي: أمر به الأمير المظفر في الدين نظام المؤمنين.

الظهر: الإمام معد أبو تميم.

الهامش الداخلي، ضرب هذا الدينار بزبيد سنة خمس وأربعين وأربعمائة.

الهامش الخارجي: لا إله إلا الله محمد رسول الله علي ولي الله.

كما وجدت دنانير صليحية فاطمية لعلي بن محمدالصليحي والمستنصر بالله، وهي مضروبة بزبيد وتحمل تواريخ 445هـ/1053م، 447هـ/ 1055م 51هـ/1059م وقد توالي سك النقود في زبيد في عهود جميع الدول التي تعاقبت عليها سواء كانت كعاصمة أم مدينة ثانوية.

أعمال البناء:

برز في مدينة زبيد بناؤون قاموا بأعمال جليلة، وقد أشارت بعض المصادر إلي أسماء لبعضهم، ومن هؤلاء، المعلم علي بن حسن المعمار والمعروف بالعكبار، الذي قام ببناء الجامع الكبير بزبيد فى أثناء تجديده من قبل السلطان عامر بن عبد الوهاب، وكان قد ابتدأ عمارته يوم الأحد الخامس والعشرين من شوال سنة897هـ/ 1492م، فعمره عمارة عظيمة لم يسبق لها مثيل ، وزينه بأنواع الزخرفة وزخرف جداره القبلي ومحرابه بالذهب واللازورد.

وهذه الزخرفة نفذت على الجص وقوامها زخارف نباتية وهندسية، وكتابية، كما قام هذا المعمار بإصلاح الدار الناصرة الكبيرة ، إضافة إلي ذلك نجد الأمير الشجاع عمر بن عثمان بن محيا ، الذي كان أميرا وناظرا وبناءً فهو الذي قام بتعمير أبواب مدينة زبيد وأسوارها وحفر خنادقها أيام السلطان المجاهد سيف الإسلام أبو الحسن علي بن يوسف بن رسول ، وذلك في سنة 739هـ/ 1338م، وكذلك المعمار الصديق بن عمر الموزعي الذي كان موكلا إليه الإشراف على تجديد عمارة مسجد الأشاعربزبيد سنة 832هـ/1428م في عهد الملك الظاهر يحي بن إسماعيل ، وقد قضضه بالنورة ورسم بالدهان والذهب واللازورد ، وزخرف جداره القبلي بأنواع النقوشات ونصب منبرا وجعل عليه مقدمة آية كريمة من القرآن الكريم أنفق في تحصيلها نفقة جليلة، وهي عديمة النظير في الخط والتذهيب

من خلال ماسبق عرضه يتضح أنه كانت هناك أعمال بناء وتزيين وزخرفة وذلك يدل على مدى ما كانت تتمتع به زبيد من وجود فنانين مهرة يتسابق عليهم رعاة الفن فيها.

فنون الكتاب:

كان للخطاط أسمى مكانة بين أرباب الصناعات الأخرى، وكان للقرآن العظيم التوجيه في إجادة العمل وإتقانه ، الذي أدى إلي ازدهار الخط العربي وتطوره.

كما كان للملوك عناية وتوجيه بتجويد الخط وتعلمه ، فها هو ذا الملك جياش بن نجاح الذي حكم إقليم تهامة من اليمن وكانت عاصمته زبيد نحو 15 سنة (483 - 498هـ/1090-1104م) يرسل رسالة إلي معلم ولده يقول له فيها : " إذا أراد أن يكتب فَسَوِّ قلمه وصَوِّرْ له وضع الخط بمثال التصوير في موضعه وعلمه الفرق بين الواوات والفاءات"، وهذا يدل على مدى ما كانت تتمتع به زبيد من تقدم في تجويد الخط ، حتى صارمن اهتمام الملوك وسعة معرفتهم به.

فن التذهيب:

يعد هذا الفن من الفنون التي نالت الرعاية والعناية في المدن الإسلامية ، وذلك لرتباطه بالمصحف الشريف، وقد كان فن التذهيب قديما ولم يكن ابتكارا إسلاميا . وتطورت الزخارف والرسوم المذهبة على المصاحف الشريفة في سبيل الإجادة والإتقان، وكان الخطاط يترك فراغات في الأماكن المراد تزينها وتذهيبها، وقد واكبت اليمن الأقطار الإسلامية الأخرى منذ القرن 3هـ/9م في تذهيب المخطوطات والمصاحف وأعطاها الفنان اليمني جل اهتمامه وعنايته، ويمكن أن نعد أقدم نموذج مذهب ومؤرخ لأمير يمني إلي سنة 416هـ/1025م، وهو عبارة عن غرة مصحف محفوظ في متحف إستانبول، وتغشيها زخارف هندسية ونباتية، فضلا عن الكتابات بالخط الكوفي على أرض نباتية، وربما كان هذا الأمير يعود إلي دولة بني نجاح، الذين حكموا إقليم تهامة مابين (403-455هـ/1012-1160م) لاسيما في عهد الأمير نجاح، والذين اتخذوا من زبيد عاصمة لهم وهذا يبرهن على ازدهار فن التذهيب ولاسيما المصاحف في زبيد.

فن التجليد:

اشتهرت مدينة زبيد بصناعة دباغة الجلود وذلك جعل الدولة تأخذ عليها رسوما وكانت تصدرها إلي الخارج

الخاتمة :

في الختام يمكن القول أن لكل مدينة من المدن موضوع البحث خصائصها :

أولا : خصائص مدينة صنعاء:

1- من حيث الموقع : تقع المدينة في منطقة جبلية الذي أثرت في بناء المدينة باستخدام مواد البناء من الحجر في الطوابق السفلية ، والآجر في الطوابق العليا.

2- من حيث التاريخ : مدينة صنعاء قديمة البناء، إذ تعود إلي فترات تاريخية موغلة في القدم، وأقدم ذكر لها كان سنة 70م.

3- من حيث تخطيط المدينة : المدينة لم تخط في العصر الإسلامي ، وإنما كانت عاصمة لليمن من قبل الإسلام ولكنها توسعت ، وكان أول توسع لها عندما قام فروة بن مسيك ببناء الجبانة التي أمر بها الرسول (ﷺ) وكانت خارج أسوار المدينة، ثم أصبح حيًّا ، ثم توسعت بعد ذلك .

4- قسمت المدينة إلي حارات وعدم استقامة الشوارع فيها.

5- منازل مدينة صنعاء : متعددة الطوابع يمكن تسميتها المنازل القلاعية ، وذلك لأن الطوابق السفلية تكاد تكون معدومة الفتحات ، وواجهاتها كأنها لوحات فنية زخرفية .

6- اعتمدت صنعاء على الآبار في الشرب.

7- سور صنعاء قديم البناء مع التوسع والتجديد في فترات مختلفة .

8- تميزت صنعاء بوجود طرز لمنسوجات عدة هي : طراز العامة والخاصة والملوك والخلفاء.

9- أنشئت أول دار ضـــرب للـــسكة فيهـــا.

ثانياً:- خصائص مدينة زبيد:

1-من حيث الموقع : تقـــع في منطقـــة ســـهلية ساحلية كان له الأثر في البناء باستخدام المواد من لبن وطوب (الآجر) .

2- تعد مدينة زبيد أول مدينة أسست في اليمن في العصر الإسلامي 204هـــ - 820م وأول مدينـــة أتخذت الشكل الدائري، ولذا أسميت بغداد الـــيمن.

3- اعتمدت في تخطيطها على تقسيمها إلي أربعة أرباع بواسطة شارعين متعامدين ، هـــي ربـــع الأعلى، وربع المجنبذ ، وربع الجامع، وربع الجزء.

4- يغلب على منازل زبيد الطـــابق الواحـــد، ويتوسطه فناء مكشوف يسمى(ليـــوان وقيـــل صفة) تتوزع حوله وحدات المـــترل الـــسكنية، والمتسم بالبساطة والوضوح ، وذلـــك بـــسبب الموقع والمناخ.

5- اتخذ سور زبيد الشكل الدائري، وقد توسع في العهود التاريخية المختلفة.

6- تميزت المدينة بوجود أنابيب فخارية لجلـــب المياه من منطقة الجبال إليها بواسطة تلك الأنابيب (أي ما يعرف حاليا بشبكة الميـــاه في المدينـــة).

7- اشتهرت مدينة زبيد بزراعة القطن ونسجه ومعامل النيلة(الصبغة) المستمرة إلي اليوم.

د.علي سعيد سيف محمد
جامعة صنعاء



إحدى بوابات مدينة صنعاء (باب اليمن) .



إحدى بيوت صنعاء

المصدر: الفن العربى الإسلامى جـ 2، صـ 284

اليمن : أحد بيوت زبيد التقليدية

المصدر : الفن العربي الإسلامي جـ 2 , ص 289

منظر لواجهة من واجهات مباني زبيد

المصدر: الفن العربي الإسلامي جـ 2 , صـ 293

المصادر والمراجع

1) المصادر المخطوطة

- **ابن الديبع**، عبد الرحمن بن علي ت 94هـ أحسن السلوك في نظم من ولي من مدينة زبيد من الملوك نشرها د/ راضي دغفوس مجلة الإكليل ع1 س 1993م.
- **الخزرجي** أبو الحسن علي بن أبي بكر (ت812هـ) الكفاية والإعلام مخطوط مصور .

– العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك مخطوط مصور.

المطبوعة:

- **ابن الحسين**، يحيى، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتاب العربي، القاهرة 1968م
- **ابن الديبع قرة العيون في أخبار اليمن الميمون**، تحقيق محمد بن علي الأكوع جزءان، المطبعة السلفية القاهرة، 1971م.

– بغية المستفيد في أخبار زبيد، تحقيق عبد الله الحبشي، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، 1979م.

– الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار زبيد، تحقيق يوسف شلحد، بيروت، 1983م.

- **ابن رستة**، أبي علي أحمد بن عمر (ت. 290هـ/902)، الأعلاق النفيسة، طبعة ليدن 1984م.
- **ابن سيدة**، أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي، ت 458 هـ المخصص، المطبعة الأميرية بولاق مصر 1317هـ.
- **ابن عبد المجيد**، تاج الدين عبد الباقي، ت744هـ، تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن في تاريخ اليمن ، تحقيق مصطفى حجازي صنعاء ط2، 1985م.
- **ابن القاسم**، جمال الدين علي ت1176هـ، وصف صنعاء، مستل من كتاب المنشورات الجليلة، تحقيق عبد الله الحبشي، صنعاء، 1993م.
- **ابن المجاور**، جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب ت 690هـ صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، المسماة بتاريخ المستبصر اعتنى بتصحيحه أوسكر لو فغرين ط2 دار التنوير بيروت، 1986م.
- **الجعدي** عمر بن علي بن سمرة ت 586هـ طبقات فقهاء اليمن، تحقيق فؤاد السيد ط1 القاهرة 1957م.
- **بامخرمة**، أبو محمد عبد الله، تاريخ ثغر عدن، لندن 1979م.
- **الجندي**، بهاء الدين يوسف بن يعقوب ت 732هـ السلوك في طبقات العلماء والملوك، تحقيق محمد بن علي الأكوع مطبعة بساط بيروت1983م.
- **الحمادي**، أبو عبد الله محمد بن مالك ت أوساط القرن السادس الهجري، كشف

أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، تحقيق محمد بن علي الأكوع، صنعاء 1994م.
- **الحميري،** محمد عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مطبعة هيدلبير، بيروت 1985م.
- **الحميري** ، نشوان بن سعيد، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، مطبعة عيسى الحلبي، بدون تاريخ.
- **الخزرجي،** علي بن الحسن، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تحقيق محمد بن علي الأكوع، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء1983م.
- **الإدريسي،** أبو عبد الله محمد بن إدريس ت 560هـ نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، بيروت 1989م.
- **الرازي،** أحمد بن عبد الله محمد ت 460 هـ تاريخ مدينة صنعاء، طبعة جديدة منقحة ألحق بها ذيله كتاب الاختصاص للعرشاني تحقيق حسين بن عبد الله العمري، ط2 دمشق 1981م.
- **عمارة** ، نجم الدين ت566هـ، تاريخ اليمن المسمى المفيد في أخبار صنعاء وزبيد
- **وشعراء ملوكها وأعيانها وأدبائها،** تحقيق محمد بن علي الأكوع المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع ط3 1985م.
- **القلقشندي،** أبو العباس أحمد ابن علي ت821 هـ، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء 14جزاء القاهرة 1922م.
- **الكندي،** يعقوب بن إسحاق ت 260هـ السيوف وأجناسها، تحقيق عبد الرحمن زكي، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة مجلد 14 ج2 1952م.
- **المقدسي،** شمس الدين أبو عبد الله محمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، بريل 1967م.
- **الهمداني،** أبو محمد الحسن بن أحمد، ت منتصف القرن الرابع الهجري، الإكليل ج8 تحقيق نبيه أمين فارس، دار العودة بيروت، بدون تاريخ
- **الجوهرتين العتيقتين المائعتين الصفراء والبيضاء،** تحقيق حمد الجاسر، الرياض 1987م.

2) المراجع العربية والمعربة:

- **أبو العلاء**، محمود طه، جغرافية شبه الجزيرة العربية، اليمن الشمال والجنوب، ج4 مطابع السجل العربي 1972م.
- **بافقيه** محمد عبد القادر، الرحبة وصنعاء في إستراتيجية بناء الدولة السبئية، مجلة دراسات يمنية ع 33سنة 1988م
- **باسلامة** ، محمد عبدالله ، مدخل إلى دراسة المسكوكات اليمنية القديمة، مجلة الإكليل ع1 سنة 1987م.
- **بالوم**، كوستا، صنعاء مقال ضمن كتاب المدينة الإسلامية، ترجمة أحمد محمد تعلب، اليونسكو،إشراف سيرجنت، لندن 1983م
- **البناء**، السيد محمود، دراسة ترميم وصيانة مدينة صنعاء القديمة في العصر العثماني، رسالة دكتوراه غير منشورة كلية الآثار، جامعة القاهرة 1993م
- **الأكوع**، إسماعيل بن علي، لمحة تاريخية عن مدينة صنعاء الآثار الإسلامية في الوطن العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تونس 1985م.

مصاحف صنعاء، متحف الكويت الوطني، دار الآثار الإسلامية، الكويت 1985.

- **الأكوع محمد بن علي**، اليمن الخضراء، مطبعة السعادة بيروت، ط1 1971 م.
- **تمام**، مصطفى عبد العال ، مدينة صنعاء ومسيرة الاستيطان الحضري، مجلة كلية الآداب، جامعة صنعاء، ع 8 سنة 1988م.
- **الحجري**، محمد بن أحمد، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، تحقيق إسماعيل الأكوع ، بيروت 1984م.

مساجد صنعاء عامرها وموفيها، ط2 دار إحياء التراث العربي ، بيروت 1398هـ

- **الحداد**، عبد الرحمن، التراث المعماري في صنعاء القديمة، مجلة دراسات يمنية ع 27،سنة 1987 .

صنعاء القديمة ومضامينها التاريخية ، صنعاء 1992 م

- **الحداد**، عبد الله عبد السلام، المنشآت العسكرية بمدينة زبيد، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة 2000م.
- **الحزمي**، أحمد محمد، القيم الجمالية لعناصر واجهات مدينة زبيد، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الهندسة، جامعة الأزهر 2000 .
- **حسين**، محمود إبراهيم، دراسة لبعض المنشآت التجارية اليمنية في العصر الإسلامي لمدينة صنعاء، مجلة كلية الآثار، جامعة القاهرة ع 4، سنة 1994م.

- **الحضرمي**، عبد الرحمن عبد الله، مدينة زبيد في التاريخ، مجلة الإكليل ع1، سنة 1980م.
- زبيد وآثارها الإسلامية وأوضاعها الراهنة، الآثار الإسلامية في الوطن العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس 1985م.
- أسوار زبيد الثلاثة، مجلة الإكليل ع 22، سنة 1993م.
- زبيد مساجدها ومدراسها العلمية في التاريخ، دمشق 2000م.
- **خليفة**، ربيع حامد،
- الفنون الزخرفية اليمنية في العصر الإسلامي، القاهرة، 1992م.
- مناسج الطراز الخاصة لمدينة صنعاء، مجلة الإكليل، ع2، سنة 1988م.
- توقيعات الصناع والفنانين على الفنون والآثار الإسلامية في اليمن، مجلة الإكليل ع4.3، سنة 1988م.
- طراز المسكوكات اليمنية في العصرين الأموي والعباسي، مجلة التاريخ والمستقبل، كلية الآداب جامعة المنيا، 1992م.
- **دغفوس**، راضي، ابن الديبع مؤرخ اليمن، مجلة الإكليل ع1، سنة 13، 1993م.
- **رجب**، غازي ، البيوت القلاعية في اليمن، مجلة سومر ، مجلد 37، ج2 بغداد، 1981م.
- المنسوجات العربية الإسلامية في العصرالإسلامي في اليمن، مجلة بين النهرين بغداد، العراق ع66.65، سنة 1989م.
- فنون الكتاب الإسلامي، مجلة المأثورات الشعبية، بغداد، ع17، سنة 1990م.
- **الريحاني، أمين**، ملوك العرب، دار الريحاني، بيروت، ط5، سنة 1967م.
- **السروري**، محمد عبده، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن، القاهرة، 1997م.
- **السعدي**، عباس فاضل، نشأة مدينة صنعاء، مجلة دراسات يمنية، ع34، سنة 1988.
- **سفندال**، تاريخ الكتاب من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر، ترجمة محمد صلاح الدين حلمي القاهرة 1958م.
- **سيرجنت**، ر، ت، الطبقات الاجتماعية في شبة الجزيرة العربية، مقال ضمن كتاب المدينة الإسلامية ، ترجمة أحمد محمد تغلب، اليونسكو 1983م.
- **سيف**، علي سعيد ، مآذن مدينة صنعاء حتى نهاية القرن الثاني عشر، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، 1994م.
- المنسوجات اليمنية في العصر العباسي، بحث مقدم إلى الندوة العالمية الخامسة لتاريخ الجزرة العربية ، السعودية أكتوبر 2003م.

- **الشجاع**، عبد الرحمن، زبيد بأقلام الرحالة، مجلة كلية الآداب، ع12، سنة 1991م.
– نشأة الدولة الزيادية، مجلة الإكليل، ع2 سنة 1989م.
- **شرف الدين**، أحمد بن الحسين، اليمن عبر التاريخ، مطبعة السنة المحمدية، مصر، 1964م.
- **شلبي**، أحمد، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارات الإسلامية، ط3، مصر 1985م.
- **الشمري**، إبراهيم سرحان البرج في العمارة العربية الإسلامية في العراق، دكتوراه، غير منشوره ، كلية الآداب، جامعة بغداد 1996م.
- **شيحة**، مصطفى عبد الله، المدخل إلى العمارة والفنون في الجمهورية العربية اليمنية، القاهرة، 1987م.
– دراسة زخرفية لسيف الوزير ناصر بالسودان وأربعة سيوف يمانية، القاهرة 1984م.
- **صالح**، أحمد صالح، دراسة ترميم سور صنعاء القديمة، مجلة كلية الآداب، جامعة صنعاء، ع13، سنة 1991م.
- **العزي**، وفية، نماذج من الفنون الإسلامية، مجلة المنهل، ع71، سنة 1962م.
- العش، محمد أبو الفرج،
– المسكوكات في الحضارة العربية الإسلامية، مجلة الإكليل، ع5 سنة 1981م.
–النقود العربية الإسلامية في الوطن العربي، الآثار الإسلامية في الوطن العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس 1985م.
- **عبد الله** ، يوسف محمد ، المدينة العربية الإسلامية، نبذة عن تاريخها ودعوة إلى صيانتها، مجلة الإكليل، ع3.2 ، سنة 1982م.
- **العمري**، حسين بن عبد الله، يوسف محمد عبد الله، صنعاء، الموسوعة اليمنية ، جزءان ، دار الفكر، بيروت ، 1992م.
- **عثمان**، محمد عبد الستار، المدينة الإسلامية، عالم الفكر، يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، (128).
- **العميد طاهر مظفر**، تخطيط المدن العربية الإسلامية، مطبعة جامعة بغداد ، 1986م.
- **عنان**، زيد بن علي، صنعاء حاراتها آبارها وشوارعها، مجلة الإكليل ع3.2 ، سنة 1982م.
- **عنان**، عبيد محمد، دراسة ميدانية لسوق صنعاء، مجلة دراسات يمنية، ع11، 1983م.
- **عيسى**، عبد الله زيد، العمارة التقليدية في اليمن المتنوع والمتجانس مع البيئة، بحث ألقي في ندوة الثقافة اليمنية خلال نصف قرن وزارة الثقافة اليمن 2002م.
- **غيلان**، حمود غيلان، الأخشاب المزخرفة في اليمن من سنة 265-532هـ رسالة

ماجستير غير منشورة كليـــة الآداب جامعـــة بغداد، 1996م.

- **فرغلي**، أبو الحمد محمود، دراسة لمــصحف شريف يمني من القرن 12هـــ، تحت الطبع .
- **القصيري**، اعتماد ، فن التجليد عند المسلمين ، بغداد 1979م.
- **لوكوك**، رونالد، إطلالة على صنعاء القديمـــة، مجلة عمارة ع2، سنة 1، بغداد 1989م.
- **مقبل**، سمير أحمد، دارسة تاريخية للسيف اليمني القديم ، من المصادر والمراجع، مجلة الإكليـــل، عدد22، سنة 1992م.
- **هيكل** ، نمير، جوانب من القيم التشكيلية لفن العمارة الصنعانية، مجلة دراسات يمنية، ع11، 1983م.
- **الهمداني**، حسين بن فيض الله، الــصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، دار التنوير بيروت 1986م.
- **الواسعي**، عبد الواسع بن يحيى، تاريخ الـــيمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوات تاريخ اليمن، المطبعة السلفية القاهرة 1946م.

3) المراجع الأجنبية:

-**Borthemer** ,H .C .G ,"Master works of Islamic Book Art Koranic", Yemen 3000Years of art and civilization in Arabia Felix London,1979

-**Guillemette et,** Paul Bonnenfant, L'art du bois, Sanaa Architecture domestique Paris 1987.

-**Lewcock, Ronald,** The bulding of the, Sug, Markets ,Sanaa an Arabian Islamic City , London ,1983

-**Lewcock, Ronald &. Ismail al-Akwa, & R.B.Serjeant.**
The Public.Bath Sanaa, Sanaa an Arabian Islamic City ,London 1983.

-**Lewcock,Ronald.&R.B.Serjeant,** The House of Sanaa_ Sanaa an Arabian Islamic City ,London, 1983.

-**Lewcock, Ronald& Paolo.** Costa, R.B.Serjant, The Urban Development,of Sanaa, Sanaa
an Arabian Islamic City ,London 1983.

-**Lewcock K Ronald,** The Old Walled City of Sanaa, Unesco 1983 .

-**Fan.Acres,** revised by Ronald.

-**Lewcock&Robert Wilson**,Geographical Sketch, Sanaa an Arabian Islamic City ,London 1983.

-**R.B.Serjant,** Islamic Textiles Material for a History ,London, 1942

الفصل الثانى : نماذج من المظاهر الحضارية

1 - الطرق والمسالك .

أ . فى المشرق العربى .

ب. فى المغرب العربى .

2 - الرياضة وأنواع التسلية .

3 ـ الأطعمة والأشربة .

1. الطرق والمسالك :

أ ــ في المشرق العربي

مع بزوغ فجر الإسلام في مكة المكـــرم، وظهور المدينة المنورة أول عاصمة سياسيَّة ودينية للمسلمين بعد هجرة النبي ﷺ إليهـــا، بـــدأت الطرق والمسالك تنمو وتزدهر في مختلف أرجـــاء جزيرة العرب ، فالطرق التجارية الـــتي كانـــت عامرة في فترة ما قبيل الإسلام وترتبط بالحواضر العربية في العراق وبلاد الشام والـــيمن ومـــصر والخليج العربي عاودت ازدهارها بعد انكماشها فترة من الزمن .

وكان لانتشار الإسلام خارج الجزيـــرة العربية ، في مصر وشمال إفريقيا والشام والعراق وفارس أثره الكبير في ظهور طرق جديدة ، تربط الحواضر والمدن الإسلامية بعضها بـــبعض مـــن جهة، وتتصل بالمدينتين المقدستين : مكة المكرمة والمدينة المنورة من جهة أخرى . ومن الحواضر الإسلامية المهمة التي يمكـــن الإشـــارة إليهـــا: البصرة، والكوفة ، وواسط ، والفسطاط، وبيت المقدس، ودمشق. ومن ثم بغداد حاضرة الخلافة العباسية.

وبالإضافة إلى المدينتين المقدستين : مكة المكرمة والمدينـــة المنـــورة ، ازدهـــرت الحيـــاة الاقتصادية والعمرانية في عدد مـــن الحواضـــر والمدن ، ومن أهمها جدة وعَثّر وصنعاء وزبيـــد وتعز والبحرين واليمامة.

وفي ظل دولة الإسلام – ومنـــذ بدايـــة عهدها – أصبح الحج على مرّ العصور عنـــصراً أساسياً في نهوض طرق التجارة والحج. وأخـــذ خلفاء الدولة على عـــواتقهم الاهتمـــام بتلـــك الطرق وتعهدها بالإصلاح من النواحي الإدارية والهندسية وتزويدها بالمرافق والخدمات.

وتعد فترة الخلافة الراشدة هي البدايـــة الحقيقية للنهوض بالطرق والمـــسالك في داخـــل الجزيرة العربية وخارجها . ولعل أهـــم طريـــق وأكثرها شهرة وطئته أقدام البشر والـــدواب ، ذلك الطريق الذي سار عليه النبي صلى الله عليه وسلم في هجرته الشريفة من مكة المكرمـــة إلى المدينة المنورة . وبعد فتح مكة المكرمة في شهر رمضان من السنة الثامنة من الهجـــرة الـــشريفة زادت أهمية الطريق الذي سلكه الرســـول ﷺ ، وأصبح الطريق الرئيس الذي يربط بين المدينتين المقدستين . ثم تعددت الطرق بين مكة المكرمـــة والمدينة المنورة ، ومنها الطريق الشرقي والطريق السلطاني والطريق الساحلي. واشتهر طريقـــان رئيسان في عصر صدر الإسلام : همـــا الطريـــق الساحلي الذي يمتد إلى ساحل أيلة وعرف بطريق " المُعْرِقَة " [البكري "د.ت" 43/2]، والطريق البري المسمى بطريق " البتوكية " الـــذي يمـــر بمنطقة تبوك. وهذا الطريق سار عليه الرســـول صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك المشهورة .

وعندما توجهت جيوش المـــسلمين إلى العراق بقيادة سعد بن أبي وقاص – وذلك بعـــد عامين من تولي عمر ابن الخطاب الخلافة – سار سعد على امتداد الطريق الذي عرف فيما بعـــد باسم درب زبيدة . وفي طريقـــه إلى القادســـية

مكثت جيوش سعد عدة أشهر في عدد من مناهل المياه في كل من (الثعلبيَّة) و(زرود) و(الشرف) و (العذيب) ثم (القادسية) ، وقد اشتهرت هذه المواضع لاحقاً ، لتمثل محطات رئيسة على طريق الحج من الكوفة إلى مكة .

وقد ضاعف الخلفاء المسلمون اهتمامهم بطرق المواصلات مع بداية تكوين الدولة الإسلامية ، وأبرز مثال لدينا ما قام به الخليفة عمر بن الخطاب في السنة 17هـ/638م عندما توجه من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة ، لتأدية العمرة ، فطلب منه أصحاب المياه – أي الذين يبيعون المياه للمسافرين – أن يأذن لهم بإنشاء استراحات على طول الطريق من مكة إلى المدينة ، فأذن لهم الخليفة عمر ﷺ واشترط عليهم أن يجد كل من يعبر هذا الطريق المأوى المناسب والماء ، وقال لهم : " ابن السبيل أحق بالظل" .

يقول ابن سعد : " واتخذ عمر دار الرَّقيق (وقال بعضهم : الدقيق) فجعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يُحتاج إليه، يعين به المنقطع به والضَّيف يترل بعمر، ووضع عمر في طريق السُّبيل ما بين مكة والمدينة ما يصلح من ينقطع به ويحمل من ماء إلى ماء إلخ..."

وهكذا أرسى الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ أسساً قوية للاهتمام بالطرق وعمارتها وتخفيف عناء المسافرين، والمنقطعين منهم على الطرق، أو الوافدين إلى الحواضر الإسلامية ولاسيما مكة المكرمة والمدينة المنورة . وفي عهد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ(23- 35هـ/ 644- 656م) تحسنت الأحوال الاقتصادية للدولة الإسلامية ، وتوسعت حواضرها عمارة وتخطيطاً وسكاناً ، وأصبحت الطرق المرتبطة بين الحواضر ومركز الخلافة الإسلاميَّة أكثر حركة . فكان والي البصرة زمن الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ (وهو أبو موسى الأشعري) قد شرع في حفر الآبار على امتداد طريق البصرة إلى مكة المكرمة.

يذكر ياقوت الحموي رواية عن أبي منصور: " قال أبو منصور فيقول : الأحفار المعروفة في بلاد العرب ثلاثة : حَفْر أبي موسى ، وهي ركايا حفرها أبو موسى الأشعري على جادة البصرة إلى مكة . وقد نَزَلْتُ بها واستقيت من ركاياها ، وهي ما بين ماوية والمنجشانية ، بعيدة الأرشية يستقي منها بالسانية ، وماؤها عذب ، وركايا الحفر مستوية ...".

وحَفَر أبو موسى الأشعري عيوناً في(فيد) المحطة الكبرى في منتصف الطريق بين الكوفة ومكة وهذه العيون تسمى عين عثمان ، ولا تزال آثار هذه العيون باقية حتى اليوم.

وتولى عبد الله بن عامر بن كريز ولاية البصرة بعد أبي موسى الأشعري سنة 29هـ/649م ، فقام بأعمال إنشائية جليلة من حفر للآبار والعيون وإنشاء العديد من الاستراحات على طول الطريق من البصرة إلى مكة، وألحق بها الحدائق وأشجار النخيل. ومن

المحطات التي أنشأها : النباج (نباج ابن عـــامر) والقريتين والحُفَيْر والسمينة وبستان بني عـــامر . وتذكر المصادر أن عبد الله بن عامر " كـــان لا يعالج أرضاً إلاّ ظهر له فيها الماء" (الزبيـــدي)، وهذا يعني أنه كان على درايـــة بمكـــامن الميـــاه واستنباط المياه الخفية . كما أنه كان يقول:" لو تُرِكْتُ لخرجت المرأة في حداجتها على دابتـــها، ترد كل يوم على ماء وسوق حتى توافي مكة.

وبقيام الدولة الأموية واتـــساع رقعـــة الدولة الإسلامية وظهور حواضر إسلامية جديدة ازداد الاهتمام بالطرق ، كما ظهـــرت طـــرق جديدة رئيسة وفرعية داخل الجزيـــرة العربيـــة وخارجها ، وتولى خلفاء بني أمية تسهيل تلـــك الطرق وتعهـــدها بالرعايـــة وتـــوفير المرافـــق والخدمات عليها؛ لـــتمكين الحجـــاج والتجـــار وغيرهم من السفر بيسر وسهولة . ويعد عصر الخليفة عبد الملك بن مروان عصراً جديداً مـــن البناء والتشييد والتطوير لمرافق الدولة الإسلامية والاهتمام بالمدن العربية الإسلامية وربطها بطرق مواصلات متطورة مزودة المرافـــق والخـــدمات كافة.

ولعل الكشف عن أحجار المسافة المكتوبـــة ولأحجار التأسيسية لإنشاء الطرق من عهد عبد الملك بن مروان – في فلسطين – خير دليل على الازدهار الحضاري لطرق المواصلات، بالإضافة إلى بداية الحركة العمرانية الدينية والمدنيـــة، في دمشق وبيت المقدس وفي الحرمين الشريفين وفي غيرها من مدن الإسلام .

وعندما تولى الوليد بن عبد الملك بـــن مروان الخلافة (**86- 96هـ/ 705- 715م**) كتب إلى عمر بن عبد العزيز ,واليه على المدينـــة يأمره بـــ "تسهيل الثنايا وحفر الآبار" بالمدينـــة، وخرجت كتبه إلى البلدان بذلك، وهذا يعني أن توجيهات الوليد كانت شاملة أرجـــاء الدولـــة كافة، وإعطاء اهتمام خاص بالطرق وتـــسهيلها للمسافرين .

وسار عمر بن عبد العزيز بعـــد توليـــه الخلافة على نهج الوليد بن عبد الملك في الاهتمام بطرق المواصلات وتوفير الخدمات والمرافق فيها. يروي الطبري :" كتب عمر إلى سليمان بـــن أبي السري ، أن "اعمل خانات في بلادك ممن مرَّ بك من المسلمين فاقروهم يوماً وليلـــة ، وتعَّهـــدوا دوابهم، ومن كانت به علة فاقْروه يومين وليلتين، فإن كان منقطعاً به فقوّوه بما يصل به إلى بلده".

ويعد هشام بن عبـــد الملـــك (**105- 125هـ/ 724- 743م**) من بـــين أوائـــل الخلفاء الأمويين الذين كان لهم اهتمامات بإنشاء القصور المزودة بالحدائق الغناء والميـــاه الـــوفيرة وخزانات المياه والقنوات والآبـــار واشـــتهرت منشآته بروعتها وبجمالها الأخاذ، ولا يزال بعضها قائماً في سوريا وفلسطين والأردن .

ووجه هشام بن عبد الملك عنايته بطريق الحج بين الشام ومكـــة. يقـــول المـــسعـــودي: "واتخذ القُنيّ والبِرَك بطريق مكة "، وهذا يعني أن هشام أنشأ على طول الطريق إلى مكة القنـــوات

في باطن الأرض , وأقام خزانات المياه لراحة الحجاج والمسافرين .

وعندما قامت الدولة العباسيّة، كان هناك عدد من طرق التجارة والحج الرئيسة تجتاز الجزيرة العربية نحو مكة المكرمة , وأهمها :

1. طريق الحج الكوفي .
2. طريق الحج البصري .
3. طريق الحج العماني .
4. طريق الحج اليمني الساحلي .
5. طريق الحج اليمني الداخلي .
6. طريق الحج المصري .
7. طريق الحج الشامي .

وتتصل هذه الطرق بعضها مع بعض في نقاط رئيسة أو بواسطة طرق فرعية ، وقد لقيت طرق الحج عناية فائقة من قبل الخلفاء المسلمين والأمراء والوزراء والأعيان , ومن محبي الخير من التجار والوجهاء , وذلك على مر العصور، وبعض الطرق استمر استخدامها حتى عهد قريب وبعضها الآخر اندثر بسبب الظروف المناخية والسياسية والاقتصادية والهجرات السكانية .

وقد أقيمت على طرق الحج منشآت عديدة مثل المحطات والمنازل والمرافق الأساسية ، من برك وآبار وعيون وسدود وخانات ومساجد وأسواق.

كما أقيمت على هذه الطرق الأعلام والمنارات والأميال التي توضح مسار تلك الطرق وتفرعاتها.

وقد حفظت لنا المصادر التاريخية والجغرافية معلومات مهمة جدّاً عن طرق الحج في الجزيرة العربية , ومن أبرز تلك المصادر ما كتبه كل من : الطبري ، وابن الأثير ، وابن كثير، والحربي ، وابن رسته ، وابن خرداذبه ، والمقدسي ، والهمداني ، والبكري ، وياقوت ، وابن جبير ، وابن بطوطة , والجزيري ، وغير هؤلاء كثير ممن تضمنت مؤلفاتهم معلومات مهمة عن هذه الطرق.

وقد حظيت طرق التجارة والحج باهتمام الدراسات البحثية والموسعة , وقامت إدارات الآثار في الدول التي تمر هذه الطرق عبر أراضيها , بإدراج آثار طرق التجارة والحج في برامج المسوح الأثرية وأعمال التنقيب ، بالإضافة إلى حماية المعالم الأثرية على تلك الطرق والاستفادة من بعض المنشآت المائية الباقية للاستخدام البشري .

وفيما يلي نعطي شرحاً موجزاً عن كل طريق من هذه الطرق:

1. طريق الكوفة – مكة :

يعتبر طريق الحج من الكوفة إلى مكة المكرمة من أهم طرق التجارة والحج في العصر الإسلامي. وقد عرف هذا الطريق فيما بعد باسم " درب زبيدة " نسبة إلى السيدة زبيدة بنت جعفر , زوجة الخليفة هارون الرشيد (توفي رحمه الله سنة 193هـ/ 809م) .

وللسيدة زبيدة أعمال كثيرة في إقامة بعض المنشآت على هذا الطريق وفي مكة

المكرمة. ومن أهم أعمالها حفرها عين زبيدة التي لا تزال آثارها باقية حتى اليوم .

وطريق الكوفة – مكة لا يستبعد أن يكون معروفاً قبل العصر الإسلامي حيث كانت الحيرة عاصمة المناذرة بالقرب من الموقع الذي قامت فيه الكوفة فيما بعد سنة **14**هـ/**635**م . وربما كانت القوافل التجارية من مكة والمدينة تتجه إلى الحيرة عبر هذا الطريق. وكانت توجد على الطريق مناهل للمياه قبل الإسلام توقف في بعضها الجيش الإسلامي بقيادة سعد بن أبي وقاص قبل دخوله العراق وقد أشرنا في مقدمة هذه الدراسة أن من هذه المناهل :

زرود، والثعلبية، وشرف، والعذيب، والقادسية.

لقد انتظم استخدام الطريق بعد فتح العراق وانتشار الإسلام في المشرق الإسلامي، فتحولت مناهل المياه وأماكن الرعي والتعدين على الطريق إلى محطات رئيسة . وبدأ الطريق يزدهر بالتدريج منذ عصر الخلافة الراشدة حتى العصر الأموي. وبانتقال مركز الخلافة من الشام إلى العراق في العصر العباسي أصبح الطريق حلقة اتصال مهمة بين عاصمة الخلافة في بغداد والحرمين الشريفين وبقية أنحاء الجزيرة العربية حتى اليمن . وأعطى خلفاء بني العباس جلّ اهتمامهم إلي تأمين طرق المواصلات وبالأخص طريق الكوفة– مكة . ويأتي في مقدمة هؤلاء الخلفاء : أبو العباس والسفاح ، وأبو جعفر المنصور ، والمهدي ، وهارون الرشيد .

وأضاف من جاء بعدهم من الخلفاء إنشاءات جديدة ، وصيانة المنشآت القديمة على الطريق.

كما كان للأمراء والوزراء والقادة والوجهاء إصلاحات أخرى كثيرة على الطريق.

لقد سجل المؤرخون المسلمون بعض إصلاحات خلفاء بني العباس،كما رصد الجغرافيون المسلمون مسار الطريق من بغداد إلى الكوفة، ومنها إلى مكة المكرمة. ورصدوا أيضاً المحطات والمنازل التي كانت قائمة في العصور الإسلامية المبكرة ، بالإضافة إلى ذكر تفرعات الطريق الأخرى المتجهة إلى مكة أو إلى المدينة , أو تلك التي تربط طريق الكوفة مع طرق أخرى من خارج الجزيرة العربية ومن داخلها.

وفي ضوء المعلومات الواردة في المصادر التاريخية والجغرافية نجد أن طريق الحج العراقي (درب زبيدة) خُطِّطَ مساره بطريقة علمية وهندسية متميزة، حيث حددت اتجاهاته، وأقيمت على امتداده المحطات والمنازل والاستراحات ، ورصفت أرضية الطريق بالحجارة في المناطق الرملية والموحلة، ونُظِّفَ الطريق من الجلاميد الصخرية والعوائق في المناطق الوعرة والصخرية، كما زود الطريق بالمرافق الضرورية من منشآت مائية، كالسدود، والآبار، والبرك وأقيمت على امتداد الطريق العلامات التي توضح مسار الطريق، كالأعلام والمنارات والأميال (أحجار المسافة) والصُّوي

والمشاعل والمواقيت ؛ ليهتدي بها المسافرون ليلاً ونهاراً .

ولا بأس من الإشارة إلى بعض من أقوال المؤرخين المسلمين عن الإصلاحات التي قام بها خلفاء بني العباس الأوائل :

ففي عهد أبي العباس السفاح تذكر المصادر في حوادث سنة 134هـ/ 751م ما يلي: " وفيها ضرب المنار من الكوفة إلى مكة والأميال ". وعن إصلاحات المهدي سنة 161هـ/777م تذكر المصادر ما يلي: "وفيها أمر المهدي ببناء القصور في طريق مكة أوسع من القصور التي كان أبو العباس بناها من القادسية إلى زبالة . وأمر بالزيادة في قصور أبي العباس، وترك منازل أبي جعفر التي بناها على حالها، وأمر باتخاذ المصانع في كل منهل وبتحديد الأميال والبرك وحفر الركايا مع المصانع وولي ذلك يقطين بن موسى، فلم يزل ذلك إليه إلى سنة إحدى وسبعين ومائة، وكان خليفة يقطين في ذلك أخوه موسى ".

وأوردت المصادر الجغرافية المبكرة إشارات عديدة إلى المواقع والمرافق التي تولى إنشاءها بعض الخلفاء والأمراء والوزراء والأعيان . وتذكر المصادر أن الخلفاء والأمراء كان لهم مبان وقصور خاصة بهم يترلونها عند زيارتهم للأماكن المقدسة. ومن أبرز الخلفاء العباسيين الذين سافروا على هذا الطريق أبو جعفر المنصور والمهدي وهارون الرشيد ، وقد أدى الرشيد فريضة الحج تسع مرات طوال فترة خلافته (170- 193هـ/786- 809م) , وبهذا يكون قد قطع في رحلاته بين بغداد ومكة ما يقارب من 5698 ميلاً(9686.6كيلاً) , وكان في بعضها يحج ماشياً.

وكان لطريق الحج من الكوفة إلى مكة عمال (ولاة) , يشرفون على الطريق , ويتعهدونه بالصيانة والإعمار أولاً بأول .

رصد الجغرافيون المسلمون سبعة وعشرين محطة رئيسة على الطريق من الكوفة إلى مكة , وسبعة وعشرين محطة ثانوية تسمى كل واحدة منها متعشى , وهي محطة استراحة تقام بين كل محطتين رئيستين ، هذا خلاف المرافق الأخرى التي كانت تضاف على امتداد الطريق.

ويمكن رصد المحطات الرئيسة والمنازل الواقعة على الطريق من الكوفة إلى مكة على النحو التالي :

** الكوفة :

- القادسية

(1) العذيب

- وادي السباع / وادي سعد

(2) المغيثة

- مسجد سعد

(3) القرعاء

- الطرف

(4) واقصة

- القبيبات / السماء

(5) العقبة

- الجلحاء

(6) القاع
- الجريسي
(7) زبالة
- التنانير
(8) الشقوق
- ردان / درين
(9) البطان
- المهلبية
(10) الثعلبية
- الغميس / العين
(11) الخزيمية / زرود
- بطن الأغر / الأغر
(12) الأجفر
- القرائن
(13) فيد
- القرنتين
(14) توز
- الفحيمة
(15) سميراء
- العباسية
(16) الحاجر
- قروري
(17) معدن النقرة
- السمط
(18) مغيثة الماوان
- أديمة / أورعة
(19) الربذة
- الروثة
(20) السليلة
- الضبّة / السنجة
(21) العمق
- الصفحة
(22) معدن بني سليم
- عقبة الكراع / الكيرانة
(23) أفاعية
- الكبوانة / الكبرانة
(24) المسلح
- القصر
(25) الغمرة
- أوطاس
(26) ذات عرق
- غمر ذي كنده (غمره)
(27) بستان بني عامر
- مشاش

** مكة المكرمة :

وهناك طرق فرعية أخرى منها: طريق معدن النقرة – المدينة ويبلغ امتداده حوالي 156 ميلاً (265 كيلاً تقريباً) .

ومحطاته كالتالي : معدن النقرة – والعسيلة – والحدث – وبطن نخل – والحصين – والمكحولين– والسقرة – والطرف – والركابية – والمدينة – ويوجد طريق فرعي آخر تسلكه القوافل من معدن بني سليم (مهد الذهب) عبر الحافة الشرقية لحرة رهاط , مروراً على صُفَيْنة وحاذة ثم المسلح . ويلتقي طريق البصرة مع طريق الكوفة في معدن النقرة يصل إليه من

النباج أو يتجه محاذياً له , حيث يلتقي الطريقان في ذات عرق .

ويتضح من المصادر التاريخية والجغرافية أن طريق الكوفة – مكة بلغ أوج ازدهاره في العصر العباسي المبكر وشعر المسافرون على الطريق من أقصى المشرق الإسلامي بالأمن والطمأنينة . وفي ذلك يروي ابن كثير ما يلي: " كانت طريق الحجاز من العراق من أرفق الطرقات وآمنها وأطيبها". ولكن الطريق تعرض لهجمات القبائل في فترات متعددة . وفي أواخر القرن الثالث وبداية القرن الرابع الهجري تعرضت محطات الطريق للتخريب والتدمير بواسطة القرامطة , وتعطلت بسبب ذلك المنشآت المائية.

وكانت هذه العوامل مجتمعة من أسباب اندثار معالم الطريق , وبسبب الخلل الأمني توقف الحجاج عن استخدام الطريق إلا عند توفر الحماية العسكرية وفي مواسم الحج فقط , على عكس العصور المبكرة عندما كان الطريق يستخدم على نطاق واسع ودون حماية أمنية.

غير أن تعطل الطريق بشكل كبير حدث بعد سقوط بغداد على يد المغول سنة 656هـ/1258هـ , ولم يعد الطريق مستخدماً إلا في فترات متقطعة، كما أن أجزاء الطريق من معدن النقرة وحتى مكة انقطع استخدامها نهائياً منذ أواخر القرن الرابع الهجري. وبالتدريج اندثرت معظم محطات الطريق وتقلصت المحطات والمنازل إلى أطلال دارسة , وبقيت بعض الآبار والبرك صالحة للاستعمال , ولكن الغالبية العظمى منها غطتها الرمال.

وعلى الصعيد الأثري تم رصد الآثار الباقية على الطريق , ويتمثل ذلك في المواقع الأثرية والمنشآت المائية وآثار الرصف والتمهيد والأعلام , كما تم العثور على أمثلة من أحجار المسافة (الأميال) التي توضح المسافة بقياس البريد والميل ، وعثر على شواهد أثرية توضح إصلاحات الخليفة المهدي العباسي وأعمال الصيانة والتجديد التي تمت في عهد الخليفة المقتدر بالله .

وتشكل الأعلام التي لا تزال آثارها باقية دلالة واضحة على تحديد مسار الطريق. وقد بنيت الأعلام بالحجارة على شكل أبراج دائرية في معظمها , وترتفع عن سطح الأرض بمسافة تزيد على ثلاثة أمتار , بحيث يمكن مشاهدتها من بعد ، ووضعت الأعلام على مسافات محددة حيث تكون المسافة بين العَلَم والآخر حوالي الميل، وأحياناً يقترب بعضها من بعض بقدر نصف الميل – وتكثر الأعلام بالقرب من المحطات الرئيسة التي تتفرع منها الطرق، وبالقرب من مواضع الآبار والبرك، ويمكن مشاهدة عشرات الأعلام على امتداد الطريق، وقد تساقط بعضها على شكل أكوام حجرية .

وكشفت المسوح والحفريات الأثرية عن أنماط من القصور والتحصينات والمنازل والمساكن والمساجد في محطات الطريق ، وقد

كانت تخدم سكان هذه المناطق وقوافل الحجاج والتجارة والمسافرين , ويتوفر لهم في هذه الأماكن ما يحتاجونه من مأكل ومشرب وملبس وأوان وأعلاف لدوابهم ، كما كانت الأسواق قائمة في كثير من محطات الطريق . ومن أشهر المواقع الأثرية على الطريق التي كانت تمثل محطات رئيسة كبيرة: زبالة، والثعلبية، وفيد، وسميراء، والنقرة، والربذة، ومعدن بني سليم .

وقد أوضحت الدراسات الأثرية أن المنشآت المعمارية على طريق حج الكوفة – مكة تمثل نمطاً معمارياً فريداً للعمارة الإسلامية المبكرة في جزيرة العرب، ويتمثل ذلك في أسلوب التخطيط المعماري والوظائف المختلفة، كما تميزت المباني بسماكة الجدران والأبراج، كما أن وجود خزانات لحفظ المياه للشرب داخل المنازل وخارجها أضفى على هذه المواقع أهمية أخرى لاستقطاب المسافرين، كما اشتملت المحطات على الأسواق والحمامات العامة وغيرها.

وأقيمت على امتداد الطريق برك للمياه، حفرت وبنيت على مسافات متفاوتة، بعضها بالقرب من المحطات والمنازل والبعض الآخر في أماكن نائية عنها. ولا يزال معظم تلك البرك واضحة للعيان بمعالمها وتفاصيلها المعمارية الدقيقة وبعضها الآخر قد طمرته الرمال.

وتتنوع مساحات البرك وأشكالها، حيث صمم بعضها بشكل دائري، وبعضها الآخر جاء مربعاً ومستطيل التخطيط . وزودت بعض البرك بأحواض ترسيب، ودعمت جدران البرك من الداخل بأكتاف نصف دائرية أو نصف مربعة للحفاظ عليها من ضغط السيول التي تصب بداخلها .

كما أن بعض البرك جاء مدرَّجاً على امتداد الواجهات من الداخل وزودت البرك بقنوات وسدود، تجلب إليها مياه السيول والأمطار من الأودية المجاورة لها، ويدل بناء هذه البرك على براعة المسلمين الأوائل في العمارة والخبرة الجيدة في إقامة الإنشاءات المائية.

أقدم المهندسون على تحديد مسار الطريق بشكل مستقيم بصفة عامة ، يجتاز أراضي سهلية مستوية ومناطق وعرة وخشنة وصحارى مقفرة حتى يصل إلى جبال الحجاز ذات التضاريس الصعبة والتي تخترقها الأودية الضيقة والعميقة، وقد تم تسهيل الطريق بقطع الممرات بين الثنايا والجبال وحماية مسار الطريق بجدران على جانبيه، ووضعت مدرجات عريضة في مواضع الصعود والنزول في المناطق الجبلية الوعرة. وقد برع المهندسون في رسم الطريق، بتفادي مساقط السيول الجارفة، وتدل آثار التمهيد والرصف على خبرة المهندسين المسلمين في تحديد الطرق ورسمها في العصور الإسلامية المبكرة .

يصل طول الطريق من الكوفة حتى مكة المكرمة حوالي 751 ميلاً (1276.7كيلاً) منها 134 ميلاً (227.8 كيلاً) في العراق , وباقي الطريق يمتد في الأراضي السعودية من العقبة شمالاً حتى مكة بمسافة 617 ميلاً (حوالي 1048.9 كيلاً) , وتوضح المعثورات الفخارية

والخزفية والزجاجية والعملات والكتابات والنقوش الإسلامية مراحل استخدام الطريق خصوصاً في العصور الإسلامية الأولى. وقد عثر على أعداد كثيرة من النقوش الإسلامية في مواضع متفرقة على امتداد الطريق،وبالقرب منه، مثل مواقع : الربذة ، ومعدن بني سليم، وذات عرق، وعلى مشارف مكة، كما عثر على نقوش وكتابات إسلامية في الحناكية والصويدرة والسوارقية وحاذة وصفينة، وبعض هذه النقوش مؤرخة منذ العصر الأموي حتى القرن الثالث الهجري.

2. طريق البصرة – مكة :

تأسست مدينة البصرة سنة14هـ/ 635م بعد الفتح الإسلامي للعراق ، وارتبطت بطريق مباشر مع مكة المكرمة، ويعتبر من الطرق المهمة في العصر الإسلامي المبكر. ويبدو أن أهمية طريق البصرة تركزت في القرون الثلاثة الأولى للهجرة. يلتقي طريق البصرة مع طريق الكوفة في ذات عرق ، ويلتقي الطريقان أيضاً في معدن النقرة الذي يرتبط في هذه المحطة منطلقاً من النباج .

ورد ترتيب محطات طريق البصرة عند الجغرافيين المسلمين كالتالي:

- البصرة–المنجشانية 10أميال
- المنجشانية–الخفير10أميال
- الحفير– الرحيل 28ميلاً
- الرحيل – الشجيّ 29 ميلاً
- الشجيّ – الخرجاء 23 ميلاً
- الخرجاء–حفر أبي موسى 26 ميلاً
- حفر أبي موسى–ماوية32 ميلاً
- ماوية – ذات العشر 29ميلاً
- ذات العشر – الينسوعة 23 ميلاً
- الينسوعة – السمينة 29 ميلاً
- السمينة – النباج 23 ميلاً
- النباج – العوسجة 19 ميلاً
- العوسجة – القريتين 22 ميلاً
- القريتين – رامة —
- رامة – إمرّة 27 ميلاً
- إمرّة – طخفة 26 ميلاً
- طخفة – ضرية 28 ميلاً
- ضرية – جديلة 32 ميلاً
- جديلة – فلجة 35 ميلاً
- فلجة – الدفينة 26 ميلاً
- الدفينة – قبا 27 ميلاً
- قبا – الشبيكة 27 ميلاً
- الشبيكة – أوطاس —
- السبيكة – مران 3 أميال
- مران – ذات عرق 27 ميلاً

ويعدل طريق البصرة من النباج إلى طريق الكوفة مروراً بالعيون (عيون الجواء بمنطقة القصيم) , ثم إلى عناب ثم معدن النقرة .

ويلاحظ في كتابات الجغرافيين المسلمين قلة المعلومات التفصيلية عن طريق البصرة. ولعل سبب ذلك أن معظمهم عاش في القرن الثالث الهجري وهي الفترة التي كان التركيز فيها على طريق الكوفة أكثر من طريق البصرة، ومع ذلك

لم يكن هذا الطريق بمنأى عن اهتمام الخلفاء المسلمين الأوائل.

فطريق البصرة إلى مكة يجتاز مناطق صحراوية وسهلية ومناطق وعرة تخترقها الأودية الواسعة والضيقة، ويمر الطريق بمواقع صالحة للرعي والزراعة، وأنشئت في بعض محطاته العيون والقنوات والسدود التي كانت تستخدم للزراعة، وكان الصحابي عبد الله بن عامر بن كريز من أوائل من أجرى عيوناً في النباج،وهي نباج ابن عامر، وتسمى اليوم بالأسياح، أو عين بن فهيد .

ويذكر أن الحجاج بن يوسف الثقفي عند عودته من الحج أجرى إصلاحات على طريق البصرة وأمر بوزن مياه الطريق(أي تحليلها) فلم يجد أخف من مياه ماويّة. وكان للطريق في عهد بني العباس ولاة يتعهدونه بالعمارة والإصلاح . فيذكر أن والي البصرة محمد بن سليمان رَصَفَ أجزاء من الطريق بالقرب من الدفينة؛ بسبب كثرة الوحل عند سقوط الأمطار. وبالقرب من عيون الجوى (عين قو) أقيمت قنطرة على أحد الأودية التي يجتازها الطريق.

يصل طول طريق البصرة – مكة حوالي **1200** كيلاً يمتد أكثره داخل الأراضي السعودية بحوالي **1000** كيل ، ولا تزال بعض أسماء محطاته القديمة محتفظة بأسمائها حتى يومنا هذا , ومن هذه المواقع : حفر أبي موسى (في موضع حفر الباطن الآن) والعوسجة (الآن العوسجية) وطخفة وضرية والدفينة .

أما آثار الطريق فنشاهدها إلى اليوم في عدد من المواقع، ففي الأسياح (عين ابن فهيد) توجد أطلال قصر كبير مبني بالحجارة، وله بقايا عقود نصف دائرية وغرف الجلوس وبالقرب منه آثار العيون والقنوات القديمة والبرك والسدود. وفي ضرية لا تزال آثار البلدة القديمة باقية لليوم بالإضافة للعيون والبرك، وتشاهد آثار الأعلام (الرجوم) المتراكمة على امتداد الطريق خصوصاً في المناطق السهلية المستوية، ويلاحظ أن بعض محطات الطريق استمر فيها أو بالقرب منها الاستيطان الحضاري بسبب توفر المياه والمناطق الرعوية . كما أن بعض المحطات اختفت معالمها تحت الكثبان الرملية .

ومن المحطات المهمة على طريق البصرة بركة الخرابة الواقعة عند التقاء الطريق مع طريق الكوفة بالقرب من ذات عرق، وهي عبارة عن بركة دائرية مدرجة من أعلاها إلى أسفلها، وتجاورها بركة مربعة مدرجّة أيضاً، بينهما على مستوى سطح الأرض غرفة للمراقبة مقببة، ولها أبواب ذات عقود نصف دائرية، ويمر من تحت مستوى الغرفة قناتا تصريف للمياه من البركة المربعة (المصفاة) إلى البركة الدائرية .

وتصل المياه إلى البركة بواسطة قناة أرضية مسقوفة، تمتد من وادي العقيق لمسافة **15** كيلاً تقريباً. وبالقرب من هذه النقطة توجد بركة العقيق الواقعة في محطة غمرة المشهورة.

ولا نستبعد أن بركة الخرابة كانت تخدم المسافرين القادمين من البصرة والكوفة على حد سواء.

3. طريق عُمان – مكة :

هناك طريقان من عمان إلى مكة أحدهما يأخذ من عمان إلى يبرين ثم إلى البحرين – الساحل الشرقي للمملكة العربية السعودية – ومنها إلى اليمامة ثم إلى ضرية.

وتذكر المصادر الجغرافية أن ضرية كانت ملتقى حجاج البصرة والبحرين، وهناك يفترقون إذا انصرفوا من الحج، فيأخذ حجاج البصرة ذات الشمال وحجاج البحرين ذات اليمين. وهناك طريق آخر من عمان يتجه إلى فرق، ثم عوكلان، ثم إلى ساحل هباة وبعدها إلى شحر، قال الشاعر:

اذهب إلى الشحر ودع عُماناً
إلا تجد تمراً تجد لباناً

وبإمكان حجاج عُمان أخذ أحد الطريقين من اليمن فإما عن طريق الحج الساحلي الموازي لساحل البحر الأحمر الذي يمر بعدد من المخاليف والمنازل , مثل : مخلاف عك والحَردَة ومخلاف حكم وعثر ومرسى ضنكان والسرين حتى الشعيبة ثم جدة فمكة . أو بإمكان حجاج عُمان أخذ الطريق الداخلي من اليمن إلى مكة مروراً بعدد من المنازل بعضها لا يزال معروفاً حتى اليوم , مثل رنية ، تُربة ، حتى يصل إلى مكة.

4. طريق الحج اليمني الساحلي :

ويسمى هذا الطريق باسم محجة صنعاء- وهو طريق تهامة . ويخرج هذا الطريق من صنعاء عبر مناطق جبليّة باتجاه الشمال الغربي ويلتقي معه على ساحل البحر الأحمر الطريق القادم من عدن والمسمى محجة عدن . ويصل عدد محطات ومنازل الطريق من صنعاء إلى مكة المكرمة ما يقارب 21 محطة ومنزلاً .

وقد كانت المنازل على هذا الطريق عامرة على مرّ العصور , وخاصة في زمن الهمداني صاحب صفة جزيرة العرب الذي أعطى معلومات تفصيليّة عن مسار الطرق المتجهة من اليمن وحضرموت إلى مكة المكرمة.

وقد أوضحت المسوح والدراسات الأثرية الحديثة معلومات مهمة جدّاً عن المواقع الأثرية التي كانت عامرة في العصور الإسلامية المبكرة واشتهر ذكرها في المصادر التاريخية والجغرافية وكتب الأدب. ومن هذه المواقع: سِهى، وعثر، وحَليْ، وعشم، والسرِّيْن ويلملم ، وهو ميقات أهل اليمن.

وقد عثر في هذه المواقع على تلول أثرية تشمل على امتدادات جدارية ومنشآت معمارية للعصور والمنازل ومرافق الخدمات وأطلال المساجد والكتابات الإسلامية المنقوشة على الشواهد الحجرية والواجهات الصخرية وكسر الأواني الفخارية والخزفية والزجاجيّة والعملات الإسلامية، توضح جميعها مراحل الاستقرار

السكاني ونشاط المسافرين على طريق الحج اليمني الساحلي.

5. طريق الحج اليمني الداخلي :

ويسمى هذا الطريق أيضاً بالطريق الأعلى، والمتعارف عليه لدى عامة الناس بطريق الفيل . ويبدأ من صنعاء مروراً بصعدة، ويسلك المناطق الجبلية لمنطقة عسير والحجاز، ماراً بالقرب من موقع جرش (في أحد رُفَيْدَة) ثم يتجه إلى بيشة وتبالة وتربة حتى يصل إلى قرن المنازل فمكة المكرمة .

وقد حدد الهمداني المسافة على هذا الطريق الذي يسميه (طريق نجد) باثنين وعشرين مرحلة , ويقابلها بالبُرُدْ (أي مسافات البريد) خمسة وثلاثون بريداً، ويعادلها بالميل أربعمائة وعشرون ميلاً.

وبالإضافة إلى وصف الهمداني لمسار الطريق وتحديد مسافاته وإيراد محطاته ومنازله , تضمن كتابه أرجوزة الحج المشهورة التي قالها أحمد بن عيسى الرداعي واشتملت على محطات الطريق ومنازله من صنعاء إلى مكة المكرمة.

وينضم إلى الطريقين الرئيسين للحج من اليمن إلى مكة ــ وهما الطريق الساحلي والطريق الداخلي ــ طرق أخرى، ومنها محجة عدن ومحجة حضرموت، بالإضافة إلى الطرق الداخلية.

وقد بلغت المحطات على هذا الطريق (فيما بين صنعاء ومكة) 25 محطة رئيسة، ويلاحظ أن معظم أجزاء الطريق تقع داخل حدود المملكة العربية السعودية.

وكشفت الاستطلاعات الدراسات الأثرية عن جوانب مهمة، تتمثل في الأعمال الهندسية من رصف للطريق في المناطق الوعرة، والمنشآت المائية والكتابات الإسلامية الصخريّة المبكرة، وأحجار المسافة. ومن المواضع التي يمكن مشاهدة آثار مسار هذا الطريق فيها : الراكبة ، والمصلولة، ووكريف العلب، والقرارة ووالمرجومة، وعقبة الشعار، ووادي المراغ، وعكاظ ومواقع أخرى كثيرة تدل آثارها على أهمية هذا الطريق وتطوره عبر العصور.

6. طريق الحج الشامي :

يعتبر هذا الطريق من الطرق الرئيسة المهمة، حيث يصل دمشق بالمدينة المنورة وكان يسمى في العصر الإسلامي المبكر بطريق التبوكية، وهذا الطريق سار عليه النبي ﷺ في غزوة تبوك، وبلغ عدد محطاته بين المدينة المنورة ودمشق 23 محطة يقع معظمها داخل الأراضي السعودية، وقد تغيرت أحوال الطريق عبر العصور الإسلامية بسبب تغير الأحوال السياسية، وهو الأمر الذي أدى إلى ظهور محطات ومرافق جديدة في العصور الإسلامية المتأخرة، وهي فترات الأيوبيين والمماليك والعثمانيين، وكان هذا سبباً في اختفاء محطات ومرافق كانت عامرة في العصر الأموي والعباسي والفاطمي .

وتدل آثار الطريق الباقية على تطور الحضارة الإسلامية ، فقد تم اكتشاف عشرات النقوش الإسلامية التي يعود بعضها إلى القرن الأول الهجري، وهناك كتابات تأسيسيّة على منشآت الطريق من قلاع وبرك وآبار. ومن أهم آثار الطريق الباقية: قلعة ذات الحاج، وقلعة تبوك، وآثار الأخضر وفيها مدينة إسلامية مبكرة، وثلاث برك وقلعة، وآثار المعظم وفيه قلعة وبركة، وآثار البريكة، وكانت تسمى قديماً بالدار الحمراء وفيها بقايا قلعة وبركة.

وهناك آثار الحجر والعلا والتي يتبعها عدد من المرافق، ثم آثار مغيرة، وقلعة زمرد وقلعة الصورة، وآثار هدية، وأسطبل عنتر، والفحلتين، وآثار نصيف وقلعة الحفيرة.

ويشاهد أيضاً على امتداد طريق الحج الشامي آثار سكة حديد الحجاز التي تم تنفيذها في عهد السلطان عبد الحميد في الفترة ما بين عام 1900م و1906م، ومن الآثار الباقية للطريق المحطات المبنية بالحَجَرْ وأجزاء من مسار السكة والجسور.

7. طريق الحج المصري :

كان حجاج مصر وغيرهم من حجاج شمال أفريقيا والمغرب يعبرون شبه جزيرة سيناء حتى يصل بهم الطريق إلى إيلة على رأس خليج العقبة. ثم يتجه الطريق جنوباً حيث يمر على حقل وشرف البعل ومدين. ومن مدين يتفرّع طريقان: الطريق الداخلي، ويتجه إلى الجنوب الشرقي حتى المدينة المنورة، ماراً على عشر محطات رئيسة، من أهمها شغب، وبدا، السقيا، والرحبة.

أما الطريق الآخر فهو الطريق الساحلي الذي يسير بمحاذاة ساحل البحر الأحمر، حيث تقع عليه 13 محطة رئيسة من أهمها: عينونا، الوجه، والحوراء، وينبع، والجار، والجحفة، وخليص، و عسفان وثم مكة المكرمة .

كما أن الطريقين يتصلان أحدهما بالآخر: بطرق فرعيّة مثل: طريق المروة، والعيص – وينبع، وطريق الجار، وبدر– والمدينة. ويتضح من الآثار الباقية على الطريقين أن الطريق الساحلي استمر استخدامه لفترات طويلة؛ فقد كشفت الدراسات الأثرية عن وجود آثار خطية ومواقع أثرية متعددة وقلاع ومنشآت مائية، ومن ذلك كتابات بدا والخشيبة، ومن الآثار الأخرى يمكن أن نذكر آثار مدين وقلعة المويلح والأزنم (أو الأزلم) والزريب وآثار مدينة الجار التاريخية.

ونظراً لترابط وتلازم طريقي الحج الشامي والمصري وتلازمهما ومرورهما في منطقة جغرافية واحدة هي منطقة شمال غرب المملكة فقد جذب هذان الطريقان اهتمام المؤرِّخين والجغرافيين المسلمين على مر العصور ، بالإضافة إلى الرحالة المسلمين والغربيين ؛ وذلك لكونهما طريقين حيويين خدما التجارة والحج عبر القرون. وتعد الآثار الباقية على امتدادهما مهمة جداَ للدارسين والباحثين، وبالتحديد المواقع الأثرية للمدن التاريخية ومحطات الطريقين ومنازلهما

وفروعهما والقلاع والحصون والآبار والبرك والنقوش والكتابات الإسلامية.

من خلال هذا الاستعراض الشامل – والموجز للطرق والمسالك من المشرق العربي وعلى وجه الخصوص في شبه الجزيرة العربية – نجد أننا أمام ثروة تراثية وثقافية وحضارية غاية في الأهمّية. فالطرق التي ورد ذكرها في هذه الدراسة تعطينا فكرة واضحة عن تطور الحضارة العربية الإسلامية في عمارة الطرق وهندستها، وتحديد اتجاهاتها بالأعلام والأميال، وتزويدها بمرافق الخدمات من آبار وعيون وبرك وسدود وإنشاءات كثيرة من دور وقلاع وحصون، وقامت على امتدادات هذه الطرق المنازل والمدن. وترك المقيمون والمسافرون : من تجار وحجاج ومعتمرين وعابري سبيل آثاراً خطية جميلة بعضها مؤرخ، وتشتمل تلك الآثار الخطية على معلومات مهمة عن أسماء الرجال وكناهم وألقابهم وأسماء قبائلهم، بالإضافة إلى اشتمال نصوص تلك الكتابات على صيغ عديدة في الدعاء والذكر وعلى آيات من القرآن الكريم .

هذا عدا ما نجده على امتداد طرق التجارة والحج من آثار أخرى تتمثل في الأواني الفخارية والخزفية والزجاجية والمعدنية والمسكوكات وغيرها .

إن آثار هذه الطرق ثروة قومية ووطنية للأمة العربية لا تقدر بثمن ، فهي رصيد لتدوين التاريخ ، ومعين لا ينضب للثقافة السياحية لأمتنا العربية والإسلامية.

د. سعد بن عبد العزيز الراشد
وزارة التربية وشؤون الآثار
المملكة العربية السعودية

المصادر والمراجع

1 ــ المصادر

- **ابن الأثير الجزري** ، أبو الحسن علي بن محمد ت 630هـ/1232م
1965–1966 الكامل في التاريخ، بيروت، ج12.
- **الخطيب البغدادي**، أبو بكر أحمد بن علي ت 463هـ/1070م
(د.ت) ، تاريخ بغداد ، بيروت ،ج14.
- **البكري**، هو عبد الله بن عبد العزيز ت 487هـ/1094م
(د.ت) معجم ما استعجم، تحقيق مصطفى السقا (نسخة مصورة عن طبعة القاهرة في مجلدين) بيروت.
- **البلاذري**، أحمد بن يحي ت279هـ/892م
1958م، فتوح البلدان (تحقيق عبد الله الطباع وعمر الطباع) بيروت.
- **الحربي** ، الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق ابن بشير البغدادي ت 385هـ/995م
1969م ، كتاب " المناسك " وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة ، تحقيق حمد الجاسر، (دار اليمامة) الرياض .
- **ابن خلكان** ، أحمد بن محمد بن أبي بكر ت 680هـ/1281م
(د.ت) وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس ، ج8 ، بيروت .
- **ابن خرداذبة** ، أبو القاسم عبيد الله ابن عبد الله ت نحو 300هـ/912م
1892م ، المسالك والممالك ، (تحقيق دي خويه M.J.De Goeje) ليدن.
- **ابن قتيبة الدينوري**، أبو محمد عبد الله ابن مسلم ت 276هـ/889م
1970 ، المعارف ، بيروت .
- **الذهبي**، شمس الدين محمد بن أحمد ابن عثمان ت 748هـ/1347م
1991م، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، (حوادث ووفيات 211- 220هـ) بيروت.
- **ابن رستة**، أبوعلي أحمد بن عمر ت نحو 290هـ/ نحو 902م
1892م كتاب الأعلاق النفيسة ، (تحقيق دي خويه M.J.De Goeje)، ليدن.
- **الزبيري** ، أبو عبد الله المصعب بن عبد الله ت 236هـ/850م
1982م كتاب نسب قريش ، (تصحيح وتعليق ليفي بروفنشال) القاهرة .
- **ابن سعد**، الواقدي محمد بن سعد ت 230هـ/844م
1978م كتاب الطبقات الكبرى، ج8 بيروت .
- **الطبري**، أبو جعفر محمد بن جرير ت 310هـ/ 922م

1979م تاريخ الرسل والملوك، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، ج10، القاهرة.

- **ابن كثير**، عز الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر الحافظ ت 774هـ/1372م
1980م البداية والنهاية، ج14، بيروت، الرياض، 1979م.

- **الأصفهاني**، الحسن بن عبد الله ت 311هـ/923م
1968م بلاد العرب، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي، (منشورات دار اليمامة) الرياض.

- **المسعودي**، أبو الحسن علي بن الحسين ت 346هـ/957م
1966- 1979م مروج الذهب ومعادن الجوهر، (طبعة بربيه دي مينار وبافيه دي كرتاي)، تنقيح وتصحيح شار بلا، ج7، بيروت .

- **الهمداني**، الحسن بن أحمد بن يعقوب ت 334هـ/945م 1974م صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوع الحوالي، أشرف على طبعه حمد الجاسر ، الرياض .

- **ياقوت الحموي** شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ت 626هـ/1229م.
1956م معجم البلدان، بيروت.

2 ــ المراجع العربية:

- **الأنصاري** ، عبد القدوس
1978م ، طريق الهجرة البنوية ، جدة.

- **البلادي** ، عاتق بن غيث ، على طريق الهجرة : رحلات في قلب الحجاز (دار مكة للنشر والتوزيع) مكة المكرمة 1398هـ .

- **الدقن** ، السيد محمد
1985م ، سكة حديد الحجاز الحميدية : دراسة توثيقية ، القاهرة .

- **الراشد**، سعد بن عبد العزيز
1993م ، درب زبيدة : طريق الحج من الكوفة إلى مكة المكرمة " دراسة تاريخية وحضارية أثرية " الرياض.
1986م الرّبذة : صورة للحضارة الإسلامية المبكرة في المملكة العربية السعودية ، الرياض.
1992م " نقوش إسلامية مؤرخة من الصويدرة : المملكة العربية السعودية " مجلة الدارة ، عدد 4 ، السنة 17 ، 1412هـ ، ص ص : 42- 54 .

- **الراشد** ، سعد بن عبد العزيز (وآخرون)
2003م آثار منطقة المدينة المنورة، (سلسلة آثار المملكة العربية السعودية) **وكالة الآثار والمتاحف، الرياض.**

- **الرسيني** ، إبراهيم (وآخرون)
1984م " برنامج مسح وتوثيق معالم دروب الحج الشهيرة (الدروب الشمالية)" ، أطلال، عدد8 (لوحة 117- 122).

- **الزيلعي** ، أحمد بن عمر (وآخرون)
2003م آثار منطقة جازان ، (سلسلة آثار المملكة العربية السعودية) وكالة الآثار والمتاحف ، الرياض .
- **العزاوي**، عبد الستار، " طريق الحج القديم/ درب زبيدة ــ محطة أم قرون"، سومر، الجزء 1- 2، مجلد(44) 1985- 1986م ص ص: 199- 210.
1981م " درب زبيدة من الكوفة إلى المدينة " مجلة النفط والتنمية ، السنة السادسة 1981م ص ص: 312- 314.
- **غبان** ، علي حامد
1993م الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة : مدخل عام ، الرياض .
- **المغنم** ، علي (وآخرون)
1982م مشروع درب الحج المصري والشامي، تقري استطلاعي 1402هـ" أطلال ، عدد 7 (1403هـ/1983م) ص ص :43- 57 (لوحة 43-46) .
- **وزارة المعارف**
1975م مقدمة في آثار المملكة العربية السعودية، نشر وزارة المعارف (المديرية العامة للآثار والمتاحف) الطبعة الأولى، الرياض، 1395هـ، الطبعة الثانية (وكالة الآثار والمتاحف) الرياض 1420هـ/ 1999م.
- **الوشمي**، صالح بن سليمان
1994م الآثار الاجتماعية والاقتصادية بطريق الحج العراقي على منطقة القصيم ، بيروت 1415هـ .

3 – المراجع الأجنبية:

- **AL-Rashid Saad,**
1980 Darb Zubaydah : The Pilgrim Road from Kufa to Mecca, Riyad,
1986 Al-Rabadhah : Aportrait of Early Islamic Civilisation In Saudi Arabia Riyadh, .
- **Al-Thenayian,**
Mohammed Rashed,
2000 An Archaeological Study of The Yemeni Highland Pilgrim Route Between San'a' and Makkah, Riyadh .
- **Finster, Barbara, "**
1978 Bericht Uber Deu Survey And Dewi Weste Uphratisehen Wustenstre . Fen Sudlich Van Nagaf " Sumer, XXXIV, No. 1- 2 . pp. 177- 188

ب – في المغرب العربي

إن ما نطلق عليه المغرب العربي اليوم، والذي يشمل ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا كان، في عرف الجغرافيين العرب المبكرين جزءا مما سموه إقليم المغرب، إذ أن هذه التسمية كانت تشمل، فضلا عن المنطقتين: الساحلية والجبلية من الشمال الأفريقي، والصحراء المصاحبة لذلك إلي الجنوب. فقد كان هذا كله خاضعا في أوقات مختلفة لدول أو دويلات إسلامية متتابعة بدءا من القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي . ولعل ما حمل هؤلاء على هذا الموقف هو ارتباط الشمال الأفريقي بالصحراء، التي كانت حتى في وقت مبكر من التاريخ، سبيله للاتصال ببلاد السودان، على ما سيتضح لنا فيما سنعرض له من طرق المغرب العربي ومسالكه في الفترة التي حددت للبحث.

وعلى كل ، فإنه من الناحية الجغرافية الطبيعية فإن الصحراء تبدو امتدادا للشمال الأفريقي في التاريخ المعروف. ولذلك فإننا، في سبيل تتبع الطرق والمسالك في الفترة المحددة، يجب علينا أن نلقي نظرة عامة على المنطقة بأكملها من حيث سطحها ومناخها ، وما يتصل بذلك من أمور كانت تعين اتجاه الطرق وتنقل القبائل.

يمتد عبر الشمال الأفريقي من مصر إلي المحيط الأطلسي شريط ساحلي ، يتكون من مناطق تختلف عرضا من عشرات الأمتار إلي المئات يغلب عليها الجفاف. فبين مصر والحدود الليبية شريط صحراوي، يستمر هذا داخل ليبيا إلي درنة التي تحيط بها أرض خصبة ضيقة ؛ لأن الجبل الأخضر يضغطها من الجنوب. وتتلوها جيوب طيبة التربة ترويها مياه الأمطار عند أبولونيا وتوكرة وبنغازي. فإذا تركت بنغازي عليك أن تجتاز زُهاء ألف وخمسين كيلاً من الصحراء، هي ساحل سِرت (أو سُرت). في طرابلس وجوارها سهول تنال حظا من المطر، فتنتج الخضار والفواكه المعروفة في حوض البحر المتوسط. ويقع سهل الجفارة الساحلي بين طرابلس وقابس (في أفريقيا) وهو الذي يقدم للسكان حبوبا ، وما إلي ذلك. وتستمر هذه السهول، مع أن رؤوسا صخرية تفصل بعض أجزائها عن البعض الآخر، من قابس عبر الساحل التونسي إلي مدينة الجزائر. ويستمر هذا الوضع حتى الوصول إلي تطوان وطنجة. وتسمى المنطقة الساحلية التي تمتد عبر الجزائر التل ؛ لأنها ترتفع تدريجيا من الشاطئ في اتجاه جنوبي إلي نحو 30 كيلاً . وبعد المنقلب من طنجة يجتاز المسافر سهلا ساحليا يتسع مع الاتجاه جنوبا نحو الرباط والدار البيضاء وآسفي (صافي) وأغادير، حيث تعترضه أطراف سلسلة جبال أطلس، ثم ينفتح ثانية في منطقة السوس.

تقع إلي الجنوب من هذه السهول والجيوب الساحلية، من الشرق إلي الغرب، جبال في مجمعات صغيرة أو سلاسل مرتفعة متصلة هي: الجبل الأخضر في برقة الذي يبلغ أقصى ارتفاعه

نحو 882 متر، وجبال نفوسة 981متر (الجبل الغربي الآن) في منطقة طرابلس، والذي يمتد طرف قوسها إلي جهات قابس في تونس، محتضنة السهل الساحلي الذي مر ذكره.

ومن طبرقة الواقعة على الساحل التونسي، على مقربة من الحدود الجزائرية، ومن نقطة تقابلها إلي الجنوب عند قفصة تبدأ سلاسل جبال وهضاب مرتفعة أولها أوراس 2328 متر في شرق الجزائر ، وجبال عمور 2008 متر، وجبال القصور إلي الغرب منها. وارتفاع هذه الهضاب والجبال يتراوح بين 200 إلي 2328متر.

وفي المغرب تقوم سلاسل جبال أطلس، التي تتكون من سلاسل ثلاث : الأطلس الأوسط (من حيث الارتفاع) يليه الأطلس الأعلى، ويحاذي هذا أنتي أطلس (وقد يطلق عليه الأطلس الجنوبي). وتتسع المساحة التي تشغلها سلاسل الجبال هذه في اتجاهها نحو الغرب. ففيما يكون اتساعها (شمالا في جنوب) بادئ الأمر نحو 300 كيلو متر فإنها في الأجزاء الغربية من المغرب تصل إلي نحو ألف من الكيلومترات، كما أنها تصل هنا إلي ارتفاعات أكبر. وفي طريقي في السيارة من مراكش إلي تراودَنْت في السوس وصلنا إلي نقطة وضعت عليها إشارة 4000 م وكانت القمة الواقعة إلي شرق الطريق واسمها توكبال ترتفع 4165 مترا

تقع إلي الجنوب من هذه المنطقة الساحلية الجبلية الصحراء الكبرى. وهي صحراء طولها من البحر الأحمر إلي المحيط الأطلسي 12.000 كيلو متر، عرضها نحو 1.600 كيلومتر والجزء الذي يخص بحثنا منها — أي من الحدود المصرية الليبية إلي المحيط الأطلسي — زهاء 10.000 كيلومتر شرقا في غرب. وإذن فإن مساحة الصحراء — التي هي جزء من المغرب العربي أو إقليم المغرب (بحسب تعريف قدامى الجغرافيين العرب) — هي ستة عشر مليون كيلومتر مربع ، وتقع بين خطي عرض 15 و 20 شمالا.

والصحراء الكبرى — على ما هي عليه الآن — لا يتجاوز عمرها ثمانية آلاف سنة. فثمة إجماع بين دارسيها على أنها كانت في تلك الأزمنة منطقة تتمتع بأمطار غزيرة، وتخترقها أنهار كثيرة، على ما اتضح من الأودية الجافة التي لا يمكن أن تكون نتيجة مطر خفيف يسقط بين حين وآخر، ومن متحجرات لحيوانات لا تعيش إلا في أرض غنية بالماء، ومنها الفيل وهو من الحيوانات الضخمة، وأسماك وحيوانات بحرية متنوعة. لكن تبدل الجو الذي أصابها أدى بها إلي ما صارت إليه. والصحراء الكبرى سطحها متنوع في تركيبه وفي نتوءاته. فهي ذات سهول متسعة تخترقها هضاب صخرية وأراض رملية وانخفاضات من جميع الأنواع. وهذه الانخفاضات قد تكون منفردة أو متقاربة، أو تكون سلسلة

تمتد آلاف الكيلو مترات ، مثل السلسلة التي تمتد من طرف مرتفعات الهُجّار إلي منخفض أوشُطّ (كما يسمى في تونس) ملْرْهِر. وفي مثل هذه المنخفضات المتصلة شبكة (وتلفظ في المغرب شبْكَه). هذه الأوضاع هي نتيجة تطورات جيولوجية تعاقبت على المنطقة، فكانت النتيجة هذا السطح العجيب.

على أن هناك أماكن مرتفعة في المناطق الجبلية تبلغ ارتفاعا لا يستهان به. منها الهجّار (في الجزائر) حيث ترتفع أعلى قمة فيه إلي نحو **3430** مترا، وتبسْتي (في تشاد) التي تصل أعلى قمة فيها وهي إمي كورِسي **(Emi Korisi)** إلي **3490** مترا، وهما نتيجة تفجرات بركانية. وهناك مجمعات جبال متعددة أقل من ذلك ارتفاعا مثل العوينات(**988**م) في جنوب شرق ليبيا وجبل ودان ، وكذلك جبل السودا وجبل الحساونة وجبل أكاكوس (**1428**م) وجبل تادرارت (**1397**م) وجبل نقى (**1650**م) وإندي **(Ennedi)** في تشاد أيضا. وثمة تكتلات صخرية مثل الهانْك **(El Hank)** في الجزء الغربي من الصحراء الذي يمتد نحو **480** كيلاً لكن ارتفاعه لا يتجاوز **55** مترا . إلي هذا ثمة تكتلات صخرية ترتفع نحو **825** مترا، غير أنها أقصر مدى على وجه العموم.

وثمة المساحات الرملية المسماة هناك العرق **(Erg)** ـــ ولعلها تعني العرق أصلا ـــ التي لا تغطي أكثر من خمس مساحة الصحراء.

وفي هذه الصحراء توجد واحات مختلفة السعة وكمية المياه ، مثل الكُفْرة (في ليبيا) وسيوه في مصر وسواهما في جهات مختلفة، وهي غنية بالمياه، وثمة تلك التي فيها ماء قليل وقد يكون مالحا. وهذه الواحات تستقي من المياه الجوفية المختزنة في طبقات الأرض منذ الزمن الذي كانت فيه الصحراء غزيرة الأمطار كثيرة المياه. على أن هذه الواحات كانت تنفع الكثيرين لما كان استهلاك الماء محدودا. لكن الزيادة في استعمال الماء، خصوصاً في الواحات الصغيرة، أدى إلي نقص فيما يمكن أن يحصل عليه.

إلي الجنوب من خط العرض **15**، وإلي مسافة تتراوح بين **200** و **300** كيلو متر عرضا، مع امتداد عرض القارة الأفريقية تقع منطقة السهوب (السفانا)، التي تنبت فيها الأشجار المنوعة والأعشاب الصالحة للرعي، وتنمو فيها أنواع الحبوب والخضار والثمار. ولان العرب شبهوا الصحراء بالبحر (الرملي طبعا) أطلقوا على منطقة السفانا هذه "الساحل". في مدن هذه المنطقة كبيرها وصغيرها وقراها ومجمعات سكانها كانت القوافل الآتية من الشمال تستريح – رجالا ودوابّ، ويقوم التجار ببيع ما يحملون، ويحملون ما يبتاعونه. فكانت مواسم الأسواق أيام حركة ونشاط هناك.

في المرتفعات العالية في جبال الجزائر ـــ وأقل من ذلك في الأطلس ـــ يسقط من المطر ما يزيد عن **1000**ملم، وتنعم المرتفعات الممتدة

على طول الشمال الأفريقي ، بما في ذلك الجبل الأخضر وجبل نفوسة بمعدل من المطر يتراوح بين 400 ملم و 1000 ملم. وهذا يعني أن الزراعة المتوسطة على اختلاف أنواعها يمكن أن تستغل فيها، كما أن أنواع المواشي المختلفة تجد المراعي المناسبة.

لكن هذه المنطقة ، التي تختلف عرضا بين الجهة الواحدة والأخرى، لا تمتد إلي أكثر من مائة إلي مائة وخمسين كلم، ثم تأتي المنطقة الصحراوية التي لا يتجاوز سقوط المطر فيها، حيث يسقط وحين يسقط، المائة من الملمترات.

وهذه بداءة المنطقة الصحراوية التي ترتفع الحرارة فيها (على تفاوت في مناطقها) صيفا إلي 55 درجة سنتغراد في الظل، وتهبط إلي 3 س في الشتاء. وهذا يعتبر معدلا، بقدر ما يمكن لدرجات الحرارة أن تعدل في هذه الصحراء المترامية الأطراف. ويسقط المطر في بعض المناطق الصحراوية على نحو متقطع، ومدة الجفاف أو التحاريق طويلة، وقد تدوم سنوات. وهو — على مإذكرنا — أقل من خمسة سنتيمترات، وقد يسقط من المطر في فزان مثلا عشرة سنتيمترات، وقد يتجاوز ذلك. لكن ذلك لا انتظام له. وانحباس المطر طويلا يزداد في اتجاهنا من الشمال إلي الجنوب .

وتهب على أجزاء من الصحراء عواصف تؤدي إلي خسائر جسيمة في المواشي خصوصاً. فقد حدثت عاصفة من هذا النوع في الغولية سنة 1947 أدت إلي مقتل 1500 رأس من الماعز و2000 خروف.

ويبدو أن المياه الجوفية التي مر ذكرها قبلا — المتبقية من العصور التي كانت الصحراء تتمتع فيها بأمطار غزيرة — هي التي يعتمد عليها في الحصول على الماء في واحات وآبار يغزر فيها الماء أو يقل. فالغولية (El Golea) مثلا هي مناطق متميزة بسبب وجود الماء على مسافة قريبة من سطح الأرض. ولو أن الغالب على مثل هذه المناطق أن ينتقل الماء من مكان إلي آخر عن طريق "الفُجار"، وهي مجار حفرت تحت سطح الأرض. بحيث تصبح مجاري للمياه. وهذه الطريقة معروفة من أقدم الأزمنة في البلاد الشرقية، في عمان وسواها من بعض مناطق الجزيرة، وفي إيران وغيرها، "والفجار" موجودة في المنطقة الواقعة إلي الجنوب من المغرب عبر الهجار حتى فزان شرقا. لكن تلك الموجودة في الصحراء الغربية هي الأكثر إتقانا.

شجرة النخيل جزء أساس في حياة سكان الصحراء. وهي تزرع في أماكن متعددة. ويكاد التمر يكون الغذاء الأساس لأعداد كبيرة من السكان. وتزرع الحبوب وتنمو الثمار في مناطق محدودة من الصحراء. وفيها قدر لا يستهان به من المعادن كالنطرون (كربونات الصودا) الذي كان يستخرج منذ وقت طويل من مناجم في فزان وتبستي والهُجّار. وهناك مناطق فيها مناجم الحديد والنفط والأورانيوم،

لكن الاستثمار في هذه قد بدأ حديثا. والملح المعدني الصخري ثروة كبيرة من ثروات الصحراء الطبيعية.

لكن المشكلة الرئيسة في الصحراء هي نقل هذه جميعها من مكان إلي آخر فيها، وإلي خارجها. وهذه القضية هي موضوع هذه الدراسة أصلا.

كانت الصحراء الكبرى ــ على ما يبدو من نقوش ملونة عثر عليها في جهات متعددة منها ــ تجتازها القوافل بين الشمال الأفريقي ومنطقة السهوب منذ أزمنة متوغلة في القدم. ولكن شيئا من التاريخ الذي يكاد يجمع عليه الباحثون، بدأ منذ قيام دولة الجرامَنْت في فزان وعاصمتها جَرْمَة زُهاء سنة 100م واستمرت حتى 450م.

وقد اعترضت الباحثين قضية الحيوان الذي استعمل لقطع المسافات الطويلة أولا، وجر العربات المزدوجة أو الرباعية.

ويمكن أن نرسم صورة لتاريخ النقل في الصحراء الكبرى على النحو الآتي:

"كانت الثيران [المسماة زبو **Zebu**، وهو ثور له سنام ن.ز.] تستخدم في النقل قبل بداية عصور الجفاف بالصحراء، ثم أخذت الحمير تحل محلها بالتدريج. وظل الأمر كذلك حتى ظهرت قبائل الجَرامنْت بالخيول [الحمير؟] والعربات، فنشطت التجارة وأقيمت القلاع لحراسة الطريق بين سواحل البحر المتوسط والبلاد الواقعة إلي الجنوب من حزام الصحراء الكبرى. وقد ساعد الإكثار من الخيول[الحمير؟] الجَرامَنْت على سيادة الصحراء. وفي القرن الرابع الميلادي ظهر عاملان: أحدهما طبيعي والآخر تجاري أوديا بهذه السيادة. فقد قلت كمية المياه الجوفية في الصحراء الكبرى نتيجة لاستهلاك بعض العيون والآبار لمدة طويلة، فذوى الكثير من الواحات، طالت المسافة بين نقط التزود بالمياه، ولم تتمكن الخيول والحمير من تحمل السير مسافات أكبر مما تتحملها طبيعة أجسامها، دون الحصول على الماء. ومن ناحية أخرى عمل زوال الواحات والغطاء النباتي الذي كان بها على أن تزحف رمال الصحراء وتغطي الكثير من الطرق والدروب القديمة فأغلقتها، ووقفت المرود وبحار الرمال عائقا أمام قوافل الحمير و الجياد.

أما العامل الاقتصادي فهو أن قبائل البربر المعروفة بقبائل الجمالة، قد اقتنت الكثير من الجمال وغزت الصحراء. ومن الطبيعي أن تعمل هذه القبائل على فتح طرق جديدة، ربما لم تعرف من قبل.

وهذا يحتم علينا أن نتحدث، باقتضاب كلي، عن الجمل والصحراء الكبرى. يبدو ــ من دراسات مختلفة عن موضوع الجمل ووصوله إلي الصحراء ــ أن هذا الحيوان عرف في القرن الرابع ق.م. في الأجزاء الشرقية من الصحراء أو في القرن الخامس ق.م. وقد عثر على نقش في دُقّة

(Dugga) في تونس فيه سائق وجمله. وقد استعمل الجمل للحراثة في القرن الثالث قبل الميلاد في مزارع طرابلسية ولما انتصر يوليوس قيصر على جوبا (Juba) أحد اصحاب السلطان في الشمال الأفريقي أسر 22 جملا وفي سنة 360 م طلب رومانوس (Romanos) 4000 جمل من لبتس ماغنا (مدينة لبده الحالية) في طرابلس، ويبدو أن الجنود الرومان قد نقلوا إبلا من سورية إلي نوميديا (في الجزء الجنوبي من الجزائر الحالية) لاستعمالها في القتال، وقد شجعت السلطات على تربيتها في طرابلس. واستعملت الإبل للدفاع في معركة وقعت بين ملك الوندال ثراسامند (Thrasamund) وقبيلة صحراوية بقيادة زعيم اسمه كابَوُن (Cabaon) كانت قرب بيزسنا (Byzacena) في الجنوب التونسي،"فقد وضع كابَوُن إبله معارضة على شكل دائرة حول معسكره بحيث كانت الدائرة تحوي اثني عشرة من الإبل الواحد خلف الآخر. وأخفي جنوده وتروسهم بين الإبل. فلما جاء الوندال وكانوا فرسانا، لم يروا مقاتلين ، وخافت الخيل من هذه الحيوانات فلم تهجم عليها، وعندها أطلق المحاصرون سهامهم على المهاجمين، فقتلوا عددا كبيرا من الفرسان وخيولهم ، وهذا حمل الباقين على الفرار.

وحري بالذكر أن المسلمين في فتوحهم للشمال الأفريقي استعملوا الخيول، وقوافل من الإبل ، ولم يستعملوا الإبل. لكن الجمل أصبح، منذ أن تبنته قبائل بربرية، على نحو ما ذكرنا، الحيوان الوحيد الذي استعمل في اجتياز الصحراء .

يمكن إجمال الطرق الصحراوية التي استعملت حتى القرن الثالث للميلاد فيما يلي :

طرق تبدأ في الشمال من منطقة أويا (Oea)

أولا: طرابلس الغرب الحالية وموانئ لبتيس مغنا (لبده الكبرى) وتلتقي في غدامس وتجتاز بعد ذلك مرتفعات تسيلي – ن – أنجر (Tassili–n-Anjer) الواقعة إلي الشمال الغربي من جبال الهُجّار، أو قد تتبع الأودية التي تخترق هذه الجبال بالذات، إلي جَرْمة، ثم عبر مرتفعات كُوار إلي غوا (Goa) عند منعطف نهر النيجر نحو الجنوب.

ثانيا: طرق تبدأ من جرمة، عاصمة الجرامنت، وتتجه نحو الشرق ولها فرعان : الأول يصل إلي الكُفْرة، والثاني نحو بحيرة التشاد (تشاد)، ومنها إلي جنوب وادي النيل. وهناك طرق أخرى تتوقف في أوجَلة ّ أو سيوه أو سواهما، وتنتهي في مدن شمال وادي النيل.

ثالثا: ثمة طريق يبدأ من تمبكتو الواقعة في منعطف نهر النيجر أيضا، ويتجه غربا متجنبا الجزء الأكثر جفافا من الصحراء

هناك، ثم ينعطف شمالا محاذيا الـصحراء الغربية، وهي طبيعيا جزء من المنطقة التي تشملها مع المغرب، ثم يتجه نحو المغرب.

على أن هذا لا يعني أن هذه هي وحدها الطرق الصحراوية التي استعملت خلال الأزمنة، لكن هذه هي التي نالت نوعا من القبول لدى الباحثين حتى يومنا هذا. (يجب أن نتذكر دائماً أن الباحثين في تاريخ الصحراء الكبرى وأقوامها وتنقل هذه الأقوام وتبادل شؤون الحياة ، إنما يعالجون ملايين من الكيلومترات المربعة، وهي قادرة على إخفاء معالمها بسبب صعوبة التنقل فيها. فالتنقيب الأثري في الصحراء لم يكد يكشف إلا عن جزء صغير من هذا الفضاء الشاسع ن.ز.)

وجاء الرومان، ومن الأمور التي اشتهر بها هؤلاء القوم ـــ في سبيل تيسير تنقل جيوشهم والقيام بإدارة إمبراطوريتهم على نحو جيد ـــ بناء الطرق. وعندما نتحدث عن بناء الطرق عند الرومان فإنه يلزمنا أن نذكر أن هذه الطرق كان بعضها "يبلّط" بقطع كبيرة من الحجارة التي يحكم صفها ، لكن الأكثر كان يرصف رصفا جيدا. وكانت الجسور تعلو الأنهار ومجاري الماء الأخرى، كي ييسر الطريق للقوم – محاربين أصلا وسواهم تبعاً – التنقل المنتظم.

وأحسب أن الكثيرين من الذين ستقع عيونهم على هذا البحث سيذكرون أنهم شاهدوا، أو لعلهم مروا على مثل هذه الطرق. وأنا شخصيا شاهدت أجزاء على مقربة من قيسارية على الساحل الفلسطيني (1924) وبين أنطاكية وحلب (1925) وفي غرب ليبيا (1949) وفي نواحي الجم في تونس وفي الأصنام في الجزائر (1951) وفي فوليبِلي (Volubilis) في المغرب (1959).

ولن نطيل في التحدث عن الوجود الروماني في الشمال الأفريقي ، بل نكتفي بالقول بأن روما بدأت باحتلال تلك الرقعة في أيام الجمهورية، واقتصر الأمر، بادئ بدء، على قرطاجة والرقعة الواسعة التي تدور بها، والتي شملت منطقة نتوء بين خليج قابس في الجنوب والجيب المائي الذي يدور حول موقع مدينة تونس الحالية مع التوسع غربا.

وفي أيام يوليوس قيـصر وأغـسطوس قيصر، في العقود الأربعة الأخيرة من القرن قبـل الميلاد والعقد الأول من القـرن الأول بعـده، أضيفت إلي الدولة الرومانية الشرعية الممتدة من شرق لبتس ماغنا (لبدة) عبر أوْيـا (طـرابلس) وصبراتة وأتيكا إلي ما يقرب من الحدود التونسية – الجزائرية الحالية. وفيما تبقى من القرن الأول الميلادي وخلال القرن الثالث أضيفت شـريحة أخرى ملاصقة لتلك بدءا من الـشرق، لكنـها اتسعت في الاتجاه غربا حتى شملـت الـساحل ومنطقة التل في الجزائر والجزء الأكبر من شمـال المغرب.

وقد شهد القرن الثالث الميلادي إضافة في الجهات الجنوبية إلي ما كان قبلا، ويمكن القول إجمالا أن هذا التوسع الأخير كان القصد منه وقف تحركات القبائل وهو الأمر الذي اقتضى أن تدخل بقية المنطقة الساحلية شرقا حتى خليج سِرْت (أو سُرْت) حيز الأمبراطورية وإلي برقة شرقا ، وأن يكون ثمة توسع جنوبي في كل من المنطقة الجزائرية والمغربية.

وأول طريق روماني عسكري مدون تاريخ بنائه يعود إلي سنة **14** م وكان يمتد من قابس **(Tarcape)** على خليج قابس مسايرا الساحل أولا ثم ينعطف غربا في الشمال إلي هَيْدرا **(Ammaedara)** (في أواسط الجزائر الحالية) ثم مدد إلي تبسّة **(Thevessa)** وقد بلغ مجموع طول الطرق الرومانية التي بنيت في الشمال الأفريقي من حدود برقة الشرقية إلي المحيط الأطلسي حتى نهاية القرن الثالث ومطلع القرن الرابع للميلاد نحو **19.000** كيلومتر، منها طريق واحد كان مبلطا بقطع كبيرة من الحجارة، وما تبقى كان مرصوفا رصفا عاديا قويا من صخور وحجارة صغيرة يتراوح سمكها بين **60** و **90** سنتمترا.

ولأن هذه الطرق كان القصد الأصلي من بنائها عسكريا نقل الفرق الرومانية من مكان إلي آخر ، فقد بذل القوم جهدهم في أن تبنى مستقيمة في اتجاهاتها، متخطية الكثير من الصعوبات المتعلقة بالأرضين. وكانت الطرق المتجهة من الشمال إلي الجنوب تبدأ عند موانئ تخدم حاجات الأمبراطورية أصلا، مثل قرطاجة التي كانت مجمعا للحنطة من سهول تونس والجوار، والموانئ الطرابلسية الثلاث: صبراتة وطرابلس ولبدة التي كان يشحن منها زيت الزيتون إلي رومة، وكانت بالطبع، تستقبل ما يرسل من الشمال ، مثل الخيول والأخشاب والحيوانات الوحشية التي كانت تستعمل في المسارح لتسلية الرومان.

ولم يكتف الرومان بالقيام بإعداد الطرق إعدادا فنيا متينا، بل عنوا بالجسور وقني الماء (مثل قناة زغوان بين هذه المدينة والعاصمة تونس) وقد وصلوا جزيرة جربة بالساحل التونسي بعبّارة كبيرة.

وقد تم الكشف عن أكثر هذه الطرق لأن الرومان كانوا يقيمون حجارة لمقاس الطريق على جنباته. وقد عثر على نحو ، ألفين من حجارة الأميال هذه في أنحاء مختلفة من الشمال الأفريقي. وكانت أسماء الأباطرة التي بنيت أجزاء الطريق في أيامهم تنقش على الحجارة. وإلي جانب هذا كان الرومان يرسمون الخرائط لهذه الطرق. وقد عثر على خريطة تعود إلي القرن الثاني عشر (أو الثالث عشر) وهي نسخة من خريطة رومانية رسمت في القرن الثالث م، وفيها تظهر الطرق والمدن اليونانية الرئيسة. (تعرف هذه الخريطة الآن بـ "لائحة" بويتنْغَر **(Peutinger Table)** على اسم الألماني الذي اكتشفها في مدينة ورْمز **(Worms)** في

ألمانيا في أواخر القرن الخامس عشر) وإلى أسماء الأباطرة التي ذكرت أجزاء الطرق في أيامهم كان الرومان ينقشون أسماء فرق الجنود التي عملت في بناء تلك الطرق.

ونحن نضع هنا بين يدي القارئ أسماء المحطات على الطرق الرئيسية من الغرب إلى الشرق، وقد كانت هذه تمتد في خطوط ثلاثة، وأفاد بناؤوها من طبيعة الأرض ونوع المناخ:

1. الطريق الساحلي ـ هناك طريقان تمتدان من طنجة إلى سلا – الرباط ، ومن طنجة إلى فلوبلي (Volubilis). وينقطع الطريق هنا، ويستأنف ثانية في مليلة في المغرب، ويسير محاذيا الساحل إلى تنس (في الجزائر فبجايا فعنابة حتى بزرْت (أو بنزرت) في تونس ومنها إلى سوق الأبْيود فالمنستير فقابس (محاذيا ساحل خليج قابس) إلى صبراتة وطرابلس ولبتس مغنا (لبدة الكبرى) إلى سِرت (أو سُرت) إلى مرسى البْريقة وبنغازي ودرنة حتى الحدود المصرية.
2. طريق الهضاب – (في المغرب) مغنّية – تكمبريت – (في الجزائر) سيغ – الأصنام – عمورة – سطيف – قسنطية – سوق أراس (سوق أحراس) (وفي تونس) الكاف القيروان – الجم. ولم تكن ثمة طرق رومانية في طرابلس ولا يونانية – رومانية في برقة تخترق المرتفعات الواقعة جنوبي الساحل .
3. الطريق الصحراوي في المغرب – مغنّية – ولاد ميمون – (في الجزائر) هنشر سْوَيق – سور الغزينة – تمغاد – تبسّة (في تونس) قفصة – قابس. وكان ثمة طريق صحراوي آخر يمتد إلى الجنوب من الأول، في الجزائر وتونس من القصبات إلى توزر (على شط الجريد) ويدور بجبل نفوسة حتى لبْتس مغْنا (مصراتة) على الساحل.

وكانت ثمة طرق تتجه من الشمال إلى الجنوب، وتكاد كل ميناء على الساحل تكون نقطة انطلاق لطريق يخترق المنطقة إلى حيث ينتهي قبل الصحراء. فالرومان لم يبنوا طرقا في الصحراء إلا بين طرابلس (أويا) ومزده وفزان. وبين طبرق والجَغْبوب، كما أنهم أصلحوا من شأن الطريق بين أجدابيا وأوجلة.

هذه الرقعة الصحراوية الواسعة لم تكن خلوا من موارد الثروة في أشكالها المختلفة : النباتية والحيوانية والمعدنية. إذ إنه ثمة مناطق مختلفة تنتج كميات لا يستهان بها من الحبوب، منها المعروف في مناطق أخرى من العالم – كالقمح والشعير، ومنها ماهو خاص بها ، وهي حبوب طرأ عليها تطور بسبب عوامل التربة الصحراوية والمناخ، كالذرة الخاصة بها. وتنمو الفواكه في مناطق مختلفة من الصحراء مثل العنب وسواه. لكن الناتج الزراعي الذي تتفرد به الصحراء الكبرى خصوصاً في نصفها الشمالي، كان التمر. ويرى الباحثون أن شجرة النخيل كانت معروفة في تلك المناطق ، حتى قبل الوجود الروماني. وتغذي شجرة النخيل المناطق الجنوبية

والمناطق الساحلية. وقد سبقت الإشارة إلي الثروة الحيوانية.

أما الثروة المعدنية فتتمثل أصلا في المعدنين الرئيسين: الملح والذهب. ويبدو أن التجارة في هذين المعدنين قديمة، وهي على العموم تتجه بالملح من الشمال إلي الجنوب، وخصوصاً إلي مناطق الغابات في السودان الغربي، كما يتجه الاتجار من مناطق السودان الغربي إلي الشمال حتى يصل سواحل البحر المتوسط.

وأقدم الملاحات تصديرا له هي إجّيل التي تقع على مسافة نحو 200 كيلو متر من ساحل الأطلسي في منطقة الصحراء الغربية (إلي الجنوب من المغرب) التي من المؤكد أن ملحها بدأ استعماله في القرن السادس الميلادي. وفي العصور الوسطى كانت تغازى في أوسط الصحراء، وجادو الواقعة إلي الشمال الشرقي من مرتفعات أيَر (Air) ومرزُق وتيزمبت (Tisempt) الواقعة على بعد 250 كيلو متر إلي الشمال من تمائرست. وحري بالذكر أن حملة المنصور المغربي على السودان أدت إلي التخلي عن ملاحة تغازى ، فبدأ العمل في ملاحة تاوْدوني التي تقع على مسافة 800 كيلو متر إلي الشمال من تُمْبُكْتو .

أما الذهب فنترك الحديث عنه إلي حين يأتي دوره في طرق الاتجار فيما يلي من هذا البحث.

وقد أشرنا من قبل إلي النطرون والحديد والنفط والأورانيوم.

نرى من الواجب علينا أن نضع أمام القارئ ثبتا مختصرا بالدول الإسلامية التي قامت في الشمال الأفريقي وفي السودان الغربي، لأن الإفادة التامة من طرق المغرب العربي ومسالكه جاءت بسبب التطور التجاري الكبير الذي لف المنطقة في أيام هذه الدول.

تم فتح الشمال الأفريقي في عهد الخلفاء الراشدين(11-40هـ/632-661م) وعهد الدولة الأموية (41- 132هـ/661-750م) وظلت المنطقة بكاملها ولاية أموية عاصمتها القيروان.

لكن مع قيام الخلافة العباسية سنة 132هـ /750م، ضعف النفوذ المركزي في الشمال الأفريقي، الذي كان قد بدأ يهتز حتى في أيام الأمويين. ومن هنا نجد أن المغرب العربي عرف دولا مستقلة (أو شبه مستقلة) في وقت مبكر [انظر م3، ق1، ف2، ط2b قيام الكيانات المستقلة في المغرب والأندلس] .

ثمة دولتان أسسهما مهاجرو الأباضية (الخوارج): الأولى دولة بني مدرار في سجلماسة في الصحراء(140-297هـ/757- 909م). وقد بنى هؤلاء هذه المدينة واتخذوها عاصمة لهم. والثانية الدولة الرستمية في تاهِرْت أو تيْهِرْت) في غرب الجزائر(160-297هـ/777- 909م)

وقد ازدهرت هاتان الدولتان بسبب تجارة الصحراء. وكان قيام الدولة الفاطمية(296هـ/909م) إيذانا بالقضاء عليهما.

وقامت في منطقة مملكة المغرب الحالية دولة الأدارسة (172-301هـ/789-926م).

وقد فوض هارون الرشيد إبرهيم بن الأغلب، عامله على تونس في إدارة ولايته إدارة شبه مستقلة واستمرت هذه الدويلة من 184- 296هـ/800-905م، وإلي الأغالبة يعود الفضل في فتح العرب لجزيرة صقلية وجزء من سردينيا.

في سنة 296 هـ/909م قامت الخلافة الفاطمية في أفريقية (القيروان بتونس). وكانت النتيجة الأولى لقيام هذه الخلافة – على ما مر – القضاء على الدولة الرستمية وبني مدرار ودولة الأغالبة ودولة الأدارسة. لكن لما انتقل الفاطميون إلي مصر سنة 358 هـ / 969 م، ضعف شأنهم في بلاد الشمال الأفريقي، وقامت – على ما كان ملكهم فيه الدولة الزيرية – (361 – 547 هـ / 972 – 1152م) وكانت القيروان عاصمتها أولا ثم المهدية. وإلي جانب الدولة الزيرية، وإلي درجة معينة كانت خليفة لها، كانت دولة بني حماد (405 – 547 هـ /1015 – 1152 م). وقد تم القضاء على الدولة الأولى على يد النورمان والمرابطين، اما الثانية فقد استولى عليها الموحدون.

والدولة الكبيرة التي يعنينا أمرها في الشمال الأفريقي من حيث موضوعنا هي دولة المرابطين (448 – 541 / 996 – 1016 م) التي قامت على أكتاف قبيلة صنهاجة وحلفائها. بنى يوسف بن تاشفين مراكش واتخذها عاصمة له، واستولى سلاطينها على المغرب وبعضا من الجزائر وأجزاء من الأندلس.

وقضى الموحدون (524 – 667هـ/ 1130 – 1296 م) على المرابطين. وقد توسع ملك الموحدين بحيث شمل المغرب الأقصى والأوسط وأفريقية (تونس) ومنطقة طرابلس وأجزاء من الأندلس .

أما في السودان الغربي، وهو جزء من أفريقية الاستوائية الواقع إلي الجنوب من الساحل (السهوب / السافانا) حيث تكثر الغابات وتنمو النباتات المتنوعة، فقد قامت، في الفترة التي تعنينا الدول التالية :

أولا – دولة التكْرور، وكانت حول مدينة تكْرور على نهر السنغال. وقد اعتنق أهل تكرور الإسلام منذ العقود الأخيرة من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي

ثانيا – مملكة غانا (غانة) التي كانت اراضيها تشمل المنطقة الممتدة من أعالي نهر السنغال إلي نهر النيجر. ويبدو أن هذه الدولة أصبح يدير أمورها، بدءا من

أواخر القرن الثاني هـ / حوالي 800م، أسرة قوية بسطت نفوذها على منطقة واسعة امتدت شمالا إلي تيشت، فسيطرت على المراكز التجارية الآتية من الشمال الأفريقي. وسيطرت منذ أواخر القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي على أوْداغُشْت، أكبر المدن التجارية وأغناها. وقد سيطر المرابطون على أوْداغُشت ثم مدينة غانة (446 هـ/1054م و469 هـ/ 1076 م على التوالي) وانتشر الإسلام في هذه البلاد.

ثالثا – دولة مالي – ويمكن اعتبارها خليفة دولة غانة، وهي إلي الجنوب منها. وقد توسعت على يد برمندانا الذي اعتنق الإسلام (القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي)، وقد أدى فريضة الحج، ولعله أول ملك أفريقي سوداني قام بذلك. وقد بدأ الضعف يدب في هذه الدولة بدءا من أواخر القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، ومع ذلك استمرت حتى حوالي 800 هـ/1400م. وأخيرا قضى سني (سنّ) علي، منشئ إمبراطورية سُنْغاي (صنغاي) الذي احتل جنّؤ وتُمبُكتو (873 هـ / 1468 م و 871 هـ / 1470 م على التوالي) فكان هذا إيذانا بزوال الدولة السودانية الكبيرة الأولى.

رابعا – دولة سُنغاي (صنغاي) التي يعود قيامها إلي القبائل التي سميت الدولة باسمها. وبين سنتي (471 و 475 هـ / 1078 و 1082 م) اعتنق ملوك الأسرة الحاكمة واسمها "زا" الإسلام، وكانت آخر عاصمة لأسرة "زا" هي غاو، على نهر النيجر. لكن أسرة سنِّي (سِن) علي وسعت حدودها على يد علي الكبير (869 – 898 هـ / 1464 – 1492 م) وقام خلفاؤه، أباطرة سُنغاي (صُنغاي) بإنهاء دولة أسرة "زا" وتوسيع رقعة دولتهم، التي استمرت حتى أرسل المنصور المغربي (986 – 1012 هـ / 1579 – 1603 م) حملته الكبرى إلي السودان حوالي 1000 هـ / 1591 م، فقضت على هذه الأمبراطورية.

خامسا – بدأت في منطقة كانم – بورنو قرب بحيرة تشاد دولة صغيرة منذ أواخر القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، إلا أنها أصبحت قوية على يد أسرة تسمى صفاوة (سيفية؟) التي اعتنق ملوكها الإسلام بعد سنة 500 هـ/ 1106 م. وهذه الدولة

استمرت حتى القرن العاشر الهجري/السابع عشر الميلادي .

وقد رأينا أن نتخذ صورة الأرض لابن حوقل نقطة انطلاق للعمل مع العودة إلي ابن خرداذبة ، لما سبق، ومقارنة المادة المتوفرة بما يرد عند الإصطخري والمقدسي، فيما اعتبرنا البكري يمثل نهاية الفترة بالذات.

2.الطرق الساحلية (الشرقية)

يحدد ابن حوقل المغرب على النحو الآتي "... وحَدُّه من مصر الإسكندرية على النيل وأرض الصعيد حتى يمضي على ظهر الواحات إلي برية تنتهي إلي أرض النوبة، آخذا إلي البحر المحيط، وممتدا إلي حقيقة الغرب بنواحي أرض غانة وأرض أوداغست، ثم يستمر عاطفا إلي الشمال مارا على بلاد برغواطة وماسة إلي فوهة بحر الروم ... وراجعا حَدُّه من أرض طنجة على البحر إلي نواحي تنس وإلي تونس والمهدية من أرض أفريقية [تونس] مقبلا على أرض طرابلس وبرقة إلي الإسكندرية... ثم البحر المحيط [بـــ] الجنوب ، فيمر على ماسة ومغارب سجلماسة وظاهرا السوس الأقصى، ويمتد على ظواهر أَوْدَغُشت وغانة وكوغة [غاو] وقبول سامة وغريبوا في بلد لا عداد لأهلها إلي أن يصل إلي البرية التي لا تسلك إلي الحين. ويكون بين دبرته وبلاد الزنج براري عظيمة ورمال كانت في سالف الزمان مسلوكة، وفيها الطريق من مصر إلي غانة. فتوارت الرياح على قوافلهم ومفرداتهم، فأهلكت غير قافلة، وأتت على غير مفردة. وقصدهم أيضا العدو فأهلكهم غير دفعة، فانتقلوا عن ذلك الطريق وتركوه إلي سجلماسة. وكانت القوافل بالمغرب إلي سجلماسة، وسكنها أهل العراق وتجار البصرة والكوفة والبغداديون الذين كانوا يقطعون ذلك الطريق. فهم وأولادهم وتجاراتهم دائرة، ومفرداتهم دائمة، وقوافلهم غير منقطعة، إلي أرباح عظيمة وفوائد جسيمة، قلما يجاريها التجار في بلاد الإسلام سعة حال. ولقد رأيت صكا كتب بدين على محمد بن أبي سعدون بأودغُشت، وشهد عليه العدول باثنين وأربعين ألف دينار.

وهذا يتفق مع ما مر من أنه حتى القرن الثالث الميلادي كان ثمة طرق تجتاز هذه الصحاري من الشرق إلي الغرب، فيما انقطع هذا فيما بعد. وإذا رجعنا إلي البكري وجدنا هذا الأمر واضحا – إذ ورد عند هذا الجغرافي مجموعتين من الطرق : شرقية من زويلة ونواحيها إلي الشرق وغربية حدها الشرقي خط يمتد من طرابلس إلي غاو على النيجر، والطرق الواقعة إلي الغرب منه كانت عامرة في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، أما الشرقية فكانت قد ضعف أمرها وتحددت تجارتها نسبيا .

ونحن سنتابع الطريق الساحلي الشمالي أصلا ، ثم ننتقل إلي الطرق الداخلية. والذي عليه أهل الرأي من الجغرافيين المعاصرين هو أن المغرب يبدأ في برقة. ولذلك فإن أكثرهم يحددون

طريق الوصول إلي برقة من مصر، قبل أن يتابعوا السير غربا.

ويبدأ الطريق من مصر من مكانين؛ لأنهما كانا مركز الاتجار والتنقل والسفر- الفسطاط والإسكندرية. ويلتقي الطريقان في ذات الحمام ويصير الطريقان طريقا واحدا إلي برقة، وهي منطلق المغرب في عرف الجغرافيين العرب الأوائل.

"فأما برقة فمدينة وسطة ... ولها كور عامرة وغامرة وهي في بقعة فسيحة ... ويحيط بالبقعة جبل من سائر جهاتها، وأرضها حمراء خلوقية التربة، وثياب أهلها أبدا محمرة ... ويطوف بها من كل جانب بادية يسكنها الطوائف من البربر. وهي برية بحرية جبلية. ووجوه أموالها جمة . وهي أول منبريترله القادم من مصر إلي القيروان. وبها من التجار وكثرة الغرباء في كل وقت ما لا ينقطع طلابا لما فيها من التجارة، وعابرين عليها ومغربين ومشرقين. وذلك أنها تنفرد في التجارة بالقطران... والجلود المجلوبة للدباغ والتمور الواصلة إليها من جزيرة أوجلة، ولها أسواق حادة حارة من بيوع الصوف والفلفل والعسل والشمع والزيت وضروب المتاجر الصادرة من الشرق والواردة من المغرب. وشرب أهلها من ماء المطر بمواجن يدخر بها، وأسعارها بأكثر الأوقات فائضة بالرخص في جميع الأغذية".

يبدو أن هذا كان حال برقة، منطقة ومدينة، قبل مجيء الهلاليين في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ، ومن هنا كان وصف ابن سعيد لها بقوله: "ليس فيها مدينة ممصرة لاستيلاء العرب عليها .

وبرقة المدينة المشار إليها هي مدينة المرج حاليا الواقعة في الجبل الأخضر. وفي زمن الوجود الإيطالي في ليبيا، في أوائل القرن العشرين، أطلق عليها اسم بارتشه **(Barce)**، وهو إحياء للاسم القديم. على أنه من المهم أن نتنبه إلي أن ابن حوقل يستعمل الاسم على شكلين – الأول اسم للمدينة، والثاني يتكلم فيه على المنطقة بكاملها".

وتأتي المحطة التالية الرئيسية أجْدابْية وهي "على صحصاح من حجر في مستواه . بناؤها بالطين والآجر، وبعضها بالحجارة، ولها جامع نظيف. ويطيف بها من أحياء البربر خلق كثير. ولها زرع بالبخس، وليس بها ولا ببرقة ماء جار. وبها نخيل علي حسب كفاياتهم وبمقدار حاجتهم. ووإليها القائم بما عليها من وجوه الأموال وصدقات بربرها وخراج زروعهم وتعشير خضرهم وبساتينهم هو أميرها، وصاحب صلاتها ، وله من وراء ما يقبضه للسلطان لوازم على القوافل الصادرة والواردة من بلاد السودان".

وننتقل بعد ذلك إلي سُرت (سِرت)، وهي ميناء ترده المراكب وعليها المتاع وتصدر عنها بشيء من الشبّ السُرتي وبالصوف. والإبل والغنم فيها أكثر منها في أجدابية. ولها أعناب وفواكه أما أبو الفداء فينقل عن ابن سعيد قوله: " وسرت من القواعد القيمة المذكورة في الكتب،

وقد خربها العرب [بنو هلال] وبقي بها قصورهم يسكنون بها.

والمدينة الكبرى التي نتوقف عندها هي أطرابُلس (طرابلس) "وهي بيضاء من الصخر الأبيض على ساحل البحر ، خصبة حصينة كبيرة ذات ربض صالحة الأسواق [خارجا وداخلا]. وهي ناحية واسعة الكور كثيرة الضياع والبادية ... وبها من الفواكه الطيبة اللذيذة الجيدة القليلة الشبه بالمغرب وغيره : كالخوخ الفرسك والكمثرى ... وبها الجهاز الكثير من الصوف المرتفع وطيقان الأكسية الفاخرة الزرق والكحل النفوسية والسود والبيض الثمينة إلي مراكب تحط ليلا ونهارا، وترد بالتجارة على مر الأوقات والساعات صباحا ومساء من بلد الروم وأرض المغرب بضروب الأمتعة والمطاعم". ويبدو أن هذه المدينة لم يصبها الخراب الذي أصاب برقة وسرت، فقد ورد ذكرها في تقويم البلدان نقلا عن العزيزي على أنها مرسى للمراكب. ومع أن ابن خردإذبة وقدامة بن جعفر يكتفيان بذكر قابس علما أنها على الطريق بين طرابلس وسفاقس، ويذكرها ابن حوقل في تفسيره للصورة (الخريطة) التي رسمها لتوضيح كتابه فقد أشار إليها أبو الفداء بقوله : " وقد خصت من بلاد أفريقية بالموز وحب العزيز والحناء وبينها وبين البحر ثلاثة أميال والمراكب المتوسطة تدخل في نهرها" ، ولعل بعدها عن البحر، ولأنها لم تكن مرسى كبيرا تجنب هؤلاء الحديث عنها.

"ومدينة سُفاقس مدينة جُلُّ غلاتها الزيتون والزيت، وبها منه ما ليس بغيرها مثله ... وزيت مصر وقتنا هذا فمن ناحيتها يجلب ، لقلته بالشام... ولها مرسى ميت الماء ... وفيها محارس مبنية للرباط بها، وأسواقها عامرة ... وشرب أهلها من مراجل بها ... ولهم من صيد السمك ما يكثر ويعظم".

أما البكري فيقول "... مدينة سُفاقس مدينة على البحر مسورة، ولها أسواق كثيرة ومساجد وجامع مسورة ... ولها حمامات وفنادق وبواد عظيمة وقصور جمة وحصون ورباطات على البحر، منها محرس بوية، وهو أشرفها، وفيها منار مفرط الارتفاع ... وسفاقس في وسط ألذ غابة زيتون، ومن زيتها يحتار أهل مصر وأهل المغرب وصقلية والروم ... وهي محط السفن ... يقصدها التجار من الآفاق بالأموال الجزيلة؛ لابتياع المتاع والزيت.

والموقف الثاني على الطريق الساحلي هو المهدية. يقول عنها ابن حوقل : "و المهدية مدينة صغيرة استحدثها المهدي [عبيد الله المهدي، أول الخلفاء الفاطميين 297 -322هـ 909 – 934 م] وتحول إليها من رقادة القيروان في سنة ثمان وثلاثمائة... فرضة لما والاها من البلاد، كثيرة التجارة، حسنة السور والعمارة، منيعة ... كثيرة القصور، نظيفة المنازل والدور، حسنة الخانات والحمامات... أدركتها سنة ست وثلاثين وثلاثمائة هـ/948 م، وملوكها حماة وتجارها طراة. وقد اختلت أحوالها

والتاثت أعمالها وانتقل عنها رجالها [أي خروج الخليفة المعز الفاطمي 358 – 365 هـ/ 969 – 975م الذي انتقل إلي مصر] ... وقد بقي بها بعض رمق".

ويطيل البكري الحديث عن المهدية. فبعد أن يصفها علي ما كانت عليه أيام عزها – ميناء وصهاريج ماء وقصور أو جامعا – يشير إلي دار الصناعة التي كانت تسع أكثر من مائتي مركب، وإلي أنها كانت عامرة بأسواقها وجندها، ويشير إلي خلو أكثر أرباضها وبتهدمها؛ إذ تركها أهلها ثم يعود إلي ذكرها فيقول عنها : إنها " محط للسفن لمن قصدها من جميع الجهات "، وهذا يتفق مع ما تم على أيدي بني زيري (361 – 543 هـ/ 972 – 1148 م) وهم خلفاء الفاطميين في تلك المنطقة، ذلك لما اضطر بنو زيري إلي ترك القيروان انتقلوا إلي المهدية وعنوا بتحصينها وبناء أسطول قوي، وكانت المهدية يومها مركزا تجاريا كبيرا .

3. الطرق الساحلية الغربية

ويمر الطريق الساحلي بعد ذلك بسوسة، ثم بتونس " وهي قديمة أزلية... وهي خصبة في ذاتها متسعة بغلاتها، ويعمل بها غضار حسن الصباغ وخزف حسن كالعراقي المجلوب ... وهي مصاقبة لقرطاجنة المشهور أمرها بالطيب وكثرة الفواكه... واتساع الغلات. ومن غلاتها القطن ويحمل إلي القيروان فيظهر الانتفاع به، وذلك القنب والكَرَوْيا والعصفر والعسل والسمن والحبوب والزيت وكثير من الماشية".

ويخص البكري تونس بحديث طويل، والذي يهمنا في هذه المناسبة هو أنها كانت ميناء تجاريا ومنطلق قتال مع الروم. كما أنه كان يصنع بها آنية للماء ... وهي من أشرف مدن أفريقية [بحسب المصطلح الجغرافي العربي كانت أفريقية تعنى القطر التونسي ن.ز.] وفيها اللوز الفريك والحيتان [الأسماك] الجيدة والأرج... والتين وسوى ذلك من الفواكه ... وهناك الزيتون ، وله غلة عظيمة تبلغ سبعين ألف درهم ... وهي فرضة كبيرة ... ، ومرسى الخرز ، وفيه معدن المرجان. ومرسى الخرز أيضا قرية غير أنها نبيلة لمكان المرجان وحضور من يحضرها من التجار. ولا أعرف في شيء من البحار له نظيرا في الجودة... وللتجار بها أموال كثيرة من أقطار النواحي عند سماسرة وقوف لبيع المرجان وشراه. ويعمل في ــ أكثر الأوقات في إثارة المرجان ــ الخمسون قاربا، وما زاد على ذلك مما في القارب العشرون رجلا إلي ما زاد أو نقص".

وننتقل إلي مدنية بونة [عنّابة]، "لها أسواق حسنة وتجارة مقصودة. وبها معادن حديد كثيرة ويحمل منه إلي الأقطار الغزير الكثير، ويزرع به الأكتان. ومن تجارتها الغنم والصوف والماشية" ونتوقف مع ابن حوقل عند تنس "وهي أكبر المدن التي يتعدى إليه الأندلسيون في مراكبهم ويقصدونها بمتاجرهم وينهضون منها إلي ما سواها... ولها بادية من البربر كثيرة وقبائل فيها أموالهم جسيمة غزيرة، وبها من الفواكه

والسفرجل المعنق ما لا أزال أحكيه لحسنه ونعمته وحلاوته وطيب رائحته".

وينقلنا ابن حوقل إلي وهْران التي يقول عنها "ولمدينة وهران مرسى في غاية السلامة والصون ... وهي فرضة الأندلس، إليها ترد السلع ومنها يحملون الغلال، والغالب على باديتها البربر". ويقول البكري : إن مدينة وهْران حصينة، ذات مياه سايحة وأرجاء ماء وبساتين ،ولها مسجد جامع. وينتجع مرسى وهران الأندلسيون الذين عمروها بعد هجرهم من بلادهم. ومع أنها تهدمت بسبب حروب داخلية سنة 297 هـ / 910 م فإنها بنيت من جديد بدءا من السنة التالية.

يبدو أن ابن حوقل لم يتحدث عن تلمسان، لأنها لا تقع على الشاطئ، فإن ابن خردإذبة أشار إليها، ولكنه يدعوها تلمْسين، إلا أن البكري يعدها من مدن المنطقة الساحلية ويقول عنها لها أسواق ومساجد ومسجد جامع وأشجار وأنهار وهي مقصد لتجار الآفاق. وكذلك يذكرها أبو الفداء على أنها مدينة مشهورة وكبيرة ولها فرض عديدة أشهرها هنين ووهران .

ويحدثنا ابن حوقل عن سبتة بأنها مدينة لطيفة على نحر البحر، وثمة طنجة، وهي مدينة قائمة على وجه البحر. وأكثر أموال أهلها من الزرع حنطة وشعيرا وحبوبا .

أما بعد منعطف الساحل جنوبا فإننا نجد موانئ صغيرة نسبيا؛ لأن المحيط الأطلسي كان في الزمن الذي نحن معنيون به بكرا بالنسبة للحركة التجارية في البحر المتوسط. ولذلك فالموانئ عليه كانت تتجه نحو الداخل أو كانت مراكز للتنقل المحلي في محاذاة الشواطئ.

يقول ابن حوقل بعد عرضه لهذه الطرق والمدن الواقعة عليها: "وهذه أحوال المدن المشهورة والمراسي والقرى المعروفة على نحر بحر المغرب ، من حد برقة إلي البحر المحيط لما انتهيت إليه وأدركته بالعيان أو أخذته عمن نشأ فيه".

ونحن نجد الموانئ التالية، في اتجاه شمالي جنوبي أزيلي (أو أصيلي أو أصيلة) وسلا وفيها رباط وآسفي وايجلي وأوليل ونول، وهي آخر بلاد الإسلام .

يحدثنا ابن حوقل عن طرق ثلاثة تصل

(1) القيروان بالمسبة، الواقعة على طريق فاس. وهي باختصار كلي القيروان، وسُبَيْبَة، وقسنطينة، مرورا بجبل أَوْراس، وسطيف المسيلة

(2) والقيروان وجلولا وأُجر أُبَّة تامسنت، قصر الأفريقي المسيلة.

(3) القيروان وقسطيلة ونفطة باديس وبسكره طُبْنة مقّر المسيلة.

ويذكر المقدسي أيضا ثلاثة طرق تصل القيروان ولكن التفصيل، أن عدد المدن أو القرى الكبيرة الواقعة على الطرق، هي أقل لما أورده ابن حوقل وهي :

(1) القيروان – قفصة قسطيلة ثم (المسيلة)

(2) القيروان – سطيف ثم (المسيلة)

(3) القيروان – القصر الأفريقي – تبسة ثم (المسيلة).

أما ما تبقى من الطريق من المسلة إلي فاس فيقول عنه ابن حوقل : إن محطاته هي : يلّل وتاهرت وجرماطة وفاس ["1936"87-89].

أما المقدسي، وهو أقل تعدادا للمحطات من ابن حوقل فيقتصر ـــ في الحالات الثلاث التي يتحدث فيها عن الطرق المؤدية إلي فاس ـــ على ذكر تاهرت، تلمسان، فاس.

وحري بالذكر أن البكري يذكر طريقا واحدا يصل القيروان بفاس ومحطاته الرئيسة هي: القيروان، وسبيبة، ومجانة، وطبنة، ويلّل، وتازا، وجرماط، ومكناسة، وفاس. ومن الواضح أن البكري اعتمد على ابن حوقل، ولكنه اكتفى بطريق واحد.

وقد توصل موريس لومبارد إلي خلاصة لهذه الطرق، على أساس الانتفاع منها إلي تعداد المحطات التالية: القيروان، والعباسية، ورقّادة، والنصورية (المنصورة)، وتاهرت، ورغلة، وطُبنة (قرب شط الهدنة)، وقلعة بني حماد، وتلمسان، و وُجدة، ومكناسه فاس.

هذا الطريق أطلق عليه لومبارد اسم طريق الهضبات الوسطى. ومن الملاحظ أن أيا من الجغرافيين العرب لم يتحدث عن تتمة لهذا الطريق شرقا في الصحراء الليبية، ذلك أن هذه الصحراء كانت قاحلة إلي حد أنها لم تمكن القوم ـــ على الأقل بعد نشوء الصحراء الكبرى ـــ من استعمالها، لذلك اكتُفي بالطريق الساحلي.

وطريق الساحل وطريق الهضاب الوسطى كان التنقل عليهما مستمرا، وإن كان يتبدل قليلا في الطريق الثاني بين الصيف والشتاء.

فضلا عن ذلك فهناك أمران يجدر بنا أن نشير إليهما. الأول أن طرق الهضبة الوسطى تكاد تتوسط خط سقوط المطر الذي يفصل بين شمال المغرب حيث يسقط من المطر 400 ملم ويزيد، وجنوبه حيث يقل سقوط المطر عن 400ملم، ليصل إلي 100 ملم وهي المنطقة الصحراوية.

أما الأمر الثاني فهو أن هذه الطرق تتفق أحيانا كثيرة مع الطريق الروماني الذي كان يمتد من شرق تونس إلي تلمسان. والمدن التالية مثل واضح على ذلك، بادئين من الشرق في اتجاه غربي.

سْبيبة (Sufes) وبادس أو باديس (Badias) وبسكْرة (Vescera) وطُبنة (Thubuanae) ومَقَرة (Macri) وقسنطينة (Cirta) وسطيف (Sitifis) وتلمسان (Pomaria) [في الخارطتين المنشورتين داخل الغلاف] .

إلي هذين الطريقين: طريق الساحل وطريق الهضبات الوسطى، ثمة طريق ثالث يقطع المغرب (العربي)، على ما عرفه الجغرافيون القدامى، من الغرب إلي الشرق هو طريق القصور، الذي يحاذي المنطقة الشبيهة بالصحراء في شمالها من الغرب إلي الشرق، وأهم محطاته دَرْعة، وهي مجموعة من قرى صغيرة في وادي

درعة، ومن مدن صغيرة هي نول لمطه وجَزْولة التي تقع على سواحل الأطلسي ، ويتجه الطريق بعدها عبر صحراء لُمتونه إلي أغمات نَفّيس، وسجِلماسة وورغْله، وغدمس. لكن الطريق كان يتجه من هذه المناطق، نحو الساحل حول طرابلس وما يليها. وقد سمي الطريق طريق القصور بسبب قيام قصور في مراكزه، وهي أبنية كانت أصلا للحراسة، ثم أصبحت بعد قيام دولة المرابطين (488 – 541 هـ/ 1056 – 1147م) أربطة. ولما أنشئت مدينة مراكش (470 هـ / 1077 م)، صارت هذه المدينة مركزا كبيرا على طريق القصور .

وأخيرا فهناك الطريق الصحراوي الذي يكاد يجتاز الصحراء الكبرى، باحثا عن واحة أو مجمع ماء لإقامة تجارة وللإراحة، ومع الزمن أصبحت هذه المواقف أماكن ثابتة ببيوها وأسواقها. يبدأ هذا الطريق عند أرْغوين وأوليل، ويتجه شرقا عبر اوداغشت (أودغشت) وتادْمَكّة وبلما (عبر كوار) وزويلة وأوجلة (في الصحراء الليبية) وينتهي بوادي النيل بعد أن يخرج منه فرع إلي الحبشة (أثيوبيا).

3.الطرق التجارية الصحراوية إلي السودان الغربي

كانت ثمة أربع طرق رئيسة تصل الشمال الأفريقي بالسودان عبر الجزء الغربي من الصحراء الكبرى، وهو الجزء الذي كان ــ مع ما فيه من صعوبات ــ يمكن قطعه من الشمال إلي الجنوب، إذ أن الجزء الشرقي من الصحراء الكبرى صعب على القوافل اجتيازه ــ كما ذكرنا من قبل ــ إلا ما قل أو ندر.

الطريق الأول : كان يخرج من طرابلس، فيمر بغُدامس ، وبهذه المدينة الجلود المفضلة التي تكون المتاجرة بها جزء من ثروهّا. ومن غدامس إلي تادْمَكّة–"وهي مدينة كبيرة بين جبال وشعاب ... وأهل تادْمكة بربر مسلمون...". وبين غدامس وتادمكّة يجد التجار حجر الشب ومعدنا لحجارة تسمى تاسي النسمت، وهي حجارة تشبه العقيق.. وهذا يغالي أهل غانة بأسعاره. والمسافة بين غدامس وتادمكّة تزيد عن ثلاثين يوما .

الطريق الثاني: هو الذي يخرج من سجلماسة، وهي المختارة الفريدة في نظر المقدسي، مع تجارة غير منقطعة لبلاد السودان وسائر البلدان وأرباح متوافرة ، ويقول البكري عنها: " سجلماسة مدينة سهلية جبلية ... ولها بساتين كثيرة ... وهي كثيرة النخل والأعناب وجميع الفواكه ... ومدينة سجلماسة في أول الصحراء لا يعرف في غربيها ولا قبليها [شرقيها] عمران... ومن مدينة سجلماسة تدخل إلي بلاد السودان إلي غانة. وبينها وبين مدينة غانة مسرة شهران في صحراء عامرة بقوم ظاعنين، ولا يطمئن بهم مترل.

من سجلماسة يتجه الطريق إلي تادْمُلْت (آقا)، وهذه كانت مدينة كبيرة ، ولها سوق عامرة ... وأرضها أكرم أرض وأكثرها ريعا، وبها معدن فضة من تادملت تتجه الطريق إلي

تندف، وفي هذه يتفرع الطريق فيسير الشرقي بطريق تغازا، أما الغربي فيدور دورة طويلة، ثم يلتقي الطريقان في وانزامين (إنْزِمْران).

وتغازا مدينة الملح. قال عنها ابن بطوطة:

"هي قرية لا خير فيها، ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح وسقفها من جلود الجمال، ولا شجر بها. إنما هي رمل فيها معدن الملح يحفر عليه في الأرض، فيوجد منه ألواح ضخام متراكبة، كأنها قد نُحتت ووُضعت تحت الأرض. يحمل أجمل منها لوحين، ولا يسكنها إلا عبيد مَسّوفَة، يحفرون على الملح، ويتعيشون بما يجلب إليها من تمر دَرعَة وسجلماسة ومن لحوم الجمال ومن إنلي المجلوب من السودان. ويصل السودان من بلادهم فيحملون منها الملح، ويباع لحم الجمل منه بأيوالاتن (ولاّطة) بعشرة مثاقيل إلي أربعين مثقالا. وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة. يقطعونه قطعا ويتباعون به. وقرية تغازا ـــ على حقارتها ـــ يُتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر".

أما الفرع الغربي، ولعله الطريق الرئيس ، فقد كان يمر بعدد من المواقف، لذلك ننتقل إلي مركز مهم هو ونزامين (حيث يلتقي بالطريق الشرقي).

ووانزمين هذه"آبار قريبة الرشاء فيه العذب والشريب، وعليه جبل طويل صعب كثير الوحوش. وبهذا الماء يجتمع (كذا) جميع طرق بلاد السودان. وهو موضع مخوف تغير فيه لَمْطة وجزولة على الرفاق [التجار] ويتخذونه مرصدا، لهم لعلمهم بإفضاء جميع الطرق إليه وحاجة الناس إلي الماء فيه" [البكري]، ومن وانزمين يتجه الطريق إلي أوداغُشت (أوداغست).

وطريق آخر يصل منطقة أخرى من الشمال ببلاد السودان هو الذي يخرج من وادي درعة (ويلفظ في تلك الجهات وادي دراع، على ما سمعته بنفسي) ويبدأ الطريق هنا من مدينة دَرْعة (ويقال: لها تيومَتين) إلي أغْمات. (وقد يكون لهذا الطريق فرع آخر، فطرق هذه المنطقةقد تتعدد، لأن القوافل قد تضطر إلي تغيير سبيلها بسبب الجو وتقلباته والقبائل ونشاطها والدويلات التي قد تقوم وتزول بسرعة)

وأغمات مدينتان سهليتان: إحداهما تسمى أغمات إيلان ، والأخرى أغمات وَريكة، وبها [بهذه] مسكن رئيسهم ، وبها يترل التجار والغرباء"، وأغمات إيلان لا يسكنها غريب، وبينهما ثمانية أميال [5-6 كيلومترات] ... وحولها بساتين ونخل كثير . وهو بلد واسع يسكنه قبائل مصمودة في قصور وأحشار وهو راخي الأسعار كثير الخير،... إلا أنه وخم الهواء... وبها أسواق جامعة. فسوق أغمات وَريكة يقوم يوم الأحد بضروب السلع وأصناف المتاجر".

ويتجه الطريق إلي ولاطة (أيوالاتن)، التي كانت يومها نقطة تلاق لعدد من الطرق

والمسالك في غرب السودان والصحاري المصاقبة له.

هذه الطرق التي ذكرناها كانت توصل التجار إلي عدد من المراكز المهمة في السودان الغربي، وهي: غاو وغانة وتميكتو (تنبكتو) وأوداغُشت ومالي. وهذه هي المراكز التي ننتقل إلي الحديث عنها.

4. مدن الساحل (الصحراوي) والسودان الغربي

هذه الطرق التي ذكرنا هي المحطات الرئيسة التي كانت القوافل تتوقف عندها، كانت تنتهي إلي واحدة أو أخرى من مراكز التجارة في الساحل (الصحراوي) أو السودان الغربي. لذلك سنتوقف قليلاً عند كل من هذه ؛ لنتعرف إلي دورها في تجارة الصحراء بالنسبة إلي المغرب العربي ـــ على ما شرحنا هذه المنطقة من قبل ـــ وسنتناول هذه المدن في اتجاه شرقي غربي، فذلك أيسر جغرافيا.

غاو (كوغَة، كوكوا) وهي مدينة تقع إلي الجنوب من تادمكّة ، وفي حوض نهر النيجر في مبدأ تغير وجهته إلي الجنوب. "وأكثر ما يتجهز به إليها الملح والودع [الذي يستعمل للشراء والبيع] والنحاس، ومعدن الغربيون والودع أنفق شيء عندهم وحوإليها من معادن التبر كثير، وهي أكثر بلاد السودان ذهبا" والعرب تسمى أهلها [كوكوا] والبزرمكانيين وهي مدينتان: مدينة الملك ومدينة المسلمين ... ويزعمون أنهم إنما سموا كوكوا؛ لأن الذي يفهم من نغمة طبلهم هو ذاك ... وتجارة أهل بلد كوكوا الملح وهو نقدهم. والملح يحمل من بلاد البربر" ونحسب أن كلمة البزركانيين هي جمع للكلمة التجارية الأصلية الآتية من شرق بلاد الخلافة العباسية ـــ البزرقان ـــ ومعناها التاجر. وفي بيروت إلي الآن سوق صغير، قل استعماله مؤخرا، يسمى سوق البزركان. وإذا كانت، كما يروي البكري، أصول أغنام مناطق في الصحراء الغربية جاءت من قيس بأرض فارس، فلماذا لا يصل اسم السوق بزرقان إلي تلك المناطق.

غانة (غانا) وتبعد عن سجلماسة مسيرة شهرين "وغانة أيسر من على وجه الأرض من ملوكها بما لديه من التبر المثار على قديم الأيام للمتقدمين من ملوكهم. ويهادي صاحب كوغة وليس كوغة بقريب من صاحب غانة في اليسار وحسن الحال، ويهادونه. وحاجتهم إلي أوداإُست ماسة من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الإسلام، فإنه لا قوام لهم إلا به. وربما بلغ الحمل من الملح في دواخل بلد السودان وأقاصيه بين مائتين إلي ثلاثمائة دينار"، والمقصود بالحمل في هذه العبارة هو حمل الجمل". ومدينة غانة مدينتان سهليتان : إحداهما المدينة التي يسكنها المسلمون، وهي مدينة كبيرة فيها أحد عشر مسجدا، أحدهما يجتمعون فيه، ولها الأئمة والمؤذنون والراتبون، وفيها فقهاء وحملة علم، وحوإليها آبار عذبة، منها يشربون وعليها يعتملون الخضروات. ومدينة الملك على ستة أميال بنحو

3.5كلم] من هذه ، وتسمى بالغابة ، والمساكن بينهما متصلة ومبانيهم بالحجارة وخشب السنط. وللملك قصر وقباب، وقد أحاط بذلك كله حائط كالسور. وفي مدينة الملك مسجد يصلي فيه من يفد عليه من المسلمين" وعلى حمار الملح دينار ذهب في إدخاله البلد وديناران في إخراجه. وله على حمل النحاس خمسة مثاقيل، وعلى حمل المتاع عشرة مثاقيل. وأفضل الذهب في دياره ما كان بمدينة غيارو ، وإذا وجد في جميع معادن بلاده الندرة (أي القطعة) من الذهب استصفاها الملك، وغنما يترك منها للناس هذا التبر الدقيق، ولولا ذلك لكثر الذهب بأيدي الناس حتى يهون"، وإلي غانة تسير التجار المغاربة من سجلماسة في بر مقفر نحو خمسين يوما ولا يحضرون منها غير الذهب الأحمر".

تمبكتو (تنبكتو) هي من أقدم المدن التي قامت في حوض النيجر الأوسط. وهي مثلها مثل غوا كانت تقع في المنطقة التي يغطي أراضيها فيضان النيجر وهو الأمر الذي يؤدي إلي ري الأرضين هناك، ومن ثم نمو الحبوب وسواها من النباتات، وبذلك كانت تكتفي بدرجة كبيرة بما تنتجه الأرض المروية. والسلعة التي كانت تحتاجها هذه المنطقة هي الملح ، الذي كان يأتيها من "ممالح" الصحراء في تغازي ونول وتوات وسواها. وهذا التبادل بين منطقة النيجر وتوات وتغازي وما جاورها ــ حيث ترسل هذه الملح إلي الجنوب وتحصل على بعض المواد الغذائية التي تحتاجها ــ كان أساس التجارة. وهذه التجارة اتسعت فيما بعد لما اهتدى الشمال الأفريقي إلي سلع أخرى تنتجها المنطقة الجنوبية وما يليها من ريش النعام والصمغ العربي والرقيق، وأهم من هذا الذهب، الذي كانت تدفع ثمنه بما تحمله من الشمال من مصنوعات معدنية وزجاج وأقمشة وثياب وحلي وودع ؛ لتباع في أسواق غوا وغانة وتمبكتو ومالي. والحقيقة أن هذا الأمر استمر بحيث أصبحت تمبكتو في القرن التاسع الهجري/السادس عشر الميلادي مركزا في غاية الأهمية للتجارة العالمية الشمالية – الجنوبية، كما أنها كانت مركزا علميا كبيرا . كان هذا قد بدأ في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ولكن بلغ القمة في الفترة التي أشرنا إليها سابقا. وكان يومها من السلع المهمة التي تحمل من الشمال إلي الجنوب الكتب العلمية الدينية.

أوداغُشت (اوداغست) كانت مركزا للقوافل الآتية من الشمال والمتجهة جنوبا وتلك القادمة من الشرق أو الغرب. يقول ابن حوقل: "دخلتها [يقصد المنطقة التي تقع فيها أوداغست وجوارها] سنة أربعين [وثلاثمائة] فلم أر بالمغرب أكثر مشايخ منها في حسن سمت وممازجة للعلم وأهله... ولقد رأيت بأودغست صكا فيه ذكر حق لبعضهم على رجل من تجار أودغست، وهو من أهل سجلماسة باثنين وأربعين ألف دينار"، ونقرأ عند البكري/ قوله : "... وهي مدينة كبيرة آهلة ، ويطل عليها جبل كبير، موت لا ينبت شيئا. بها جامع ومساجد كثيرة آهلة في

جميعها المعلمون للقرآن. وحولها بساتين النخل، ويزرع فيها القمح بالفوس (الفؤوس) ويسقى بالدلاء يأكله ملوكهم وأهل اليسار منهم. وسائر أهلها يأكلون الذرة، والمقاثي تجود عندهم. وبها شجيرات تين يسيرة ودوال يسيرة ايضا. وبها جنان حناء لها غلة كبيرة. وبها آبار عذبة ، والبقر والغنم أكثر شيء عندهم... ، وعسلها أيضا كثير يأتيها من بلاد السودان. وهم أرباب نعم جزلة وأموال جليلة. وسوقها عامرةٌ الدهرَ كُلَّه... وتبايعهم بالتبر وليست عندهم فضة ... ويجلب إليها القمح والتمر والزبيب من بلاد الإسلام على بعد... وسكانها أهل أفريقية وبرقجانة ونفوسة ولواتة وزناتة ونفزاوة [هذه اقبائل من البربر] و... وبها نبذ من سائر الأمصار... والحيوان الذي يعمل منه الدرق حول أودغست كثير جدا. ويتجهز إلي أوذُغست بالنحاس المصنوع وبثياب مصبغة بالحمراء والزرقة ، ويجلب منها العنبر المخلوق الجيد ؛ لقرب البحر المحيط منهم، والذهب الابريز الخالص خيوطا مفتولة. وذهب اودغست اجود من ذهب أهل الأرض وأصحه".

مالي (مليل): كانت دويلة كانغابا (أو كابا تقوم في حوض النيجر الأعلى. وفي القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي قامت أسرة كيانا بإقامة دولة مالي على أنقاض كانغابا. وفي القرن التالي كانت مالي قد أصبحت دولة ذات شأن. وإذ ضعفت دولة غانا، كانت مالي هي التي تولت شؤون المنطقة فيما بعد. والمهم أن مالي أصبحت المركز الرئيس لجمع الذهب من بورة، إذ انتقل جمع الذهب جنوبا إلي هذه المنطقة. وفي أيام منسى سكورو، في أواخر القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، أصبحت سوق مالي محط رحال تجار المغرب.

5.مع ابن بطوطة إلي السودان الغربي

في الذي ذكرناه عن الطرق التجارية في الصحراء، ذكرنا المحطات الرئيسية التي كانت القوافل تتوقف عندها، وأشرنا إلي ما كان في أسواقها من سلع. ولم نصف الطريق بالذات، وما كان يلقاه أولئك الذين يجتازون الصحاري من متاعب وصعوبات؛ إذ إن الأمر يطول. ولكننا رأينا أن ننقل هنا مسيرة ابن بطوطة في رحلته في تلك الأصقاع؛ لأنها تعطينا صورة واضحة. صحيح أن ابن بطوطة قطع الصحراء سنة 753 هـ/ 1352م، وهي سنة متأخرة بالنسبة لحدود الموضوع الزمنية. ولكن المؤكد أن الطرق والصحاري لم تتغير بين الزمنين.

يقول الرحالة: إنه قام بالرحلة لإشباع رغبته في التعرف إلي تلك المناطق. لكن الحقيقة هو أنه قطع هذه الفيافي بطلب من السلطان المريني ابن عنان (749 – 759هـ/ 1348 – 1358م) سلطان المغرب؛ أملا في أن يتمكن من التعرف على المصدر الأصلي للذهب والتبر الذي كان يحمل من مالي إلي المغرب.

انطلق ابن بطوطة من سجلماسة، نقطة انطلاق القوافل ، حيث قضى أربعة أشهر يعلف الجمال التي ابتاعها في المدينة ؛ وذلك استعداداً للرحلة.

وكانت محطته التالية تغازى، يقول الرحالة "من تغازى : يرفع الماء لدخول صحراء لا ماء فيها لعشرة أيام " وبعد الأيام العشرة وصلت القافلة إلي تاسَرَهْلا ، حيث ارتوى القوم من مائها وأصلحوا أسقيتهم (الجلدية) وملؤوها بالماء، وخاطوا عليها التلاليس ، وهي أوعية من الخوص، خوف الريح.

وكان رجال القافلة يعنون في اجتيازهم الصحراء التكشيف "والتكشيف اسم لكل رجل يكتريه أهل القافلة فيتقدم إلي أيلولاتن [ولاطة] يكتب المسافرون إلي أصحابهم بها ليكتروا لهم الدور ، ويخرجوا للقائهم بالماء مسيرة أربع [قبل ولاطة] ومن لم يكن له صاحب في تلك المدينة، كتب إلي من شُهر بالفضل من تجارها، فيشاركه في ذلك. وربما هلك التكشيف في هذه الصحراء، فلا يعلم أهل ولاطة بالقافلة، فيهلك أهلها أو الكثير منهم... والدليل هناك من كثر تردده، وكان له قلب ذكي. ورأيت من العجائب أن الدليل الذي كان لنا أعور العين الواحدة مريض الثانية ، وهو أعرف بالطرق" وكان حظ قافلة ابن بطوطة جيدا . فقد دفعوا للتكشيف مائة مثقال من الذهب، لكنهم كوفئوا، إذ إنهم في اليوم السابع راوا نيران الذين خرجوا من ولاطة للقائهم، ويقول رحالتنا : إن هذه الصحراء كثيرة البقر الوحشية والحيات ووصلت القافلة ولاطة بعد شهرين من الخروج من سجلماسة. وولاطة كانت أول عمالة السودان. ويضيف "ولما وصلناها جعل التجار أمتعتهم في رحبة وتكفل السودان بحمايتها".

من ولاطة سافر ابن بطوطة إلي مالي، وذلك لمقابلة سلطانها في مهمة لأبي عنان. يقول: ولما عزمت السفر إلي مالي وبينها وبين ولاطة مسيرة أربعة وعشرين يوما للجد، اكتريت دليلا من [قبيلة] مسّوفة... وخرجت في ثلاثة من أصحابي. وتلك الطريق كثيرة الأشجار، وأشجارها ضخمة... وبعض تلك الأشجار قد استأسن داخلها واستنقع فيها ماء... ويشرب الناس منه. ويكون في بعضها النحل والعسل.

بعد ولاطة كان سير القافلة في طريق غابات وأشجار. ولا مسافر في هذه البلاد لا يحمل زادا ولا ماء ولا ادامًا ولا دينارا ولا درهما، وغنما يحمل قطع الملح وحلي الزجاج وبعض السلع العطرية، وأكثر ما يعجبهم منها القرنفل والمصطيكي. فإذا وصل قرية نساء السودان باللبن والدجاج ودقيق النبق والأرز ودقيق اللوبياء، فيشتري منهم أحب من ذلك " بما كان يحمله.

لما وصل ابن بطوطة إلي مكان يبعد نحو عشرة أميال من مالي، يقول "وعادتهم أن يمنع الناس من دخولها إلا بالإذن ، وكنت كتبت قبل ذلك لجماعة البيض [تجار غرباء مقيمون]

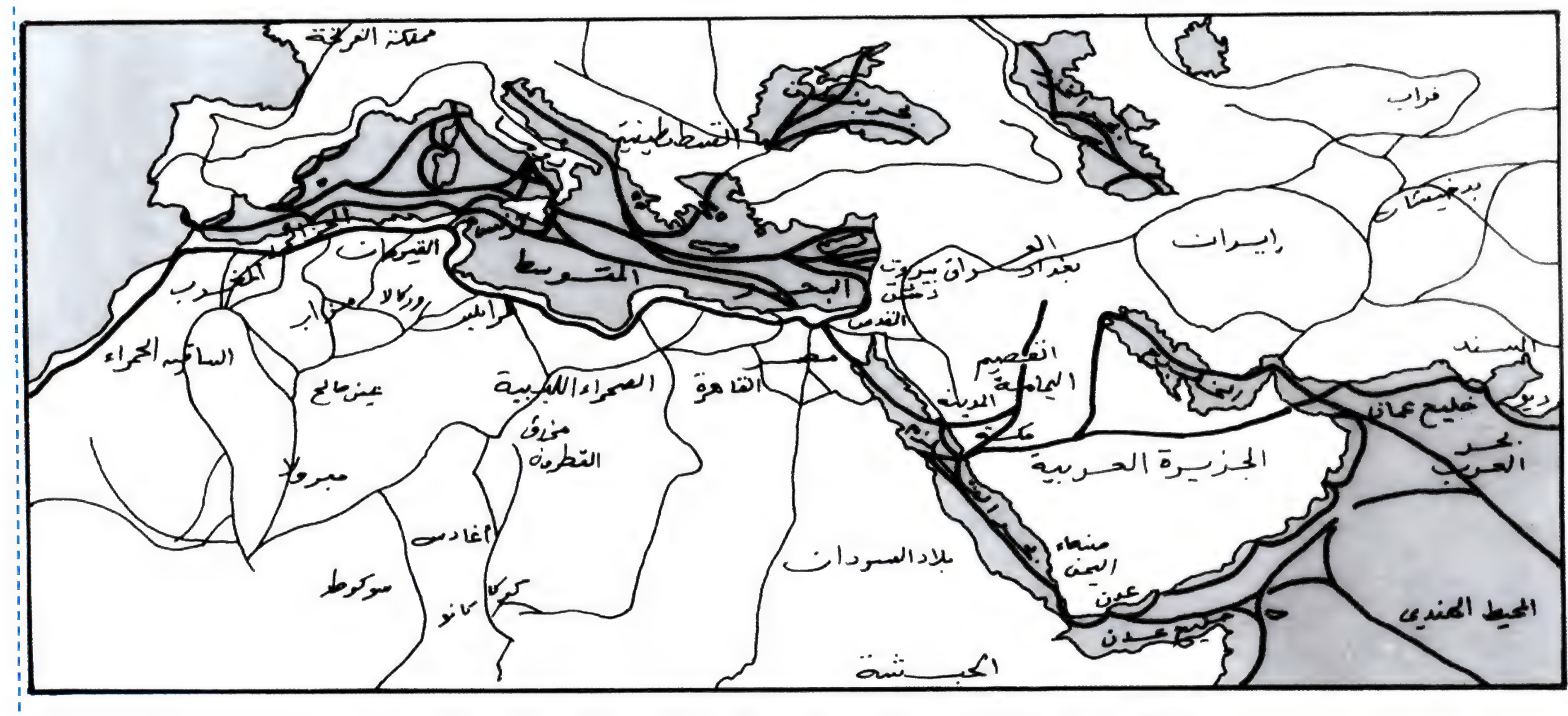
ليكتروا لي دارا، فلما وصلت النهر جـــزت في المعدية ، ولم يمنعني أحد.

من مالي انحدر ابن بطوطة مع نهر النيجر إلي ميمة تنبكتو، ويقول "ومن تنبكتو ركبت النيل في مركب صغير منحوت من خشبة واحدة. وكنا نترل كل ليلة بالقرى فنشتري ما نحتاج إليه من الطعام والسمن والملح، بالعطريات وبحلى الزجاج... ثم سرت إلي مدينة كوكو (وقد مر بنا ذكرها من قبل) ... ثم وصلنا إلي بلاد بردامة وهي قبيلة من البربر، لا تسير القوافل إلا في خفارتهم ... (ثم) وصلنا إلي مدينة تَكدّا ... وديار تكدّا مبنية بالحجارة الحمر وماؤها يجري في معادن النحاس... ولا زرع بها إلا يسير من القمح يأكله التجار والغرباء ... ولا شغل لأهل تكدّا غير التجارة. يسافرون كل عام إلي مصر ، ويجلبون من كل ما بها من حسان الثياب وسواها... ومعدن النحاس بخارج تكدّا يحفرون عليه في الأرض ، ويأتون به إلي البلد ، فيسكبوه في دورهم. يفعل ذلك عبيدهم وخدمهم، فإذا سبكوه نحاسا أحمر صنعوا منه قضبانا... وهي صرفهم يشترون برقاقه اللحم والحطب ، ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح. ويحمل النحاس منها [تكدّا] إلي مدينة كوبر ... ومدينة برنو على مسيرة أربعين يوما من تكدّا".

من تكدّا عاد ابن بطوطة (تلبية لأمر مستعجل من السلطان) ، فاشترى جملين لركوبه، وقصد السفر إلي توّات ورفع زاد سبعين ليلة، إذ لا يوجد طعام بين تكدّا وتوّات، وغنما يوجد اللحم واللبن والسمن، يشترى بالأثواب.

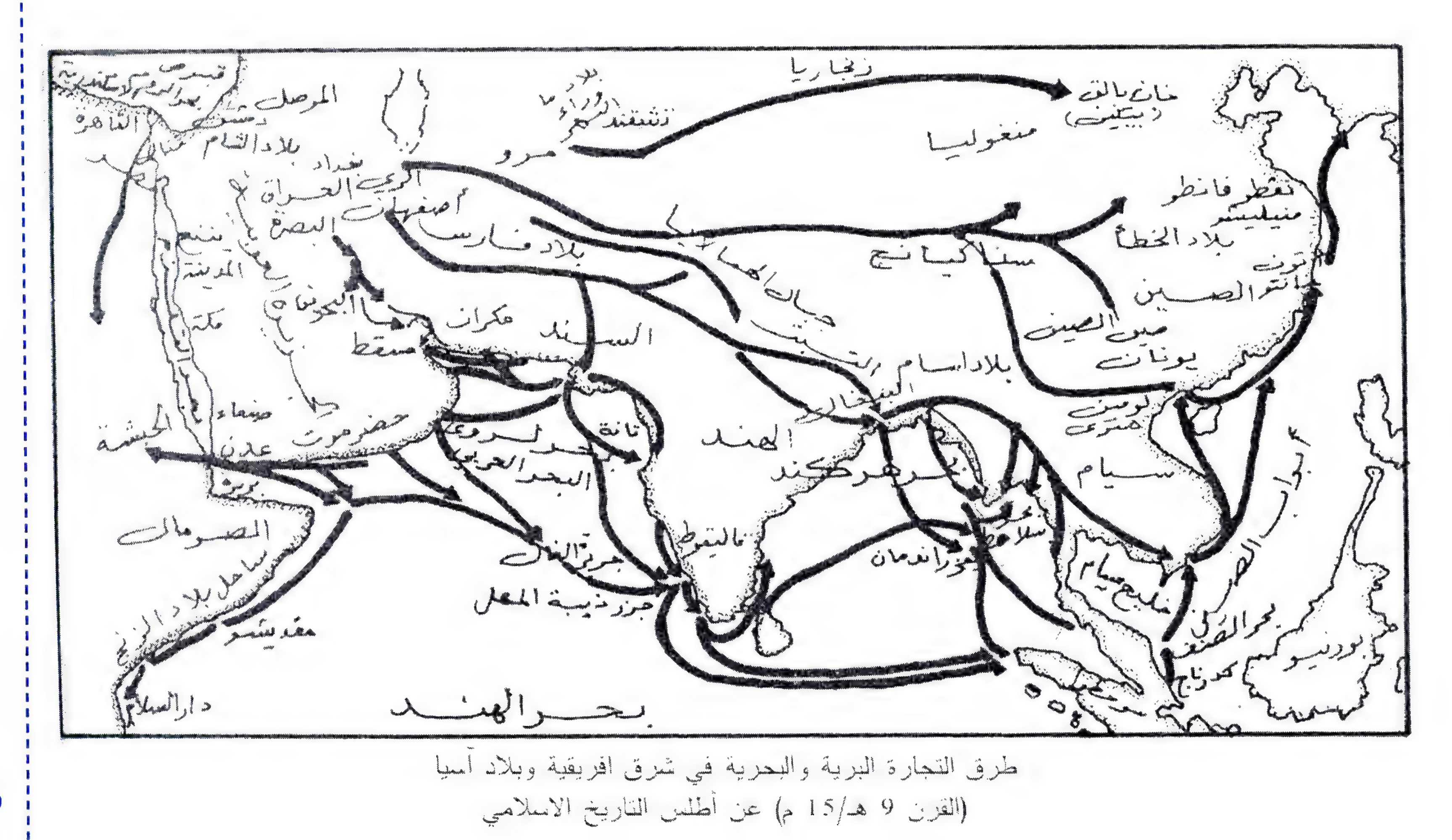
ومن كاهر (؟) دخل ابن بطوطة إلي برية لا عمارة فيها ولا ماء ، ثلاثة أيام ثم علا برية لمدة خمسة عشر يوما لا عمارة فيها لكن فيها مـــاء. "ووصلنا إلي الموضع الذي يفترق فيه طريق غات الآخذ إلي مصر وطريق توات ... وســـرنا مـــن هناك عشرة أيام إلي بلاد هكـــار [طائفـــة مـــن البربر] وهم لا يغيرون في شـــهر رمـــضان، ولا يعترضون القوافـــل" ومـــن تـــوات عـــاد إلي سجلماسة.

أ.د. نيقولا زيادة
(الجامعة الأمريكية ـــ بيروت)

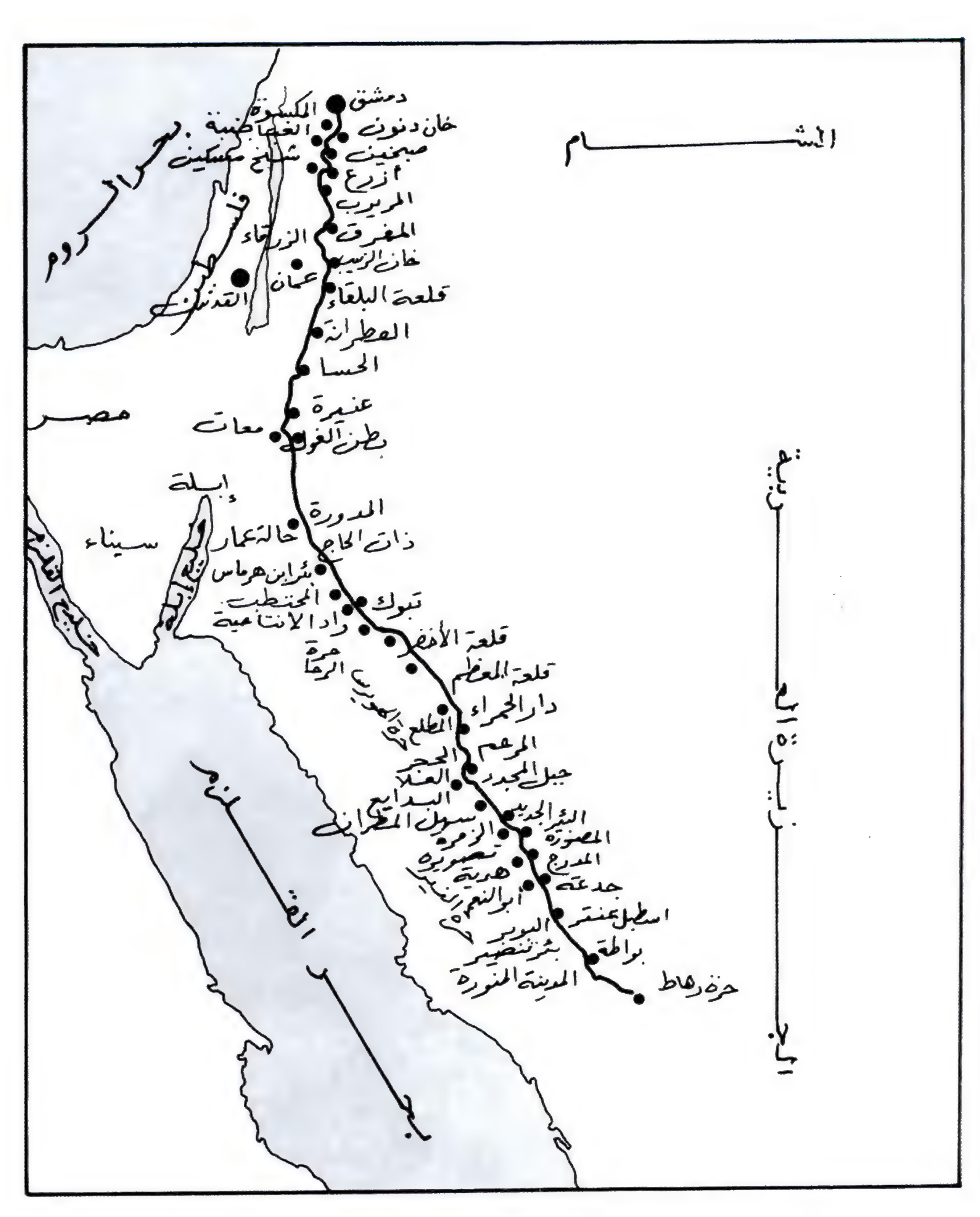


خريطة اقتصادية للعالم الاسلامي في القرون الوسطى (الطرق البحرية والبرية الرئيسية للتجارة)
عن أطلس التاريخ الاسلامي

المصدر: الفن العربي الإسلامي جـ 1، ص 104



طرق التجارة البرية والبحرية في شرق افريقية وبلاد آسيا
(القرن 9 هـ/15 م) عن أطلس التاريخ الاسلامي

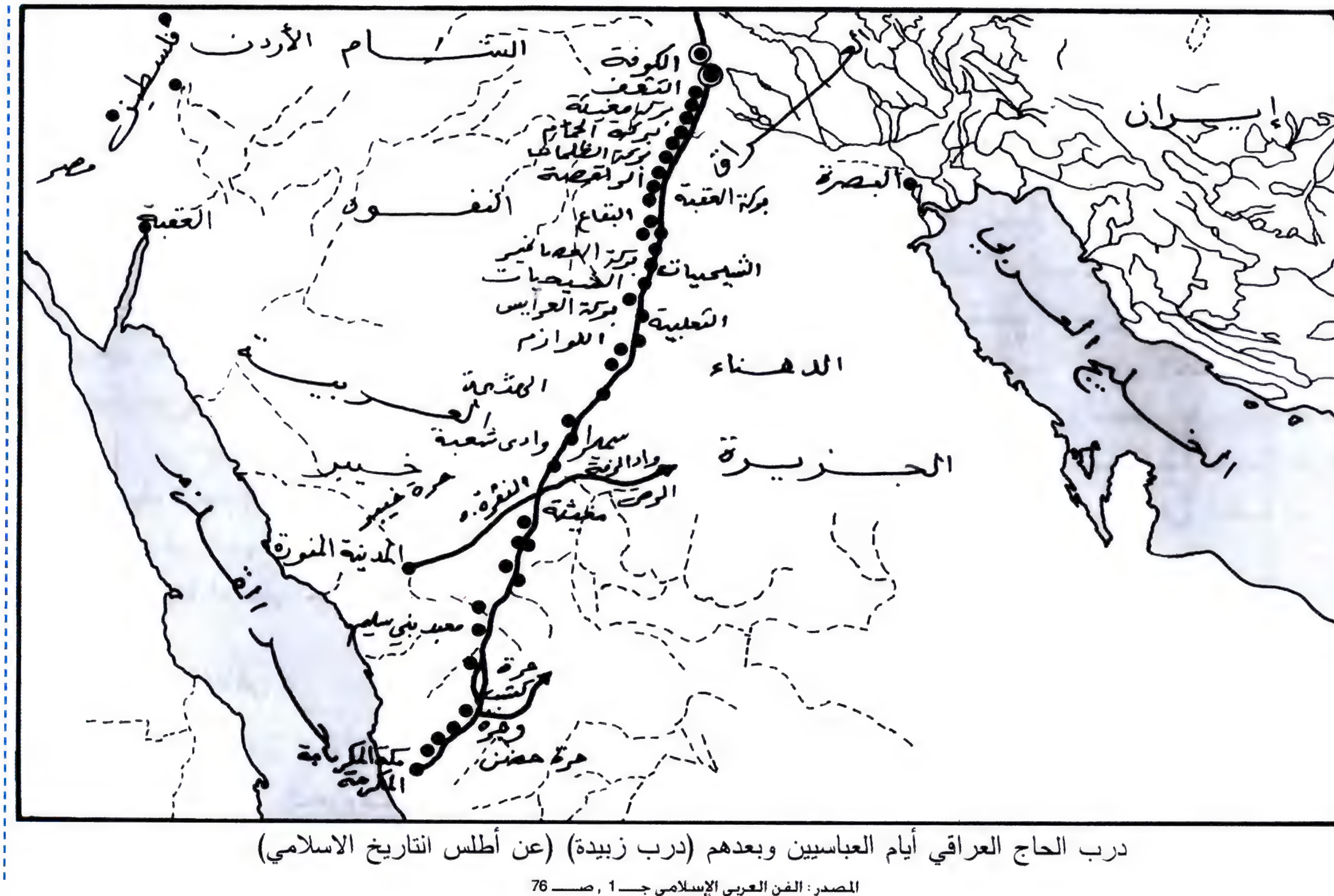


درب الحاج الشامي أيام العباسيين وبعدهم (عن أطلس التاريخ الاسلامي).

المصدر: الفن العربي الإسلامي جـ1، صـ73

درب الحاج المصري أيام العباسيين وبعدهم (عن أطلس التاريخ الاسلامي).

المصدر : الفن العربى الإسلامى جـ 1 ، صـ 74



درب الحاج العراقي أيام العباسيين وبعدهم (درب زبيدة) (عن أطلس انتاريخ الاسلامي)

المصدر: الفن العربى الإسلامى جـ 1 , صـ 76



خارطة توضح مسار طرق الحج فى الجزيرة العربية نقلا عن (سعد الراشد)



بركة العمياء : واحدة من برك درب زبيدة بمنطقة الحدود الشمالية ــ المملكة العربية السعودية.



آثار طريق التجارة والحج الداخلي من صنعاء إلى مكة (منطقة الباحة)
المملكة العربية السعودية.

1 ـ المصادر والمراجع

1- المصادر

- **ابن بطوطة** ، شرف الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله ت 777هـ/1375م
1874 – 1879 تحفة النظار في غرائب الأسفار، باريس .

- **ابن حوقل،** محمد بن حوقل البغدادي ت 380 هـ /990م
1936 صورة الأرض ، بيروت مصورة عن طبعة كرامرز الثانية، ليدن.

- **ابن خرداذبة** ، أبو القاسم عبيد الله المتوفى في حدود 300 هـ/ 912م
1889 المسالك والممالك ، ليدن .

- **ابن سعيد،** أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي 685هـ/1286 م
1970 كتاب الجغرافية، تحقيق إسماعيل المغربي، بيروت، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع.

- **أبو الفداء** ، عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر ت 732هـ/1331م
1840 تقويم البلدان، ليدن.

- **الإصطخري،** ابن إسحق إبرهيم بن محمد الفارسي الإصطخري، المتوفى بعد سنة 340 هـ/ 951 م
1961م المسالك والممالك تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني ، القاهرة .

- **البكري،** أبو عبيد الله بن عبد العزيز ت 487هـ/1094م
1857 كتابه المسالك والممالك ، والذي بين أيدينا الجزء المسمى "المُغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب" تحقيق دوسلان ، الجزائر.

- **الحميري،** محمد بن عبد المنعم، ت 866هـ/ 1461م
1975 كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار تحقيق إحسان عباس ، بيروت.

- **قدامه بن جعفر،** المتوفى 320 هـ/ 931 م
1906 نبذ من كتاب الخراج وصناعة الكتابة، ليدن.

- **المقدسي،** أبو عبد الله محمد بن احمد المقدسي البشاري
1906 أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن .

- **ياقوت الحموي،** شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ت 626هـ/1229م
1956 معجم البلدان، بيروت.

2 ـ المراجع العربية:

- الجامعة الليبية (كلية الآداب، "ليبيا في التاريخ" (بني غازي، 1968).

- **أفروسيات**

2002 الأعمال الكاملة، بيروت، المجلد العشرون .

- **أفريقيات**

2002 الأعمال الكاملة ، بيروت ، المجلد السابع عشر .

- **كراتشوفسكي**، إغناطيوس

1961 الأدب الجغرافي العربي ، ترجمة صلاح الدين هاشم، القسم الأول، ط1، القاهرة .

3 ـ المراجع الأجنبية:

- **Abu –Nasr, Jamal M, A**

1971 History of al –Magrib.

- **Bosworth, E.C,**

1967 The Islamic Dynasties (Edinburgh,).

- **Briggs, Lioyd,**

1960 Tribes of the Sahara, Cambridge.

- **Davidson, Basil,**

1965 A History of West Africa, 1000 – 1800 , London.

- **Fernandez – asmeto Felipe,**

1991 Atlas of World Exploration, , London.

- **Hibbert, Christopher,**

1988 Africa Explored ,London.

- **Lombard, Maurice,**

1971 l'Islam dans sa première grandeur (VIIIe –XI° Siècle) Paris Flammarion, .

- **1974 Les Métaux dans ,**

l'ancien Monde du Ve au XI°siècle) Paris .

- **Miquel, André**

1967 La Géographie humaine du Monde musulman dans la littérature arabe des origines jusqu'au 11e siècle , Paris .

- **Norris, H.T,**

1980 The Arab Conquest of the Western Sahara , London .

- **Raven, Susan,**

1984 Rome in Africa, London.

- **Saad, Elias N,**

1983 Social History of Timbiktu

- L'architecture de la Mosquee Omeyyade al'occasion d'un livere de J. Sauvaget, Syria, Vol, XX V III, (1951).
- The Architecture of the Prophet's Holy Mosgue Al Madinah, Wrtten by members of a Committee Headed by Dr. Muhammed Kamal Ismail Edited by Salma Samar Damluji, Hazar, London, (1998).

2 ـ الرياضة وأنواع التسلية

ينطلق البحث من حقيقة أن العرب أمة حضارية ورقي عقلي حتى في عصرها الذي سبق ظهور الإسلام وقد تمثلت تلك الحضارة في البيان القولي (الشعر والخطابة) وما يصدر عنهم من حكمة ، وتفاعل مع الأمم الأخرى في ميادين المدينة وضروب الصراع مع الطبيعة التي صيرهم رجالاً أشداء يضرب المثل بفروسيتهم وشجاعتهم . وبعد أن أطل الإسلام بفجر عقيدة السماء تحرر العقل الإنساني من ضلال الجاهلية وامتدت له الآفاق في العمل والجهاد والبناء ، بدأ التحول الهائل في حياة الأمة ، فاتسعت رقعة الأقاليم التي أضاء فيها الإسلام نوره، وأخذت القرون من السنين تشهد حضارة كبيرة بلغت أوج ازدهارها في عصر بني العباس بعد أن تأسست على ما ترك الماضي من إرث متطور ومتجدد في عالم المعرفة، ومناهج التجريب والتأليف ، من غير أن يغفل الخلفاء والولاة وذوو الجاه والعلماء الحياة من جانبها الآخر، وهو ممارسة الرياضة وضروب التسلية في مختلف فنونها السائدة آنذاك ، ولاسيما في جانبها الترويحي الذي يمنح الوقت لراحة العقل ، ويقوي القلب والبدن ، ويمنح الجوارح دون أن يمس الشعائر الدينية أو الأخلاق . إن حضارتنا العربية لجديرة أن تسجل أرفع سفر متطور في عالم التمدن الحضاري للأمة في ظل القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، ألا وهي الرياضة وضروب التسلية الترويحية والألعاب المنظمة التي كانت معيناً من ذلك التطور، حتى ورد من هذه الميادين الرياضية والترويحية في كتب ومصنفات مازالت موئل الباحثين في دراساتهم.

وتقوم منهجية البحث في إطاره النظري على استقراء حقائق التاريخ في تدوين أهم أنواع الرياضة وضروب التسلية التي كان لها حضور مميز في عصر أوج ازدهار الحضارة العربية الإسلامية ، وتحليل أهداف تلك النشاطات في تلك الحقبة وذكر أشهر من زاولها من الخلفاء والخاصة والعامة من الناس . وتقوم آلية البحث على عرض موجز مكثف لكل محور يذكر، موثق من حقائق التاريخ المشرقة ، ثم نقوم بالوصف والتحليل وصولا إلي النتائج المتوخاة من البحث.

1. أنواع الرياضة:

– سباق الخيل والفروسية :

سباق الخيل والفروسية صنوان يقوم بعضهما على بعض، وإن اختلفا في الممارسة والقيم . ولأهميتهما معاً اعتنى بنو العباس من الخلفاء والأمراء والأشراف عناية خاصة بتربية الخيل والسباق ، بها وابتنوا لها الحلبات في مختلف حواضرهم ، وعقدوا لها الاحتفالات الكبيرة التي يحضرها بشغف أولو الأمر وعامة الناس بقصد التسلية حتى أصبحت هواية الجميع، وكذلك الفروسية التي كانت مطمح الشباب؛ إذ تستهوي قلوبهم وتجلب الأنظار إليهم، لما فيها من ألوان الشجاعة بركوب الخيل والكر والفر بها، وفي استخدام السلاح ، مثل الضرب بالسيف والمهارة الفردية بالرمي عن القوس بالنبل والطعن

بالرماح، ومن مظاهرها أنها كانت لها متطلبات وتقاليد خاصة بها يقوم عليها الفرسان . ولم تخرج غاياتها عن التسلية البريئة التي تستهوي الخاصة والعامة من الناس .

وتنافس الخلفاء والوزراء في تربية خيل السباق، وقد أباح الفقهاء هذا اللون من الرياضة الترويحية، على أن لا يكون وسيلة للحصول على المال، وكانت لهم ميادين كبيرة في الرقة والشماسية والكرخ وبغداد. فكان الخليفة أبو العباس عبد الله السفاح ابن محمد يجري سباق الخيل في المدائن.

وكان الخلفاء العباسيون يدربون أولادهم منذ صغرهم على ركوب الخيل وألعاب الفروسية على أيدي جماعة من نوابغ الفرسان الذين كانوا يقومون بتدريب أبناء الأمراء والقواد؛ فبنى الخليفة المنصور لابنه المهدي ميداناً للفروسية في جانب الرصافة سنة (151هـ / 768م)؛ قال الطبري : (إن المهدي لما قدم من خراسان أمره المنصور بالمقام بالجانب الشرقي، وبنى له الرصافة، وعمل لها سورا" وخندقا" وميدانا" وبستانا") . وفي سنة (147هـ / 764م) أجرى المنصور الخيل في رصافة الكوفة ، قال الطبري: " فشخص المنصور حتى صار بظهر الكوفة في موضع يدعى الرصافة ، فأقام بها أياماً، فأجرى هناك الخيل". وفي سنة (157هـ /773م) أقام المنصور أول استعراض عسكري لجيشه بالخيل والسلاح بحضور خاصته، إذ وصف الطبري العرض قائلاً : "عرض المنصور جنده في السلاح والخيل على عينه في مجلس اتخذه على شط دجلة دون قطربل، وأمر أهل بيته وقرابته وصحابته يومئذ بلبس السلاح، وخرج هو وهو لابس درعاً وقلنسوة تحت البيضة سوداء لاطئة مصرية". فكان الخليفة المهدي من أشد الخلفاء رغبة في تثقيف بنيه ثقافة عسكرية رياضية، وأكثرهم رغبة في تقوية أجسامهم وتدريبهم على المتاعب والمخاطر، وتهيئتهم لتحمل أعباء الإمارة والملك، وكل ما يقتضيه ذلك العهد من أسفار وغزو وجهاد. وشجع المهدي أولاده ــ ومنهم هارون الرشيد ــ على مزاولة الفروسية وركوب الخيل واختار المشرفين عليهم اختياراً متقناً، كما شجع ابنته (البانوقة) على ركوب الخيل وكانت تصحب أبيها في أسفاره وهي صبية.

فكان الخليفة هارون الرشيد يمارس الرياضة على أنواعها. ولاسيما ركوب الخيل وألعاب الفروسية حيث مهر بها. فكان فارساً يحسن الطراد على الخيل إلي حد الإعجاب، وله في الفروسية ألعاب كثيرة يمارسها في أوقات فراغه، كطعن الأهداف وضرب الأشباح المنصوبة بالسيف، وهو على صهوة جواده منطلقاً بأقصى سرعته ، ورمي الجريد ، والتصويب بالسهام ، وله في كل هذه الألعاب مسابقات يعقدها بنفسه مع مشاهير قواد جيشه وأمراء آل بيته، فيغلبهم ويغلبونه . وكانت له حقول وإسطبلات لتوليد عتاق الخيل وتربيتها وتمرينها، ولديه من جيادها عدد كبير جداً، خصصت لها الحقول الخضراء، وميادين للسباق في الكرخ

والرصافة وفي الرقة حيث يقضي فصل الصيف. وكان يجريها مع خيول الأمراء والوزراء والقواد، ويخصص لها الجوائز الضخمة ، ويحضر سباقاتها بنفسه... ويشرف على العناية بخيله عدد كبير من أمهر الأخصائيين العرب وقد بلغ عددهم المئات ، ولهم بيت مال خاص يصرف على رواتبهم وجوائزهم، ولهم أيضاً رؤساء بلغوا مكانة اجتماعية بين رجال حاشيته وفي مقدمتهم (ذفافة العنسي) ويدعى: (صاحب خيل هارون الرشيد) .

فقد أجرى الرشيد الخيل يوماً بالرقة، فلما أرسلت صار إلي مجلسه في صدر الميدان، حيث توافى إليه الخيل، فوقف على فرسه، وكان أوائلها سوابق من خيله، يقدمها فرسان في عناق واحد لا يتقدم أحدهما صاحبه فتأملها فقال: فرسي والله، ثم تأمل الآخر فقال: فرس ابني المأمون، قال: فجاءا يحتكمان أمام الخيل، وكان فرسه السابق وفرس المأمون الثانية ، فسر بذلك.

وحكى أن هارون الرشيد ركب في سنة (185هـ/ 801م) إلي الميدان لشهود الحَلْبة، قال الأصمعيّ : فدخلت الميدان لشهودها فيمن شهد من خواص أمير المؤمنين ، والحلبة يومئذ أفراس للرشيد ولولديه الأمين والمأمون ولسليمان بن أبي جعفر المنصور ولعيسى بن جعفر، فجاء فرس أدهم يقال لهُ : الربيذ ، لهارون الرشيد سابقة ؛ فُسّر به الرشيد وابتهج لذلك إبتهاجاً، علم ذلك في وجهه، وقال : على بالأصمعي، فنوديت من كل جانب، فأقبلت سريعاً حتى مثلت بين يديه؛ فقال: يا أصمعي، خذ بناصية "الربيذ"، ثم صفه من قونسه إلي سُنْبُكه، فإنه يقال : إن فيه عشرين اسما من أسماء الطير؛ فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، وأُنشدك شعرا جامعا لها من قول أبي حزرة؛ قال: فأنشدنا، لله أبوك فأنشدته.

قال الأصمعي: فأمر لي بعشرة آلاف درهم. وكان الرشيد يحب سماع صفات الخيل إذ "قال أبا عثمان المازني سمعت ابو عبيدة يقول: أدخلت على الرشيد فقال لي يا معمر ؛ بلغني أن عندك كتاباً حسنا في صفة الخيل أحب

أن أسمعه منك، فقال الأصمعي وما تصنع بالكتاب يحضر فرس ونضع أيدينا على عضو عضو منه، ونسميه ونذكر ما فيه، فقال الرشيد: يا غلام أحضر فرسي، فقام الأصمعي فوضع يده على عضو وجعل يقول: هذا كذا قال الشاعر فيه كذا، حتى انقضى قوله، فقال لي الرشيد: ما تقول فيما قال: قلت: قد أصاب في بعض وأخطأ في بعض، والذي أصاب فيه مني تعلمه، والذي أخطأ فيه لا أدري من أين أتى به ".

وكان الخليفة هارون الرشيد يطلب من الشعراء أن يقولوا شعراً في حق خيوله الفائزة، فقد روى الأصفهاني عن ابن الأعرابي قال: أجرى هارون الرشيد الخيل ، فجاءه فرس يقال له : المشمر ، سابقاً ، وكان الرشيد معجبا بذلك الفرس ، فأمر الشعراء أن يقولوا فيه ؛ فبدرهم أبو العتاهية فقال :

جاء المشمر والأفراس يقدمها
هوناً على رسله منها وما انبهرا

وخلف الريح حسرى وهي جاهدة
ومر يختطف الأبصار والنظرا

فأجزل صلته، وما جسر أحد بعد أبي العتاهية أن يقول فيه شيئاً.

وقد شيد الخليفة محمد الأمين في بغداد ميداناً للفروسية، في اليوم الثاني من بيعته، قال الطبري:(لما أفضت الخلافة إلي محمد، وهدأ الناس ببغداد، أصبح صبيحة السبت بعد بيعته بيوم، فأمر ببناء ميدان حول قصر أبي جعفر في المدينة للصوالجة واللعب).

وشيد الخليفة المأمون ــ عندما انتقل إلي القصر الجعفري ــ ميداناً لركض الخيل واللعب بالصوالجة وحيرا لجميع الوحوش . وكان من أحب المواقع إليه وأشهاها لديه.

كما بنى المأمون منظرة الحلبة وهي: موضع مشرف ينظر منه، وهي منظرة محكمة البنيات في وسط السوق في آخر محلة المأمونية ببغداد قرب الحلبة.

ومن شدة شغف العباسيين بحلبات السباق أطلقوا اسم (باب الحلبة) على أحد أبواب سور بغداد الشرقية الأربعة ، كان يؤدي إلي حلبة سباق الخيل.

وشيد الخلفاء دار الخيل، وهي من دور الخلافة المعظمة ببغداد، كانت داراً عظيمة الأرجاء، لها صحن عظيم، ألف ذراع في ألف ذراع. كان يوقف فيها في الأعياد وعند ورود الرسل من البلاد ، في كل جانب منها خمسمائة فرس بالمراكب الذهب والفضة، كل فرس منهم على يد شاكري.

وغلب على الخليفة المعتصم وابنه المتوكل على الله حب الفروسية والأعتناء بسباق الخيل، وقد شيدا في عهديهما في سامراء ساحات للفروسية وعدد من حلبات سباق الخيل، فريدة في تصميمها ذات أشكال هندسية ومعمارية تعد آية في الجمال والروعة كشفتها التنقيبات الأثرية التي قامت بها دائرة الآثار العامة في السنوات (1354- 1358هـ / 1936 - 1940م). فقد أظهرت الصور الجوية وغيرها وجود ثلاث حلبات لسباق الخيل في سُرَّ مَنْ رَأَى، فضلاً عن ساحة ألعاب في قصر الخليفة أو دار الخليفة، منها ثلاثة متجاورة ومتصلة بالقصر وهي حلبة تل العليق وحلبة ذات الدوائر الأربع، وحلبة تل البنات، وحلبة رابعة في مدينة المتوكلية.

حلبة بيت الخليفة :

أنشئت هذه الحلبة مع تشييد القصر في زمن المعتصم ، وذلك عندما بنى مدينة سامراء (221 هـ/ 863م) فكانت أقدم الحلبات، تقع عند منتهى قصر الخليفة من جهته الشرقية، وقوامها حلقة بيضوية الشكل، تمتد من الغرب إلي الشرق. جهتها الضيقة من عند القصر، ثم تأخذ بالتوسع التدريجي على طول الحلقة حتى يبلغ أقصاه عند الرأس الثاني شرقاً. وتمتد هذه الحلبة طولاً إلي مسافة خمسة كيلومترات ونصف،

ويبلغ طول محيطها حوالي أحد عشر كيلومتراً ونصف.

حلبة تل العليق :

وقد أنشئت هذه الحلبة في عهد الخليفة المتوكل. وتبدأ عند تل العليق الذي يقع إلي شمال قصر المعتصم ويرتفع هذا التل بحيث يشرف على مدينة سامراء كلها. والتل اصطناعي على شكل مخروط ناقص. وتمتد هذه الحلبة إلي الجنوب مخترقة في امتدادها الرأس الغربي لحلبة قصر الخليفة حتى تنتهي قرب المسجد الجامع الكبير والملوية. ولم يبق من معالم هذه الحلبة إلاّ الجانب الشرقي الذي يمتد مسافة خمسة كيلومترات تقريباً حيث ينتهي أمام المسجد الجامع الكبير من جهة الشرق. أما الطرف الغربي منها فقد محت معالمها حلبة ذات الأربع حلقات التي تقع فيه تماماً. ومن الجدير بالذكر أن قصراً صغيراً أو داراً للاستراحة قد أقيم فوق تل العليق، وذلك لتأمين تمتع الخليفة ورجال حاشيته بسباق الخيل من محل مرتفع يمتد فيه البصر إلي أقصى حد الحلبة فيساعد على تتبع حركات الخيول في هذه المسافة الطويلة .

حلبة ذات الدوائر الأربع :

وتقع شمال المسجد الجامع الذي شيده المتوكل على الله، وقد صممت على شكل هندسي مبتكر بديع، يعد إنجازاً هندسياً رائعاً وفريداً، قد أنشئت على عهد الخليفة المتوكل بعد أن هجرت حلبة تل العليق، يتكون شكلها من حيث الأساس من التقاء أربعة أطواق، أو أربع حلقات (دوائر) متماسكة، تتصل كلها بمربع كبير مركزي، وتتألف كل حلقة من هذه الحلقات الأربع من طوقين متوازيين يدوران بهذا الشكل الجميل تاركين بينهما مسافة (80) ثمانين متراً، وهذه الأطواق تلتوي حول المربع المركزي أربع مرات (مرة واحدة في كل دائرة) دون تقاطع. أما المربع المركزي فقوامه دكة أو مسطبة، كانت بلا شك الموضع المعد لجلوس الخليفة وحاشيته عند السباق. كان طول الدورة الكاملة في كل دائرة من الدوائر الأربع المتماسكة المتتالية يزيد على خمسة كيلومترات بقليل، في حين أن البعد الأعظم للخيل عن الدكة المركزية ستمائة متر. وهكذا يستطيع المتسابقون أن يقطعوا هذه المسافة البالغة خمسة كيلومترات دون أن يبتعدوا عن المتفرجين ومتابعي السباق بما يزيد عن ستمائة متر في أكثر الأحوال.

حلبة تل البنات :

وتقع إلي الشمال الشرقي من أطلال المدينة المتوكلية الواقعة على بعد (20) عشرين كيلومتراً شمال مدينة سامراء الحالية. وكان الخليفة المتوكل قد ابتدأ بعمارتها سنة (245هـ/ 859م) وأتمها بنهاية سنة (246 هـ/ 861م)، أي في مدة تقل عن العامين . وقد دفن فيها بعد مقتله عام (247هـ/ 861م). وكان المتوكل ينوي نقل حلبة السباق في سامراء إلي هذا المكان، على أن يكون تل البنات– الواقع على مسافة أقل من كيلومترين من مدينة الدور الحالية– الموقع الذي

يشرف منه عليها. وتم العثور على بقايا أبنية فوق تل البنات، كما هو الحال في تل العليق. ربما كانت مقصورة معدة لجلوس الخليفة وحاشيته .

وشغف الخليفة المتقي بالله بن المقتدر بسماع أخبار صفات الخيل عند العرب، وأخبار الخيل وحَلَبها ، ومراتب الخيل فيها ، وما قيل في سباق الخيل من جميل الشعر. أما أخبار حلبة الخيل فقد ذكرها المسعودي في سِفْرِه مروج الذهب.

كانت العرب ترسل خيلها عشرة عشرة أو أسفل والقصب تسعة، ولا يدخل الحجرة المحجورة من الخيل إلاّ ثمانية، وهذه أسماؤها :

الأول السابق : وهو المُجَلّى، قال أبو الهندام كلاب : إنما سمي المجلى ؛ لأنه جَلّىَ عن صاحبه ما كان فيه من الكرب والشدة، وقال الفراء : إنما سمي المجلى، لأنه جَلّىِّ عن وجه صاحبه .

والثاني المُصَلّىِّ : لأنه وضع جحفلته على قطاة المجلى، وهي صَلاَه، والصلا: عَجَبُ الذنب بعينه.

والثالث المُسَلّى: لأنه كان شريكاً في السبق، وكانت العرب تعد من كل ما تختار ثلاثة، أو لأنه سَلَّى عن صاحبه بعض همه بالسبق .

والرابع التالي: سمي بذلك ؛ لأنه تلا هذا المسلى في حال دون غيره.

وهو المفتعل ، من الراحة ، لأن في الراحة خمس أصابع لا يعد منها غيرهن ، وإذا أومأت العرب من العدد إلي خمس فتح الذي يُومِيء بها يده وفرق أصابعه الخمس ، وذلك أيضاً ما يومئون به من غير عقد الحساب، ثم يكون بعدها إلي أن تكون عشرة فيفتح الذي يومِيء بها يديه جميعاً، ويقابل خمس الأصابع بالخمس، فلما كان الخامس مثل خامسة الأصابع وهي الخنصر سمي مرتاحاً .

وسمي السادس حَظِيّا: لأنه له حظاً، وقيل: لأن رسول الله (ﷺ) أعطى السادس (قضيبه) وهي آخر حظوظ خيل الحلبة ، غير أنه له حظ .

وسمي السابع العاطف: لدخوله الحجرة، لأنه قد عطف بشيء وإن قل وحسن إذا كان قد دخل الحجرة المحجورة .

والثامن المُؤَمِّل : وسمي الثامن المؤمل على القلب والتفاؤل، كما سموا الفَلاَة مَفَازة واللَّديغَ سليما، وكَنَّوْا الحبشي أبا البيضاء، ونحو ذلك، فكذلك سموا الخائب المؤمل، أي أنه يؤمل وإن كان خائباً؛ لأنه قرب من ذوات الحظوظ بعد .

والتاسع اللَّطِيم : لأنه لو رام الحجرة لَلُطِمَ دونها؛ لأنه أعظم جرماً من السابع والثامن .

والعاشر السِّكِّيت : لأن صاحبه يعلوه خشوع وذلة ويسكت حزناً وغماً.

وتأثر ولاة الأمصار العربية بالفروسية وفنون العمارة والخطط التي تميزت بها مدينة سامراء، لاسيما فن تشييد حلبات السباق، وميدان الفروسية تأثراً كبيراً، فعملوا على حذوها، والأخذ من طابعها المعماري والهندسي، ومن أبرزها وأشهرها ميدان ابن طولون، وميادين الإخشيد ، وميدان الحكم في الأندلس.

ويقول متز: وكان سباق الخيل كثيراً في مصر ، وبلغ من شغف الناس به وتقديرهم له أن السابق يأخذ حصان السبوق وذلك عام (190هـ/806م). وشغف أحمد بن طولون (254- 270هـ/ 868 - 884م) بتشييد ميادين الفروسية ، وذكر المؤرخون : " أن أحمد بن طولون قد بنى قصراً كبيراً وجعل له ميداناً كبيراً، يضرب به بالصولجان، فسمي القصر كله الميدان، وكان كل من أراد الخروج من صغير وكبير إذا سئل عن ذهابه يقول: إلي الميدان، وعمل للميدان أبواباً لكل باب اسم وهي : باب الميدان ومنه كان يدخل ويخرج معظم الجيش ، وباب الصوالجة ، وباب الخاصة ولا يدخل منه إلاّ خاصة ابن طولون. وكانت الأبواب تفتح كلها في يوم العيد أو يوم عرض الجيش أو يوم صدقة. وكان القصر له مجلس يشرف منه ابن طولون يوم العرض ويوم الصدقة لينظر من أعلاه من يدخل ويخرج . وكان الناس يدخلون من باب الصوالجة ويخرجون من باب السباع "

وشيّد ابن طولون مكاناً لعرض الخيل في الميدان ، سماه (المنظر) . وقد وصف القضاعي المؤرخ والفقيه هذا العرض فقال : "وكان أحمد بن طولون بنى المنظر لعرض الخيل. قال: وكان عرض الخيل من عجائب الإسلام الأربع، والأربع العجائب: منها كان عرض الخيل بمصر، ورمضان بمكة، والعيد بطرسوس، والجمعة ببغداد. ثم قال القضاعي: وقد ذهب اثنتان من الأربع عرض الخيل بمصر، والعيد بطرسوس".

وأنشأ خمارويه بن أحمد بن طولون (270 - 282هـ / 884 - 895م) حلبة سباق الخيل ، وإسطبلات تنتج فيها الخيل لحلبة السباق، وكانت حلبة سباق الخيل في أيامه تعد بمثابة الأعياد . فقد جاء في خطط المقريزي: " وكانت حلبة السباق في أيامه تقوم عند الناس مقام الأعياد؛ لكثرة الزينة وركوب سائر الغلمان والعساكر على كثرتهم بالسلاح التام والعدد الكاملة ، فيجلس الناس لمشاهدة ذلك ، كما يجلسون في الأعياد، وتطلق الخيل من غايتها فتمر متفارقة يقدم بعضها بعضاً حتى تتم السبق.

وشرع الإخشيد في سنة (324هـ/ 935م) في إجراء حلبة السباق على رسم أحمد بن طولون، وكما شيّد ميدان الإخشيد سنة(360هـ/ 970م)، وكان هذا الميدان من أعظم أماكن مصر، وكانت فيه الخيول السلطانية في الدولة الإخشيدية . وسار على نهج ابن طولون السلاطين والملوك في مصر والشام والأندلس ، في إقامة ميادين الفروسية التي ذكرها المقريزي في خططه.

- الصيد والقنص:

ويُعّد الصيد والقنص أحبَّ ضروب الترويح عند الخلفاء والأمراء، والولاة وعامة الشعب ومن أحب ألوان التسلية عندهم . واهتم بنو العباس بالصيد والقنص عندما رسخت أقدامهم في الحكم ، وتفننوا في تربية الجوارح والكلاب والفهود ، وغالوا في اقتنائها ، وبذلوا

الأموال الطائلة في تربيتها ، واقتنائها ، وأقاموا عليها أناساً ينظرون في شؤونها ، ومنهم البيازرة ، مثل الصقار والكلاّب والفهّاد والفيّال والعُقّبان (لصاحب الصقر والكلب والفهد والفيل والعقاب) . " حتى أصبحت البيزرة في الدولة العربية العباسية من مقوماتها ، تنفق عليها من بيت المال كما ينفق في غيرها من القوى والأوضاع". ورسم العباسيون تربية الجوارح في الأعطيات والفرائض ، كما كانت لهم دواوين للمنجمين والفلكيين ، واقتدت دولة العبيديين الفاطمية بالدولة العباسية في باب العناية بالطيور وصيدها بالجوارح وما يصلحها، وعلى أثرها سارت الدول الخالفة.

وتسابق الشعراء إلي وصف تلك الجوارح وحركاتها وسرعتها وخصالها ، وأجزل الخلفاء العطاء الكثير للشعراء . ودون العلماء أصول الصيد وفنونه وأساليبه في مخطوطات عديدة . وكان علماء اللغة سابقين في تدوين أسماء الطيور والجوارح وأصناف الحيوان وطبعها وحسن الانتفاع بها. وفي الدولة العباسية كان الصيد ــ كما كان في العصور السابقة ــ أحب ضروب اللهو عند الخلفاء والأمراء وكان العباسيون يصيدون السباع والخنازير البرية ، فضلاً عن الغزلان والطيور وحمر الوحش ونحوها. وقد شغف هؤلاء الخلفاء بالصيد ، وتأنقوا في إعداد العدة له ، وقلدهم في ذلك الأمراء حتى إنهم أخذوا يصنعون نصال سهامهم من الذهب . كما عنوا باستخدام الصقر والباز في الصيد ، وعنوا بتربية الكلاب السريعة العدو ، ووكلوا لكل كلب شخصا" يقوم بتربيته .

فكان الخليفة أبو العباس السفاح شديد اللهج بالصيد ناشئاً ومكتهلاً ، ومن أخباره أنه خرج يوما" متنزها" نحو الخورنق في يوم من أيام الربيع ، ومعه عدد كبير من أهل بيته ، وجماعة من خاصته ومواليه ، فبُسط له هناك ،ودعا بغذائه وحضر مائدته عمومته وأبو جعفر المنصور [ابن الحسين "1952" 41] . وكان يلبي حاجات المغرمين بالصيد. وكان الخليفة أبو جعفر عبد الله المنصور محباً للصيد كَلفاً به، حتى إنه كان يقرب من كل مغرم بهذه الرياضة وكل محب لها، وكان المنصور داعياً للصيد مشجعاً له " فقد كان يركب فرسه المشهرة وعلى يده بازيّ حتى عبر الجسر باديا ، وانكفأ فعبر الآخر راجعاً ، وتبينه الناس فلما عاد واستقر به مجلسه قال للربيع : ماقال الناس في ركوب أمير المؤمنين على هذا الحال؟ قال : عجبوا منها ، قال : إنه كان لأمير المؤمنين في ذلك مذهب ، وهو أنه سيأتي من أبنائنا من يحب الصيد ويبتذل فيه ، فأحببت أن يكون مني ما رأيت فمتى فعل مثله منا فاعل بعدي قال الناس : قد ركب المنصور على مثل هذه الصورة ".

وكان الخليفة المهدي هو الآخر مشغوفاً بالصيد لا يكاد يغبه، إذ كانت رياضته المفضلة، وقد خرج المهدي ذات مرة يتصيد، (فغار به فرسه حتى وقع في خباء أعرابي).

وقد حرص المهدي على القيام برحلات منظمة بصحبة فرسان يتقلدون السيوف، ويتبعهم طائفة الجند والغلمان والشعراء ، وكان الخليفة يسير محاذياً نهر دجلة ؛ ارتياداً للخضرة التي تجنح إليها الطيور ، وتسرح فيها الغزلان، فقد "خرج المهدي وعلي بن سليمان إلي الصيد، فسنح لهما قطيع من ظباء، فأرسلت الكلاب وأجريت الخيل، ورمى المهدي سهماً فأصاب ظبياً، ورمى على بن سليمان فأصاب بعض الكلاب فقتله، فقال أبو دلامة :

قد رمى المهدي ظبياً
شك بالسهم فؤادَهْ
وعليّ بن سليما
نَ رمى كلباً فصاده
فهنيئاً لهما كُلْ
لُ امرىء يأكل زاده

فضحك المهدي حتى كاد يسقط عن سرجه، وقال : صدق والله أبو دلامة، وأمر له بجائزة سنية، فلقب على بن سليمان بعد ذلك: صائد الكلب، فغلب عليه ".

وأصاب المهدي الجوع في أثناء رحلات الصيد، فقد ذكر الطبري : "خرج المهدي متنزهاً ومعه عمر بن بزيع مولاه، قال : فانقطعنا عن العسكر والناس في الصيد ، فأصاب المهدي الجوع ... ". وتروي إحدى الروايات بأن المهدي مات في أثناء رحلة صيد ، ومما أورده أيضاً الطبري : "بأن المهدي خرج يتصيد بقرية يقال لها: الرذ بماسيذان ... طردت الكلاب ظبيا"، فلم يزل يتبعها، فاقتحم الظبي باب خربة... فدق ظهره باب الخربة، فمات من ساعته".

وشغف الخليفة هارون الرشيد بن المهدي بالصيد وأحبه، وكان يرتاح له إذا حضره ارتياحاً شديداً، حتى تحمله الأريحية على ركض فرسه، والشد في أثر الطريدة. وكان يتعشق الصيد على أنواعه، فلم يترك فراغاً في وقته في مواسم الطرد والقنص إلاّ آستغله من أجل نزهته ولهوه، ولصيد الخليفة مواسم معينة في الخريف والربيع. فإذا وجد متسعاً في وقته لهذه الرياضة، صدر أمره إلي حاجبه بذلك، فيخرج هذا إلي الفهادين والبيازرة وأصحاب الكلاب السلوقية والصقور وسائر خدمة الصيد والقنص، فيأمرهم بالخروج إلي أرض (دجيل). وكانت لهم رسوم وطرق في خروجهم إلي ذلك المكان، يعرفونها ولا يحتاجون فيها إلي ترتيب أو تدريب. حتى إذا تم كل شيء يلزم لهذه الرياضة من الوسائل الضرورية، ومن الطعام والشراب ولوازم الراحة، أوعز إلي الخدم بأن يقصدوا الأرض التي اختارها أمير المؤمنين لصيده، وقد يكون الصيد في المواطن النائية عن العاصمة، فيكون السفر إليها طويلاً يستغرق عدة أيام. أما إذا كان قريباً في أرض مخصصة مهيأة لهذه الرياضة، فلا تستغرق الحملة أكثر من يوم واحد، وفي الأخبار: أنه كان الرشيد، قرب بغداد على نهر الفرات أو دجلة، قطع من الأرض مساحة، الواحدة منها عدة فراسخ في مثلها، قد أحاطوا بعض جهاتها بسور في نصف دائرة بين

الأعمدة المنصوبة، وقد شد بعضها إلي بعض بالأمراس والأسلاك بشكل سور منيع. وكانت عادتهم في الصيد هنا أن يطاردوا الحيوانات التي يريدون صيدها نحو ذلك السور، فيضربون حولها حلقة من الجهة المفتوحة ويطاردونها بخيولهم وفهودهم وكلابهم، وهي تفر أمامهم بين الأعشاب والأدغال، فلا يزالون يضايقونها ويحيدونها، حتى تدخل وراء السور، ولا يكون لها بعد ذلك مجال للخروج منه. فإذا انحصرت في ذلك الموضع أقبل الخليفة ومن معه من الخاصة، وتأنقوا في القتل، فيقتلون ما يقتلون، ويطلقون الباقي. ويستعمل الخليفة في الصيد الثياب المتينة الواسعة ، لتساعده على الرياضة وركوب الخيل والطرد وراء الفريسة. وكان الخليفة هارون الرشيد يخرج إلي الصيد ببلاد الموصل، وعلى يده باز أبيض. وكان هارون الرشيد يتقبل الهدايا من الملوك ، فقد ذكر الطبري : أن ملك الروم نقفور في سنة (190هـ/ 805م) أهدى إلي الرشيد " اثنى عشر بازاً ، وأربعة أكلب من كلاب الصيد وثلاثة برإذين"].

وكان الخليفة محمد الأمين في نهاية الشدة والقوة والبطش وأشد انهماكاً في الصيد وأحرص عليه من كل من تقدمه . وأكثر طرد أبي نـؤاس معمول في جوارح محمد وضواريه مثل قوله :

فأمتع الله به الأميرا
ربي ولا زال به مسرورا

وكان له ميل كبير إلي صيد السباع يصطادها له جماعة يعرفون بأصحاب اللبابيد.

وولع الخليفة المأمون بالصيد، فضلاً عن شغفه بالعلم والعلماء والكتاب، وذكر الأصفهاني: "أن المأمون ركب بدمشق يتصيدُ حتى بلغ جبل الثلج " وبصحبته المغنون.

وكان الخليفة المعتصم بالله أكثرهم محالفة للصيد ، وأخفهم فيه ركاباً ؛ لتوفر همته على الفروسية وما شاكلها وألهج الخلفاء بالصيد ، محبة له وتأنقاً. ومن فوائد رحلات صيده أنه اختار موقع مدينته سامراء ، فقد ذكر المسعودي : أن المعتصم كان في رحلة صيد ، فانتهى إلي موضع يعرف بسامرا " فنظر المعتصم إلي فضاء واسع تسافر فيه الأبصار ، وهواء طيب ، وأرض صحيحة ، فاستمرأها واستطاب هواءها ، وأقام هناك ثلاثا يتصيد في كل يوم ، فوجد نفسه تتوق إلي الغذاء ، وتطلب الزيادة على العادة الجارية ، فعلم أن ذلك لتأثير الهواء والتربة والماء ، فلما استطاب الموضع دعا بأهل الموضع ، فاشترى منهم أرضهم بأربعة آلاف دينار، ومن شدة شغفه بالصيد أنه بنى في أرض الدجيل، بين (بلد وسامراء) جداراً على شكل حدوة الفرس يلمس طرفاه نهر دجلة لحصر الصيد فيه ، وهذا الحائط طوله فراسخ عديدة، وكان إذا ضرب حلقة يضايقونها ، ولا يزال يحدون الصيد حتى يدخلوه وراء ذلك الحائط ، فيصير بين الحائط ودجلة، فلا يكون للصيد مجال، فإذا انحصر في ذلك الموضع دخل هو وولده وأقاربه وخواص حاشيته، وتأنقوا في القتل وتفرجوا، فقتلوا ما

قتلوا ، وأطلقوا الباقي. وقيل : إن المعتصم دوخ عدة من حمر الوحوش وأطلقها".

وكان بقصر الخليفة المعتصم مكان يحفظ به الحيوانات ، وهو يسمى (حير الوحوش). وبلغ من اهتمام المعتصم بالصيد حداً كبيراً ، بأن زين مرافق قصر (الجوسق) في سامراء بصور القنص، وهو تسلية الخلفاء، في منظر يمثل مقتل ظبي على يد قانصه . كما زينوا الجرار الفخارية الطويلة المستعملة في حفظ شراب النبيذ برسوم منقوشة على هذه الجرار تمثل موضوعات ذات علاقة وثقى بالقصر، فهي تتألف من نسوة غانيات وصيادين، وضباط عسكرين، فالصياد يرتدي ملابس ثقيلة، ويحمل غزالاً على كتفيه. وشغف الخليفة المعتصم بصيد الفهود .

ثم كان للخليفة المتوكل على الله متصيد خاص، به يمارس عملية الصيد فيه. "ومما يذكر بهذا الصدد أن نفقات الكلابزيين والبازدارة والفهادين في دور الخليفة المتوكل بلغت خمسمائة ألف درهم في السنة".

وكان الخليفة المعتز بالله يتصيد مع الفضل بن العباس بن المأمون في دير مرماري جنوب سامراء بقليل، وكان يتردد عليه باستمرار مدة حياته .

ثم كان الخليفة المعتضد بالله كالمعتصم في أكثر أموره ومآربه وأشبه به من سائر أهل بيته وبنيه من الخلفاء لمباشرة الحرب والصيد وما شبهما، ولم يكن ينفك من حرب إلاّ إلي صيد، ولا من صيد إلاّ إلي حرب، وكان يخرج لصيد الأسد، فيخيم عليها حتى لا يبقى منها باقية ، وكان يقدم على الأسد وحده لشجاعته.

ولم يتأخر الخليفة المكتفي بالله عن مذهبه في الصيد ، إلاّ أنه كان أكثر ما يدمنه الصيد بالفهد والعقاب ، وهما سبع الضواري والجوارح ، وقد ذكر كشاجم أنه كان "يباشر ذلك بنفسه ويمتهنها فيه ، لشدة الشغف به والارتياح إليه ، أخبرني بذلك شهرام ، وكان خصيصاً به لمعرفته بالصيد، وحسن الدراية فيه. وأخبرني بمثله أبو بكر محمد بن يحي الصولي. وأخبرني من رآه بظاهر أنطاكية مُنْصَرَفَهُ مع المعتضد عند أخذه وصيفاً الخادم والفهدُ رديفه، وقد التمسه أهلها، للسلام عليه بعد تسليمهم على أبيه، فوجدوه على تلك الحال غير محتشم منها، وانصرفت عنايته إلي الخيل، وكان جمعها واقتناؤها ومداومة ركوبها أكبر همه ولذته. ولم يشغف بالصيد ذلك الشغف. ووصف المكتفي يوم صيده بكثرة وحشه وضراوة فهوده: "فمضى يومنا بين فهود لا تشبع، وضباء لا تجزع".

أما الخليفة المتقي بالله ، فكان يخرج إلي الشماسية بجوار بغداد لصيد السباع .

ولم تقتصر رياضة الصيد على الخلفاء وكبار رجال الدولة ، وإنما زاولته عامة الشعب، فكانوا يخرجون إلي الصيد ، وأسلحتهم في ذلك متنوعة بحسب الحيوانات التي يودون صيدها، فإن كانوا قد خرجوا لصيد الطيور فإنهم يحملون معهم قسي البندق، وكانوا يصطادون الطيور بقوس البندق. أما إذا خرجوا لصيد الأسود فإن

أسلحتهم في ذلك لا بد أن تكون النبال بدلاً من قسي البندق، أما مناطق صيد الأسود فكانت قريبة من بغداد يخرج إليها ، شباب كل محلة وحدهم فإذا اصطادوا أسداً طافوا به على كل بقية محال بغداد؛ ليتبجحوا بذلك ويظهروا فروسيتهم وشجاعتهم، ومن الجدير بالذكر القول بأن صيد الأسود قرب بغداد قد استمر حتى العصر الحديث، كما أثبته العلامة أحمد سوسة في الفيضانات وغرق بغداد .

وشغف سلاطين الدول الإسلامية التي أقيمت بالأطراف وولايتها برياضة الصيد . وولع أحمد بن طولون بالصيد ، وذكر صاحب "النجوم الزاهرة" قوله: " ولما كان في بعض الأيام ركب يوماً ليتصيد بمصر، فغاصت قوائم فرسه في الرمل، فأمر بكشف ذلك الموضع ، فظفر بمطلب فيه ألف ألف دينار، فأنفقها في أبواب البر والصدقات".

وفي رواية أخرى : " ثم ركب أحمد بن طولون للصيد، فلما سار في البرية انخسفت الأرض برجل فرس بعض أصحابه في قبر وسط الرمل، فوقف أحمد بن طولون عليه وكشفه، فوجد مطلباً واسعاً، فأمر بحمله فحمل منه من المال ما قيمته ألف ألف دينار.

وشغف خمارويه بن أحمد بن طولون بالصيد شغفاً شديداً، " وكان يتقلد في يوم الصيد سيفاً بحمائل ، ولا يزال يتـفرج ويتنزه ، ويخرج إلي المواضع التي لم يكن أبوه يخرج إليها كالأهرام ومدينة العقاب ونحو ذلك لأجل الصيد؛ فإنه كان مشغوفاً به، لا يكاد يسمع بسبع إلاّ قصده ، ومعه رجال عليهم لبود فيدخلون إلي الأسد ، ويتناولونهم بأيديهم من غابته عنوة وهو سليم، فيضعونه في قفص من خشب محكم الصنعة تسع الواحد من السباع وهو قائم ، فإذا قدم خمارويه من الصيد سار القفص، وفيه السبع بين يديه ".

وكان والي مصر العزيز بالله الفاطمي (365-386هـ/975 - 996م) كخمارويه بن أحمد بن طولون، مغرماً أيضاً بالصيد ، إذ روى ابن تغري بردي أنه : " وكان مُغْرّي بالصيد ، وكان يتصيد السباع ، وكان أديباً فاضلاً " ["د.ت" 113/4] ، وولع بعض الفاطميين بالصيد، وكان الحاكم بأمر الله الفاطمي (386- 411هـ/ 996 - 1021م) يتصيد في دير نَهيَـا بالجيزة . ويُعدّ دير نَهيَـا من أحسن الديارات في مصر وأنزهها وأطيبها موضعاً وأجلها موقعاً ، وله في النيل منظر عجيب؛ لأن الماء يحيط به من جميع جهاته، فإذا انصرف الماء وزرع أظهرت أراضيه أنواع الأزهار، وله خليج يجتمع فيه أنواع الطيور، فهو متصيَّد أيضاً، بصحبة مواكبه وعساكره، فأنشأ فيه منظرة عالية، وصار في كل يوم يتردد ويضيفه الرهبان، وجعل لهم في كل ركبة يطرق الدير فيها ألف درهم، فحصل لهم من ذلك خمسة وعشرون ألف درهم ورقاً صحاحاً.

- لعبـة رمـي البنـدق :

شاعت لعبة رمي البندق في العصر العباسي، وبالغ الخلفاء العباسيون بالاهتمام بها،

وتولوا رعايتها بأنفسهم حتى أضحى لها شأن عظيم في أرجاء الدولة العباسية . فكان للخليفة هارون الرشيد فرقة ترمي البندق يقال لها: " النمل " تسير بين يديه، وترمي البندق على من يقف في طريق موكبه . فقد روى الأصفهاني في كتابه الأغاني ، قال : " لمّا ورد الرشيد الرقة خرج يوسف بن الصيقل ، وكمن له في نهر جاف على طريقه ، وكان لهارون خدم صغار ، يسميهم النمل يتقدمونه ، بأيديهم قسيّ البندق ، يرمون بها من يعارضه في طريقه ، فلم يتحرك يوسف ، حتى وافته قُبة هارون على ناقة ، فوثب إليه يوسف ، وأقبل الخدم الصغار يرمونه ، فصاح بهم الرشيد : كُفُّوا عنه ، فَكَفَّوا ، وصاح به يوسف يقول :

أغيثاً تحمل الناقة أم تحمل هرونا
أم الشـمسُ أم البـدرُ
أم الدنيـا أم الدّينـا

فمد الرشيد يده ، وقال له : مرحباً بك يا يوسف، كيف كنت بعدي ؟ أدْنُ مني، فدنا، وأمر له بفرس، فركبه وسار إلي جانب قبته ينشده، ويحدثه، والرشيد يضحك، وكان طيب الحديث، ثم أمر له بمال".

وفي زمن الخليفة العباسي المعتضد بالله زاول الصيد كبار رجال الدولة، فقد روى صاحب المصايد والمطارد فقال: "وأخبرني ابن لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وكان صاحب شرطة بغداد وأمير خراسان عن عبد العزيز بن عبد الله قال: حضرت ــ مع أبي عبيد الله وأخي محمد ، وكان أيضاً صاحب شرطة بغداد وأبي العميثل ــ الصيد بالجلاهق ، فطارت خنشارة فرماها محمد فأصابها، فقال وكان لا يكاد يشعر بين يدي أبيه : كأنه حين أصاب أخطأ! ، فقال أبو العميثل وأومأ إلي محمد : أشبه أباه فما أخطأ. والرماة يتولفون الطير بعد أن يعلموا أن قد قطعت ويستدلون على ذلك بقطيع الرحمة ، لأنها تكون أول طالعة عليهم، ومن صفاتها أنها تقطع في أول القواطع ، وترجع في أول الرواجع ".

وكان رماة البندق من العرب في العصر العباسي طائفة كبيرة ،يخرجون إلي ضواحي المدن، يتسابقون في رميه على الطير ونحوه ، ويعدون ذلك من قبيل الفتوة . ويغلب في رماة البندق أن يشتغلوا بتطيير الحمام ، ولهم زي خاص، يمتاز بسراويل كانوا يلبسونها ويسمونها سراويل الفتوة، يساعدهم على سرعة الحركة، وركوب الخيل بيسر وسهولة.

– المصارعة:

وفي الدولة العباسية عظم شأن المصارعة، واهتم الخلفاء بها اهتماماً كبيراً ، وذلك يدل على أهميته. وكانت ميادين الصراع منتشرة بكل زمان، وزاولها الشباب بجد وشوق، حتى إنها أصبحت من الحرف والمهن التي كانت تزاول في العصر العباسي، فالتاريخ يحدثنا عن أناس اتخذوا من المصارعة مهنة لهم.

وشجع الخلفاء العباسيون على التدريب على لعبة المصارعة وتعاطيها ، فالخليفة المهدي بن المنصور كان يشجع الصراع ويعطي توجيهاته

وإرشاداته: قال المهدي لعبد الله بن مالك : صارع مولاي هذا، فصارعه فأخذ بعنقه، فقال المهدي: شُدَّ، فلما رأى ذلك عبد الله أخذ برجله فسقط على رأسه فصرعه.

أما الخليفة محمد الأمين فقد صارع أسداً فقتله ، فكان من أحسن الشباب، أبيض، طويلاً جميلاً، ذا قوة مفرطة ، وبطش وشجاعة معروفة ، يقال : إنه قتل مرة أسداً بيده. وكان الخليفة المعتضد بالله " أيضاً مغرماً بفن المصارعة، متمكناً منها ذا قوة خارقة يتغلب على البشر والحيوانات القوية ".

وكان أحمد بن بويه الذي قلده الخليفة المستكفي الإمارة ، وخلع عليه، ولقَّبه معزّ الدولة في سنة (334هـ /946م) يكرم الرياضيين ، ويشجع على مزاولة المصارعة وتعلمها ، فقد "أغرى المصارعين والسباحين ، فانهمك شباب بغداد في تعلم المصارعة". فعمّ لعب المصارعة أرجاء بغداد ، فصار في كل موضوع صراع ؛ إذ يحدثنا ابن الجوزي بأن معز الدولة كان يجري سباقات المصارعة ، ويشتهي مشاهدة نزالات المصارعة، ويكرم الفائزين . قائلاً :

واشتهى معزّ الدولة رؤية الصراع، فكان يعمل بحضرته حلقة في ميدان، فتقام شجرة تنصب في الحال، ويجعل عليها الثياب الديباج والعنابي والمروزي، وتحتها أكياس فيها دراهم، ويجمع على سور الميدان المخانيث بالطبول والزمور، وعلى باب الميدان الدبادب، ويؤذن للعامة في دخول الميدان ، فمن غلب أخذ الثياب والشجرة والدراهم، ثم دخل في ذلك أحداث بغداد ، فصار في كل موضع صراع فإذا برع أحدهم صارع بحضرة معزّ الدولة فإن غلب أجريت عليه الجرايات، فكم من عين ذهبت بلطمة ، وكم من رجل اندقت .

- السباحة:

تُعَدُّ السباحة في العصر العباسي من أهم أنواع التسلية عند العباسيين. فكان الأولاد يقضون أوقات فراغهم قرب النهر للسباحة. فشغف بها الناس شغفاً شديداً، وأقبلوا على إتقان مهارتها وفنونها بشوق كبير، وأحدثوا فيها الطرائف. وكانت تجري سباقات للسباحة في نهر دجلة يحضرها أركان الدولة والناس وتخصص جوائز للفائزين تشجيعاً لهم.

وقد شيد الخلفاء العباسيين بركاً للسباحة في قصورهم ، تعد آية من آيات الفن المعماري ذو الذوق الهندسي الراقي سامي الجمال. فقد شيد الخليفة المتوكل على الله بركتين للسباحة في قصر الخليفة (بيت الخليفة) بسامراء، هما: البركة النهارية والبركة الليلية. وتستمدان المياه من القناة الرئيسة التي تجري تحت الأرض .

وشجع معزّ الدولة (334- 356هـ/ 946 - 966م) في عهد المستكفي بالله الشباب على مزاولة رياضة السباحة، وأغرى السباحين على إتقان فنونها وخططها، قال السيوطي: "وأغرى المصارعين والسباحين، فانهمك شباب بغداد في تعلم المصارعة والسباحة، حتى صار السباح يسبح وعلى يده كانون، وفوقه

فيسبح حتى ينضج اللحم". وشغف شبان معز الدولة برياضة السباحة، فتعاطاها أهل بغداد، حتى أحدثوا فيها الطرائف، فكان الشاب يسبح قائماً وعلى يديه كانون ، فوقه حطب يشتعل تحت القدر إلي أن ينضج، ثم يأكل منها إلي أن يصل دار السلطان.

- الكرة والصولجان :

لقد أجمع المؤرخون على أن رياضة الكرة والصولجان، أول من لعبها وشغف بها من المسلمين بنو العباس. واللعب بالصولجان هو: ضرب كرة من على ظهور الخيل. أما وصف ميدان اللعبة وقواعد اللعب بها فقد ذكرها ابن قتيبة في عيون الأخبار، قائلآ: " من إجادة الضرب بالصولجان أن يضرب الكرة قدما ضرب خلسة، يدير فيه إلي إذنه ويميل صولجانه إلي أسفل من صدره، ويكون ضربه متشازرا مترفقا مترسلا ولا يغفل الضرب ويرسل السنان خصوصاً وأنه الحامية لمجاز الكرة إلي غاية الغرض، ثم الجر للكرة من موقعها ، والتوخى للضرب لها تحت محزم الدابة، ومن قِبَلِ لَبَّتِها في رفق، وشدة المزاولة والمجاحشة على تلك الحال، والترك للاستعانة في ضرب الكرة بسوط، والتأثير في الأرض بصولجان، والكسر له جهلا باستعماله أو عقر قوائم الدابة، والاحتراس من إيذاء من جرى معه في ميدانه، وحسن الكف للدابة في شدة جريه، والتوقي من الصرعة والصدمة على تلك الحال، والمجانية للغضب والسب، والاحتمال والملاهاة، والتحفظ من إلقاء كرة على ظهر بيت وان كان ست كرين بدرهم، وترك طرد النظارة والجلوس على حيطان الميدان؛ فإن عرض الميدان إنما جعل ستون ذراعا ؛ لئلا يحال ولا يضار من جلس على حائطه ".

وشغف بمزاولة رياضة الكرة والصولجان الخلفاء والأمراء والسلاطين والملوك والوزراء والولاة والخاصة في العصر العباسي. وجاء في مآثر الإنافة في معالم الخلافة أن الخليفة أبا جعفر المنصور الثاني من خلفاء بني العباس : (هو أول من لعب بالصولجان في الإسلام). ولم أجد مرجعاً أو مصدراً تاريخياً يؤيد ذلك؛ إذ أجمعت الروايات التاريخية علي أن الخليفة هارون الرشيد كان أول خليفة عباسي لعب بالصولجان في الميدان ورمي بالنشاب في البرجاس، ولعب بالكرة والطبطاب وقرب الحذاق في ذلك، فعم الناس في ذلك الفعل، وأجرى عليهم الرزق، فسمى الناس أيامه ــ لنضارتها، وكثرة خيرها وخصبها ــ أيام العروس.

وذكر الجومرد قوله : وقد أحب الرشيد لعب الصولجان على الخيل ، فشجعها ولعبها مع زملائه وقواده وخاصته، وشكل لها فرقاً منهم يتميز بعضها عن بعض بالألوان، وجعل لها ميادين خاصة أنيقة، تحيطها مقاعد مريحة لجلوس المتفرجين ، ومن طرائف ما يحكى عن هذه اللعبة أن جعفراً البرمكي كان ينضمّ دائماً إلي أعضاء فرقة الخليفة، ولا يلعب ضده، فقال له الرشيد يوماً : كن يا جعفر مع الفرقة المقابلة، لتتزن القوى بيننا ، فرفض جعفر ، وقال : لا أكون

ضد أمير المؤمنين في جد ولا في لعب ، فأعجب بقوله.

اهتم الخليفة محمد الأمين بلعبة الكرة والصولجان اهتماماً كبيراً ، فأمر ببناء ميدان للعبة بعد بيعته بيوم ، فقد روى الطبري في تاريخه قائلاً: لما أفضت الخلافة إلي محمد ، وهدأ الناس ببغداد، أصبح صبيحة السبت بعد بيعته بيوم ، فأمر ببناء ميدان حول قصر أبي جعفر في المدينة للصوالجة واللعب ، فقال في ذلك شاعر من أهل بغداد :

بنى أمين الله ميدانـــا
وصير الســاحة بستانا
وكانت الغزلان فيه بانا
يهــدي إليه فيه غزلاناً

كان الأمين نازلاً في قصره بالخلد تحول إلي قصر أبي جعفر بالمدينة.

وشغف الخليفة المأمون بلعبة الكرة والصولجان ، فعمل ميداناً لها ، في القصر المأموني الذي كان يعرف بالقصر الجعفري . فقد جاء في معجم البلدان : " ثم انتقل القصر إلي المأمون، فقد كان من أحب المواضع إليه وأشهاها لديه، واقتطع جملة من البرية عملها ميداناً لركض الخيل واللعب بالصوالجة، وحيراً لجميع الوحوش، وفتح له باباً شرقياً إلي جانب البرية ، وأجرى فيه نهراً أساقه من نهر المُعلّى ".

وكان الخليفة المعتصم شديد الرغبة فيها، شيّد في سامراء الميادين للعب بها، وكان رياضياً مشهوراً قوي الجسم بشكل خارق، وقد وصفه أبو الكازروني في مؤلفه بأنه :" لم يكن في بني العباس أشجع منه، ولا أشد منه قلباً، ولا أتم تيقظاً في الحرب، وأنه اعتمد بأصبعيه السبابة والوسطى على ساعد إنسان فدقه. وكان يلوي العامود الحديد حتى يصير طوقاً، ويشد على الدينار بأصبعه فيمحو كتابته". وكان المعتصم يلعب الصولجان مع قادته ، ومن لطيف ما يحكى أنه قسم أصحابه يوماً للعب بها، فجعل الأفشين في جهة وهو في جهة ، فقال الأفشين : " يغضبني أمير المؤمنين من هذا" فقال: (ولم ؟) قال: " لأني ما أرى أن أكون على أمير المؤمنين في جد ولا هزل، فاستحسن ذلك منه وجعله في حزبه".

وكانت لّلاعبين ملابس خاصة باللعبــة، وبعد الانتهاء من لعبهم يدخلون الحمام الساخن ويدلكون . روى الطبري عن أبي الحسين إسحاق ابن إبراهيم : " دعاني أمير المؤمنين المعتصم يوما ، فدخلت عليه، وعليه صُدرة وشــي، ومنطقــة ذهب، وخف أحمر، فقال لي: يا إسحاق ؛ أحببت أن أضرب معك بالصوالجة ، فبحياتي عليــك إلا لبست مثل لباسي، فاستعفيته من ذلك، فــأبى، فلبست مثل لباسه، ثم قدم إليه فرس محلاة بحلية الذهب ، ودخلنا الميدان، فلما ضرب ساعة، قال لي: أراك كسلان، وأحسبك تكره هذا الــزي ؟ فقلت: هو ذاك ياأمير المؤمنين، فــنزل وأخــذ بيدي، ومضى يمشي وأنا معــه إلي أن صــار إلي حجرة الحمام ، ... ثم دخلنا أنا وهو الحمــام ، وليس معنا غلام، فقمت عليه، ودلكته وتولى أمير المؤمنين المعتصم مني مثل ذلك ...".

وولع الخلفاء وأولادهم ــ الذين تعاقبوا من بعد الخليفة المعتصم ــ بمزاولة لعبة الكرة والصولجان. وتوفي وزير الخليفة المعتمد في أثناء لعبه بالصوالجة ، قال صاحب النجوم الزاهرة: وفي سنة (263هـ/ 876م) توفي الوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان بن عرطوج أبو الحسين التركي، وسبب موته أنه دخل ميداناً في داره في يوم الجمعة لعشر خَلَوْنَ من ذي القعدة ؛ ليضرب الصوالجة ، وركب ولعث، فصدمه خادمه رشيق، فسقط عن دابته ميتاً.

وسار ولاة الدولة العباسية في الأمصار على نهج الخلفاء العباسيين بالاهتمام الكبير برياضة الكرة والصولجان، ومزاولتها بشغف شديد، وبصورة منتظمة، في ميادين خاصة ملحقة بقصورهم، تأنقوا في تشييدها تأنقاً زائداً.

وروى المؤرخون بأن أحمد بن طولون عندما تولى أمر مصر في عهد الخليفة العباسي المستعين، أمر ببناء قصر وميدان كبير للعبة الكرة والصولجان في القطائع بالفسطاط في مصر، حاذيا"حذو الخلفاء العباسيين ومتاثراً بالفن المعماري الرفيع السائد في تشييد القصور والميدان في مدينة سامراء التي نشأ بها وترعرع ، وكان أبوه طولون قائداً لحرس الخليفة العباسي المعتصم، ويعود لابن طولون الفضل الكبير في نشر هذه الرياضة في مصر والشام وغيرهما من الأمصار، التي خضعت لإدارة الدولة الطولونية فيما بعد، ممتدة من الفرات إلي المغرب العربي .

وبنى ابن طولون قصره ووسعه وحسنه، وجعل له ميداناً كبيراً يضرب فيه بالصوالجة، فسمي القصر كله الميدان. (وتأنق فيه تأنقاً زائداً) وكان يعرف باسم ميدان ابن طولون . وكان كل من أراد الخروج من صغير وكبير إذا سئل عن ذهابه يقول : إلي الميدان. وعمل للميدان أبوابا، لكل باب اسم ، وهي : باب الميدان ، ومنه كان يدخل ويخرج معظم الجيش، وباب الصوالجة، وباب الخاصة، ولا يدخل منه إلاّ خاصة ابن طولون .. وغيرها.

وكانت الأبواب المذكورة تفتح كلها يوم العيد أو يوم عرض الجيش أو يوم صدقة. وكان القصر له مجلس يشرف منه ابن طولون يوم العرض ويوم الصدقة ؛ لينظر من أعلاه من يدخل ويخرج، وكان الناس يدخلون من باب الصوالجة ويخرجون من باب السباع . وكان على الباب مجلس يشرف منه ابن طولون ليلة العيد على القطائع.

وتولى من بعد أحمد بن طولون أبناؤه وأحفاده، فَأَوْلَوْا الاهتمامَ ببناء ميادين للصوجلة اقتداءاً به. وقد ذكر المؤرخون قولهم : فلما مات أحمد بن طولون وقام من بعده ابنه خمارويه أقبل على عمارة قصر أبيه، وزاد فيه محاسن كثيرة، وأخذ الميدان الذي كان لأبيه، فجعله كله بستاناً، وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر. وبنى خمارويه ميداناً آخر أكبر من ميدان أبيه بالقرب من جامع أبيه .

- الطعن بالرماح :

استمر اللعب بالرماح في العصر العباسي، وزاول الناس من الخاصة والعامة اللعب بها. وبلغت لعبة الطعن بالرماح في عصر سلاطين المماليك في مصر والشام شأواً عظيماً ومنزلة رفيعة لا تضاهيها منزلة ؛ إذ عُدَّ اللعب بالرماح استعداداً للجهاد في سبيل الله تعالى ، وشغف بها سلاطين المماليك شغفاً شديداً وزاولوها بهمة عالية ، وبسرور عارم ، وحثوا الناس على إتقان مهاراتها وخططها، وعينوا متخصصين في التدريب والإشراف، وكانت السلاطين تخرج بمواكب رسمية للميادين للإشراف على اللعب، ومزاولتها بأنفسهم ومنح العطايا للمتميزين في الطعن بالرماح.

- سباق العَدْو:

وكانت رياضة الركض في العصر العباسي معروفة ، وموضع اهتمام خلفاء بني العباس؛ إذ أولى الخليفة المأمون رعايته لها ، فعمل ميداناً لركض الغلمان، ولرياضة الكرة والصولجان ، فقد جاء في وصف القصر المأموني ما ذكره المؤرخ تاج الدين ابن الساعي من قوله: "ذكر بعضهم أن هذا القصر صار إلي المأمون ، وكان من أكمل القصور ... وصار منزل صيده وقنصه ومحل نزهه وفرصه، واقتطع جملة من البرية ، فعملت ميداناً لركض الغلمان واللعب بالكرة والصولجان".

وظهر السعاة والعدّاءون في عصر الدولة العباسية في عهد الخليفة العباسي المطيع لله، وأول من أنشأ نظام السعاة في الدولة العباسية معز الدولة أبو الحسين أحمد بن بويه ، في بغداد لإعلام أخيه ركن الدولة أبي علي الحسن بفارس بالأخبار سريعاً ، وهو نظام أشبه ما يكون بدائرة الاتصالات، وكانت مهمة السعاة نقل الأخبار بسرعة فائقة بين أرجاء الدولة العباسية الشاسعة . وجاء في تاريخ التمدن الإسلامي : "ومن طرائق المخابرة بالبريد ــ غير نقل الخرائط على الدواب أو في البحار ــ إرسالها مع السعاة، وهم رجال خفاف تعودوا الجري والصبر على السير ثلاث مراحل في رحلة، وأهل البراري أنشط لذلك ــ وأول من أنشأ السعاة في الدولة العباسية معز الدولة، أنشأهم في بغداد لأعلام أخيه ركن الدولة بالأحوال سريعاً ، ونبغ في أيامه ساعيان، اسم أحدهما فضل والآخر مرعوش، فاقا سائر السعاة . وكان كل واحد منهما يسير في اليوم نيفا وأربعين فرسخاً، أي نحو **140** ميلاً، واتصل استخدام السعاة في سائر الدول الإسلامية.

- الألعاب الترويحية للصبيان :

كانت للألعاب الترويحية للصبيان في العصر العباسي أهمية كبيرة عند الأطفال والصبيان والشباب، إذ مارسوها في أوقات فراغهم للأستمتاع بها ، والترويح عن أنفسهم والتسلية ، واكتساب المهارة التي تعودهم على الألفة ، وتثير فيهم حوافز الاندفاع ، وتدخل إلي نفوسهم الرضا والراحة ، وتبعدهم عن المزالق التي يثيرها الفراغ، ويخلقها الملل القاتل . وكانت

الناشئة عند العرب تمارسها خلال العصور التاريخية المختلفة . وهي من الألعاب المتوارثة والشائعة ذات الصفة الشعبية . وهذه الألعاب هي عبارة عن ألعاب صغيرة يمارسها كلا الجنسين من الذكور الإناث ولمختلف الأعمار، وتكون متمشية مع تقاليد وعادات المجتمع، ومتفقة مع ميولهم ورغباقم وقابلياقم ، وتطبق علي حسب شروط وقوانين متعارف عليها لديهم. ولهذه الألعاب مواسم خاصة معينة تلائم فصول السنة . كانت تلك الألعاب سهلة التطبيق ميسرة للجميع لا تعقيد فيها ، محببة ومشوقة ومسلية لهم دون عناء ، فلقد كانت تمارس بوسائل بسيطة في كل وقت ومكان.

ومن أهم تلك الألعاب الترويحية التي زاولها الصبية والشبان في العصر العباسي هي : الأَسَنُ ، الأُل ، والبُحَّيثى ، والبُقَّيْرَى ، والبُكْسَة ، والبُوصاء، بيض ، والجُبَّاع ، والحَدَبْدَبَى ، والجعرَّى ، وجَبَّى جُعَل ، والجُمَّاح ، والجُنَابَاء ، والحَجُّورَة ، والحَزَز ، والحُزُقَّة ، والحكَّة ، والخُذْرُوف، وخَرَاج ، والمخْرَاق، والتَّدْبيح ، والدَّبُّوق ، والمدْحَاة ، والدِّرَكْلَة ، والدُسَّة ، والدَّغْلَجَة ، والدَّكر ، والدُّمَّة، الدُّوَّامَة ، والأُرْجُوحَة ، واليَرْمَع ، والزَّدْو ، والسُّدَّر ، وسَفْد واللّقَاح ، والأُسْلُوبة ، والشَّعَارير ، والشَّفَلَّقَة ، والضَّبَّطَة ، والطَّبَن ، والطَّث ، والمطَخَّة، والطَّريدَة ، وعَظْم وَضَّاح، والعُقَّة، وعَيَافٌ والطَّريدَة، والفُرَّيْرَة، والفَنْزَجَة المُفَايَلة، والمقَّثة، والقَرْق، والقُزَة، وبنت مُقَضِّمَة، والقُفَّيْزَى، والقُلَة، وقَلَوبَع، والقنِّين، والكُبْنَة، والكُجَّة، والكرّك، والمَسَّة، والأُنْبُوثَة ، والمنْجَار، والهَبْهَاب، والمهزام، ووَضَّاح.

2. ضروب التسلية:

– لعبة الشطرنج :

وبلغ اللعب بالشطرنج في العصر العباسي أوج عظمته ، وحقق انتشاراً واسعاً في جميع أرجاء الخلافة الإسلامية ، زاوله المجتمع بكل شرائحه الخاصة والعامة بسرور بالغ، وشوق عال، وروح طيبة وباندفاع كبير تحت ظل رعاية الخلفاء له بأنفسهم ، فكان اهتمام الخلفاء العباسيين في لعب الشطرنج كبيراً جداً، فشجعوا اللعب به، وأغدقوا العطاء على لاعبيه ، وقربوا اللاعبين المتميزين منهم إلي حاشيتهم، وأدخلوهم قصورهم الفارهة . وكان الشطرنج يلعب في العصر العباسي على رقعة من أدم حمراء اللون مربعة .

ولم يكن للعب الشطرنج في العصر العباسي صورة ثابتة ، فهناك ست صور رئيسة: الآلتان المربعان. إحداهما ثمانية أبيات في مثلها ، والمستطيلة وأبياتها أربعة في ستة عشر ، وهناك آلتان مدورتان تنسب إحداهما إلي الروم ، ويقال لها الرومية . والثانية هي الآلة النجومية التي تسمى الفلكية، والآلة السادسة تسمى

الجوارحية، وهي سبعة أبيات في ثمانية وأمثلتها اثنتا عشر في كل جهة منها ستة ، وكل واحد من الستة يسمى باسم جارحة من جوارح الإنسان .

وقد عرف البيروني أيضاً صوراً شتى لهذه اللعبة والصورة التي وضعها بوصفها الأكثر تداولاً هي لعبة حظ بالمعنى الحقيقي وتلعب بفصين، والفصان هما اللذان يحكمان حركات الأحجار مهارة اللاعب، فكل من الواحد والخمسة يحرك الشاه أو البيدق والاثنان تحركان الرخ ، والثلاثة تحرك الفرس الذي حركته هي حركته في أيامنا هذه ، وكل من الستة والأربعة يحرك الفيل ، وحركته مستقيمة .

وكانت النقلات الأولى في الشطرنج – بحدود النقلات العشر الأولى – تسمى التعابي، والمفرد تعبية ولكل تعبية اسم كتعبئة خطي فرعون والمشايخية ، والدولابية والعجائز ووتد العتز والسيالة .أما نظام الحركات في ذلك العهد فهو يختلف عما نعرفه اليوم قليلاً ، ويمكن إجماله كما يلي:–

الشاه : يتحرك إلي مربع واحد مجاور في النقلة الواحدة .

الفرزان : وهو الفرز أو الوزير ، ويتحرك إلي المربعات المجاورة لمربعه ، ولا يفرض سلطانه إلا على مربعات الأوتار المحيطة بمربعه .

الفيل : كان بميسوره أن يطفر ويثب من مربعه إلي مربعه إلي مربع الوتر الثالث بغض النظر يكون من أدوات في مربع الوتر الثاني القريب منه.

البيدق: وهو الذي يتحرك مربعاً واحداً فقط إلي الأمام ، ويضرب على مربع الوتر إلي الأعلى ، وله الحق في أن يصير فرزاناً متى وصل إلي المربع الثامن، ولا يسمح له بالتراجع، أما أخذ البيدق بالمرور فلم يكن معروفاً.

وقد اهتم الخليفة العباسي المهدي بشطرنجيه المفضل (عمر بن العزير أبو حفص الشطرنجي) وكان شاعراً وشطرنجياً متفوقاً. وكان يحسن الشطرنج حاضراً واستباراً . وقد نشأ أبو حفص في دار المهدي ومع أولاد موإليه ، وكان كأحدهم، وتأدب، وكان لاعباً بالشطرنج مشغوفاً به ، فغلب له لغلبته عليه.

وكان الخليفة هارون الرشيد لاعباً ماهراً، فهو" أول من لعب بالشطرنج من خلفاء بنى العباس، وقدم اللاعبين، وأجرى عليهم الرزق، فسمى الناس أيامه، لنضارتها ، وكثرة خيرها وخصبها – أيام العروس"، وكان مولعاً به أشد الولوع، وممن يحسن لعبه ويتقنه غاية الإتقان، وقد شاعت لعبة الشطرنج بفضل اهتمامه به، وبلغ من شغف الرشيد به أنه يلعبه في أثناء رحلاته، فقد روى المسعودي في مروج الذهب : أن إبراهيم بن المهدي كان يرافق هارون الرشيد في رحلاته (162–224هـ/778– 838م). وكان يرافق ابن أخيه هارون الرشيد في رحلاته، فقال:

" كنت أنا والرشيد على ظهر حراقة ، وهو يريد نحو الموصل والمرادون يمدون، والشطرنج بين أيدينا ".

وكان الرشيد يلعب الشطرنج مع خاصته ولم يكن له نظير فيه غير عدد قليل منهم، أمثال أبي حفص الشطرنجي، وإبراهيم الموصلي، وابنه إسحاق ، وعنده من بين الجواري من يحسن هذه اللعبة ويباريه فيها، ولشدة اهتمامه بالشطرنج أرسل من بين الهدايا التي بعث بها إلي شارلمان ملك الفرنج (124-198هـ/ 742 -814م) رقعة جميلة وأحجاراً ثمينة كاملة لهذه اللعبة ، وكان يقول : "الشطرنج يعلم الصبر والسياسة والمكر وعمل الفكر" ، كما كان الرشيد يحث جُلاّسه على تعلّمه.

وشغف الخليفة محمد الأمين بلعبة الشطرنج شغفاً شديداً، ومولعاً بها في غاية الولع، وفاق ولعه بها ، حتى إنه نسى الخطر الحاذق به، الذي أودي بحياته . ومن شدة اهتمامه وولعه بهذه اللعبة الحكيمة – كما يقول مؤرخ الشطرنج السوفياتي يوري أفيرباخ – ، أنه حشد في قصره النابغين والمتميزين بها من مختلف أرجاء إمبراطوريته المترامية الأطراف، وغمرهم بالعطاء وقد عد أجمل ساعات حياته تلك التي كان يقضيها في متابعة معارك الشطرنج أو مزاولته الشطرنج بنفسه، وحينما حاصرته جيوش أخيه المأمون وهو بقصره في بغداد، وكانت المعارك العنيفة دائرة الرحى في ضواحي المدينة وعلى أسوارها، جاءه من ينذره بالخطر المحدق به، وكان الرسول مأخوذاً بالرهبة والخوف من هول تلك الحرب، ولكن الدهشة عقدت لسانه عندما رأى الخليفة غارق في التفكير أمام رقعة الشطرنج، وصرخ الرجل :– يا أمير المؤمنين؛ أتوسل إليك أن تسرع فليس الوقت وقت لعب، ولكن الخليفة الأمين اللاهي كان مستغرقاً في التفكير في معضلات الشطرنج وقال: صبراً صبراً، دون أن يرفع عينه عن الرقعة فإني أتوقع الفوز بعد بضع نقلات قليلة، وقد دفع الأمين حياته ثمناً لهذا الولع والاستغراق في اللعب، حيث فقد حياته بعد ذلك الوقت بقليل.

وكان الخليفة المأمون "يحب لعب الشطرنج حباً شديداً، ويقول: هذا يشحذ الذهن، واقترح فيها أشياء، وكان يقول : لا أسمعن أحداً يقول : تعال حتى نلعب، ولكن يقول : نتداول، أو نتناقل ، ولم يكن حاذقاً بها ".

وفي رواية أخرى قال القلقشندي: "أن المأمون كان لا يجيد لعب الشطرنج فكان يقول: عجباً مني كيف، أدبر ملك الأرض من الشرق إلي الغرب ولا أحسن تدبير رقعة ذراعين في ذراعين ".

ويحكى عن الخليفة المأمون بعد قدومه من خراسان وارتقائه عرش الخلافة أنه اشتهى الشطرنج، فاستحضر كبار أهله، فكانوا يتوقرون بين يديه، حتى ضاق بذلك، وقال: "ان الشطرنج لا يلعب مع الهيبة، قولوا ما تقولون إذا خلوتم ".

وكانت للمأمون جارية تسمى (عريب) من أحسن الناس وجهاً وأدباً وضرباً وشعراً

ولعباً بالشطرنج والنرد. وللمأمون شعر في الشطرنج.

أرض مربعة حمراء مــن أدم
ما بين إلفين معروفين بالكرم
تذاكرا الحرب فاحتالا لها حيلا
من غير أن يأثما فيها بسفك دم
فانظر إلي فطن جالت بمعرفة
في عسكرين بلا طبل ولا علم

وفي عهد المأمون وضع لقب (العالية) للمرة الأولى، وهي أقل طبقات الشطرنجيين عدداً في كل عصر، ولم يجمع منهم ثلاثة في عصر قط، وإنما يكون فيها الواحد والاثنان، وتليها طبقة (المتقاربة) وهم يردون على العالية من العشرة، وبينهم وبين العالية حط بيدق فرزان ، وهم يغلبون المتقاربة قليلاً ، كما يغلب المتقاربة العالية، ويكاد المتقدم فيهم أن يلحق بالدون من المتقاربة، ورابعها الطبقة التي بينها وبين العالية أكثر من فرزان وأقل من فرس، وخامسها الطبقة التي بينها وبين العالية حط فرس، وسادسها الطبقة التي بينها وبين العالية حط رخ، وبعد ذلك فمرذول ومطروح.

وأشهر لاعبي الشطرنج في عهد الخليفة المأمون وحمل لقب العالية هم : عبد الله بن جعفر الأنصاري، ونعيم الخادم، وجابر الكوفي، وزيرب قطان، وأصله من آسيا الوسطى، واشتهر بقدرته على تحليل خواتم الأدوار ، وامتــاز بالدقــة في ذلك. بحيث توشك تحليلاته، أن توازي آخر مــا بلغه علماء الشطرنج اليوم، وألف عدداً كــبيراً من المنصوبات الشطرنجية ، وكان قد خاض أول مباراة لها وزن عالمي في خراسان بمواجهة جــابر الكوفي أمام المأمون نفسه.

ولم يكن الخليفة المعتصم أقل من أسلافه الخلفاء اهتماماً بالشطرنج، فقد وضع منصوبة شطرنجية شهيرة ربما عدت من أقدم المسائل الشطرنجية وتسمى (منصوبة المعتصم)، وهي أقدم مسألة شطرنجية عربية مسجلة في التاريخ ، وكان المعتصم يلعب الشطرنج مع الصولي، وكان يغدق العطاء له. وكان الصولي من الأدباء الظرفاء والجماعين للكتب، ونادم الراضي ، وكان أولاً يعلمه، وقد نادم المكتفى، ثم المقتدر دفعة واحدة. وكان من ألعب أهل زمانه بالشطرنج ، حسن المروءة وعاش إلي سنة (ثلاثين وثلثمائة) . وتوفى مستتراً بالبصرة ، وله مؤلفات كثيرة .

وكان الخليفة المتوكل على الله كلفاً أشد الكلف بمشاهدة مباريات الشطرنج التي يقيمهــا في قصره وبحضرته، وقد جــرت أهــم مبــاراة بالشطرنج في زمانه، ومن أشهر مــن ألــف في الشطرنج بين الرازي والنجم الشطرنجي العظيم العدلي، وكانا من أشهر لاعبي زمانهما. انتــهت المباراة بفوز الرازي على العدلي. وكــان أبــو العباس أحمد العدلي أول مــن ألــف كتابــاً في الشطرنج ومنصوبته الشهيرة التاريخية المــسماة (منصوبة العدلي) التي يعــود تاريخهــا إلي عــام 318هـ/930م، وكذلك ألف الرازي كتابــا يحمل العنوان نفسه (الشطرنج) والــصولي ولــه كتاب الــشطرنج النــسخة الأولى، وكتــاب

الشطرنج النسخة الثانية وللجلاج مؤلف بعنوان كتاب منعويات الشطرنج. أما ابن الإقليلسي فقد ألف كتاباً مجموعاً في منصوبات الشطرنج.

وكان الخليفة المعتز بالله مهتماً ومولعاً بلعب الشطرنج . فروي الطبري أنه أتى برأس الخليفة المستعين على طبق أمام الخليفة المعتز، "وهو يلعب بالشطرنج فقيل: هذا الرأس المخلوع، فقال ، ضعوه هنالك. ثم فرغ من لعبه، ودعا به فنظر إليه ، ثم أمر بدفنه".

وشاع نوع من لعب الشطرنج في قصر الخليفة المعتضد يسمى الجوارحية، وتسمى أجزاؤها بأسماء حواس الإنسان.

وروي جعفر بن ورقاء الشيباني ـــ وهو ممن تقلد عدة ولايات واتصل بالمقتدرـــ قال: "كنت في أيام المعتضد ، مع نظرائي من أولاد الأمراء والقواد ، مرسومين بالبقاء في دار الخلافة على رسم الخدمة بنوائب كانت لنا ، وكنا نجتمع في حجرة نستريح فيها بعد انقضاء الخدمة وانصراف الموكب، فنترع خفافنا، ونضع عمائمنا عن رؤوسنا، ونلعب بالشطرنج والنرد".

وقرب الخليفة المكتفي بالله لاعبي الشطرنج، وأدخلهم دار الخلافة، ومنهم اللاعب الصولي أحسن لاعب للشطرنج في زمانه فمدحه الخليفة الراضي ووصف محاسنه فقال: لعب الصولي بالشطرنج والله أحسن من هذا (الزهر) ومن كل ما تصفون .وذكر أن الصولي في بدء دخوله إلي المكتفي، كان ذكر له بجودة لعبه الشطرنج ، وكان الماوردي اللاعب (مقدماً عنده، متمكنا من قلبه) وتقدم الخدمة والألفة على نصرته وتشجيعه حتى أدهش ذلك الصولي في أول وهلة، فلما اتصل اللعب بينهما وجمع له الصولي غايته وقصد قصده غلبه غلباً لا يكاد يرد عليه شيئاً، وتبين حسن لعبه للمكتفي، فعدل عن هواه ونصره للماوردي ، وقال له صار ماء وردك بولاً.

وانتشرت لعبة الشطرنج في عهد المكتفي في مختلف الأوساط، ومما يدل على ذلك أن (أحمد الواثقي) ـــ وكان يتقلد شرطة بغداد للخليفة المكتفي بالله ـــ سأل عن أناس، فقيل له : إنهم لايخرجون نهاراً إلاّ كل مدة طويلة ، فهم يأكلون ويشربون ويلعبون بالشطرنج ، فإذا كان الليل انصرفوا .

– لعبة النرد:

كان الناس في العصر العباسي يتلهون بلعبة النرد، واعتادوا اللعب بها، وهي لعبة أصولها أعجمية، وقد قيل في لعبها ووصفها أشعار كثيرة حتى بولغ فيما قيل فيها .

وكان الخليفة الرشيد أول من لعب النرد من خلفاء بني العباس ، وقدم اللعّاب، وأجرى عليهم الرزق. وولع الخليفة محمد الأمين بلعب النرد مع وزيره الفضل فتراهنا على خاتميهما، فغلب الأمين وأخذ الخاتم.

ويلعب النرد على رقعة بها اثنا عشر أو أربعة وعشرون مترلاً بثلاثين حجراً وفصَّين، فكان لعبة تدور على الصدفة والاتفاق، وشبه بعض الحكماء رقعة النرد بالأرض الممهدة

لساكنها ، ومنازل الرقعة، وهي أربعة وعشرون، بساعات الليل والنهار ، وبيادقها وهي ثلاثون ، بعدد أيام الشهر، واختلاف ألوانها بياضَ النهار وسوادَ الليل ، ومنازلها الأربع بالطبائع الأربع ، وشبه ما يخرج من الفصين، إذا رمى بهما بالقضاء الجاري على العباد، ولهذا ظل أهل الورع ساخطين عليه، ويسميه أبو الليث السمرقندي (عمل الشيطان) وكان النرد يلعب ابتغاء الكسب ، فيحكى أن رجلاً لاعب آخر فغلبه ، فأخذ منه عشرين ديناراً.

- الرقص:

ومن أنواع الرياضة في عصر بني العباس الرقص، إذ كان معروفاً ومنتشراً، فكان الراقصون والراقصات يعرضون فنونهم أمام الناس في الولائم والأعياد وأوقات الفراغ ومجالس اللهو. وقد اخترعت للرقص آلات موسيقية خاصة تسمى الكرج، وهي تماثيل خيل مسرّجة من الخشب معلقة بأطراف أقبية يلبسها النسوان ويحاكين بها امتطاء الخيل ، فيكرون ويفرون ويثاقفون وأمثال ذلك من اللعب المعد للولائم والأعراس وأيام الأعياد ومجالس الفراغ واللهو . ومن الراقصات ، وردت أنواع منها: الزفانات التي هي نوع من أنواع الدبكة، وعرفت رقصة الدستبند، وأشهر الراقصات هن الأبليات. وكان محمد الأمين يرقص الكرج وسط وصائفه ومع اللعابين. وكانت وصائف المأمون ترقص بين يديه أنواع الرقص من الدستبند ، إلي الأبلاء.

وقد جمع المتوكل في قصره أربعمائة إبلية.

وعُدَّ الرقص من أنواع التسلية المقبولة ، وهو تعبير عن الفرح والراحة . وتتطلب في الراقص أو الراقصة خفة البدن وتبدل الحركات وتنوعها، إذ ذكر المسعودي : أن الخليفة المعتمد على الله كان يعقد جلسات للمناقشة في قصره حول فن الرقص وأنواعه وطبيعته، يحضرها رجال من ذوي العقول والمعرفة والحجى " فقال لبعض من حضر مجلسه من ندمائه ومغنيه: صف لي الرقص وأنواعه، والصفة المحمودة من الراقص ، وإذكر لي شمائله ... فقال المسؤول : يا أمير المؤمنين ؛ أهل الأقاليم والبلدان مختلفون في رقصهم، فجملة الإيقاع في الرقص ثمانية أجناس: الخفيف، والهزج، والرمل، وخفيف الرمل، وخفيف الثقيل الثاني وثقيله، وخفيف الثقيل الأول، وثقيله، والراقص يحتاج إلي أشياء في طباعه وأشياء في خلقه وأشياء في عمله ، فأما ما يحتاج إليه في طباعه فخفة الروح ، وحسن الطبع على الإيقاع، وأن يكون طالبه مرحا" إلي التدبير في رقصه والتصرف فيه .

وأما ما يحتاج إليه في خلقته فطول العنق والسَّوالف ، وحسن الدَّل والشمائل، والتمايل في الأعطاف ورقة الخصر والخفة وحسن أقسام الخلق وواقع المناطق، واستدارة الثياب من أسافلها ، ومخارج النفس، والإراحة، والصبر على طول الغاية، وإطافة الأقدام، ولين الأصابع وإمكان لينها في نقلها، وفيما يتصرف فيه من أنواع الرقص من الإبل ، ورقص الكرة وغيره،

ولين المفاصل وسرعة الانتقال في الدوران ، ولين الأعطاف".

- مجـالـــس القصــص :

ومن ضروب التسلية حضور مجالس القصص التي تُعَدَّ من المجالات الترويحية الشيقة التي كانت يحضرها الناس للتسلية ، وقد كانت منتشرة في العصر العباسي انتشاراً واسعاً حتى إنها كانت تعقد في الطرقات وفي المنازل وفي المساجد. ومجالس القصص ، وهي تراث شعبي أصيل ورثه العرب عن آبائهم الأقدمين ، وكانت هذه المجالس تستهوي عامة الشعب. فكانوا يقضون أوقات فراغهم في سماع الحكايات الشيقة من النوادر الهزلية والأحاديث المسرة للنفوس . قال المسعودي:كان ببغداد رجل يتكلم على الطريق ، ويقص على الناس بأخباراً ونوادر ومضاحك، ويعرف بابن المغازلي . وكان في نهاية الحذق ، لا يستطيع من يراه ويسمع كلامه إلاّ أن يضحك!. وكانت قصص السباع وصيدها تمثل مكاناً كبيراً من أحاديث التسلية . ويروى أن القصاصين كانوا منتشرين في طرقات بغداد ، وكانوا يقصون على الناس نوادر الأخبار وغرائبها، ويبدو أنهم كثروا كثرة مفرطة حتى إننا كنا نري المعتمد يأمر في سنة (279 هـ/892م) بالنداء في بغداد ، ألا يقعد على الطريق ولا في المسجد الجامع قاص ولا صاحب نجوم ولا زاجر. وفي سنة (284هـ/897م) منع المعتضد القصاص من القعود في الأماكن ، ومنع القصاص من القعود في الجامعين ، وفي جمادى الآخرة نودي في المسجد الجامع بنهي الناس عن الاجتماع على قاصٍ أو غيره . ومنع القصاص وأهل الحلق من القعود .

ومجالس القصص كانت على نوعين : مجالس الخواص ، ومجالس العامة .فكانت الحكايات القصيرة من النوادر الهزلية، والأحاديث التي تتجلى فيها اللباقة العقلية ، تذكر في مجالس الخواص . أما الحكايات الطوال ، فكانت تحكى بمجالس القصص ، فكان حال القصّاص ببغداد أن يتصدر المجلس، ويأخذ بألباب الناس بنكاته ولباقته وتفننه ، فكان يقص على سامعيه بصوته العريض المتزن ، حروب عنترة ، أو مخاطر سيف بن ذي يزن ، أو وقائع أبي زيد الهلالي، فينتقل بهم إلي عصور أولئك الأبطال الشجعان ، فيأخذ الحماس منهم كل مأخذ ، وهم في هذه النشوة من الحماس ، إذ بالبطل يقع أسيراً بأيدي أعدائه ، فيستإذنهم بالوقوف عند هذا الحد ، ليعود بهم في الليلة الثانية ، ويقص عليهم مصير البطل ، وكيف تخلص من الأسر وانتصر في المعركة.

واشتهر قاص ببغداد في سنة (104هـ/722م)، ويكنى بأبي الورد، كان من عجائب الدنيا في المطايبة والمحاكاة. كان يحكي شمائل الناس وألسنتهم، فيؤديها

كما هي. فيعجب الناظر والسامع ، ويضحك الثكلان.

– مجالس الغناء والموسيقى:

من الظواهر الحضارية التي كان لها الصدارة في عصر أوج الحضارة العربية وازدهارها: مجالس الغناء والموسيقى، التي شغف بها خلفاء بنى العباس ـــ وأبناؤهم، والأمراء، والأشراف، والوزراء، والقواد، والأكابر، والولاة، وكذلك العامة ـــ شغفاً كبيراً . وتعقد هذه المجالس في قصور الخلفاء وخاصتهم، وكبار رجال الدولة، بشكل منظم، كما تقام هذه المجالس في أيام الأعياد والمواسم، والمناسبات، مثل حفلات الأعراس، والختان، ومجالس الفراغ واللهو ونحوها. وكانت مهمة هذه المجالس هي التسلية والترفيه، وفيها يتوافد مشاهير المغنين والموسيقيين والندماء والشعراء على مجلس الخليفة عادة، كما يجتمعون في مجالس خاصته، فيغني المغنون والمغنيات، ويطرب الجميع . " وكان لا ينصرف عن مجلس الخليفة أحد من ندمائه ولا مطربيه إلا بصلة من مال أو كسوة ".

لقد حدثنا المؤرخون عن رعاية الخلفاء وأبنائهم للغناء والموسيقى، وكان تشجيعهم للمغنين والمغنيات ولعلماء هذا الفن كبيراً، فألفت الكتب في فنون صناعة الغناء والموسيقى، وظهرت طبقة من المغنين والمغنيات، فكان عصراً ذهبياً للموسيقى العربية الإسلامية، إذ بلغت صناعة الغناء والموسيقى ذروة الكمال والتقدم، وانتشرت هذه الصناعة في أنحاء الدولة العباسية، قال ابن خلدون: "وما زالت تتدرج إلي أن كملت أيام بني العباس عند إبراهيم بن المهدي وإبراهيم الموصلي وابنه إسحاق وابنه حماد ... وكثر ذلك ببغداد وأمصار العراق وانتشر منها إلي غيرها، وكان للموصليين غلام اسمه زرياب أخذ عنهم الغناء فأجاد، فصرفوه إلي المغرب غيرة منه، فلحق بأمير الأندلس فبالغ في تكرمته وركب للقائه وأسنى له الجوائز والإقطاعات والجرايات، وأحله من دولته وندمائه بمكان، فأورث في الأندلس من صناعة الغناء".

وأصبحت بغداد موطن الفن والأدب والعلم والحضارة، فجذبت الشعراء والموسيقيين، وحظي المغنون والمغنيات من الجواري بمترلة رفيعة لدى الخلفاء والأمراء واعتبروهم من الندماء المقربين وأغدقوا عليهم الهدايا النفيسة . وكان الخلفاء يصحبون المغنيين في أسفارهم وغزواهم.

وكانت تجري في مجالس الخلفاء والأمراء مناظرات ومناقشات حول طبيعة صناعة الغناء والموسيقى يشارك فيها الخلفاء وعلماء الغناء والموسيقى، والندماء من ذوى العقول والمعرفة.

ويروى أن عدداً من الخلفاء وأبنائهم قد أتقنوا صناعة الغناء والموسيقى. كانوا يستحسنون الشعر المُغَنَّ ؛ لماله من رقة من المعنى وجمال الوزن وأخفه ورشاقة الألفاظ ورهيف سبكها.

أما مجالس الغناء والطرب عند العامة، فكانوا يحضرون حفلات تتناسب مع مستوى

معيشتهم، وقد شاركوا النصارى في مجالس الغناء التي أقيمت في أديرتهم. وكانوا يؤمون المجالس الخاصة والحانات. والمجالس التي تقام في أماكن مفتوحة يشترك في إحيائها المغنون والمغنيات من الجواري ، ويبدو من هذه الصورة انتشار الغناء في جميع محلات بغداد وشوارعها حتى إن أحد الفقهاء ذكر أنه كان يمشي في شوارع بغداد فيسمع أصوات المغنيات من البيوت.

كما انتشر الغناء والموسيقى في مصر ، إذ وصف المسعودي المؤرخ عيداً من أعياد مصر أيام زيارته الفسطاط سنة (330هـ / 944م) بقوله: إنه كان يسمع الموسيقى من كل جانب.

ويبدو أن الإقبال على مجالس الغناء لم يكن مقصوراً على فئة دون فئة، فقد كانت تحضرها مختلف فئات الشعب، وغايتها اللهو وسماع الغناء والموسيقى، وكانت العامة مولعة بهذا اللون من المجالس، لذلك كانت تحضرها وتسر بها وتطرب وتصفق استحساناً للمغني أو المغنية .

وقد أحصيت المغنيات والمغنين في بغداد، سنة (306هـ/819م) كما ذكرها الآزدي الذي عاش في القرن الرابع الهجري، فبلغن أربعمائة وستين جارية في جانبي بغداد ، الكرخ والرصافة، وعشرة حرائر، وكانت هذه الإحصائية للمغنيات الظاهرات المعروفات لدى الناس ، أما اللاتي كن يغنين خفية فإنهن لم يُتَوَصَّلْ إلي معرفة عددهن؛ لشدة رقابة الأولياء عليهن .

أما عدد المغنيين من الذكور فبلغ خمسة وسبعين مغنياً.

– اقتناء الحيوانات:

وكان من الهوايات الترويحية المحببة لنفوس الخلفاء العباسيين وعلية القوم، اقتناء الحيوانات وارتباطها ، في قصورهم أو في أماكن خاصة، تسمى " حير الوحش " ، أو " حير الوحوش " وهي بمثابة حديقة الحيوان.

فقد تم ارتباط الأسود والفيلة والنمور لإقامة هيبة الحكم في قلوب الرعية ، وحفظ نظام الدولة وحراستها من أطماع الطامعين. ذكر المسعودي في سِفْرِه "مروج الذهب": " وكان المنصور قد عُني بجمع الفيلة، لتعظيم الملوك السالفة إياها واقتنائها لها، وإعدادها للحروب، وللزينة في الأعياد وغيرها، فإنها أوطأ مراكب الملوك وأمهدها".

وكان للرشيد أقفاص فيها الأسود والنمور وغيرها . وغالي الذين جاءوا من بعده في اقتنائها واقتناء الكلاب والقردة ونحوها ، فقد ذكرت الروايات: " أنه كان عند أم جعفر زوج الرشيد قرد يخدمه ثلاثون رجلاً ، وكانوا يلبسونه لباس الناس ويقلدونه السيف ، وإذا ركب ركبوا في خدمته، وإذا دخلوا عليه قَبَّلُوا يده. فجاء يزيد بن مرثد يوماً إلي أم جعفر ليودعها قبل سفره فأتوا إليه بالقرد، وأمروه أن يقبل يده، فشق عليه ذلك وجرد السيف وقطعه نصفين وانصرف، فبعث إليه الرشيد وعاتبه فقال: يا أمير المؤمنين،

أبعد أن أخدم الخلفاء أخدم القرود ؟ لا والله أبداً فعفا عنه".

ثم تطور أمر اقتناء الحيوانات وجمعها من بعد ذلك، واهتم بعض خلفاء بني العباس والأمراء، والسلاطين ، وأعيان القوم ، بتخصيص محل واسع الأرجاء يضم جملة من أصناف الحيوانات : الكاسرة والداجنة، والطير ، والهوام، والحشرات . ويطلق على ذلك المكان " حير الوحش أو حير الوحوش " ويقصد بالحير : أنه بستان واسع ، فيه أنواع الحيوان. والعرب سبقوا الأمم المتمدنة إلي اتخاذ تلك الحظائر لحبس الوحوش والحيوانات فيها ، ودرس أخلاقها وعاداتها ، مع التفرج على ما هنالك من عجيب المخلوق .

ولما أفضت الخلافة إلي محمد الأمين، وجّه إلي جميع البلدان في طلب الوحوش والسباع والطير ونحوها، ولشدة ولعه بجمع الحيوانات، أمر بعمل خمس حراقات في دجلة، وجعلها على خلقة: الأسد، والفيل، والعقاب والحية، والفرس، وأنفق عليها مالاً عظيماً .

وكان الخليفة الأمين يتردد كثيراً على حير الوحش ، ومعه إبراهيم بن المهدي ، وروى عن منصور بن المهدي قال: " وغنى إبراهيم يومئذ على أشد طبقة يتناهى إليها في العود ، وما سمعت مثل غنائه يومئذ قط. ولقد رأيت منه شيئاً عجيبا لو حدثت به ما صدقت: كان إذا ابتدأ يغني صغت الوحوش إليه ، ومدت أعناقها، ولم تزل تدنو حتى تكاد تضع رؤوسها على الدكان [مكان الجلوس] الذي كنا عليه ، فإذا سكت نفرت وبعدت عنا حتى تنتهي إلي أبعد غاية يمكنها التباعد عنا فيها، وجعل الأمين يعجب من ذلك " . وشغف الأمين أيضا" باقتناء الغريب من السمك، فقد جاء في مروج الذهب:

"وذكر إبراهيم بن المهدي قال: أستإذنت على الأمين يوماً ، وقد اشتد الحصار عليه من كل وجه ، فأبوا أن يإذنوا ليّ بالدخول عليه، إلي أن كابرت ودخلت، فإذا هو قد تطلع إلي دجلة بالشباك وكان في وسط قصره بركة عظيمة، لها مخترق إلي الماء في دجلة، وفي المخترق شباك حديد، فسلمت عليه، وهو مقبل على الماء والخدم، والغلمان قد انتشروا إلي تفتيش الماء، وهو كالواله ، فقال لي ــ وقد ثنيت بالسلام وكررت ــ : لا تدري ياعمي ، فمقرطتي قد ذهبت في البركة إلي دجلة، والمقرطة: سمكة كانت قد صيدت له، وهي صغيرة، فقرَّطها حلقتين من ذهب فيهما حبتا درّ، وقيل: ياقوت".

وشيّد الخليفة المأمون حيراً للوحوش بالقرب من قصره المعروف بـ"الجعفري " في الجانب الشرقي من بغداد على شاطئ دجلة ، وكان من أحب المواضع إليه وأشهاها لديه، فقد جاء في معجم البلدان: " ثم انتقل القصرإلي المأمون، فكان من أحب المواضع إليه وأشهاها لديه . اقتطع جملة من البرية عملها ميداناً لركض الخيل، واللعب بالصوالجة ، وحيراً لجميع الوحوش، وفتح له باباً شرقياً إلي جانب البرية ، وأجرى فيه نهراً ".

وكان بقصر الخليفة المعتصم بسامراء، مكان يحفظ فيه الحيوان، وهو يسمى "حير الوحوش" .

وما زال شأن الخلفاء وأهلهم على ذلك حتى تولى المهتدي بالله بن الواثق الخلافة ، وكان يتشبه بعمر عبد العزيز في التقوى والزهد ، فأمر بقتل السباع التي كانت في القصور وطرد الكلاب، ولكن ذلك المنع لم يدم طويلاً، فلما مات المهتدي عادوا إلي المغالاة في اقتناء السباع حتى ارتبطها بعضهم في مجلسه. فكان عضد الدولة بن بويه إذا جلس على سريره أحضرت الأسود والفيلة والنمور في السلاسل ، وجعلت في حواشي مجلسه ؛ تهويلاً بذلك على الناس وترويعاً لهم.

وكان في قصر الخليفة المقتدر ببغداد دار "بها قطعان من أصناف الوحش"، وصار يرسل إليها كل غريب من الحيوان من جميع البلدان.

ولازمت العناية حير الوحوش ببغداد، حتى أضحى متصلا بدار الخلافة. ولما قدم رسل ملك الروم إلي بغداد في سنة (**305هـ/917م**) أيام الخليفة العباسي المقتدر بالله ، شاهدوا من عظمة بغداد التي ظهرت بأبهى زينة ، وأكمل عدة ، فأدخلوا إلي الدار المعروفة بدار الخيل من دار الخلافة ، وساروا في الممرات والدهاليز المتصلة بحير الوحش ، وكان في هذه الدار ، من أصناف الوحوش التي أخرجت إليهم من الحير، قطعان تقرب من الناس وتتشممهم، وتأكل من أيديهم . ثم أُخْرِجُوا إلي دار فيها أربعة فيلة مزينة بالديباج والوشي ، وعلى كل فيل ثمانية نفر من السند والزراقين بالنار ، فهال الرسل أمرها . ثم أُخْرِجُوا إلي دار فيها مائة سبع ، خمسون يمنة، وخمسون يسرة ، كل سبع منها في يد سباع، وفي رؤوسها وأعناقها السلاسل والحديد. وشاهدوا الزرافة ، والفهود ، وحيوانات أخرى كثيرة.

وذكرت الروايات التاريخية أخباراً شيقة عن هواية تربية الحيوانات ببغداد، إذ شغف بها كثير من المترفين وعِلْيَة القوم، كما وردت أخبار بشأن النفقة على حير الوحوش بدار الخلافة العباسية ببغداد ، وهي نفقات تصرف من ميزانية الدولة.

وولع الكثير من السلاطين والملوك والوزراء وعلية القوم بالأقاليم بجمع الحيوانات ولعاً شديداً في مصر والأندلس ونحوهما. ففي مصر تم ارتباط السباع، فقد ذكر المؤرخون : أن خمارويه بن أحمد بن طولون بنى داراً خاصة بالسباع ، عمل فيها بيوتاً بآزاج كل بيت يسع سَبُعاً ولَبْوَتَه ، وعلى تلك البيوت أبواب تفتح من أعلاها بحركات ، ولكل بيت منها طارق صغير يدخل منه الرجل الموكل بخدمة ذلك البيت يفرشه بالرمل . وفي جانب كل بيت حوض من رخام بميزاب من نحاس يصب فيه الماء . وبين يدي هذه البيوت قاعة فسيحة متسعة فيها رمل مفروش بها ، وفي جانبها حوض كبير من رخام يصب فيه ماء من ميزاب كبير . فإذا أراد سائس سبع من تلك السباع تنظيف بيته، أو وضع قطعة اللحم لغذائه ، رفع الباب بحيلة من أعلى البيت ،

وصاح بالسبع فيخرج إلي القاعة المذكورة ، فيرد الباب ويترل إلي البيت من الطاق ، فيكنس الزبل ويبدل الرمل بغيره مما هو نظيف، ويضع غـذاءه من اللحم في مكان معد لذلك بعد ما يقطع اللحم قطعاً، ويغسل الحوض ويملأه ماء، ثم يخرج ويرفع الباب من أعلاه . وقد عرف السبع ذلك فحالما يرفع السائس باب البيت يدخل إليه الأسد فيأكل ما هُيِّئَ له من اللحم حتى يستوفيه، ويشرب من الماء كفايته. فكانت هذه البيوت مملوءة بالسباع. ولهم أوقات تفتح فيها فتخرج السباع كلها إلي القاعة وتتمشى فيها وتمرح وتلعب ويهارش بعضها بعضاً ، فتقيم يوماً كاملاً إلي العشي، فيصيح بها السواس، فيدخل كل سبع إلي بيته لا يتخطاه إلي غيره . وكان من جملة هذه السباع سبع أزرق العينين يقال له : زريق، وقد أنس بخمارويه وصار مطلقاً في الدار لا يؤذي أحداً ، ويقام له بوظيفته من الغذاء كل يوم . وإذا نصبت مائدة خمارويه أقبل زريق معها وربض بين يديه، فيرمي إليه الدجاجة بعد الدجاجة والقطعة الكبيرة من اللحم ونحو ذلك مما على المائدة فيتفكه به. وكانت له لبؤة لم تستأنس كما أنس هو، فكانت مقصورة في بيت، ولها وقت معروف يجتمع معها فيه. فإذا نام خمارويه جاء زريق ليحرسه، فإن كان قد نام على سرير ربض بين يدي السرير ، وجعل يراعيه مادام نائماً، وإن نام على الأرض بقي قريباً منه، وتفطن لمن يدخل ، ويقصد خمارويه لا يغفل عن ذلك لحظة واحدة . وكان على ذلك دَهْرَهُ وقد ألفه ودرب عليه، وكان في عنقه طوق من ذهب. فلا يقدر أحد أن يدنو من خمارويه ما دام نائماً لمراعاة زريق له وحراسته إياه .

وغالي وتطرّف آخرون في اقتناء الحيوانات حتى الهوام والحشرات، فالوزير جعفر بن الفضل بن الفرات الذي تقلد الوزارة لكافور الإخشيدي في عهد الخليفة المطيع لله بن المقتدر. ذكر المقريزي : " أنه كان يهوى النظر إلي الحشرات من الأفاعي والحيات والعقارب وأم أربعة وأربعين وما يجري هذا المجرى من الحشرات، وكان في داره قاعة لطيفة مرخمة ، فيها سلل الحيات ولها قيم وفراش وحاو من الحُوَاة ومعه مستخدمون برسم الخدمة نقل السلال وحطها، وكان كل حاوٍ في مصر وأعمالها يصيد ما يقدر عليه من الحيات، ويتباهون في ذوات العجب من أجناسها وفي الكبار وفي الغريبة المنظر، وكان الوزير يثيبهم على ذلك أَوْفَي ثواب، ويبذل لهم الجل حتى يجتهدوا في تحصيلها، وكان له وقت يجلس فيه على دكة مرتفعة، ويدخل المستخدمون والحواة فيخرجون ما في السلل ويطرحونه على ذلك الرخام ويحرشون بين الهوام، وهو يتعجب من ذلك ويستحسنه".

– اقتناء الطيور وتربيتها :

ومن أنواع التسلية في العصر العباسي المحببة للخلفاء وعِليْة القوم، والعامة من الناس جمع الطيور وتربيتها بأصنافها المصوتة والمليحة الريش. وجلبوا هذه الأنواع من الطيور من

أقاصي البلاد، مما لا يكسر بعضه بعضاً، فتوالدت وجاءت بأجناس غريبة . كما تم تربية الطيور التي لا تطير ، كالطواويس والبط، وغيرهما وعملوا لها حظائر وأقفاصاً خاصة .

وقد تناقلت الروايات أخبار صيت حديقة الحيوان للوزير ابن مقلة (322-324هـ/933-935م) وزير المقتدر ببغداد التي اشتهرت بتربية الطيور ، وخبرها طريف للغاية ، لما كانت عليه من النضرة والبهجة والبهاء ، فقد روى شاهد عيان ، " أنه رأى الشبكة الإبريسم التي كان أفرخ بن مقلة يضع الطيور الغريبة فيها ، قال : فعمد إلي مربع كبير فيه بستان عظيم عدة أجربة شجر بلا نخل ، فقطع منه قطعة من زاوية ، فكان مقدار ذلك جريبين بشباك إبريسم ، وعمل في الحائط بيوتاً تأوي إليها الطيور وتفرخ فيها . ثم أطلق القماري والدباسي والنوبيات والشحارير والزرياب والهزار والببغاء والقبج والفواخت، والطيور التي من أقاصي البلاد، من المصوتة ومن المليحة الريش، مما لا يكسر بعضه بعضاً فتوالدت ، وجاءت بأجناس غريبة . ثم عمد إلي باقي الصحن ، فطرح فيه الطيور التي لا تطير ، كالطواويس والبط . وعمل منطقة أقفاص ، فيها فاخر الطيور، وجعل من خلف البستان : الغزلان والنعام والأيايل والأرنب والإبل والبقر البدوية وحمر الوحش . ولكل صحن أبواب تنفتح إلي الصحن الآخر ، فيرى من مجلسه سائر ذلك" . وبشّر ابن مقلة يوماً بأن طائراً بحرياً وقع على طائر بريّ ، فازدوجا وباضا وفقسا ، فأعطى مَنْ بَشَّرَهُ بذلك مائة دينار ببشارته.

ونظير حديقة الطير لابن مقلة حديقة الطير للخليفة القاهر بالله العباسي. فقد جعل في الصحن أنواع الأطيار: من القماري والدباسي والشحارير والببغاء . قد جلب إليه من الممالك والأمصار، فكان ذلك في غاية الحسن. ولما أفضت الخلافة إلي الراضي بالله (322 – 329هـ/934-940م)، اشتد شغفه بذلك الموضع ، فكان يداوم الجلوس فيه.

– مهارشة الحيوانات والطيور:

كانت هواية مهارشة الحيوانات والطيور بعضها ببعض منتشرة، ولع بها الخاصة والعامة. وكانت المهارشة تجري بين الكباش والديوك والكلاب ونحوها. ويحكى عن الخليفة المعتز أنه أطلع عبيد الله بن عبد الله ابن طاهر، وقد نزل ضيفاً عنده، على عراك بين أسد وفيل، وكان ذلك أحد العجائب التي أطلعه عليها .

وقد حرم الخليفة المهتدي مناطحة الكباش ومهارشة الديوك، فقد روى المسعودي: أن الخليفة المهتدي " قد حرم الغناء والشراب والملاهي، وطرد المغنين والمغنيات وذبح الكباش التي كان يناطح بها بين يدي الخلفاء ، والديوك، وقتل السباع المحبوسة ". وكان خمارويه يستمتع بمشاهدة مهارشة سباعه بعضها مع بعض عندما تخرج من أقفاصها إلي رحبة الدار فتقيم يوماً كاملاً إلي العشاء، وخمارويه وعساكره ينظرون إليها. فكان عند قائد جيوش السلطان معز

الدولة، كبش قوي النطاح ، وقد ذكره ابن الحجاج في شعره ، وتمنى لو ترك لينطح زوجاً كريه الصورة لمغنية كان هو متعلقاً بها . وكان بعض الناس مولعين بمهارشة طير السمان .

تربية الحمام وسباقه :

ومن أنواع التسلية اللعب بالحمام، وتربيته هواية محببة إلي الكثير من الناس. ولم يكن اللعب بالحمام مقصوراً عن العامة ، بل شاركتهم الشرائح الأخرى على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية . وأستمر اللعب بالطيور والاهتمام بها طوال العصر العباسي الثاني. وقد عنى الخلفاء بالطيور فاستخدموها في المراسلة، واقْتَنَوْا أجودها وحسنوا سلالتها. وقد عملت بعض الحكومات على محاربة هذه الهواية ، لأن بعض الشبان اتخذوها وسيلة إلي النظر إلي نساء الجيران وإقلاق راحة الناس، وما يستتبع ذلك من الصياح ورمي الأحجار وتساقطها على سطوح المنازل المجاورة. وكان الناس مولعين بسباق الحمام ، على الرغم من إنكار الفقهاء، له وكان منتشراً في أرجاء الأمصار ومصر، وزاد كثيراً في القرن الخامس الهجري. ويحكى عن الخليفة المعز الفاطمي (334- 356هـ/946- 966م) أنه سابق بحمامه حمام الوزير أبي يعقوب ، فسبق حمامه حمام الخليفة، فعظم ذلك على المعز.

كما شغف الناس بسباق الحمام ، وكان يشهد هذا السباق جمهور غفير من الناس، ويكون السباق لبلوغ الغاية بين المتراهنين، وهم أصحاب الحمام المتسابق، فكانوا يرسلون حمامهم مع أشخاص أمناء إلي إحدى المدن التي تكون بداية السباق كما يعينون يوم إطلاقها، وكانوا يعلقون بها ورقة مكتوبا عليها اسم صاحبها، وفي الوقت المعين لوصولها يخرج الناس إلي سطوح دورهم ينتظرون قدوم الحمام .

– اللعب بالخيال والسماجة والتمثيل:

وكان اللعب بالخيال معروفاً ، في العصر العباسي ، فكان لأحد طباخي المأمون ابن يسمى عبَّادة ، وكان من أطيب الناس ، وأخفهم روحاً وأحضرهم نادرة ، فقال له دعبل يوماً: والله لأهجونك، قال: والله! والله! لئن فعلت لأخرجن أمك في الخيال . وكذلك كان الناس يخرجون في بعض الأعياد، ويطوفون الشوارع بالخيال والتماثيل والسماجات .

وكان أصحاب السماجات يلعبون بين يدي الخليفة المتوكل ، وكل منهم متنكر بصورة منكرة ، ويجذبون ثيابه ويضحك منهم ، فلاحظ ذلك إسحق وحذره من أنه يمكن للأعداء أن يندسوا بين هؤلاء المقنعين ويغتالونه. فقال: " يا أبا الحسين ، لا تغضب! فو الله لا تراني على مثلها أبداً ". وبُني للمتوكل بعد ذلك مجلسٌ مُشرف، ينظر منه إلي السماجة.

وكان التمثيل إحدى المهن المنتشرة ببغداد. وتحدث التوحيدي عن تمثيل الحكايات ، وكانت النفقات المخصصة في عهد المقتدر لأصحاب السماجة والمخرفين والمضحكين في قصر الخلافة تصرف من ميزانية القصر. وكان

الناس في مصر يستمتعون بمشاهدة أصحاب السماجات وخاصة في بعض الأعياد ، وكان أصحاب السماجة يهزلون ليضحكوا الناس.

- المتنزهات والحدائق والبساتين:

اهتم الخلفاء العباسيون أيضاً بالمتنزهات والحدائق، تابعهم في هـــذا النـــشاط الترويحـــي الوزراء ورجال الدولة الكبار، بغية جعل الترفيه في متناول الناس أجمعـــين. فكانـــت المتنزهـــات والحدائق العامة تضم أنواع الأشجار والأزهـــار والورود، يقصدها الناس للتسلية. وكان أكثـــر القوم عناية بأمر إنشاء البـــساتين والولـــوع في تنسيقها، هم الخلفـــاء والأمـــراء والـــسلاطين والوزراء وأعيان الناس وأماثلهم من ذوي المـــال والغنى. فكانت هذه المتنزهات تمتليء بأشـــجار الفواكه المختلفة ، حتى يغلب عليها التفنن بأمور الفاكهة ، زيادة في طيب الرائحة واللون.

أما المتنزهات التابعة للديارات، فقد تميزت بجمالها وطيب مواقعها ورقة هوائها وعذوبة مائها، وكثرة فواكهها، إذ أدت دور الوظيفة الترويحية والترفيهية للناس، لأنهم إذ يجدون فيها متنفساً لهم وقت الراحة . وكانت هذه المتنزهات محط أنظار جمهرة من الأدباء والشعراء والبلدانيين والمؤرخين فوصفوا مواقعها الجميلة وكثرة مياهها وفواكهها، وتغنوا بمحاسنها وبما وجدوه فيها من مجالي الأنس والطرب ومواطن النزهة واللهو ، وأشاروا أحياناً إلي بعض الأحداث التاريخية التي ألمت بها. وقد ارتادها الخلفاء والأمراء والوزراء وأعيان القوم ، فضلاً عن العامة. والمتنزهات التي أوردها المؤرخون كثيرة موزعة في العراق، ومصر، والشام، وفلسطين، والجزيرة ، وديار بكر، ونصيبين، وقد وصف الشابشتي نحو ثلاثة وخمسين ديراً، منها سبعة وثلاثون في العراق وثلاثة في الشام وتسعة في مصر وأربعة في الجزيرة.

تكفلت الدراسة بعرض أهم أنواع الرياضة وضروب التسلية التي شهدها الحضارة العربية الإسلامية في أوج ازدهارها في عصر بني العباس، وبيان وظائف تلك النشاطات وأهميتها في حياة أبناء الدولة والمجتمع .

وقد تبين أن عناية بني العباس ومن هم من أرباب الدولة فيها وعامة الشعب قد بلغ شاواً كبيراً، حتى [illegible] تلك النشاطات احتفالات تعقد في المناسبات الدي[illegible] سمة وغيرها. وقد بذل الخلفاء وأبناؤهم والوزراء والولاة ما بوسعهم من الجزل والعطاء وتهيئة الظروف المناسبة لنجاح قيامها في مختلف حواضر الدولة العباسية .

وقد ظهر أن هناك حرصاً كبيراً على مزاولتها من قبل الخلفاء أنفسهم وبطانتهم من ذوي السلطان، وكذلك الهواة والمحترفين من أبناء الشعب. وظهر أيضاً أن أكثر من خليفة أو ولي عهد أو أمير أو هاو بارز، وسجلت الدراسة أبرز الأسماء التي كان لها حضور فعال في مثل هذه النشاطات.

والظاهرة التي نسجلها في هذه الدراسة أن هذه الألعاب الرياضية ــ وما يجري معها من ضروب التسلية ــ كانت كثيرة ومتشعبة ، حددتها الدراسة في ثلاثة محاور هي أنواع الرياضة وضروب التسلية وأهدافها ، مع خاتمة تلقي الضوء في النهاية بإيجاز على أهم النتائج التي خلصنا إليها في هذه الدراسة .

أ . د. كامل طه الويس
" جامعة بغداد "

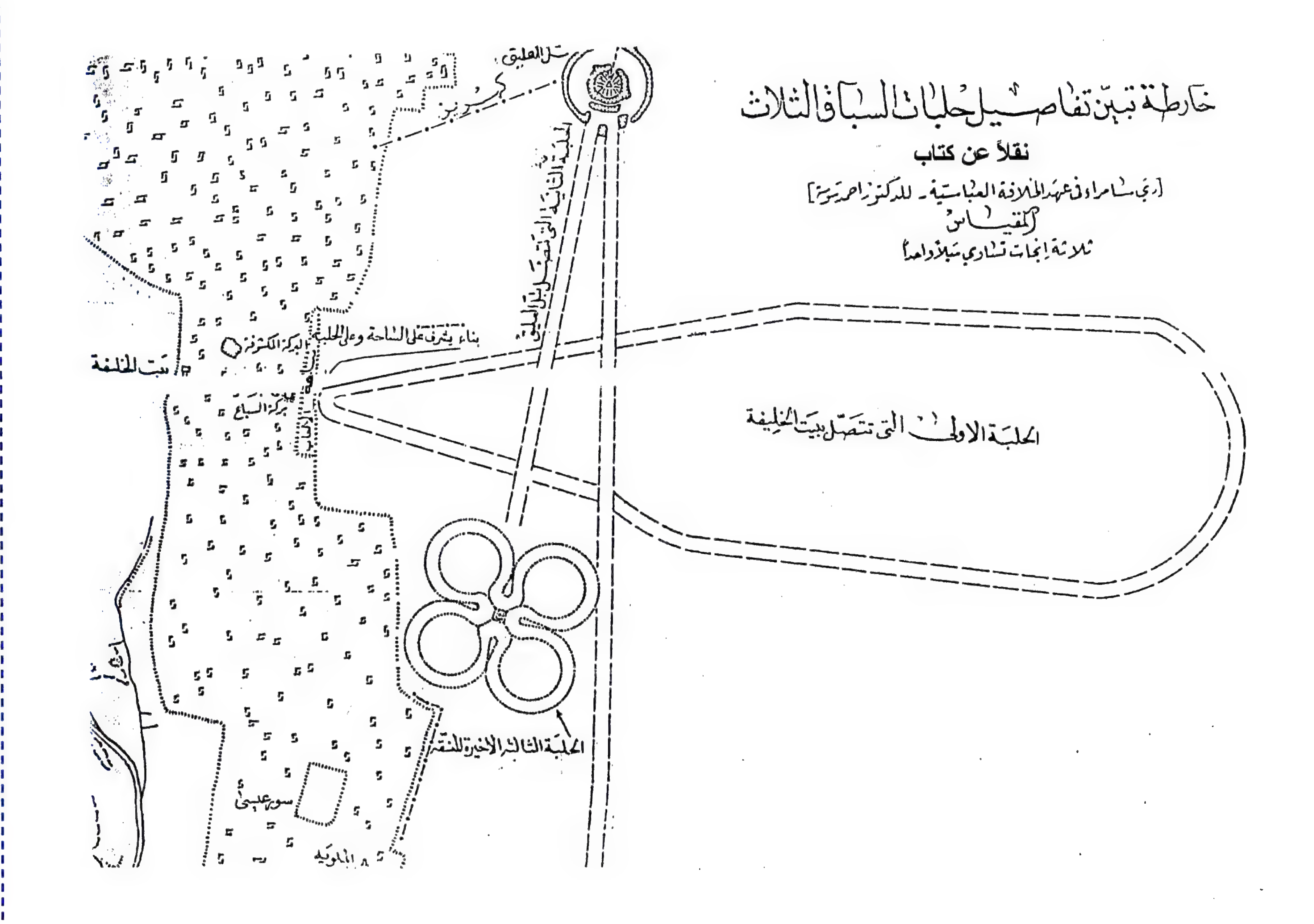
فرسان يحتفلون بيوم العيد بقرية برقعيد، من مقامات الحريري - رسم الواسطي 1237م

المصدر - منارات الحضارة العربية - ص125



طبق من الخزف ذى البريق المعدنى عليه رسم فارس يصطاد بالباز

صورة للحصان العربى الأصيل


خارطة تبين تفاصيل حلبات السباق الثلاث
نقلاً عن كتاب
[ري سامراء في عهد الخلافة العباسية - للدكتور احمد سوسة]
المقياس
ثلاثة إنجات تساوي ميلاً واحداً
تل العليق
الحلبة الثانية التي تتصل بتل العليق
بناء يشرف على الساحة وعلى الحلبة
البركة الكبرى
بيت الخليفة
بركة السباع
الحلبة الأولى التي تتصل ببيت الخليفة
سور عيسى
الملوية

المصادر والمراجع

1 ـــ المصادر :

- **الأبشيهي**، شهاب الدين محمد بن أحمد أبو الفتح ت 850هـ/1446م
1986م المستطرف في كل فن مستظرف ، بيروت .
- **ابن تغري بردي**، جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت 874هـ/1469م
د.ت النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة .
- **ابن جوزي**، أبو الفرج عبد الرحمن ت 597هـ/1200م
1357هـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، حيدر آباد الدكن .
- **ابن الحسين** ، بازيار العزيز بالله الفاطمي، أبو عبد الله الحسن بن الحسين ت ق4هـ/10م
1952م البيزرة ، نظر فيه وعلق عليه محمد كرد علي ، دمشق .
- **ابن خلدون** عبد الرحمن بن محمد ت 808هـ/ 1405م
1978م المقدمة ، الطبعة الأولى ، بيروت .
- **ابن الطقطقي**، محمد بن علي طباطبا ت 709هـ/1309م
1960م الفخري في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية ، بيروت.
- **ابن قتيبة**، أبي محمد عبد الله بن مسلم ت 276هـ/889م
1963م عيون الأخبار، القاهرة، (4 مجلدات) .
- **ابن الكازروني**، ظهر الدين علي بن محمد البغدادي ت 697هـ/1297م
1970م مختصر التاريخ من أول الزمان إلي منتهى دولة بني العباس، تحقيق مصطفى جواد ، بغداد.
- **ابن منظور**، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ت 711هـ/1311م
د.ت لسان العرب ، بيروت(19 جزء).
- **ابن النديم**، أبو الفرج محمد بن إسحاق الوراق ت 438هـ/1047م
1348هـ الفهرست ، مصر .
- **ابن واصل جمال الدين محمد بن سالم** ت 697هـ/1297م
1953م مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، القاهرة .
- **أبو عبيدة**، معمر بن المثنى ت 210هـ/825م
1358هـ كتاب الخيل ، حيدر آباد الدكن، الهند .
- **الأزدي**، محمد بن أحمد أبو المطهر ت 4هـ/ق 10م
1902م حكاية أبي القاسم البغدادي ، تحقيق آدم متز ، هيدلبرج .
- **الأصفهاني** ، أبو الفرج علي بن الحسين ت 356هـ/ 966م
د.ت الأغاني ، بيروت ، (24 مجلد).

- **البنداري** ، الشيخ الإمام الفتح بن علي بن محمد ت 643هـ/1245م
1900م كتاب تاريخ دولة آل سلجوق، مصر .
- **البيروني**، محمد بن أحمد ت 440هـ/1048م
1923م الآثار الباقية عن القرون الخالية، لايبزغ .
- **الجهشياري** ، أبو عبد الله محمد بن عبدوس ت 331هـ/922م
1938م الوزراء والكتاب، القاهرة.
- **السيوطي** ، الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت 911هـ/ 1505م
1988م تاريخ الخلفاء، بيروت.
- **الشابشتي** ، أبو الحسن علي بن محمد ت 388هـ/998م
1966م الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، بغداد .
- **الصابئ** ، أبو الحسن الهلال بن الحسن ت 448هـ/1056م
1964م رسوم دار الخلافة ، تحقيق ميخائيل عواد ، بغداد .
- **الطبري**، أبو جعفر محمد بن جرير ت 310هـ/922م
1985م تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، بيروت، (13 جزء).
- **الفيروز آبادي** ، مجد الدين محمد بن يعقوب ت 817هـ/1414م
1952م القاموس المحيط، القاهرة.
- **القلقشندي**، أحمد بن علي ت 811هـ/1408م
1987م صبح الأعشى في صناعة الإنشا، بيروت ، (14 جزء) .
1980م مآثر الإنافة في معالم الخلافة ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، بيروت (3 أجزاء).
- **كشاجم** ، أبي الفتح محمود بن الحسين ت 360هـ/970م
1954م المصايد والمطارد ، حققه وعلق عليه الدكتور مجد طلس ، بغداد .
- **المسعودي** ، أبو الحسن علي بن الحسين ابن علي ت 346هـ/957م
1958م مروج الذهب ومعادن الجوهر، القاهرة (4 أجزاء) .
- **المقريزي** ، تقي الدين أبو العباس بن علي
د.ت كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المعروف بالخطط المقريزية ، بيروت، (2 مجلد) .
- **النويري** ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت 732هـ/1331م
د.ت نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة ، (18 مجلد) .
- **ياقوت الحموي**، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ت 626هـ/1229م

1963، معجم البلدان ، بيروت (5 مجلدات) .

2 - المراجع العربية والمعرّبة :

- **أيتنكهاوزن** ، ريتشارد
1973م فن التصوير عند العرب، ترجمة وتعليق د. عيسى سلمان ، وسليم طه التكريتي، بغداد .

- **الآلوسي** ، سالم
1994م ميادين السباق في سامراء ، مجلة الأقلام ، العدد 3 لسنة 1994م ، بغداد .

- **الآلوسي** ، محمود شكري
د.ت بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، مصر .

- **أمين** ، عبد القادر حسن
1972م شعراء الطرد عند العرب ، النجف.

- **باشا** ، تيمور أحمد
1948م لعب العرب، القاهرة.

- **جرجي** ، زيدان
1958م تاريخ التمدن الإسلامي، القاهرة (5 أجزاء).

- **جواد، مصطفى**، وأحمد سوسة
1958م دليل خارطة بغداد ، بغداد .

- **الجومرد** ، عبد الجبار
1956م هارون الرشيد ، دراسة تاريخية اجتماعية ، بيروت (جزءان) .

- **حتي** ، فيليب ، وآخرون
1965م تاريخ العرب المطول، بيروت.

- **حسن** ، إبراهيم حسن
1964م تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، العصر العباسي الأول، القاهرة (6 أجزاء) .

- **الدسوقي** ، عمر
1966م الفتوة عند العرب ، مصر.

- **سعد** ، فهمي عبد الرزاق
1983م العامة في بغداد في القرن الثالث والرابع الهجريين ، بيروت .

- **سوسة** ، أحمد
1963م ري سامراء ، فيضانات بغداد في التاريخ ، بغداد (4 أجزاء).

- **ضيف** ، شوقي
1986م العصر العباسي الثاني، القاهرة.

- **العبيدي** ، صلاح حسين
1979م الصيد والقنص في الآثار العربية الإسلامية ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد.

- **علوي**، كامل محمد
1947م الرياضة البدنية عند العرب، القاهرة.

- **عواد** ، ميخائيل
1981م صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي ، بيروت.

- **العياش** ، فيصل رشيد
1985م رياضة السباحة وألعاب الماء، بغداد.

- **فارمر** ، هنري جورج
د.ت تاريخ الموسيقى العربية، بيروت.
- **فهد** ، بدري محمد
1967م العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري، بغداد.
- **القيسي** ، نوري حمودي ، والعبيدي ، صلاح حسين
2001م لعب الأطفال في لسان العرب، مجلة كلية الآداب، العدد 56، لسنة 2001م، كلية الآداب، جامعة بغداد، بغداد.
- **القيسي** ، زهير أحمد
1971م كتاب الشطرنج، بيروت.
1977م الشطرنج في التراث العربي، بغداد.
- **متز** ، آدم
1967م الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، نقلة إلي العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة ،بيروت (مجلدان).

- **الويس** ، كامل طه
1999م الألعاب الترويحية للصبيان عند العرب، مجلة التربية الرياضية، المجلد الثامن ، العدد الثالث، آب 1999 م، كلية التربية الرياضية ، جامعة بغداد.
1994م حلبات سباق الخيل عند العرب، مجلة التربية الرياضية، العــدد الخامس، 1994م، كلية التربية الرياضية، جامعة بغداد.
1999م رياضة السباحة عند العرب، مجلة التربية الرياضية، المجلد الثامن، العدد الرابع، تشرين أول، 1999م، كلية التربية الرياضية، جامعة بغداد.
1998م رياضة الطعن بالرماح، مجلة التربية الرياضية، المجلد السابع، العدد الثالث، آب، 1988م، كلية التربية الرياضية، جامعة بغداد.
1999م رياضة المصارعة عند العرب، مجلة التربية الرياضية، المجلد الثامن، العدد الرابع، تشرين أول، 1999م، كلية التربية الرياضية، جامعة بغداد.
2002م لعبة الشطرنج في العصر العباسي، مجلة التربية الرياضية، المجلد الحادي عشر، العدد الرابع ، 2002م، كلية التربية الرياضية ، جامعة بغداد .
1988م النشاط الترويحي في العصر العباسي، مجلة آفاق، عدد (4) السنة الثالثة عشرة، نيسان، 1988م، بغداد.

3. الأطعمة والأشربة

الطعام والشراب حاجتان أساسيتان لكل البشر ، منحهما الله سبحانه وتعالى للبشر منذ انزل آدم على سطح الأرض ، فقال في محكم كتابه : ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ [طه : الآية 118-119].

أما علم الأطعمة فقد عرفه طاشكبري زاد بأنه (علم باحث عن كيفية تركيب الأطعمة اللذيذة والنافعة بحسب الأمزجة المختلفة) ["1977" 320] وقد أدرجه في الشعبة الخامسة في فروع العلم الطبيعي ، وقسمها إلى عدة عناقيد ، العنقود الأول منها في فروع علم الطب وهي علم التشريح وعلم الكحالة ، وعلم الأطعمة والمزورات.

بدأت الأطعمة بسيطة ومحدودة ولم يظهر التنوع في الطعام والشراب عند العرب قبل الإسلام ولاسيما في البوادي إذ تميزت موائدهم بأنواع محددة من الأطعمة والأشربة وهي بسيطة الصنع بعيدة عن التفنن إلا ان الأمر يختلف إلى حد ما في وصف موائد الحواضر العربية حيث كان الاختلاط بالأمم المجاورة قد أسهم في إدخال بعض أنواع الأطعمة فضلا عن التعرف على طرق طهيها حتى ان تلك الأطعمة ظلت محافظة على تسمياتها الأعجمية.

واتسمت موائد الملوك والأثرياء العرب بأنها كانت حافلة بأنواع مختلفة من الأطعمة والاشربة وقد قال الجاحظ " (إن من ينظر إلى أشعار العرب يعلم أنهم قد أكلوا الطيب وعرفوه ، إلا أن الناعم من الطعام لا يكون ألا عند أهل الثراء).

وقد كانت الأطعمة والأشربة امتدادا لما كانت عليه قبل الإسلام ، إذ اتسمت بالبساطة وقلة التنوع ويعود ذلك لبساطة الحياة وغلبة جانب الزهد والخشونة فيها. أما بدايات التنوع في الأطعمة والأشربة فإن ذلك كان في العصر الراشدي ، ثم بدأ التنوع في الأطعمة والأشربة أيام معاوية بن أبي سفيان حيث أشارت المصادر إلى أنه أول من اتخذ ألوان الأطعمة .

إن ما حصل من التنوع في ألوان الطعام والتفنن في طهيها في العصر الأموي يعود إلى ما اتسمت به حياة العرب بصورة عامة بالتغيير، كما أن الأمويين ادخلوا الكثير من مظاهر الترف في حياتهم الاجتماعية ، ولاسيما في موائد طعامهم.

تعددت أنواع الأطعمة في العصر الأموي واشتهرت منها أنواع بسيطة عند كل الطبقات العامة والخاصة ومثل ما تعددت الأطعمة تعددت مناسباتها وأصبح لكل مناسبة لون خاص من الطعام ، ففي ولائم الزواج يقدم الخبز والثريد . اما الطعام الذي يقدم عند الولادة فإنه يعد من لحم العقيقة التي تنحر سابع يوم الولادة فيعمل منه ثريدا .

كما يقدم للنساء طعام خاص يسمى الغريقة وهي حلبة تضم إلى اللبن والتمر. وهناك أطعمة خاصة بالمرضى ، ومنها التلبينة والغريقة ، وقد حرص الخلفاء الأمويين على وجود الأطباء للإشراف على موائدهم، كما اهتموا بإعداد طعام خاص لكبار السن يتلائم ومقدرتهم على هضمه ، وهو الخزيرة ، وهو طعام يتخذ من اللحم يقطع صغارا على ماء فإذا نضج ذر عليه الدقيق .

أما الأطعمة التي تقدم في الأزمات والمجاعات فأكثرها يتخذ من الدقيق والسمن والدقيق والتمر ، ومنها السخينة وهي أرق من الحساء وأغلظ من العصيدة.

أما الحلويات فقد تعددت أصنافها في العصر الأموي ، ومنها ما يقدم على مائدة الفقراء والزهاد وأخرى على موائد الخاصة والأثرياء وكان تناولها بعد الطعام .

هذه لمحة عن الأطعمة والأشربة في العصر الأموي وفي بداية القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي لابد منها لأنها تعتبر الخطوط العامة للتطور الكبير الذي حصل فيما بعد في العصر العباسي وبالذات في حقبة الازدهار الحضاري.

بلغت الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي أوج عظمتها وذروة فتوحاتها في مشارق الأرض ومغاربها ، فقد فتح العراق والشام ومصر ، وورث العرب ما فيها من حضارات كلدانية وسامية وساسانية وبيزنطية وآرامية ، وكان تأثير هذه الحضارات واسعا شاملا في مختلف نواحي الحياة في العصر العباسي ولاسيما الحياة الاجتماعية.

إن دراسة أحوال الطبقات الاجتماعية له أثره في إظهار عظمة الحضارة العربية الإسلامية وما بلغته من سمو وازدهار .

وموضوع دراسة الحياة الاجتماعية من المواضيع الصعبة لأن القدامى لم يفردوا كتابا مستقلا بهذا الشأن ويعود ذلك كما يقول د.صلاح الدين المنجد إلى أن "الأدباء منهم يقصدون اللهو والمؤرخين وجهوا عنايتهم للسياسة والحرب فأهملوا المجتمع ، والجغرافيون والرحالة وصفوا ما أحاط بهم من مظاهر خارجية وأهملوا التحري والاستقصاء".

ولمعرفة هذا الموضوع لابد من التعرف إلى المراحل التي مرت بها الدولة العربية وبالتحديد العصور العباسية الحقبة التي ترف خلالها الناس فافتنوا في الحياة والمعاش والتفكير واللهو ، وقد طغى الترف فيها على كل شيء – ومنها الأطعمة والأشربة – حتى يمكن تسميتها بـ (حقبة الترف) بدأت في القرن الثاني الهجري أيام الخليفة المهدي العباسي (ت158هـ/374م) وانتهت أواخر القرن الرابع الهجري .

وهناك تفاوت واضح وكبير بين هذه الطبقات ، فالطبقة العامة لا تجد القوت اليومي ، أما الطبقة العليا فتعيش في جو حافل بالجوهر والياقوت والقصور الجميلة وملابس الوشي والخز وطيبات الأطعمة والحلوى والبساتين

والرياض ومجالس اللهو والغناء ، حتى أصبحت هذه الطبقة لها عاداتها ولباسها وطعامها وطباعها ، هم الظراف والمتظرفات . إن نظرة إلى كتاب الموشى تدل على صدق هذا الوصف ، وهكذا عاشت في مدينة بغداد طبقتان اجتماعيتان ، طبقة أصحاب الأموال الذين أعجبتهم بغداد ؛ لما فيها من عيش رغيد وطعام هنيء.

أما الفقراء فقد نظروا إلى بغداد نظرة من ضاقت عليهم على رحبها ولم يستطيعوا العيش بها. هذه الحال الاجتماعية كان لها نتائج مهمة في حياة المجتمع العباسي لأن غزارة الأموال في يد الخلفاء والوزراء والأمراء ، وقلة الأموال في يد سواهم جعل فن الطبخ لا يزدهر إلا في قصور الخلفاء ولاتتعدد أصنافه وتتنوع ألوانه إلا على يد طباخ ماهر . " وفن الطبخ أو الطبيخ مظهر من مظاهر الحضارة العربية الإسلامية وإن هذه المظاهر متعددة ومتنوعة تتغير وتتطور على حسب الأزمنة والأمكنة ، وتتميز تبعا لعوامل اجتماعية واقتصادية وثقافية ، ولكنها مع هذا التنوع ، وهذا التلون تحافظ على صفة الاستقرار النسبي وصيغة المرونة ، وتدخل دائما في إطار تخضع حدوده لعامل الوحدة والشمولية بقطع النظر عن الجزئيات الطارئة والخصوصيات الإقليمية ، إنه التفاعل والتكامل اللذان يميزان الوطن العربي في شرقه وغربه عن سائر البيئات " [التجيبي "1984" 5] ، وقد أدرك العرب ما لفن الطبخ من الفضيلة والأثر الحميد في تعديل الأمزجة وإصلاح الأجسام فصرفوا إليه نصيبا وافرا من عنايتهم واهتمامهم ، وإن مصادر دراسة الأطعمة والأشربة متعددة ومتنوعة وهي :

1. ما جاء في القرآن الكريم عن الطعام في عدد من السور بصيغ مختلفة مثل : اطعموا ، طاعم ، يطعم ، طعامك ، طعمتهم ، طعموا ... [المائدة : 93 ؛ الأنعام : 145 ؛ الأحزاب 33 ؛ يس : 47 ؛ المدثر : 44 ؛ قريش : 4] وكذا ما جاء عن الشراب وصفاته فقد ورد في عدد من السور والآيات مثل شرب ، يشرب ، يشربون ، شراب ، شاربين ، شرابك ، شرابه [البقرة: 249،259 ؛ الأنعام : 7 المؤمنون : 33 ؛ الإنسان : 5] .
2. ما جاء في الحديث الشريف ، فقد أشارت كتب الحديث والفقه إلى الكثير مما يخص الطعام والشراب وافردت لذلك أبوابا وفصولا أو كتبا كما سمتها ، منها : كتاب الأطعمة ، وكتاب الأشربة وكتاب الذبائح ، وكتاب الأضاحي ، وكتب الصيام ، كتب أدب المؤأكلة . إضافة إلى ما تناولته هذه الكتب من أمور تخص الزكاة والصدقات والزراعة ، ويمكن أن نضيف إليها كتب الخراج التي تعنى بضريبة الأرض فتذكر أنواع المواد الغذائية من خلال ذكرها لما يجب من الضريبة على هذه المواد . ومع أن المعلومات التي تقدمها هذه الكتب تغلب عليها الصفة الدينية وتتناول قضايا فقهية فإن فيها بعض المعلومات المهمة التي تخص الطعام

والشراب وأنواعهما وفائدهما لحفظ الصحة وآدامة الحياة ليستطيع الإنسان إن يؤدي الفرائض المطالب بها ، فضلا عن أنها من زمن مبكر مسألة لها أهميتها في دراسة تطور الأطعمة وأنواعها والعناية بها ، لذلك لا يمكن إغفالها .

3. كتب اللغة والمعاجم ، تناولت موضوع الطعام والشراب وأنواع الأطعمة وما يتعلق بالمائدة والتسميات المختلفة لأنواع الأطعمة من خلال عنايتها بالألفاظ ودلالاتها وأصلها واشتقاقها ، ومن الأمثلة على ذلك "كتاب المخصص" لابن سيده (ت458هـ/1065م) حيث خصص بابا فيه سماه كتاب الطعام بدأ فيه بـ: أسماء عامة الطعام

وهناك كتب أخرى اهتمت بالألفاظ المعربة التي دخلت المجتمع العربي الإسلامي نتيجة الفتوح والاختلاط بالأمم الأخرى فدخلت أطعمة جديدة ، ولها تسميات غير عربية اهتمت بها هذه الكتب وشرحتها ، ومن الأمثلة على ذلك "كتاب المعرب" للجواليقي(ت540هـ/1145م) ذكر فيه الكلام الأعجمي على حروف المعجم ، وذكر في كتابه مجموعة من الأطعمة والحلوى من خلال ذكره للمفردات الأعجمية فذكر الخشكنان واللوزينج والسكباج وغيرها .

4. دواوين الشعراء التي حفلت بوصف مفصل لأنواع الأطعمة والأشربة ووصف صناعتها ومحتوياتها ، والأمثلة على ذلك كثيرة لا مجال لذكرها كما حفلت كتب الأدب بالكثير من الشعر في وصف الطعام والشراب .

5. كتب التاريخ العام والتراجم والسير وقد وصفت هذه الكثير من الموائد الخاصة بالخلفاء والوزراء والموسرين وما يقدم فيها من أنواع الأطعمة والأشربة والحلوى والفواكه ، وهي تعطي صورة عن البذخ والترف الذي كانت تتسم به هذه الموائد ، وما يستخدم فيها من آنية من الذهب والفضة والبلور ومع أنها تهتم بالجانب الوصفي فإنها لا تخلو من فائدة في موضوع الأطعمة والأشربة ومثال ذلك ما ذكره المسعودي في "مروج الذهب" والصابي (ت448هـ/1056م) في كتابه "تحفه الأمراء في تاريخ الوزراء" حيث أكثر في وصف موائد الوزير أبو الحسن بن الفرات ، وما يقدم فيها من أنواع متعددة من الطعام والشراب والأدوات المستعملة في ذلك .

6. كتب الجغرافية والبلدان والرحلات ، وهي التي تعنى بالأقاليم وطبيعة الأرض والمناخ وأنواع المزروعات وتأثير ذلك على صحة سكان أهل البلد وتحديد الطعام ونوعيته ، ومثال ذلك ما ذكره الجاحظ (ت255هـ/ 869م) في كتابه "البلدان أو الحنين إلى الأوطان" .

أما الرحالة فقد اهتموا بالطعام ، ليس لكونه وسيله لتغذية الجسم بغية الحياة ، بل لأن الطعام

يرتبط بالبيئة والاقتصاد والدين والمعتقدات الشعبية وبمظاهر الحياة الإنسانية المادية والفكرية وعلى هذا الأساس يشكل الطعام مركبا حضاريا في الفكر الإنثوبولوجي .

7. كتب الفلاحة والنبات وهي تعنى بالتربة والمناخ والزراعة ووسائل السقي والتسميد وحماية المزروعات ومواسم الزراعة وبعض الصناعات الغذائية : ومثال ذلك ما ذكره الطغنري الإشبيلي في كتابه "زهرة البستان ونزهة الأذهان" ، فقد أشار إلى عدد من هذه الصناعات الغذائية ومنها صناعة الجبن والألبان. وخصص أبوابا أخرى لصناعة الزبد والسمن وإصلاح ما فسد منهما وباب في طبخ الباذنجان ، وآخر في صناعة خل العنب وصناعة المربيات وغيرها .

8. كتب الثقافة العامة ، وهي كتب تناولت جوانب متعددة من الحياة والفكر فذكرت بعض الحقائق والأفكار العلمية ومنها ما يخص الأطعمة والأشربة وسأشير إليها حسب تسلسلها الزمني.

ومن أقدم هذه الكتب "كتاب المحاسن" لأبي جعفر احمد بن محمد ابن خالد البرقي (ت274هـ/887م أو 280هـ/893م) جمع فيه فنونا مختلفة وخصص فيه كتابا سماه " كتاب المآكل" وأخر سماه " كتاب الماء". وذكر البرقي في كتاب المآكل 127 بابا تخص أنواع الأطعمة وقضايا تخص أدب المؤأكلة وآداب المائدة وأمور أخرى .

اهتم البرقي بأنواع الأطعمة مبينا علاقتها بالصحة وما ذكره في هذا المجال غاية في الأهمية رغم انه ليس من الأطباء ولم يؤثر عنه في سيرته اهتماما بالطب ، فضلا عن أن ما ذكره من حقائق وإن كان على شكل أحاديث وأخبار تغلب عليها الصفة الدينية ، إلا ان هذه المعلومات ذات قيمة في دراسة تطور الأطعمة لانها تمثل دراسة رائدة في هذا المجال ولأن المؤلف رواها عن طريق الصحابة والتابعين الذين عاشوا أواخر القرن الأول والثاني والثالث للهجرة / السابع والثامن والتاسع للميلاد فهي أساس للكتب التي سارت على نهجه وتناولت نفس الموضوع ومنها كتاب "مكارم الأخلاق" للطبرسي (ت 548هـ/1153م) الذي سنشير إليه فيما بعد .

أما كتاب الماء فيذكر فيه 20 بابا تخص فضل الماء وذكرالانية التي يشرب بها . ومن كتب الثقافة العامة مجموعة أخرى منها :

كتاب "العقد الفريد" لاحمد بن عبدربه الأندلسي (ت328هـ/939م) فقد خصص في موسوعته بابا سماه " في الطعام والشراب " استهله بقوله " "... الطعام والشراب بهما نمو الغراسة ، وهما قوام الابدان ، وما عليهما بقاء الأرواح..." .

ومن الكتب كتاب الموشى أو الظرف والظرفاء لمحمد بن إسحاق ابن يحيى الوشاء (ت325هـ/936م) ذكر فيه أمورا تخص أداب الطعام والمائدة والتأنق في الأكل وما إلى ذلك ،

وهو في الواقع يقتصر على طعام وشراب الطبقة المترفة من الموسرين والأثرياء والموصوفين بالظرف والتأنق ، فهو صورة حضارية لمجتمع مترف موغل في الترف خصص الوشاء بابين لموضوع الطعام والشراب هما : باب زي الظرفاء في الطعام . وباب زيهم في الشراب.

أما الثعالبي (ت429هـ/1037 م) فقد خصص في كتابه "ثمار القلوب" الباب (52) في الطعام وما يتصل به ، أشار فيه إلى أنواع الأطعمة والفواكه والحلويات. وخصص الحصري القيرواني (ت453هـ/1061م) في كتابه "زهر الآداب" وثمر الألباب، بابا سماه ألفاظ لأهل العصر في صفات الطعام ومقدماته وموائده وآلاته ، ذكر فيه أنواعا من الأطعمة كالهريسة والفالوذج وأكثر إشاراته شعرية ، ومنها قصائد لابن الرومي في وصف الطعام والفواكه ، كما ذكر أنواع الحلويات وأشار إلى السمك .

أما ابن عبد البر القرطبي (ت463هـ/1070م) فقد خصص في كتابه "بهجة المجالس" وأنس المجالس بابا سماه " باب الطعام والأكل" أشار فيه إلى قضايا حضارية تتفق مع اسم كتابه ، ومنها أدب المائدة والمجالسة في الطعام وغسل اليد ، ومن الكتب الأخرى كتاب سلوك السنن إلى وصف السكن لابن أبي حجلة التلمساني (775هـ/1373م) وهو كتاب موسوعي اهتم فيه بالعمارة والسكن ويقع في (33) بابا خصص عدداً من الأبواب للطعام وهي : الباب (27) في الطباخ والقدور ونبذة عن حوائج الطعام وبعض العادات وأنواع الأطعمة وفي الباب (29) جعله لوصف السفره والخبز وأنواع البقول والباب (30) خصصه للبقول وهو حلية الموائد على حد تعبيره وجعل الباب (31) في أنواع الأطعمة وذكر منافعها ومضارها . أما الباب (32) فقد خصصه للحلوى والمشروب ، وذكر في الباب (33) أوصاف الولائم والزائر والمزور وأدب المائدة ، وهكذا عد التلمساني أمور الطعام والمائدة جزءا من تخطيط المسكن ، وذكر الكثير من القضايا التي تخص أدب المائدة والمؤاكلة .

ومن الكتب الأخرى في هذا الموضوع كتاب "مكارم الأخلاق" لرضي الدين أبو نصر الحسن بن الفضل الطبرسي ، فقد خصص الباب السابع من كتابه في الأكل والشرب وما يتعلق بهما . ويقع في (13) فصلا وتكاد أبوابه وفصوله تكون نسخة ثانية من كتاب المحاسن للبرقي سوى بعض الإضافات التي اقتضتها طبيعة العصر الذي عاش فيه.

الكتب الطبية :

الطب حفظ الصحة في الأجساد الصحيحة وردها إلى صحتها يقول إسحاق بن سليمان : "إن السبب الذي دعى الأوائل إلى الكلام في طبائع الأغذية هو أنهم لما عنوا بالبحث عن الصحة وأسبابها والأمور الداعية إلى حفظها وجدوا الأبدان مضطرة إلى أمرين أحدهما : إعطاؤها من الغذاء ما يصلحها مما به قوتها وقوامها ... والأخرى هي ما تجمع في الأبدان من

قسم الغذاء المخالف لمزاجها..." والكتب الطبية أكثر الكتب صلة بالأطعمة والأشربة، وقد اهتم الأطباء بهذا الأمر لاضطرار الأبدان وحاجتها إلى الطعام والشراب . وظهر هذا الاهتمام على شكل فصول خاصة بالغذاء والطعام في الكتب الطبية ، ومنها ما ورد في موسوعة أبي زيد احمد بن سهل البلخي (ت322هـ/933م) الموسومة "مصالح الأبدان والأنفس" فقد خصص أبوابا هي:

القول في أنواع الأغذية التي يتغذى بها الإنسان وهي 6 أنواع : اللحوم والألبان والبيض والحبوب والثمار والبقول. ثم ذكر الحبوب وطبيعتها وفائدتها كغذاء وإن كانت أقل من اللحوم لأن اللحم عنده سيد الطعام ، ويقول : ويدمن أهل النعمة على أكله . أما الفواكه والثمار فقد ذكر أنواعها وقيمتها الغذائية ، ثم ذكر البقول وما يصلح منها للغذاء طريا أو مطبوخا. كما خصص بابا لصناعة الطعام سماه : القول في صنعة الطعام ، وذكر فيه ما يطبخ ويشوى ، وما يصلح بنوع آخر ، وهو كطبيب يؤكد دائما على أهمية أي نوع من الغذاء للصحة.

ثم يخصص أبوابا أخرى لأوقات الطعام وترتيب أنواع الطعام عند التقديم والأكل ، ويتبع ذلك بباب أصناف الحلواء ، ثم يخصص بابا يسميه تدبير أحوال المطعم يذكر فيه أمورا تخص طريقة تناول الطعام على قدر الحاجة وعدم الإسراف . أما الباب السادس من كتابه فقد خصصه لتدبير الشراب .

ولابد من الإشارة إلى ما ذكره الرازي (ت 320هـ/932م) في موسوعته "الحاوي في الطب" حيث ذكر بابا عن قوانين استعمال الأطعمة والأشربة لحفظ الصحة ومضار العطش. وما ذكره في كتابه الآخر "المنصوري في الطب" حيث خصص المقالة الثالثة في قوى الأغذية من اللحوم والحبوب والحلواء والتوابل والكوامخ والفواكه والرياحين والمربيات وغيرها . ثم ما ذكره محمد بن إبراهيم بن ساعد السنجاري ابن الأكفاني (749هـ/1238م) في كتابه "غنية اللبيب عند غيبة الطبيب" حيث خصص باباً في تدبير الأغذية بحسب الأمزجة وباباً في شروط مراعاة الغذاء.

أما النوع الثاني من اهتمامات الأطباء فهو الجانب الذي يعنى بالغذاء وعلاقته بالصحة ، حيث ألف الأطباء فيه كتباً برأسها باسم الغذاء أو الأغذية تناولوا فيه الأطعمة والأشربة وطريقة صنعها وهي كثيرة جدا نذكر منها :

"كتاب الأغذية" ليوحنا بن ماسويه (ت243هـ/857م) وله "كتاب الأشربة" أيضا "كتاب الأغذية" ليعقوب بن إسحاق الكندي (ت260هـ/873م) وله رسالة في كيمياء الطبائخ أيضا و"كتاب الأطعمة" لثابت بن قرة الحراني (ت288هـ/900م) و"كتاب منافع الأغذية ودفع مضارها" لأبي بكر الرازي ، ولعل أوسعها "كتاب الأغذية" لإسحاق بن سليمان ،

وهو كتاب واسع شامل يقع في 4 مجلدات ، لكل ما يتعلق بالغذاء والشراب وأنواعها .

كتب الحسبة :

أشارت الكتب المارة الذكر إلى أمور وقواعد تخص الطعام وطرق تناوله وفوائده وما ظهر من أمور يجب مراعاتها لحفظ الصحة ، ولذلك لابد من وجود من يعمل في مراقبة تطبيق هذه القواعد ، وهنا يأتي دور الحسبة .

إن أهمية كتب الحسبة تعود إلى أنها تعطي تفاصيل لكليات وجزئيات الطعام والشراب من خلال المراقبة لأنها المعنية بتطبيق التدابير الخاصة بالطعام والشراب. وكتب الحسبة كثيرة وسنشير إلى واحد منها هو كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة لابن بسام المحتسب .

ضم هذا الكتاب 17 بابا خاصة بالطعام وطريقة صنعه ومنها: الحسبة على الخبازين والسقائين وجزاري الإبل والضأن والقصابين والشوائين والزلابيين والحلوانيين والسماكين والطحانين والهرائسين . وطباخي الولائم ومعاصر الزيت ، وغيرها من الأبواب. لقد ضمت هذه الأبواب معلومات عن مواد الأطعمة وطرق صناعتها والتزام القواعد الصحية في صناعتها ونظافتها .

كتب الطبيخ :

فن الطبخ مظهر من مظاهر الحضارة العربية الإسلامية ، وقد اهتم العرب والمسلمون بفن الطبخ وصرفوا إليه نصيبا وافرا من اهتمامهم ، وكانت حصيلة هذا الاهتمام وتلك العناية أن ألف الكثير في فن الطبخ ، وضمت المكتبة العربية مجموعة طيبة من الكتب في هذا المجال بعضها ألّفه أشخاص كان الطبخ مهنة لهم ، أو من الهواة . وقد عدد ابن النديم في الفهرست مجموعة من هذه الكتب منها : "كتاب الطبيخ" لإبراهيم بن المهدي ، و"كتاب الطبيخ" لعلي بن يحى المنجم ، و"كتاب الطبيخ" لإبراهيم بن العباس الصولي ، و"الطبيخ لابن الداية" وغيرها . ومن الكتب التي وصلتنا في الطبيخ كتاب "وصف الأطعمة" المعتادة لمؤلف مجهول ، وهو مخطوط مصور يقع في 148 ورقة تاريخ نسخه 775هـ/1373م ويقع في 12 بابا ، يبدأ الباب الأول في وصية الطباخ وآدابه وينتهي بالباب الثاني عشر بالأشربة الهاضمة لم ينشر من كتب الطبيخ إلا القليل لانصراف الكثير عن هذا الموضوع على اعتبار أنه موضوع ليس بذي قيمة ، والواقع أنه صورة حضارية رائعة وإنجاز علمي كبير في الحضارة العربية الإسلامية . ومن الكتب التي نشرت في فن الطبيخ :

1. "كتاب الطبيخ" لمحمد بن الحسن البغدادي (ت623هـ/1226م) .
2. "كتاب الطباخة" لجمال الدين يوسف بن المبرد الدمشقي (ت909هـ/1503م).
3. "فضالة الخوان في طيبات الطعام" لأبي الحسن علي بن محمد بن رزين التجيبي الأندلسي(كتب الكتاب ما بين سنة 636هـ/1238م وسنة 640هـ/1266م).

4. "الوصلة إلى الحبيب في وصف الطيبات والطيب" لكمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله بن العديم (ت660هـ/1262م) .
5. "الطبيخ وإصلاح الأغذية المأكولات وطيبات الأطعمة المصنوعات مما استخرج من كتب الطب وألفاظ الطهاة" لأبي نصر بن سيار الوراق (ق4هـ/10م) . وهناك كتب في الطبيخ ألفها أطباء منها : "كتاب الطبيخ وإصلاح الأغذية" لابن ماسويه ، "وكتاب الطبيخ" لأحمد بن الطيب السرخسي ألفه للمعتضد على الأيام والشهور .

و"كتاب الطبيخ" لأبي بكر الرازي ، وهناك أيضا فصول ومقالات في كتب الطب وأغلبها خاص بالمزورات وأطعمة المرضى .

إن كتب الطبيخ ذات أهمية في موضوع الطعام والشراب ؛ لأنها تمثل الجانب العملي في تحضير الطعام ومعرفة تراكيبه وفائدته .

إن ما وصلنا من كتب الطبيخ نستطيع أن نكون منه صورة واضحة عن أنواع الأطعمة والأشربة في أقاليم مهمة من الدولة العربية الإسلامية ، فابن سيار الوراق يعطي تصورا كاملا عن الأطعمة والأشربة في بغداد بلد الحضارة ويعطي بصورة خاصة ما كان موجودا في قصور الخلفاء والوزراء وسراة القوم ، حتى يمكن أن نسمي الكتاب مطبخ الخلفاء لأن كل وصفات الطعام مأخوذة من نسخ لمطابخ الخلفاء في بغداد وسامراء . اما الكتاب الثاني "فضالة الخوان" فقد أعطى صورة لما كان من أطعمة وأشربة في الأندلس والمغرب . اما ابن العديم في كتابه الوصلة إلى الحبيب فقد أعطى صورة عن المآكل الدمشقية . مع الإشارة إلى ان هناك توافق في كثير من الأطعمة والأشربة في الوطن العربي الا ما تقتضيه الخصوصيات الإقليمية.

اتصفت كتب الطبيخ بمنهج واضح في وصف الأطعمة والأشربة وصناعتها وآداب الطباخ وأدوات الطبخ والوقود والسفرة والمائدة وآدابها ثم صلة الطعام بالصحة وما ينفع ويضر منها . ولعل أهم الكتب التي وصلتنا كتاب ابن سيار الوراق والسبب في ذلك أن الكتاب ألف في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي عصر الازدهار الحضاري والتفنن في وسائل العيش , ومنها الطعام والشراب فهو يعطي صورة عن فترة البحث في حين أن الكتب الأخرى متأخرة عن فترة البحث ؛ لأنها من القرن السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين . ضم "كتاب الطبيخ" لابن سيار الوراق (132) بابا , بدأها بأبواب تخص فساد الطبيخ , كما تكلم عن طبائع آلات الطبيخ والمواد التي تصنع منها .

اهتمت كتب الطبيخ بأدوات صنع الطعام والمادة المصنوعة منها وخصائصها وصلاحية كل نوع منها لطعام معين حتى أصبح هذا الأمر جزءاً من منهجها , تستهل به كتبها إضافة إلى أداب الطباخ , فمثلا الوراق يعطي خصائص المادة المصنوعة منها الأدوات ثم يذكر

ما يستحسن منها لطبخ الطعام . فيقول أن النحاس أنثى حارة ، والحديد ذكر يابس ، والبرام باردة يابسة ، والفخار بارد يابس ، والخشب العناب حار رطب وهكذا .

ومن الأمور التي تستحسن عن مؤلفي كتب الطبيخ أن يكون الطبخ في البرام و يجب ان يختار الطباخ القدور البرام ثم الفخار وعند الضرورة النحاس المبيض .

ويرى الوراق أن البرام تفضل لطبخ اللحم والشوربات لصبرها على النار ولين داخلها وسرعة نظافتها وطيب طعمها وأن تؤدي كل ما تستودعه بحاله بلا تغيير ولا استحالة , ولو طبخ بالحديد وانتظر ساعة لحال عن طبعه بالصدأ الذي يخرج من الحديد .

ويفصل ابن رزين التجيبي في هذا الأمر فيقول : لايطبخ في قدر الفخار مرتين عملا بنصيحة الأطباء ويرى أن الطبخ في أواني الذهب والفضة أفضل لو أباحه الشرع . ولكنه يفضل الطبخ في أواني الفخار والحنتم [نوع من الطين تصنع منه الأواني المزججة] وينهي عن الطبخ في أواني الحديد والنحاس لرداءة جوهرها وفضل الطبخ في آنية الحديد إذا تعوهدت بالغسل والتنظيف والتحفظ من صدئها ؛ لأن الإنسان إذا أدام الطبخ فيها أفادت فوائد جمة ويذكر أيضا أنه لا بأس بأواني القصدير قدورا وصحافا ، كما أن الشرب في أواني الزجاج والطبخ لو أمكن أحسن.

وقد أسهب الوراق في وصف أنواع الأواني الخاصة بالطبخ وكل الأدوات المستعملة فقد خصص لذلك أبوابا هي : -

باب فيما يحتاج إليه في المطبخ من آلة الطبيخ والشواء , ذكر فيها القدور الكبار التي تصلح لطبخ السكباجات والحنطيات ، والقدور الأوساط والصغار ولمن تصلح ، والمقالي وغيرها , كما ذكر أدوات أخرى كالسكين الكبير والمستحد والهاون لدق الأبزار وجاون حجر لدق اللحم وخوان خشب يقطع عليه .

وأشار إلى أن المستوقد الذي يطبخ عليه يجب أن يكون مستطيلا منحرفا للتمكن من النار فيه , ولتكن فيه منافذ لخروج الدخان ودخول الريح وأجوده ما كان في نصف قامة الإنسان . كما يجب أن يخزن الأباريز المدقوقة في براني الزجاج.

أما الباب الآخر فقد خصصه لما يحتاج إليه الخباز من آلة الخبز وهي : لوح للتقريص وشوبقان واحد صغير للأرغفة وكبير للرقاق وأجود الشوابق ما عمل من خشب العناب ؛ للينها وقلة تشييطها ومنديل لوجه الخبز قبل أن يخبز ، وصنارة لإخراج الخبز من التنور إذا سقط، ومحراك حديد لنار التنور ومنديل لمسح التنور وغيرها من الأدوات .

ويفضل أن يكون التنور أجوف معتدل السمك , ولتكن عين التنور تلي المغرب لتقابل الرياح إذا احتيج إلى فتحها .

وفي باب ثالث ذكر ما يحتاج إليه الحلواني من آلة الحلواء وهي أدوات متفرقة منها مقلى للزلابية ومشبكات ومغرفة ومصفاة حديد وشوبق وطابق حديد لعمل اللوزينج ، ومنخل لنخل دقيق الأرز وغيرها من الأدوات .

كما أشارت كتب الطبيخ وبشكل خاص إلي ما أشار إليه الوراق في باب كامل خصصه في ذكر ما يطيب به القدر من الأبزار والعطر . ذكر فيه المسك والعنبر وماء الورد والزعفران والدارصيني والقرنفل والمصطكي .

وذكر أيضا فيما يطيب به القدر عدداً من الفواكه اليابسة، كاللوز والجوز والبندق .

ومن الفواكه الرطبة ، الرمان الحامض والحلو والتفاح الحامض والحصرم وغيرها .

ومن الحلو السكر والعسل .

ومن الكوامخ الزيتون والبن .

ومن الحبوب الحمص والباقلاء والعدس واللوبياء والماش .

ومن البقول البصل والثوم والكرفس والكراث والسلق والكسفرة.

ومن الأبازير الفلفل والكمون والكراويا والزنجبيل .

ومن الشراب الخمر المطبوخ، والزبيب العسلي .

ومن الأصباغ الزعفران اللازورد والزنجفر وغيرها .

إن عملية طبخ الطعام وإعداده تتطلب طباخا ماهرا حاذقا ووضعت لذلك أداب أشارت إليها كتب الطبيخ وهي :

1. أن يستعمل الأواني المناسبة لكل طبخة، وأن يعرف خصائص المواد التي تصنع منها آنية الطبخ , وقد مر ذلك .
2. أن يكون الطباخ حاذقا عارفا بقوانين الطبخ بصيرا بصنعته وأن يقص أظافره بحيث لايحيف ولا يتركها تطول لئلا تجتمع الأوساخ تحتها .
3. أن يعرف مقدار الوقود ويختار من الحطب اليابس مما لايكون له دخان ساطع كحطب الزيتون والسنديان ويتجنب حطب التين لأنه كثير الدخان ، وكل ما فيه نداوة .
4. أن يغسل الأواني والقدور بالطين الحر والأشنان والورد اليابس ويمسح القدر بعد غسلها بورق النارنج .
5. أن يختار من الأبازير : الكسفرة ما كان حديثا أخضر اللون يابسا وكذا الكمون والكراويا والدارصيني والمصطكي ما كان حبه كبارا خالياً من التراب والوسخ . ومن الفلفل ما كان حديثا غير عتيق وحبه كبارا وأن يكثر من الأبازيز في السواذج وأكثر منه في القلايا والنواشف في حلوها أكثر من حامضها .
6. أن يختار من الملح الأبيض النقي الخالي من التراب .
7. يختار لدق اللحم هاون من حجر والأبازيز تطحن في رحى طحنا ناعما .
8. إذا غلت القدور أن يبالغ في أخذ الرغوة والزبد ووسخ اللحم وأن يغسل اللحم بالماء

الحار والملح قبل الطبخ وينقيه مـــن الغـــدد والأغشية .

9. أن يفرد لكل قدر مغرفة وللبصل ســكينا لا يقطع بها غيره .

10. يترك الطبخ على نار هادئة بعد نـضجه ساعة واحدة ويصلح المالح بالـــسلق في الماء العذب ويصلح الحريف بالخل.

ويذكر الوراق بابا خاصــا لإصـــلاح الطبيخ إذا احترق سماه : ما يذهب بالاحتراق من القدور المطبوخات . يــذكر فيــه مــثلا : إذا احترقت اللوبياية والعدسية فبخر تحتها بـــصوف يذهب برائحتها . وإذا وجدت الزهومة في سائر القدور فألق فيها جوزة أو جـــوزتين صـــحاحا واتركها ساعة فإنها تنشف الزهومة .

11. أن لايغطى الطعام بعد طبخه إلا بما يخرج منه البخار , مثل المنخل , ويعلل ابـــن رزين ذلك بـــالقول بـــأن الأبخـــرة إذا ترددت ولم تخرج أحدثت في الأطعمة قوة سمية وخاصة السمك . وكذلك يجـــب تغطية القدور وغيرها عند الطبخ فيهـــا بأغطية مثقوبة ثقبا أدق ما يمكن . هــــذا وأمور أخرى كثيرة تدل على تطور فـــن الطبخ وتعدد آدابه ورسومه وقد برع في هذا الفن عدد امتهنوا الطبخ وآخـــرين هواة , وقد شارك عِليّة القـــوم في هـــذا المجال ,وتفننوا فيه مثل إبراهيم بن المهدي عم الخليفة المأمون.

أنواع الأطعمة :

تعددت الأطعمة وتنوعـــت أصـــنافها , ولكنها تتشابه في الكثير من موادهـــا وطريقـــة صنعها في أقاليم الدولة العربية الإســـلامية إلا في بعض الخـــصوصيات الإقليميـــة والتـــسميات وتعددت موادها أيضا وقد ذكرت كتب الطبيخ هذه الأنواع واهتم أكثرهـــا بـــذكر الأطعمـــة المصنوعة من اللحوم على اختلاف أنواعها على اعتبار أن اللحم أقوى الأغذية وأكثرها غـــذاء وقوة للبدن .

اللحوم:

اللحوم على أنواع , ولكل منها خواصه وفائدته للصحة , وهناك مواصفات للجيد منها :

- أن لحوم الحيوانات المسنة والهرمـــة رديئـــة لاخير في أكلها وكلما كان الحيوان اطـــري كان لحمه أجود .
- اللحم الأحمر أغذى من السمين والغليظ من اللحم يصلح لمن يكد ويتعـــب واللطيـــف بالضد.

وقد فصل الوراق في ذلك أكثر من بقية كتب الطبيخ , فهو يعطي خاصية كل نوع مـــن اللحم وفائدته للصحة وذلك يدل على أن النظرة للطعام ليس وسيلة لسد الرمق فحـــسب , بـــل مسألة لها آدابها وقواعدها .

أعطى الوراق خصائص لحم الماعز ولحم الجدي والجمل والبقر وما إلى ذلك , كما عـــدد أنواعا من اللحوم مثل لحوم الطـــير والـــدراج

والقنابر والبط والقطا والفراخ وغيرها مع ذكر خصائص هذه الأنواع وفوائدها للصحة .

ولا يكتفي بالوصف العام لكل هذه الأنواع بل يعطي فائدتها على حسب أعضائها مثل الرؤوس والدماغ والمخ والضرع والكبد والكلى والأكارع .

وهكذا ذكر ابن سيار الوراق (39) أكلة يدخل اللحم في صناعتها وبشكل خاص لحوم الضأن والجداء والبقر والدجاج والسمك , كما ذكر طريقة صنعها ومقاديرها بدقة وأوزان هذه المقادير , ولعل الصعوبة في دراسة هذه الأطعمة ومجال الاستفادة منها ؛ لأن التسميات غريبة على حاضرنا , وكذا المقادير لأنها وضعت في عصر له مسمياته وطبيعته . إلا أن أهمية ما ذكره الوراق تكمن في كونه كتب عن الفترة التي يدور حولها البحث (فترة الازدهار الحضاري) حيث أن أكثر وصفاته مأخوذة من مطابخ الخلفاء ومن نسخ خاصة بمطابخهم .

أما الأطعمة التي يدخل اللحم في صناعتها فهي كثيرة ذكرها الوراق بإسهاب وعدد أنواعا كثيرة منها وهي :

السكباجات والثرايد ، الحصرميات والبستانيات ، والكشكيات والموصليات والبابكيات ، والعدسيات الصفر والطفشيل من الحبوب والبقول والنارنجيات الحلوات والحامضات ، والنرجسيات الصيفيات والشتويات ، والسماقيات والهارونيات والمهوجات من اللحوم والبصليات والهاشميات والمقلويات واللحوم المدقوقات والثرايد الشاميات والثرايد المليقات والقلايا باللحم والطباهجات الرطبات واليابسات والشوى في التنور وشيّ الحم في القدور وشيّ الخراف المحشوة.

إن أكثر الأطعمة التي ذكرها يبدو أغلبها معروف في العراق في بغداد وسامراء وبالذات في مطابخ الخلفاء والأمراء وسراة القوم .

أما ابن رزين التجيبي فيعدد مجموعة من الأطعمة التي تصنع من أنواع اللحوم حيث خصص بابا لكل نوع وقد جعل القسم الثاني من كتابه في أصناف لحوم ذوات الأربع بدأ باللحوم البقرية وعدد (10) أكلات تتخذ من لحم البقر . وهي متشابهة في التسمية وطريقة الصنع مع الوراق والبغدادي.

أما لحوم الضأن فقد وصف (46) نوع يعمل من لحم الضأن , وهو يذكر في كلامه المطبخ المغربي وحين يذكر أكلة شرقية يقول مثلا طباهجة مشرقي .

كما يذكر الخرفان ويشير إلى (16) أكلة منها مشرقية مثل المضيرة أما لحوم الجدي فيذكر منه نوع واحد في حين يفضل أكل هذا اللون في المشرق.

حيث يكثر الوراق من ذكر أنواع تعمل من لحوم الجداء ,كما أشار الى لحوم الوحش وهي لحوم الإبل ، وبقر الوحش والحمار والوعل والغزال وذكر (7) أكلات .

كما ذكر أصناف لحوم الطير ، ومنها لحم الأوز ، ولحوم الدجاج ذكر منها (49) نوع وهي تشابه ما ذكر ابن العديم , ومنها الزيرباجة والكافورية والإبراهيمية . ثم يذكر أن لحم الحجل (5) أنواع ، ولحم فراخ الحمام (10) أنواع ولحم اليمام (8) أنواع ثم لحم الزرازير والعصافير ويشير إلى طبخ الكرش البسيطة والمحشوة . ومن السمك يذكر الحيتان ويتكلم عن (30) نوعاً منه .

أما البغدادي فقد افتتح كلامه بالطعام المصنوع من اللحوم , وذكر (22) أكلة مصنوعة من اللحم ومنها السكباج والإبراهيمية ، وطباهجة والحصرمية والرمانية وغيرها ذكرها في باب الحوامض ، لأن هذه الأكلات تضاف إليها أنواع الحوامض من خل ونارنج وليمون وأنواع الأباريز أيضا.

ويشابه البغدادي في هذا صاحب كتاب الأطعمة المألوفة , ولكنه يذكر (38) أكلة يدخل اللحم في صناعتها , ويضيف على البغدادي أنواعا أخرى منها شيرازيه ، حصرمية كراثية ، مدققة مصرية وحلوية وتسمى فرحانة ، وخيطية وتسمى عرسية وصعيدية يشير إلى أكلات مصرية وذلك يعود إلى أن مؤلف الكتاب ربما يكون من مصر.

أما ابن رزين التجيبي فقد ذكر أنواعا خاصة بالمغرب والأندلس ومنها عمل اللسان الصنهاجي ويصف طريقة صنعها , وذلك يؤخذ من لحم أفخاذ الكبش ويضرب على لوح بقضيب حديد وينقى من العروق ثم يهرس في مهراس هرساً جيدا ويضاف له الملح والفلفل والكزبرة اليابسة وماء وكزبرة خضراء وماء نعناع وقليلاً من ماء البصل , ويضرب الجميع حتى يختلط وتكسر فيه بيضتان ويخلط الجميع خلطاً جيداً ثم يأخذ المنسج ويمد على لوح ثم يؤخذ اللحم المهروس وتجعله فيه وتلفه على اللحم ويكون مستطيلا وتجعله على غربال حتى يجف ثم يوضع في سَفُّود ويشوى حتى ينضج ويحمر ويقدم للأكل وفي الأكلات الأندلسية نوع يسموه بالقلية , وهي أن تؤخذ قصبة الرئة والدوارة والكرش فيسلق الكرش بالماء الساخن حتى يبيض وتنقى الدوارة وتشق وتقطع القصبة والكرش والدوارة صغارا وتجعل في طاجن من فخار أو من حديد ويجعل على اللحم المقطع ماء وملح وزيت وفلفل وكزبرة يابسة وكمون وبصله مقطعة ويحمل على النار حتى يطبخ فإذا طبخ ونضج فيجعل عليه من الخل قدر الحاجة ويترك الطاجن على النار حتى يغلي غلية و الخل عليه أو غليتين ويترل من على النار ويؤكل . أما ابن العديم فيفصل في موضوع اللحوم ولكنه يكثر من الكلام على لحم الدجاج ويذكر أنواعا عديدة من الأطعمة التي تصنع منه أكثر من التي تصنع من اللحوم حيث ذكر (44) نوعاً يصنع من لحم الدجاج .

ويكثر من الكلام على لحوم الدجاج المشوي ويشير إلى أنواع من الشوي فيذكر الدجاج المسمن ومنه (5) أنواع , ومثال ذلك :

الدجاج المسمن : يجعل في سيخ ويحفر في حائط صورة طاقة ويجعل فيها نار فحم ويؤخذ لباب خبز مترل من غربال ويجعل في مقلى أو طبق تحت الدجاجة من غير نار وتشوى على النار وهي في الطاقة فإذا استوى الدجاج يجعل في اللباب سكر وقلب فستق وماء ورد ويحشى فيه الدجاج ويدهن الدجاج عند الشيّ بماء ورد وشيرج مضروب والمقلى او الطبق فيه ملح وكل ساعة يطرى بريشة من ماء الورد والشيرج.

أما الدجاج المطيب فيذكر منه (7) أنواع منها :

الدجاج المطيب ، وطريقة صنعه أن يؤخذ ماء ليمون يخرط فيه بقدونس ونعناع ويسر من سذاب بحيث يكون مانعا ، ويعمل فيه فلفل وكزبرة يابسة وكراويا وأطراف طيب ودارصيني مدقوق ويطحن الدجاج ويجعل في الطيب سخنا في الزيدية وتقلب المرقة عليه يسيرة المقدار ويذكر أطعمة أخرى تعمل من الدجاج وهي أن يؤخذ جلد الدجاج ويحشى ويصف طريقة العمل وأنواع المواد التي تحشى بها الدجاجة. وهكذا يستمر في وصف الأطعمة المصنوعة من الدجاج ، ويذكر ما يضاف إليها من الرمان والسفرجل وماء الحصرم والفستق . ويشكل الفستق عنصرا مهما في هذه الأكلات وذلك لتوفره في بلاد الشام مع الإشارة إلى أن المطبخ الشامي متأثر بالعادات البيزنطية .

كما يذكر ما يضاف إلى الأطعمة من الأبزار ، مثل الكزبرة والتمر هندي والسماق والبقدونس والنارنج .

ومن طريف الأطعمة التي تتخذ من الدجاج حلاوة الدجاج ، عدد ابن العديم أنواعا منها يسميها فستقية وبندقية ولوزية وخشخاشية لبابية ومع طبيخ ورد المربى وخوخية وجرجانية .

قال في وصف الفستقية : يؤخذ قلب فستق يسمط وينشف في الهواء ويدق إلى أن يلعب في دهنه ويؤخذ ملء زبدية جلاب [نوع من الشراب فيه بعض الأعشاب العطرة] وقد عقد عقدا قويا يرمى فيه الفستق ويرفع على النار فإذا غلي يجعل فيه 6 أو 7 دراهم عسل نحل ووزن 5 دراهم نشا مدقوق منخول ويطبخ إلى ان يستوي قوامه ويترل فيه الدجاجة ويعمل فيه سلق مقطوع. أما اللحوم الأخرى فهو يذكرها بإيجاز ويشير إلى عمل الأطعمة المنشفات ومنها السنبوسك ويصف طريقة عملها وهي لاتختلف عما نصنعه اليوم ويذكر منها أنواعا عديدة تتشابه في طريقة صنعها وتختلف بمواد حشوها.

ثم يذكر الشواء وأنواعا منه مثل الشواء الإفرنجي وشواء الراهب والشرائح المصرية والشواء المطيب. ثم يذكر أنواعا من الأطعمة تطبخ باللحم منها الملوخية والباذنجان المحشي .

كما يشير إلى قلي اللحوم وطريقتها وما يضاف إليها من توابل وأبزار ويتحدث عن سلق اللحم وأنواع الأطعمة التي تصنع من اللحم المسلوق ، وهو لايكتفي بوصف أطعمة بلاد

الشام بل يذكر أطعمة خاصة بالمغاربة مثل البديعية ، ويقول : هو من أطعمة المغاربة ويعمل من اللحم مع إضافة مواد منها الأفاويه والأبزار ، كما يذكر الكسكسو المغربي .

ومن الأطعمة المعروفة آنذاك الطعام البارد المتخذ من اللحوم الذي يقدم قبل الطعام الحار . وقد خصص الوراق بابا لذلك سماه عمل البوارد من الأطيار قبل الطعام الحار .

ويذكر صفة باردة من نسخة للمأمون حيث كان للخلفاء العباسيين ولع بالطعام وتعدد أنواعه ، وقد تأثر مطبخهم بالمطبخ الفارسي بحكم دخول عناصر فارسية في البلاط العباسي .

وصف ابن سيار هذه الأكله كالآتي :

يؤخذ خل ومري وتصير فيهما كزبرة يابسة ودارصيني وفلفل وصعتر يابس ورطب وكمون وكرويا وكزبرة رطبة ونعناع وسذاب وكرفس ولب الخيار مع راسن فاسحقه واخلطه وصبه على الفراريج المشوية أو الفراخ . ويذكر أنواعا أخرى من هذا الطعام البارد الذي يقدم قبل الأكل وهي عادة متبعة في المطاعم الغربية الأن .

وأحيانا يذكر الوصفات على شكل مقطوعات شعرية منها لأبي إسحاق الصابي (ت448هـ/1056م) في باردة :

ما في الطعام البارد المعد
أطيب من لحم الدجاج عندي
يؤكل مشويا بماء الحصرم
ألذ ما تأكله من مطعم
فاعمل بعد صباغا عجبا
تأكله يا صاح أكلا طيبا
اعمد إلى عصارة الرمان
وسكر عذب وزعفران
وخردل بسكر وجوز
وخل خمر حاذق ولوز
وألق فيه صعترا وفلفلا
وأنجذانا أبيضا وسنبلا
ودارصينيا وافرا ونعنعا
واجعله بالزيت النقي مشبعا
واقطع سذابا اوافرا
واجعله بالزيت النقي مشبعا
ويعد هذا كراويا وراسنا
يجيء كالوشي إذا ما زينا
وباذروجا وكرفسا ناعما
تلقى صلاحا وطعاما سالما.

ولا تصنع البوارد من لحوم الدجاج والطيور بل من لحوم الضأن والجداء والخراف ومن السمك أيضا.

ومن ذلك باردة من السمك لإبراهيم بن المهدي :

تؤخذ سمكة كبيرة فتلقى في عصير العنب الأحمر في إناء واسع تغوص فيه وتضطرب وتشرب منه ويتداخله جسمها حتى يبين نقصان العصير وحصوله في جوفها . ثم تخرج وتنظف وتشوى وتقدم وتؤكل بصياغ فيه أنجذان وخل خمر وماء الكرفس وماء النعناع والكرويا ولا

معنى لها ولا لسائر السمك إلا بالصباغ فإنما يستطاب أكل السمك فيه .

وقد ذكر بعض الشعراء رجلاً يكذب فشبهه بالسمك بلا صباغ وقال:

أبو إسحاق ليس له دماغ
وليس لماء جلدته دباغ
كأن كلامه سمك طري
تقدمه وليس له صباغ

وكان إبراهيم بن المهدي لايأكل من السمك إلا اللسان فقط ويأكل باقي السمك من حضر ، والأطعمة التي يدخل اللحم في صناعتها كثيرة جدا ولها تسميات عديدة ، بعضها عربي والآخر غير عربي وقد وصفت هذه الأطعمة مع مقاديرها وصفا دقيقا ، ومن هذه الأطعمة السكباجات والثرايد وتتخذ من لحم الضأن أو البقر أو الطيور وقد فصل الوراق في وصف هذه الأكلة وبعضها خاص للخلفاء مثل المأمون والواثق والمعتمد ، أما الهرايس فتعمل من الرز والحنطة مع اللحم ولاتختلف طريقة صنعها عن اليوم إلا قليلا .

وقد يطبخ اللحم مع الأرز ويضاف إليه اللبن والزيت والأباريز وتسمى هذه الأنواع الأرزيات الملبنات . ويطبخ اللحم أيضا مع السبانخ والكرنب وكذا مع الفجل والشلجم . أما الزيرباجات فهي طعام يتخذ من لحم الفروج مع الزيت والحمص المرضوض ويضاف إليه الزعفران ومن الأكلات المشهورة الحماضيات والرمانيات ويدخل اللحم في صناعتها ويضاف إليه البصل والكزبرة الرطبة والحمص المسحوق وبعد نضوج اللحم يضاف إليه حامض الأترج أو الرمان الحامض . ومن الأكلات المشهورة التي لازالت حتى أيامنا هذه ثريد الباقلاء والحمص ولكن سابقا كان يضاف الى الباقلاء الفروج السمين ويطيب بالأبزار ، ويسمى الثريد المفتوت بماء الحمص والباقلاء .

وهكذا وصفت كتب الطبيخ أنواعاً كثيرة من الأطعمة التي يعتبر اللحم عنصرا أساسيا فيها ولامجال لذكرها جميعا . وهي تتشابه في موادها الأساسية أي اللحم وتختلف في طريقة الصنع وإضافة المطيبات . ويبدو مما تذكره كتب الطبيخ في وصفات الطعام أن الشواء هو الأكثر شيوعا ثم القلي والشوي في التنور مشهور ، ولاسيما شوي الخراف والجداء .

البيض:

أشارت كتب الطبيخ إلى أهمية البيض كغذاء ، وذكرت أن أصلح البيض للناس بيض الدجاج ثم البط والدراج ، ولكن بيض البط ردىء وبقية الأنواع من البيض تصلح للدواء وليس للغذاء.

أما الأغذية التي يدخل البيض في صناعتها فهي العجج وهي على أنواع منها مايعمل باللحم أو بلا لحم وقد تعمل بالباقلاء أو الحمص الأخضر.

وطريقة عمل العجج لايختلف عن طريقة صنعها اليوم . وهناك أنواع منها يضاف إليها الحليب والفستق واللوز واللبن وقد يضاف اليها

العسل والكزبرة والكراث . وقد وصفت كتب الطبيخ هذه العجج ومقاديرها وطريقة صنعها .

البقول :

"البقل حلية الموائد" والبقول على أنواع قد تصنع منها أكلات بمفردها وقد تضاف إلى بقية الأطعمة المصنوعة من اللحوم أو الدجاج أو السمك .

وأهم البقول: الخس ، والجرجير والكرفس والنعناع والفجل والقثاء والسبانخ والكراث والقرع والباذنجان واللوبياء والحمص والسلق والجزر وغيرها.

واهتم ابن رزين التجيبي بالبقول حيث خصص القسم السابع من كتابه للبقول وجعله في (10) فصول بدأها بالقرع وذكر (11) أكلة تصنع من القرع ومنها فالوذج من القرع ويسميه الطلبية ["1984" 226] ويبدو أن أكثر البقول شهرة هو الباذنجان فقد ذكر (22) أكلة يدخل في صناعتها .

وهذه الأطعمة تصنع من أنواع البقول دون أن يضاف إليها اللحم ويضاف إليها الأباريز والبيض والثوم والجبن والخل .

وتصنع الأطعمة من البقول أما الخضراء أو اليابسة كما في الحمص واللوبياء والعدس . وقد يصنع من البقول البوارد وقد أشار الوراق إلى باردة معمولة من الباذنجان المحشي ، ومن الباقلاء الخضراء والقرع ، وقد تعمل من أصول السلق وهي أن تسلق البقول وتدق ويضاف إليها فستق مقشر ولوز وزيت وبصل وفلفل وقرنفل.

الأجبان والألبان :

الأجبان من الأغذية المفيدة لصحة الإنسان ووصفت كتب الطبيخ طريقة عملها وصناعتها وهي لاتختلف إلا قليلا عن أيامنا هذه والجبن مفيد لهضم الطعام ؛ لذلك نصحت الكتب الطبية وكتب الطبيخ تناوله بعد الطعام .

وهناك أنواع من الجبن منها القريشة والجاجق وهو من الحليب ويضاف إليه الملح ويوضع في الإنفحة إلى أن يجمد ويطيب بالكزبرة والثوم والنعناع .

ويذكر ابن رزين التجيبي طرقاً لإصلاح الجبن والزبد إذا فسد مثلا يقول ما يمسك اللبن الحليب ألا يحمض سريعا : تأخذ من الجبن الطري وتلقيه في إناء الحليب فإنه يمنعه من الحموضة.

أما الجبن إذا فسد فيقول : يقشر الجبن ويقطع إلى قطع صغار ويوضع في قضيب رقيق من عود ويشوى بالنار حتى يحمر من كل جانب فيذهب فساده .

أما الزبد إذا فسد ، يؤخذ صفو ماء طبيخ شجر الأسيت ويطبخ به فإنه يصبح طيبا رطبا .

وقد فصل في وصف طريقة عمل اللبن والجبن ، ولامجال لذكرها هنا .

الصلص :

وهي نوع من المقبلات وهي على أصناف عديدة تدخل الخضر في صناعتها ، منها مثلا صلص أخضر ويعمل من ورق البقدونس ، ينقى من عيدانه ويجعل في جرن ويدق حتى يبقى

مثل المرهم ويجعل عليه ثوم وفلفل ويسقى بخل ويدق قليلا حتى يأخذ قوام الصلص ويؤكل .

وقد يعمل الصلص بماء الحصرم وهو أن يأخذ ماء الحصرم ويدق قلب جوز أو قلب بندق محمص مقشور دقا ناعما وثوم وكزبرة يابسة وفلفل وقليل من صعتر وسذاب [نبات عشبي بري ومنه أنواع متعددة ومتنوعة الطعم ومنه عطري] ويسقى من ماء الحصرم قليلا ، ويدق حتى يأخذ قوام الصلص.

الكوامخ والمخللات :

ومما يدخل في باب المقبلات والمشهيات الكوامخ والمخللات ، وهي أنواع كثيرة تتخذ من البقول كاللفت ويسمى عمدة المخلل .

وهناك أنواع عديدة منه ، منها ما يعمل لمدة سنة أو دون السنة ،ومنها ما يؤكل في يومه ، ولكل منه طريقة خاصة .

أما طريقة عمل المخلل من اللفت فهو لايختلف عن طريقة صنعه في أيامنا ، كما يعمل المخلل من الباذنجان والليمون المالح والسفرجل والزبيب والخيار والعنب والبصل والورد . ويذكر الوراق أنواعا من الكامخ تعمل من القرنفل والكرويا وكامخ الورد وكامخ الصعتر وكامخ الريحان .

وهناك أنواع بسيطة من الكامخ وأنواع أخرى محشوّة فمن ذلك ما ذكر عن اللفت المحشي وقد وصف طريقة صنعه كالآتي :

لفت يذبل بملح وماء ، ثم يغسل ويُذَرّ عليه خردل ، ثم يؤخذ زبيب أسود يدق ناعما ويصفى بخل خمر دفعات حتى لايبقى من الزبيب شيء بحيث يكون خاثرا ، وإن كان حامضا يحلى بقليل من دبس أو عسل ، ويجعل فيه نعناع وسذاب وطيب وسمسم مقشور وشهدانق [بزر شجرة القنب ويستخرج منه زيت صناعي] محمص ويجعل في إناء على اللفت على غمرة.

وتصف كتب الطبيخ ضمن الكوامخ عمل الزيتون وتذكر أنواعا كثيرة منه. وقد فصل كل من ابن العديم وابن رزين التجيبي الكلام عن عمل الزيتون وذكر أنواعا منه منها المكلس والأخضر المرصوص . وهذا شيء يعود إلى كثرة وجود الزيتون في بلاد الشام واختصاصها بزراعته ، كما يعود أيضا إلى كثرته في المغرب والأندلس .

الحلويات :

تعددت وتنوعت الحلويات والمواد التي تصنع منها ، وهذا التعدد يدل على أنها وليدة فترة الترف والحضارة ، فهي صورة حضارية تدل على تفنن في وسائل العيش. والعرب تقول : " إن كل طعام ليس فيه حلوى فهو خداج ؛ أي ناقص غير تام".

الجواذيب :

وهي نوع من الأطعمة تتخذ من الأرز ومن رقاق الخبز وشبهها ويدخل في صناعتها الدجاج أو البط ، وقد جعلها الوراق في كتابه مع الحلوى لدخول السكر والعسل في صناعتها .

وقد وصفت أنواع الجواذيب التي كان يتخذها الخلفاء ، وقد تعمل هذه الجواذيب

بإضافة المشمش أو الموز أو البطيخ والزبيب أو الكمأ .

ومن الجواذيب التي صنعت للخليفة المعتمد بالله العباسي جوذابة تتكون من رغيف سميذ تقطع لقما ويصب فيها نصف رطل عسلاً ورطلين سكر طبرزد ، ويصب عليه الماء وتعلق عليه دجاجة .

وقد يضاف إلى الجوذابة القطائف ويضاف إليها لبن حليب حتى يغمرها ، ثم توضع في التنور وتجعل عليها دجاجة سمينة أو أفراخ. ويعدد الوراق أنواعا من الجواذيب تتفق في طريقة الصنع وتختلف في المواد .

الخبيص

نوع من الحلويات يصنع من السكر والشيرج ويضاف إليه العسل وماء الورد ، ويوضع على نار هادئة ويضاف إليه الزعفران حتى يحمر الدهن ، ثم ينشر عليه كفين من دقيق سميذ ويحرك فإذا نضج وأرخى دهنه أنزل وجعل في جام وقدم للأكل . ويبدو أن الخليفة المأمون العباسي كان مولعا بأكل الخبيص ، حيث ذكر الوراق عدداً من الأخبصة عملت للمأمون .

وقد يعمل الخبيص من التمر والتفاح والجزر والخشخاش . وهناك أنواع من الخبيص تعمل بالجوز والسكر واللوز المقشر ، وهناك أيضا أخبصة تعمل بغير نار ، وتسمى بالخبيص اليابس المفتوت.

الشحميات والمهلبيات

الشحميات : نوع من الحلوى يعمل من دقيق السميذ ، مثل عجين الزلابية ثم يلطخ بالبيض ويقلى في التنور حتى يحمر ثم يخرج من المقلى على شكل قرص ويوضع في إناء ويصب عليه العسل ثم يذر عليه سكر ناعم وقد ينشر عليه الفلفل أحيانا .

أما المهلبية : فهي حلوى تصنع من الحليب مع السكر ، وقد يضاف إليها النشا ، وبعد أن تعقد يضاف إليها الجوز أو اللوز وطريقتها لاتختلف عما نعمله اليوم .

اللوزينق

حلوى تتخذ من خبز اللوزينج وتصب على الطابق صبا وبعد أن تبرد يؤخذ سكر الطبرزد المدقوق والفستق واللوز المقشور ويخلط الجميع ويرش عليه ماء ورد نقع من الليل وحبات قرنفل مع السكر ويخلط جيدا ثم يحشى به خبز اللوزينج ويقطع ثم ينضد في جام ويروى دهن اللوز وينشر عليه سكر طبرزد مدقوق .

وهناك نوع من اللوزينج يسمى المغرق ، وهو نفس النوع المذكور إلا أنه يضاف اليه العنبر والمصطكي ، وهو خاص للملوك في الحضر والسفر .

واللوزينج حلوى مشهورة ومعروفة ويضرب المثل بها حتى قيل : إن اللوزينج قاضي قضاة الحلوى ، والخبيص بالسكر خاتمة الخير.

الزلابية

وهي حلوى معروفة حتى أيامنا هذه، كما أن طريقة صنعها هى نفسها اليوم. أما موادها فهي الدقيق والدهن والسكر ويقلى العجين ثم يلقى في العسل المذاب وينثر فوقه السكر المدقوق، وهناك عدة أنواع منها ساذجة أي بسيطة ومحشوة.

وقد أجاد بعض الشعراء في وصفها فقال:

عندي من الحلواء زلابيات
مدورات ومشبكات
صفر وبيض وملونات
بالشيرج المقشور مقلوات
لينة في اللمس ناعمات
في العسل الماذي مغموسات
كقطع العقيان مصفوفات
وقصب الأبريز منسوجات
والبعض في البعض مداخلات
كالوشي أو كالخبز معمولات
في السكر الأبيض مدفونات
عن ناظر العيون محجوبات
نواعم إذا عضضت لينات

القطائف :

نوع من الحلوى شبهت بخمل القطائف التي تفترش. وهي حلوى تعمل من الجوز والسكر الطبرزد ويُلَتُّ العجين بماء الورد والدهن واللوزويجعل في قطائف تكون الواحدة مع حشوها قدر لقمة ثم ينضد في جام ويروى بدهن لوز حديث وينثر في تضاعيفه وفوقه سكر أبيض مدقوق.

ويهتم ابن العديم أكثر من الوراق بالحلويات، فيعدد أنواعا منها، ويذكر ذلك في باب الحلاوات والمخبوزات على حد تعبيره. فيذكر أنواعا خاصة ببلاد الشام، ومنها الخاتونية وطراطير التركمان، وهي أن يؤخذ الدقيق والعجين بماء بلا ملح ويبسط بالشوبك ويقطع بقدح زجاج ويجمع طرفاه ويظفر ويغلى بالشيرج ويجعل أطرافه فيه حتى يقوى ثم يغلى حتى يَحْمَرَّ ويحشى فستقا وسكرا ومسكا وماء ورد ويُذَرّ عليه السكر. ويذكر أنواعا، منها المكشوفة والمأمونية وغيرها.

ومن الحلويات الشامية المشهورة هريسة الفستق وهي أنواع وطريقة صنعها أن يسمط الفستق من قشره الأول وينشف من البلل ويحمص على نار هادئة ويدق ناعما بحيث يلعب في دهنه ثم يضاف اليه صدر دجاجتين ويصلق الدجاج بلا ملح ويعجن بزيت طيب ويبرد وتنزع منه العظام ثم يعقد السكر نصف انعقادة ويرمى فيه صدور الدجاج ويحرك بنشابة فإذا احْمَرَّت الصدور يرمى فيه الفستق ويضرب بالمغرفة مثل الهريسة حتى ينعقد ويجعل فيه نشا مكسور بماء ورد ويجعل في كل رطل فستق أوقية ونصف عسلاً ثم يجعل فيه السلق المقطوع ويصبغ لونه على حسب الطلب ويطيب بمسك وماء ورد ويزين بأقراص ليمون وسكر، وقد تصنع

الهريسة بلا دجاج وتسمى فستقية ، ولا زالت هذه الحلوى معروفة حتى اليوم.

وهناك أنواع من الحلوى تصنع من التمر ، منها معمول من التمر والمريس والكنافة وهي 5 أصناف ، وكل واشكر ، والبسيسة ، البصراوية ويدخل الدجاج في صناعة هذه الحلوى .

وهذه الحلوى على أنواع منها لعامة الناس وأخرى خاصة تصنع للملوك والولاة. ويسمى ابن العديم هذه الحلوى بأسماء المناطق التي تعمل بها مثل: حلوى شيزرية وقاهرية وكبا موصلي وهي ليست الكبة المعروفة اليوم ؛ لأن طريقة عملها هي أن يحمص الدقيق بمفرده ويُبَسَّ بدهن آلية حتى يصير كالفلفل ثم يحشى به دقيق آخر معجون بلا خمير ويترك بلا غطاء ويخبز في التنور أو في طابونة [جرة مقلوبة فتحتها إلى الأعلى يوضع فيها الخبز] ويخرج حارا ويعمل فيه عسل نحل . ويذكر نوعا من الحلاوة يدخل السمك في صناعتها.

الناطف

حلوى تتكون من السكر الأبيض المدقوق ناعما ويجعل في قدر ويصب عليه رطل ماء ويغلي وتخرج رغوته ويوقد تحته نار لينة حتى ينعقد ويلقى عليه من الدقيق ثلث رطل فإذا انعقد جعل على خوان مطلي بدهن لوز أو جوز أو سمن ويقطع بسكين مربعا أو مثلثا ، وقد يضاف إليه الزعفران ليجعله أصفر.

ومن الحلويات العصائد ويخصص لها ابن العديم بابا خاصا . والعصائد على أنواع منها ما تعمل من الأرز باللبن والحليب .

وهناك عصيدة تسمى عصيدة الخلفاء ، وهي قطائف تُبَلُّ بماء الورد وتنزل من غربال وتعقد بعسل نحل وجلاب وزعفران وفستق ومسك وماء ورد .

ومن الأبواب الطريفة التي ذكرها الوراق باب التزيين على الحلواء ، حيث ابتدعوا طريقة لتزيين الحلوى قبل تقديمها . وهي أن يؤخذ من العجين السميذ ويعرك بالزيت ويرتب على شكل أقراص أو أشكال مختلفة على حسب الطلب وتلون بالحمرة والصفرة والخضرة والزرقة ثم تشوى في التنور وينثر عليها السكر الناعم المصبوغ وتزين بها الحلوى .

وقد تقلى هذه الأقراص بالشيرج ثم تعزل ويذاب العسل ويلقى فيه الزعفران حتى يحمر ثم تطلى به الأقراص ثم يذر عليه السكر المكسر وتزين به الحلوى . ومما يلحق بباب الحلوى المربيات ، وهي حلوى تتخذ من الفواكه مثل التفاح والسفرجل والأترج والبسر وقد تعمل من الجزر والفجل ، وطريقة صنعها لاتختلف عن اليوم سوى ما يضاف إليها من المطيبات مثل الزعفران والجوزبوا والقرنفل والدارصيني .

ومما يدخل في باب الحلويات المغربية نوع يسمى الأسفنج ويتكون من السميد ويعجن بماء ساخن ويضاف إليه ملح وخمير ويعجن عجنا قويا

ويسقى بالماء حتى يختمر ثم يقلى بمقلاة من نحاس أو حديد يوضع فيها الزيت فإذا غلي أخذ العجين باليد ويعمل إما قطعا كبارا وتسمى بالإقصاء لا يغمرها الزيت أو صفارا تسمى بالمعذر يكثر الزيت عليها بالمقلاة حتى تحمر وتجفف من الزيت وتقدم للأكل.

الخبز

هناك أنواع من الخبز ، منه الساذج البسيط ويسميه ابن العديم الكعك ، ونوع آخر منه يسميه مفخرا. وقد جعل ابن العديم مع الخبز الخشكنانج في حين جعله الوراق ضمن الحلويات . والخشكنانج خبزا يصنع من خالص دقيق الحنطة وتملأ بالسكر واللوز والفستق . وإذا عجن بشيرج وبسط وملىء بالسكر أو اللوز والفستق وماء الورد وجمع وخبز تسميه أهل الشام المكفن.

والخشكنانج : معروف تكلمت به العرب قال الشاعر :

يا حبذا الكعك بلحم مثرود

وخشكنان وسويق مقنود

ويذكر ابن العديم الكعك والخشكنانج ولايصف طريقة صنعهما ؛ لأنهما معروفان وشهرتهما تغني عن ذكرهما على حد تعبيره . وهناك الخبز التنوري ، وهو ثلاثة أنواع : نوع ساذج يخبز في التنور ، وآخر في التنور ولكن يضاف إليه الجبن ، وثالث خبز فرني مرقد . وهناك نوع من الخبز يعمل بالبيض وهو خاص بالإفرنج والأرمن ويسمى أقلاعون وهناك نوع يسمى البقسماط [الخبز اليابس] ويتكون من دقيق وسكر يُلَتّ ويعجن به ، فإن كانت حلاوته قليلة يزداد سكرا مدقوقا ناعما ويمرق له خميرة بماء يسير ويعمل بقسماطا على حسب الطلب ويخبز في طبق الفرن مرة ثانية بعد أن يخبز أول مرة .

وهناك نوع من الخبز يستعمله أهل الأندلس بكثرة وهو خبز الينيج يعجن ويقرص ويوضع على وجهه سمسم وأنيسون ويعجن طبخه لئلا يفسد .

الأشربة :

الحاجة إلى الشراب تقترن بالحاجة إلى الطعام ولا يقوم أحدهما ولا يكمل فعله إلا بالآخر وقد أشارت بعض كتب الطبيخ إلى الأشربة وأنواعها المسكرة وغير المسكرة والمواد المصنوعة منها وعلاقتها بصحة الإنسان ؛ لأن منها ما يدخل في باب الدواء وآخر في باب الغذاء . كما أشارت إلى طريقة صنعها .

ولعل الوراق أكثرهم ذكرا للأشربة حيث ابتدأ بالماء بالثلج وأعطى مواصفات لشربه ولعلاقة ذلك بالصحة . كما تكلم عن خاصية الماء المبرد في الهواء وذكر أنواع الماء العذب والكدر والمالح والشديد البرودة والحار.

ومن الأشربة التي ذكرها : شراب الفقاع (وهو شراب غير مسكر وسمي فقاعا ؛ لأنه يُخَمَّرُ حتى تعلوه فقاعاته) يتخذ من دقيق الشعير ويذكر فائدته للصحة. وهناك نوع من الفقاع يتخذ من دقيق الحنطة الأبيض ويضاف

إليه النعناع والكرفس والطرخون والسذاب وهو أحسن من فقاع الشعير . وهناك أنواع أخرى من الفقاع الساذج وبالأبزار ، وقد يعمل الفقاع من الخبز السميذ أو من الأرز أو من اللوز.

ومن الفقاع نوع يسمى القرشي يعمل من الدقيق والشعير ويضاف إليه الأبزار . كما أن هناك نوعا اخر يعمل من العسل . ويصف الوراق عدة أشربة تتخذ من السكر وهي غير مسكرة ومنها شراب خاص للشتاء يعمل من العسل وعصير العنب الأبيض فيغلى ويجعل فيه سنبل وقرنفل .

ومن الأشربة ما يعمل من ألبان الإبل والبقر والضأن ويضاف إليها السكر وماء الورد والمصطكي والزعفران ويغلى غلية خفيفة ويبرد. وهناك أشربة مطفئة للحرارة تعمل من الفواكه ذكرها مع طريقة صنعها. وقد تعمل الأشربة من القرع والجزر والراسن والكبر ، أو من شراب الحمص والخشخاش والسلق .

ويعطي الوراق فائدة الأشربة التي تعمل من الفواكه الرطبة ، ومن ذلك شراب التفاح وشراب السفرجل وشراب الرمان والإجاص بالعسل وشراب الخوخ وشراب الحصرم .

ويلاحظ أن هذه الأشربة لاتعمل بسيطة ، بل يضاف إليها العسل وأنواع من الأباريز ، ومن ذلك شراب الرمان حيث يعصر ويغلى ويضاف إليه الأفاويه .

وشراب الحصرم منه أيضا شراب الحصرم الشمسي وماء الليمون وماء النارنج ويصف ابن العديم طريقة صنعه وهي أن يجعل في إناء زجاج قليل من الملح ويؤخذ النارنج ، يقشره إنسان ويعصره اخر والذي يقشره لايغسله فإنه يجيء مرا فاذا عصر يترك حتى يرسب ويؤخذ رائقه ويجعل فيه عروق من سذاب ويرفع في الشمس .

أما ماء السماق فهو أن يؤخذ السماق يدق وتؤخذ زهرته تنقع في ماء يسير ثم تستحلب من خرقة وتصفى ويستعمل الماء . هذه الأشربة التي أشارت إليها كتب الطبيخ وهي المعنية بالطعام والشراب.

إن هذه الأشربة كانت تعمل للخاصة والطبقة الموسرة وبعض وصفاتها أخذت من قصور الخلفاء ومطابخهم .

وهناك أمور أخرى اهتمت بها كتب الطبيخ تتعلق بالصحة وعملية هضم الطعام فوصفت مجموعة من الوصفات التي تعد من مواد مختلفة من أوراق الورد والقرفة والسنبل والكمون والزنجبيل وتخلط هذه المواد بنسب مختلفة وقد يضاف إليها العسل وتجفف ثم تستخدم كمواد هاضمة وتسمى الجوارشنات [أصلها جوارش وهو اسم أعجمي معناه الهاضم] وقد وصف الوراق مجموعة منها.

كما خصص صاحب وصف الأطعمة المعتادة الباب الثاني عشر من كتابه للجوارشنات وسماه في الهاضمات أشار إلى مجموعة منها مع طريقة صنعها ومن الأمور الحضارية التي تدل على الترف وسعة العيش الأبواب التي خصصتها

كتب الطبيخ باب في تصعيد المياه وتطييب رائحة الفم ، حيث خصص ابن العديم بابا مستقلا لذلك وصف فيه عدة مواد منها : الحتت وهي مادة تصنع من الورد الأحمر الطري ويضاف إليه المسك والكافور والقرنفل وماء الورد ثم يستقطر ويحفظ وهناك أنواع من تصعيد ماء الورد الرطب والورد الأزرق والأحمر والأصفر والورد اليابس. كما يصعد ماء الكافور والزعفران والسنبل وماء النمام والقرنفل واللفّاح وغيرها ، ويشير إلى أن هذه الأنواع مذكورة جميعها في كتاب العطر المؤلف للخليفة للمعتصم.

أما ما يطيب النكهة فيذكر ابن العديم مادة تصنع لذلك ، تتكون من عود قرنفل ومسك وزعفران وماء ورد وتعجن وتجعل على شكل حبوب كالحمص وتجفف في الظل وتستخدم . وأشار الوراق إلى مسألة حضارية هي ما تغسل به اليد وذكر من المواد التي تستعمل في غسل اليد السعد والإذخر المكي والأشنان الغليظ الشامي وهو إضافة إلى كونه مادة منظفة ، له فوائد طبية. كما ذكر الخلال من الصفصاف وذكر أنواعا منها الخلال المأموني وأكد على أهميته لتنظيف الإسنان حتى يقول أخذ الخلال من المروءة . وأشار إلى طريقة عمل الأشنان والحلب وذكر وصفات متعددة منه ما يضاف إليه القرنفل والمصطكي والإذخر ومواد أخرى . وهذا كان يعمل للرشيد العباسي . وهناك أشنان للخاصة وآخر للعامة .

وذكر ابن العديم (7) أنواعاً من الأشنان المطيب ، وذكر ما كان يعمل منه للخليفة المأمون العباسي وأشار إلى وصفات متعددة مع طريقة الصنع اقتبسها من كتاب فردوس الحكمة لابن رين الطبري .

أما الصابون فقد ذكر طريقة صنعه وأشار إلى نوع منه سماه الصابون الأصفر .

وخصص ابن رزين التجيبي في كتابه بابا سماه "في الغاسولات" ذكر فيه عدة أنواع من الأشنان لتطييب اليد وأذهاب الرائحة وخصوصاً الأطعمة الدسمة . ويذكر ابن العديم في باب الطيب أنواعا متعددة تصلح لولاة الأمور ويشير إلى نوع من الأدهان المعطرة يسميه دهن الزفر.

ومثل ما اهتمت كتب الطبيخ بالأطعمة والأشربة وطريقة صنعها اهتمت بموضوع آخر يتعلق بالطعام والصحة ولعل الأبواب التي ذكرها الوراق انفرد بها دون بقية كتب الطبيخ فقد ذكر عدة أمور منها :

باب في مايؤكل في الصيف والشتاء ، ويبدأ به من الفواكه قبل الغذاء ذكر فيه مجموعة من الفواكه يستحسن تناولها قبل الغذاء ومنها الرطب ، والعنب ، والتين والرمان وقصب السكر وغيرها .

باب في تدبير الأكل في أوقات الفصول، حيث يفضل الطعام الحار في الشتاء والبارد في الصيف ويحذر من الأطعمة الشديدة البرد أي المبردة على الثلج وأمور أخرى تتعلق بقضايا طبية.

كما تناول أبوابا أخرى تخص مرضى المعدة ، وتكلم أيضا عن الحركة قبل الطعام والرياضة وذكر أموراً طبية كثيرة تتعلق بطبيعة الأغذية وتأثيراتها على جسم الإنسان.

كما خصص بابا لما يأكل النصارى من الطعام المزور في الصيام أي صنع أطعمة من غير لحم وعجة من غير بيض ومضيرة من غير لحم يضاف إليها الطحين والخل بدل اللحم .

كما يصف نوعا من السنبوسج من غير لحم ويحشى بصل وأباريز وتوسع الوراق في أغذية المرضى وخصص عدد ، من الأبواب لها واستعمل في تسميتها السجع مثل :

ما يتغذى به العليل من مزورات البقول وهي أطعمة تعمل للمرضى من غير لحم ولا زيت وتأخذ نفس أسماء الأطعمة المعروفة وأكثرها تعمل من البقول.

باب فيما يتغذى به العليل الجسم من الأمراق واللحم وهو فصل طبي وباب فيما يوافق أصحاب النزلات من الأحساء والحريرات.

وباب في عمل الأمراق من الحبوب للعليل المكروب ويصف منها مرقة حب الرمان والأرز .

وباب آخر فيما يتغذى به أصحاب اليرقان من الشبوط والبنان .

وهكذا لم يترك الوراق شيئا يخص الطعام إلا ذكره.

أدب المائدة

ومن المواضيع ذات الصلة بالأطعمة والأشربة أدب المائدة . كان للعرب آداب ورسوم للمائدة وشروط المؤأكلة ، ومنها ما يتعلق بالخوان والمائدة والسفره وغسل الأيدي قبل الطعام وبعده وطريقة الأكل وأمور أخرى كثيرة .

وكانت هذه الآداب بسيطة تطورت بتطور المرحلة التاريخية وابتدأ هذا التطور في العصر الأموي ووصل أوجه بمجيء العباسيين حيث نمت الحضارة واستقر الناس وتفننوا في وسائل العيش ومنها التفنن في الموائد .

والحقيقة أن أدب المائدة موضوع واسع وطويل يحتاج إلى بحث مستقل ، وهو في الواقع صورة حضارية لمجتمع مترف متحضر ، وسوف نكتفي بالكلام عن الخطوط العامة لأدب المائدة وما يخص أدب المؤأكلة لصلته بموضوع البحث .

ولابد من الإشارة إلى الأدوات التي يوضع عليها الطعام وهي :

السفرة

وهي مدورة تعمل من الخوص وتبسط على الأرض ويتحلق القوم حولها ، وقد تعمل من النسيج أو النحاس ثم غلب استعمالاتها من الأديم لسهولة إزالة الوضر منه.

المائدة

وهي الطعام ، وإن لم يكن هناك طعام فهي خوان، وكانت الموائد غالبا ما تصنع من الخشب لوجوده بكثرة ، ولكن الأغنياء كانوا

يتفننون في صنعها من الذهب أو الفضة أو الرخام أو المرمر أو الجزع .

أما فقد أشار إليها الكثير من المصادر حتى عدها البعض جزءا من مكارم الأخلاق كما عدها الطبرسي في كتابه مكارم الاخلاق ومسكويه في كتابه تهذيب الاخلاق ، كما عدها البعض جزءا أساسيا في تخطيط المسكن كما فعل التلمساني في سلوك السنن إلى وصف السكن .

وقد أعطى الوراق هذه الآداب وكذا الوشاء حيث قدم صورة لأدب المؤاكلة لعلية القوم أو للظرفاء وهي صورة حضارية تعكس ما كان سائدا في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي . ومن هذه الآداب :

- من الآدب ألاّ يحضر المرء موائد الطعام إلا بعد الحصول على دعوة ، ومن يحضر دون دعوة يطلق عليه اسم طفيلي، ويقول الوراق : ليس من المروءة الأكل من طعام لم يدع له ولا حضور مجلس لم يؤمر بحضوره ولا التثقيل في الجلوس ولا الإلحاح في الطلب.
- غسل اليد قبل الطعام وبعده ، وذكر ابن عبدربه أنه من الأدب أن يبدأ صاحب الطعام بغسل يده قبل الطعام ثم يقول لجلسائه : من شاء منكم فليغسل ، فإذا غسل بعد الطعام فليقدمهم ويتأخر.
- ومن الآداب في تقديم الأكل ان تقدم الفاكهة قبل الطعام ومما يذكر عن مجالس الوزير أبي الحسن بن الفرات كان يقدم إلى ضيوفه طبق فيه أصناف الفاكهة، ثم يحمل في الوسط طبق كبير يشتمل على جميع أنواع الفاكهة من خوخ وتفاح وسفرجل، وكل طبق فيه سكين لقطع الفاكهة، ومعه طست زجاج يرمي فيه الثفل. فاذا انتهوا من الفاكهة شيلت الأطباق وقدمت الطسوت والأباريق فغسلوا أيديهم وأحضرت المائدة مغشاة ومن تحتها سفرة أدم وحواليها مناديل الغمر ، ولاتزال ألوان الطعام توضع وترفع أكثر من ساعتين ثم ينهض الضيوف إلى مجلس آخر يغسلون أيديهم والفراشون قيام يصبون الماء والخدم وقوف وعلى أيديهم المناديل ورطليات ماء الورد لمسح أيديهم ، وكانوا ينشفون أيديهم بالمناديل الحريرية.
- ومن الأدب أن يقدم صاحب الدعوة رقعة للمدعوين فيها ما عنده من طعام ليختار كل منهم اللون الذي يرغبه ، وهذه الرقعة هي المعروفة اليوم باسم **menu** ويطلق عليها في العربية اسم الحضض ، أي ألوان الطعام وقد يدعو صاحب الدعوة طباخه ويسأله أمام الضيوف عما عنده من الألوان.
- ومن الأدب أيضا لمن يجالس الملوك أن يكون نظيف الكف نقي الظفر عطر البشرة نظيف الثياب والعمامة .

وقد أشار الوراق والوشاء إلى آداب أخرى تتبع في موائد ذوي اليسار ومنها :

- ألاّ يمد الشخص يده بديا ولا يغمس أصابعه ولا يسرع المضغ ولا يكثر الضحك ولا

يعض اللحم بأسنانه ويرده إلى الصحفة ولا يفت الخبز ولا يغمسه في الدسم ولا يفسخ الدجاج بيده ، بل يقطع بالسكين على مواضع المفاصل.

- ومن الأدب ألاّ يكثر من شرب الماء ولا يتجشأ ولا يمشمش العظام ولا يمص المخ ولا يعض الفواكه إن قدمت قبل الطعام .
- وينبغي للأديب أن يأكل دون الشبع وفوق القوت وأن يصغر لقمته ولا يزدرد قبل أن يجيد المضغ ولايدخل اللقمة إلى الفم إلا بعد أن يزدرد الأولى ولا يعض اللقمة بفمه ثم يعيدها إلى الإناء ولايلاحظ مؤاكليه فيقطعهم عن الأكل .
- أن يأكل بإصبعين بلطافة وهدوء وحسن سمت وألاّ يمص أصابعه مما علق بها من طعام ولايخرج شيئا علق بأسنانه .
- ألاّ ينظر في الإناء عند مضغه لتمييز لقمة أخرى فإن ذلك نقص عند ذوي المروءات .
- أن يحذر التمدد والتمطي والتثاؤب والبصاق وفرقعة الأصابع واللعب بالخاتم والعبث باللحية والعمامة ولا العبث بالفاكهة والرياحين ولا يرمي بثفل ما امتصه من الفاكهة بحيث يرى .
- ومن الأدب أن يكون شربه مصا وكرعه جرعاً.

أما الوشاء فقد أعطى صورة طريفة لأدب المائدة، وهي صورة مبالغ فيها بعض الشيء ولكنها تدل على فن ورقي حضاري ، فمن جملة الأشياء التي ذكرها إضافة إلى ما مر عدة آداب للظريف ، ومنها :

- أن الظريف لا يحتس المرق ولايتبع مواضع الدسم ولايكثرون من الملح وأكل البقل والكوامخ
- لايأكلون في النهار أكثر من أكلة ويجتنبون أكل الفجل والبصل والكراث لرائحتها ولايأكلون قدرا بائتة ولا مسخنة ولايأكلون الحبوب التي تهيج الرياح وتولد القرقرة والانتفاخ.
- ويكثرون من أكل النعناع ويسمونه كافور الفؤاد . أما الفواكه فلا يأكلون كل ما خالطه النوى في الصيف والشتاء . أما الشراب فلا يشربون من الشراب أسوده ولا أجوده ولا يشربون إلا ما صفا. وهكذا رسم الوشاء صورة للظريف من خلال ما يأكل ويشرب .

هذه بعض آداب المائدة، وهي في الواقع صورة حضارية تدل على سبق حضاري حتى أن الغرب أخذ الكثير من هذه العادات حتى قال أحدهم : إن أدب المائدة وفن الطبخ جاءنا من المشرق. وبعد فإن كل ماتقدم يدل على حضارة عربية إسلامية تعددت صورها وبلغت الأوج في كل أمور الحياة. حضارة استوعبت الكثير من الحضارات الأخرى، ولكن هذبتها وطبعتها بطابعهاالخاص وخدمت بها الإنسانية .

أ .نبيلة عبد المنعم داوود
" مركز إحياء التراث العلمى العربي
جامعة بغداد "

المصادر والمراجع

1 ـ المصادر المخطوطة:

- **الإسـرائيلي** ، إسحاق بن سليمان ت330هـ/941م
1986 الأغذية ، مخطوط مصور من معهد العلوم العربية الإسلامية في فرانكفورت – ألمانيا.
- **البلخي** ، أبو زيد أحمد بن سهل ت322هـ/933م
1984 مصالح الأبدان والأنفس ، مخطوط مصور من معهد العلوم العربية الإسلامية في فرانكفورت – ألمانيا .
- **التلمساني** ، أحمد بن يحيى بن أبي بكر ابن عبد الواحد ت775هـ/1373م
سلوك السنن إلى وصف السكن ، مخطوط مصور .
- **مجهول**
وصف الأطعمة المعتادة ، مخطوط مصور.

2 ـ المصادر المطبوعة

- **ابن أبي اصيبعة** ، أحمد بن القاسم بن أبي خليفة ت668هـ/1270م
1956 عيون الانباء في طبقات الأطباء ، بيروت.
- **ابن بسام** ، ابن بسام المحتسب (ت ق 6 هـ/ ق 12م).
1968 نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، تحقيق حسام السامرائي ، بغداد .
- **ابن الجوزي** ، أبو الفرج عبدالرحمن ت597هـ/1200م
1967 اخبار الظراف والمتماجنين ، النجف.
- **ابن رزين التجيبي** ، علي بن محمد بن أبي القاسم بن أبي بكر ق5هـ/11م
1984 فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان ، تحقيق محمد بن شقرون ، بيروت.
- **ابن سيار الوراق** ، أبو نصر ق4هـ/10م
1987م الطبيخ وإصلاح الأغذية المأكولات وطيبات الاطعمة. المصنوعات مما اتخذ من كتب الطب وألفاظ الطهاة ، تحقيق كاي أونبري وسحبان مروة ، هلسنكي .
- **ابن سيدة** ، أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي ت458هـ/1065م
د.ت المخصص ، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، بيروت .
- **ابن عبد البر** ، يوسف بن عبد الله القرطبي ت463هـ/1070م
بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس ، تحقيق محمد مرسي الخولي ، بيروت.
- **ابن عبد ربه** ، أحمد بن محمد الأندلسي ت328هـ/939م

1965 العقد الفريد ، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري ، القاهرة .

- **ابن العديم** ، كمال الدين ابو القاسم عمر ابن احمد ت660هـ/1261م

1986 الوصلة الى الحبيب في وصف الطيبات والطيب . تحقيق سليمى محجوب ، ودرية الخطيب ، حلب .

- **ابن الاكفاني** ، محمد بن ابراهيم بن ساعد السنجاري ت749هـ/1261م

1988 غنية اللبيب عند غيبة الطيب ، تحقيق د. صالح مهدي عباس ، منشورات مركز احياء التراث ، بغداد.

- **ابن منظور** ، جمال الدين محمد بن مكرم ت711هـ/1311م

1968 لسان العرب ، بيروت .

- **ابن النديم** ، محمد بن اسحاق ت 438هـ/1047م

د.ت الفهرست ، مصر .

- **الاصفهاني** ، ابو القاسم حسين بن محمد الراغب ت502هـ/1060م

1961م محاضرات الادباء ومحاورات الشعراء، بيروت .

- **البرقي** ، ابو جعفر احمد بن محمد بن ابي خالد ت274هـ/887م او 280هـ/893م

1964 المحاسن ، النجف .

- **البغدادي** ، محمد بن الحسن ت623هـ/1226م

1964م الطبيخ ، دمشق .

- **البلاذري** ، احمد بن يحيى بن جابر ت279هـ/893م

د.ت انساب الأشراف ، مكتبة المثنى ، بغداد.

- **الثعالبي** ، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل ت429هـ/1037م

1965 ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة .

- **الجاحظ** ، أبو عثمان عمرو بن بحر ت255هـ/869م

1986 البلدان أو الحنين إلى الأوطان، تحقيق د. صالح أحمد العلي ، مجلة المجمع العلمي العراقي لسنة 1948 البخلاء ، تحقيق طه الحاجري، مصر .

- **الجواليقي** ، موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر ت540هـ/1145م

1361هـ المعرب ، تحقيق احمد محمد شاكر، القاهرة .

- **الحصري** ، أبو إسحاق إبراهيم بن علي القيرواني ت453هـ/1061م

(1972) زهر الآداب وثمر الألباب ، بيروت.

- **الرازي** ، أبو بكر محمد بن زكريا ت320هـ/932م

1963 الحاوي ، حيدر آباد الدكن .

1987 المنصوري في الطب ، تحقيق د. حازم البكري ، الكويت .

- **الصابي** ، أبو الحسن هلال بن المحسن ت448هـ/1056م
1958 تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، القاهرة .

- **طاشكبري زاده** ، أحمد بن مصطفى ت968هـ/1560م
1977 مفتاح السعادة ومصباح السيادة، حيدر آباد الدكن .

- **الطبرسي** ، الفضل بن الحسن ت 548هـ/1153م
1988 مكارم الأخلاق ، بغداد .

- **الطغنري** ، محمد بن مالك الغرناطي الإشبيلي ق5هـ/11م
2001 زهرة البستان ونزهة الأذهان، تحقيق د. محمد مولود خلف ، دمشق.

- **العسكري** ، الحسن بن عبدالله بن سهل ت395هـ/1004م
1966 الأوائل ، تحقيق محمد السيد الوكيل، المغرب .

- **الكتبي** ، محمد بن شاكر ت764هـ/1362م
1980 عيون التواريخ ، ج20 ، تحقيق نبيلة عبد المنعم داود ود. فيصل السامر ، بغداد.

- **المسعودي** ، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي ت346هـ/957م
1973 مروج الذهب ومعادن الجوهر، بيروت .

4 ــ المراجع العربية والمعرّبة :

- **الوشاء** ، محمد بن إسحاق بن يحيى ت325هـ/936م
1324هـ الموشى أو الظرف والظرفاء ، بيروت .

- **الآلوسي** ، محمود شكري
1923 بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تصحيح محمد بهجة الأثري، القاهرة.

- **أدي شير**
1908 الالفاظ الفارسية المصرية ، بيروت .

- **داود** ، نبيلة عبدالمنعم
2000 الغذاء والصحة في التراث العربي ، بحث منشور ضمن وقائع الندوة العالمية السادسة لتاريخ العلوم عند العرب – معهد التراث العلمي العربي – بجامعة حلب – حلب.
2000 كتب الطبيخ مصدر لدراسة الصناعات الغذائية ، بحث منشور في وقائع المؤتمر الثالث للجمعية الأردنية لتاريخ العلوم ، أساليب الإنتاج الصناعي والزراعي في الحضارة الإسلامية – الأردن .

- **زيات** ، حبيب
1948 أدب المائدة في الإسلام ، الخزانة الشرقية ، ج3 ، بيروت .
1948 فن الطبخ وإصلاح الأطعمة في الإسلام ، ج4 ، بيروت .

- **الصباغ** ، نجلة قاسم
1981 جوانب الحياة الاجتماعية في عصر الرسالة الإسلامية ، بحث في مجلة آداب الرافدين ، جامعة الموصل العدد 13.
- **عبد الرزاق** ، ماجد عبد الحميد
2002 المائدة أنواعها ورسومها واهميتها في صدر الإسلام والعصر الأموي ، رسالة ماجستير لم تطبع ، كلية الآداب ، جامعة البصرة .
- **علي** ، جواد
1970 المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، بيروت .
- **فنسنك**
1936 المعجم المفهرس لالفاظ الحديث ليدن.
- **فهيم** ، حسين محمد
1989 أدب الرحلات ، سلسلة عالم المعرفة (138) الكويت .
- **لازم** ، مرزبان علي
1997 ألفاظ الحضارة في كتاب نشوار المحاضرة ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة البصرة .
- **المنجد** ، صلاح الدين
د.ت الظرفاء والشحاذون في بغداد وباريس ، دمشق

الفصل الثالث : إسهامات العرب فى الحضارة الإنسانية

1 ـ الطب

2 ـ الصيدلة

3 ـ الرياضيات و الفلك

4 ـ الكيميـــــاء

5 ـ العلوم الإنسانية

6 ـ الموسيقى و الغناء

1- الطب

أبرز معالم الحضارة الإسلامية في القرون الوسطى هي التي كانت في العلوم التطبيقية، وفي مقدمتها الطب. ومن البديهي أن المعرفة- أيا كانت ضروبها- ليست من ابتكار شخص واحد أو شعب معين، بل هي في أيّ مرحلة من مسيرتها الطويلة من أعمال شعوب سبقتها بعد حقبة، فوصلت بعد طول تطواف وتطور لا حصر لهما إلى ما هي عليه في الوقت الراهن. وعلى وجه هذه الحقيقة كانت الحضارة اليونانية حصيلة أفكار هذه الأقوام مبنية على أسس من أفكار من تقدمها من شعوب وادي الرافدين ومعاصريهم بوادي النيل. وعلى هذا فلا مثلبة إذا قيل إن أطباء العالم الإسلامي قد وثّقوا المفاهيم اليونانية في الطب بالتجارب والتطبيق.

ويطلق تعبير (الطب الإسلامي) على هذه الصناعة التي ازدهرت في أيام الدول العربية الإسلامية حتى ظهور النهضة الحديثة في القرن الثالث عشر الهجري(التاسع عشر الميلادي) سواء كان من عمل بها من المسلمين أو من ملة أخرى، وسواء كتبوا أفكارهم باللغة العربية أو بلغة أخرى، وهذا ما نهج على منواله المؤرخ ظهير الدين البيهقي (ت سنة 565هـ/1170م) في كتابه (علماء الإسلام) فترجم لحنين بن إسحاق العبادي، ويوحنا بن ماسويه، وثابت بن قرة الحراني، وأبي الفرج بن الطيب، وموسى بن ميمون القرطبي، وجميع هؤلاء ليسوا من المسلمين. ومثل ذلك عمل من شارك في كتابة مواد دائرة المعارف الإسلامية، دون أن يتقيدوا بمذهب أو دين لمن ترجموا له. بهدف المقارنة بين الطب الإسلامي ونظيره قبل الإسلام كمدخل للكلام عن تطور الطب الإسلامي، فإن الطب العربي قبل الإسلام كان بدائيا ساذجا ينقصه الإسناد العلمي والعقلانية، ومجمله في العلاج بالأعشاب البرية وتناول العسل، وتطبيق الكي والوشم وبتر الأطراف والختان والإخصاء. كما يفهم من المعاجم اللغوية أن العرب مارسوا عملية السطو لإخلاء بقايا الحَبَلِ من جوف الرحم. كما مارسوا عملية الخشعة لاستخلاص الجنين من بطن أمه لحظة وفاتها وهو حي يتحرك. وليس ثمة ما ينفي أن تكون اللمسات الطبية المتطورة التي عرفت عند العرب قبل الإسلام قد انسابت إليهم من بلاد فارس أو إحدى الأقطار البيزنطية، فقد كانت الحيرة المتاخمة لحدود بلاد فارس من الوجهة الحضارية جزءاً من الإمبراطورية الساسانية، وقد عرف فيها صيدلي هو أبو حنين بن إسحاق العبادي، ووجود هذا الصيدلي في هذه المدينة دليل من وجود طبيب، أو هو الصيدلي والطبيب معا. كما عرف في صنعاء اليمن مدرسة طبية كان أساتذتها من الأطباء السريان بجند يسابور أيام كسرى أنو شروان (531-539م) وقد جعلت هذه الاتصالات العرب متأهلين لاستيعاب مزيد من المعرفة الطبية التي حملها النساطرة السريان إليهم حين طاردتهم الكنيسة البيزنطية سنة 436م. وصارت اللغة السريانية في جند يسابور لغة العلم والتعليم، وهي لسان المثقفين من النساطرة بشكل عام.

البختيشوعيون في جند يسابور وفي الأجناد:

استقدم كسرى أنو شروان إلى جند يسابور الطبيب الشامي النسطوري جبرائيل درستاباذ؛ ليكون طبيبه الخاص فيها. وقد يكون جبرائيل هذا هو الجد الأعلى لأسرة بخيشوع التي كسبت شهرة منقطعة النظير في الميدان الطبي وعلى مدى قرنين ونصف من العهد العباسي، واحتفظت بمركزها المرموق في خدمة خلفائه بسبعة من أجيالها.

والسريان من أصل عربي في بصرى الغساسنة بجنوب سوريا، ومن مدن شمالها في الرها والعين زربى بمصيصة الشام، أو رأس العين على ضفاف نهر الخابور، أو في ميافارقين أو أميدا بديار بكر.

وفي سنة 17هـ/638م خضعت جند يسابور الفارسية لقوات الخليفة عمر بن الخطاب ﵁ ودخل أهلها الإسلام، كما تعلم كبار أطبائها اللغة العربية، غير أن معلوماتنا عن تفاصيل تمازج الفكر الإسلامي وتطوره ليستوعب الطب اليوناني في هذه المدينة طحلة جداً.

ومع ما في كتاب (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) لابن أبي أُصَيْبِعَة عن بداية نشأة الطب الإسلامي في تلك الفترة، وتسلسل تطوره بشكل مضطرب ومشوش، فإنه أوسع مصدر عن الطب والأطباء في العصور الإسلامية الأولى.

مصادر تاريخ الطب العربي الإسلامي:

واسم ابن أبي اصبيعية أحمد بن القاسم الخزرجي، وهو من أسرة دمشقية عرفت بالفضل والعلم في أيام الدولة الأيوبية (566هـ/1270م). درس الطب على أكابر أطباء دمشق وفي مقدمتهم شيخ جيله أبي حامد عبد الرحيم الملقب بالخوار (ت 628هـ/1230م) ثم رحل إلى مصر وانضم إلى مجموعة أطباء المستشفى الصلاحي الذي أنشأه السلطان صلاح الدين الأيوبي.

وكان بين أطباء هذا المستشفى أبو العلاء بن النفيس القرشي زميله في دراسة الطب على الخوار بدمشق وأطباء آخرون. ثم غادر ابن أبي أصبيعة القاهرة عائدا إلى دمشق، واستقر أخيرا في صرخد الملاصقة لديار حوران. وفي صرخد أكمل كتابه (الأنباء في طبقات الأطباء)، وفيها توفي سنة 668هـ/1267م.

ويتميز كتاب عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة عن غيره من كتب التراجم بأن مؤلفه كان زميلا لكثير ممن ترجم لهم في كتابه، أو شاهد عيان لكثير من أحداث زمانهم. وقد ضمن كتابه ترجمة زهاء 420 طبيباً، غالبيتهم من المسلمين، والقليل منهم من اليونانيين الأوائل والمتأخرين. وقد حقق الكتاب المستشرق الألماني أوكست موليز، ونشره فى جزأين سنة 1299هـ/1882م، ثم طبع الكتاب في بيروت مرتين، وخير هذه الطبعات هي الأولى التي أصبحت الآن من نوادر الكتب الثمينة.

ولابن أبي أصبيعة – بالإضافة إلى كتابه المذكور – كتاب في حكايات الأطباء في معالجة الأدواء وكتاب آخر في إصابة المنجمين عند العرب، ومن عنوان هذين الكتابين نفترض أن تكون مضامينها شائقة ومفيدة في ممارسة الطب والنجامة، غير أهما ما زالا مفقودين.

وكتاب ثان في تراجم الأطباء لجمال الدين علي بن يوسف القفطي، بعنوان (تاريخ الحكماء) وهذا المؤلف من أسرة كانت تسكن الكوفة في جنوب العراق، ثم هاجرت إلى اليمن ومنه إلى مصر واستقرت أخيرا بقفط. وفي هذه المدينة ولد جمال الدين القفطي وتوفي بحلب سنة 646هـ/1248م.

ويتضمن كتاب ابن القفطي ترجمة 143 طبيبا وعددا من أكبر الفلاسفة والمهندسين من العدادين والمنجمين. ونفهم من هذا الشمول الواسع أن ابن القفطي يعد العلماء المذكورين من فئة الحكماء، وهذا ما يدفعنا إلى إعادة النظر بتعريفَ الحكمة والحكماء.

أما الكتاب الثالث في تراجم الأطباء فهو لابن داوود بن جلجل الأندلسي، بعنوان "طبقات الأطباء والحكماء"، ونفهم من هذا العنوان أن هذا المؤلف يجعل فرقا بين الطبيب والحكيم.

وابن جلجل من أطباء البلاط الأموي بقرطبة أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر (300-350هـ/912-961م) وابنه المستنصر بالله وحفيده هشام المؤيد (ت399هـ/1008م)، وكان له دور مهم وواسع في نشر كتاب هيولي الطب لديوسقريدس بين أطباء الأندلس، وحافز قوى لهم لدراسة الأعشاب الطبية في ديارهم.

الحارث بن كلدة الثقفي ووهب بن منبه وأُثير بن عمريا:

على وجه تعريف الطب الإسلامي – الذي تقدم ذكره – فإن الحارث بن كلدة الثقفي يعدّ من أطباء الإسلام سواء أثبت إسلامه أم لم يثبت، وقد مارس الطب في الطائف قبل الإسلام حتى أيام الخليفة معاوية بن أبي سفيان (ت60هـ/680م)، وسافر إلى اليمن ليستزيد من المعرفة الطبية في مدرستها الطبية التي كان يعمل فيها أطباء من سريان مدرسة جند يسابور، فدهش لمعلوماقم الواسعة في علاج المرضى، وتاق حينذاك إلى أن يرتوي من منابع الطب العليا بجند يسابور فقصدها، وفيها أتقن ممارسة الطب، كما تعلم فيها اللغتين : السريانية واليونانية، أو أحدها على الأقل. وسرعان ما لمع اسمه كطبيب ناجح في معالجة المرضى، فاستدعاه كسرى أنو شروان إلى ديوانه، ودار بينهما حديث في عموميات الطب وجزئياته، وبخاصة في الطب الوقائي، فأعجب كسرى بمعلوماته في هذا الاختصاص، وأمر أن يسجل ما دار بينهما في كتاب، ومضامين هذا اللقاء قريبة جدا من أفكار وهب ابن منبه (ت114هـ/732م) في مركبات جسم الإنسان ووظائف أعضائه ولما كان بن منبه من أهل صنعاء اليمن كانت مطابقة

أفكاره ومعلوماته في الطب مع مفردات حديث الحارث بن كلدة في ديوان كسرى أنو شروان توثّق على الأقل وجود مدرسة طبية في هذه المدينة، وأن كليهما اتصلا بأطباء جند يسابور، مع تفاوت في الزمن.

وعاصر الحارثَ بن كلدة الثقفي طبيبٌ في الكوفة اسمه أثير عمريا السَّكوني (بفتح السين وتاء قبل الآخر) والسَّكوت من بطون العرب تقابل العباديين في ديار الحيرة. وابن عمريا هو الذي حاول إسعاف الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ في الطعنة القاتلة التي ارتكبها عبد الرحمن بن ملجم سنة **40هـ/661م**،كما يروي أن والي الكوفة زياد بن أبيه حين طعن في أصبعه حضر لإسعافه عدد غير قليل من الأطباء، غير أن أحدا من هؤلاء لم يذكر بالاسم، ولما كانت الحيرة لا تبعد سوى أربعة كيلومترات من الكوفة فلا يستبعد أن الذين حضروا كانوا من أطباء الحيرة التي دخلتها الحضارة الساسانية – كما ذكرنا ذلك فيما تقدم.

تحول جذري في الطب أيام الأمويين بدمشق:

في مطلع الدولة الأموية بدمشق سنة **41هـ/ 661م** حدثت نقلة جذرية في مفاهيم الطب، كانت بعيدة عن نظيراتها قبل الإسلام وفي أيام الخلفاء الراشدين، فقد التحق بحاشية الخليفة بن أبي سفيان أطباء أروام ذوو معلومات وتجارب في الطب، وهم ابن آثال وأبناء أسرة بني الحكم الدمشقي، وكان لابن آثال خبرة في تركيب السموم القاتلة، وكانت خدمته لسيده الخليفة في هذا الميدان. كذلك برز كبير هذه الأسرة أبو الحكم الدمشقي، كمرافق للأمير يزيد بن معاوية في رحلته إلى حج بين الله الحرام، كما برز حفيده عيسى بن الحكم الدمشقي في ممارسة الطب، وقد عُمِّرَ طويلا مثل أفراد أسرته الآخرين، حتى أدرك أيام الخليفة هارون الرشيد (**170-193هـ/786-809م**)، وسيأتي الكلام عنه فيما بعد.

وينسب إلى الخليفة معاوية مستشفى بدمشق باسمه، وإذا صح وجود هذا المستشفى فأكثر الاحتمال أن الأطباء الذين ذكرناهم هم الذين أشاروا على الخليفة معاوية بتشييد هذا المستشفى، وهم أيضا الذين عملوا فيه.

توفي الخليفة يزيد بن معاوية سنة **64هـ/683م**، ولما لم يُوَفَّقْ ابنه الأمير خالد بن يزيد إلى تولي الخلافة ممن بعده، مال إلى دراسة صنعة الكيمياء على عالم إسكندراني اسمه مريانوس، وتمكن من معرفتها، ووضع فيها رسائل صارت بعد ذلك أحد مصادر جابر بن حيان فيما كتب في الكيمياء، كما مال إلى دراسة العلوم الطبيعية، وبخاصة الفلك والطب، ونقلت إليه بعض المؤلفات اليونانية بهذين الاختصاصين، كذلك درس الطب على يحي النحوي الديلمي. ويروي ابن القفطي أن خزائن الخلافة الفاطمية حين جردت محتوياتها وجد ضمن مقتنياتها كرتان إحداهما مصنوعة من النحاس، ومخطوط على سطحها اسم الجغرافي الفلكي بطليموس الإسكندراني. والكرة الأخرى مصنوعة من

الذهب على سطحها اسم خالد بن يزيد بن معاوية. وفي هاتين الكرتين إشارة واضحة إلى أن الأمير خالد له علاقة فكرية باختصاص بطليموس في الفلك.

ومن أطباء العصر الأموي رومي اسمه تياذوق، التحق بخدمة الحجاج بن يوسف الثقفي المتوفى بواسط سنة95هـ/714م. ولهذا الطبيب خبرة في تحضير الأدوية وإبدال بعضها ببعض إذا عزّ وجود أحدها. وتياذوق بهذا أول من بحث من أطباء الإسلام فى هذا الموضوع. كما كانت له أول مدرسة لتعليم الطب في الإسلام، وكان أفضل تلامذته فيها فرات بن شحناتا، الذي أعقب شيخه في خدمة الحجاج بن يوسف الثقفي.

وكان الخليفة الأموي السادس الوليد بن عبد الملك (86-96هـ/705-715م) يُعْنَى بأمور الصحة العامة والوقاية من الأمراض، فأمر بحجر المجذومين الذين ينطلقون في شوارع دمشق خشية إعداء الناس بمرضهم، وهذه أول مجذمة عرفت في الإسلام، كما ينسب إلى الخليفة الوليد مستشفى بدمشق، وهو أول مستشفى وثّق المؤرخون وجوده.

وفي خلافة عمر بن عبد العزيز (99-101هـ/717-720م) عرف حدثان لهما علاقة ذات أهمية كبيرة بالطب : أولهما أن الخليفة عمر بن عبد العزيز استدعى صديقه وطبيبه عبد الملك بن أبجر الكناني من الإسكندرية ليطبب ويعلم الطب في أنطاكيا. وفي الحدث الثاني ترجم طبيب بصري اسمه ماسرجويه كناش القس أهرن الإسكندراني من لغته السريانية إلى اللغة العربية، وفي هذا الكتاب ذكر لوباء الجدري، فهو بهذا أول مرجع عن هذا المرض عرف في الإسلام، ثم توسعت المعرفة عنه وبلغت ذروتها بكتابات أبي بكر الرازي بعد نحو ثلاثة قرون.

وماسرجويه يهودي من أصل فارسي، والاحتمال كبير فى أنه درس الطب في جند يسابور قبل أن يغادرها ويستقر في البصرة، وفيها توفي سنة 170هـ/786م. وقد أضاف إلى ترجمة كتاب القس أهرن مقالتين إحداهما في الغذاء والأخرى في أمراض العين ولا يزال كلاهما فى عداد المفقودات.

كذلك عرف في أواخر سِنِى الخلافة الأموية الطبيبان أبو إبراهيم الوليد المذحجي وابنه إبراهيم. وفي محنة الأمويين أيام المذبحة الجماعية التي ألحقها أبو العباس السفاح بالأمراء الأمويين وأتباعهم استطاع الأمير عبد الرحمن حفيد الخليفة هشام بن عبد الملك أن يهرب هو وطبيبه أبو إبراهيم المذحجي ويعبرا الصحراء الإفريقية إلى المغرب الأقصى، وفي هذه الديار لقى الأمير عبد الرحمن ترحيبا من أخواله البربر، وساعدوه على عبور البحر إلى شاطئ إسبانيا، ومنه اتجه نحو قرطبة حيث أسس إمارة صارت نواة الخلافة الأموية في الأندلس، وسماه أبو جعفر المنصور لهذا العمل الخارق صقر قريش.

لا نعرف حجم ثقافة الوليد المذحجي في الطب ومستواها، على أنه لا يستبعدن أن تكون معلوماته أيا كانت مستوياتها قد تمازجت مع معلومات أهل تلك الديار الذين كانوا يقرأون كتابا في الطب بعنوان إبريشم وهو كتاب يرجح أنه على غرار كتاب أبقراط بنفس العنوان، أو هو نفسه مترجما إلى اللغة اللاتينية المحلية، المعروفة باسم البروقانسية، وهي لغة العامة والسوق أكثر مما هي لغة العلم والتعليم.

ذكرنا إلى الآن ستة أطباء فقط في عصر الخلافة الأموية، ولا يعقل أن يكون هؤلاء هم جميع الأطباء في أيام هذه الإمبراطورية التي خاضت جيوشها حروبا طاحنة على ساحة واسعة بين حدود الصين شرقا وشواطئ المحيط الأطلسي غربا دون إسناد طبي بمستوى ضخامة تلك الجيوش، غير أن المؤرخين على ما يبدو لم يهتموا بما يكفي لتسجيل أخبار الأطباء وأعمالهم قدر اهتمامهم بهويات رجال الخلافة وتوسيع جغرافية دولهم لنشر الإسلام وتعزيز العروبة، ولذلك فمن الصعب الوقوف بكفاية واقتناع على التطور الذي دخل على الطب الإسلامي في أيام الدولة الأموية سوى ما تقدم ذكره.

الطب والأطباء في صدر الدولة العباسية:

في صدر الخلافة العباسية أصيب مؤسسها الخليفة القائم بأمر الله أبي عبد الله السفاح (132-136هـ/ 750-754م) بمرض الجدري فاستدعى لعلاجه طبيب من جند يسابور اسمه بختيشوع فكان هذا الطبيب أول من دخل من البختيشوعيين بخدمة الخلفاء العباسيين.

ومرض الخليفة أبو جعفر المنصور – بسبب مشاغله السياسية – بالصداع الشديد المستمر فاستدعي له من جند يسابور عميد أطباء مدرستها جورجيوس بن بختيشوع، وبدخول هذا الطبيب إلى بغداد اتقد مصباح المعرفة الطبية اليونانية في بغداد بنقل الكتب اليونانية إلى اللغة العربية.

غادر جورجيوس بغداد عائدا إلى أهله بجند يسابور بعد أربع سنوات، فاحتل مكانه في خدمة الخليفة المنصور تلامذة جورجيوس وهم ابنه بختيشوع، وعيسى ابن شهلا وإبراهيم وسرجس وجميعهم من السريان، وخير خلف لخير سلف سلوكا وعلما، فاندفع طلاب المعرفة في بغداد إلى تعلم الطب، كما اندفع الخلفاء والأمراء وأعيان الناس إلى تعضيد من يشارك بهذه الصناعة، فصار هذا المنحى في مقدمة الأعمال الأخرى لدى الحكام والرعية، كما نهضت في بغداد في هذه الآونة حركتان عظيمتان هما حركة الترجمة وحركة إنشاء المستشفيات.

حركة الترجمة :

عمل في الترجمة عدد من الأطباء وعلماء اللغة كان أولهم جورجيوس طبيب الخليفة المنصور. ويذكر ابن أبي أصيبعة أكثر من عشرين مترجما كان أغلبهم من السريان ومن مدن متفرقة أشهرهم وأكثرهم كفاية وإنتاجا هو حنين بن إسحاق، وسيأتي الكلام عنه فيما يأتي.

ومما ساعد على انتعاش حركة الترجمة سخاء الخلفاء والأمراء ووجهاء بغداد في العطاء والتكريم. ويروي ابن أبي أصيبعة أن الخليفة المأمون كان يكرم حنينا بإعطائه وزن ما يترجمه ذهبا، وقد يكون في ذلك مبالغة من الراوي المذكور أو شططا في التعبير، إن لم يقصد بذلك الكرم السخي ما يُثَمَّنُ بالذهب. كما لم تكن الذمية عائقا من الاستفادة ممن له مكانة متميزة في الترجمة. وكانت الترجمة إلى العربية ترفع إلى رجال الحكم أو لمن لا يعرفون إلا هذه اللغة، أما الترجمة إلى اللغة السريانية – وهي الأكثر – فكانت تقدم إلى السريانيين بشكل عام، أو بطلب من أحدهم، ذلك لأن أغلبية الأطباء كانوا حتى خلافة المتوكل على الله من تلك الملة، باستثناء طبيب مسلم واحد اسمه أسد بن حاني.

بيت الحكمة في بغداد :

ويلتصق بذكر الترجمة في بغداد اسم بيت الحكمة أو خزانة الحكمة أو بيت العلم –كما تسمى أحيانا– والاسم الأول أعم، وهي مؤسسة لتدارس العلوم التطبيقية في المقام الأول، كالطب وعلم الهيئة وعلم الحيل (الميكانيك) والهندسة، وترجمة كتب هذه العلوم إلى اللغة العربية. وقد أسس هذا البيت الخليفة هارون الرشيد، ورعاه باهتمام بالغ ابن الخليفة المأمون، ومن بعده الخلفاء الذين أعقبوه. ومن شهرة اهتمام الخليفة المأمون بأمور هذه المؤسسة أنه طلب من ملك الروم ثاوفيل أن يوفد إلى بغداد العالم ثاون ليكون ناظرا على بيت الحكمة، ووعده إن أجابه إلى ذلك بهدنة دائمة وإنعامات أخرى جزيلة.

لم نقف على جغرافية بيت الحكمة وهندسته وما فيه من قاعات ومسالك، غير أننا قد لا نبتعد عن الحقيقة إذا تصورنا أن يكون فيها حجرات لمن يدير شؤونها، وأخرى لتجليد الكتب وتزويقها، وأخرى لخزنها، وحجر أخرى للتحفيات التي يعني بها الخلفاء. حين نعلم بيقين أن يوحنا بن ماسويه كان ممن تولى رئاستها، وأن له مدرسة لتعليم الطب، فليس في علمنا ما ينفي أن تكون مدرسته في أحد أركان بيت الحكمة، بالإضافة إلى حلقاته التعليمية التي كان يقيمها في داره. وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى حنين بن إسحاق العبادي حين رأس بيت الحكمة، وله تلاميذ يعلمهم طرق الترجمة أو إصلاح ما يترجمون إلى السريانية أو العربية. ولأهمية بيت الحكمة في نظر الخلفاء كان تعيين من يرأس إدارتها وأمور الترجمة فيها من اختصاصهم

وحدهم، فلا يولون عليها إلا من هو كَفِيٌّ لمهامها فطنة وعلما، دون الالتفات إلى نحلته وشريعته، أو إلى قدرته العالية في الترجمة، بل المهم أن يجيدوا إدارتها واختيار الكتب المفيدة والصالحة للترجمة. ولدينا شواهد على أن رئيس بيت الحكمة يوحنا بن ماسويه لم يشارك في الترجمة بأي قدر، بل كان واجبه إدارة أعمال بيت الحكمة، وسوف نعود إلى الكلام عن ذلك فيما يلي:

المستشفيات الإسلامية :

والحركة الأخرى التي رفعت سمعة الحضارة الإسلامية إلى المقام الأعلى هي إنشاء المستشفيات بشكل متطور لم يسبق له مثيل مناظر. والمستشفى ظاهرة حضارية، ودليل على اهتمام ولاة الأمور بصحة رعاياهم، وتبرز أهميته والحاجة إليه بزيادة السكان في الحواضر الكبيرة.

يتمسك الكتاب ابتداء من ابن أبي أصيبعة (ت668هـ/ 1269م حتى الزمن الراهن بأن أول مستشفى أنشئ في بغداد هو الذي أقيم بأمر من الخليفة هارون الرشيد برآسة الخوزي، وإشراف طبيبه جبرائيل بن بختيشوع، في حين يؤكد المؤرخون الأوائل أن أول مستشفى في بغداد كان في أيام الخليفة المهدي، ثم تلاه المستشفى الذي أنشأه هارون الرشيد. وكان من أطباء مستشفى الخليفة المهدي كل من طبيبه وطبيب جاريته الخيزران، بختيشوع بن جورجيوس وأبو قريش وماسويه الخوزي ومن المحتمل أن يكون هذا المستشفى من حيث هندسته واستعمال فضاءاته على غرار مستشفى جند يسابور الذي عمل فيه الأطباء المذكورين مع الفارق في التطور بعامل الظروف المحلية، والتقاليد الإسلامية. ويسمى المستشفى يومئذ "بيمارستان" أي دار المرضى، كما سمي في وقت متأخر دار الطب. أما في تونس فيسمى دمنة.

وتتابع إنشاء المستشفيات بعد مستشفى الخليفة المهدي، فكان منها في بغداد وحدها عشرة مستشفيات، وفي حواضر الخلافة العباسية زهاء تسعين وكان من أشهر هذه المستشفيات : البيمارستان العضدى والبيمارستان المعتضدي في بغداد، ومستشفى النوري الكبير بدمشق، والمستشفى الناصري والمستشفى المنصوري في القاهرة.

ويتقارب المؤرخون في وصف هندسة هذه المستشفيات وما كان فيها من ردهات للمرضى وحجرات وقاعات للدراسة والتعليم وأقسام للإسعافات الأولية ولصيدلة الأدوية، وردهات للرجال وأخرى للنساء، وردهات لمرضى الزحار مثلا غير ردهات أمراض العين، وهكذا للأمراض الجراحية والعقلية. ويدير المستشفى عدد من الأطباء المتقدمين يطوف بين المرضى ليتفقد راحتهم وحالتهم المرضية، ويستمع إلى شكاواهم ممن يعني بمداراتهم وعلاجهم. وهذا التنظيم لم يكن له مثيل قبل العصور الإسلامية.

ويتناوب الأطباء في الخفارات الليلية، فكانت نوبة جبرائيل بن عبيد الله على سبيل

المثال يومين وليلتين في الأسبوع. كذلك يتناوب أطباء المستشفى العمل في العيادات الخارجية في أيام الجمع ليقدموا الخدمات الطبية للمصلين في حالة تعرضهم لطوارئ مرضية.

ويعمل في هذه المستشفيات كبار الأطباء باختصاصات مختلفة، وجدير أن نذكر أن المستشفى المعتضدي ببغداد كان المدرسة التي تعلم فيها أبو بكر الرازي الطب وممارسته، وأنه في المستشفى العضدي عمل أربعة وعشرون طبيبا، فيهم الجرائحيون والكحالون والمجبرون بالإضافة إلى أطباء الأمراض الباطنة، ولا غرابة في هذا التنويع في اختصاصات الأطباء، فقد كان في بغداد (القرن الثالث الهجري) زهاء **860** طبيبا، سوى شيوخ الطب الكبار وأطباء الخلفاء وأتباعهم. وثمة مستشفيات أخرى متنقلة بحسب ظهور الأوبئة وتحركات الجيوش، ومستشفيات للمساجين وأخرى للمجانين وأخرى للمجذومين.

ولأبي بكر الرازي كتاب في تجارب البيمارستان ألّفه حين كان يدرس الطب في البيمارستان المعتضدي، كما أن لزاهد العلماء (منتصف القرن الخامس الهجري) كتاباً نظيراً له، ولابد أن يكون في هذين الكتابين معلومات تنقصنا معرفتها عن هندسة المستشفيات وإدارتها في الأزمنة المذكورة.

تعليم الطب في العصور الإسلامية :

المستشفيات في العصور الإسلامية هي إحدى الأمكنة التي يتم فيها تعليم الطب، على أن التعليم بشكل عام يحدث حيث يلتقي الطبيب العالم بتلميذه المتعلم، حتى لو كان ذلك في الطرقات، غير أنه يقام عادة في المستشفيات، أو في دور العبادة من المساجد والكنائس، وفي بيوت شيوخ الطب كما يتم أيضا في بيت الحكمة.

ويزودنا ابن أبي أصيبعة بوصف واضح لأحد دروس أبي بكر الرازي، فيتحلق تلامذته حول مكان هذا الشيخ فى صفوف تبعا لقدم التحاقهم بحلقته، ويعرض أمامهم مريضا ليسألوه عن شكواه، وتاريخ بدايتها، وموضعها من جسمه، ثم يسألهم عن تشخيص مرضه، فإن اختلفوا في ذلك يبدأ حينذاك يشرح لهم طريقته في الوصول إلى تشخيص مرضه.

وتقام مثل هذه الطريقة في تعليم الطب في بيوت شيوخ الأطباء حين يزورهم لفيف من زملائهم المبتدئين والمتقدمين في الطب، فتكون هذه الطريقة وأمثالها من طرق التعليم في غير مكان المستشفى بمثابة الدروس النظرية بالمقارنة إلى الدروس السريرية التطبيقية التي تقام إلى جانب المريض في ردهات المستشفى.

ويتم التعليم بعد فترة يحددها اقتناع الشيخ بما اكتسبه تلميذه من دروسه، وكفايته في ممارستها، فيمتحنه قبل أن يجيزه بممارسة المهنة. ويقول أبو بكر الرازي بهذا الصدد (أول ما تسأل عنه الطالب في المواضيع النظرية، فإن عجز عن الجواب فلا تمتحنه في المواضيع

العملية، لأن نجاحه فيها لا يشفع له فى النجاح في الامتحان للحصول على إجازة الممارسة. وقد يعاد امتحان الطبيب المجاز إذا أخطأ في معالجة مريض، وسبب له ضررا جسيما.

وتطورت طريقة امتحان المجازين في زمن الخليفة المقتدر بالله (295-320هـ/908-932م) وصار يجرى الامتحان بمراقبة مناقشة بين مجموع من الممارسين، فيستمع رئيس الأطباء إلى ما يدور بينهم، ليلم بما يعرفه كل واحد منهم في الطب. وحدث مثل هذا الامتحان في أيام خلافة المستنجد بالله (555-566 هـ/1160-1170م). والأطباء الذين يجازون بالممارسة يظلون تحت المراقبة من قبل المحتسب فإذا حدث في ممارستهم ما يثبت ضحالتهم في الطب يحالون حينذاك إلى رئيس الأطباء لإعادة امتحانهم.

العلوم الأساس في الطب الإسلامي :

من المناسب في هذه المرحلة من البحث أن نذكر المعلومات الأساسية التي اعتمدها الأطباء المسلمون في تعلم الطب وتشخيص الأمراض. وكانت تلك المعلومات تتم فى (كليات الطب وهي تشمل في الدرجة الأولى تشريح جسم الإنسان لمعرفة هيئة أعضائه الباطنة ومواطنها، ووظائف كل واحد منها. وأكثر الاحتمال أنهم لم يمارسوا تشريح جسم الإنسان، بل شرّحوا عوضا عنه القرد وبعض الطيور ليقارنوا بها أعضاء جسم الإنسان التي يقرأون عنها في المؤلفات اليونانية، وأول من عمل بهذه الطريقة من التشريح المقارن في العصور الإسلامية هو يوحنا بن ماسويه، وقد دوّن مشاهداته على تشريح القرد الذي كان يستورده الخليفةالمتوكل لهذه الغاية. ومدوناته المذكورة لا تزال ضائعة لا نعرف منها إلى أي مدى عرف ابن ماسويه من تشريح جسم الإنسان بهذه الطريقة. وبأي حال فإن فضل الأطباء المسلمين فى هذا الموضوع أنهم جمعوا شتات هذا العلم الذي كتبه اليونانيون وأضافوا إليها جديدا وأدخلوها موحدة في مؤلفاتهم الموسوعية، ككتاب الملكي المجوسي، وكتاب القانون لابن سينا، والمختارات في الطب لابن هبل البغدادي، وعمدة الجراح لابن القف الكركي. بل إن بعض ما أضافوا إليها لم يكن يعرفه اليونانيون، أو أنهم أخطأوا في وصفه بدقة، فقد اكتشف الأطباء المسلمون عضلة ثالثة في حجر عين بعض الحيوانات لم يكن لها مثيل عند الإنسان، واكتشف ابن النفيس القرشي (ت687هـ/1288م) خطأ كبيرا وقع فيه جالينوس في تشريح القلب ووظيفته في الدورة الدموية. فقد قال : إن في القلب تجويفين يفصلهما حاجز إسفنجي التركيب بمنافذ غير متقابلة ولا ترى بالعين، غير أنها تسبح بانسياب الدم بين جوفي القلب. أما ابن النفيس فقال- وهو مصيب - : إن للقلب أربعة أجواف اثنان في كل منه، وأن بينهما حاجزاً صلداً لا منافذ فيه، وأن الدم ينتقل من جانب إلى جانب من القلب عن طريق الأوعية الدموية التي تنفذ من

البطين الأيمن لتصل عن طريق الرئة إلى الأذين الأيسر ومنه إلى البطين الأيسر ليندفع إلى أطراف الجسم، وبهذه المسيرة يكسب الدم الروح (الأوكسجين) بمروره في الرئة.

كما اكتشف ابن النفيس أن جرم القلب يتغذى من الأوعية الدموية الدقيقة المنبثة في جدرانه لا من الدم الذي في أجوافه الأربعة.

كذلك أخطأ جالينوس في قوله : أن الفك الأسفل في الإنسان مركب من قطعتين فى حين أثبت البغدادي عبد اللطيف (ت629هـ/1231م) من مشاهداته في أيام الموت الجماعي بسبب المجاعة بمصر أن الفك الأسفل فيما يزيد على ألفي جمجمة مكوّن من قطعة واحدة.

وفي "فسلجة" أعضاء الجسم حافظ الأطباء المسلمون أعواما طويلة على تطبيق نظريتي الاستعصاب والأخلاط في تفسير أسباب الأمراض، وكلاهما نظريتان افتراضيتان غير ملموستين. ومفادها أن أصل الأحياء مركبة من عناصر أربعة : هي الهواء والنار والماء والتراب، فإذا انحدر الطعام إلى المعدة تحولت مواده المذكورة إلى ما يسمى "الكيموس"، ومنه يتكون خلط البلغم، وما يبقى منه يصل إلى الكبد عن طريق الأوعية الدموية، وفي الكبد يتكون من قسمه الصافي خلط الدم، ومما يبقى يتكون خلط المِرَّة الصفراء والمِرَّة السوداء، وفي تعادل هذه الأخلاط الأربعة كَمّاً وعملا تكون العافية، وإلاّ آل حال الجسم إلى المرض. وليس في هذه النظرية يومئذ ما ينفي جواز تطبيقها لتشخيص الأمراض وعلاجها، فبقيت مقبولة ومطبقة حتى ظهور النهضة الفكرية الحديثة في أواخر القرن الثامن عشر.

وسمى الأطباء المسلمون الأمراض بحسب اسم العضو المعتل، كذات الرئة، وذات الجنب، والرُّحام والقُلاب (مرض الرحم والقلب) أو بحسب أعراضه وعلاماته كالصرع والشقيقة (الصداع النصفي) أو سموه بشيء يشبهه كداء الفيل، وهو مرض ضخم الرجلين، والحصبة والجدري، لما في علامات هذين المرضين ما يشبه الأرض الحصباء التي تنتو أو تجدر على سطحها صغار الحصى. واكتشفوا الأمراض بسبب الإعداء، كما في حالة الجذام والجرب والجدري.

واستدلوا من اضطراب النبض على مرض القلب، واضطراب التبول على مرض الكلية أو المثانة، ومن لون الغائط على مرض الكبد. واصطلحوا على العلامات التي تدل على الإصابة بمرض بأنها علامات تشخيصية، والعلامات التي تدل على تطوره إلى الأفضل أو الأسوأ علامات بحرانية، وعلى أيامها: أيام البحران.

وافترضوا – وهم على صواب – أن اختلاف أو عدم توازن الأحوال الطبيعية فى حياة الإنسان اليومية تمهّد إلى إصابته بالأمراض، وعرفت تلك الأحوال بالأسباب الستة وهي: الطعام والشراب، والحركة والسكون بما في

ذلك اليقظة والنوم، والأُسر بما في ذلك عسر التبول والإمساك. والاستفزاز بما في ذلك القيء والإسهـــال، والتعـــرّق والمكان والبيئـــة، والاضطرابات النفسية.

وفي فحص المريض ينظر الطبيب (إلى لون بشرته، وبياض عينيه، وحركتها وشرودها) ثم يسأله عن استمرائه للطعام وموضع الشكوى من جسمه، ثم يجسّ (نبضه عن حجمه، وتواتره وكانتظامه وشدة قرعه للإصبع). وقد أجاد أبو بكر الرازي في وصف هذه الأحوال بقوله : (إن للشرايين قوة عجيبة، وذلك أنها تتحرك من ذاتها انبساطا وانقباضا)، وأكمل علي بن العباس المجوسي الذي أعقب الرازي بنحو سبعة عقود وصف الرازي لنبض الشرايين فقال : (القلب والعروق الضوارب (الشرايين) كلها تتحرك حركة واحدة وعلى مثال واحد، وعلى هذا صرنا نتعرف على حركة القلب من حركة الشريان) ووصل المجوسي إلى القمة في الوصف عندما شبّه النبض بـــ(رسول لا يكذب، ومناد أخرس، يخبر عن أشياء خفية بحركته الظاهرة) وهذا وصف دقيق وصادق لا نقرأ مثيلا له في التراثيات غير الإسلامية.

وينشد الطبيب بعد الفحوص المتقدمة فحص البول أو ما يسمى (التفسرة)، ولا يكون ذلك بعد الرياضة أو الحركات العنيفة، والأفضل أن نفحص العينة من بول الصباح أو بعد النوم الطويل، كما يوصى المريض قُبَيْلَ أخذ عينة البول ألاّ يتناول طعاما، او شرابا يمكن أن يغير لون بوله، ولا إثر الخضاب بالحناء.

وتفحص عينة البول (لونه ومقداره وقوامه والكدر الذي فيه، والرسوب الذي يطفو على سطحه، ورائحته) ويرى ابن سينا (أن يذاق البول لولا أن ذلك غير مستساغ) أما ابن هبل البغدادي الذي عاش بعد ابن سينا بأكثر من قرنين فكان يذوق بول مرضاه. ولا بد أنه يفعل ذلك ليقف على حلاوته، وحلاوة البول تدل على الإصابة بالسكري.

تشخيص الأمراض وعلاجها :

لكل مرض علامات وأعراض يشخص بهما نوعه وصنفه، وثمة أمراض تتشابه علاماتها وأعراضها وتختلف أسبابها وأنواعها فتثير حيرة في التشخيص, وأفضل من كتب فى هذا الموضوع من الأطباء هو أبو بكر الرازي في كتابه الذي سمّاه: الفروق بين الأمراض. فإذا توصل الطبيب الفاحص إلى تشخيص المرض خطط لمعالجته بالحِمْيَةِ أولا، وإلاّ ففي الأدوية المفردة أو المركبة بحسب استجابة العلة لأي منها، أو عالجه بالجراحة إذا فشلت المحاولات المذكورة.

وقد مارس عدد غير قليل من الأطباء المسلمين العلاج باليد، أي العلاج الجراحي، نذكر منهم خالد بن يزيد بن رومان، وابن ملّوكة النصراني وأبوالحكم عمرو بن أحمد الكرماني، وجميع هؤلاء من ديار الأندلس،

وأكثر أعمالهم في الجراحات البسيطة كالحجامة والفصد والشق وخياطة الجروح، أما الذين مارسوا الجراحة بمستوى أعلى فَقِلَّة،أشهرهم أبو القاسم خلف بن العباس الزهراوي، وأبو الفرج القربلياني، وسنتكلم عن الأول بشكل واسع فيما يلي. أما في المشرق الإسلامي فكان من الجرائحيين المعروفين أبو بكر الرازي، وقد يكون الجرائحي أبو الخير بن عيسى بن المسيحي يفضله في هذا الاختصاص، وهو أحد أطباء البيمارستان العضدي ببغداد والطبيب الذي اعتمده الخليفة الناصر العباس لعلاجه في حالة جراحية كان يشكو منها. غير أن هذا الجرائحي لم يدوّن خبرته في أعماله الجراحية لنحكم على درجة معلوماته بهذا. أما ابن القف الكركي (ت685هـ/1286م) صاحب كتاب عمدة الجراح، فلولا قدم كتاب التصريف لأبي القائم الزهراوي وبما فيه من صور الآلات الجراحية لنافسه كتاب ابن القف الذي هو في الحقيقة أكثر شمولا في الجراحة من كتاب التصريف.

من الأمراض الشائعة في العصور الإسلامية :

1- أمراض العين :

أكثر الأقطار الإسلامية ذات أجواء حارة تساعد على تصاعد الغبار وتراكم الذباب، فيحمل بأرجله الأمراض من العيون الرمدة إلى العيون السليمة، وقد أدرك الأطباء المسلمون هذه الطريقة من الإعداء منذ القرن الخامس الهجري فقالوا:

لا تحقرن عَدُوًّا لان جانبــه ... ولو يكون قليل البطش والجلــد

فللذبابة في الجرح المحدّ يَدٌ ... تنال ما قصرت عنه يد الأســد

لذلك اهتم أطباء الإسلام بدراسة هيئة العين و"فسلجتها" تمهيدا للبحث في أمراضها. ويوحنا بن ماسويه أول من كتب في طب العين، باسم دغل العين وكلاهما بحثا في كتابيهما مرض الساد (الكاتاراكت)، وابن ماسويه أول من عرف إصابة العين بالسرطان، وحنين أول من فرّق بين الساد أو الماء الأبيض والرطوبة الجليدية، أو ما يسمى بالماء الأسود، وقال : إن المرض الأول يبرأ بالقدح أما النوع الثاني فلا يبرأ، وهذان الطبيبان عرفا مداواة بعض أمراض العين،غير أنهما لم يعرفا كيف تبصر العين السليمة حتى كشف عن ذلك أبو بكر الرازي (ت320هـ/923م) حين قال : أن الرؤية تحدث من وصول إشعاع المرئيات إلى العين، غير أن ذلك لم يوثق مختبريا إلا بعد أكثر من قرن حين أثبت الحسن بن الهيثم (ت430هـ/1038م) أن الرؤية تحصل من الصورة الضوئية المنبعثة من المرئيات، لا أن القوة الباصرة تخرج من العين لتلامس المرئيات لتبصرها ـــ كما اكتشف ابن الهيثم أن صورة الجسم المرئي تقع متماثلة على طبقتي الشبكية في العينين، وأن الصورة التي تقع على الشبكية بهذا الشكل تتكون بنفس الطريقة التي تكون بها صورة جسم تمر أشعته الضوئية من ثقب في حيز مظلم

لتقع على سطح يقابل السطح الذي دخل منه النور، وهذا السطح بمثابة الشبكية، إلاّ أن هذه شديدة الحساسية للضوء، فتنقله إلى المخ ليتكون فيه الجسم المرئي.

كانت اكتشافات ابن الهيثم المفتاح الذي فتح الباب الموصد حول معرفة أمراض العين وطرائق تداولها على قاعدة علمية. وأهم تلك الأمراض هو الساد، أو ما يسمى الماء الأبيض الذي تعتم فيه بلورة العين، فيكون من ذلك العمى جزئياً أو كليا، وتعالج هذه الحالة بالقدح بآلة تسمى المهت ترقع بها البلورة المعتمة. وكان المهت صلدا فطوّره الأطباء المسلمون وصنعوه مجوّفا لمص بلورة العين المعتمة. قال أبو القاسم الزهراوي بعد أن وصف تقانية القدح : بلغني عن بعض العراقيين (وربما يقصد بذلك عمار بن علي الموصلي) أنه يصنع في العراق مقدحا منفوذا يمتص به ماء العين، ولم أرَ احدا في بلدنا صنع ذلك، ولا قرأته في كتاب من كتب الأوائل، وقد يكون ذلك محدثا.

2- الأمراض العقلية والنفسية والعصبية :

إن ممارسة الأطباء المسلمين وبراعتهم في تشخيص ومعالجة الأمراض النفسية والعصبية يسّر لهم خطوة واسعة من الشهرة في الطب. وكان من أشهر هذه الأمراض المالينخوليا، وأول من كتب في هذا المرض يوحنا بن ماسويه، ثم تلاه تلميذه إسحاق بن عمران. وينسب إلى جبرائيل بن بختيشوع حكاية جارية الخليفة هارون الرشيد التي تمطّت فبقيت يديها منبسطة إلى أعلى، فعالجها جبرائيل بتحايل، فبسطت يديها إلى أسفل. وسأله الخليفة هارون الرشيد عن سر علاجه وشفائها من مرضها، فأجاب جبرائيل بما جرى للجارية من اختلاف في الخلط.

وفي الثلث الأول من القرن الخامس الهجري اكتشف صاعد بن بشر ابن عبدوس أن كثيرا من الأمراض العصبية كاللقوة والفالج التي تعالج بالأدوية الحارة، يجب أن تعالج بالأدوية المبردة. وكتب ابن بطلان البغدادي – تأييدا لفكرة صاعد بن بشر – مقالة إلى علي بن رضوان المصري (مقالة في علة نقل الأطباء المهرة تدبير أكثر الأمراض التي كانت تعالج قديما بالأدوية الحارة إلى التدبير المبرّد كالفالج واللقوة والاسترخاء وغيرها.

ولأبي سعيد عبيد الله بن جبرائيل رسالة في الطب النفساني دعا فيها إلى دراسة العشق من الوجهة الطبية، لا من الوجهة الفلسفية، وفي هذه الدعوة إشارة إلى وجوب فضل الطب على الفلسفة بوصفه صناعة دائمة التطور.

3- الأوبئة والطواعين :

تظهر هذه الأمراض في أزمنة معينة هي على الأكثر في أول فصل الخريف أو آخره، وكان منها الجدري والطاعون الغددي والرئوي، وقد اعتبرهما أبو بكر الرازي من صنوف الحميات، وسببهما فساد الهواء فيشكو المريض بالطاعون من عسر التنفس، ومن الاستفراغات

النتنة التي لا تلبث حتى ينتهي المريض بالموت. واتفق علي بن عباس المجوسي مع الرازي، وعزا هذا المرض إلى الرياح الفاسدة التي تنبعث من أبدان وأجداث الموتى من الإنسان والحيوان، وبعد زهاء قرن كتب أبو سهل المسيحي (القرن الخامس الهجري) مقالة في الجدري وكتابا آخر في الأوبئة، ويحتمل كثيرا أنه وضع هذين الكتابين إثر الموت الجماعي المرعب الذي عمّ ديار الأهواز وخراسان وأذربيجان وبغداد.

ولابن سينا في كتابه القانون فصل في حمى الوباء وما يجانسها من الأمراض (القانون ج3 ص64) ولما كان ابن سينا قد درس الطب على أبي سهل المسيحي فإن أكثر الاحتمال أنه قد أخذ في موضوع الوباء عن كتاب أستاذه المسيحي الذي لا يزال مفقودا، وعلى كل فإن رأى ابن سينا في سبب الأوبئة لا يختلف كثيرا عن رأي المجوسي في نفس الموضوع. أما المختار بن بطلان المعاصر لأبي سهل المسيحي (القرن الخامس الهجري) فقد قال: وقعت أوباء في المشرق الإسلامي قتل فيها عشرات الألوف من أهل مصر والعراق (115) وقد عزا المنجمون تلك الأحداث المأساوية إلى ظهور الكوكب الأثاري(116). أما علماء الدين فنسبوا وباء الطاعون إلى عقاب الله على عباده العاقّين لنعمه. وبقي هذا المعتقد سائدا حتى القرن الثامن الهجري حين عارض هذا المعتقد بجرأة وتحدٍّ كل من أحمد بن محمد بن خاتمة الأنصاري (ت771هـ/1316م) بكتابه تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد، [ولسان الدين بن الخطيب الغرناطي(ت 776هـ/1374م في كتابه مقدمة السائل في المرضى الماثل]، فأثبت ان هذا المرض (الطاعون/ الوباء الأسود) ينتقل بالعدوى بطريقة الملامسة والاختلاط من شخص إلى شخص ومن بيت إلى بيت، وليس عقابا من السماء، كما كان يؤمن بذلك رجال التدين. وفي ذلك جرأة بدرجة عالية. بقي أن نذكر بهذا الصدد أن اليونانيين كانوا يعرفون الطاعون وقاسوا من ويلاته، غير أنهم لم يعرفوا الإعداء به ولا طرق الوقاية منه.

الأدوية الطبية :

وبرع المسلمون بمعرفتهم الأدوية بأنواعها النباتية والحيوانية والمعدنية. ولما ترجم اصطيفان ابن باسيل وحنين بن إسحاق كتاب هيولي الطب لديوسقريدس إلى اللغة العربية أثارت مضامين هذا الكتاب اهتماما كبيرا بين الأطباء فكتب في موضوعه زهاء تسعين من علماء الطب والمولعين بمعرفته بكتب متخصصة، أو في أحد فصول الكتب الموسوعية.

وفي أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر بقرطبة(300-350هـ/913-961م) وصل إلى بلاطه كتاب هيولي الطب المذكور هدية من ملك القسطنطينية، فعكف على ترجمته ثلة من علماء بلاطه، وفي مقدمتهم أبو عبد الله الصقلي الذي كان يعرف اللغة اليونانية.

وطبيعة ديار الأندلس بما فيها من بحار وأنهار، وجبال ووديان ومختلف الأشجار والأحجار، كانت حافزاً لاهتمام أطبائها في

دراسة مفردات هذه العناصر، وازداد اهتمامهم بهذه الموضوع حين وصلتهم نسخة من كتاب ديوسقريدس بترجمة إصطيفان بن باسيل، وكانت على ما يبدو أفضل من ترجمة علماء قرطبة، ففتحت لعشابي الأندلس مجالا واسعا للبحث في طبيعته وخصائص مصادر الأدوية الطبية، فحققت ثمارها جانبا مشرقا في الطب وعلاج المرضى. وكان من أولئك العلماء العشابين أبو داوود سليمان بن جلجل (384هـ/994م) وأبو القاسم الزهراوي (كان حيا 404هـ/ 1013م) وابن وافد عبد الرحمن اللخمي (ت 417هـ/1074م) ويوسف بن بكلارش (القرن السادس الهجري) والشريف الإدريسي (ت 560هـ/1164م) وابن طفيل القيسي وزميله أبو الحسن سفيان الأندلسي (القرن السادس الهجري) وأحمد بن مفرّج النباتي المشهور بابن الرومية (ت 637هـ/1239م) وتلميذه ومقتفي أثره في دراسة الأعشاب ضياء الدين بن البيطار المالقي.

ولم تتوقف أعمال النباتيين في الأندلس عن التأليف في الأعشاب الطبية ومفردات الأدوية الأخرى حتى القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي. وربما كان أبو القاسم بن عمر بن إبراهيم الغساني الشهير بابن الوزير (كان حيا 1012هـ/1603م) صاحب كتاب حديقة الأزهار في ماهية العشب العقار من أواخرهم في الأندلس.

واكتشف الأطباء المسلمون بعد تجربة في استعمال الأدوية أن تركيب أو مزج دواءين أو أكثر قد يتطلبه أعراض المرض، فوضعوا لذلك دساتير في تركيبها سموها (أقرباذينات) وهو مصطلح مطوّر عن الأكرياثيون السريانية، والأصل يوناني. وأول أقراباذين عرفناه باللغة العربية كان لسابور بن سهل (ت 255 هـ/168م) وهو بسبعة أبواب في تركيب الأقراص والحبوب والسفوفات والجوارشنات والمراهم والحقن والسعوطات وما يدر البول. ونشر هذا الكتاب بالإنكليزية كل من مارتن ليفي والخالدي مشتركان سنة 1967م وبقي أقراباذين سابور مستعملا في دكاكين الصيادلة وفي المستشفيات حتى ظهور أقراباذين أمين الدولة بن التلميذ (ت 560هـ/1165م) وبعد ثلاثين سنة ظهر في سمرقند أقرباذين بدر الدين القلانسي (ت 590هـ/1194م) وقد نشر هذا الكتاب مارتن ليفي والخالدي مشتركان سنة 1967م.

وآخر من كتب في تركيب الأدوية أبو المنى داود الإسرائيلي وفي كتابه (منهاج البيان ودستور الأعيان) المطبوع فصل ممتع في سلوك الصيدلي مع المرضى وأمانته في تركيب الأدوية، وقد كتب هذا الكتاب فى القاهرة وفيها توفي بعد سنة 658هـ/1260م.

أما داوود الأنطاكي الضرير (ت1008هـ/1599م) فله مؤلفات منها

تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب المعروف اختصارا باسم تذكرة الأنطاكي، وهو فى جزءين في الأول منها فصل واف فى الأدوية المفردة ومضاداها وصيدليتها.

الأطباء المسلمون وأشهر مؤلفاتهم :

إن كتب الأطباء المسلمين هي التي وضعت مؤلفيها في المقام الأعلى فى الحضارة الإسلامية ورؤوسها أربعة : كتاب فردوس الحكمة لعلى بن ربّن الطبري وكتاب الحاوي لأبي بكر الرازي، وكتاب كامل الصناعة الطبية لعلي بن عباس المجوسي، وكتاب القانون لابن سينا، أما غيرها من المؤلفات الطبية فتبع ومختصرات لها ـــ على أن ثَمَّ أطباء لا ينسى ذكرهم، كان منهم ابن الحكم الدمشقي ويوحنا بن ماسويه وابن الجزار القيرواني والزهراوي وابن بطلان البغدادي، وابن رضوان المصري، وابن المطران، وابن جميع المصري، وابن هبل البغدادي، وعبد اللطيف البغدادي، وابن النفيس القرشي وابن القف الكركي، وغير هؤلاء ممن أسهم في ممارسة الطب والتأليف فيه وفيما يلى تعريف ببعض هؤلاء :

ابن حكم الدمشقي : واسمه عيسى ويلقب بمسيح، ولد ونشأ بدمشق، وسافر إلى الهند واتصل بأطبائها، وعاد إلى بغداد في أيام الخليفة هارون الرشيد، وصار طبيب جواريه، وألّف له رسالة قيّمة بعنوان (الياقوتة الهارونية) وهي – مع صغرها – جامعة شاملة في كليات الطب وضروب الأمراض والأدوية لعلاجها، ومصدره في هذه الرسالة عن جالينوس الرومي وفلطيس الهندي، وابن الحكم الدمشقي بهذا أول من ثبّت للطب الهندي ذكرا في بغداد.

يوحنا بن ماسويه : سرياني تعلم الطب على البختيشوعيين في جند يسابور، ودخل بغداد في أيام هارون الرشيد، فأوكل إليه أمانة بيت الحكمة، وإدارة شؤون الترجمة فيه. وبقي في خدمة الخلفاء العباسيين حتى أيام المتوكل على الله. ونال منهم أجزل العطاء، وقد وضع فى غضون خدمته لهم زهاء **44** كتابا بعناوين مبتكرة، لم يصل منها إلينا إلاّ ثلاثة : هي كتاب الجواهر، وكتاب الجنين، وكتاب نوادر الأطباء، وجميع كتبه مصادر لأبي بكر الرازي في كتابه الحاوي. وكتاب نوادر الأطباء على غرار فصول إبقراط، فيه قفزات علمية قيّمة، كما أن فيه نصائح وقائية للمرضى وإرشادات للأطباء يتجلى في أكثرها إنسانية ابن ماسويه العالية وتمسكه بالسلوك المهني. وقد اكتشفت ستة من فقرات من هذا الكتاب منقولة حرفا حرفا وكلمة كلمة في ترجمة أبي بكر الرازي ومنسوبة إليه في كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة. ولم أجد تفسيرا لهذا الخلط إلاّ أن يكون ذلك من فعل النسّاخ.

حنين بن إسحاق العبادي : وكنيته أبو زيد ولد فى الحيرة عام **194** هـــ/ **809**م من أب صيدلاني، ومال منذ حداثته إلى دراسة الطب، فقصد مدرسة يوحنا بن ماسويه ببغداد،

ثم غادرها ساخطا أو مطرودا، ويمم شطر الأهواز ودرس العربية فيها على تلامذة اللغوي الكبير الخليل بن أحمد الفراهيدي، ثم قصد مصر، ومنها إلى آسيا الصغرى، وتعلم فيها اللغة اليونانية، وعاد بعد ذلك إلى بغداد، وبرز فيها في ميدان ترجمة المؤلفات اليونانية إلى اللغة العربية والسريانية، كما عمل في تأليف الكتب، وقد يكون أشهر مؤلفاته كتاب (المسائل) الذي أثار حماس كبار الأطباء كابن التلميذ (ت 560هـ/1198م) وابن النفيس (ت 687هـ/1288م) وعبد الله بن الطيب البغدادي (ت 629هـ/1231م) كما كان لحنين كتاب في تركيب العين ومعالجة أمراضها بالحديد أي باستعمال الآلات الجراحية. وترجم قسطنطين الإفريقي (ت 687هـ/1288م) هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية ونسبه إلى نفسه. كما له رسالة جدّ قيّمة رفعها إلى يحي بن المنجم (ت352هـ/963م) بعنوان (ما ترجم من كتب جالينوس وما لم يترجم) وقد نشرها بريجستراس سنة 1932م. وفي هذه الرسالة جرد لمن ترجم من كتب جالينوس، والكتب التي ترجموها، فكان منهم بالإضافة إلى حنين نفسه أيوب الرهاوي وأبو الصلت أمية وابن شهدا الكرخي من السريانيين، وما ترجموه كان إلى السريانية. أما الذين ترجموا إلى العربية فمنهم عيسى بن يحي بن غبراهيم، وأيوب الرهاوي، وعلي بن عيسى، وباسيل بن إصطيفان، ولم يكن يوحنا بن ماسويه من أي من هاتين الفئتين.

كما نفهم من هذه الرسالة ان حنينا بدأ الترجمة وهو فى السابعة عشر، وتوفي بسامراء سنة 264هـ/877م.

أبو الحسن علي بن سهل بن ربن الطبري : ولد بطبرستان لأب مسيحي وانتقل إلى سامراء في ايام خلافة المعتصم، وأسلم في أيام المتوكل على الله (ت 247هـ/861م) وله من المؤلفات كتاب حفظ الصحة، وكتاب منافع الأطعمة والأشربة، وكتاب في ترتيب الأغذية، وكتاب فردوس الحكمة، وجميع هذه الكتب باستثناء الكتاب الأخير من المفقودات، وقد نشره صدّيقي في برلين سنة1928، وهو يتضمن معلومات واسعة عن كليات الطب، وأطوار نمو الجنين، وفي تشخيص قابلية المرأة للحمل، وفي الاغتذاء، وفي أنواع الأمراض وعلاماتها، كما أن فيه مواضيع عن الأهوية والأمواه والبلدان، وتأثير الأجرام السماوية. كذلك في الكتاب فصل في الطب الهندي.

أبو بكر محمد بن زكريا الرازي : هو أشهر أطباء الإسلام في الشرق والغرب بعد ابن سينا، وأخصب عقلية طبية ظهرت في القرون الوسطى، وأعظم طبيب سريري في تلك الحقب. ولد في الري سنة250هـ/ 865م، وعمل في صباه في الصيرفة، وقيل : في صياغة الحلى، ثم مال إلى الفلسفة وأخيرا تفرغ للطب حتى صار أعظم علمائه بين المسلمين. وقد سافر في حداثته إلى بغداد، وفي المستشفى المعتضدي بهذه الحاضرة ظهرت عبقريته في الابتكارات اللامعة

وخصوصا في القسم التطبيقي من الطب. قال عنه ابن جلجل الأندلسي: أديب، طبيب، مارستاني، وقال عنه ابن صاعد الأندلسي: إنه طبيب المسلمين غير مدافع - وقال عنه ابن أبي أصيبعة : إنه جالينوس العرب وكان يميل في ممارسة الطب إلى التجربة دون إهمال تجارب الأولين. ونصح الأطباء بمشاورة زملائهم في تشخيص الأمراض وعلاجها، كما كان معلما ممتازا وممارسا ناجحا. أدار البيمارستان المعتضدي ببغداد، ثم بيمارستان الري، وهذا البيمارستان من أعمال المسلمين.

توفي الرازي زهاء سنة320هـ/932م.

وله زهاء **113** كتابا، من أوائلها كتاب المنصوري وكتاب الحاوي وكتاب المرشد أو الفصول ورسالة في الجدري والحصبة تعد حتى الوقت الراهن من أفضل، كما كتب عن هذين المرضين، ودرة أعمال الرازي في الطب. وكان الأطباء قبله يعدونها مرضا واحدا مع اختلاف في العلامات وما لشدة، ففرّق الرازي بينهما. فاعتبر وجع الظهر علامة تفريقية بين هذين المرضين، فهو عرض في الجدري، وليس في الحصبة، كما عرف حقيقة أخرى عن الجدري، هي أن البثور في هذا المرض تغور حتى أعماق الجلد، أما الطفح في الحصبة فوصفه الرازي سطحيا لا ينتو على سطح الجلد، وأشار إلى أن مثل هذا الطفح قد ينشأ في جدار باطن المعي فيسبب نزفا دمويا، وهذه مبادرة لم تعرف إلاّ متأخرا.

وقال الرازي عن الجدري والحصبة : إنهما من الأمراض الوافدة، وخصوصا في الصيف عند هبوب ريح الجنوب، ثم قال: في الحصبة يغلظ الصوت وتَحْمَرُّ العينان والوجنتان ويجف اللسان وتدمع العينان، وأضاف: والحصبة تظهر مرة والجدري شيئا بعد شيء، فإذا ظهرت بغتة وخضراء أو بنفسجية فتلك علامة رديّة.

ترجم كتاب الحصبة والجدري إلى الإنكليزية سنة **1847**م وإلى الفرنسية سنة**1862**م وإلى الألمانية سنة **1911**م وطبع الكتاب الأصل أربعين مرة.

وكتاب الحاوي في الطب للرازي موسوعة ضخمة فى الطب العلاجي والمطبوع منه في الدكن (الهند) اثنان وعشرون جزءا، يختص كل واحد منها بمرض من الأمراض، ومصادر الرازي فيها يصعب حصرها، يونانية وإسلامية، وأغلب الاحتمالات أن الرازي توفي قبل أن يكمل إعداده، فتولّى أمر أوراقه تلامذته، وقد يكون هم الذين وضعوا عنوانه، وترجم الكتاب إلى اللاتينية سالم فارجو سنة**1290**.

وللرازي شكوك على جالينوس في ثمان وعشرين من كتبه منها كتابه البرهان، وكتاب النبض الكبير وفي البحران وأيامه، ومن كان ينتقد جالينوس يومئذ يعد ذو مكانة عالية في المعرفة الطبية.

إسحاق بن سليمان الإسرائيلي : عاصر أبا الرازي أطباء كثيرون نذكر منهم إسحاق بن سليمان الإسرائيلي بشكل خاص، الذي ولد بمصر قبل الرازي بعشرين سنة، وتوفي بعده

بعشرين سنة(955م) وقد أكمل تعليمه على طبيب الأغالبة إسحاق بن عمران بتونس، والتحق بعد وفاته بخدمة الأمراء الفاطميين في المهدية بتونس، وهو نشط التفكير كثير التأليف، وقد ترجم قسطنطين الإفريقي مؤلفاته سوى كتاب مرشد الطبيب الذي كان قد وضعه الإسرائيلي باللغة العبرية، وأغلب محتوياته في السلوك الطبي.

ويُعَدّ ما ترجم من كتبه إلى اللاتينية من أوائل الكتب الطبية التي ترجمت إلى اللاتينية، وصارت بعد ذلك من مصادر أفكار القس الإنكليزي روبرت برتون (ت1640م) بكتابه شرح مرض الكآبة. وبقيت تقرأ مؤلفات ابن سليمان الإسرائيلي في معاهد أوروبا حتى القرن السابع عشر.وقال في كتابه المرشد : (إن نزلت مصيبة بطبيب فلا تفتحن فمك، فلكل امرئ ساعته، ولا تبحث عن الشهرة بطريقة إنقاص الآخرين. ولا تتردد في عيادة فقير لتعالجه، إذ ليس من عملٍ أشرف من ذلك. وأدخل الطمأنينة إلى قلب المريض المتألم ومَنِّهِ بالشفاء وإن لم تكن صناعتك واثقة من شفائه، لأنك بذلك تساعد قواه الروحية على المقاومة.

ابن الجزار القيرواني : واسمه أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد، وهو أشهر تلامذة إسحاق بن سليمان الإسرائيلي، وكبير أطباء القيروان، وهو من أسرة طبية، فأبوه طبيب وعمه أبو بكر طبيب. وكان نبيل الخلق، حسن التصرف مع المرضى وبخاصة الأمراء الفاطميين. وله أفكار صائبة في ممارسة الطب، منها أن الصناعة (ومنها الطب) حرف محلية تخضع لعوامل بيئية وجغرافية، وتوفي ابن الجزار سنة 396هـ/1005 وله من المؤلفات كتاب الاعتماد في الأدوية المفردة، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية بقلم موسى بن طبون، كما ترجمه قسطنطين الإفريقي قبل ذلك، وله أيضا كتاب البغية وهو في الأدوية المركبة، كما أن له كتاب زاد المسافر وقوت المقيم، وقد نقل هذا الكتاب تلميذه عمر بن بريق إلى موطنه فى الأندلس، كذلك له كتاب قيم في (سياسة الصبيان وتدبيرهم)، وكتب أخرى في الطب وفي تاريخ عصره، وتوفي ابن الجزار سنة 396هـ/1005م.

عاصر ابن الجزار القيرواني عدد من الأطباء الكبار، وكان من بينهم علي بن عباس المجوسي، وأبو القاسم الزهراوي، وطبيب الأطفال أحمد بن محمد البلدي والبيروني.

علي بن عباس المجوسي : وهو ثالث الأطباء العظام في المشرق الإسلامي، والاثنان الآخران هما أبو بكر الرازي، وأبو علي بن سينا. وهو من الأهواز، وقد قرأ الطب على كبير أطبائها أبي ماهر موسى بن يوسف بن سيار(ت273هـ/983م) وشهرته تعود إلى كتابه القيّم كامل الصناعة الطبية الذي سماه بعد ذلك الكتاب الملكي ورفعه إلى مخدومه الأمير عضد الدولة البويهي حين وسم بلقب الملك،

وكان ذلك قبل أن يتوفى مخدومه الملك بتسع سنوات.

إن أبرز ما في كتاب الملكي تقديره لأهمية الصحة والوقاية من الأمراض، وحسن عباراته في وصف العلل وأعراضها، قال: إن القوة للعليل مثل رأس المال، والبرء من الأمراض مثل الربح، فينبغي للتاجر الكيّس الذي إن وجد ربحا وإلاّ حفظ رأس المال. وقال أيضا : إن الطبيب والمريض والمرض ثلاثة، فمتى كان المريض يقبل من الطبيب ما يصف له ويتوقى ما ينهاه عنه كان الطبيب والمريض محاربين للمرض، واثنان على واحد يغلبانه ويهزمانه. وإن كان المريض لا يقبل من الطبيب ما يصفه له ويتبع شهواته كان المرض والمريض محاربين للطبيب، وواحد لا يقوى على محاربة اثنين.

والمجوسي أيضا أول من أشار إلى صعوبة شفاء المصاب بالسل، على أساس أن العضو المعتل يحتاج إلى راحة، وهذه لا تتوفر في الرئة[i] توفي علي بن عباس المجوسي في حوالي سنة384هـ/994م. وله من المؤلفات كتاب واحد هو الكتاب الملكي، ولجودته العالية يسمى القانون العضدي (نسبة إلى عضد الدولة) وهو فى جزئين تطغى فيهما النزعة العملية في الطب. وقد ترجمه إلى اللاتينية قسطنطين الإفريقي ونسبّه إلى نفسه، ودخل مدرسة سالرنو كأحد كتبها الدراسية وباسم قسطنطين حتى ترجمه إسطيغان البيزي الإنطاكي فكشف عن اسم مؤلفه الحقيقي، وهو علي بن عباس المجوسي.

أبو القاسم عباس بن خلف الزهراوي : هو كبير جراحي الإسلام في القرون الوسطى، وهو من مواليد قصبة الزهراء القريبة جدا من قرطبة، أما الزهراوي فينسب نفسه إلى الأنصار في المدينة المنورة ومعلوماته في الجراحة ذاتية حصل عليها من قراءة الكتب اليونانية والإسلامية، وبرز معلما متميزا في هذا الاختصاص، وصار له عدد من التلاميذ، ولم يتزوج طوال حياته. كما زهد في المناصب فلم يتصل بخليفة البلاد عبد الرحمن الناصر بقرطبة. وله الفضل الأكبر في جعل الجراحة ذات قدرة خارقة لإبراء المرضى أكثر مما فعله أي طبيب آخر عاصره أو سبقه. قال عنه ابن أبي أصيبعة ما نصه : (كان خبيرا في الأدوية المفردة. وله تصانيف مشهورة في صناعة الطب، أفضلها كتابه الكبير المعروف بالزهراوي... وله كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف وهو أكبر تصانيفه وأشهرها) فإذا كان ابن أبي أصيبعة دقيقا في هذا النص فلا بد أن يكون للزهراوي كتابان على الأقل وهما كتاب الزهراوي وكتاب التصريف، وهذا الأخير هو الذي نجا من الضياع، وهو فى ثلاثين جزءاً، كرّس الجزء الثلاثين منه للجراحة الطبية , وزوده بما يزيد على 200 صورة للآلات الجراحية، وقد تعدّ هذه الآلات توثيقا على أن الزهراوي كان جراحا عمليا لا نظريا.

وكتاب التصريف مفعم بالابتكارات الطبية، فصاحبه أول من وصف داء الناعور (الهيموفيليا) وأول من ذكر ضربات القلب

الفائضة، وأول من شق جيب المياه في المواخض لتعجيل ولادة الأجنة، وأول من أستعمل آلة حديدية للقبض على رأس الجنين وسحبه إلى الخارج، وأول من استعمل خيوط الحرير لربط الأوعية الدموية في حالة الترقب، وقد خاط الجروح بشعر ذيول الجياد، وبخيوط من أمعاء الحيوان، واول من أشار إلى حالة الحمل خارج الرحم. كما أن الزهراوي أول من طوّر القسطرة اليونانية ذات الانحنائين وجعلها بانحناء واحد، وهو أيضا أول من رفع حصاة المثانة عن طريق المهبل، وأول من اخترع آلة (الجيلوتين) في عملية اللوزتين. وهو أيضا الذي صمم السكين الخفية وطوّر المقص الطبي.

وقد ترجم جيرارد الكريموني كتاب التصريف باسم جراحة أبي القاسم إلى اللاتينية , ومن هذه اللغة ترجم إلى العبرية، وصار المصدر الأول للجراح الفرنسي الأكبر غي شلياك (1300-1368م)، وفي كتابه التشريح الأكبر أكثر من مائة إشارة عن كتاب التصريف. كما أن لكتاب التصريف ترجمة تركية بقلم صابونجي أوغلو. كذلك طبع بأكسفورد بجزئين من قبل شانك. وآخر طبعاته بكليفورنيا سنة1973م.

ابن سينا واسمه أبو علي الحسين بن عبد الله بن علي : ويعرّف بالشيخ، والرئيس وفيلسوف الإسلام وأمير أطباء العرب. وهو من عائلة ذات مركز اجتماعي وديني بمدينة بلخ. وقد ظهرت عليه بوادر النباهة في بواكير عمره، فتعلم الفلسفة والطب والجيولوجيا وعلوم ما بعد الطبيعة، وألف كتبا في كل واحدة منها.

وذاع صيته فاستدعاه أمير بخارى نوح بن نصر الساماني إلى ديوانه، ثم صار يتنقل بين حواضر بلاد فارس، يؤلف ويبث أفكاره الفلسفية، وأساس شهرته بهذا الميدان، وكذلك عن طريق كتابه القانون في الطب. وهو كتاب شمولي في أربعة كتب أكمل تحريره بعد تجوال طويل في همدان (حيث توفي سنة 428هـ/1037م) واختصره أبو نصر سعيد بن أبي الخير المسيحي (ت 589هـ/1193م) باسم (الاقتضاب عن طريق المسألة والجواب) ومخطوطة هذا الكتاب بدار الكتب المصرية والمكتبة الظاهرية بدمشق. كما تناول أطباء آخرون كثيرون القانون بالتعليق والنقد , كان منهم ابن النفيس في كتابه شرح القانون , وفي كتابه الثاني شرح تشريح القانون.

وربما كان كتاب (القانون) أول كتاب طبع بماكينة بعد طبع كتاب الإنجيل، وأعيد طبعه ست عشرة مرة في الثلاثين سنة الأخيرة من القرن الخامس عشر، وبقي يدرّس في جامعة مونبليه حتى العام الثلاثين من القرن السابع عشر. وطبع الكتاب بلغته العربية لأول مرة في روما سنة 1593م ثم طبع في بولاق سنة 1877م، وأخيرا في لكنو بالهند سنة 1323هـ/1905م. ولابن سينا كتب كثيرة أخرى منها ثمانية أرجوزات في الطب , وعشرون كتابا أخرى في موضوعات طبية مختلفة.

أبو الحسن علي بن رضوان المصري : تعلم التنجيم ثم الطب ومارسهما معا في أيام دولة الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي، ويدّعي أنه تعلم الطب من الكتب، وأن كل واحد يستطيع أن يكون طبيبا دون تعلّم. وهذا الادعاء وغيره أثار جدلا عنيفا بينه وبين ابن بطلان البغدادي (ت 450هـ/1058م) بدأ علميا ثم وصل إلى درجة التهاتر. وتوفي ابن رضوان المصري سنة 460هـ/1067م , وخير ما ترك في الطب كتابان أحدهما في الطب الجغرافي بعنوان (الحيلة في دفع مضار الأبدان بأرض مصر) وقد حققت هذا الكتاب ونشرته الدكتورة رمزية الأطرقجي سنة 1988م. اما الكتاب الثاني فباسم (النافع في كيفية تعليم الطب) وفيه معلومات جد قيمة عن وصول الطب اليوناني إلى العرب. وقد حققه صاحب هذا البحث ونشره سنة 1966م.

ابن البيطار : واسمه ضياء الدين عبد الله بن أحمد المالقي : وقد شغف منذ صغره بدراسة الأعشاب والنباتات كما درس هذا الموضوع على شيخ العشابين بإشبيلية أبي العباس بن الرومية (توفي سنة 613هـ/ 1218م) وعلي عبد الله صالح الكتامي صيدلاني الأمراء الموحدين , وقرأ جميع ما كتبه الأطباء من اليونانيين والمسلمين في المغرب والمشرق، ثم ساح كما فعل شيخه ابن الرومية في البلاد مبتدئاً بشمال إفريقيا، ودخل مصر والشام وآسيا الصغرى , وعينه الملك الكامل الأيوبي رئيس العشابين في دولته.

يعد ابن البيطار أعظم العشابين المسلمين قاطبة، وهو بينهم مثل ديوسقريدس بين اليونانيين في هذا الاختصاص، وتوفي ابن البيطار سنة646هـ/ 1248م وله ثلاثة كتب , أهمها ما أسماه (الجامع في الأدوية والأغذية) ويتضمن زهاء 1400 مادة طبية، منها نحو 300 مادة من مكتشفاته , وقد اختصر هذا الكتاب يوسف بن إسماعيل الكتبي (ت 754هـ/1353م.

وكتاب (منهاج الدكان) للهاروني وكتاب القاسم بن إبراهيم الغساني (ت 995هـ/ 1559م) (حديقة الأزهار وشرح ماهية العقار) وما هما إلاّ مختصران لكتاب الجامع المذكور، وقد ترجم هذا الكتاب إلى الفرنسية والألمانية والتركية.

ابن النفيس : واسمه أبوالعلاء علاء بن أبي الحزم القرشي، وهو أحد مشاهير الطب في القرن السابع الهجري، ومن الأطباء الخالدي الذكر في الاكتشافات الطبية. ولد بقرش القريبة جدا من دمشق سنة 607هـ/1210م، ودرس على الدخوار إلى جانب ابن أبي أصيبعة، كما زامله في المستشفى الناصري بالقاهرة , وقد عاش عزبا ليتفرغ للطب، وهو الذي اكتشف الدورة الدموية الصغرى، وتوفي في القاهرة سنة 687هـ/1288م، ومن تلاميذه ابن القف الكركي. وله أربعة عشر كتابا أهمها موجز القانون لابن سينا، وكتاب شرح تشريح القانون، وفي هذا الكتاب مفصل اكتشافه للدورة الدموية , وقد ترجم أندريا الباكو هذا الكتاب إلى اللاتينية سنة 1547م

عبد الملك بن زهر: وكنيته أبو مروان , وهو ابن أبي العلاء زهر، وهو أبرز أطباء بني زهر، وقد درس الطب على أبيه وأبدع فيه، فهو أول من دعا إلى تغذية المريض عن طريق الشرج، وبمص السوائل بأنبوبة مصنوعة من القصدير للمصابين بعسر البلع وهو الذي وصف دويبة الجرب وسماها (صوابة)

توفي أبو مروان عبد الملك سنة 557هـ/1162م وله اثنا عشر كتابا في الطب أشهرها : (التيسير في المداواة والتدبير). وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العبرية أولا , ومن هذه اللغة إلى اللاتينية سنة1280 , وطبع أربعة مرات أخرى كان آخرها سنة 1530.

الطب الإسلامي في أوروبا اللاتينية

ليس أكثر سرعة من انتشار المعرفة بين العالمين إلاّ الأوبئة والطواعين، على أن لهذه الأمراض فصولا وأجواء، أمّا المعرفة فلا تخضع لزمان أو مكان، وهذا ما حصل للطب العربي الإسلامي , فوصل إلى أوروبا اللاتينية عن طريق التجارة، والتعايش أو المنازلات العسكرية , كما حدث في الحروب الصليبية (490-670هـ/1096-1291م) وحين استرجع النورمانديون جزيرة صقلية من الفاطميين سنة 1072م كان المسلمون قد تركوا فيها آثارا فكرية وعلمية أفاد منها أهل البلاد، كما التفتوا إلى ترجمة الكتب العربية ــ التي أدخلت إلى الجزيرة. وكان أبرز أولئك المترجمين أحد أتباع حاكم الجزيرة فريديريك الثاني اسمه سالم بن فرج الجرجيني (ت 1290م) ودرة أعماله ترجمته لكتاب (الحاوي في الطب) لأبي بكر الرازي. ولضخامة هذا الكتاب فلا بد أنه أخذ من عمره جزءاً غير قليل. كما ترجم الجرجيني كتاب (تقويم الأبدان فيما يحتاجه الإنسان) لابن جزلة البغدادي، وكتاب (الجراحة) لماسويه المارديني.

أماّ البعد الثاني الذي قطعه الطب الإسلامي إلى أوروبا اللاتينية فكان في مدينة سالرنو، وأبرز المترجمين في مدرسة هذه المدينة مسلم عربي من أهل قرطاج بتونس، وكانت له معرفة أولية بالطب والأعشاب الطبية , ولسببٍ ما هجر موطنه وعبر البحر إلى إيطاليا وتنصر ودخل دير مونت كاسينو وعرف فيه باسم قسطنطين الإفريقي. وفي ذلك الدير تعرّف على عربي من أهل إسبانيا اسمه يوحنا أفلايتوس , فتعاونا على ترجمة كتب الطب التي كانت بحوزته، وكان منها كتاب (العشر مقالات في طب العين) لحنين بن إسحاق العبادين , وقسم كبير من كتاب الملكي لعلي بن عباس المجوسي، وثلاثة كتب من مؤلفات إسحاق بن سليمان الإسرائيلي , من ضمنها كتاب (البدل) الذي هو أثمن مؤلفاته. كما ترجم كتاب (الفصول) بلغته العربية التي عملها حنين بن إسحاق وحبيش بن الأعسم، وكتاب (تقدمة المعرفة) بترجمة حنين. كذلك ترجم كتاباً في الكيمياء لأبي بكر الرازي باسم كتاب (التجارب)، ونسب جميع الكتب التي ترجمها إلى نفسه دون حياء.

توفي قسطنطين الإفريقي بدير مونت كاسينو سنة1087م بعد أن مكث فيه ثماني سنوات يدرس اللاتينية ويترجم الكتب العربية إليها. وزامل قسطنطين في مدرسة سارلنو طبيب اسمه نقولا إيريبوسيتس , وقد وضع كتابا في الطب , جلّ مفرداته الطبية مما قرأه في المؤلفات العربية. كما فيه ذكر للمواد الكيمياوية التي استعملها العرب في الإسفنجة المنوّمة. وطبيبة باسم تروتيولا عملت أيضا في مدرسة سالرنو، ولها كتاب استخلصته من كتاب الملكي. لذلك كان في مدرسة سالرنو بروتوكاليبريان صاحب كتاب الجراحة الكبرى , وهو تجميع مما في كتاب القانون لابن سينا، وكتاب تعريف التصريف للزهراوي.

وفي وقت متأخر (1522م) ترجم أندريا الباكو كتابي القانون والإسكنجين لابن سينا، وكنّاش ابن سرابيون، وكتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار , وأحسب أن ترجمات أندريا الباكو كانت متقنة؛ لأنه هو نفسه كان يجيد اللغة العربية التي مارسها ثلاثين سنة في ديار الشام.

وفي سنة 487هـ/1085م استعاد القشتاليون طليطلة، فبهرهم معالم الحضارة الإسلامية فيها، وأثارهم إلى ترجمة كتبها إلى اللغة اللاتينية، فأسس من أجل ذلك رئيس أساقفة طليطلة رايموند مدرسة لتعليم اللغة العربية والترجمة منها إلى اللاتينية. وكان أبرز من تخرج في هذه المدرسة ومن عمل فيها جيرارد الكريموني (ت 1187م) فقد ترجم أكثر مؤلفات أبقراط وجالينوس بصيغتها العربية. كما ترجم أكثر مؤلفات إسحاق بن سليمان الإسرائيلي، والجزء الجراحي من كتاب التصريف للزهراوي، وقسما كبيرا من كتاب القانون، وكناش ماسرجويه، وكتاب الأدوية المفردة لابن وافد اللخمي، وجميع شروح ابن رضوان المصري لكتب جالينوس.

وترجم موسى بن طبون (1283م) كتاب الإسكنجبين والأرجوزة الألفية لاين سينا، وأقرباذين الرازي وترجم إصطيفان السرقسطي أقرباذين ابن الجزار.

بقي أن نذكر أن الترجمة إلى اللاتينية قد لا تكون مطابقة للأصل العربي، كما يحتمل أن الكتب التي ترجمت قد أسقط من مضامينها ما لا يتفق والعادات المحلية، أو الديانة المسيحية، ولا يُنْفيَ هذان الاحتمالان ما لم تجرد تلك المترجمات ومطابقتها مع الأصل العربي.

ولابد أن نذكر أيضا أن الأوروبيين قد استفادوا من المسلمين حين تلاحموا معهم في الحروب الصليبية على ساحة ديار الشام. ويبدو أن قسما من علمائهم قد عثروا على مؤلفات عربية في الطب وحملوها معهم حين غادروا إلى بلادهم خاسرين. وأقرب إلى الظن أن أندريا الباكو الإيطالي كان أكثر أولئك العلماء الذي سرقوا المؤلفات العربية. وقد عرفنا تلك الكتب المسروقة بعد أن نشرها المستشرقون في عهود متأخرة، نذكر من تلك المسروقات كتاب (البحث) لجابر ابن حيان والكتاب الذي تضمن

معادلة العقاقير التي استعملت في الإسفنجة المخدرة، وكتاب (الجراحة) لماسويه المارديني والكتاب الذي ترجم حياة قسطنطين الإفريقي، وجميع هذه المؤلفات ليس لها ذكر في التراثيات الإسلامية التي وصلت إلينا.

أ. د كمال السامرائى " يرحمه الله "
" العراق "



مجموعة أدوات الجراحة الإسلامية مأخوذة من متحف تاريخ الطب تغلوق اباد - دلهي - الهند

المصدر : منارات الحضارة العربية ص 92



صورتان تمثلان رسمين بيانين مأخوذتان من (تشريح المنصوري) لمنصور بن محمد بن أحمد (القرن السابع عشر م)

المصدر : منارات الحضارة العربية ص 88

1 – ترياق جالينوس، اندروماخس الطبيب يراقب أعمالا زراعية، تاريخ 575 هـ/1199 م رقم 2964، مخطوط عربي، دار الكتب الوطنية، باريس.

المصدر: الفن العربى الإسلامى جـ1، صـ172



المصدر: منارات الحضارة العربية ص87

مشهد امرأة فى حالة وضع من "مقامات الحريري" للواسطي، 1237م (دار الكتب الوطنية باريس)

المصادر والمراجع

1 ـ المصادر

- **ابن أبي أصيبعة**، موفق الدين أبو العباس أحمد (ت 668 هـ/ 1269 م)
1965 عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا. بيروت.
- **ابن الأثير**، على بن محمد بن عبد الكريم الجزيرى (ت 630هـ / 1232 م)
1303 هـ الكامل فى التاريخ، القاهرة.
- **ابن جلجل**، أبو داود سليمان بن حسان الأندلسى (ت 377هـ / 987 م)
1955 طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، القاهرة.
- **ابن خلكان**، شمس الدين أحمد بن محمد (ت680هـ/1281م)
1968 وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، بيروت.
- **ابن ربن الطبرى**، أبو الحسن على بن سهل (ت نحو 247هـ /861م)
1938 فردوس الحكمة، تحقيق محمد زبير الصديقى، برلين.
- **ابن رضوان**، المصرى (ت حوالى 487هـ/1094م)
1980 كفاية الطبيب، تحقيق سلمان قطاية، بغداد.
- **ابن سينا**، الشيخ الرئيس أبو على الحسين ابن عبد الله (ت 428هـ / 1036 م)
– د. ت القانون فى الطب، بغداد
– 1593 م القانون فى الطب، روما
– 1305 م دفع المضار الكلية عن الابدان الإنسانية، بيروت.
- **ابن صاعد الأندلس**، أبو القاسم صاعد بن أحمد (ت 328هـ / 939 م)
1912 طبقات الأمم، تحقيق لويس شيخو، بيروت.
- **ابن قتيبة**، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت276هـ/889م)
1925-1930 عيون الأخبار، القاهرة.
- **ابن ماسويه**، يوحنا (ت243هـ/857م)
1934 النوادر الطبية / تحقيق بول سباط، القاهرة.
- **ابن منظور**، جمال الدين محمد بن مكرم (ت711هـ / 1311م)
1956 لسان العرب، بيروت.
- **ابن النديم**، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب الوراق (ت438هـ / 1047م)
1964 الفهرست، تحقيق فلوجل، بيروت.
- **البيهقي**، ظهير الدين على بن زيد (ت565هـ/1169م)
1946 تاريخ حكماء الإسلام، تحقيق محمد كرد علي، دمشق.
- **الجاحظ**، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت255هـ/868م)
1948 البيان والتبيين، تحقيق محمد عبد السلام، هارون، القاهرة.

- **الحرانى،** ثابت بن قره أبو الحسن بن قره بن هارون (ت288هـ/900م)
1928 الذخيرة فى الطب، القاهرة.
- **الرازى،** أبو بكر محمد بن زكريا (ت320هـ/932م)
- (تواريخ مختلفة) الحاوى فى الطب، حيدر آباد الدكن.
- 1977 المدخل الصغير إلى علم الطب، تحقيق عبد اللطيف محمد العبد، القاهرة.
- 1305 هـ منافع الأغذية ودفع مضارها، القاهرة.
- **الزبيدى،** أبو الفيض محمد بن محمد (ت1205هـ/1790م)
1869-1870 تاج العروس من جواهر القاموس، القاهرة.
- **الزهراوي،** أبو القاسم خلف بن عباس (ت400هـ/1009م)
(د.ت) التصريف لمن عجز عن التأليف، حيدر آباد الدكن.
- **الشهر زورى،** محمد بن محمد
1976 نزهة الأرواح وروضة الأفراح، تحقيق خورشيد أحمد، حيدر آباد الدكن.
- **الطبرى،** محمد بن جرير (ت310هـ/9220م)
1968 تاريخ الرسل والملوك، تحقيق إحسان عباس، بيروت.
- **العبادى،** حنين بن إسحاق (ت260هـ/873م)
1938 مقالات فى العين، تحقيق ماكس مايرهوف، القاهرة.
- **البغدادي عبد اللطيف،** موفق الدين (ت629هـ/1231م)
- 1965 الإفادة والاعتبار، لندن.
- 1972 رسالة فى المرضى، تحقيق بول غليونجى وسعيد عبده، القاهرة.
- 1972 مقالتان فى الحواس، تحقيق بول غليونجي، وسعيد عبده، القاهرة.
- **الفارابى،** أبو نصر محمد بن محمد بن طرحان (ت339هـ/950م).
1931 إحصاء العلوم، تحقيق عثمان محمد أمين، القاهرة.
- **القلقشندى،** أحمد بن على (ت821هـ/1418م)
(د.ت) صبح الأعشى فى صناعة الإنشا القاهرة.
- **الكحال،** على بن عيسى (ت400هـ/1009م).
1964 تذكرة الكحالين، حيدر آباد الدكن
- **المجوس،** أبو الحسن على بن العباس (ت348هـ/959م)
1877 كامل الصناعة الطبية، القاهرة.
- **المسعودى،** على بن الحسين (ت346هـ/957م)
- 1944 مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة.

- **المقدسى،** المطهر بن طاهر (ت بعد 355هـ /965م)
1964 البدء والتاريخ، بغداد
- **المقريزى،** تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت845هـ/1441م)
1967 – 1968 المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار (خطط المقريزى)، القاهرة.
- **النويرى،** شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت732هـ/1331م)
1964 نهاية الأرب فى فنون الأدب، القاهرة.
- **ياقوت الحموى،** شهاب الدين أبو عبد الله، الدومي (ت626هـ/1228م)
1964 معجم الأدباء، بغداد.

2- المراجع العربية والمعربة :

- **أرنولد توماس**
1972 تراث الإسلام، تعريب جرجيس فتح الله، القاهرة. أوليرى، دى لاسي
- (د.ت) الفكر العربى، ترجمة تمام حسان، القاهرة.
- 1957 مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب، ترجمة تمام حسان، القاهرة.
- **بدوى عبد الرحمن**
- 1940 التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية، القاهرة.
- 1967 دور العرب فى تكوين الفكر الأوربى، القاهرة.
- **جارلاند،** جوزيف
(د.ت) قصة الطب، ترجمة سعيد عيده، القاهرة.
- **الخليلى،** محمد
1946 معجم أدباء الأطباء، النجف.
- **خير الدين، أمين**
1941 الطب العربى، ترجمة أبي عز الدين، بيروت.
- **الدوميلى**
1962 العلم عند العرب، ترجمة عبد الحميد النجار، ومحمد يوسف، القاهرة.
- **الرفاعى،** أحمد فريد
1928 عصر المأمون، القاهرة.
- **السامرائى،** كمال
1985 مختصر تاريخ الطب العربى، بغداد
- **شاخت،** ديوزورث
1978 تراث الإسلام، عالم المعرفة، القسم الثالث، الكويت
- **شرف،** محمد
(د.ت)معجم العلوم الطبية والطبيعية، القاهرة.
- **العلوجى،** عبد الحميد
1967 تاريخ الطب العراقى، بغداد
- **عنان محمد عبد الله**
1947 تراجم إسلامية شرقية وغربية، القاهرة.
- **الضوابى،** حامد
1967 بين الطب والإسلام، القاهرة

- **فريخ**، عمر
1970 تاريخ العلم عند العرب، بيروت
- **كحاله**، عمر رضا
1961، معجم المؤلفين، دمشق.
- **لوبون**، غوستاف
(د.ت) حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة.
- **معروف**، ناجى
1969 أصالة الحضارة العربية، بغداد.
- **هونكه**، زغريد
1964، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة بيفون ودسوقى، بيروت.

3- المراجع الأجنبية :

- **Bass**
1889 outline of the History of medicine, New York.
- **Brown**, E. G.
1921 Arabian Medicine, Cambridge.
- **CampBell**, D.
1926 Arabian Medicine, London.
- **Carrison**, F.H.
1929 An Introduction to the History of Medicine, Saunders.
- **Gruner**, O.
1930 A Treats on the canon of medicine of Avicenna, Augustus Kelly Publishers.
- **Kamal Hasan**
1950 Encyclopedia of Islamic Medicine, Cairo.
- **Robinson**, V.
1943 the story of medicine, the new york library.
- **Segerist**, H.
1957 – 1961. A History of medicine, Oxford.
- **Singer and Under wood.**
1962 A History of Medicine Calender press.

2- الصيدلة

مقدمة :

بين الشعوب المتباينة، يذكر القاضي المؤرخ أبو القاسم صاعد بن أحمد الأندلسي (المتوفى عام 462هـ/1070م) بإسهاب، مكانة العرب من هذه الحضارات، ويستهل القول بأن بدايات هذه الأمة ومكوناتها كانت ممن هم من أهل المَدَر، لا من الحضر (ويراد بهم سكان المدن والقرى والأرياف نظراً لبناء بيوتهم من مدر الطين)، أما أهل المدر فهم سكان البوادي وعُمّار الفلوات والصحاري (بيوت الشَّعْر).

وكانوا يفتخرون بلغتهم ويتبارون في إحكامها وإعرابها، صرفا ونحوا، ويتبادون فى حفظ أخبار الناس من عرب وعجم وروم ومعرفة السير والأمصار بما في ذلك بلاد الهند والسند، وتمكنوا في أسباب معيشتهم من الزرع والنخل والكرم والماشية، وضربوا في الأرض طلبا للتجارة وغير ذلك من ضروب الاكتساب في العراق والهلال الخصيب، وكان لديهم شيء من معرفة تفصيل الأزمان والأمطار ومهاب الرياح والعلم بأنواع الكواكب والتنجيم.

أما صناعة الطب والمعالجات فكانت موجودة عند أفراد منهم، غير منكرة عند جماهيرهم، لحاجة الناس طرّا إليها. وكان لديهم إلمام بالأدوية المجربة والمألوفة وبالعناية الصحية والبدنية ليس عن تعلّم الحقائق والتدرب في العلم بها، بل من خلال التجارب والمشاهدات. وكان في الأثر عندهم الحثّ فيما ورد في الأحاديث الشريفة في صدر الإسلام من قوله ﷺ:"ياعباد الله تداووا، فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء".

ثم إن أبا حنيفة أحمد الدينوري (ت 282هـ/895م) في كتاب النبات، يسهب في ذكر ووصف النباتات والعقاقير الطبية المتوفرة والمستعملة لمداواة الإنسان والحيوان في بلاد شبه الجزيرة العربية، مع أسمائها المعروفة ومنابتها وفوائدها وأنواعها، والعطور والتوابل والأفاويه المحلية أو المستوردة من بلدان مجاورة أو قاصية في أبدع أسلوب وأدقّ تعبير وهذا يجعله مرجعا مهماً فى الماضى والحاضر.

أما أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني (362-443هـ/973-1051م) في مقدمة كتابه: الصيدنة في الطب، فيذكر أن الصيدنة أعرف من الصيدلة (بعكس ما هو معروف حتى يومنا)، والصيدلاني (أو الصندلاني) أعرف من الصيدناني، وهو المحترف فى جمع الأدوية على أحمد صورها واختيار الأجود من أنواعها"، مفردة كانت أم مركبة على حسب الأصول، كما خلّدها لنا المبرّزون من أصحاب هذه المهنة، التي هي أولى مراتب الصناعة الطبية، ترتقي فيها من سفلاها إلى أعلاها، ثم انفردت بنفسها بتخصصها، كانفراد كتب اللغة عن صناعة الترسّل، والمنطق عن الفلسفة، ذلك أن الصيدلة (الصيدنة) آلة لصناعة الطبّ، لا منها.

أما تقدم وتطور هذه المهنة فيتم بواسطة تلمذة مهرة الطلبة على يد صيادلة أكفياء

والاستمرار في المزاولة والتدريب والممارسة، حتى تنطبع صور الأدوية وهيآتها وأنواعها وطبائعها وأساليب جمعها وسائر أحوال حفظها. ونتيجة لهذا التمرين والمواظبة على العمل، لا يتحير طالبها في تمييز بعضها عن بعض مع كثرة المشاهدة والمعاينة لتلك المفردات، فتكتسب حفظ أشكالها مزيّة التعرف عليها ونقدها والاستفادة من استعمالها. وهذا شأن سائر الصنائع، فالعاملين بها يتقنوها بالمواظبة والمراجعة المتكررة والسهر الدؤوب على مصالحها، ولاسيما ممن منح لهم الموهبة في فهم تراكيبها والتمييز في أوضاعها، والإتقان في إنجازها.

ويضيف البيروني بأن لفظة الصيدناني معرّبة من الجندناني في اللغة السنسكريتية مع تغيير الحرف "ج" إلى "ص"، وقد سميت هكذا بسبب ولوع أهل الهند بالصندل (جندن أو جندل) بشكل يفوق ولوعهم بسائر أنواع أشجار ونباتات العطور والأفاويه، وأهم شجره الأبيض والأحمر. وأوضح البيروني بأن تجار السلع المجلوبة من أقاصي البلاد وشاسع الجزائر والسواحل ينسبونها إلى الأمتعة التي يبيعونها أو المعادن المستخرجة عندهم أو الطرق التي جاؤوا منها أو الموانئ التي أرسوا فيها، فبائع العنبر هو العنبري، وشارى المسك هو المسكي، فإذا كان مصدره بلاد التبت فهو التبتي.

واشتهر اسم العطّار عند العرب بالداري نسبة للمرفأ الراسي فيها، دارين. وإذا لم تفرد العرب للصندل اسما أو لقبا، لأنه ليس من عطورهم خاصة، ولزهدهم في الصندل كعطر، نقلوا لقب مزاولي العطر، إلى مزاولي الأدوية، لعدم التمييز بين العطار والصيدلاني النطاسي، وهكذا عمّ الاسم. وكان أهل قريش ذوى حذق ومهارة في خلط الأدوية وتركيبها والاتجار بها، كحذق أهل اليمامة، في بلاد نجد من أرض العرب ووسطها، حيث ينمو فيها النخيل، ولديهم مهارة عمل الأدهان من العطور خاصة.

ومفردات الأدوية لدى العرب دعيت عقاقير (جمع عَقّار) وهي ما يتداوى بها من نبات طبي (أو أدوية مطلقا كالمعدنية والحيوانية) معرّبة من السريانية بمعنى الأرومة أو الجرثومة عندهم وهي أصل النبات وفرعه. ومع الاستعمال صارت العقاقير تشتمل الأدوية جميعها وبجملتها، كما تسمى العطورأهضاما (جمع هضمة) أفاويه (جمع أفوه، والأخيرة جمع فوه، فهى جمع الجمع) حتى سمّي أيضا الصيدلاني عطّارا.

وقسّم البيروني المفردات إلى أطعمة، وأدوية وسموم، والطبيب الحاذق يميز بين الغذاء الدوائي، والدواء السُّميّ، يُصلح ما يرجوه من علاج بالاحتيال من قوى الأدوية والسموم ودفع غوائلها بحسن الجمع والتوفيق بين قواها وتأثيراتها، ويعتمد على ما هو الأكثر نفعا فيكثر ما هو غذائي ويصلح ما هو دوائي، وسمّي عند الاضطرار مع فائق الاعتناء والحذر والروية، سعيا لسلامة المريض وشفائه، فالبسيط قبل المركب، والغذاء قبل الدواء.

وأخيرا يعرّف البيروني مهنة الصيدنة (أو الصيدلة، كما هو المستعمل في عصرنا) بأنها أولا وصف العقاقير المفردة بأجناسها وأنواعها وصورها المختارة لها، ثم خلطها في مركبات متوافقة على حسب وصفة الطبيب المؤاسي والمداوي بالتأكد من نفعها. ويعلو ذلك في المرتبة: معرفة قوى الأدوية المفردة وخواصها بعد التجربة قياسا وتحديدا، وعلى الصيدلاني أن يجمع بين أمرين:

1- الحذف في حالة ما إذا كان العقار مفقودا، وإمكانية الاستغناء عنه.

2- الإبدال أو التبديل باستيعاض نوع دون نوع، وزهر مكان بزور أو عصارات، وبرّي مكان بستاني، وجيد حديث مكان رديء مغشوش، مع ضبط الأوزان والجرعات المستعملة على حسب قوة العقار وتأثيراته.

والأطباء أجدر الناس بالسعي في إتمام وإنجاح صناعة الطب ورفع مستواها بجناحي العلمي والتجربة، وتسليمها إلى أمناء الصيادلة، لإتقان مستحضراتها وجودة صنعها ونزاهة العمل والتقيد بقوانينها ومهاراتها.

أيام المهدي والرشيد (775هـ-809هـ):

إن ظهور مهنة الصيدلة وانفراد تخصصها عن الطب كان أيام الخليفة العباسي المهدي، حيث ازداد عدد الصيادلة، ومنهم من فتحوا دكاكين لهم لاستقبال زوارهم، ليس فقط لصرف الأدوية وبيعهم العقاقير المطلوبة، بل كانوا أيضاً يقومون ببعض الفحوص الطبية في دكاكينهم كفحص البول والتشخيص المخبري مثلا. وكان أول صيدلي (صيدلاني) نعرفه بالاسم هو أبو قريش عيسى الصيدلاني المعروف بأبي العرب. وثاني من ذكره المؤرخ القاضي جمال الدين القفطي (ت 646هـ/ 1248م) "لظريف خبره وما فيه من العبرة وحسن الاتفاق"، وكان الأول إسحق بن علي الرهاوي في كتاب أدب الطبيب الذى لم يُحقّق بعد. وذلك أن الخيزران زوجة المهدي تشكت صحيا، فأرسلت بواسطة جارية لها بقارورة البول لفحصه من دون كشف هويتها. فدخلت الجارية دكان أبي قريش الصيدلاني هذا، فلما أكمل الفحص قال لها، لمن هذه القارورة، فأجابت بأنها لامرأة ضعيفة الحال. ولكنه أجاب على الفور، على سبيل الحدس والتخمين، : "كلا بل هي لملكة جليلة عظيمة الشأن، وهي حبلى بملك"، على أن شعاره كان دائما قوله:" علينا الاجتهاد والله يهب السلامة". وبعد انصراف الجارية أخبرت سيدتها بما حدث، ففرحت بما سمعت منه فرحا عظيما وقالت لجاريتها أن تضع علامة على دكانه حتى إذا صحّ قوله نتعهّد بالإحسان إليه. فتم ذلك بولادة موسى الهادي، فسرّ الخليفة وزوجته كبشرى عظيمة، واستدعي أبا قريش إلى القصر، ومع كونه صيدلانيا عيّنه كذلك طبيبا للقصر مع الإكرام والمكانة الرفيعة. وقد أثبت – لحسن الحظ – جدارته وكفايته، إذ جمع بين المعالجة السريرية ومعرفة الأدوية الناجعة والوصفات الطبية النافعة، مع دقة العمل وبراعة التشخيص والعلاج الطبيعي كصيدلي بحكمة

وبراعة. فلمع نجمه وعظم شأنه حتى أنه قدّم للمهنة خدمات جليلة من خلال معالجات طبية بسيطة بتهيئة الدواء المناسب في الوقت المناسب، مع الأغذية المفيدة، واستمر في خدمة الهادي والرشيد أفضل الممارسين لمهنتي الطب والصيدلة في القصر، ونال من الإكرام ما لم ينله معظم الأطباء المشهورين في ذلك العصر الذهبي.

ومن هذه البداءة المتواضعة، وما تحقق فيها من نجاح، بدأت مهنة الصيدلة الفنية تتطور وتتقدم عند العرب إلى حد لم تبلغه في الحضارات السابقة جميعها حتى عصر النهضة الأوروبية. وكثير مما قدّمه العرب في الصيدلة من إبداع ومهارة ومستحضرات وأشكال وتقنية فاقت غيرها من الشعوب وآثارهم وكتاباهم الباقية تشهد بذلك.

ومعاصر أبو قريش، هذا، كان الطبيب المعالج أبو الحسن عيسى بن الحكم (حوالي 743-840م)، مولده ومنشؤه بدمشق (فيعرف بالدمشقي كأبيه)، ولكنه نزح إلى بغداد، فخدم المهدي والرشيد أيضا في زمان كان أبو قريش في أوج عزته ورفعة مكانته في القصر العباسي، وكانا زملاء مهنة وصداقة. وشهرة الدمشقي تتمثل في كتابه الياقوتة، الكافية المسمى أيضا بالرسالة الهارونية، مهداة إلى خزانة كتب هارون الرشيد، وتحوي فصولا عديدة في الأغذية والأدوية من نبات وحيوان ومعادن مع اهتمام بصناعة الأدوية الناجعة الشافية. كما وصف بعض الحجارة الكريمة والمركبات الصيدلانية: كالأرياجات والمربّيات، وأوضح كيمياء بعض المعادن في مداواة الأمراض ومنافع الأفاويه والعطور، ولاسيما ما هو معروف في الطب الهندي، وأكد أهمية بعض المياه المعدنية لشفاء الأدواء، وشرح مصادر النشادر وأهمية الزئبق وأملاحه وأنواع الرصاص والكبريت واستعمالها داخليا وخارجيا، واهتم بالأدوية المخدّرة ووصف الدواء المرقّد الحاوي على الأفيون وبزر الخشخاش والكزبرة والشيكران والخربقة واليبروح، وهى أدوية بقيت تستعمل في دساتير الأدوية حتى العصور الحديثة.

مسهمون في تطوير الصيدلة (قرن 3هـ/9م):

بواسطة ترجمة الكتب الدوائية والصيدلانية وازدهار العلوم والمعارف في هذا العصر أخذت مهنة الصيدلة مكانا مرموقا بواسطة علماء وأطباء وصيادلة أسهموا في إحياء المهن الطبية عامة والكليات والمؤسسات الصحية كالبيمارستانات (المشافي أو دور الشفاء). وها نحن أولاء نذكر أربعة رواد في هذه الحقبة ممن خدموا مهنة الصيدلة خدمة عظيمة : أولهم، يحيى (أبو يوحنا) بن ماسويه (حوالي 778-857م)، مولده ومنشؤه في جند يسابور في خوزستان، ثم درس في بغداد واختص في العلوم الطبية حتى صار من أعظم الأطباء في زمانه والصيادلة النابهين، واشتهر اسمه وأعماله شرقا وغربا، وترجمت تصانيفه إلى عدة لغات. نذكر خمسة من مآثره الجمّة باختصار:

1- كان ابن ماسويه أول طبيب صيدلاني أسس أول "كلية" لتدريس المهن الصحية وممارستها في الإسلام، وكان ذلك في العاصمة العباسية مدينة السلام كما عرفت، ونحن نعرف بعض تلاميذه في تلك " الكلية " ممن بعده اشتهروا ولمع نجمهم في تطوير هذه الحقول وازدهارها.

2- عيّنه الخليفة المأمون (813-833م) رئيسا لبيت الحكمة زمنا لتكون مركز إشعاع حضاري وعلمي مهم، وبلغت في أهميتها في ترويج العلوم والآداب مبلغا ساوى ما بلغ "المتحف" اليوناني ـــ الهيليني في عاصمة البطالسة في الإسكندرية (306-30 ق م) وقد رتّب الخليفة له كتابا ومترجمين حاذقين وعلماء أفاضل قاموا بالبحوث العلمية والتقنية والمهنية لنشر العلوم والمعارف، كالخوارزمي وأبو زيد العبادي، وقد عمّ نفعها البلاد الإسلامية قاطبة.

3- خدم ابن ماسويه أربع خلفاء من المأمون حتى المتوكل، فكان لهم طبيب الحضرة الخاص. وكان معظمهم لا يتناولون شيئا من طعام أو شراب إلاّ بحضرتهم "واقفا على رؤوسهم"، ومعه الأدوية الهاضمة والمسنحة والمقوية والأشربة النافعة مع الإشراف المستمر على صحتهم وسلامتهم، وكان معظما لدى سكان العاصمة جليل القدر في نظرهم يعَدِّرونه كطبيب الملك حتى وفاته.

4- وكان لابن ماسويه (ولربما لأبيه أيضا) مشاركة فاعلة في تطوير بيمارستان بغداد، هو الأول من نوعه في الإسلام، كمؤسسة علاجية متكاملة الخدمة والأهداف والنشاطات في الرعاية الصحية وشفاء الأسقام، أضف إلى ذلك البحث العلمي الطبي والتعليم.

5- غالبية مآثره الخطية ومعظم تصانيفه العديدة كانت تدور حول مواضيع صحية، ومنها الصيدلة والعطور الطبية والمعالجات الغذائية والدوائية، كما جاء في الفهرست لابن النديم (أكمله عام 377هـــ/987م) ومؤرخين آخرين كمعاصر ابن جلجل مثل: كتاب "الكمال والتمام"، و"دفع مضار الأغذية والأشربة" و "السواك والسنونانات"، في الصحة الفموية واللثة وعلاجها، وماء الشعير (كتاب تم تحقيقه)، و"تركيب وإصلاح الأدوية المسهلة ومنافعها"، و"المنجح" في الصفات والمعالجات، و"في جواهر الطيب" (والأدوية العطرية)، وعلاج السموم، ولذلك يُعَدُّ بحق في الطليعة بين مؤسسي النهضة العارمة آنذاك في الطب والصيدلة وما إليهما. وثانيهم كان صديقه وزميله المخلص أبو الحسن علي بن سهل ربّان الطبري. ولد بخراسان حوالي 169هـــ/785م وتعلم على يد أبيه وعمه ومعلمين آخرين. وكان

أبوه من كتّاب مدينة مرو الموثوق بهم ذا حسب ونسب، فرعى ابنه بالتعليم منذ نعومة أظفاره: فتعلم الفلسفة والحكمة، ثم مالت نفسه إلى حبّ الخير وسعت أفكاره لدراسة علوم تخدم الإنسانية وأبناء الجنس، فنبغ في علم الطب والمعالجات ومارس ذلك وأبدع، وخدم في طبرستان ككاتب وطبيب للسلطان مازيار بن قارن، فدعي بالطبري، وكانت اضطرابات سياسية واجتماعية عصفت بالمنطقة، فدعي بواسطة الخليفة المعتصم إلى سرّ من رأى، وعلى يده أسلم فقرّبه لما ظهر من فضله وعلمه، وأخيرا أدخله المتوكل في جملة ندمائه. وإلى الأخير أهدى كتابه "فردوس الحكمة" أكمله عام 236هـ/850م في سبعة أنواع في ثلاثين مقالة مكونة من 360 بابا، فيها فصول كثيرة تهمّ فرع الصيدلة في الصناعة الطبية، وأنواع التغذية وقوانين المعالجات والصحة العامة وأنواع النباتات ومنتجات الحيوانات النافعة والجواهر المعدنية ومفردات الأدوية وإصلاحها وحفظها، والسموم والترياقات، والحلاوات والأبازير وأفاويه الطيب والصموغ والأصداف ومركبات الأدوية المعروفة والمصنوعة في الطب الهندي والمعاجين المختلفة، كما أشار إلى آداب المهن وأصولها الأخلاقية ليسمو صاحب المهنة أخلاقا وعلما ومهارة.

وجاهد المؤلف في تصنيف الفردوس ما يناهز عشرين عاما: من تعب وسهر الليالي وتواصل الاجتهاد ليكون كتابه: "بحر المنافع وشمس الآداب"، موحيا باستعمال الدواء الذى يمكن به دفع الداء، وبالحمية، جاعلا همّه الفعل دون القول، لأن زيادة الفعل على القول مكرمة، باختيار أفضل بل الدواء وأعدله نفسا وبدنا، مشيرا لأهمية فعل الطبيعة نحو الشفاء والعافية، وقد حقّق الكتاب مع تقييم وتقديم (انظر المراجع المختارة).

وعاصر كل من الدمشقي وأبو قريش الصيدلاني وابن ماسويه والطبري، طبيب معالج من الأهواز أصلا اسمه سهل الكوسج (ذو اللحية الكثيفة) وابنه سابور كان طبيبا صيدلانيا ملازما لبيمارستان جند يسابور يعالج المرضى، وكان عالما فاضلا عارفا بقوى الأدوية المفردة والمركبة، ودعي لخدمة الخليفة المتوكل ومن تبعه من الخلفاء، ولكنه فضّل الرجوع إلى جند يسابور حيث توفي عام 255هـ/869م زمن المهتدي.

وكتابه "الأقراباذين الكبير"، هو الأول من نوعه بالعربية كدستور للمركبات الصيدلانية والمفردات الدوائية، وقوانين وطرق تحضيرها، مقدار الجرعة من كل. ونذكر بعض هذه الأشكال والمركبات العلاجية في الأبواب التالية: الحبوب والأقراص واللعوقات (كل ما يلعق كالعسل والدواء) والأشربة والربوبات واللبخات والحقن والسفوفات والأروارت والقطورات والسعوطات والأكحال والمراهم

والمعجونات والجوارشنات (أدوية هاضمة) والأيارجات (أدوية مسهلة) والمطبوخات والترياقات (ضد السموم) والسنونات (أدوية ومطهرات الفم واللثة وجلاء الأسنان) وعلاجات السمنة والنمش والكلف. وكان هذا الدستور الصيدلاني معمولاً به أولا في بيمارستان جند يسابور ثم دكاكين الصيادلة والبيمارستانات لمدة ثلاثة قرون، في جميع البلدان العربية شرقها وغربها، حتى ظهور أقراباذين أمين الدولة ابن التلميذ الذي سيأتي ذكره.

وكانت العقاقير الطبية المتنوعة تتوافد إلى الأسواق في عموم الأقطار العربية والإسلامية مما أحدث حركة واسعة النطاق في تجارة الأدوية: مفردة ومركبة، وازداد النشاط العلمي والنهضة الصحية بتأسيس المستشفيات والعيادات ودكاكين الصيادلة، فأينعت الكتب وكثر درسها وتبادلها في التعريف بالمادة الطبية بأشكالها وصناعتها وطرق صرفها واستعمالها. وكثر عدد الصيادلة الأكفياء وأصحاب المهن، ومنهم من عملوا جاهدين لرفع مستواها وتحسين الأداء وأسلوب العمل والتعليم مع الخبرة والمهارة فيها.

أما، أبو زيد حنين بن إسحق العبادي (809- 873م)، فهو عريق في أصله العربي من بني تنوخ، سكنوا مشارف الحيرة عاصمة اللخمين بجنوب العراق. وكان أبوه إسحق صيدلانيا، ودخل مع عائلته بغداد؛ لتأمين فرص التعليم لابنه حنين والدراسة والإبداع في مدارس العاصمة المتقدمة حتى التحق "بكلية الطب" فيها تحت إشراف ابن ماسويه الآنف ذكره. وحدثت بينهما مشادة كلامية، وسوء تفاهم حتى انفصل العبادي عن متابعة الدراسة فيها، إلاّ أنه لسبب طموح العبادي ومواظبته في الاستفادة، زار معاهد عديدة في أقطار كثيرة، كي يتفقد المخطوطات الطبية، ساعيا لجمع النفيس منها وفحص محتوياتها مع إتقان لغتي اليونان والسريان،وربما الفارسية أيضا بجانب لغة الضاد.

وبعد رجوعه للعاصمة العباسية تألق نجمه في ترجمة الكتب الطبية والصيدلانية ومشتقاتها وترجمة مصطلحاتها؛ حتى صار مهذبا للطالبين، وعميدا للمترجمين البلغاء مع تعمقه في التعرف على صناعة الطب والدواء وطرق العلاج وقوانين المركبات من الأدوية، وأتقن الكحالة وطب العيون ومعالجتها، وأساليب الأغذية والتغذي والصحة الفموية وأوجاع المعدة وتدبير الناقهين، وأحكام الإعراب، فزاد شهرة، وتبين نبوغه، فانتدبه الخلفاء للمشاركة في أعمال بيت الحكمة والترجمة فيها، وإحياء التراث. وقام بالتفسير والشرح في وضع المصطلحات في تلك العلوم بأروع البيان ودقة التعبير والأمانة في الأداء وجمال الأسلوب. فأوضح معاني كتب إبُقْراط وجالينوس وديسقوريدس وأوريباسيوس وبولص الأجانيطي، وأساطين علماء الإغريق وأساتذتهم الناهين وكشف مستغلق كتاباتهم.

وما زال علم العبادي يتزايد وأمره يقوى فوق جميع أترابه، حتى شبّه هو بالبليغ وسواه بالألكن، وكان هو في الثريا وغيره في الثرى،

وعيّن له مساعدون أكفاء نظير ابن أخته حبيش الأعسم وابنه إسحق وإصطفن بن سيل الذي قام بترجمة "كتاب الحشائش والأدوية المفردة"، تصنيف ديسقوريدس الذي أكمله باليونانية حوالَيْ 64م، فملأ بذلك فراغا كبيرا في تاريخ الصيدلة، وكان عاملا مؤثراً في إحياء المهنة وارتقائها إلى أعلى المستويات، وفي تعريف هوية المادة الدوائية في الممالك الطبيعية الثلاث: النبات والحيوان والمعادن.

وبتأليف العبادي "لكتاب المسائل في الطب"، أسهب في تعريف الأدوية والأغذية البسيطة والمركبة، ووضع أسسا في فلسفة ماهياتها، ودساتير ومبادئ يعمل بها في تفسير قوى الأدوية وأوزانها وأساليب امتحانها والحاجة إلى تحضير الأدوية المركبة منها ومقدار الجرعة اللازمة في كل حالة وكيفية مكتسبة أو عرضية، وإصلاح الطعم والرائحة والحدّ من السمية أو الضار بشدة قوته، وفي مقاومة العلل وأفعالها، حتى صار كتاب المسائل هذا يعتمد عليه في امتحان مقدرة الطلاب في اجتيازه بنجاح من أجل حقه في مزاولة المهنة، كما استعان به أيضا المحتسب وأعوانه في مراقبة الأسواق التجارية ودكاكين الصيادلة في ضبط الغش والاحتيال في تأدية واجب المهنة على حقها وبالمهارة والإخلاص اللازمين، وكثير من الأطباء كابن صادق النيسابوري(قرن 5هـ/11م) وأبي نصر سعيد البغدادي (7هـ/13م) شرحوا "كتاب المسائل"، وعلقوا عليه، وروجوا للاستفادة منه وإثبات نظرياته في المستحضرات الصيدلانية.

ومن الناحية الأخلاقية الفضلى وقف العبادي وِقْفَةَ البطل الشجاع في وجه حسّاده، ورفض ما هو مناف لآداب المهنة، مختطا لنفسه شرعان جليلان: الامتثال بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أي شكل أو لون، مهما كانت المغريات، والتمسك بالقسم وعهد إبقراط الذي قطعه على نفسه بالولاء للمهنة والحفاظ على نواميسها وقوانينها وعهودها الأخلاقية السامية.

ومن كتب العبادي ما يمت لموضوع الصيدلة بصلة: "كتاب في الترياق" متأثر فيه بكتب جالينوس في مقالتين، و"اختصار في الأدوية المفردة" ومقالتان في قرص العودي والورد، و"الفرق بين الغذاء والدواء المسهل"، وفي أسرار الأدوية المركبة، و"كتاب في الزينة" (وأمراض الجلد)، وفي الصحة السنية، و"كتاب في أحكام الأعراب في المشتقات الطبية والصيدلانية والأمراض وتشخيصها وتقديم المعرفة، ولكنه مفقود.

من الرازي إلى الزهراوي (4هـ/10م):

في القرن الرابع الهجري تمركزت أركان مهنتي الطب العربي والصيدلة على أسس متينة، وتطلعات هادفة ومناهج موضوعية متقدمة، وفي طليعة المبدعين فيها الطبيب السريري والصيدلاني المعالج الفيلسوف الاجتماعي والكيميائي البارع أبو بكر محمد بن زكريا الرازي

(ت313هـ/925م) "طبيب المسلمين بلا منازع"، ترأس البيمارستان في كل من الريّ وبغداد، وكتب في بنائها وإدارتها والتجارب فيها، وجالس المرضى لمعرفة أحوالهم للعناية بهم والرفق بهم، ورفع مستوى المهن الصحية. وقد حارب المشعوذين المقلدين والنفعيين الجهلاء، وشجع العلماء الأكفياء بينهم، وأكبر فيهم روح التضحية والفضيلة والمهارة، وقدّر الاستنتاج العقلي والأسلوب المنهجي، وآمن بالوحي والخوارق ضد الخرافات والسحر، ومارس المهنة بإخلاص وتفان، حتى أيام مرضه وانتقاله إلى رحمة ربه.

ومع أننا لا نعرف الكثير عن نواحي حياته الشخصية والعملية، فإنه كان كثير التصانيف جيد العبارة شديد الطموح في ذلك، فبلغ مبلغا عاليا احتاج إليه الملوك والأمراء وذوو الشأن، وكان دائم الدرس ليل نهار، حتى ضعف جسمه، وثارت عليه أمراض عصبية أليمة ونزل ماء في عينيه فلم يرضَ لكحال بعلاجه، وتوفي وعمره يناهز الستين من العمر.

وصنف الرازي في مواضيع شتى: في الأسباب المميلة لقلوب الناس عن أفاضل الأطباء إلى أخِسَّائهم، وفي العلة التي يذم لها بعض الناس وعوامهم أصحاب المهن الطبية مع حذقهم فيها، وكان من مؤيدي رفعة شأن هذه المهن وإعطائها حقها من التقدير، وكرّس في كتابه الحاوي الكبير قسما كبيرا منه في الصيدنة وخواص الأعشاب والمفردات الطبية وصفاتها وأفعالها، وجعلها على حروف الهجاء من الألف: كالآس والأقحوان والإسفيداج (من أملاح الرصاص الطبيعية)، إلى الياء: كالياسمين والياقوت واليبروح (أو نبات اللفاح)، وقد ترجم الحاوي كله إلى اللاتينية وغيرها.

وأما كتابه (المنصوري في الطب) فيحوى في المقالة الثالثة موضوع قوى الأغذية الحارة والباردة والأدوية المفردة في خمسة وعشرين بابا: كالحبوب والأشربة واللحوم والألبان والثمار والتوابل والأدهان. أما في الخامسة فحول الزينة ومعالجة أمراض الجلد، والترياقات في المقالة الثامنة. وله كتاب شامل في مقالتين حول منافع الأغذية ودفع مضارها، أهداه إلى الأمير أبي العباس أحمد بن علي، وكتابه في "الجدري والحصبة" يُعَدُّ فريدا من نوعه حتى البعث الأوروبي، وله مقالة في أوجاع النقرس والمفاصل وعرق النسا، وكتب في الكيمياء الطبية، والأدوية المسهلة ومنافع الطين المختوم من المركبات الصيدلانية ومستحضراتها الكثيرة الاستعمال في العصور الوسطى حتى الحديثة.

وجاء بعده طبيب فارسي الأصل هو أبو جعفر أحمد بن أبي الأشعث(المتوفى حوالي 360هـ/971م)، عاش بالموصل وخدم الأمير ناصر الدولة الحمداني وتوفي فيها بعد أن عُمِّرَ طويلا، وله كتاب مهم في الأدوية المفردة، وآخر في مقالتين: الغاذي والمغتذي" أكمله عام 347هـ/959م يشرح فيهما وظائف الأعضاء

وأنواع الأدوية على اختلافها: كالأملاح وأنواع السكر والأطيان والنباتات العطرية والرياحين والأغذية، كالجبن وفوائده العلاجية، وكان من بين تلاميذه من نبغوا في المهن الصحية واشتهر ذكرهم.

وفي زمانه ظهر أبو الحسن بن العباس (بن) المجوسي الذي درس وتخرج في المهن الطبية على يد الشيخ أبي ماهر موسى بن يوسف بن سيّار في خوزستان، واجتذبت شهرته الملك عضد الدولة البويهي فدعاه إلى شيراز وتعين طبيبا خاصا للملك، وإليه أهدى كتابه كامل الصناعة الطبية، وسمّي بالملكي، إكراما لعضد الدولة، لكونه محبا للعلم والحكمة وأهلها، "فإذا أراد الله بأمة خيرا، جعل العلم في ملوكها والملك في علمائها"، فصنف لخزانته كتابا جامعا لكل ما يحتاج المتطببون وغيرهم من حفظ الصحة على الأصحاء وردها على المرضى.

وعن الصيدلة يقول : "وأما الأدوية فإني ذكرت منها ما يستعمله أطباء الإقليم الرابع والعراق وفارس، وما قد صحت تجربتهم له وكثرت منفعته في كل واحد من الأمراض، إذ كان كثير من الأدوية التي كان يستعملها القدماء من اليونانيين قد رفضها أهل العراق وفارس"، ونشدوا اكتشاف واستعمال الأدوية المحلية المعروفة، ثم ذكروا امتحان الدواء والطعم والرائحة واللون، وأساليب تحلية المركبات الصيدلانية لتكون الجرعات المعاطاة للمرضى، صغارا وكبارا، أكثر قبولا، لذيذة الطعم خاصة للأطفال ومن هم في طور النقاهة، وقدّرت هذه الجرعات بدقة لتعطي للمرضى الفائدة المطلوبة.

وشرح المؤلف طرق المزج والسحق لتحضير الوصفات الصيدلانية، وذكر الآلات المستعملة وأنواع الأواني والهواوين ووصف عدد أشكال تلك الأدوية من: أقراص ومعاجين وأشربة ومطبوخات وسفوف ومراهم وأدهان، كل بحسب أهمية نفعه الأمراض وعلى حسب العمر والجنس والزمن والمقدار. وخصص أبوابا وفصولا من كتابه في ذكر الحشائش وقواها، كالعوسج والسذاب والهندباء، والبزور كالكرفس والخبازى والخردل، والأوراق والأنواء كالورد والنسرين، والأصول والقشور كالكندر ولسان الحمل والأثمار كالزبيب والزعرور، ثم ذرك الصموغ والتيوعات (نباتات إذا قطعت أو أغصانها خرج منها لبن كثير كالخروع ولباب القرطم.

ثم خصص أبوابا للأدوية المعدنية والأطيان والحجارة كالتوتياء واشبوب والأملاح والزاجات (كبريتات المعادن كالنحاس والحديد)، وأنواع الكبريت، ثم الأدوية المستخرجة من أعضاء الحيوان كالمرارات والأنفحة والشحوم والألبان والعسل، ويختتم المقالة بذكر أصناف الأدوية المسهلة وكيفية الإسهال، كما في شحم الحنظل والصَّبِر وحب النيل، والأدوية المقيئة كالخبربق والحرشف والفجل وكيفية فعلها، واختيار الأدوية وحفظها.

وكتابه الملكي في قسمين – النظري والعملي في عشرين مقالة – قد ترجم مختصرا من قبل قسطنطين الإفريقي إلى اللاتينية، متجاهلا اسم المؤلف حتى أتم ترجمته إلى اللاتينية ثانية إسطفانوس الأنطاكي في القرن 12م، وطبع لأول مرة ميكانيكيّا بالبندقية عام 1492م، تبعت ذلك عدم طبعات، وحُقّق الملكي بالعربية في مطبعة بولاق بالقاهرة عام 1294هـ/1877م في مجلدين.

ولابد من القول بأن هذا الكتاب يُعَدُّ من أكثر الموسوعات العربية في بابها في هذه الحقبة من الحضارة الإسلامية المزدهرة من حيث تنظيم مواضيعها الهادفة الإيجابية، وفي دقة المشاهدة والأسلوب كمرجع لطالبي المهنة منذ وفاة المؤلف 384هـ/994م ولما يزيد على أربعمائة عام شرقا وغربا فيما بعد ذلك.

وفي زمن ابن المجوسي اشتهر أبو عبد الله محمد المقدسي التميمي. وقد ولد بالقدس الشريف، وتربى على يد جده سعيد الطبيب، ثم أكمل دراسته على راهب اسمه أنبا زكريا الثواب، لقّنه كثيرا من علوم القدماء في الحكمة والطب ومعرفة مفردات الأدوية والأغذية وأفعالها وقواها في تركيب مستحضرات مفيدة وترياقات نافعة ومعجونات جاهزة لاستعمالها على حسب الأمراض، حتى حقق نجاحا كبيرا كصيدلي محترف وطبيب حاذق، مما يتناسب وحاجة المريض وبيئته وأحواله المعيشية.

وسافر التميمي إلى مدن وقرى في فلسطين وخبر أحوال أهلها وجغرافية المنطقة ومنتجاتها الطبيعية، واستغرق في طلب الترياقات المضادة للسموم وفوائد مفرداتها وأصول تركيبها، واختص بالوالي الحسن بن عبيد الله بن طغج الإخشيدي في مدينة الرملة ويافا وما حولهما، وأخلص في خدمته طبيا حتى سقوط دولة الإخشيد، فهاجر بعدها إلى العاصمة المصرية زمن خلفاء الفاطميين الأول، وخدم ضمن حاشيتهم وتعرف على العلماء بينهم، يحاضرهم ويناظرهم بطريق الحقيقة والإقناع، حرّ الضمير كثير الإحسان، حتى وفاته زمن العزيز، وله كتابان يمتّان إلى مهنة الصيدلة بصلة هما: "مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرّز من ضرر الأوباء"، والأخير "المرشد إلى جواهر الأغذية وقوى المفردات من الأدوية"، في أربع عشرة مقالة أكمله قُبَيْلَ 980م، تبحث في الأدوية المفردة وفي المستحضرات الصيدلانية من الممالك الطبيعية الثلاث : النبات من أشجار وأعشاب والمعادن والأتربة الطبيعية المنفردة والمصنوعة والأطيان والأملاح والزاجات والأحجار من اللؤلؤ والياقوت إلى الزجاج والمرجان، ومن الحيوان: العسل والأمنان. ويعتبر المرشد مرجعا مهما اقتبس منه الصيادلة والعلماء بعده معلومات غزيرة لقرون.

يُعَدّ التميمي أيضا أول طبيب عربي مسلم في فلسطين نال شهرة واسعة ولاسيما بواسطة كتابه "المرشد" السابق شرحه، مع أن كتابه هذا

أكمله في القاهرة في عصر الفاطميين، وكان أول من شرح وجود الأملاح المعدنية في البحر الميت وشواطئه، ووصف الحمّر والجبس والنطرون والإسفلت، والفرق بين ملوحة نهر الأردن وما في مياه البحيرة هذه، وذكر الموميا والقير والنفط والكبريت وغيرها من الأقفار (كقفر اليهود والقار والعنبر).

كما أسهب في ذكر أنواع النباتات العطرية والرياحين والأزهار والأثمار، وما تستخرج منها من أدهان وإكسيرات، كما شمل الأغذية وطبائعها ومنافعها ومضارها وما يستعمل منها في التغذية أو في العلاج ومقادير ذلك على حسب الوصفات الطبية.

معاصرا للتميمي كان أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الجزار (ت حوالي **370هـ/981م**)، سليل عائلة طبية في القيروان (تونس اليوم) فأبوه كان كحالا وعمه كان طبيبا حاذقاً فاضلا، وكان ابن الجزار نفسه كثير الدرس والحفظ، علي الهمة جميل الخلق، لم يتزلف للأكابر والأمراء، في حين كان رءوفاً محسنا للفقراء. وقد أخذ بنفسه مأخذا حسنا:" ولم تحفظ عليه زلة، ولا أخلد إلى لذة"، وله عيادة في القيروان، ويقضي الصيف في مدينة المنستير على شاطئ البحر، وقد بنى في جانب عيادته سقيفة أقعد فيها مساعدا صيدلانيا، أعدّ بين يديه ما يحتاج إليه من معجونات وأشربة يصفها لمرضاه بعد معاينتهم وتشخيص أمراضهم ورؤية القوارير (الحاوية على بول المرضى لفحصها) والأمر بوصفات لصرف أدويتها وتقاضي الأجرة من السقيفة، وهذا دليل على توفر وجود دكاكين الصيادلة والعطارين والعيادات الطبية بجانب المنازل منذ مطلع القرن العاشر في المغرب،كما ظهرت قبلا في المشرق العربي.

ومن كتب ابن الجزار الكثيرة ما له علاقة ماسة بالصيدلة وأعمالها مثل "كتاب زاد المسافر وقوت الحاضر"، في سبع مقالات، أهداه إلى عمّ الخليفة الفاطمي. ويشمل الأمراض وطرق معالجتها، وانتشر الكتاب في الأندلس أيضا بالعربية، كما ترجم إلى اللاتينية والعبرية. وله كتاب " في المعدة وأمراضها ومداواها"، وكتاب الاعتماد في ذكر الأدوية المفردة، يقول في المقدمة: "إن معرفة جميع الأدوية المفردة ومنافعها باب عظيم القدر جليل الخطر"، ذاكرا كتاب ديسقوريدس والصيدلة عند جالينوس، ولكنهما قصّرا في ذكر طبائعها وقوة مفعولها وكيفياها، فأراد ابن الجزار إكمال ما هو ناقص أو غير معروف في العصر الإغريقي، فأضاف ذكر نباتات الورد والبنفسج والأفسنتين والبابونج والسرو والآس والهندباء والخشخاش والسذاب وإكليل الملك(وهو شجرة الحبّ) وأشاد في التعريف بها وذكر خواصها ومنافعها. وفي الدرجة الثانية بالنسبة لقوة العلاج، ذكر المسك والراوند والصبر والبلسان والجعدة والزعفران والسوسن والسعد والخطمي وخواصها ومصادرها الطبيعية. أما أشخاص الأدوية من

الدرجة الثالثة فذكر منها الحنظل والزنجبيل والصندل والكراويا والكمون والأنيسون والأقحوان والكرفس. أما قوى الأدوية من الدرجة الرابعة والأخيرة فقد ذكر الجلنار (زهر الرمان) والزوفا والزاجات من الأملاح المعدنية، وجميع الأدوية المذكورة في "الاعتماد" حوالي 244 عقارا، وجميعها تَمُتُّ لما يُعَدُّ غذاء مناسباً للبدن، أو سمية منافرة لما هي عليه حال البدن، أو أدوية بين الغذاء والدواء، وفيها يحتم الطبيب المعالج أو الصيدلاني لزوما ما يلزم منها كيفية وكمية.

وفي هذا العصر، ظهرت مهنة الصيدلة على قدم وساق مع مهنة الطب في بلاد الأندلس، وكان أول طبيب صيدلي معروف , وله كتابات صيدلانية باقية، هو أبو عثمان سعيد بن عبد ربّه (ت 342هـ/953م)، الذي كان أيضا أديبا بصيرا في تقديم المعرفة وتشخيص الأمراض , متعمقا في العلوم الحكيمة والطبيعية بتغيير الأهوية ومهب الرياح وحركة الكواكب. واشتهر في خلافة الناصر وخدم المهنة بإخلاص وتفان ودقة في البحث، حتى إنه اتهم بالجفاء والزهد في العيش، ولكن من يقدر واجبات المهنة ومسؤولياتها ومجال العمل فيها، يدرك ضيق الوقت لدى ممارسيها ووحشة الطريق والتقيد بآدابها وعهودها ولزومياتها.

ويعد كتاب " الدكان " الأول من نوعه في الأندلس والمغرب العربي كله، فهو كأقرباذين سابور السابق ذكره في المشرق العربي، أو كدستور للأدوية والمستحضرات الصيدلانية، كُتِبَ بأسلوب جميل متناسق، مُهْدى إلى صديق له إذ يقول في المقدمة : " قد رغبت أن أكرمك في أن أؤلف لك كتابا جامعا... فلم أكسل عن رغبتك علما مني بجميل العاجل والآجل... وبأن أبرز منفعته للناس عامة" في سبعة عشر بابا: في الأشربة وعملها أو طريقة تركيبها كشراب البنفسج السكري، والمربيات وتربيبها ومنافعها، والجوارشنات وعملها كجوارش الكافور، والمعاجين ووصفها وطريقة استحضارها، ثم عمل الحبوب والأقراص وطريقة إعدادها علي حسب مهنة الصيدلي، والشيافات والسفوفات ووصف الغوالي (من المستحضرات العطرية العنبرية الغالية الثمن)، والذرورات، وتصعيد بعض النباتات الطبية واستقطار مياهها العطرية الطيبة الرائحة باستخدام آلات التقطير والأنبيق والتجهيزات المتوفرة في دكاكين الصيادلة، وعمل الأدهان من الأترج (كالليمون) والبابونج والنرجس واللوز والبان، وماء التفاح والزعفران المطيّب، وعمل الأكحال والقطورات واستحضار المراهم المعمولة من الشحوم والصموغ أو السواغات الزيتية بأنواعها المتعددة والأشكال التي اشتهرت بها الصيدلة العربية منذ مطلع القرن 3هـ/9م، واستمر تطويرها وانتشارها وتأثيرها في أوروبا وغيرها.

وقد اشتهر بعد ابن عبد ربه طبيب صيدلاني فذّ، هو سليمان بن حسّان بن جلجل

(حوالي 332-385هـ/943-995م) ولد وتوفي في قرطبة من أصل مسيحي إسباني كاثوليكي , ولكنه نفسه كان مسلما، وقد بدأ الدراسة وعمره ست سنين بحفظ القرآن الكريم واللغة العربية وآدابها وصرفها ونحوها، والعلوم في معاهد قرطبة المتعددة ومساجدها العريقة، حتى انخرط لدراسة المهن الصحية للتعرف على أسرارها , والكشف عن غوامضها وأدويتها والمهارة بمعالجة الأمراض منذ بلغ الرابعة عشرة من عمره , لمدة عشر سنين أُخَرَ حتى أتقن مفرداتها وحقّق هوياتها وخواصها وأوزانها ومستحضراتها الصيدلانية.

ويقال : إنه اشتهر زمن الخليفتين الحكم الثاني وابنه الحدث هشام ووزيره وحاجبه المنصور بن أبي عامر المعافري، ويبدو نبوغ ابن جلجل، مع صغر سنّه في مؤلفاته القيّمة وخبراته الواسعة واستنتاجاته الذهنية الأصيلة،

وأهمها:

1- مقالته في الأدوية التي لم يذكرها ديسقوريدس في كتابه مما يفيد في معالجة الأمراض وما لا ينتفع به، أو أغفله ديسقوريدس أو لم يره أو يستعمله أبناء جنسه من اليونان في زمنه وتمّ ذكره هنا علي حسب حروف المعجم : كالإهليلج والبليلج والأمليح من الأدوية الهندية المنشأ، وكذلك التمر هندي والخولنجان والجوزبوّا والكبابة والبهمن الأبيض والأحمر والريباس والفوفل والتنبول بتأثيراتها "الهلسية" المخدرة، والقرنفل والأمبرباريز (عود الريح من الفصيلة الشقيقة) والهرنوه والحلب والنارجيل والنارنج (من أنواع الليمون) والياسمين والخيزران والكافور والمسك وأنواع العنبر والصندل والبقم (وهو العندم) وجوز ماثل والقاقلة (حب الهال)، وبعض ما عدّده صديقه وزميله الصيدلاني ابن مسرور من مفردات: كالباذ زهر (ضد السموم) والماس مع مقارنة أوزان المفردات بحسب الأعداد التأليفية (الشجرية والعطرية الرائحة والمذاق) وأنواع أشكالها ومكان وجودها وأسمائها.

2- رسالة البيان فيما غلط فيه بعض المتطببين إما بالنسخ أو من أخطاء التعرف بها : الإسفاناخ والطرخون وحب الذلم (السعد المأكول أو العزيز) والورس والكركم (العود أو العقيد الهندي) المستعملة أيضا في صنع المراهم. وكان ابن جلجل قد اطلع على الترجمة في العاصمة العباسية لكتاب الحشائش ومفردات الأدوية، تصنيف ديسقوريدس الآنف ذكره.

3- مقالة في أدوية الترياق كالفاروق (بمعنى المخلص والمنجي في إبطال مفعول المولد السمّية) والمواد النافعة من لدغ الهوام والحشرات السامة، وفي ذلك يقول ابن جلجل:"إنه قد كان لي في أول طلبي للمهن الصحية عناية بالغة في تصحيح بسائط ومفردات هذه الأدوية التي تتضمن

الترياقات، والتعرف على كل واحد منها ووصفها والتحقق من منافعها , كما فعل غيره من الزملاء في عصره، الذين أكثروا الاهتمام في التعرف والازدياد من الكشف حول هذه المفردات وتفسيرها، وكان هدف المؤلف الأساس هو إظهار الحق في كل منها, والتأكد من كشفها لخدمة المرضى وإعانتهم على نوال الشفاء. من أجل ذلك قام ابن جلجل نفسه في وصف هذه المفردات الدوائية والغذائية , وبيّن الصحيح من الخطأ، وكيف الغلط فيه , وتثبيت الطريقة والنوعية الجيدة، والمحتويات التي شملتها الترياقات بمفرداتها علي حسب الأصول المرعية، والمواصفات الدقيقة في عرف أهل زمانه من أهل الصنعة من أطباء وصيادلة , كما سبقت الإشارة إلى ذلك؛ للحصول على المنافع المرجوة في علاج الأمراض.

4- مقالة تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس فلم يصل إلينا سوى قطعة غير كاملة محوفظة في المكتبة الوطنية في مدريد.

5- اما كتابه طبقات الأطباء والحكماء فنظير كتاب الفهرست لابن النديم , كلاهما أكملا عام 377هـ/ 987م الأول في قرطبة والثاني في بغداد , وقد أصبحا منذ ذلك الحين المرجعين الأولين والمهمين للأطباء والصيادلة عند الإغريق والعرب حتى زمنهما. وكان عصر نهوض حضاري منقطع النظير، وكان للصيدلة وعلوم النباتات الطبية ومفرداتها الدوائية نصيب كبير من الاهتمام والدراسة الجادة، ليس فقط في الكتب ومقاعد الدرس , بل في التعليم الطبيعي الواسع : في البراري والسهول والشواطئ والجبال سعيا للتعرف على هذه المنتجات المفيدة لاكتشافها ووصفها وما يصنع منها من مستحضرات صيدلانية نافعة في شفاء الأمراض وترويج التجارة والصناعة وإحياء العلوم الصحية الشريفة.

وكان معاصرا لأبي جلجل في العاصمة التجارية والثقافية بالأندلس، زميله أبو بكر حامد بن سمجون (سمحون) من أهل قرطبة أيضا، وقد توفي بُعَيْدَ عام 394هـ/1004م، وقد تميز في معرفة قوى الأدوية المفردة وأفعالها زمن الحاجب المنصور الآنف ذكره , والذي حقّق للأندلس الإسلامية نصرة واستقرارا لا نظير له منذ زمن الخليفة الناصر.

وكانت لابن سمجون معرفة بالمعالجات البسيطة والمركبة وطرق جمع العقاقير وتصنيفها واستخراج فوائدها وطرق استعمالها بين الإغريق وعند العرب، ومن خلال تجاربه ومشاهداته الشخصية. وقد مدحه في العلم والمهارة أبو يحي أحمد بن عيسى بن حزم (ت575هـ/1179م) في المغرب، وذكر أفضاله، وبعده اقتبس من علمه عدد كبير من الثقات في الأندلس من صيادلة وأطباء وعطارين وعشّابين والعاملين في الفلاحة، وقد عَدُّوه من أعظم صيادلة الأندلس المتخصصين في مفردات الأدوية.

وفي فهرس المخطوطات المحفوظة في المكتبة البريطانية بلندن مخطوطة بعنوان : جامع (أو الجامع في) الأدوية المفردة، أو الجامع لأقوال القدماء والمحدثين من الأطباء (الصيادلة) والمتفلسفين في الأدوية المفردة (رقم 11614 أو حمارنة رقم192) وهي ناقصة. وأما أقدم مخطوطة، فالموجودة في مكتبة أحمد الثالث بإسطنبول في (140ق) تم نقلها في القرن 5هـ/11م، مرتبة على حروف الهجاء من ألف إلى ياء في ثلاث مقالات، مع ذكر أوصاف المفردات الطبيعية والأوزان والمنافع , حتى المخدرة منها أو المسهلة أو المسكنة.

وكان معاصرا لابن سمجون بالعاصمة الأندلسية، الطبيب الجراح والصيدلاني، أبو القاسم خلف ابن عباس الزهراوي (المتوفى حوالي 404هـ/1013م في الزهراء.

تعلّم في العاصمة الطبية , وقام بتأليف كتابه الوحيد "التعريف لمن عجز عن التأليف"، رتّب له لأكثر من أربعين سنة من الممارسة، ويصادف العقد الأخير من القرن العشرين مرور ذكرى الألف عام بعد تأليف كتاب "التعريف" (همدرد، ج33 عدد 2، 1990، ص 19-40).

وكانت الأطروحة للدكتوراه في تاريخ العلوم الطبية لمؤلف هذه الدراسة عام 1959 في جامعة سكنيسن بأمريكا حول حياة ومآثر الزهراوي في تاريخ الصيدلة والتعريف بها وتصنيفها والأبدال والمستحضرات الصيدلانية.

وبدأ الزهراوي ممارسة المهنة ومن الخلفاء الأمويين في الأندلس : الناصر والمؤسس لابن المستنصر والحفيد هشام، ويقول زميلنا الأستاذ محمد العربي الخطّابي إن الزهراوي لم يكن كغيره ذا ثراء وما سعى إلى الغنى المادي والجاه العريض، بل كان جلّ اهتمامه اتباع الهدى والعلم والعرفان في هذه الحرفة الشريفة بكل فروعها وتشعبها من طب وصيدلة وجراحة. وهكذا فإن كتابه الوحيد (التعريف)، كان موجها ومهدى إلى طلابه الذين يدعوهم ويشبههم بأولاده، ولا يشاء أن يترك لهم ورثة مال وسؤدد , بل خلّف لهم في كتابه هذا الكتر الحقيقي والذخر الدائم لهم ولمن بعدهم في استيعاب التعلم في الصناعة في حقولها المتعددة.

يقول الزهراوي في المقدمة : "لقد ألفته لكم وجعلته مقصورا عليكم , مقصودا به نحوكم , وجعلته كنزا لكم وذخرا، فإن وراثة العلم عند أهل النّهى أفضل من وراثة المال...؛ إذ إن العلم يزكو على الإنفاق والمال ينفذ" , ولما بدأ الزهراوي في تصنيف التعريف، اعترضت في طريقه المصاعب والمثبطات، فكابد قسوة الظروف , واحتمل التعب وتعب الفكر وسوء الحال , فتجشم المخاطر للإحاطة بقوانين المهنة وشرائطها ومهاراتها درسا وتدريبا ليبقى التعريف تذكرة حاضرة وعدة للمستقبل.

وفي رسالة : "في فضل الأندلس وذكر رجالها"، امتدح أبو محمد علي بن حزم (ت 454هـ/1063م) الزهراوي وكتابه بقوله : "وقد أدركناه وشاهدناه، ولئن قلنا : إنه لم يؤلف في الطب أجمع منه ولا أحسن للقول والعمل في الطبائع، لنصدّقن ". أما المؤرخ الحميدي في جذوة المقتبس، بأن الزهراوي كان من أهل الفضل والدين والعلم". وفيما عدا ذلك لم ينل الزهراوي ما يستحقه من التقدير وعرفان الجميل في وطنه الأندلسي والعربي , وجهلت قيمته في البلاد العربية قاطبة , في حين أن العلماء والأطباء في أوروبا قدّمت له التقدير الذي يستحق , وأشادوا بأهمية كتابه ومحتوياته (أو معظمه).

أما كصيدلي، فإن الزهراوي قد أسهب في تعريف مفردات الأدوية والمستحضرات الصيدلانية بالتفصيل. فقد وصف المعاجين القديمة التي تخزن وتدّخر، وصناعة الترياقات والأدوية النافعة ضد السموم، وصفات الأيارجات القديمة والحديثة وسبل ادّخارها حتى وقت الاستعمال، وصفات الأدوية المسهلة , ولاسيما اللذيذة المذاق والمأمونة، والحقن والفرزجات (التحاميل المستعملة في الرحم أو في المستقيم والمخرج)، وفي الأطريفلات (معاجين صيدلانية مصنوعة في أدوية هندية) والبنادق (كالأقراص الكروية الشكل) والجوارشنات والكمونيات (أدوية هاضمة يدخل فيه االكمّون)، والأشربة والسكنجبينات (مستحضر صيدلاني من خل وعسل وماء ومياه عطرية أخرى) والربوب والمطبوخات والمفقوعات والمربيات ومنافعها وأسلوب صنعة تربيبها وادخارها، وفي السفوفات والأقراص والسعوطات والبخورات والقطورات والذرورات والغراغر، ووصف مواد الطيب والزينة وصناعة الغوالي (من عنبر ومسك وأفاويه عطرية غالية الثمن تصنع كعقود أو أقراص كروية)، ووصف الأكحال واللطوخات وأصناف الضمادات والمراهم والأدهان وأحكام صناعتها. كما أسهب في وصف أطعمة المرضى وإعدادها وأهميتها والأصحاء وأجاد في ذكر خواص وطبائع وقوى الأدوية والأغذية وإصلاحها من منتجات نباتية وحيوانية ومعدنية، وما يحتاج من الحرق والتكليس والتسخين والسحق. وأخيرا ذكر أسماء العقاقير باختلاف اللغات وإبدالها وإعمارها ضمن مدة صلاحها للاستعمال مع تفسير الزهراوي في ممارسة المهنة التي أحبها بكل فروعها حتى وفاته حوالي 404هـ/1013 في مسقط رأسه الزهراء، فكان أول من حمل هذا اللقب فيها؛ لأنه كان ابن الزهراء البار، وبموته اهدمت في حروب ضروسة واندثر أثرها.

ابن سينا والبيروني وابن وافد اللخمي:

نستعرض في القرن 5هـ/11م ثلاثة علماء نابهين كان لهم أثر كبير في تطوير مهنة الصيدلة ونهوضها وتقدمها. ومع أنه منذ أواخر القرن الثاني هـ/الثامن م كان فصل واضح : بين مهنتي الطب الصيدلة فلكل من الطبيب والصيدلي عيادته أو دكانه مع اللقاء كأبناء المهنة

الواحدة في خدمة المرضى وشفاء الأسقام، فإنه في الوقت نفسه كان بين الممارسين لها من كانوا أطباء وعلماء كتبوا في الصيدلة، ومنهم صيادلة كتبوا في المعالجات والمفردات الطبية ومواضيع أخرى متفرقة، ومن بينهم في هذه المناسبة نذكر الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا، وهو من ألمع رجالات الفكر في الإسلام ومعظم كتبه العلمية والفلسفية بالعربية مع أنه عاش كل حياته وتنقلاته في فارس.

كان ابن سينا عبقريا منذ حداثته متوقد الذهن، فأراد أبوه تسهيل الظروف واغتنام الفرص لتعليمه إلى أعلى المستويات، ولم يألُ جهدا في توفير المعلمين له والنابهين منهم للازدياد في العلم. فبعد أن أتقن اللغة وحفظ القرآن عن ظهر قلبه، اتجه ابن سينا إلى العلوم الحكمية والفلسفية والرياضية على يد الفيلسوف أبو عبد الله الناتلي الذي استضافه أبوه في البيت للعناية بابنه، فدرس معه المنطق حتى بلغ عمره أربعة عشرة سنة، بعدها بدأ بإتقان الرياضيات الإقليدوسية والتنجيم مع ترجمة لكتاب المجسطي لبطليموس حتى فاق أساتذته في فهمه وذكائه، ودرس الفقه على الشيخ إسماعيل الزهيدي الصوفي والتشريع الإسلامي وما وراء الطبيعة، فاستعان في ذلك بكتب الفيلسوف أبي نصر الفارابي (المعلم الثاني بعد أرسطو طاليس، ت 950م). ولما كان في السادسة عشرة من عمره بدأ بدراسة الطب، فوجد ذلك سهلا، لأنه اكتفى بدراسة الكتب الطبية دون التمارين والأعمال اليدوية والمشاهدة بجانب أَسِرَّةِ المرضى في البيمارستان، ففاته ذلك وكانت خسارة حقيقية ليجمع بين العلم النظري والمهارة العملية. واعتقد أنه في عام واحد قد أتقن الصنعة فقام بمعالجة المرضى وقد بلغ السابعة عشرة من العمر , وانفتح عليه باب الرزق والتوفيق , مع العمل المتواصل في البحث والتنقيب.

وفي هذه الأثناء عرض للأمير الساماني نوح الثاني بن منصور مرض صعب (عام 387هـ/997م) عجز الأطباء عن شفائه، فذكر اسم ابن سينا عنده فأمر بإحضاره وهو حدث، فعالجه ونال على يده الشفاء، فصار له من المقربين الناصحين وسمح له بالدخول على رحب إلى خزانة كتبه بين صناديق المخطوطات المنضدة، فغرف من ينابيع محتوياتها من تصانيف لم يقع له اسمها قبلا. لما بلغ ابن سينا الحادية والعشرين من عمره، صنّف أول كتاب له في الأخلاق، تبعته تصانيف متلاحقة، وكان في الفلسفة والعلوم الحكيمة والآلهية أكثر إتقانا منه في الطب والصيدلة وما إليهما.

ونذكر هنا اثنين من كتبه تمتّ بصلة إلى مهنة الصيدلة : الأول كتاب القانون في الطب، والكتاب الثاني بين الخمسة منها يحوي مفردات الأدوية مرتبة علي حسب حروف الهجاء مع

ذكر خواصها وقوتها وتأثيراتها العلاجية ومنابتها وحفظها وطريقة استعمالها خارجيا وداخليا.

أما الكتاب الخامس فهو في المستحضرات الصيدلانية بأشكالها وطرق تركيبها باختصار، كدستور للأدوية أو أقراباذين. وكان العالم الإيطالي جيرارد الكريموني قد ترجمه إلى اللاتينية في مدنية طليطلة، وترجم إلى العبرية وغيرها عدة مرات في طبعات حتى القرن السادس عشر، أشهرها طبعة رومة عام **1593**م مع كتاب الشفاء، فأصبح دليل شهرة واسعة في الأوساط الأوروبية. والكتاب الثاني لابن سينا هو الأدوية القلبية، تم تحقيقه أكثر من مرة، وترجم إلى لغات أخرى، ولكن كلا الكتابين في أكثرهما، تغلبت عليهما النظريات المستقاة من الكتب القديمة والعربية آنذاك دون الاعتماد على ممارسة عملية، والمشاهدات والطب السريري والتجارب البيمارستاينة، فجاءت تصانيفه الطبية هذه دون الأصالة والبحث المستفيض أو المهارة المهنية، فأكثرها منقول بنصه وفصه من دون إعطاء الفضل للمقتبسين منه مطلقا، وكانت وفاة ابن سينا عام **428**هـ/**1037**م قرب همدان بعد حصول أوجاع قولنجية أليمة قاساها، حتى سقطت قوته ولم تفِ بدفع المرض وعجز عن التدبير العلاجي فمات عن عمر يناهز السابعة والخمسين عاما.

وكان معاصره أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني السابق ذكره يتمتع بعبقرية متعددة الجوانب في حقول المعرفة من رياضيات وفلك واجتماع واقتصاد , بجانب العلوم الطبيعية والحكمية والتاريخ الطبيعي، وكانت بينهما مناظرات ومراسلات كان فيها البيروني رحب الصدر وافر الفضل غزير العلم ويعدّ بحق من أعظم علماء الإسلام ونوابغهم قاطبة.

وبالنسبة لموضوع الصيدلة فللبيروني أثران مهمان نذكرهما باختصار: الأول، الجماهر في معرفة الجواهر، ألّفه للملك الغزنوي أبي الفتح مودود بن مسعود عام **435**هـ/**1043**م، في قسمين الأول يحوي مقدمة موجزة في فصلين قصيرين وخمسة عشرة ترويحة (كالتأمل في الصلاة والتعبد والتفكير الهادئ المركّز). وهذه المقدمة حقا قطعة فنية رائعة حاوية آراء سديدة محكمة في نواح شتى من المعرفة الإيجابية ,من الآداب وفلسفة العلوم والتاريخ الطبيعي والعدالة الاجتماعية والتدبير والإدارة العامة والأصول البيئية والاقتصاد وجاءت كدرّة نفيسة مشرقة في حضارة الإسلام. والقسم الثاني دليل لنصوص تاريخية ووصف دقيق موضوعي لحوالي عشرين جوهراً أو حجارة كريمة أو شبه كريمة وما يقرب من أربعة وعشرين من فلزات ومعادن وأحجار ترابية والتعريف بها وخواصها وتواجدها: كالذهب والفضة والنحاس، وكذلك الأصداف والأطيان وذكر الأوصاف الطبيعية وربما الكيميائية والثقل النوعي الذي يحدد أوزانها الحقيقية والتأكد من نقاء هذه المواد من الغش.

وكتاب البيروني الثاني هو الصيدنة في الطب، السابق ذكره، والذي فيه يشيد بمسؤولية ومهمة الأطباء في إتمام الصناعة الطبية وإنهاضها بجناحي العلم والتجربة , ثم تسليمها إلى أمناء الصيادلة ليخدموها خدمة الأطباء الطبيعيين سواء بسواء.

وكان الإغريق من الشعوب الموسومة بفضلهم للعناية في المباحث العلمية والفلسفية، وترقية الأشياء والمواضيع إلى أشرف مراتبها إلى حد الكمال الانسيابي. وهكذا ظهر بينهم أمثال إبقراط وسقراط وأرسطو طاليس وديسقوريدس وجالينوس. ومن جهة المنتجات الطبيعية فمنهم من جالوا في الجبال والأودية والصحارى للتعرف على كل دواء مفيد من أعشاب ونباتات ومعادن، واستخلصوا منها بالتجربة والاختبار مواد شافية وعقاقير نافعة.

ويضيف البيروني قائلا بأنه يسمع من إخوة في المغرب والأندلس الذين فازوا بغنائم جزيلة بتعرفهم ووصف خواص وفوائد نباتات طبية مفيدة , فنالوا مشكور الجزاء بمساعيهم الحميدة وعلمهم الجمّ ومهارة العمل والتجربة، وقد سبق ذكر بعضهم كابن عبد ربّه وابن جلجل وابن سمجون والزهراوي.

وفي مقدمة الصيدنة، يقول البيروني أيضا:" ديننا والدولة عربيان وتوأمان يرفرف على أحدهما القوة الآلهية وعلى الآخر اليد السماوية... وتقام الصلوات بالقرآن العربي المبين خلف الأئمة يخطبون به لهم في الجوامع بالإصلاح، وحبل الإسلام غير منفصم "وإلى لسان العرب نقلت العلوم من شتى المدنيات، وسرت محاسن لغة الضاد بترجمات بديعة متقنة لتراث القدماء , ولاسيما الإغريق والسريان فنال العرب والمسلمون منها حصة الأسد، والمتقدم منهم في الصناعة والحرف المهنية من كان للغة أشد هداية بعد أن كانوا في الجاهلية قوماً أمّيين استناروا بنور الحق والإيمان والعلم، فازدهرت حضارتهم وأينعت تحت ظل الإسلام عبقريتهم.

ويقول البيروني مسترسلا بأنه منذ حداثته كثير الدراسة والملاحظة، حريص على التعلم واقتناء المعارف الإيجابية , وتعرّف في كهولته على طبيب صيدلي اسمه أبو حامد أحمد بن محمد النهشعي المتولي إدارة البيمارستان في غزنة، عارف بالمفردات الطبية , فتعاون مع البيروني في تعريف هذه المفردات ووصفها وأوزانها العلاجية ومكان نباتها وجمعها وحفظها وأنواعها. وبعد المقدمة قام البيروني في الجزء الثاني من الصيدنة في شرح مفردات الأدوية، وكان شاهده بنفسه ووصفه بدقة علي حسب حروف المعجم مع أسمائها وإبدالها ومنافعها، فجاء كتابه في غاية الجودة ومن أكثرها أصالة وشمولا في العصر الوسيط. وحقق كتاب الصيدنة هذا بالعربية , وترجم إلى الروسية والإنكليزية إلى الفارسية.

وفي الأندلس بالرغم من سقوط الخلافة الأموية فيها، فإن المهن الصحية استمرت في

تقدم ملحوظ تحت حكم ملوك الطوائف. ومن أهم الذين ظهروا في هذا العصر كان الطبيب الصيدلاني الوزير أبو المطّرف عبد الرحمن بن وافد اللخمي (387-467هـ/998-1074م). كان ملما بكتابات الإغريق المترجمة إلى العربية واسع الاطلاع وحسن المشاهدة كثير المعرفة بالأدوية المفردة، حتى ضبط منها ما لم يضبطه أحد غيره في عصره، فألف فيها كتابا استل فيها جملة مما تضمنته كتب ديسقوريدس وجالينوس في هذه المواضيع ورتّبه أحسن ترتيب.

وذكر زميله ومعاصره القاضي صاعد الأندلسي في طبقات الأمم، أنه عانى في جمعه الجهد الكبير إلى ما يناهز العشرين عاما، محاولا ترتيب مواد وتصحيح ما تضمنه من أسماء الأدوية وصفاتها وقواها ودرجاتها، حتى أكمله موافقا لغرضه ومطابقا لبغيته. وكان ابن وافد نبيلاً في نزعته شريفاً بين قومه فاضلاً في تأديته للخدمة الصحية، ملتزما في معالجة مرضاه، مبتدئا أولا وقبل كل شيء بالأغذية المناسبة، فإذا لم تغن فبالأدوية المفردة ثم المركبة. وقيل : إنه كانت له نوادر لطيفة وعجائب في مقدرته على الشفاء والمعالجة ليس فقط من الأمراض العادية بل من الصعبة والعلل المستعصية بأيسر السبل وّأقرب المعالجات وأوفرها. وترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية وبقي زمانا من أهم المراجع في بابه في الأندلس وفي أوروبا المسيحية، كما ألّف كتابا في الحمامات الطبية لم تبق منها إلاّ ترجمته اللاتينية. اما كتاب الوساد، في الطب والمعالجات فقد تم مؤخرا تحقيقه وترجمته.

الصيدلة في القرن 6هـ/ 12م:

استمر ازدهار مهنة الصيدلة عند العرب في هذا العصر في الوقت الذي كان الغرب – لمدة أربعة قرون – في طور التأخر والانكماش. وفي مطلع هذا القرن ظهر يونس بن إسحق بن بكلارش الذي كانت له خبرة طويلة واعتناء كبير بالأدوية المفردة. وفي هذا صنّف كتابه المستعيني، الذي أهداه بانتقاله إلى مدينة سرقسطة للأمير أبي جعفر المستعين بالله أحمد بن هود، أكمله عام 500هـ/1107م، ووضعه على شكل جداول، وهو النموذج الأول من نوعه في الأندلس. أما في المشرق فقد سبقه آخرون. وابن بكلارش في المقدمة يمتدح نصيره:" إني رأيت المستعين بالله أبا جعفر أحمد ابن المؤتمن بالله قد حاز الفضل برمته، فرأيت أن أخصّه بكتاب جمعت فيه ما افترق من فوائد الحكماء، ونظمت فيه ما انتشر من جواهر العلماء... في الأدوية المفردة وأبدالها ومنافعها للمعالجة ووجه استعمالها " وقد تضمّن في أهدافه ثلاث خصال : جمع ما افترق، واختصار مطوّل، وإيضاح مشكل. وقد شمل الأراء في السريانية والفارسية واليونانية والإسبانية والعربية ناسبا كل قول إلى قائله، وكل عقار تحت جدول في خمسة أقسام، جاعلا له مقدمة في معرفة قوى الأدوية وخصائصها ذاكرا الاسم والطبع والدرجة وتفسيره في اللغات المذكورة أعلاه،

والأبدال منه ومنافعه ودرجته ووحدة استعماله (الجرعة). وقد جعل في أسفل الجدول وأعلاه فصولا حول المعالجة النافعة أو الضارة، وتصانيف الأدوية المسهلة والقدر اللازم للعلاج المتناول أو بديله إن كان موفورا ومفيدا، ثم ذكر القوى بطعومها وروائحها ومزاج البدن.

ورتب الأدوية فجاء في الدرجة الأولى منها: الأفسنتين وإكليل الملك، والثانية، الروائد والزعفران والعنبر، والثالثة الآنيسون والقرنفل والزنجبيل، وفي الرابعة : الفلفل والخردل. أما المبردة، ففي الدرجة الأولى : الشعير والقاقيا والهندباء، وفي الثانية، لسان الحمل والخيار والسمّاق، وفي الثالثة، الكافور والصندل، وفي الرابعة الخشخاش والبنج.

ويعرّف بكلارش الأدوية علي حسب أحرف المعجم، وفوائدها العلاجية وطريقة التحضير ومعرفة طبائع المركبات وطريقة التركيب والحاجة إلى ذلك: كدفع غائلة دواء مضرّ وكراهة الطعم أو الرائحة، ومزج دواء قوي المفعول مع دواء قليل القوة والفعالية، كما أوضح ذلك أبو زيد العبادي في "المسائل"، السابق ذكره.

وكما اشتهر ابن بكلارش بين الرية وسرقسطة من المدن الأندلسية، فإن معاصره أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت من أهل دانية من شرق الأندلس، قد برز في كثير من العلوم الرياضية والفلكية والموسيقية والأدوية والمهن الصحية، وقد رحل إلى الشرق , وبقي متنقلا بين تونس والبلاد المصرية حتى وفاته عام 529هـ/1134م بالمهدية ودفن بالمنستير. ولم يبلغ في المهن الصحية ما بلغه ابن أبي الصلت في العلم والأدب والمهارة الطبية في زمنه، وكان لطيف النادرة فصيح اللسان سديد الرأي. ومع ذلك حين وصل الإسكندرية سجن مدة ثم أطلق سراحه لإخفاقه في مهمة وكّل بها. وقد امتدحه ابن أبي اصيبعة وأشاد بعلمه ومكانته.

وفي الرسالة المصرية، ذكر العلماء الذين اجتمع بهم في الديار المصرية، ووصف شيئا من اخبارهاو آثارها ومعالمها.

أما بالنسبة لتاريخ الصيدلة فكتابه في الأدوية المفردة، موضوع على ترتيب الأعضاء المتشابهة الأجزاء والآلية وطريقة المعالجات لأمراضها بأسلوب مختصر ومفيد، كما انتصر للعبادي في شرحه لكتاب المسائل، الذي وضع فيه أساسا لمهنتي الطب والصيدلة عند العرب.

ونعود إلى الأندلس لنتحدث عن طبيب ــ صيدلاني سكن مدينة قرطبة، هو أبو جعفر أحمد بن سيد الغافقي المتوفى 560هـ/1165م، ولكننا لا نعرف الشيء الكثير عن حياته. وشهرته ترجع إلى كتابه الوحيد المعروف له: الجامع في الأدوية المفردة، لم يكن نظير له في عصره في الأندلس جودة ودقة، وقد استقصى ما ذكره الحكماء والقدماء والمحدثين كغيره من مهرة العلماء، وجعله بأوجز لفظ وأتم معنى في تعريف الأدوية المفردة وخصائصها واستحالتها وجمعها في منابتها، ولاسيما المتوفرة في شبه الجزيرة الأندلسية.

وفي مقدمة الكتاب تعريف ببعض جهلاء المحترفين المنصرفين إلى القشور دون اللب، وقبول الخطأ من دون تمييزه وإنعام النظر في صحته، وصار همّهم الوحيد الإعجاب بكل ما هو ظريف ومستهجن، ونقل المعلومات بدون ترو، والتقليد الرجعي من غير إصابة في الرأي، ثم إنهم لم يضيفوا شيئا جديدا مفيدا، بل حرّفوا ما هو حق وصحيح، يحسدون من يريد الخير للمهنة ويحاربون ما يخالفهم الرأي.

وكان الغافقي محجما عن إخراج هذا الكتاب مترددا في الكشف عن محتوياته، لولا إلحاح من أصدقاء مقربين أصروا عل نشره لفائدة القرّاء ونفع المحتاجين. فخرج الكتاب بحلّة قشيبة على حروف الهجاء، وقد حقّق قسم مختصر منه وذلك يشهد بأهميته في هذا المضمار.

وهناك معاصر للغافقي هو أبو عبد الله محمد الحسني المعروف بالشريف الإدريسي المولود في سبتة من الأرض المغربية والمتوفى عام 560هـ/1166م. وقد درس في قرطبة وتنقل بين البلدان للتعرف على الممالك والأمصار، وانتهى به المطاف من حلّ وترحال إلى باليرمو بجزيرة صقلية ودعي إلى بلاط الملك النورماني روجر الثاني حوالي عام 1138م، وطلب منه تأليف موسوعة في الجغرافيا وممالك العالم المعروف آنذاك، فصنع أول كرة أرضية فضية من نوعها (قيل : قطرها 80 بوصة ووزنها 300 أوقية) ليضع فيها أسماء الأقاليم السبعة في عشرة أقاليم طوليا، مع رسم الخرائط والمجسّمات الجغرافية , مستعينا بعلماء ونوتيين وجغرافيين بعنوان : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحوي معلومات مهمة في الأدوية والأغذية.

وكجغرافي فإن الإدريسي قد اشتهر أيضا في التاريخ الطبيعي، فألف كتاب: الجامع لصفات أشتات النبات وضورب صنوف أنواع المفردات من الأشجار والنار والأصول والحشائش والأزهار وأعضاء الحيوانات والمعادن والأطيار، وقد ضمنه تفسيرا بأسماء المفردات بعدة لغات مرتّبة على حسب الحروف الأبجدية، ويتخلل ذلك رسوم أدوات مستعملة في تحضير الأدوية وتقنيتها، والتجهيزات الصيدلانية وأشكال المفردات وصورها مما هو فريد في نوعه، وقد تم تحقيقه مؤخرا ككتاب مفيد ونفيس في المعالجات الطبية والمفردات الدوائية من الممالك الطبيعية الثالثة وأعيانها ومنابتها ومنافعها.

وفي هذا العصر ظهر في العاصمة العباسية أمين الدولة هبة الله بن صاعد بن التلميذ، وكان أوحد زمانه في الطب والصيدلة , وعُيِّن مديرا للبيمارستان العضدي في بغداد، ورئيس الأطباء لدى الخليفة المقتفي، وتوفي عن عمر مديد عام 560هـ/1165م زمن المستنجد. وكان حسن الحظ كثير المراسلة وافر العقل ملتزماً بالتواضع، على رفعة مركزه، خبيراً باللسانين:

الفارسي والعبراني، وكان عنده مدرسة لتعليم المهن الصحية والتمرن فيها.

وكان عماد الدين الأصفهاني الكاتب (ت970هـ/1201م)، المؤرخ والمؤلف يعرف ابن التلميذ في أثناء دراسته ببغداد فامتدحه كثيرا، وقال فيه : " عمّر طويلا وعاش نبيلا جليلا، عذب المجتلى والمجتنى، بعيد الهمم ، عالي الهمة. وكانت منادمته أحسن من التبر المسبوك، والدرّ في السلوك" وكان كثير الذكاء غزير العلم راجح العقل.

ومن أهم كتبه في الصيدلة كتاب الأقراباذين الكبير، فاق أقراباذين سابور السابق ذكره، فاتجه الناس إليه وتقاطرت جموع الصيادلة وطلابها في درسه والاستفادة منه والاستعانة به في دكاكينهم وتداولهم له، ويقع في عشرين بابا , وعرف لذلك بأقراباذين مدينة السلام، وهو شامل لكل أشكال المستحضرات الصيدلانية وأنواعها وتراكيبها، ومنه مخطوطات باقية في المكتبات شرقا وغربا في إسطنبول والقاهرة ولندن وغيرها.

وفي المكتبة البريطانية بلندن مخطوط نادر بعنوان: قوى الأدوية المفردة، التي يكثر استعمالها في تركيبات البيمارستانات، مرتبة على حروف المعجم، جمعها وألّفها أمين الدولة رئيس الحكماء ابو الحسن هبة الله بن صاعد بن التلميذ (تحت رقم شرقي 8294، وحمارنة، فهرس، رقم159 ص 139-140). وفي المقدمة يقول المؤلف :"كل ما يرد على البدن مما يجري بينهما فعل وانفعال، فلا يخلو من أن يفعل في البدن أو ينفعل به، فالذي يفعل في البدن فقط هو السمّ المطلق، وما يتشبّه به هو الغذاء المطلق، وأن كل دواء مفرد مركب من الإسطقسات الأربعة (الماء والهواء والنار والتراب)، ولذلك لم يقولوا : أدوية بسيطة , بل : مفردة، ليسلموا من الدلالة على المركب تركيبا طبيعيا بالبساطة.

وكتاب قوى الأدوية هذا مرتب علي حسب حروف الهجاء، مع تعريف ووصف لاستعمالاتها ومنافعها والطرق المستخدمة في الصيدلة: كالحرق والتكليس والتبخير والتقطير، وجمع الحشائش وأساليب حفظها.

ونختم الحديث حول تاريخ الصيدلة في القرن 6هـ/12م عند العرب، بمراجعة مآثر بدر الدين محمد بن بهرام القلانسي السمرقندي المتوفى بُعَيْدَ عام 591هـ/1195م. لا نعرف عنه الكثير سوى إسهامه الفعّال والكبير في المعالجة الطبية والصيدلة. وكتابه الوحيد المعروف هو : أقراباذين القلانسي، يشتمل على تسعة وأربعين بابا , استوعب فيه ذكر ما يحتاج إليه من الأدوية المركبة منقولة أو مقتبسة ومستخلصة من كتب علماء نابهين كالمنصوري والحاوي للرازي والقانون لابن سينا والكفاية لأحمد بن مندويه (ت 410هـ/1019م) وغيرهم. وقال في المقدمة : "قد دعاني إلى جمع هذا المختصر، أني رأيت جلّ الأقراباذينات مشحونة من نسخ الأدوية المركبة التي يندر

وقوع الحاجة إليها، ومع ذلك يعسر اتخاذها ويعز وجود مفرداتها، ولم يكن فيها أبدال الأدوية وذكر الأوزان والمكاييل... فجمعت منها ما تمسّ الحاجة إليها(المتوفر منها , ولاسيما من الناحية العلمية): في التقاط العقاقير وادخارها، وفي أحكام الإحراق والغسل والقلي والشيّ، وتركيب الأدوية للاستعمال وعمل الأدهان واستخراج عسل البلادر (أو البلاذر: نباتات بطمية هندية يستخرج صمغ من سوقها وثمرها) ومعرفة زمان ما يدرك من المعجونات والترياقات ومنافع العسل وتفسير أسامي الأدوية والمربيات والجوارشنات منها، والقطورات والسنونات واستعمال الحقن والحمولات واللعوقات والمطبوخات والأقراص والذرورات، وعمليات وإنجازات صيدلانية أسهمت في تطوير واستمرار تقدم هذه المهنة، في خدمة الرعاية الصحية وشفاء الأمراض.

استمرار ازدهار الصيدلة عند العرب في القرن 7هـ / 13 م

واصلت مهنة الصيدلة عند العرب تطورها وارتقاءها في القرن الثالث عشر , سابقة في ذلك جميع الأقطار والمدنيات، مقدمة زبدة خبرات قرون من التقدم والإبداع عمليا ونظريا ومهارة وتقنية، ومن أول الناهين الأفذاذ في هذا الزمن، كان الشيخ السديد أبو الفضل داود بن أبي البيان الإسرائيلي المتوفي عام 634 هـ / 1236 م ويعد من أشهر الصيادلة وأقدمهم في إتقان المهنة، متميزا في علمها وعملها، خبيرا في الأدوية المفردة والمركبة، وكشاهد عيان، يقول مؤرخ العلوم الطبية ابن أبي أصيبعة : كنت قد شاهدت منه بالبيمارسان الناصري (الذي أسسه الملك صلاح الدين الأيوبي **1169 ـ 1193م**) من حسن تأنيه في تحديد الأمراض وتحقيقها (بالتشخيص السريري) وذكر المداواة والتعريف بها ما يعجز عنه الوصف، كما كان أقدر أهل زمانه على تركيب الأدوية وضبط مقاديرها وأوزانها. وكان (دأبه) أن يملي الوصفات الطبية بحسب حاجة ذلك المريض بعينه إليها، سواء كانت أقراصا أو سفوفا أو شرابا (كما يرى المعالج الحصيف) مع حسن التأليف وجودة الصنع وإتقانه.

وبجانب عمله في البيمارستان بالقاهرة، لكثرة مهارته وسعة اطلاعه، عيّنه الملك أبو بكر العادل بن أيوب مشيرا في القصر , واستمر في الخدمة حتى ضعف بصره , وتوفي بعد ذلك عن عمر ينيف على 75 عاما. ومن أهم مآثره كتابه: الدستور البيمارستاني، يشتمل على اثني عشر بابا، واقتصر فيه على تحضير الأدوية المركبة المستعملة والمتداولة في البيمارستانات بالديار المصرية والشامية والعراقية وحوانيت الصيادلة في البلدان العربية عامة.

ويضيف ابن أبي أصيبعة قائلا بأنه قرأ عليه في أثناء إشرافه في البيمارستان، واستفاد من علمه , كما ساعد في الكتاب أعلاه , في جمعه وترتيبه , ليخرج بحلة قشيبة. وأهم أبواب هذه المستحضرات الصيدلانية: المعاجين والإطريفلات

(معاجين هندية الثمار قابضة تعصر) والجوارشنات والحبوب والأيارجات (في الأصل أدوية مقدسة مركبة من مفردات هندية غالبا) والمطبوخات والأقراص والسفوفات والأشربة والمربيات واللعوقات والغرائر والسعوطات والأكحال والحقن والحمولات والأطلية والدهان والضمادات والنطولات (مياه تغلي فيه الأدوية والحشائش وتصب فاترة على العضو المصاب) والمراهم والسنونات , ويحتوي على جمل من الوصفات الصيدلانية في علاج الأمراض المختلفة أسهمت كثيرا في تقدم المعالجات الدوائية في تاريخ الصيدلة عامة، وقد شُرِحَ هذا الكتاب وحقق وقُيِّم أكثر من مرة في العربية ولغات أخرى.

وبعد اشتهار الشيخ ابن أبي البيان، ظهر الحكيم الأجل أبو محمد عبد الله أحمد ابن البيطار ولكون مولده كان في مدينة مالقة بالأندلس سمي بالمالقي، وكان أوحد زمانه في معرفة النبات ولاسيما المفردات الطبية وتحقيقها واختيار الجيد منها ومواضع نباتها ونعت أسمائها على اختلافها وتنوعها.

ورحل ابن البيطار من الأندلس إلى المشرق فزار البلاد المصرية والسورية وبلاد الأناضول حيث عاش ديسقوريدس في القرن الأول الميلادي وأفاد خبرة في التعرف على مواضع العقاقير على الطبيعة , وبحث ودرس وأتقن أوصافها ومنابتها إتقانا كبيرا، وكان كثير الذكاء غزير العلم في هذه المواضيع، معتمدا على ما كتبه القدماء والمحدثون من الصيادلة والعشابين والثقات من العطارين والأطباء وفي عام 233 هـ (6/ 1235) اجتمع ابن أبي أصيبعة الشاب آنذاك بابن البيطار، فرأى منه مكارم الأخلاق وحسن المعاشرة وطيب الأعراق، ورافقه كتلميذ يرافق أستاذه لمشاهدة النباتات الطبية في مواضعها، وللوقوف على أوصافها ومنافعها وتفسير أسمائها، ثم ذكر نطاسي العلماء العرب الذين اعتمد عليهم : الزهراوي وابن سمجون والغافقي والدينوري وغيرهم، وكان ذلك في مدينة دمشق والغوطة وضواحيها.

بعدها خدم ابن البيطار الملك الأيوبي الكامل محمد بن العادل معتمدا عليه في الأدوية المفردة والحشائش، وجعله رئيس العشابين، وأصحاب البسطات في الديار المصرية، واستمر بعد ذلك بخدمة الملك الصالح نجم الدين , وكان حظيا عنده، حتى أصابت ابن البيطار سكتة قلبية مات على إثرها بالعاصمة السورية عام 646 هـ/ 1248.

ومن أهم مآثر ابن البيطار الخطية كتابه: الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، صنفه للملك الصالح السابق ذكره، ويحوى مقدمة تشمل أهداف المؤلف والمراجع المهمة ثم المفردات مرتبة على حروف الهجاء، أما كتابه : المغنى في الأدوية المفردة، فإنه مرتب علي حسب مداواة الأعضاء الآلمة وما في ذلك من أفعال غريبة وخواص عجيبة ومعالجات ناجحة، وأخيرا نذكر كتابه (الإبانة والإعلام بما في المنهاج من الخلل

والأوهام) فيه ينتقد يحيى بن جزلة في كتابه : منهاج البيان فيما يستعمله الإنسان، صنعه للخليفة العباسي المقتدي (1075 ــ 94 م)، فيما يتناوله الإنسان من عقاقير وتغذية نافعة للصحة ونوال الشفاء.

وفي القاهرة أيضا اشتهر الصيدلاني أبو المنى بن أبي نصر الكوهن ابن العطار الإسرائيلي الهاروني، عرف بكتابه الفريد: (منهاج الدكان ودستور الأعيان في أعمال وتراكيب الأدوية النافعة للأبدان) أكمله وأهداه لوالده في عام 658 هــ/1260م ــ ومنه نسخ مخطوطة متعددة وأخري محققة ومطبوعة من بينها تلك التي نشرت في بولاق ــ القاهرة عام 1287 هــ وغيرها، ويشتمل الكتاب على 25 بابا في صناعة الصيدلة (وكانت تعرف أيضا بصناعة العطر والشراب، وهي مع الطب تعرفان بأشرف الصنائع) وقد اعتمد على مختارات من الكتب والمراجع وما نقله عن ثقات العشابين والمعاصرين من الصيادلة، وما امتحنه المؤلف، وجربه شخصيا، في امتحان الأدوية والأشربة وطبخها وتربيب الربوب والمربيات والسفوفات والمطبوخات والأكحال والمراهم ومتى تُجْنَىَ الأدوية والأوعية (والآنية) التي توضع فيها وما يفسدها فيتوقى، وما يصلحها فيعتمد، وكيفية استدراك ما بدا فيه الفساد. ويوصي المؤلف كل صيدلي أن يكون في غاية من الدين والثقافة والتحرز والخوف من الله تعالى أولا ومن الناس ثانيا، كما يوصي أيضا بإبدال الأدوية التي يتعذر وجودها، ويرشد إلي كيفية اتخاذ الأدوية المفردة وزمان قطفها وجمعها وخزنها وأعمارها وامتحانها.

وفي أواخر القرن 8 هــ/ 13 م اشتهر الملك المظفر يوسف بن رسول الغساني صاحب اليمن والمعدود بن أعظم ملوك الدولة الرسولية التي حكمت اليمن السعيد من 626 ــ 806 هــ، وأصل الغسانيين من بني جفنة الذين جَلَوْا عن اليمن قبل الإسلام , وبعد خراب سد مأرب وما نتج عن ذلك من كساد في الزراعة والتجارة، وسكنوا البلاد الشامية وصارت دولتهم على مشارف الشام في تعاهد مع الروم (الإغريق) البيزنطيين، وكان آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم وقد أسلم في خلافة عمر، أما نسلهم فسكنوا بلاد التركمان، ثم خرجوا إلى العراق فعرفوا بالغسانيين التركمان زمن الخليفة العباسي المستضيء (1170 ــ 80 م) ثم سموا بالرسوليين حين خدموا دولة الأيوبيين، ثم انتقلوا إلى اليمن زمن الملك توران شاه عام 529 هــ، وتولوا الولايات , وهم على ولاء مع الأيوبيين، وفي عام 626 هــ أسسوا الدولة الرسولية وكان أعظم ملوكها المؤلف، الملك المظفر يوسف رجل سيف وقلم كثير الحلم شجاعا، واسع العلم محبا للعلماء فصيحا، عُمِّرَ طويلاً , حتى وفاته عام 294 هــ/ 1296 م، وهو مؤلف : المعتمد في الأدوية المفردة، وتم تحقيق هذا الكتاب في أكثر من طبعة، وقد ذكر المفردات علي حسب الحروف الهجائية، مع الإشارة إلى المؤلفين القدماء

والمحدثين واقتباساهم بالاسم , معطيا لكل ذي حق حقه، فصار المعتمد من أهم المراجع في مفردات الأدوية والأغذية منذ نهاية القرن الثالث عشر حتى العصور الحديثة، كما يعدّ من المصادر المهمة للصيادلة والمهتمين بالمعالجات الطبية، ولاسيما الشعبية منها.

ملاحظات ختامية :

كانت مهنة الصيدلة منذ أواخر القرن الثاني هــ/ الثامن م، قد انفصلت عن مهنة الطب بالرغم من المشاركة بينهما كحقول متقاربة متعاونة بما يختص من أمر حفظها للصحة وردّها إن فقدت، فأصبحت مهنة الصيدلة بذلك الأولى عالميا بين المهن الصحية تنفصل عن الصناعة الطبية كتوأمين متآخيين، ولم يكن مثل هذا الانفصال في أوروبا المسيحية حتى منتصف القرن الثالث عشر، أي لمدة تزيد على أربعة قرون ونصف، وأصبحت مهنة الصيدلة من هذا المنطلق فريدة بين المهن وبالقائمين عليها من صيادلة في دكاكينهم وحوانيتهم أو في صيدليات المشافي التي انتشرت في شرق البلدان العربية والإسلامية وغربها.

لم يكن هذا التطور والنجاح أفقيا ممتدا عبر هذه العصور، ولكنه كان أيضا بارتقاء منقطع النظير بحيث أصبحت هذه المهنة "معلقمة " الشعوب والأقطار الأخرى في تقدمها العلمي والتقني إلى حد أن أثره الفعلي والإيجابي تدريبا ومهارة وفنا وأكاديميا يحتل مكان الصدارة، ليبلغ شأنا عاليا من التقدم والأصالة حتى امتد أثره بعيدا في أعماق التاريخ أولا في البلاد الأوروبية ، ثم عالميا ضمن المستويين الأكاديمي والشعبي، وذلك مدعاة للفخر والتقدير.

وكان لصيادلة العرب فضل في رقي مهنة الصيدلة وتقدمها في أوروبا منذ بزوغ عصر النهضة، أما في البلدان العربية فبدأت بعدها جميع المهن تضعف ويتضاءل إشراقها منذ القرن الرابع عشر حتى عم البلاء وخيم الظلام رويدا وصار انكماش في جميع مناحي الحياة فيها: سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وعلميا، ومع أنه في هذه الأثناء ظهر عدد لا يستهان به من صيادلة ومهنيين حاولوا إنعاش هذه المهن دون جدوى.

ومنذ القرن التاسع عشر بدأت فكرة إحياء التراث تلمح في الأفق، ولاسيما المهن الصحية، ولكن في هذه المرة عن طريق البلدان المتحضرة آنذاك في أوروبا وأمريكا الشمالية، وبدأت تيارات التمدن العصري تعصف وتلوح , ومد العلم الحديث يزداد قوة ونشاطا، فبدأت حياة جديدة في مهنة الصيدلة وغيرها من المهن، لتبدأ باختيار ما هو نافع مفيد وبناء، ورفض ما هو مضر ولا يتمشى مع تقاليدنا وأهدافنا العربية الأصيلة؛ لترقى مهنة الصيدلة وغيرها , ولتحتل مركزها اللائق بها بالعلم والأخلاق والإبداع والاتجاه نحو مستقبل أكثر إشراقا.

أ.د. سامى خلف الحمارنة
الجامعة الأردنية



إناء من الخزف لحفظ
المواد الصيدلية
من صناعة الأندلس
(القرن الرابع عشر م)

المصدر : منارات الحضارة العربية صـ95





12 - خواص العقاقير، ديوسفوريوس، القاهرة، 626 هـ/1229 م، 3127 أحمد الثالث، مكتبة متحف طوبقابي سراي، اسطنبول.

المصدر: الفن العربي الإسلامي جـ1، صـ192



الصيدلة، كتاب (مادة الطب) لديو سقوريوس ـ بغداد 621 هـ

المصدر: الفن العربي الإسلامي جـ1 صـ101

المصادر والمراجع

المصادر :

- **ابن أبي أصيبعة،** موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي.
عيون الأنباء في طبقات الأطباء (أكمله عمليا قبيل وفاته عام 668هـ/1270م)، وقد استعنت بطبعة بولاق، 1882م وهناك طبعات أخرى، ويعد الكتاب مرجعا مهماً في الصيدلة والطب عند الإغريق وزمن العرب حتى عصر المؤلف.
- **البغدادي،** إسماعيل
هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، في مجلدين، إسطنبول، وزارة المعارف التركية، 1951-1955، معجم مفيد مرتب علي حسب أحرف الهجاء للاسم الأول.
- **البيهقي،** ظاهر الدين ابو الحسن علي بن زيد (70-1106)
تاريخ حكماء الإسلام، في أكثر من طبعة (الأولى دمشق، الترقي 1946، تحقيق محمد كرد علي، مرجع مهم لتراجم علماء العرب.
- **البيروني،** أبو الريحان محمد بن أحمد الخوارزمي (973-1051م)
كتاب الصيدنة في الطب، تحقيق مع ترجمة بالإنكليزية بواسطة حكيم محمد سعيد ومن معه، كراتشي، همدرد، 1973م.
- **البيطار،** أبو محمد عبد الله أحمد المالقي (ابن) المتوفى في شعبان 646هـ/1248م.
- **جلجل،** أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي (ابن)
طبقات الأطباء والحكماء (أكمله في عام 377هـ/987م)، تحقيق فؤاد سيّد، القاهرة، المعهد العلمي للآثار الشرقية، 1955، مرجع مهم في تاريخ المهن الصحية عند الإغريق والعرب حتى زمن المؤلف.
- **خلّكان،** أبو العباس أحمد بن (608-81هـ/1211-82م)
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1978م، طبعة ثانية.
- **الدينوري،** أبو حنيفة أحمد داود بن ونند (المتوفى 282هـ/895م)
كتاب النبات، جمع محمد حميد الله، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1973، (من القاموس النباتي حروف س-ي) وأقسام أخرى.
- **الزهراوي،** أبو القاسم خلف بن العباس (المتوفى حوالي 404هـ/1013م)
التعريف لمن عجز عن التأليف، المقالة الثلاثون في عمل اليد (الجراحة)، لكنو، طبع ليتغراف، تحقيق أبو الحسنات قطب الدين احمد، عام 1326هـ/1908م،

وهناك طبعات باللاتينية والفرنسية والإنكليزية والفارسية وغيرها من اللغات.

- **سينا**، أبو علي الحسين بن عبد الله (ابن) (373ــ427هــ/1037م)

القانون في الطب، القاهرة، بولاق، 294هــ خمسة كتب في ثلاث مجلدات، وصدرت طبعات وتحقيقات في عدة ترجمات.

- **صاعد الأندلسي التغلبي**، أبو القاسم صاعد بن أحمد (بن) المتوفى 462هــ/1070م)

طبقات الأمم، تحقيق محمد بحر العلوم، النجف، المطبعة والمكتبة الحيدرية، 1967م، وطبعات أخرى، يعدّ مرجعا مهماً لعلماء الأندلس.

- **الصفدي**، صلاح الدين خليل بن أيبك (حوالي 1296-1362م)

الوافي بالوفيات، معجم للأعلام، طبع عدة مرات، وفي بيروت، دار صادر، 1970م، في ستة مجلدات.

- **الطبري**، علي بن سهل ربّان (حوالي 169-245هــ/785-859م)

فردوس الحكمة، (أكمله في عام 236هــ/850م) زمن الخليفة المتوكل، والكتاب يعدّ أول موسوعة في العلوم الصحية عند العرب، تحقيق محمد الزبيري، برلين، مؤسسة جب، 1928م، ومع ترجمة بالأوردو وتحقيق حكيم محمد سعيد ومن معه.

- **الغسانّي**، الملك المظفر يوسف بن رسول التركماني (المتوفى عام 694هــ/1296م)

المعتمد في الأدوية المفردة، ظهرت في عدة طبعات في القاهرة وبيروت.

- **القفطي**، القاضي جمال الدين علي بن يوسف (117-1248م)

تاريخ الحكماء، تحقيق يوليوس ليبرت، ليبزج، 1903، وأعيد الطبع عدة مرات منها في بغداد، مكتبة المثنى ومؤسسة الخانجي بالقاهرة، وهو مرجع مهم في الإسلام ولاسيما في العلوم الطبية.

- **الملطي**، أبو الفرج غريغوريوس المعروف بابن العبري (المتوفى 1275م)

تاريخ مختصر الدول، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1958 وطبعات أخرى لمرجع مهم ومختصر.

- **منظور**، محمد بن مكرّم بن (1232-1311)

لسان العرب، معجم لغوي موسع بما في ذلك الألفاظ المختصة بالطب والصيدلة والنباتات، وقد صدر في عدة طبعات، منها في بيروت، دار صادر في عدة مجلدات.

- **النديم**، أبو الفرج محمد بن إسحق بن (المتوفى عام 385هــ/995م)

الفهرست، في عدة طبعات، منها بيروت، دار المعرفة، 1398هــ/1978م، وهو مرجع لا يستغنى عنه في حياة العلماء

النابهين عند العرب حتى صدوره عام 377هـ-987م.

- **ياقوت** بن عبد الله الحموي (1179-1229م)

معجم البلدان، القاهرة، الرفاعي، في (ش12) جزءا، وطبعات أخرى كقاموس جغرافي مهم، وله كتاب معجم الأدباء، أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، في تراجم رجال اللغة والعلم والأدب ومنه طبعات كثيرة أيضا.

- **اليعقوبي**، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح (الكاتب العباسي المتوفى عام 284هـ/897م)

تاريخ اليعقوبي، في عدة طبعات، منها في مجلدين، بيروت، دار صادر، بدون تاريخ، وهو كتاب مهم في التاريخ العالمي , ولاسيما العربي.

المراجع :

- اتحاد الأطباء العرب، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

المعجم الطبي الموحد، إنكليزي ـــ عربي ـــ فرنسي، طبعة ثالثة منقحة، سويسرا، 1983م، لمراجعة الألفاظ والمصطلحات العلمية.

- **إلياس** أنطون إلياس

القاموس العصري، في عدة طبعات، القاهرة، المطبعة العصرية، عربي ـــ إنكليزي ـــ عربي.

- **بروكلمان**، كارل

تاريخ الأدب العربي، بالألمانية أصلا في خمسة مجلدات (مع الملحقات)، طبع ليدن، بريل، 1937-1949م، ومنه ترجمة بالعربية بالقاهرة، دار المعارف تحت إشراف الجامعة.

الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، في مجلدين (أربعة أجزاء)، القاهرة، بولاق 1291هـ/1874م، وقد ترجم إلى الألمانية والفرنسية وغيرها.

- **حمارنة**، سامي خلف

تاريخ تراث العلوم الطبية عند العرب والمسلمين، جامعة اليرموك، إربد، عمان، المطبعة الوطنية، 1986م، وفهرس المخطوطات في الطب والصيدلة، دار الكتب العربية بالقاهرة، 1967م، والمكتبة الظاهرية بدمشق، 1969، والمكتبة البريطانية، 1975م.

- **الخطّابي**، محمد العربي

الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية، دراسة وتراجم ونصوص، في جزئين، 1988، بيروت، دار المغرب الإسلامي، مرجع مهم في المهن الصحية.

- **الزركلي**، خير الدين

الأعلام، قاموس تراجم اشهر الرجال والنســاء من العــرب والمستعــربين والمستشرقين، الطبعة الثالثة، بيروت، 1969م وبعدها طبعات.

- **سزكين** (سزجين)، فؤاد
تاريخ المخطوطات العربية، المجلدات 3+4 في العلوم الطبية والكيميائية والزراعة، 1970-1972، طبع ليدن في هولندا بواسطة بريل، وهناك ترجمات لأقسام منه.
- **السامرائي**، كمال
مختصر تاريخ الطب العربي، في مجلدين، في طبعتين، بغداد، الشؤون الثقافية والنشر، 1990م.
- **قنواتي**، جورج شحاتة
العقاقير والصيدلة في العصرين القديم والوسيط، القاهرة، دار المعارف، 1959، وهو مرجع مهم لتاريخ الصيدلة عند العرب.
- **كحّالة**، عمر رضا
معجم المؤلفين، في 15 مجلدا، دمشق، مطبعة الترقي، 1957-61 وقد أعيد طبعه، وهو مرجع في التراجم لا يستغنى عنه.
- **كلوت**، أنطوان بارثيلميو
دستور الأعمال الأقرباذينية، القاهرة، بولاق، 1837م، اول مرجع من نوعه في العصر الحديث وعلى أسلوب عصري إبان نهضة القرن التاسع عشر.
- **لوكلير**، لوسسيان
تاريخ الطب العربي، باريز، 1876م، وأعيد طبعه وترجمته؛ إذ لا يزال مرجعا مهماً في بابه.
- **مفتاح**، رمزي
إحياء التذكرة في النباتات الطبية والمفردات العطارية، القاهرة، الحلبي، 1954م، مرجع مهم في التعريف بالنباتات الطبية والصيدلانية وأنواعها.

3 ـ الرياضيات والفلك

يعد كل من علم الرياضيات وعلم الفلك من الجوانب العلمية المهمة التي ارتبطت ارتباطا وثيقا بحياة الإنسان , إذ إن للرياضيات ــ بصورة خاصة ــ أثرها في تطور عدد من العلوم ولاسيما علم الفلك.

لقد كان الإسلام الدافع الكبير في اهتمام العرب والمسلمين بالرياضيات والفلك. فقد كان لمبادئه السامية التي جاء بها , والتي تنسجم مع الطبيعة العربية الميالة إلي العلم والمعرفة وحب الإنسانية وخدمتها أثر كبير في ميل العرب إلي دراسة الرياضيات والفلك والعلوم الأخرى. وقد ترك الإسلام أثرا مهما في تطور الفكر الرياضي والفلكي وتقدمهما والانتقال بهما من مرحلتهما الابتدائية إلي مرحلة متقدمة [روم لاندو "1964" 248]. لهذا احتل علما الرياضيات والفلك مركزا بارزا من حضارتنا العربية؛ إذ اهتم بهما العلماء العرب اهتماما واضحا , ويتجلى ذلك من خلال النظريات والأفكار والدراسات المركزة ووضع مصطلحات جديدة ومتطورة , لا يزال العديد منها يستعمل حاليا بصورة واسعة , إذ أن للرياضيات خصوصية كونها حقائق منطقية ثابتة لا تبطل مع التطور، أي ما يكون نظرية أو مسألة عند الإغريق أو العرب تبقى قائمة إلي الآن. فمثلا ما جاء في كتاب الأصول لإقليدس من المسائل والنظريات والتعاريف والبديهيات لا تزال تعالج بنفس الأسلوب والطريقة كما هو موجود في موضوع الهندسة في المدارس الثانوية وغيرها.

وكذلك ما جاء في كتاب "الجبر والمقابلة" للخوارزمي , ومن قبله ما جاء في ألواح الطين البابلية في حل المعادلات الجبرية من الدرجة الثانية بطريقة رياضية تعرف بطريقة إكمال المربع المستعملة حاليا في الجبر الثانوي.

وفي هذا يقول ميلر في كتابه "مقدمة تاريخية للرياضيات": "إن تاريخ الرياضيات هو العلم الوحيد الذي يمتلك جزءا واضحا من الكمال ونتائج مثيرة أثبتت منذ ألفي سنة بنفس الطريقة الفكرية المثبته اليوم".

لقد شهد العصر الأول من الخلافة العباسية , ولاسيما في عهد المنصور والرشيد والمأمون، حركة ترجمة واسعة. فقد كان الخليفة يدعو الموهوبين والمتميزين إلي قصره، حيث تتم ترجمة الأعمال الجيدة من اللغات الهندية والإغريقية في الرياضيات والفلك والطب إلي العربية وقد حفظت هذه المؤلفات إلي أن أعيد ترجمتها من بعض العلماء الأوربين إلي اللاتينية أو إلي لغات أخرى. فقد ترجم كتاب "السند هند" وهو كتاب فلكي هندي يشمل الفكرة الأولى عن الأرقام العربية – الهندية في عهد المنصور , كما يتضمن الفكرة الأولى للنسبة المثلثية "الجيب".

أما في خلافة الرشيد , فقد تقدمت الرياضيات , ولاسيما عندما أنشأ " بيت الحكمة" , فكثرت الترجمات , ونشط البحث في

عصر المأمون , حيث ازدهر في عهده مركز البحوث والترجمة الشهير "بيت الحكمة".

وكان أول كتاب في الرياضيات يترجم إلي العربية في عهد الرشيد هو كتاب "الأصول" لإقليدس , وهو كتاب هندسي وكتاب المجسطي لبطليموس , في الفلك وترجمهما الحجاج بن يوسف ابن مطر. وكذلك ترجم حنين بن إسحق المجسطي , وقد نقحه وشرحه ثابت بن قرة.

لقد أصبحت بغداد في عهد المأمون مركزا عالميا للعلم والثقافة؛ إذ اشتملت على عشرات المكتبات وجُمع العلماء في "بيت الحكمة" إذ أصبح معهدا تعليميا تعلم فيه عدد كبير من العلماء العرب ـــ والمسلمين وغير المسلمين ـــ الفلك والرياضيات والطب والعلوم الطبيعية. لم تتوقف النهضة العلمية عند حدود الترجمة والنقل ومعرفة ما تحتويه الكتب الأجنبية من معلومات علمية، بل تجاوزتها إلي مرحلة الهضم والتمثيل والتعليق على ما نقلوه وأضافوا إليه وصححوا الكثير من الآراء العلمية، وظهرت للوجود بعض المواضيع العلمية لم تكن معروفة أو متطورة في الماضي , وجرت تطبيقات عملية وعلمية بقصد التثبت من صحتها , وهو ما يعرف بالمنهج العلمي. وبلغت النهضة العلمية في بغداد ذروتها بين القرنين الثالث والخامس للهجرة / التاسع والحادي العاشر الميلاديين. لقد ظهر في هذه العصور عدد من العلماء والباحثين المبدعين أضافوا إلي العلوم إضافات مهمة من مفاهيم وآراء وموضوعات جديدة. وبهذا كانت بغداد في مقدمة المدن العربية، لا , بل في مقدمة مدن العالم أجمع في المشاركة في نشر العلوم عموماً وتطور الفلك والرياضيات خصوصاً بجهود علمائها المتميزة التي جعلتها في مركز الصدارة في تاريخ الفكر الرياضي والفلكي.

إلا أن هناك عدداً كبيراً من علماء الغرب الذين يدّعون الموضوعية والأمانة العلمية ينكرون ذلك الدور المهم العظيم الذي أسهم فيه عدد من علماء الرياضيات العرب وعلماء الفلك وأثرهما في تطور الفلكي الرياضي والفلكي الإنساني. كما أنهم يدعون لأنفسهم عدداً من المواضيع الرياضية ونظرياتها , وقد أثبتت المخطوطات العربية أصالتها لدى العلماء العرب , وسبقهم في اكتشافها.

لهذا سيكون جُلّ اهتمامنا في هذا البحث هو إبراز أثر كل من الرياضيات والفلك عند العرب في تطور الفكر العالمي الإنساني وخصوصاً الفكر الغربي الأوربي، في العصور المظلمة عندهم، وكيفية انتقال العلوم الرياضية والفلكية إلي أوربا تفصيلاً.

كذلك سنذكر عدداً من المواضيع والنظريات والدراسات لدى مشاهير العلماء العرب , والتي تعد من الممهدات لاكتشاف بعض المواضيع الرياضية عند علماء الغرب , مثل الهندسة التقليدية واللوغاريتمات والهندسة التحليلية والتفاضل والتكامل وغيرها.

وأخيراً، نذكر قول هوارد إيف في كتابه "مقدمة في تاريخ الرياضيات" عن الإسهامات

العربية وأثرها في تطور الفكر الرياضي الإنساني : " لم تقتصر إسهامات العرب في تطور الرياضيات على أسلوب وإتقان بعض العلماء وإنما إلي الأصالة والعبقرية العالية التي قدموها في أعمالهم وبصورة خاصة في الجبر والمثلثات".

لقد اختلف البعض في مدى إسهامات العرب هذه وأثرها في تطور الفكر الرياضي الإنساني. فقد بخس البعض حقهم , وقال : إن أعمالهم لم تكن إلا ثانوية في كميتها وجودتها بالنسبة إلي أعمال الإغريق أو بالنسبة للكتّاب المستحدثين. إلا أن هؤلاء قد نسوا أو تناسوا عدداً كبيراً من الإنجازات في وقت كان العلم فيه متخلفا في بقية العالم في ذلك الزمن , كما أن من جليل أعمالهم هو حفظ التراث العلمي الإغريقي والذي عن طريقهم نقل إلي أوربا بعد العصور المظلمة.

كان للعرب دور كبير في دراسة مختلف مواضيع الرياضيات من حساب وجبر وهندسة ومثلثات وتهذيبهم للأرقام الهندية وتكوين سلسلتين منها من الأرقام العربية واستعمال الصفر وابتكار عدد من النظريات والمواضيع والمفاهيم الرياضية التي كان لها أثر بالغ في تطور الرياضيات بصورة عامة. فالعرب هم أول من بحث في علم الجبر بصورة علمية , ويرجع لهم الفضل في وضع قواعد وأسس هذا العلم واختراعهم للرموز الجبرية , وبحثهم في المعادلات حتى الدرجة الرابعة , واختراعهم للكسور العشرية. أما في المثلثات فإنهم يعتبرون المؤسسين الحقيقيين لهذا العلم فقد وضعوا قوانينه المهمة والنسب المثلثة الأساسية التي مازالت تستعمل إلي الآن في الكتب الرياضية.

أما في الهندسة فكان دور العرب هو الحفاظ على التراث الفكري الإغريقي فضلا عن إسهاماتهم المهمة في بعض المواضيع والنظريات والمسائل , فعن طريق العرب انتقلت الهندسة اليونانية إلي أوربا , وذلك لكون العرب قد استوعبوا محتويات الأصول لإقليدس , وعملوا على فهمه وشرحه الشرح الوافي , بل إنهم أضافوا إليه إضافات مهمة. فعن طريق الترجمة العربية لهذا الكتاب نقل إلي اللاتينية.

1. الأرقام العربية وأثرها:

لقد كان لنظام الترقيم العربي أثر كبير في تطور العلوم الرياضية؛ وذلك لما اتصف به من مميزات كانت من وراء الإقبال الشديد على تقبل ذلك الإبداع العلمي العربي.

لقد جاءت معرفة أوربا بالأرقام العربية بطرائق متعددة منها طريق التجار، حيث كان لبعض المدن علاقات تجارية مع العالم العربي، مثل جنوا وبيزا وفينسيا وميلان وفلورنس في إيطاليا , فضلا عما كان للأندلس من دور فعال أيضا. لقد جاءت معرفة أوربا بالأرقام العربية عن طريق العالم الفرنسي جربرت (950-1003م) الذي عرف فيما بعد (سنة 999م) بالبابا سلفستر الثاني.

إلا أنه لم يتح لتلك الأرقام أن تحتل مكانتها التي هي عليها الآن إلا على يد رجل

آخر , هو ليناردو البيزى (1180م) الذي ألف كتاب "الحساب الحر"، قدم فيه نظام الترقيم العربي إلي أوربا، إذ أن نظام الترقيم هذا موضح كتابةً وقراءةً في الفصول الخمسة عشر.

لقد لاقى دخول الأرقام العربية إلي أوربا مقاومة شديدة؛ إذ كان هناك اتجاهان، الأول متعاطف مع دخولها , وهم الذين يطلق عليهم الخوارزمين الذين استعملوها ودافعوا عنها، أما الاتجاه المعارض , وهم الذين يطلق عليهم المحسبين نسبة إلي الآلة المحسبة , وكانت النتيجة النهائية لمسيرة الأرقام العربية وطغيان استعمالها أن أصبح نظام العدّ العربي النظام الوحيد الذي حظى بالقبول والانتشار؛ وذلك لتفوقه على جميع أنظمة العدّ الأخرى وخصوصاً على نظام الترقيم الروماني الذي كان سائدا في أوربا ذلك الوقت.

ومنذ بداية القرن السادس عشر الميلادي، احتلت الأرقام العربية بلاد الغرب , فقامت بدورها في جميع مجالات الحياة , ليس فقط في الجوانب الرياضية , وإنما في الإدارة والاقتصاد والمجالات الأخرى. وقد حدثت تغييرات في رموز الأرقام إلي أن أستقرت هذه الرموز نتيجة لتطور صناعة الطباعة. فمثلا كلمة صفر (**Zero**) جاءت من الشكل اللاتيني (**Zephirm**) ومن الصفر العربي (**Arabic Sifr**) والتي هي ترجمة للكلمة الهندية **Sunya** والتي تعني "خال" أو "فارغ". لقد انتقل الصفر العربي إلي الجرمان في القرن الثالث عشر بالشكل "**Cifra**" ومنه تم الحصول على الكلمة الحالية صفر **Cipher**.

وأخيراً يقول روم لاندو في كتابه "الإسلام والعرب" عن الأرقام ما يأتي : "...والعلماء المحدثون لما يتفقوا بعد إجماعيا على أصل الأرقام العربية، صحيح أن هذه الأرقام هي في الأرجح اختراع هندي، ولكنه ليس ثمة ما يمنع أن يكون العرب قد اشتقوها من المصادر الأفلاطونية الجديدة، وأيّاً ما كان الأصل الصحيح لهذه الأرقام، فقد كان العرب هم الذين جعلوها الأساس لنظام مرن عملي إلي حد بعيد جدا يمكنه أن يحظى بقبول العالم كله. ولقد كانت الخدمة الرئيسة التي أسداها العرب في هذا المجال هو استخدام الصفر استخداما علميا، فقد دعاه العرب بهذا الاسم الذي يعني "الفراغ" , ومنه اقتبست لفظة **Cifra** اللاتينية، والتي تعني الشيء الذي لاقيمة له والصفر في وقت واحد. وكان العرب قد قَضوا مائتين وخمسين عاما على الأقل، وهم يستخدمون الصفر عندما اقتنعت أوربة النصرانية في القرن الثاني عشر بأن "الفراغ" لم يكن اختراعا أحمق إلي الدرجة التي توهمها مدعو العلم الغربيون.

وخلاصة القول أن الأرقام العربية الجديدة تمتاز ببساطة أشكالها , وقلة رموزها , ونظامها العشري , واستعمال الصفر في الخانات الخالية من الأرقام مما جعلها أكثر مرونة وأطوع في أجراء العمليات الحسابية من جميع أشكال نظم الترقيم الأخرى.

2.علم الحساب:

لقد اهتم علماء الرياضيات العرب بعلم الحساب، إذ كانت لهم فيه أعمال متميزة، وذلك سواء بوضع أفكار ونظريات وقواعد جديدة، وحل المسائل المعقدة، ووضع علاقات وقوانين تساعد على حلها.

فقد قسم علماء الرياضيات العرب علم الحساب إلي قسمين وهما :

أ- علم الحساب النظري: هو الذي يبحث عن الأعداد بصورة مطلقة مجردة في الذهن، إذ يتناول فيه خواص الأعداد والمعروفة حاليا بنظرية الأعداد، وقد أطلق عليه اسم الأرثماطيقي أو علم العدد الذي يشمل الأعداد الأولية والتامة والناقصة والزائدة والشكلية والمتحابة وغيرها.

ب- الحساب العلمي: فهو يبحث في تطبيق العمليات الحسابية على الأعداد، وهو أكثر فائدة في مجال الحياة اليومية، مثل توزيع الأموال، وحساب العمل، والأجور وإحصاء المحاصيل الزراعية، وقياس المسافات والارتفاعات. وكان يقوم على استخدام العمليات الحسابية المختلفة من جمع وطرح وضرب وقسمة وجذور وغيرها.

فقد نال علم الحساب اهتمام العرب؛ إذ جعلوه في مقدمة اهتماماتهم العملية لعلاقته الوثيقة بأمورهم الدينية والدنيوية.

ولذلك حث العلماء على دراسة علم الحساب وتعلم أصوله وقواعده، فضلا عن تناولهم العمليات الحسابية بالشرح والتفصيل. فمثلا يقول ابن حزم الأندلسي "يجب أولا تعليم الصبي منذ السنة الخامسة أو نحوها، يتعلم الخط وتأليف الحروف والقرآن ثم النحو والفقه، فإذا بلغ المرء من النحو والفقه إلي الحد المطلوب الذي ذكرناه، فلينتقل إلي علم العدد، فليحكم الضرب والقسمة والجمع والطرح، وليأخذ شيئاً من المساحة".

كما تناول البعض فضائل علم الحساب ومميزاته شعرا، منها ما قاله الفقيه الحجاج الطرطوشي:

إن علم الحساب علم رفيع
فيه عون إذ تشترى وتبيع
لم يضع قَطُّ درهم بحساب
وألوف بلا حساب تضيع

كما أن ابن خلدون يحث على دراسة الحساب، لكونه يعوّد على الصدق، لما له من صحة المباني بقوله : (... وقد يقال : من أخذ نفسه لتعليم الحساب أول أمره يغلب عليه الصدق لما في الحساب من صحة المباني ومناقشة النفس، فيصير ذلك خلقا ويتعود الصدق فيلازمه مذهبا)..

لقد تناول علماء الرياضيات العرب العمليات الحسابية المختلفة بالشرح والتفصيل، في العديد من المؤلفات في الحساب. ومن أوائل هذه الكتب: كتاب الحساب "الجمع والتفريق" للخوارزمي، وهو فريد من نوعه من حيث

التبويب والمادة. وقد شرح فيه استخدام نظام الأعداد والأرقام الهندية، كما شرح فيه طرائق الجمع والطرح والقسمة وحساب الكسور والجذور. بأسلوب تظهر فيه البساطة مقارنة بالأسلوب الذي استعمله العرب في السابق والأسلوب الذي كان سائدا بين الحسابين من اللاتين. لقد ترجم هذا الكتاب إلي اللاتينية "ادلارد الباثي" في القرن الثاني عشر تحت عنوان "الغورتمي"، ولايزال النص اللاتيني موجود فى حين ضاع الأصل العربي. وهو أول كتاب دخل أوربا وبقى زمنا مرجعا للعلماء والتجار. وترجع أول نسخة مكتوبة بخط اليد موجودة في مكتبة البلاط في فيينا إلي سنة **1143**م وتوجد نسخة ثانية في دير سالم، وهي محفوظة الآن بهايدبرك.

تكمن أهمية هذا الكتاب في تاريخ الرياضيات من كونه الكتاب الأول في الحساب، وهكذا دخل اسم الخوارزمي في الحسابات الأوربية واكتسب المفهوم الرياضي"الخوارزمية" المشتقة من اسمه معنى رياضيا يدل على مجموعة العمليات، وهى في معناها عبارة عن "فن الحساب في أيّ طريقة كانت.

وبهذا : قول هونكه "ولم يقتصر الخوارزمي على تعليم العرب كتابة الأعداد والحساب، فقد تخطى تلك المرحلة إلي المعقد من مشاكل الرياضيات، ومازالت القاعدة الحسابية "الخوارزمية" حتى اليوم تحمل اسمه كعلم من إعلامها".

لقد تلا هذا الكتاب عدد كبير من المؤلفات في الحساب معتمدة عليه في شئ أو آخر، وهي من الكثرة بحيث يصعب حصرها.

وقد جاء في كتب الحساب الأخرى العربية، فضلا عما ورد في كتاب "الجمع والتفريق" للخوارزمي عدد من المواضيع والدراسات والقواعد الجديدة في طرائق إجراء العمليات الحسابية وصحة إجراءها، والتي كان لها اثر مباشر أو غير مباشر أو مهدت لاكتشافات رياضية جديدة، إذ ذكرت لعلماء أوربيين أثبتت المخطوطات عائديتها لعلماء عرب ومن هذه على سبيل المثال لا الحصر.

طريقة الضرب بالشبكة:

وقد تميزت هذه الطريقة بسهولة إجراء عملية الضرب العادية لدينا. تركت هذه الطريقة أثرا واضحا في الفكر الرياضي. ويظهر ذلك في أعمال عالم الرياضيات الإنكليزي – نابير– في إجراء لعملية الضرب بطريقة تعرف قضبان نابير التي نشرها عام **1617**م. إذ اعتمد بها على فكرة طريقة الشبكة للضرب، وكذلك ما يعرف بـــ "خوارزمية جيلوسيا" وهي طريقة لإنجاز عملية الضرب تعرف بطريقة جيلوسيا أو "الطريقة الشبكية".

أما القاعدة الذهبية : التي أطلقها الغرب على ما يعرف في كتب الحساب العربية في "ميزان العدد: وهو ما تبقى من العدد بعد إسقاط التسع ومضاعفاتها منه، والتي تستخدم في تحقيق صحة العمليات الحسابية الأربع، فضلا عن

الكسور العشرية والتمهيد لاكتشاف اللوغاريتمات والتي سنذكرهما تفصيلا.

الكسور العشرية: وكان من المواضيع الحسابية التي أوجدها العرب ما يسمى بالحساب العشري بعد الفاصلة، أي الكسور العشرية، والتي تعدّ من الجوانب المهمة في تاريخ الرياضيات. فقد نسب اكتشاف الكسور العشرية لدى الغرب إلي العالم البلجيكي "سيمون ستيفن، 1548-1656م" إلا أن هناك عدد من المخطوطات العربية والكتب المحققة لها، تبين أن العرب هم أول من بحث فيها، وأنهم سبقوا "ستيفن" بعدة قرون. فقد ذكر "فؤاد سزكين" بأن فضل اكتشاف الكسور العشرية يرجع إلي العرب بفضل العالم العربي الإقليدسي أبو الحسن أحمد بن إبراهيم (ت 341هـ/بعد 952م) في كتابه الموسوم "الفصول في الحساب الهندي" الذي وضعه في دمشق سنة (341هـ/965م) وأكد على ضرورة تصحيح الخطأ التاريخي بنسبتها إلي سيمون ستيفن.

وبهذا يعد الإقليدسي أول من استعمل الفاصلة لتمثل الكسور العشرية، فضلا عن إجراء العمليات الحسابية بطريقة مشابهة لما هو متعارف عليه، وبذلك يكون قد سجل سبقا علميا عربيا.

ثم يأتي السموءل المغربي (ت570هـ/1175م) ويقدم الكسور العشرية في كتابه "القوامي في الحساب الهندي".

ومن المتأخرين الذي كتبوا في الكسور العشرية "غياث الدين الكاشي" (ت 832هـ/1428م) الذي كانت له مباحث في الكسور العشرية من حيث فكرة استعمالها وطريقة التعبير عنها وتسميتها. وهناك وثيقة في القسطنطينية سنة 1562م تؤكد انتقال الكسور العشرية إلي أوربا.

اللوغاريتمات: ينسب حاليا فضل اكتشاف اللوغاريتمات للعالم الإنكليزي "جون نابير، 1617م" معتمدا في اكتشافه هذا إلي عاملين أساسين وهما:

1. تحويل عمليتي الضرب والقسمة في المسائل الحسابية إلي عمليتي جمع وطرح.
2. معرفة الصلة بين المتواليات العددية والهندسية.

لقد دلت الدراسات الحديثة على أن العلماء العرب هم الذين بحثوا في هذه الأسس لبناء اللوغاريتمات فمهّد ذلك لاكتشاف اللوغاريتم.

ويرجع الفضل فى تحويل عمليتي الضرب والقسمة إلي جمع وطرح، إلي العالم العربي "سنان بن فتح الحراني" القرن الثالث الهجري / القرن التاسع الميلادي الذي تناول الفكرة وأوضحها غاية التوضيح في كتابة الموسوم "الجمع والتفريق". وشرحه الموسوم "كتاب شرح الجمع والتفريق".

وكذلك يمكن اعتبار قانون ابن يونس المصري (ت399هـ/1009م) بتحويل عملية

الضرب إلي الجمع من العوامل الممهدة لاكتشاف اللوغاريتمات وهو:

2 جتا س جتا ص = جتا (س+ص) + جتا (س–ص).

أما معرفة العلاقة بين المتواليات الهندسية والعددية. فإنها تعود إلي العالم العربي "ابن حمزة المغربي" "علي بن ولي" الذي عاش في القرن السادس عشر الميلادي. والذي كان على مقربة من اكتشاف اللوغاريتمات عند اشتغاله على المتواليات. فقد كتب المغربي في كتابيه "تحفة الأعداد لذوي الرشد والسداد" و"تحفة الأعداد في الحساب" إشارة إلي العلاقة بين المتواليتين الحسابية الهندسية والتي تعتبر من ممهدات اكتشاف اللوغاريتمات.

3– علم الجبر وأثره:

يعد علم الجبر أحد الفروع الرياضية التي يرجع الفضل للعرب في إيجاده على وفق منهج علمي منتظم ودقيق، وذلك نتيجة حتمية لتطور العقيدة العربية التي عمل الإسلام على بلورتها ضمن التعاليم والأسس التي جاء بها.

ونظرا للتقدم الكبير في علم الحساب، كان من الضروري تسهيل بعض العمليات الحسابية ومسائله وإيجاد وسائل رياضية أخرى لحل المعقد منها، وتحويل البعض منها إلي معادلات فمهّد ذلك لإيجاد علم آخر مستقل عن الحساب أطلق عليه علم الجبر. وبهذا اشتغل العلماء العرب بالجبر، وتقدموا فيه كثيرا، وهم أول من أطلق لفظة "جبر" على العلم المعروف الآن بهذا الاسم.

وأول من ألفّ في موضوع الجبر هذا هو "محمد بن موسى الخوارزمي" (ت بعد 232هـ/ بعد 846م) في عصر المأمون، كتابه المشهور تاريخيا وعربيا وهو كتاب "الجبر والمقابلة". وبهذا الكتاب أخرج الخوارزمي علم الجبر من نطاق الأمثلة المفردة، وجعل منه نظاما آليا ذا قواعد مقررة ثابتة، وبهذا المؤلف يكون الجبر قد أصبح علما مستقلا ومنفصلا عن الحساب، وهو علم عربي أصيل.

لقد كان كتاب "الجبر والمقابلة" منهلا أخذ منه علماء العرب والغرب على السواء، واعتمدوا عليه في بحوثهم وأخذوا عنه كثيرا من النظريات وطرائق الحل، وقد أحدث أكبر الأثر في تقدم علم الرياضيات، كما أحدث كتابه في الحساب، بحيث يصح القول بأن الخوارزمي وضع علم الجبر وعلّمه وعلم الحساب للناس أجمعين. وعلى هذا يمكن القول بان الجبر قد انفصل من علم الحساب، وذلك لأنه علم يعرف فيه كيفية استخراج مجهولات عددية من معلومات مخصوصة على وجه مخصوص، ويعرفه ابن خلدون بقوله: "... وهو صناعة يستخرج بها العدد المجهول من قبل المعلوم إذا كان بينهما نسبة تقتضي ذلك".

لذا يعد كتاب "الجبر والمقابلة" أول كتاب مؤلف ومعروف، وهو كما قلنا من أوائل مؤلفات الخوارزمي في هذا المجال. لقد تم نشر

هذا الكتاب بالعربية لأول مرة من قبل فردريك روزن في نيويورك سنة1831م، مع ترجمة إلي اللغة الإنكليزية. ثم أعيد طبعه في نيويورك سنة 1869م. وقام بتقديمه والتعليق عليه كل من : د.علي مصطفى مشرفة ود.محمد مرسي أحمد ونشرهما للكتاب كان سنة 1939م.

أطلق الخوارزمي في كتابه هذا لفظة "الجبر" لأول مرة في التاريخ على هذا العلم، فقد ذكر اسم "الجبر والمقابلة" في هذا المؤلف، في عدة مواضيع منه، وهي تشير إلي ما كان يقصد بهذا المفهوم الجديد، وهي مجموعة لمفاهيم جبرية وحسابية للمعادلات الجبرية.

هناك عدد من التفسيرات إلي للفظي "الجبر والمقابلة" ومجملها، فإن طريقة الجبر والمقابلة هي ما يجب عمله لحل بعض المعادلات الجبرية، فالمعادلات الجبرية التي يظهر فيها استثناء (نقصان) يجب أن تكمل شريطة أن يزداد مثل ذلك إلي الطرف الآخر، فى حين يشترط أن نطرح أو نسقط الأجناس المتساوية من طرف المعادلة ويطلق على الإجرائين : الأول والثاني اسم "الجبر" و "المقابلة".

لقد تأثر العديد من العلماء العرب من الذين جاءوا بعد الخوارزمي بكتابه "الجبر والمقابلة" ألفت عدد من الكتب الرياضية المماثلة لهذا الكتاب والتي أضافت إليه كثيرا من المواضيع والنظريات والمسائل الاصيلة والمبتكرة، كما أشاد العديد منهم بكتاب الخوارزمي واعترافوا بأسبقيته في هذا المجال. فمثلا يشيد "ابو كامل شجاع بن أسلم" (ت 340هـ/951م تقريباً) الحاسب المصري في كتابه "الجبر والمقابلة" بتقدم الخوارزمي وسبقه في الجبر والمقابلة إذ يقول : "كتاب محمد بن موسى المعروف (الجبر والمقابلة) أصحها أصلا وأصدقها قياسا، وكان مما يجب علينا من الإقرار له بالمعرفة والفضل إذ كان السابق إلي كتاب الجبر والمقابلة والمبتدئ له والمخترع لما فيه من الأصول".

لقد بقى هذا الكتاب مصدرا أساسيا اعتمد عليه علماء الرياضيات العرب لعدة قرون، إذ كل ما ألف هؤلاء العلماء فيما بعد كان مبنيا عليه، كما أخذ عنه بعض العلماء الأوربيين في القرون الوسطى، وكان له تأثير على أوربا، وبقى هذا الكتاب مصدرا مهما في الجامعات الأوربية حتى القرن السادس عشر.

وقد نقله إلي اللاتينية "روبرت شسر (Robert of Cheser) " وكانت ترجمته أساسا لدراسات كبار العلماء الأوربيين مثل "ليوناردو البيزى" الذي اعترف بأنه مدين للعرب بمعلوماته الرياضية. وقد كان متأثرا في تأليفه لكتابه "الحساب الحر" بجبر الخوارزمي وجبر أبي كامل. لقد اشتهر كتاب "الجبر والمقابلة" للخوارزمي في أوربا من خلال ترجمته اللاتينية، وكان علم الجبر آنذاك مرادفا لعلم المعادلات.

ظهر بعد كتاب الخوارزمي عدد من المؤلفات العربية في الجبر متخذة من هذا الكتاب

أساسا لهذه المؤلفات التي كان لعدد منها تأثير واضح في تطور الرياضيات ولاسيما في أوربا، ونظرا لكثرة هذه المؤلفات والمخطوطات والرسائل سوف نذكر اثنين منها وخصوصاً التي لها تأثير مباشر أو غير مباشر فى تطور الرياضيات:

أ- كتاب الجبر والمقابلة: لأبي كامل شجاع بن أسلم " وكان يعّد من علماء الحساب والجبر بعد الخوارزمي. وترجم هذا الكتاب بالكامل إلي العبرية، كما ترجم إلي اللغة اللاتينية. ولهذا الكتاب تأثير عميق في تطور الرياضيات في أوربا. فعلى سبيل المثال اقتبس ليوناردو البيزى (1170-1240م) من كتاب أبي كامل قساما كبيرة. ودرس مؤرخون حديثون هذا الكتاب وأقروا بأهميته. ويمكن القول أن أبا كامل قد اعتمد على كتاب الخوارزمي "الجبر والمقابلة" وأوضح بعض القضايا فيها، وكان أبو كامل المرجع لبعض علماء أوربا حتى القرن الثالث عشر للميلاد.

ب- كتاب "الفخري في الجبر" لأبي بكر محمد بن الحسن (الحسين) الكرخي، ويسميه بعضهم "الكرجي" (ت نحو 410هـ/ 1019م)، وله أيضا كتابا "الكافي" و "البديع" وقد أكسباه شهرة واسعة، لما فيهما من ابتكارات ونظريات، فقد عالج الكرخي في كتبه القوى والجذور للمقادير الجبرية، كما اكتشف نظرية ذات الحدين للأسس الصحيحة الموجبة.

وأشاد عدد كبير من العلماء بدور الكرخي وأثره فى الرياضيات الأوربية، فمثلا يقول سارتون : " إن أوربا مدينة للكرخي الذي قدم للرياضيات أهم وأكمل نظرية في علم الجبر".

وترجم عدد من مؤلفاته إلي اللغة اللاتينية، فقد ترجم المستشرق "وبكه" كتاب الفخري إلي الفرنسية عام 1853م، وقال عنه : إن الكرخي يمثل التفكير العربي المستقل في معالجة المباحث الرياضية في حل المعادلات المحددة وغير المحددة "السيالة".

إن طرائق حل المعادلات الجبرية التي اتبعها علماء الرياضيات العرب غير الطريقة الرمزية، فضلا عن عدم استعمال الأرقام العربية التي نشرت في كتاب الحساب للخوارزمي, وكانت تحل هذه المسائل بالطريقة اللفظية واستعمال الجمل. وهناك احتمال أن عدم استعمال رموز الأرقام العربية في حل المسائل الحسابية والجبرية يعود إلي عدم اكتشاف الرموز الجبرية في حينه.

وعلى هذا يمكن ملاحظة العناء الذي كان يلاقي علماء الرياضيات العرب عند حلهم المعادلات الجبرية وخصوصاً إذا كانت الأرقام المتضمنة فيها كبيرة. وقد كانوا يجدون الجذور الموجبة للمعادلات من الدرجة الثانية فقط، ولم يتطرقوا إلي الجذور السالبة.

لقد تنبه الخوارزمي للحالة التي يكون فيها الحل مستحيلاً، أي الحالة التي يكون فيها الجذر عدداً مركباً "Complex".

معادلات الدرجة الثالثة:

لقد اشتغل علماء الرياضيات العرب على معادلات الدرجة الثالثة، وتمكنوا من حل بعض المسائل الجبرية والتي تؤدي إلي معادلات تكعيبية. وكانت طريقة حل المعادلات الجبرية من الدرجة الثالثة تتم بطريقة هندسية تميز بها العلماء العرب، إذ لم يعرف أن غيرهم من العلماء قد حلوا مثل هذا النوع من المسائل جبريا.

بهذا قدمت الرياضيات العربية الإسلامية إسهامات كبيرة في حقل الجبر الهندسي لمعادلات الدرجة الثالثة بتقاطع القطوع المخروطية، إذ صنفت المعادلات التكعيبية بنظام يمكن من إيجاد جذر المعادلة كبعد سيني [المسافة لموجبة اليمين الإحداثي القائم] لنقطة تقاطع دائرة مع قطع زائد أو تقاطع قطعين مخروطيين.

وبهذا يقول هوارد ايفز "لقد قدمت الرياضيات العربية الإسلامية إسهامات كبيرة في حقل الجبر الهندسي، ووصلت قمة الحل الهندسي لمعادلات الدرجة الثالثة من قبل الخيام".

أما ابن خلدون فيقول : "... وقد بلغنا أن بعض أئمة التعاليم [فروع الرياضيات] من أهل الشرق أنهى المعادلات التي هى أكثر من هذه الستة أجناس [معادلات وضعها الخوارزمي في كتابه الجبر والمقابلة] وأولها إلى ما فوق العشرين واستخرج لها كلها أعمالا وأتبع ذلك ببراهين هندسية".

لقد مهد الحل الهندسي لمعادلات الدرجة الثالثة للرياضيين الإيطاليين لإيجاد حل جبري لمعادلات الدرجتين الثالثة والرابعة، فقد حل أستاذ الرياضيات سيبون دل فو (1465-1521م) في جامعة بولينا حوالي 1515م جبريا المعادلة التكعيبية، $س^3 + م\ س = ب$

معتمدا في عمله على مصادر عربية.

لقد حاول عدد كبير من العلماء العرب في الرياضيات حل معادلات من الدرجة الثالثة بالطريقة الهندسية، فمثلا حل ثابت ابن قرة الحراني 288هـ/900م المعادلة

$$س^3 + ا\ ب^2 = حـ\ س^2$$

هندسيا بإيجاد قيمة س لنقطة تقاطع القطع المكافئ $س^2 = ا\ ص$ والقطع الزائد ص(حـ - س) = ا س والتي أولاها ابن الهيثم عناية خاصة عام 391هـ/1000م، كما ينسب للماهاني " أبو عبد الله محمد بن عيسى (ت261هـ/874م) حل المعادلة

$$س^3 + د^2 هـ = ب\ س\ س$$

يتقاطع القطع المكافئ $س^2 = د\ ص$، والقطع الزائد ص (ب-س) = د هـ ، وتعرف هذه المعادلة تاريخيا بمعادلة الماهاني.

أما أبو الجود محمد بن الليث (ت 405هـ / 1014م) فإنه استطاع أن يجد حلولا صائبة لبعض المعادلات الجبرية كالمعادلة

$$س^3 + \frac{1}{2} 13\ س + 5 = 10س^2$$

أما عمر بن إبراهيم الخيام ت 517هـ/1123م فقد حلّ المعادلة التكعيبية

س^3 + ب^2 س + ا^3 = حـ س^2.

المعادلة السيالة – نظرية فيرما

لقد اشتغل علماء الرياضيات العرب على أنواع مختلفة من المسائل يؤدي حلها إلي معادلات سيالة أو غير محددة. ومن أوائل علماء الرياضيات العرب الذين لهم إسهامات فيها كان "أبو كامل شجاع بن أسلم" إذ يقول عنها : "وأنا نبين كثيرا من المسائل التي هي غير محددة، ويسميها بعض الحسّاب سيالة اعنى بها أن تخرج بصوابات كثيرة بقياس مقنع و مذهب واضح".

ومن أشهر المسائل السيالة في تاريخ الرياضيات المسألة الآتية "مجموع عددين مكعبين لا يكون عدد مكعبا صحيحا ثالثا"، وفي كتابتها بالرموز الجبرية، فإنه لاتوجد أعداد صحيحة موجبة س، ص، ع بحيث إن :

س^3 + ص^3 = ع^3

تنسب حاليا هذه النظرية كحالة خاصة من النظرية العامة للعالم الفرنسي فيرما (1665-1601م) ومنطوقها (لا توجد أعداد صحيحة موجبة،س، ص ع بحيث إن :

س^ن + ص^ن = ع^ن، عندما تكون (ن أكبر من 2).

لقد اتفق أغلب مؤرخي العلم ورجاله على الأصالة العربية لوضع هذه النظرية وبرهانها.

وبهذا يذكر هوارد إيفز قوله : "هناك بعض البراهين في المسائل السيالة للرياضيين المسلمين. وقد أعطوا برهانا للنظرية التي تقول : "من المستحيل إيجاد عددين موجبين مجموع مكعبيهما هو المكعب لعدد صحيح ثالث".

وأشار عدد من الدراسات إلي أن الخجندي "أبو محمود حامد بن الخضر" (ت390هـ/1000م)وهو من الرياضيين الذين ظهروا في القرن الرابع للهجرة –العاشر للميلاد، الذين قالوا : "إن مجموع مكعبين لايكون مكعبا" وقد برهن عليها، ولكن برهانه غير تام. وكذلك بحث فيها كل من الكرخي والخيام.

ومن هذا يتضح سبق العرب في اكتشاف هذه النظرية، وأن دور العالم الفرنسي فيرما هو إعادة صياغتها ثم نسبت إليه.

الرموز الجبرية:

إن التدوين الرمزي لمفردات المسائل الحسابية والجبرية – والتعبير عنها باستخدام الرموز بدلا من استخدام الكلمات والجمل التي كانت سائدة في عرض المسائل وحلها المستعملة آنذاك –قد حصل من قبل العلماء العرب.

ومن أوائل العلماء العرب الذين ذكروا ما ينم عن الرموز الجبرية الخوارزمي؛ إذ قسم الأعداد في كتابه الجبر والمقابلة إلي ثلاثة ضروب وهي :

المال التي يرمز له حاليا (س^2) والجذر الذي يرمز له (س) وعدد الذي يرمز له بأي حرف كان.

لقد عرف التدوين الرمزي في الأندلس التي أسهمت كبقية الأقاليم الدولة العربية الإسلامية في تطوير الرياضيات، إذ نجد أنها تقدم هذا العلم بصورة ملحوظة. ففي علم الجبر كان لعلماء الرياضيات في الأندلس إسهامات متعددة وعلى رأسهم اكتشاف أبو الحسن علي بن محمد القرشي المعروف بـــ (القلصادي) ت 891هـــ/1538م للرموز الجبرية التي كان لها أثر كبير في تقدم هذا العلم فيما بعد، إذ ساعدت على تسهيل العمليات الجبرية وتطوير الرياضيات عموما. فقد استخدم القلصادي الرموز الجبرية في مؤلفيه "كشف الجلباب في علم الحساب" وتبصرة المبتدي بالقلم الهندي.

وبهذا يكون قد سبق العالم الفرنسي "فرنسوا فيتا (1540-1630م) الذي ينسب علماء الغرب وتابيعهم من العلماء المحدثين إليه التدوين الرمزي في الجبر. وأن من المرجح أن ما ينسب إلي فيتا من وضع مبدأ استعمال الرموز الجبرية أنه قد اطلع على مؤلفات القلصادي والمترجمة إلي اللاتينية وأخذ عنه مبدأ استعمال الرموز الجبرية وتوسع فيها.

مثلث الكرخي:

يعرف مثلث معاملات ذي الحدين حاليا في كتب تاريخ الرياضيات بـــ "مثلث باسكال"، وهو عالم فرنسي ولد عام 1623م. وتقوم فكرتها على كيفية رفع أي مقدار جبري ذي حدين إلي أي قوة معلومة أسُّها عدد صحيح موجب.

وكان العالم العربي "الكرخي ت نحو 410هـــ/نحو 1019م" أول من بحث في نظرية ذي الحدين. وتضمن كتاب "الباهر في الجبر" للسموءل المغربي (ت570هـــ/1175م) إشارات مهمة كان لها الدور الكبير في تصحيح الكثير من الأخطاء التي اتسم بها تاريخ الرياضيات، ومنها النسبة الخاطئة لمثلث معادلات ذات الحدين الذي كان ينسب إلي باسكال. إذ أورد السموءل المغربي المثلث الذي وضعه الكرخي لمعادلات ذات الحدين. وهو ما توصل إليه الكرخي قبل باسكال بحوالي ستة قرون.

4- علم الهندسة وأثره:

موضوع الهندسة هو أحد العلوم الرياضية التي تناولها العلماء العرب بالدراسة والبحث، وقد أصبحت الهندسة في القرن الثالث الهجري علما عربيا واضح المعالم، فيه مصطلحات ثابتة معتمدة بالدرجة الأولى على كتاب "الأصول" لأقليدس وهو كما قلنا سابقا أول كتاب هندسي يترجم إلي اللغة العربية. لقد أصبح هذا الكتاب بتعاريفه الأساسية ونظرياته وطريقة برهانه أساسا رئيسا للهندسة العربية مع بعض الكتب الهندسية الإغريقية الأخرى، مثل كتاب المخروطات لأبولونيوس ومؤلفات أرخميدس الرياضية وكتاب المجسطى لبطليموس وغير ذلك.

وقد أشاد بطرائق الهندسة عدد من العلماء، فمثلا يقول ابن خلدون : " واعلم أن الهندسة تزيد صاحبها إضاءة في عقله واستقامة في

فكره، لأن براهينها كلها بينة الانتظام، جلية الترتيب، لا يكاد الغلط يدخل أقيستها لترتيبها وانتظامها".

ثم يقول: "... وكان شيوخنا رحمهم الله يقولون : ممارسة علم الهندسة للفكر بمثابة الصابون للثوب الذي يغسل منه الأقذار وينقيه من الأوضاروالأدران".

وقد أضيف إلي ما جاء به كتاب الأصول بعض المفاهيم الهندسية وأدخلت عليه تطبيقات لم تكن معروفة من قبل.

لقد تناول العلماء العرب علم الهندسة من ناحيتين :

الهندسة النظرية: وهي معرفة الأبعاد وما يعرض فيها من المعاني إذا أضيف بعضها إلي بعض، من مقدمات مفروضة، وهي البديهيات والمصادرات وما يتبعها من قضايا هندسية، ومن ثم تصبح هذه القضايا النظرية مقدمات لقضايا هندسية أخرى تأتي بعدها وتعتمد عليها.

الهندسة العملية: وهي التي ترى بالعين وتدرك بالحس، أي علاقة الهندسة بالحياة اليومية من البحث في المساحات والأبنية والعمارات، واستخدام الهندسة في الصناعة، وفيما يحتاجه الصانع من أعمال الهندسة وكيفية الحصول على أشكال الآلات المطلوبة بدقة، هذا مع العلم بأن علماء الرياضيات اليونان اهتموا بالهندسة النظرية، وقد حافظ العرب على إنجازات اليونانيين فيها، وعملوا على فهم هذه الإنجازات وتطويرها عقليا. ومن ثم ركزوا على الهندسة التطبيقية، ويظهر ذلك واضحا من مؤلفاتهم، إذ طبقوا النظريات الهندسية على الأغراض العملية من شؤون حياتهم الخاصة، مثل البناء والزخرفة ومشاريع الري.

لقد تناول الرياضيون العرب في مؤلفاتهم قضايا ومسائل هندسية كثيرة، مثل تطوير البرهان الإقليدي في برهان الكثير من النظريات والمسائل الهندسية المعقدة. وعدد من قضايا ومسائل هندسية كان لها أثر واضح في الفكر الإنساني لا يزال يذكر العديد منها في كتب تاريخ الرياضيات الأجنبية والعربية، منها ما كان لها أثر مباشر لتطور موضوع الهندسة والبعض الآخر كان من الممهدات لاكتشاف عدد من علماء الغرب مواضيع جديدة في الهندسة وغيرها، ومنها ما ينسب حاليا في إيجادها أو برهانها لعلماء أوربيين، أثبتت المخطوطات العربية ودراستها اصالة نسبتها لعلماء عرب، سوف نذكر بإيجاز بعض النظريات والمسائل والمواضيع الهندسية التي ذكرت في مؤلفاتهم، فضلا عن الحفاظ على التراث الفكري الإغريقي في الهندسة والتي لها أثر كبير فى التراث الفكري الإنساني. ومنها:

أ- تثليث الزاوية: وهي واحدة من المسائل الثلاث الشهيرة في تاريخ الرياضيات [تضعيف المكعب تربيع الدائرة] وكانت حلول هذه المسائل كانت متواصلة منذ العصور الإغريقية إلي الوقت الحاضر، إذ ما يزال عدد من المجلات الرياضية ينشر معلومات عن "مثلثي الزاوية". وتثليث الزاوية بسيط

في إدراكه، ومن الطبيعي أن نستغرب عندما نجد أن هذا الحل ليس سهلا. لقد اشتغل عدد كبير من علماء الرياضيات بحل هذه المسألة وتمكنوا من حلها بطرائق مختلفة واسهم عدد من علماء العرب في حل هذه المسألة وتمكنوا من حلها إلا أن طرائق حلهم لا تختلف كثيرا عن حل الإغريق لها، ونذكر من هؤلاء العلماء، ثابت بن قرة، والحسن بن الهيثم، والكوهي، والبيروني، وغيرهم.

اما أبناء موسى بن شاكر فيعّد حلهم لها من الأعمال الأصيلة المبتكرة بطريقة جديدة مغايرة يمكن أن نقول عنها: الحل بواسطة منحني بني موسى.

وهو أول عمل عربي من نوعه وصل الغرب، كما أنه تثليث عربي لزاوية مذكور في كتاب "مساحة الأكر وقسمة الزاوية بثلاثة أقسام متساوية لبني موسى الذي نقل عنه العديد من علماء الغرب في العصور الوسطى والذي نسب برهان التثليث العربي لنفسه ومنهم جوردانيوس (1237م) وليوناردو البيزي (1258-1328) وكامبانيوس وهم من الرياضيين الأوربيين.

ب- مناظرة مصادرة اقليدس: تعد مناظرة مصادرة "مسلمات" إقليدس من الأعمال الهندسية التي تناولها علماء الرياضيات العرب وخصوصاً "مصادرة التوازي أو نظرية التوازي"، وهي واحدة من المشاكل الهندسية التي درست بصورة مفصلة فإذا كان هناك مصدر يمكن أن ينسب إليه اكتشاف الهندسة اللاإقليدية فهي الدراسة الموسعة والاستقصاءات لبديهيات ومسلمات إقليدس. هناك مصادرة واحدة تختلف كليا في طبيعتها عن باقي المصادرات، تعرف بمصادرة التوازي، وتسمى المصادرة الخامسة.

وهي : "إذا وقع خط مستقيم على خطين مستقيمين، وكانت الزاويتان الداخليتان اللتان في جهة واحدة أقل من قائمتين فإن الخطين إذا خرجا في تلك الجهة فلا بد أن يلتقيا". فمنذ البداية وعقب إقليدس مباشرة لم يرتح الهندسيون لعمل إقليدس هذا؛ ولذلك حاول عدد غير قليل منهم أن يبرهن على صحة هذه الفرضة باستعمال الفرضيات الأخرى.

لعلماء الرياضيات العرب أثر بارز ومهم في إثارة الشكوك حول هذه المصادرة، وقد بذلت محاولات متعددة للبرهان عليها، وذلك لأنها لم تكن واضحة مثل البديهيات والمصادرات الأخرى، كما لا يمكن تأكيد صحتها بالاختبار العملي والتجربة، ولهذا فهي تختلف عن سائر فرضيات إقليدس التي تمتلك جميعا طابعا محدودا لكونها متعلقة بأجزاء محدودة من المستقيمات وبأشكال مستوية محدودة، ومن علماء الرياضيات العرب الذين لهم إسهامات فى هذه المصادرة، ثابت بن قرة. وابن الهيثم، وأثير الدين المفضل بن عمر الأبهري ت 663هـ/ 1264م، فضلا عن عمر الخيام. لم يتمكن أحد من برهان

هذه النظرية، ولكنهم قد توصلوا إلي ما يكافئ هذه المصادرة أو ما يطلق عليه بدائل هذه المصادرة. فمثلا وضع ثابت ابن قرة ت 288هـ/900م البديل الآتي : "إذا وقع مستقيم على خطين مستقيمين وكانت الزاويتان المتبادلتان متساويتين، فإن ذينك الخطين لايقربان ولايبعدان في أي جهة من جهتيها". أمّا الحسن بن الهيثم فقد أثار الشكوك على أصول إقليدس عموماً وعلى المصادرة الخامسة خصوصاً، وذلك عن طريق عدد من الأعمال مثل "في حل شكوك كتاب إقليدس في الأصول" و "كتاب شرح مصادرات كتاب إقليدس في الأصول.

" لقد وضع ابن الهيثم بعض البدائل لهذه المصادرة الخامسة مثل " كل مستقيمين متقاطعتين لا يوازيان خطا مستقيما واحدا" والأخرى "إذا تحرك مستقيم قائم على مستقيم آخر، وكان قيامه على ذلك الخط في حركته فانه يفعل بطرفه الآخر مستقيما وإن الخط الحادث مواز للخط الساكن".

كما أقام برهانه على هذه المصادرة مع رباعي أضلاع فيه ثلاث زوايا قوائم، وقد برهن على أن الزاوية الرابعة يجب أن تكون قائمة.

تنسب هذه الحالة لرباعي الأضلاع في كتب تاريخ الرياضيات إلي العالم السويسري "لامبرت" "1728-1777م" وتعرف حاليا برباعي أضلاع لامبرت.

أما بديلة أثير الدين الأبهري وفحواها : "العمود على منصف الزاوية يقطع ضلعيها"، وعمر الخيـــــام ت517هـ/1123م يفرض قطعة مستقيم رسم على نهايتها عمودان متساويان، ومن ثم يبرهن على أن الزاويتين في القمة متساويتان، ويعرف رباعي عمر الخيام في كتب الرياضيات برباعي ساكبري (1667-1733م) وهو عالم يسوعي إيطالي.

لقد أدت دراسة هذه المصادرة إلي اكتشاف هندسة جديدة تعرف بالهندسة اللاإقليدية. كما أدت الدراسة هذه لاكتشاف مواضيع رياضية جديدة أخرى، مثل موضوع " أسس الرياضيات " والمنطق الرياضي وفلسفة الرياضيات.

ج- حسبان التفاضل والتكامل

ينسب حاليا الفضل في اكتشاف التكامل إلي العالم الإنكليزي نيوتن والألماني ليبنتز اللذين تنازعا لفترة طويلة في تحديد الأسبقية لهذا الاكتشاف.

يعتمد علم التكامل بصورة رئيسة على ما يسمى علم الصغائر. فقد قام بدراسة هذا العلم عدد من العلماء العرب الذين مهدوا بشكل أو آخر إلي اكتشاف علم التكامل.

وتوصل كل من ثابت بن قرة والكوهي وابن الهيثم إلي دراسة هذا الموضوع الذي يتم بمحاولة إيجاد مساحات وحجوم أشكال لاتنطبق عليها القواعد الحسابية لإيجادها، مثل المربع والمستطيل والمثلث والمكعب والكرة وغيرها.

ولكن مساحة قطعة من قطع مكافئ أو حجم الجسم الناتج من دوران قطعة من قطع مكافئ حول محوره، تكون بتقسيم هذه الأشكال إلي أقسام صغيرة ثم إيجاد المساحة أو الحجم، ويعرف هذا الحل بحساب الصغائر، عندما تكون هذه الأقسام صغيرة وكثيرة العدد. وقد أطلق على هذا النوع من الأعمال "التكامل المنطقي"، وهو اقرب صورة للتكامل الذي عرف في القرون الوسطى.

بهذا يمكن القول بأن دراسات ثابت بن قرة والكوهي وابن الهيثم في إيجاد حجوم المجسمات قد مهدت الطريق إلي تطوير حساب التفاضل والتكامل على أيدي نيوتن وليبنتز.

د- مسالة ابن الهيثم:

تعرف هذه المسألة عند الغرب بمسألة "الهازن" "الحسن" وقد جاءت هذه المسألة في الجزء الهندسي من "كتاب المناظر" لابن الهيثم الذي يحتوي على الكثير من البراهين الهندسية التي تستند على "أصول إقليدس" أو "مخروطات أبو لونيوس" ومزيج من الاثنين. فقد كرس ابن الهيثم معظم المقالة الخامسة من كتاب المناظر لحل هذه المسألة. وهي مسألة يكون حلها طويلا وصعبا بحالاتها العامة؛ إذ تؤدي إلي معادلة من الدرجة الرابعة، يتم حلها بتقاطع القطوع المخروطية.

أما الحال الخاصة بها فيكون حلها سهلا نوعا ما. لقد وردت هذه المسألة بصيغ متعددة، ولكن الصيغة التي أوردها مصطفى نظيف "محقق كتاب المناظر" كانت : "إذا فرضت نقطتان حيثما اتفق أمام سطح عاكس، فكيف تعين على هذا السطح نقطة بحيث يكون الواصل منها إلي أحد النقطتين المفروضتين بمثابة شعاع ساقط، والواصل منها إلي الأخرى بمثابة شعاع عاكس، وتسمى النقطة المراد تعينها على السطح العاكس : نقطة الانعكاس.

وبهذا يقول عبد اللطيف : " إن مسألة الحسن الهازن" عمل جبار يتسم بالعبقرية، فهي ليست معقدة بالنسبة لزمن ابن الهيثم فحسب، بل معقدة بالنسبة لأي زمان، بما في ذلك عصرنا الحالي.

هـــ. تعميم نظرية فيثاغورس:

لقد كان البابليون يعرفون النظرية المعروفة حاليا بنظرية فيثاغورس، وهي النظرية القائلة : " المربع المنشأ على وتر المثلث القائم الزاوية يساوي مجموع المربعين المنشأين على الضلعين الآخرين".

كانت هذه النظرية معروفة لدى البابليين أيام حمورابي، أي قبل أكثر من ألف سنة من زمن فيثاغورس، ولكن احتمال أن فيثاغورس قد برهن هذه النظرية هندسيا كانت سببا فى تسميتها باسمه. وذلك لأن البابليين قد استخدموها عدديا.

لقد اقتصر عمل فيثاغورس على المثلث القائم الزاوية، أما علماء العرب فقد أعطوا لهذه النظرية تعميما يشمل جميع المثلثات سواء القائمة أو غير القائمة، ومن هؤلاء العلماء نجد أن ثابت بن قرة قد أعطى تعميما لهذه النظرية التي هي

صحيحة لجميع المثلثات، ولا تقتصر على المثلث القائم الزاوية. وتعد هذه النظرية في كتب تاريخ الرياضيات من الأعمال الرياضية الأصيلة ونصها كالآتي:

إذا رسم من رأس ا لأي مثلث ا ب′ حـ′ خطان يقطعان ب حـ في ب′، حـ′ بحيث إن كُلاًّ من الزاويتين ا ب′ ب، ا حـ′ حـ مساوية لزاوية ا أي أن:

< ا ب′ ب = < ا ح′ حـ = < ا

عندئذ يكون:

(ا ب)^2 + (ا حـ)^2 = ب حـ (ب ب′ + حـ ح′ـ)

وفي حالة عندما تكون زاوية ا قائمة، تصبح هذه نظرية فيثاغورس. وبهذا تكون نظرية فيثاغورس حالة خاصة من نظرية التعميم لثابت بن قرة وقد أعاد اكتشاف هذه النظرية العالم الإنكليزي والاس.

و- طريقة التحليل والتركيب:

إن طريقة التحليل والتركيب في الهندسة تعتبر من الوسائل التربوية والتعليمية المهمة، يتجلى ذلك في تطوير البرهان الإقليدي في برهان الكثير من النظريات والمسائل الهندسية المعقدة، وهناك عدد كبير من العلماء العرب الذين استعملوا طريقة "التحليل والتركيب" في حل بعض مسائلهم، مثل ثابت بن قرة وإبراهيم بن سنان ت 335هـ/946م وابن الهيثم.

كانت طريقة التحليل تبدأ بالمطلوب، بأن نفترض منذ البداية أن المطلوب موجود فنضعه في المقدمة ثم ننتقل منه إلي خطوات الحل الأخرى، كخطوة تبين المعلومات من منطوق المسألة والشروط والمفروضات فضلا عن المطلوب.

وطريقة التركيب، أن نعكس طريقة التحليل، بأن يسير الحل عكس طريق التحليل، فنبدأ بالمفروضات والأشياء التي نسلم بها، ونستنتج منها بخطوات متتابعة حتى نصل إلي استنباط المطلوب.

تتجلى طريقة "التحليل والتركيب" في إمكانية تطبيقها في سائر العلوم، وليس في موضوع الهندسة فقط وذلك لأهميتها في أصول تدريس العلوم. ولقد أفاد العديد من العلماء من هذه الطرائق في حل المشاكل العلمية، كما أصبحت وسيلة متميزة من الوسائل التعليمية، إذ أنها سهلة ومقبولة لذهن الطالب والمتعلم، وأنها منتشرة حاليا بصورة كبيرة وقد أصبحت طريقة "التحليل والتركيب" الأنموذج الجيد في العلوم النظرية، لقد تأثر ديكارت بمن سبقه من العلماء العرب من دون أن يذكر ذلك، كما أنه لم يذكر فضل من سبقه في طريقة التحليل والتركيب.

وعلى وجه العموم كان باهتمام العلماء العرب بالعدد أكثر من اهتمامهم بالشكل، إذ إن أسلوب الرياضيات الذي عرفه الغرب عن طريق العرب، بتحويل الهندسة الإغريقية إلي طريقة جبرية بالتعبير عن أعدادهم وحسابهم كمعادلات الدرجة الثالثة والرابعة وتثليث الزاوية وحلها بواسطة المعادلة الجبرية الحسابية الصرفة. تعد هذه الطريقة في حل المسائل الهندسية بطريقة

جبرية حسابية من الأعمال التي حققها العرب ثم أخذها الغرب عنهم؛ ليحتفظ بها حتى العصر الحديث.

5- علم المثلثات وأثره:

وهو العلم الثاني بعد الجبر يعّد علما عربيا. ولم يكن علم المثلثات علما مستقلا ومعروفا، فكانت عملياته تجري ضمن موضوع الفلك، ويرجع للعرب الفضل في تطوير علم المثلثات ووضعه بشكل علمي منظم مستقل عن الفلك، فيه عدد من النظريات والقواعد وإرساء المفاهيم الحديثة مع إعطاء الرموز للدوال المثلثية.

لقد كانت المؤلفات والرسائل والأبحاث العربية في حساب المثلثات عونا للأوربيين ومساعدا لهم، ومن العلماء الغربيين من نسب بعض هذه النظريات والقواعد لنفسه، فمثلا يذكر كل من كاجوري وسارتون وسوتر بان بعضا من النظريات نسبت في أول الأمر إلي ريجومونتس وغيره، ثم بعد البحث والاستقصاء تبين أنها من وضع العلماء العرب ونتاجهم العلمي.

لقد أسهم عدد من العلماء العرب في تطوير حساب المثلثات المستوية والكروية، ومن هؤلاء الأوائل نذكر :

البتاني: أبو عبد الله محمد بن جابر الحراني (ت317هـ/929م) الذي وجه عناية لحساب المثلثات، وبين أنه علم مستقل وذو قواعد وأسس منفصلا عن الفلك، وأن كان مرتبطا معه بصورة قوية. لقد برهن الكثير من القوانين الفلكية رياضيا، أي باستخدام علم المثلثات، كما ينسب إليه دراسة المثلثات الكروية ويرجع إليه الفضل في إرساء المفاهيم الحديثة لرموز الدوال في حساب المثلثات واستقلالها المتميز.

ولهذا ليس من الغرابة أن نجد من كتب عن الحضارة العربية فأكد على أن فضل البتاني ليس في تأسيس علم المثلثات وإنما في نشر مبادئه ومفاهيمه، ومنهم كارل بركلمان الذي قال : "يرتبط اسم البتاني بإدخال حساب المثلثات في بلاد الغرب".

أما أبو الوفاء البوزجاني (388هـ/998م) فقد ذكر كارل بوير بأنه "من المسؤلين الأوائل في فصل علم حساب المثلثات عن علم الفلك حتى تمكن من إدخال علم الجبر عليه بالطريقة النظرية، وهذا يظهر من متطابقاته الجبرية".

النسب المثلثية :

لقد اطلع العرب أول مرة على دالة الجيب من كتاب السند هند الهندي، ومن كتاب المجسطي لبطليموس، إذ لم تكن في هذا المصطلح العربي، فقد ورد التعبير "نصف الوتر **Jya**". من الهند والتعبير "وتر القوس" من الإغريق.

وقد تمكن علماء الرياضيات العرب من وضع مصطلح جديد بدلا من التعبير السابق بـــ "جيب الزاوية"، وتشير أكثر الاحتمالات إلى أن البتاني هو الذي أطلق هذه التسمية، وبغض النظر عمن وضع هذا المصطلح، فهو تسمية عربية خالصة.

وقد دخلت لفظة الجيب "Sinus" إلي رياضيات كل شعوب العالم بواسطة كتاب البتاني " في العلوم الذي اشاد به علماء عرب وعلماء غربيون، كما ينسب إلي محمد بن سنان بن جابر البتان (ت317 هـ /929م) وضع مصطلح "جيب تمام" وأدخل أيضا التعبيرين (الظل وظل التمام). أما البوزجاني فقد أسهم إسهاما كبيرا في تثبيت هذه الأسماء، فضلا عن القاطع وقاطع التمام.

ويعد العالم الرياضي البوزجاني من أوائل العلماء الذين ادخلوا لفظة المماس في أعداد النسب المثلثية، وبهذا يقول البيروني : "إن الفضل في استنباط هذا الشكل – الشكل الظلي – ونسميه المماس يرجع لأبي الوفاء بلا تنازع من غيره" ويسمى حاليا الظل.

إن معاني الأسماء الحالية للدوال المثلثية (النسب المثلثية) واضحة من تفسيراتها الهندسية عندما توضع الزاوية عند مركز دائرة الوحدة (دائرة نصف قطرها وحدة واحدة).

أما أصل كلمة "جيب" فهو غريب بحد ذاته، يقول إيفز بهذا فقد سماها "إريا بهاتا" وهو عالم رياضيات هندي عاش في القرن السادس الميلادي، نصف الوتر "ardha-Jya" وكذلك "وتر النصف "Jya-ardha"، ثم اختصر المصطلح بعد ذلك إلي الوتر "Jya" ثم اشتق العرب لفظة "جيب " Jiba من "Jya" ومن ثم كتب بالرمز "جا "jb اختصارا، ثم بعد ذلك جاء الكتاب الأوربيون أخيرا مستخدمين الرمز المجرد "Jb" للكلمة العربية "جيب Jiba"، ثم حورت الكلمة عند ترجمتها إلي اللاتينية إلي ما يكافئها "sinus"، ومنها رست إلي الكلمة الإنكليزية "sine".

أما النسب المثلثية الأخرى فقد مرت تسميتها بمراحل إلي أن وصلت إلي صيغتها الحالية. وبهذا يقول نلينو "ومن الجدير بالذكر أن رياضي العرب في القرون الوسطى سموا الظل الظل الأول أو القائم أو المنتصب أو المعكوس. وأشاروا إلي ظل التمام، بالظل الثاني أو المبسوط أو المستوي. ثم بما أنهم سموا الضلع المقابل للزاوية القائمة قطرا سموا القاطع بقطر الظل الأول، واصطلحوا على قاطع التمام بلفظ قطر الظل الثاني. أو بقطر الظل فقط".

المعادلات والعلاقات في المثلثات المستوية والكروية:

لقد وجد علماء الرياضيات العرب معادلات وعلاقات وقواعد بين هذه النسب الست في المثلثات المستوية والكروية. كما استعملوا المماسات والقواطع ونظاهرها في قياس الزوايا والعلاقات.

فمثلا بين "فؤاد سزكين" بأن جميع العلاقات المتعلقة بالمثلثات المستوية، والتي تنسب إلي علماء الغرب ما هي إلا اكتشافات عربية أصلية، وقد ذكر أن تطور حساب المثلثات المستوية قد أثبت أن جميع معادلاتها المعروفة في القرن الثامن عشر كانت معروفة عند المسلمين مع أنها كانت تعتبر في القرنين الأخيرين من اكتشافات الرياضيين الأوربيين.

أما "سيدو" فيقدم الشكر لمدرسة بغداد الرياضية التي أصبحت الأساس الأول لعلم المثلثات الحالي.

أما كل من سمث وسارتون وسوتر، فقد اعترفوا بعدم صحة ماورد في كتاب ريجيومانيوس عن حساب المثلث.

ففي المثلثات المستوية نجد ان (البتاني) في كتابه "حركة النجوم" قد كتب العلاقات :

ظا س = جا س/ جتا س، ظتا س = جتا س/ جا س

كما ينسب إلي "البوزجاني" إيجاد العلاقات في حساب المثلثات المستوية الآتية:

2 حا^2 $\frac{س}{2}$ = ا − جتا س

حا س = 2 حا $\frac{س}{2}$ حتا $\frac{س}{2}$

والعلاقات التي توصل للعلاقة الآتية

حا(س ± ص) = حا س حتا ص ± حا ص حتا س

ومن القوانين في حساب المثلثات المستوية ما ينسب إلي البتاني:

لأي مثلث ا ب حـ فإن

جا ا / ا/ = جا ب = ب/ = جا ج / ج/

حيث ا/، ب/، ج/ اضلاع المثلث المقابلة للزوايا ا، ب، ج. تعرف هذه القاعدة في كتب الرياضيات بقاعدة لامى:

أما ابن يونس المصري الحاكمي (399هـ/1008م) فله اسهامات مهمة في حساب المثلثات، ومن انجازاته البارزة في هذا المجال وضع المعادلة الشهيرة في حساب المثلثات المستوية، في تاريخ الرياضيات والمثلثات وهي:

حتا س. حتا ص = $\frac{1}{2}$ حتا (س + ص) + $\frac{1}{2}$ حتا (س − ص)

تكمن أهمية هذه المعادلة فى تحويل عملية الضرب إلي عملية جمع، وتعد من الممهدات الأساسية في اكتشاف اللوغاريتمات،كما ذكرنا سابقا.

أما في المثلثات الكروية فللبتاني إسهامات متميـــزة، فمثلا يعتبر كتـــاب "الزيج الصابي" للبتاني مصدرا أساسيا لدراسة حساب المثلثات الكروية في أوربا خلال العصور الوسطى وأول عصر النهضة الأوربية.

فقد ترجم هذا الكتاب إلي اللاتينية من قبل روبرتس، وكذلك أمر الفونسو العاشر ملك قشتالة (1252-1282) بترجمة هذا الكتاب.

فمثلا اكتشف البتاني قانون جيوب التمام الكروي وهو

حتا ا/ = حتا ب حتا حـ/ + حا ب/ حا حـ/ حتا ا.

وتعد معادلة جيب التمام هذه في حساب المثلثات الكروية من جملة الإضافات المهمة التي أضافها العرب إلي علم المثلثات. ومما يستحق الذكر أن العرب توصلوا في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري إلي إثبات تناسب جيوب الأضلاع لجيوب الزوايا المقابلة لها في أي مثلث

كروي. يمكن كتابة هذه النظرية بالرموز المثلثية الآتية

جا ا/ / جا ا = جا ب/ / جا ب = جا ج/ / جا ج

في المثلث الكروي ا ب حـ وأضلاعه المقابلة ا/، ب/، ج/

وقد سميت هذه القاعدة "الشكل المغنى" في حل المثلثات الكروية، ومن علماء الأندلس البارزين ولهم إسهامات متميزة في المثلثات الكروية جابر بن أفلح (ت: منتصف القرن الثاني عشر الميلادي) فقد وضع القانون حتا ب = حتا ب حا ا في المثلث الكروي ا ب حـ القائم الزاوية في حـ، وتسمى هذه بما يعرف بنظرية جابر "عند الأوربيين وهي مقرونة باسمه.

ومن الأعمال البارزة والمهمة في حساب المثلثات هي تكوين الجداول المثلثية. فقد عمل البتاني جدولا لظل التمام بدلالة الدرجات، كما عمل جدولاً لحساب الجيب والظل وظل التمام من الصفر إلي 90° بدقة بالغة وإن الجداول الرياضية التي جاءت في مؤلفه "الزيج الصابي" التي ضمنها نتائج أرصاده كان لها الأثر الكبير في الفلك، ليس فقط في العالم الإسلامي، وإنما في تطور علم الفلك وحساب المثلثات الكروية في أوربا في العصور الوسطى وبداية عصر النهضة، كذلك فقد كانت المؤلفات والرسائل والأبحاث العربية في حساب المثلثات عونا للأوربيين ومساعدة لهم.

علم الفلك عند العرب وتأثيراته

من الموضوعات العلمية التي لازمت الرياضيات علم الفلك. وعلم الفلك قديم جدا في ربوع وادي الرافدين، ويرجع إلي أيام بابل وآشور وما تلاهما، ومن أعمالهم المتميزة تقسيمهم اليوم إلي 24 ساعة والساعة إلي 60 دقيقة والدقيقة إلي 60 ثانية. كما جعلوا الأسبوع سبعة أيام والشهر أربعة أسابيع وعرفوا الكسوف والخسوف.

أما الفلك عند العرب قبل الإسلام فكان بمجموعه عبارة عن ملاحظات ومشاهدات للقبة السماوية ورصد مواقع النجوم وحساب سيرها. والفضل الكبير من جعل علم الفلك علما مستقلا ذا قواعد وأسس، ثم التوسع فيه يعود للعلماء العرب في أيام الدولة العباسية، على الرغم من أن هناك بدايات قد حدثت أيام الدولة الأموية، وذلك عند ترجمة كتاب "مفتاح النجوم" المنسوب إلي هرمز الحكيم.

لقد كان لكتاب الأصول لإقليدس في الهندسة وكتاب المجسطي لبطليموس في الفلك مكانة كبيرة في نفوس العلماء العرب وأثر كبير في أبحاثهم الفلكية، كما سبقهما كتاب السند هند الهندي المتضمن جداول فلكية والمهتم بحركات الكواكب، فضلا عن الأرقام والذي ترجم أيام المنصور بإشراف الفزاري الذي كتب كتابا استخلصه من الكتاب المذكور، وسماه السند هند الكبير؛ ليتخذه العرب مستندا في تحديد حركات الكواكب، وبقى معمولا به حتى أيام المأمون.

لقد كان لكتاب السند هند الكبير تأثير كبير في تطور علم الفلك، كما ترجمت "المقالات الأربع" لبطليموس في صناعة أحكام النجوم، ثم توالت الترجمات والمؤلفات حتى وصل علم الفلك إلي قمة الازدهار في عصر المأمون.

لقد قام بتعريف علم الفلك عدد من العلماء العرب والمسلمين مثل الفارابي وأحمد الانصاري وابن سينا وابن رشد، وقد كان أكثرها شهرة هو تعريف ابن خلدون لعلم الفلك بقوله "إنه علم ينظر في حركات الكواكب الثابتة والمتحركة والمتحيرة ويستنبط من تلك الحركات أشكال وأوضاع الأفلاك التى لزمت عنها هذه الحركات المحسوسة بطرق هندسية". فالكواكب الثابتة:هي النجوم المبثوثة في السماء ماعدا الكواكب السيارة وسميت ثابتة لأنها ثابتة الأبعاد أحدها عن الآخر.

والكواكب المتحركة: سبعة كواكب، القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل.

والمتحيرة: خمس من الكواكب المتحركة عدا الشمس والقمر وسميت بالمتحيرة لأنها ترجع من وقت لآخر عن مسارها.

وقد أطلق العرب على علم الفلك اسم "علم الهيئة"، وهو العلم الذي يبحث فيه ظواهر الأجرام السماوية ونواميس حركاتها المرئية والحقيقية ومقاديرها وأبعادها وخاصيتها الطبيعية.

ومن بداية الدولة العباسية انتشل العلماء العرب "علم الهيئة" من أدران التنجيم وأوهامه وأرجعوه علما رياضيا يعتمد على الحساب وعلى الحركات الفلكية التي تعتمد وضع الفروض، ومن ثم التحقق من صحتها أو رفضها وتعميمها، وهذه الخطوات تعّد من خطوات البحث العلمي.

ومن أسباب اهتمام العرب بعلم الفلك والاشتغال فيه الحاجات الكثيرة المتعلقة به، ومنها الحاجات الدينية كمعرفة الأوقات وتحديد أطوال الليل والنهار والتقويم وحركة الشمس والبروج ومعرفة سمت القبلة ورصد القمر والكواكب.

لقد توصل العلماء العرب إلي أن الأرض كرة قائمة في الفضاء، وهي مركز الكون، وفسروا كيفية دوران الشمس والقمر حول الأرض وأن القمر أقرب الكواكب إلي الأرض وفوقه فلك عطارد ثم الزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل والنجوم. وأن القول بأن الأرض مركز الكون بقى سائدا حتى عصر كوبر نيكوس.

والمأثرة الكبرى التي توصل إليها العلماء العرب وكان اعتراف الأجانب فيها واضحا قياس محيط الأرض. فمثلا يقول نللينو في كتابه علم الفلك "إن قياس العرب لمحيط الأرض بهذا الشكل يعتبر أول قياس حقيقي أجرى كله مباشرة، مع كل ما اقتضته تلك المساحة من المدة الطويلة والصعوبة والمشقة واشتراك جماعة من الفلكيين والمساحين في العمل، فلابد من عدّ ذلك القياس من أعمال العرب العلمية الجيدة والمأثورة".

ونتيجة لقياس محيط الأرض، توصل العلماء العرب إلي أن معدل درجة واحدة لمحيط الأرض تساوي $56\frac{2}{3}$ ميل، أي أن طول الدرجة = 111.85كم ومحيط الأرض يساوي 41248كم، وهو قريب من الحقيقة والمعروف حاليا أن محيط الأرض يساوي 40070كم.

وبانتشار الكتب العربية المترجمة إلي اللاتينية انتشر أيضا في بلاد أوربا معرفة مقدار درجة محيط الأرض. وأن دراسة محيط الأرض قد ساعدت "كرستوف كولمبس" فى اكتشاف القارة الأميركية وفتح عهد جديد لايقدر تأثيره في أحوال جميع البشر الاجتماعية والاقتصادية.

لقد كان لعدد من المؤلفات والرسائل العربية في علمي التنجيم والهيئة أثر كبير فى الحضارة الأوربية، فمثلا يبين سيدو في كتابه "التاريخ العام للعرب" فضل العرب في حقل الفلك على أوربا بقوله : "أننا لو رغبنا في أن ننظر إلي التقدم الذي أحرزه علماء العرب في العلوم الرياضية والفلكية، فإننا نجد أن العرب سبقوا الأوربيين إلي أكثر الاكتشافات التي نسب الأوربيون اكتشافها إلي علماءهم". ثم يقول في مكان آخر "لقد توصل فلكيو بغداد في نهاية القرن العاشر إلي أقصى ما يمكن أن يتوصل إليه إنسان في رصيد السماء وما دار فيها من كواكب ونجوم بالعين المجردة، دون اللجوء إلي عدسات مكبرة أو منظار".

لقد تضمنت المؤلفات العربية في الفلك دراسات على الأرصادات والأزياج والآلات الفلكية والتي كان تأثير مباشر على تطور الفلك وأثره في الحضارات العربية كما هو مبين:

الأزياج: وهي من فروع علم الهيئة "الفلك"، وهي جداول فلكية تبين ما يخص كل كوكب عن طريق حركته وسرعته ومكانته، وقد عرفه ابن خلدون بقوله : "وهي صناعة حسابية على قوانين عددية فيما يخص كل كوكب عن طريق حركتها".

ومن الأمثلة على هذه المؤلفات والمترجمة إلي اللغة اللاتينية أو إلي لغات أخرى، وكان لها أثر كبير في تطور الفكر الأوربي نذكر كتاب أحكام النجوم للكندي، وكتاب النجوم للبتاني، وكتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية للبيروني، وكتاب المدخل في علم الأفلاك للفرغاني، وصور الكواكب الثابتة للصوفي وغيرها.

إن عمل الأزياج ليس بالمهمة السهلة، لأن ذلك يتطلب معرفة تامة بقوانين ونظريات فلكية، كما يتطلب رصدا دقيقا لكواكب القبة السماوية من حيث الموضع والوقت وطريقة الحركة وغير ذلك من الأمور التي تتطلبها الجداول الفلكية. وهذا معناه إن الأزياج يختلف بعضها عن بعض؛ نظرا لاختلاف مواقع الرصد وزمانه. فمثلا ازياج بطليموس لاتصلح أن يتخذها العالم الفلكي في بغداد، وذلك لاختلاف المكان والزمان. لقد نظم الفلكيون العرب أنواعا متعددة من الأزياج الفلكية وكانت هذه عبارة عن جداول مرتبة البعض منها كانت لمعرفة الكواكب في أفلاكها والبعض الآخر لمعرفة

الشهور والأيام والتقاويم المختلفة. فمثلا يقول ابن سينا في هذا "ومن فروع علم الهيئة الزيجات والتقاويم". ومن هذه الأزياج يمكن أن نذكر بعضها:

لمحمد بن موسى الخوارزمي (ت 232هـ/846م) أزياج فلكية ظلت متداولة قرونا طويلة بين الأندلس والصين، وأن "الزيج الصابي" للبتاني الذي يعّد من أعظم أعماله في الفلك، إذ بلغ في كتابه هذا القمة، وهو يعّد من أصلح الأزياج وكان لهذا الزيج أثر كبير في علم الفلك وعلم المثلثات المستوية والكروية، وبقى هذا مرجعا للفلكيين في أوربا خلال القرون الوسطى وأول عصر النهضة. وقد ترجم إلي اللاتينية عدة مرات وإلي الأسبانية في زمن ملك قشتالة الفونسو العاشر (1252-1282م).

وأما هونكه فتقول "وان مقدمة الزيج الصابي الشهير قد ترجمت إلي اللاتينية وعلق عليه راجيومولتس رصدت عام 1538م في مدينة نورنبرغ، حيث أصبحت في متناول المثقفين في بلاد الغرب".

أما ابن يونس المصري (ت399هـ/1009م) فله الزيج الحاكمي، وكان ابن يونس من علماء الفلك البارزين، فقد نشر الزيج الحاكمي "كوسين دي برسفال" في باريس سنة 1804م.

ومن أعمال ابن يونس الفلكية البارزة اختراعه للرقاص الذي بفضله تطور علم الفلك إلي مكانة عالية، وان الأوربيين لم يعرفوا الرقاص إلا في القرن السابع عشر للميلاد كما أفاد منه غاليو الإيطالي وتوسع في دراسته ووضع بمساعدته أكثر القوانين المعروفة حاليا.

وهناك عدد كبير من الأزياج المهمة والتي دخل معظمها أوربا، حتى أن بعضها بقى ساري المفعول إلي أيام كوبرينكوس بوضعه الذى دخل فيها هذه البلاد.

وبهذا يمكن القول بأن علماء الفلك قد وضعوا عددا كبيرا من الأزياج في بغداد والشام ومصر والشمال الأفريقي والأندلس وغيرها من المناطق التي خضعت للثقافة العربية واللسان العربي.

المراصد:

عمل الأزياج يقتضي وجود مراصد لرصد القبة السماوية، وذلك لتثبيت الحقائق الفلكية المتعلقة بأحوال السماء. وقد أقام العرب بالفعل مراصد متعددة ومن أشهرها مرصدا المأمون في بغداد وفي دمشق على جبل قاسيون، ومرصد سامراء لبني موسى، ومرصد القاهرة، ومرصد البتاني في الشام، ومرصد ابن الشاطر في الشام، ومرصد مراغة وغيرها.

ومما يدل على شدة عناية العرب بعلم الفلك ومهارتهم في الأرصاد، قيامهم بقياس قوس من دائرة نصف النهار بطريقة علمية في زمن المأمون.

ومن العلماء البارزين على سبيل المثال في الرصد كان البتاني (ت317هـ/929م) وقد قال عنه صاعد الأندلسي (ت 462هـ/1069م) ولا أعلم أحدا في الإسلام بلغ ما بلغه

في تصحيح أرصاد الكواكب وامتحان حركاتها"، وقال عنه الفلكي هالي : "إنه علامة عصره عجيب التدقيق ومجرب بالرصد".

لقد اشتهر البتاني برصد الكواكب والأجرام السماوية، ولاتزال أرصاده محل دهشة العلماء ومحط إعجابهم. وقد سماه بعض الباحثين "بطليموس العرب" و"بطليموس بغداد". ونتيجة لإرصاداته هذه كون البتاني الأزياج التي اشتهر بها فيما بعد. ونظرا لتقدير البتاني، أطلق اسمه "البتانوس **Albatognius**" على إحدى فوهات القمر من الوجه المرئي.

ومن طريف ما يروى عن الكوهي الذي كان مشرفا على مرصد بغداد. أنه كان يكتب محضرا عن أعمال الرصد التي أجراها في مراصده التي عملها، وبحضور علماء الدولة وحكمائها وقضاتها الذين كانوا يشهدون الرصد ويوقعون عليه.

الآلات:

اشتهرت المراصد العربية بما فيها من آلات مختلفة للرصد وقياس ابعاد الكواكب وعرض البلد والتحول الاعتدالي وسمت الكواكب وكل ما يتعلق بالرصد الفلكي. وقد جاء وصف هذه الآلات في الكتاب الذي ألفه "الخازن" فى القرن الثاني عشر الميلادي. بعنوان كتاب "الآلات العجيبة" ومن بين هذه الآلات اللبنة ذات الاتار ذات الحلق ذات الشعبتين ذات السمت والارتفاع ذات الجيب الإسطرلاب.

لقد كانت آلة الإسطرلاب أفضل آلة قياسية عند العرب وأكثر منفعة واستعمالا، وتفنن العرب في صنعه وتعدد أنواعه مثل الإسطرلاب المسطح والدائري والتام والهلالي والقوس وغيرها. ومن الجدير ذكره بأن محمد بن إبراهيم الغزاري هو أول من عمل الإسطرلاب وفي هذا يمكن القول بأن فضل العرب في هذا المجال يظهر واضحا في ثلاث نقاط رئيسة وهي:

1- حفظ العلوم الفلكية القديمة.

2- توسيع هذا العلم والقيام باكتشافات مهمة في هذا المجال.

3- اتباعهم طريقة البحث الاستقرائي في هذا المجال، ففتحوا طريق البحث العلمي الحديث فضلا عن استقلالية الأبحاث الرياضية والفلكية في الحضارة العربية وبعدها تدريجيا عن مصادرها ومنابعها الأصلية. وكان الإبداع العربي في أوج عظمته في الزمن الممتد من منصف القرن العاشر إلي منتصف القرن الحادي عشر الميلادي.

أ. د.خالد أحمد كريم السامرائي
مركز إحياء التراث العلمى العربي
جامعة بغداد



صورة تمثل الأبراج
من مخطوط بالمتحف
التركي والإسلامي
باستنبول

المصدر : منارات الحضارة العربية ص 185

الإصطرلاب : القرن السادس عشر هجرى

المصدر الفن العربى الإسلامى :جـ 3 , صـ 122



برج العذراء من كتاب «صور الكواكب الثابتة» للصوفي (400هـ/1009م) - مكتبة بودليان - أكسفورد

المصدر: منارات الحضارة العربية ص 62

المصادر والمراجع

1 - المصادر المخطوطة:

- **أبو كامل،** شجاع بن أسلم ت نحو 340هـ/951م
الجبر والمقابلة، نسخة مصورة لمخطوطة، من منشورات معهد تاريخ العلوم العربية الإسلامية، (مركز إحياء التراث العلمي العربي، بغداد).
- **الطرطوشي،** أبو بكر محمد بن الوليد ت 520هـ/ 1126م
فصل الخطاب في علم الحساب مخطوطة، نسخة مصورة في خزانة مكتبة الأوقاف، حلب رقم 1775.
- **القلصادي،** أبو الحسن علي بن محمد ت 891هـ/1539م
د.ت المبتدئ بالقلم الهندي، نسخة مصورة كلية الآداب، جامعة بغداد.

2 ـ المصادر المطبوعة:

- **ابن حزم** علي بن محمد بن صالح ت 456هـ/1063م
د.ت رسائل ابن حزم، تحقيق : إحسان عباس، القاهرة، بغداد.
- **ابن خلدون** عبد الرحمن بن محمد ت 808هـ/1405م
1978 المقدمة، بيروت.
- **ابن النديم** محمد بن إسحاق الوراق ت 438هـ/1047م
1971 الفهرست، تحقيق رضا تجدد، طهران.
- **الإقليدسي،** أحمد بن إبراهيم ت بعد 341هـ/ بعد 952م
1967 الفصول في الحساب الهندي، تحقيق أحمد سعيدان، عمان.
- **البوزجاني،** أبو الوفاء محمد بن محمد ت 388هـ/988م
1979 ما يحتاج إليه الصانع من علم الهندسة، تحقيق صالح أحمد العلي- مطبعة جامعة بغداد.
- **البيروني،** أبو الريحان محمد بن أحمد ت 440هـ/1048م
1978 استخراج الأوتار في الدائرة بخواص المنحني فيها. تحقيق أحمد سعيد الدمرداس، مصر.
- **الخوارزمي:** محمد بن موسى ت بعد 232هـ/ بعد 846م
1939 الجبر والمقابلة، تعليق علي مصطفى مشرفة، ومحمد مرسي أحمد، الجامعة المصرية.
- **الفارابي،** محمد بن محمد بن طرخان ت 339هـ/950م
1983 إحصاء العلوم، تحقيق الدكتور عثمان أكرم، القاهرة.
- **القفطي،** جمال الدين علي بن يوسف بن إبراهيم ت 646هـ/1248م
1320هـ تاريخ الحكماء، بغداد.

3 ــ المراجع العربية والمعرّبة :

- **باقر**، طه :
1980 موجز في تاريخ العلوم والمعارف في الحضارات القديمة والحضارة العربية الإسلامية، بغداد.
- **بوير**، كارل
1968 تاريخ الرياضيات، نيويورك.
- **الحلبي**، عبد القادر الحلاق
د.ت فضل الخطاب في علم الحساب، نسخة مصورة، مركز إحياء التراث العلمي العربي، حلب.
- **الحميدة**، سالم محمد
1985 الأرقام العربية ورحلة الأرقام عبر التاريخ سلسلة الكتب الحديثة.
- **خليل**، ياسين
1980 العلوم الطبيعية عند العرب، جامعة بغداد.
1978 التراث العلمي العربي، بغداد.
- **راشد**، رشدي
1989 تاريخ الرياضيات العربية بين الجبر والحساب، بيروت.
- **روم**، لاندو
1962 الإسلام الغرب، ترجمة منير البعلبكي، بيروت.
- **السامرائي**، خالد أحمد
1991 الرياضيات العربية وأثرها على أوربا،مجلة الاستشراق عدد 5، بغداد.
1996 الأصالة العربية لبعض المواضيع الرياضية، مجلة كلية التربية للبنات، العدد 7، بغداد.
- **سزكين**، فؤاد :
1984 محاضرات في تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت.
- **سيدو** :
1969 تاريخ العرب العام، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة.
- **شربل**، موريس
1989 الرياضيات في الحضارة الإسلامية، طرابلس.
- **الصالحي**، رشيد عبد الرزاق :
1989 الفلك وأثره في الحضارة العربية دراسات علم الفلك عند العرب، مركز إحياء التراث العلمي العربي، بغداد.
- **طوقان**، قدري حافظ:
1963 تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، بيروت.
- **الظاهر**، محمد واصل:
1958 نظرية التوازي وأثر العرب فيها، المجمع العلمي العراقي، المجلد الخامس.
- **عبد الرحمن**، حكمت نجيب:
1977 دراسات في تاريخ العلوم العربية، الموصل.
- **عبد اللطيف**، علي إسحق :
1993 ابن الهيثم : عالم الهندسة الرياضية، دراسة وتحقيق، الأردن.

1986 تثليث الزاوية بالتقارب، مجلة المجمع العلمي العراقي، ج4، مجلد 39.

- **فروخ**، عمر

1970 تاريخ العلوم عند العرب، بيروت.

- **نصير**، عبد المجيد

1990 الرياضيات في الحضارة الإسلامية، "ندوة التراث العلمي العربي في العلوم الأساسية"، ليبيا.

- **المنشداوي**، خضير عباس

1990 تاريخ علم الرياضيات عند العرب، أطروحة دكتوراه، جامعة بغداد.

- **نللينو**، كارل

1911 علم الفلك، تاريخه عند العرب في القرون الوسطى، روما

- **هوارد**، ايفر

1986 مقدمة في تاريخ الرياضيات، ترجمة خالد احمد السامرائي، بغداد.

- **هونكه**، زغريد

1980 شمس العرب تسطع على الغرب، مترجم، دار الأفاق الجديدة، بيروت

4 ــ الكيمياء

يتضمن بحثنا في الكيمياء العربية جميع المعارف الكيميائية العربية التي سبقت الكيمياء الحديثة. ويشمل ذلك علم الصنعة والكيمياء الصناعية. وعلم الصنعة علم نظري وعملي في آن واحد، وكان يهدف إلى تحويل الفلزات – كالحديد والنحاس والرصاص – إلى الذهب والفضة عن طريق المعالجات الكيميائية وبمساعدة الإكسير. أما الكيمياء الصناعية فهي تبحث في كيفية الحصول على المنتجات الصناعية باستخدام العمليات الكيميائية. فبحثنا إذن يشكل فصلا في التاريخ العام للكيمياء قديمها وحديثها، ولا يشمل الكيمياء الباطنية أو الخفية.

أصل كلمة الكيمياء :

وردت كلمة كيمياء لأول مرة في عام 296 ميلادية ضمن قرار للإمبراطور الروماني ديوكليسيان (ديوكليتيان – Diocletian) بإحراق كتب "كيميا" المصرية التي تبحث في صنع الذهب والفضة. وهذه الكلمة مشتقة على الأرجح من اسم مصر وليست يونانية. ويذكر بلوتارخ (بلوتاري– فلوطرخس – Plutarch) في رسالة كتبها في عام 100 ميلادية أن مصر تسمى "كيميا" بسبب لون تربتها السوداء. وهناك من يقول : إن الكلمة مشتقة من اليونانية، بل إن أحدهم رجعها إلى أصل صيني.

وكلمة الكيمياء العربية انتقلت إلى الغرب اللاتيني، وأصبحت كلمة alchemy الآن مخصصة في اللغات الأوروبية؛ للدلالة على علم الصنعة أي كيمياء القرون الوسطى، ومن هذه الكلمة جاءت كلمة chemistry وما يماثلها في اللغات الأوروبية للدلالة على الكيمياء الحديثة. وقياسا على ذلك عمد بعض المؤلفين العرب المحدثين إلى محاولة التمييز بين الكيمياء القديمة والحديثة، فأطلقوا اسم الخيماء او السيمياء مرادفاً لكلمة alchemy، وهي تسميات لا مبرر لها؛ فنحن نقول : الطب القديم والطب الحديث، ولا يختلف الأمر عندما نبحث في الكيمياء، قديمها وحديثها. ومع أن كلمة الكيمياء هي الاسم الغالب على هذا الفرع من العلوم إلا أن الكيميائيين العرب أطلقوا على هذا العلم اسم علم الصنعة أو الصنعة وكانوا يشيرون إلى الكيميائى بصاحب الصنعة أو صاحب الحكمة وكان يطلق على الكيميائيين أحيانا اسم الحكماء. وسوف نستخدم تسمية علم الصنعة مرادفاً لكلمة alchemy كلما اقتضى الأمر ذلك.

السابقة للإسلام :

يتفق معظم مؤرخي العلوم على أن علم الكيمياء نشا وتطور في وادي النيل، كما أنه كان يمارس في سورية وبلاد ما بين النهرين وفارس. وقد أصبحت الكيمياء موضوعا متميزا في مدينة الإسكندرية في بداية التاريخ الميلادي. ومع أن لغة معظم رسائل الكيمياء المترجمة إلى العربية كانت اليونانية فإنه من الخطأ القول بأن هذه الكيمياء كانت يونانية. لأن معظم سكان

الإسكندرية من المصريين بالدرجة الأولى مع جاليات من السوريين واليونانيين. وكانت اللغة اليونانية هي لغة الثقافة. والتقت في المدينة الخبرات العملية المصرية في العدانة والصباغة وصنع الزجاج مع التأملات الفلسفية القديمة اليونانية والبابلية. ومن الأهمية بمكان كبير أن نلاحظ أن أهم رسائل الكيمياء المدونة باليونانية تم العثور عليها في صعيد مصر، وأن زوسيموس كان من أبناء أخميم من بلاد الصعيد.

في القرون الأولى من التاريخ الميلادي تعددت الفرق الغنوسطية، وهبط مستوى الفلسفة إلى نوع من التصوف والأفكار الباطنية والإيمان بالقوى الخفية والسحر. وتحت تأثير الأفكار النظرية حول طبيعة المادة اكتسبت الفنون العملية في تقليد المعادن وتزييف الأحجار الكريمة والأصبغة صفة جديدة، وهي صفة الفن الإلهي أو الفن المقدس لصنع الذهب والفضة.

نجد في أعمال الكيميائيين أصحاب الصنعة العرب الأوائل مقتطفات كثيرة منسوبة إلى أشخاص سابقين للإسلام؛ وهناك رسائل كيمائية عربية منسوبة إليهم. وقد تناول الباحثون هذه الأعمال بالدرس، وتبين أن معظمها منسوب إلى مؤلفين مزعومين. من هؤلاء المؤلفين الكيميائيين المزعومين : هرمس وأفلاطون وموسى ومارية وفيثاغورس وسقراط وأرسطو ومهراريس وأغاثودمون واسطانس وهرقل وأرس وثيودورس وكليوباطرة (قلوبطرة) وإيزيس وقراطيس ومرقونس وجاماسب وأندريا وفرفوربوس وغيرهم كثيرون، وهم أشخاص ينتمون إلى مواطن مختلفة، مثل مصر وسورية وبلاد ما بين النهرين وفارس واليونان وآسيا الصغرى. وقد أورد سزكين كشفا بالرسائل العربية المنسوبة إلى كل من هؤلاء المؤلفين المزعومين. ومن المرجح أن هذه الأعمال تم تزييفها قبل الإسلام، وأنها ترجمت من اليونانية أو السريانية إلى العربية. ومن أنصار هذا الرأي ستابلتون وسزكين وآخرون؛ وهناك من يظن أنها زيفت من قبل مؤلفين عرب بعد الإسلام. وهذه الأعمال المزيفة المترجمة هي المصدر الرئيس الذي استندت إليه الكيمياء الصنعوية العربية.

وقد فقدت معظم الأصول اليونانية، ولم يصل منها إلا النزر اليسير؛ ومن النصوص المتبقية نص يوناني منسوب إلى الكيميائي المصري بولص ديموقريطس المنديسي (من منديس المعروفة الآن بتل الربعة في الدلتا المصرية) في القرن الثاني قبل الميلاد.

وقد عثر في أحد المقابر في الأقصر في صعيد مصر (**Thebes**) على نصوص كيميائية باليونانية مكتوبة على ورق البردي تعود إلى حوالي عام **300** بعد الميلاد. وهذه الأوراق موزعة بين لايدن وستوكهولم. على أن أهم النصوص اليونانية المتبقية هي تلك المنسوبة إلى الكيميائي المصري زوسيموس من مدينة إخميم في الصعيد الذي ربما عاش ما بين **350** و**420** بعد الميلاد. وقد جمّع زوسيموس الأعمال السابقة له، وذكر أسماء العديد من المؤلفين المزعومين الذين أشرنا إليهم، مثل هرمس وأسطانس ومارية.

ونظرا لندرة المخطوطات اليونانية وغزارة الرسائل العربية المترجمة فإن المصدر الرئيس لدراسة الكيمياء السابقة تبقى المصادر العربية. ونظرا لأن معظم الباحثين الغربيين لا يلمون بالعربية فإن هذه الدراسة الجادة لم تبدأ بعد.

تعتبر الأعمال المنسوبة إلى هرمس من أهم مصادر الكيمياء العربية؛ وأصبح اسمه رمزا لها؛ ونتيجة لترجمة الأعمال العربية إلى اللغة اللاتينية انتقلت شهرته إلى الغرب أيضا وأصبح المصطلح العربي :" هرمس المثلث بالحكمة" بنصه اللاتيني **Hermes Trismegistus** هو المصطلح الدارج. ومن أبرز الأعمال المنسوبة إليه رسالة اللوح الزمردي **Tabula Smaragdina** التي وصلت إلى الكيميائيين العرب عن طريق ترجمة كتب مختلفة، وقد ورد أحد هذه النصوص في نهاية كتاب سر الخليقة لباليناس (ابولونيوس التياني). وقد ترجم نص اللوح الزمردي من العربية إلى اللاتينية، واحتل مكانة بارزة بين الآداب الهرمسية.

وحول هرمس المثلث بالحكمة تقول المصادر العربية : إن هرمس الأول هو النبي إدريس الذي جاء قبل الطوفان، وشيد الأهرام في مصر.

أما هرمس الثاني فهو من بابل، وقد عاش فيما بين النهرين بعد الطوفان أبدع الكثير من العلوم والصناعات. وهذه الشخصيات الثلاث لهرمس مجتمعة هي مصدر الكيمياء والفلك والتنجيم والفلسفة والعلوم الأخرى.

وقد ساعد باليناس (ابولونيوس التياني، من بلدة تيانا في كليكيا الواقعة جنوبي الأناضول والمتاخمة لسورية) على نشر الحكمة الهرمسية، ويعتبر كتابه سر الخليقة تعليقا موسعا على رسالة اللوح الزمردي.

نشأة الكيمياء الصنعوية العربية وخالد بن يزيد :

كان خالد بن يزيد أول عربي اشتغل بعلم الصنعة أو الكيمياء. ولا نعرف سنة ولادته بدقة، لكننا نعلم أنه لم يتول الخلافة عند وفاة أخيه معاوية بن يزيد في عام **683/64** بسبب حداثة سنه. وحدد بعضهم سنة وفاته بعام **84** أو **90** هجرية (**703** أو **708** ميلادية).

ويقول ابن النديم : إن خالدا استدعى عدداً من العلماء اليونانيين ممن تفصح بالعربية من مصر، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة إلى اللسان العربي. وقد تعلّم خالد الصنعة على يد مريانس الراهب، وكان أسكندرانيا من أتباع الكنيسة الملكية الموالية لأباطرة الروم، كما كان تلميذا للكيميائي اصطفن الإسكندراني. وتروي "رسالة مريانس الراهب الحكيم للأمير خالد بن يزيد" كيف استدعى خالد مريانس وتورد الحوار الذي جرى بينهما. وذكرت المصادر العربية القريبة العهد بخالد خبر اشتغاله بالكيمياء. فقد أورد جابر ابن حيان مثلا في كتاب الراهب قصة استدعاء خالد لمريانس. وذكر الجاحظ في كتابه البيان والتبيين أن خالد بن يزيد ابن معاوية "كان خطيبا وشاعرا كما كان فصيحا جامعا جيد الرأي كثير الأدب، وكان أول من ترجم له

كتب النجوم والطب والكيمياء". ويحتل خالد مكانة عالية بين الكيميائيين العرب ولا تكاد تخلو كتب الكيمياء العربية من الاستشهاد بكتاباته وأشعاره في علم الصنعة، وهو يحتل أيضا نفس المكانة العالية في الكيمياء الأوروبية، وقد شكك روسكا في حقيقة اشتغال خالد بالكيمياء، ولكن سزكين دحض هذه المزاعم، استنادا إلى المراجع التاريخية والأدبية.

الكيميائيون العرب الصنعويون :

بعد اشتغال خالد بن يزيد بالكيمياء – وبعد إنجاز العديد من ترجمات الأعمال الكيميائية إلى العربية – ظهر الكثيرون من العلماء العرب الصنعويين، ونحن نذكر أهم هؤلاء على حسب تسلسل تواريخ ظهورهم. ونتبع ذلك بذكر أهم العلماء الذين خلفوا أعمالا في الكيمياء دون أن يؤمنوا بإمكانية تحويل الفلزات، كذلك الذين خلفوا أعمالا في الكيمياء الصناعية. ونورد في ملحق هذا الفصل عرضا لنظرية الكيمياء العربية الصنعوية، كما وردت في كتاب (العلم المكتسب في زراعة الذهب) لأبي القاسم العراقي.

جعفر الصادق :

هو أبو عبد الله جعفر الصادق ابن محمد بن علي زين العابدين(ت عام 148هـ/765م) سادس أئمة الشيعة، وكان أستاذا لجابر بن حيان. وقد ذكره جابر في الكثير من كتبه. وتوجد عدة رسائل منسوبة إليه، وليس من المؤكد أنه كتبها بنفسه بل قد تكون قد جمعت أو حررت من قبل تلاميذه.

جابر بن حيان:

هو أعظم الكيميائيين الصنعويين العرب، بل هو أعظم الصنعويين في الشرق والغرب حتى قيام الكيمياء الحديثة. هو أبو موسى جابر بن حيان الصوفي، ويشار إليه أيضا بالأزدي الكوفي الطوسي. ولد حوالي عام 103هـ/721م في طوس من أعمال خراسان عندما كان والده مقيما هناك، وتوفي في عام 200هـ/815م في الكوفة، وهو من قبيلة الأزد العربية، وكانت الكوفة موطنه الرئيس. ويعرف بالصوفي لأنه كان ينتمي إلى إحدى الفرق الصوفية.

بعد وفاة والده تم إرساله إلى الجزيرة العربية حيث تتلمذ على حربي الحميري على حسب ما يقول جابر في بعض كتبه، وقد درس القرآن والرياضيات وعلوما أخرى، بالإضافة إلى اللغة الحميرية، ويذكر جابر أيضا في كتبه أنه تتلمذ في علم الصنعة على يد راهب كان تلميذا لمريانس أستاذ خالد بن يزيد.

لا نعرف تفاصيل حياة جابر في مراحلها الأولى، ولكننا نعرف أنه كان صنعويا لدى بلاط هارون الرشيد وكان صديقا شخصيا للإمام جعفر الصادق الإمام السادس للشيعة. ونجد في كتب جابر الكثير من عبارات الحب والاحترام العميق الذي كان يُكِنُّهُ لجعفر الصادق، حيث يشير إليه دائما بلقب "سيدي". وكان جابرا على علاقة جيدة بالبرامكة وزراء الخلفاء العباسيين. وكان الوزير جعفر البرمكي هو الذي قدمه للخليفة هارون الرشيد، حيث ألف جابر له احد

كتبه في علم الصنعة. وبعد نهاية البرامكة عام 187هـ/803م أقام جابر في الكوفة معتزلا حتى توفي. وقد وجدت تحت وسادته لدى وفاته مخطوطة كتاب الرحمة.

يعود الفضل إلى مؤرخ الكيمياء هولميارد في الكشف عن شخصية جابر التاريخية وتوضيح منزلته الرفيعة وبيان إسهامه في تطوير الكيمياء إلى علم تجريبي، وتبين لهولميارد أن أهمية جابر تتساوى مع أهمية بويل ولافوازيه.

أورد ابن النديم في كتابه بيانا بمؤلفات جابر. معتمدا على فهرسين من أصل ثلاثة فهارس وضعها جابر بنفسه : أحدها بكامل مؤلفاته، وثانيها بالكتب الصنعوية، ويقول ابن النديم : أنه اختار من الفهرسين تلك الكتب التي رآها بنفسه أو التي شهد له فيها العلماء الثقاة.

هناك عدد ضخم من الكتب المنسوبة إلى جابر. وقد أورد بول كراوس كشوفا مفصلة بها سواء ما وصل إلينا منها أم لم يصل. ثم جاء سزكين وأضاف إلى جداول كراوس عددا آخر.

وترجع شهرة جابر إلى إنجازاته في علم الصنعة، ولكنه وضع مؤلفات عديدة في الطب وعلم الطبيعة والرياضيات والفلسفة وفروع العلم المعروفة في زمنه.

وقد تناول مؤرخو الكيمياء الأعمال التي تحمل اسم جابر بالبحث، وأصبح من المرجح الآن أن قسما منها ألفه جابر بنفسه، وأن القسم الآخر ألفه آخرون ونسبوها إليه؛ وأنه تم تأليف المجموعة الجابرية كاملة في الفترة الممتدة من القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي حتى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي.

ويبدو أن أهم كتب المجموعة الجابرية هي الآتية :

1. مجموعة الكتب المائة والإثنى عشر كتابا؛ ويوجد قسم منها وهو الأقل، ولم يتم العثور على القسم الأكبر حتى الآن.
2. كتاب السبعين، وقد ترجم قسم كبير منه إلى اللغة اللاتينية.
3. مجموعة كتب الموازين ويبلغ عددها **144** رسالة، لم يصل منها إلا العدد الأقل.
4. مجموعة كتب المصححات وهي عشرة رسائل تتضمن انتقادات وتصحيحات جابر لعلوم بعض القدامى والمعاصرين بما في ذلك علومه هو. ولم يصل منها سوى كتاب واحد، وعرف البعض الآخر عن طريق الاقتباسات.

لا تمثل هذه القائمة كل الأعمال المهمة لجابر، ذلك أن الأعمال العربية التي وصلت إلينا لم تدرس بعد، ولا يزال معظمها مخطوطا، كما أن قسما مهما لا يزال مفقودا ومن المحتمل أن يتم العثور على بعض الكتب المفقودة بين الحين والآخر.

ومن الأعمال المهمة المفقودة أصولها العربية خمس رسائل باللغة اللاتينية منسوبة إلى جابر**Geber**؛ وقد دعا ذلك بعض مؤرخي الكيمياء إلى نسبة هذه الأعمال إلى مؤلف لاتيني مزعوم، كما سوف نبين فيما بعد.

ذو النون:

كان أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم المصري المعروف بذي النون صوفيا؛ وكان صنعويا شأن العديد من الصوفيين. ولد نحو 180هـ /796م وتوفي في 246هـ /861م. أورد ابن أميل مقتطفات من أعماله في كتاب الماء الورقي، واقتبس عنه كثير من الكيميائيين اللاحقين؛ وذكر ابن النديم بعض أعماله. ويعود الفضل إلى ستابلتون في الكشف عن ثمانية رسائل منسوبة إليه.

أبو بكر الرازي :

يعتبر الرازي أعظم الصنعويين العرب بعد جابر، إلى جانب شهرته كأحد أعظم الأطباء، وإلى مكانته المرموقة في الفلسفة. عرف في الغرب اللاتيني باسم **Rhazes**. وكان له أثره البالغ هناك في تطور علم الكيمياء، شأنه في ذلك شان جابر **Geber**؛ وذلك إلى جانب مكانته العالية في تقدم العلوم الطبية في الغرب.

ولد أبو بكر محمد بن زكريا الرازي في الري حوالي عام **250**هـ /**864**م، وتوفي في عام **313**هـ /**925**م أو ربما **323**هـ /**935**م. تلقى علومه في الري ووجه اهتمامه فيما بعد إلى الطب حيث اشتهر كطبيب وتولى رئاسة مستشفى الري، ثم مستشفى بغداد. كان معلما ناجحا في تدريس الطب ومن أشهر كتبه في الطب كتاب المنصوري وكتاب الحاوي، وقد ترجما إلى اللاتينية، وبقيا من المراجع الرئيسة في بعض جامعات الغرب حتى القرن السابع عشر الميلادي.

وقد اهتم الرازي أيضا بعلم الصنعة شأن معظم الأطباء في ذلك العصر، واشتهر فيها وألف فيها عددا من الكتب المهمة. اشتهر الرازي بقصر عبارات الوصفات التجريبية، واختصار التعبير في وصف المواد والأدوات، وتنحو كتاباته منحى تجريبيا، وتعتبر من هذه الناحية خطوة مهمة باتجاه الكيمياء الحديثة.

أورد له سزكين ثلاث عشر رسالة في علم الصنعة باللغة العربية، معظمها موجود، وتسعة رسائل باللغة اللاتينية، وأشهر الرسائل العربية كتاب الأسرار، وكتاب سر الأسرار، وكتاب المدخل التعليمي. ومن الرسائل التي لم تصل كتاب إثبات الصنعة والرد على من أنكرها.

سوف نعود إلى ذكر تصنيف الرازي للمواد والتجهيزات المخبرية والتدابير الكيميائية فيما بعد.

ابن أميل :

هو أحد أبرز الصنعويين الرمزيين الذين أصبح نوع الكيمياء الباطنية التي يمثلها مثار اهتمام علماء التحليل النفسي المعاصرين.

هو أبو عبد الله محمد بن أميل التميمي عاش في مصر في النصف الأول من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. ترك عددا من الرسائل والقصائد في الصنعة، ومن أشهرها قصيدة "رسالة الشمس إلى الهلال" وقد أتبعها بشرح للقصيدة بعنوان "الماء الورقي والأرض النجمية"، وقد ترجم كل منهما إلى اللغة اللاتينية، وأصبح ابن أميل الذي يعرف باللاتينية باسم **Senior**

Zadith Filius Hamuelis أحد أساطين الكيمياء الباطنية في الغرب. وقد أورد ابن أميل في رسالة الماء الورقي مقتطفات من الأعمال المنسوبة إلى عدد كبير من الصنعويين القدامى السابقين للإسلام وأورد كذلك مقتطفات من أعمال خالد بن يزيد وذي النون وجابر بن حيان.

أبو مسلمة المجريطي :

هو أبو مسلمة محمد بن إبراهيم بن عبد الدائم المجريطي. من مجريط (مدريد) في الأندلس، كان حيا في النصف الأول من القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م، وهو غير الفلكي المعروف أبو القاسم مسلمة بن أحمد المجريطي المتوفي حوالي 398هـ /1008م. وهناك التباس بين الاثنين بسبب التشابه بين اسميهما. وكان من المعلوم حتى وقت قريب أن مسلمة بن أحمد هو الكيميائي وممن اعتقدوا ذلك الجلدكي وابن خلدون.

ألف ابو مسلمة عدة أعمال في علم الصنعة والسحر. وأشهر كتبه في الصنعة هو كتاب رتبة الحكيم ومدخل التعليم وهو كتاب متميز في أنه يعطي معلومات صحيحة وواضحة عن كيفية تنقية الذهب والفضة، ويذكر بعض العمليات الكيمائية الدقيقة.

والكتاب الثاني الذي ألفه أبو مسلمة بعد انتهائه من تأليف رتبة الحكيم هو كتاب غاية الحكيم، وهو كتاب في السحر، وقد ترجم إلى اللغة الإسبانية، ثم إلى اللغة اللاتينية واكتسب النص اللاتيني المعروف باسم **Picatrix** شهرة واسعة.

الطغرانـــــــــي :

هو مؤيد الدين أبو إسماعيل الحسين بن علي الطغراني، الشاعر المبدع والكيميائي الصنعوي. ولد في أصفهان عام 453هـ /1061م وأصبح أحد وزراء الدولة السلجوقية. وقد أعدم ظلما على حسب رأي المؤرخين عام 516هـ/1122م إبان الصراع بين الأمراء السلجوقيين. وقد اشتهر كشاعر، وله ديوان مطبوع ولقيت قصيدته لامية العجم شهرة كبيرة وتناولها الأدباء اللاحقون بالشرح والتعليق، وطبعت مرات عديدة، وترجمت إلى اللاتينية مرتين، ثم إلى الإنكليزية، وربما كانت هذه القصيدة أول عمل أدبي عربي يتعرف الغرب عليه.

اشتهر الطغراني كذلك كصنعوي غزير الإنتاج. ومن أشهر أعماله كتاب حقائق الاستشهاد الذي ألفه عام 505هـ/1112م، ورد فيه على ابن سينا الذي عارض علم الصنعة. ومن أعماله المهمة أيضا كتاب مفاتيح الرحمة ومصابيح الحكمة. وقد كان الجلدكي من المعجبين به فهو في نظره أهم الصنعويين بعد جابر، وكان يشير إليه دائما بلقب الشهيد.

ابن أرفع رأس:

هو أبو الحسن علي بن موسى الجياني الأندلسي المعروف باسم ابن أرفع رأس، عاش في فاس وتوفي فيها عام 593هـ/1197م. كان

صنعويا رمزيا على غرار خالد بن يزيد وابن أميل والطغرائي. اشتهر بقصيدته الصنعوية البليغة شذور الذهب المؤلفة من 1460 بيتا وهي على شكل أراجيز ذات قوافٍ شملت حروف الهجاء كافة. وقد شرح هو القصيدة كما تناولها الآخرون

بالشرح، ومن أبرزهم الجلدكي.

أبو القاسم العراقي:

عاش أبو القاسم أحمد بن محمد العراقي السماوي في منتصف القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي في العراق. ومن أشهر أعماله كتاب العلم المكتسب في زراعة الذهب الذي يعطي عرضا جيدا لعلم الصنعة العربي واستوجب ذلك أن يخصص الجلدكي له شرحا مطولا بعنوان نهاية الطلب في شرح المكتسب. وفي عام 1923م حقق هولميارد كتاب العلم المكتسب ونشره مع ترجمة إنكليزية (انظر الملحق الذي يعطي شرح العراقي لنظرية علم الصنعة).

الجلدكي:

هو عز الدين أيدمر بن علي الجلدكي، عاش في كل من القاهرة ودمشق، وتوفي في القاهرة في عام 743هـ/1342م. يعتبر من أبرز الصنعويين العرب، ولكن أهميته تعود إلى الشروح والتعليقات المسهبة التي دونها في مجلدات عديدة لبعض أعمال جابر وابن أميل وابن أرفع رأس والطغرائي وذي النون وأبي القاسم العراقي وغيرهم، وإلى الاستشهادات التي وردت في كتبه المأخوذة من أعمال الكيميائيين السابقين للإسلام والكيميائيين العرب. ويمكننا أن نكتب تاريخا كاملا للكيمياء العربية من دراسة أعماله فقط. ويقول الجلدكي : إنه أمضى سبعة عشر عاما في دراسة كتب علم الصنعة كافة قبل أن يشرع في تدوين كتبه، وفي أثناء ذلك زار العديد من أقطار العالم الإسلامي والتقى بالمشتغلين بعلم الصنعة.

ونظرا لضياع بعض كتب الكيمياء القديمة فإن كتب الجلدكي تقدم لنا معلومات مهمة للغاية عن محتواها.

وضع الجلدكي ما لا يقل عن خمسة وعشرين كتابا، يقع قسم منها في مجلدات ضخمة للغاية. ولم تتم دراسة هذه الأعمال بعد. ومن أهمها كتاب نهاية الطلب في شرح المكتسب وكتاب البرهان في أسرار علم الميزان، وكتاب غاية السرور في شرح الشذور وكتاب أنوار الدرر في إيضاح الحجر.

صنعويون لاحقون :

استمر الاهتمام بعلم الصنعة حتى القرون الأخيرة، ومن أبرز الصنعويين بعد الجلدكي علي بك الإزنيقي المعروف أيضا بعلي جلبي أو المؤلف الجديد، وقد عاش في القرن التاسع هـ/ الخامس عشر م ، ونسبته تعود إلى إزنيق في الأناضول. وقد حذا حذو الجلدكي، وله عدة أعمال جيدة، منها كتاب كشف الأسرار في هتك الأستار. ومن الصنعويين المتأخرين ذوي الإنتاج الجيد حسن آغا سردار، عاش في النصف الثاني من

القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي وهو من جرجا في صعيد مصر.

المؤلفون في الكيمياء العملية غير الصنعوية :

ظهرت على مدى امتداد العهود أعمال عديدة تبحث في الكيمياء العملية والصناعات الكيميائية، ويجب أن نتذكر أن كتب ورسائل الكيمياء الصنعوية تبقى معينا لا ينضب في الكيمياء العملية، من حيث المواد والعمليات والتدابير والتجهيزات المخبرية، بل إنها هي مصدرنا الرئيس. ولكن هناك أعمالا كتبت خارج نطاق علم الصنعة، وسوف نذكر أهم المؤلفين ومؤلفاتهم.

الكندي:

هو فيلسوف العرب أبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندي من أعظم علماء الإسلام وفلاسفتهم. ربما عاش بين 185-252هـ/801-866م. ولسنا هنا بصدد بيان مكانته العلمية، ولكننا نبحث فقط في أعماله ذات الصلة بالكيمياء. ومن هذه الأعمال رسالة في أنواع الجواهر الثمينة؛ رسالة في أنواع الحجارة؛ ورسالة في تلويح الزجاج؛ ورسالة فيما يصبغ فيعطي لونا؛ ورسالة في أنواع السيوف والحديد؛ ورسالة فيما يطرح على الحديد والسيوف حتى لا تتثلم ولا تكل؛ ورسالة في التنبيه على خدع الكيميائيين؛ ورسالة في كيمياء العطر؛ ورسالة في العطر وأنواعه. ورسالة في صنع أطعمة من غير عناصرها ورسالة في كيمياء الطبيخ.

الهمداني :

أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني، من علماء جنوبي الجزيرة العربية؛ اشتهر كعالم لا يضاهي في آثار جنوبي الجزيرة العربية وتاريخها القديم وجغرافيتها. ولد الهمداني في صنعاء في حوالي 280هـ/893م، وتوفي فيها - على حسب بعض الروايات في عام 334هـ/945م- وفي روايات أخرى بعد عام 360هـ/970م. وإلى جانب كتاب الإكليل وأعماله الأخرى فقد وضع كتابا عن الذهب والفضة تحت عنوان "كتاب الجوهرتين العتيقتين"، وهو فريد من نوعه من الناحية التكنولوجية، وقد تم تحقيقه ونشره مع ترجمة إنكليزية.

البيروني :

أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني احد أعظم علماء الإسلام. ولد في عام 362هـ/973م في خوارزم. وتوفي بعد عام 442هـ /1050م في غزنة على الأرجح وضع البيروني كتابا مهما عن الحجارة الثمينة والفلزات، وهو كتاب الجماهر في معرفة الجواهر، وهو كتاب رفيع المستوى يحتوي على معلومات مهمة في علم العدانة.

المعز بن باديس :

هو أبو تميم شرف الدولة المعز بن باديس رابع ملوك الزيريين، في أفريقية (تونس). تولى الحكم خلال الفترة الممتدة بين 407هـ/1062م-454هـ/1062م تلقى ثقافة جيدة.

وكان العالم المعروف ابن أبي الرجال أحد أساتذته. وقد ضم بلاطه عددا من العلماء والأدباء المعروفين. وتنسب إلى المعز رسالة مهمة في صناعة الأحبار وصنع الورق، وهي رسالة عمدة الكتاب وعدة ذوي الألباب.

التيفاشي :

هو شرف الدين (أبو شهاب الدين) أبو العباس أحمد بن يوسف التيفاشي، ولد في تونس عام 580هـ/1184م وتوفي في مصر عام 651هـ/1253م. له أعمال معروفة في الأدب والموسيقى، ولكن أشهر كتبه هو كتاب أزهار الأفكار في جواهر الأحجار. وهو يصف 25 حجرا كريما من حيث أماكن وجودها وأنواعها وخصائصها ومنافعها وطرق العناية بها وغير ذلك. والكتاب يمتاز بالترتيب والدقة ويعد أفضل كتب الأحجار العربية.

الملك المظفر بن رسول:

هو الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول، تولى الحكم في اليمن من 638هـ/1249م حتى 695هـ/1295م، وهو ثاني ملوك بني رسول الذين اشتهروا بأنهم كانوا علماء، وقد خلفوا أعمالا في الطب وعلم الأدوية والزراعة والصناعات وكان الملك المظفر أحد هؤلاء الملوك العلماء وكان بلاطه يضم العديد من العلماء وأرباب الحرف الصناعية. ومن الأعمال التي خلفها كتاب المخترع في فنون من الصنع؛ ويحتوي هذا الكتاب على العديد من الوصفات الصناعية الكيميائية، مثل صناعة الصابون وغير ذلك.

الجوبري :

عاش زين الدين عبد الرحمن ابن عمر الدمشقي الجوبري في دمشق وتوفي فيها عام 630هـ /1232م. وقد اشتهر بكتابه المختار في كشف الأسرار وهتك الأستار. الذي حذر فيه الجمهور من الخدع بمختلف أنواعها بما فيها خدع الكيميائيين وبعض أصحاب الصناعات. وقد ألف الجوبري كتابه بين عامي 617هـ / 1220م و619هـ /1222م، وورد فيه ذكر البارود.

الإسكندري:

في نفس الوقت الذي وضع فيه الجوبري كتابه، ظهر كتاب آخر شبيه به إلى حد ما وهو كتاب الحيل البابلية للخزانة الكاملية. وضعه مؤلف لا نعرف عنه الكثير، وهو الحسن بن محمد الإسكندري الكوشي العبدري. ومعروف أن الملك الأيوبي الكامل الذي أهدي إليه الكتاب، تولى الحكم بين عامي 615هـ/1218م و 636هـ/1238م وتحمل أقدم نسخة تاريخ 632هـ/1234م، وهو يبحث في النيرنجات وهو في عصرنا نوع من أعمال السحر التي يقوم بها السحرة أمام الجمهور، وتعتمد على خفة اليد وخداع النظر واستخدام الخواص الفيزيائية والكيمياوية ومبادئ علمية مختلفة. ويبحث الكتاب أيضا في الحبر والليق وإزالة الكتابة وتلوين الورق.

أبو القاسم الكاشي :

وضع أبو القاسم بالفارسية أول رسالة من نوعها عن صناعة الخزف المعروف بالكاشاني في عام 700هـ /1300م؛ وقد تضمنت تفاصيل دقيقة عن كافة المواد اللازمة لصنع الكاشاني المزجج الملون والمزين بالرسوم وشرح طرق الصنع.

الرماح :

هو نجم الدين حسن الرماح المتوفى عام 638 /1294. كان "استاذا" في الفنون الحربية عاش في دمشق واشترك في الحروب الصليبية. له عدد من التأليف في فنون الحرب اهمها كتاب الفروسية والمناصب الحربية. ويحتوي الكتاب على اول وصف لتنقية ملح البارود (نترات البوتاس) وعلى عشرات من وصفات مسحوق البارود لأغراض السلم (الألعاب النارية) وأغراض الحرب في صنع الصواريخ والقذائف المتفجرة. ويحتوي الكتاب على عمليات التقطير وعلى النيرنجات.

وفي دراسة اجريت على وصفات مسحوق البارود لدى الرماح تبين ان النسب المئوية بين نترات البوتاس (ملح البارود) والكبريت والفحم لدى الرماح هي النسبة المثالية التي توصل إليها الغربيون بعد الرماح بعدة قرون.

الجدل حول صحة الصنعة :

بدء الجدل حول صحة علم الصنعة وإمكانية تحويل الفلزات إلى الذهب منذ ظهور هذا العلم. ومن مشاهير العلماء العرب والمسلمين الذين انكروا الصنعة الكندي والبيروني وابن سينا وابن خلدون وكثيرون غيرهم. من ذلك مثلا ان الكندي وضع رسالة في معارضة الصنعة عنوانها " ابطال دعوى المدعين صنعة الذهب والفضة من غير معادنها" وقد تصدى الرازي للرد على الكندي برسالة عنوانها "كتاب الرد على الكندي في رده على الصنعة". وفي حين نجد أن الفارابي وضع رسالة "في وجوب صناعة الكيمياء" فإن ابن سينا عارض الصنعة في كتاب الشفاء حيث يقول : " ليس في أيديهم ان يقلبوا الأنواع قلبا حقيقيا"، وقد رد عليه الطغرائي في رسالة خصصها لهذه الغاية وعنوانها "حقائق الاستشهاد".

والنص التالي من كتاب نهاية الطلب للجلدكي يصور الجدل الذي كان دائرا حول الموضوع حيث يلخص الجلدكي بعض الآراء للصنعة ثم يتصدى للرد عليها يقول : " إن مذهب الحكماء المتقدمين وجمهور المتأخرين هو ما ذكره الشيخ "أبو القاسم"، ان هذه الصور الست "للفلزات" نوع واحد حقيقي، ومنه الناقص ومنه التام لزوال المانع عن التام، ودخول العرض على الناقص، وهذا أصل دليل إمكان الصناعة وثبوتها. وأما من أنكرها وأبطلها، فلم يسلم ذلك مثل أبي علي بن سينا مع غزارة علمه وعلو فهمه، فإنه حجب عنها وأنكرها في كتابه المعروف بالشفا، إذ رأى أن كل واحد من هذه الصور الست نوع حقيقي بمفرده تحت جنس واحد وهو المعدن، مثل جنس النبات، وفيه

أنواع، ومثل جنس الحيوان وفيه أنواع، كما أنه لا يجوز أن يتحول الفرس كلباً ولا الإنسان طائراً، كذلك يمتنع أن تعود الفضة ذهباً أو أن ينقلب النحاس فضة والرصاص حديدا. فهذه شبهة أوردها وتكفل بالرد عليه والجواب عنها الشهيد مؤيد الدين الضغراي في كتابه حقائق الاستشهاد، واستشهد على الرئيس ابن سينا بكثير من كلامه في الشفا، وفي الحقيقة أن ابن سينا تحير فيها واضطرب، كما تحير واضطرب في المعاد، وفي بقاء النفس بعد فناء البدن".

وأما حنين بن إسحق فإنه رأى مثل ما رأى ابن سينا في ذلك. وأما أبو محمد بن حزم فإنه قال : أن صحة هذا العلم من قبيل السحر والتخييل، وإنه لا يمكن أن يصح لها وجود أصلاً بتعنيف وجهالة. وأما ابن تيمية فإنه رأى أن الصبغ ممكن، وأنه يزول بعد سبعين سنة.

العقاقير والآلات والتدابير في الكيمياء العربية :

تعد كتب الرازي – وعلى الأخص كتاب المدخل التعليمي وكتاب الأسرار – أفضل ما كتب عن عقاقير وآلات الكيمياء العربية؛ ونظراً لأسلوب العرض المنظم والموجز اعتبر مؤرخو العلوم الرازي أول رائد للكيمياء الحديثة. ويستند الموجز التالي بالنسبة للعقاقير والآلات إلى ما ورد في كتاب الأسرار وكتاب المدخل التعليمي بالدرجة الأولى، بالإضافة إلى ما ورد في المخطوطة الكرشونية: ونستند في بيان التدابير إلى القائمة التي صنفها أولمان بالرجوع إلى كتب الصنعة العربية.

أولاً – وهي ثلاثة : ترابية ونباتية وحيوانية:

والترابية ستة أنواع : أرواح، وأجساد، وأحجار؛ وزاجات؛ وبوارق؛ وأملاح.

والأرواح أربعة : زيبق؛ ونوشادر؛ كبريت؛ وزرنيخ.

والأجساد سبعة : الفضة؛ والذهب؛ والنحاس؛ والحديد؛ والقلعي؛ والأسرب؛ والخارصيني.

والأحجار ثلاثة عشر : المرقشيشا؛ والمغنيسيا؛ والدوص؛ والتوتيا؛ واللازورد؛ والدهنج؛ والفيروزج؛ والشادنج؛ والشك؛ والكحل؛ والطلق؛ والجبسين؛ والزجاج.

والزاجات سبعة : الأسود: والأصفر؛ والشب؛ والتنكار؛ والقلقديس؛ والقلقطار؛ والقلقند؛ والسوري.

والبوارق سبعة : بورق الخبز وهو أبيض قطاع؛ ومنه النطرون وهو أحمر؛ ومنه بورق الصاغة وهو الأبيض الشبيه بالسبخة التي تظهر في أصول الحيطان؛ ومنه الزراوندي؛ ومنه بورق الغرب ومنه التنكار، ومنه السبخة التي تظهر في أصول الحيطان (التي هي ملح البارود).

والأملاح أحد عشر : الحلو وهو ملح الطعام؛ والمر الذي يستعمله الصاغة : الطبرزد؛ الأندراني؛ الهندي؛ البيضي؛ ملح القلي؛ ملح البول؛ ملح النورة؛ ملح الرماد.

وذكرت المخطوطة الكرشونية سبعة أملاح فقط، منها ملح النطرون وملح نطرون النترا، وهذا الأخير هو الذي أصبح يعرف فيما بعد باسم ملح البارود.

العقاقير النباتية : يقول الرازي: إن هذه قَلَّمَا تستعمل باستثناء رماد الأشنان، وهو ملح القلي.

العقاقير الحيوانية وهي عشرة : الشعر؛ والقحف؛ والدماغ؛ والمرارة؛ والدم؛ واللبت؛ والبول؛ والبيض؛ والصدف؛ والقرن.

العقاقير المولدة التي لبست بأصلية : ذكر كتاب المدخل التعليمي عشرة أنواع وهي المرتك أو المرداسنج؛ وزعفران الحديد؛ والزنجار؛ والأسرنج؛ والزنجفر؛ والإسفيداج؛ والدوص، والشك؛ والتوتيا؛ والسكتة. وهناك أربعة أخرى من كتاب الأسرار وهي، خبث الفضة؛ والإقليميا؛ والروسختج؛ والمسحقونيا.

ثانياً – الآلات: وهي نوعان : نوع لتذويب الأجساد، ونوع لتدبير العقاقير.

آلات الذوب معروفة وهي : الكور؛ والمنفخ؛ والبوطقة؛ والماسك؛ والماشة؛ وبوط بربوط : والمقطع؛ والمكسر؛ والراط.

آلات تدبير العقاقير: القرع؛ والأنبيق؛ وذات الخطم؛ والقابلة؛ والقرع والأنبيق الأعمى؛ والآثال؛ والمستوقد؛ والأقداح؛ والقناني؛ والأقدار؛ والقوارير؛ والصلاية؛ والفهر؛ والأتون؛ والطابشدان؛ ونافخ نفسه؛ والراط؛ والدرج والكرة.

ثالثاً – التدابير : تبخير؛ وتبييض؛ وتجفيف؛وتجميد؛ وإحراق، وحرق؛ وتحليل، وحل؛ وتحمير؛ وتخنيق؛ وتذويب، وإذابة؛ وترخيم؛ وتركيب؛ وسحق؛ وتسويد؛ وتسييل؛ وتشميع؛ وتشوية؛ وتصدئة؛ وتصعيد؛ وتصفير؛ وتصفية؛ وتصويل؛ وطبخ؛ وتطهير؛ وتعريق؛ وتعفين؛ وتعقيد، وعقد؛ وغسل؛ وتفتيت؛ وتفريق؛ وتقرير؛ وتفطير؛ واقامة؛ وتكليس؛ وتلغيم، والغام؛ وتليين؛ وتمزيج، ومزاج؛ وتمسية؛ وتمويه؛ واستنزال؛ وتنشيف؛ وتهبية.

الصناعات الكيميائية:

تنوعت الصناعات الكيميائية حتى أنها تستحق بحثا قائما بذاته، فقد شملت المواد التي تستخدم في مخابر الكيمياء، والتي تستخدم في الصناعة كالأحماض، والقلويات، وأنواع النترات، والاملاح، والزاجات، والشبوب، والكحول. وشملت صناعات العطور، وتقطير النفط، وصناعة الصابون، والزجاج، والخزف، والأصبغة، ومواد الدهان، ومواد التلوين، وأنواع الحبر، والنيران الحربية، ومسحوق البارود، والألعاب النارية، والورق، ودبغ الجلود، وتكرير السكر، وبعض أنواع الصناعات الغذائية كاستخراج الزيوت، والصناعات التعدينية كالذهب، والفضة، والحديد، والنحاس، والقصدير، والرصاص، والزنك، والخلائط المعدنية، والزئبق.

انتقال الكيمياء العربية إلى الغرب اللاتيني :

بدأت حركة ترجمة العلوم العربية إلى اللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي؛ وحتى ذلك الحين كان علم الكيمياء مجهولا تماما في أوروبا الغربية.

وقد شملت حركة الترجمة من اللغة العربية بعض الرسائل الكيميائية وكان من أوائل

المترجمين الذين وفدوا إلى أسبانيا وتعلموا اللغة العربية روبرت أوف شستر Robert of Chester ومن بين إنجازاته انه ترجم رسالة في علم الصنعة تحمل عنوان "كتاب ماهية الكيمياء" Liber de compositione alchimiae. وقد أنجز ذلك في 11 فبراير عام 1144م. والكتاب يروي قصة اللقاء بين خالد بن يزيد وبين مريانس الراهب، ويسجل الحوار الذي جرى بينهما. وسوف نتحدث عن هذه الترجمة بعد قليل.

كان هذا أول عمل في الكيمياء يظهر في أوروبا اللاتينية وفي المقدمة يقول روبرت : "بما أن عالمكم اللاتيني لا يعرف حتى الآن ما الكيمياء ؟ ومم تتألف ؟ فإنني سوف أشرح ذلك في هذا الكتاب".

ومن المترجمين الأوائل إديلارد أوف باث Adelard of Bath، وكان من أكثر المعجبين بالثقافة العربية وقد أمضى فترة طويلة في سورية وفلسطين، ثم عكف على ترجمة بعض الأعمال العلمية العربية المهمة وأنجز معظم أعماله بين 1116 و1142. كانت معظم ترجماته في الرياضيات ولكنه ترجم إحدى الرسائل في الكيمياء. ومن أعماله أيضا أنه راجع وحرر رسالة في الصناعات العلمية تعود إلى عهد سابق لعصر الترجمة وعنوانها Mappae Clavicula، ولهذه الرسالة أهميتها الكبيرة في الغرب، لأن نسختها الأصلية غير المحررة سبقت عصر الترجمة. ولكن ثبت أن النسخة التي حررها إديلارد، وهي المهمة، تحتوي على العديد من الوصفات المترجمة من اللغة العربية.

وكان هيو أوف سانتاللا Hugh of Santalla واحدا من المترجمين في هذه الفترة ذاتها، وقد عمل في أسبانيا بين (1145م-1151م)، وترجم كتاب سر الخليقة لبالنياس الذي يحوي في نهايته نصا يعرف باللوح الزمردي Emerald Table، وقد اكتسب نص اللوح الزمردي أهمية بالغة لدى أجيال الصنعويين المتعاقبين في الغرب حتى القرن الثامن عشر.

وهناك نص آخر للوح الزمردي ترجمه من العربية بلاتو أوف تيفولي Plato of Tivoli الذي ترجم عدة أعمال في الرياضيات وقام بأعماله بين 1116م و1146م ويبدو أن المترجم أدرك أيضا أهمية عمله فهو يقول في المقدمة:" بما أن العقلاء

من الناس قد أجهدوا أنفسهم في دراسة أعمال الفلاسفة فقد قررنا أن نطرق مجالا لم يتعرف عليه العالم اللاتيني بعد، وكالسابحين في عرض البحار، فقد رأينا أن نستكشف هذا البحر منفردين".

كان جيرارد أوف كريمونا Gerard of Cremona (ت 1188م) أعظم المترجمين من العربية وهو يعادل في أهميته بالنسبة للترجمة إلى اللاتينية أهمية حنين بن إسحق في الترجمة إلى العربية، ولد في كريمونا بإيطاليا، وعاش معظم حياته في طليطلة.

وقد ترجم عددا كبيرا من الأعمال العربية في سائر موضوعات العلوم ومن بينها ثلاثة أعمال كيميائية، منها كتاب الشب والأملاح **De Aluminibus et salibus** للرازي **Rhazes** وكتاب السبعين لجابر **Geber** والكتاب الثالث يحمل العنوان اللاتيني **Liber lumen luminum** وهو أحد كتب الرازي الموجود بالترجمة اللاتينية فقط.

كان هؤلاء بعض أهم المترجمين المعروفين، ولكن العدد الأكبر من الترجمات تم دون أن نعرف أسماء المترجمين، بل دون أن نعرف أسماء المؤلفين العرب أو نعرف أصولها العربية، وقد شملت الترجمات بعض أعمال خالد بن يزيد **Calid** مثل كتاب **Liber trium verborum** وكتاب الأسرار **Liber secretorum** للرازي، مع ثمانية كتب أخرى منسوبة إليه دون ان نعرف أصولها العربية. وتمت ترجمة كتاب مصحف الجماعة الذي اشتهر في الغرب باسم **Turba philosophorum** وقد أصبحت له شهرة كبيرة بين الصنعويين الغربيين شأنه في ذلك شأن اللوح الزمردي.

وقد نال كيميائي عرف في الغرب باسم أرتيفيوس **Artephius** شهرة عظيمة في الغرب، ولا نعرف بالتأكيد اسمه العربي. وقد ترجم كتابه مفتاح الحكمة إلى اللاتينية تحت عنوان **Clavis sapieniae**، ويظن بعض مؤرخي العلوم مثل سزكين أن أرتيفيوس هو أحد تلامذة باليناس لأن مفتاح الحكمة هذا يتضمن نفس أفكار كتاب سر الخليقة؛ ويظن آخرون أن المؤلف هو الطغرائي الشاعر الكيميائي الذي يوجد له كتاب يحمل أيضا عنوان مفتاح الحكمة.

وهناك كتاب مهم يحمل عنوان " الكتاب السري لأرتيفوس" لا نعرف أصله العربي، وقد نال شهرة ذائعة في الغرب.

وترجمت لمحمد بن أميل المعروف في الغرب باسم **Senior Zadith, son of Hamuel** رسالة الشمس إلى الهلال وكتاب الماء الورقي والأرض النجمية، وتحمل الرسالة الأولى عنوان **Epistola Solis ad Luman** ويحمل الكتاب الثاني عنوان **Tabula Chemica**.

واكتسب هذان العملان شهرة بالغة في صفوف الصنعويين الزمزيين في الغرب ولدى علماء التحليل النفسي من أتباع يونغ الذين ينظرون إلى الكيمياء من وجهة علم النفس الحديث.

وقد ترجم ألفرد ساراشل الفصول الثلاثة الأولى من كتاب الشفاء لابن سينا **(Avicenna)** التي تبحث في الفلزات وفي الكيمياء والتي تحمل باللاتينية عنوان **De mineralibus**؛ وقد اشتهر ابن سينا **(Avicenna)** ككيميائي في الغرب إلى جانب شهرته كفيلسوف وكطبيب، وتعود شهرته في الكيمياء إلى أنه كان من معارضي علم الصنعة فقد أنكر إمكانية تحويل الفلزات إلى الذهب والفضة. وتبعه في ذلك بعض الفلاسفة الغربيين.

وهناك كتاب كيميائي مهم باللاتينية منسوب إليه وهو كتاب **De anima in arte alchemie** ومن المحتمل أن الأصل العربي المفقود كتب في الأندلس.

إن المعروف من الأعمال الكيميائية العربية المترجمة إلى اللاتينية أقل بكثير مما ترجم فعلا.فقد بدأت حركة الترجمة في القرن الثاني عشر، أي منذ تسعة قرون، وخلال هذه الفترة الطويلة فقدت معظم المخطوطات الكيميائية العربية القديمة – إن لم نقل كلها – بسبب عوامل الطبيعة من جهة، وبسبب الكوارث التاريخية مثل اجتياح المغول لبغداد في القرن الثالث عشر حيث ألقيت معظم المخطوطات في نهر دجلة من جهة أخرى ومثل حرق المخطوطات العربية بعد سقوط الأندلس.كل ذلك أدى إلى اختفاء الأصول العربية للترجمات اللاتينية بحيث إننا لا نعرف هذه الأعمال إلا من خلال الترجمات اللاتينية فقط.

وقد عمد بعض مؤرخي الكيمياء في نهاية القرن التاسع عشر م، وفي النصف الأول من القرن العشرين من أمثال برثلو وروسكا إلى إنكار الأصل العربي لتلك الأعمال اللاتينية التي تحمل أسماء مؤلفين عرب حيثما كان الأصل العربي غير موجود ونسبوها إلى مؤلفين لاتينيين، وقد لاقت هذه الأفكار قبولا شبه كامل لدى مؤرخي العلوم الغربيين اللاحقين.

ويقوم الآن (2003م) بعض مؤرخي العلوم العرب بأبحاث حول الكيمياء العربية في الغرب اللاتيني، وهي تهدف إلى الكشف عن الأصول العربية حيثما كان ذلك ممكنا، ودراسة فرضيات المؤرخين الذين أنكروا الأصل العربي والبحث في كل منها واحدة بعد الأخرى، استنادا إلى المراجع العربية. ويجري كذلك البحث في موضوع خالد بن يزيد ونشأة الكيمياء العربية، وكذلك في موضوع الأعمال اللاتينية الخمسة المنسوبة إلى جابر **Geber** والتي لا توجد لها أصول عربية.

كان أول عمل في الكيمياء عرفه الغرب هو الحوار بين خالد بن يزيد ومريانس الراهب كما أسلفنا. ومع أن اسم المترجم معروف وكذلك تاريخ الترجمة بمنتهى الدقة فإن روسكا طلع بافتراضات غريبة، فقد أنكر علاقة خالد بن يزيد بعلم الصنعة وأنكر قيام روبرت أوف شستر بالترجمة، وطلع برأي مفاده أن واضع الرسالة اللاتينية ليس إلا احد الإيطاليين الذين يعرفون العربية وضعها في تاريخ متأخر وأدخل فيها نصوصا عربية لكي يعطيها صبغة الأصل العربي المزيف.

وعلى نمط روسكا ظل الكثيرون، من أمثال روبرت هالو **Robert Halleaux** مؤرخ الكيمياء المعاصر، يجهلون حتى الآن أن هناك أصلا عربيا لهذه الرسالة اللاتينة. ولكن كلا من سزكين وأولمان ذكرا وجود مخطوطتين في إستانبول تحملان اسم " رسالة مريانس الراهب الحكيم إلى الأمير خالد بن يزيد " وقد استطاع كاتب هذا البحث أن يحصل على صورتي

المخطوطتين، وقام بدراستهما ومقارنتهما مع الترجمة الإنكليزية للنص اللاتيني فوجد تطابقا شبه تام.

أما بالنسبة لموضوع الكتب اللاتينية الخمسة المنسوبة إلى جابر **Geber** فهناك برنامج واسع للأبحاث يجري حاليا، وقد تم نشر بعض نتائج هذه الأبحاث في عدة مقالات على الإنترنت وفي المجلات وفي محاضر المؤتمرات. ومن أهمها مقال موسع عن نترات البوتاس في الكيمياء العربية واللاتينية، وقد ثبت بموجبه أن نترات البوتاس كانت معروفة منذ نشاة الكيمياء العربية وثبت أيضا عن حمض الأزوت قد تم تحضيره قبل نهاية القرن الثالث عشر؛ وهذه النتائج تنقض الأسس الرئيسة التي استند غليها برثيلو، ومن تبعه في نسبة أعمال جابر اللاتينية إلى مؤلف أوروبي مزعوم.

أثر الكيمياء العربية في نشوء الكيمياء الحديثة :

مما تقدم نرى أنه لم يكن للكيمياء وجود في أوروبا قبل القرن الثاني عشر وأنها استندت كلية في نشوءها إلى أعمال الكيميائيين العرب المترجمة إلى اللاتينية. ومنذ القرن الرابع عشر بدأت تظهر في أوروبا أعمال كيميائية لمؤلفين غربيين، ولكنها لم تخرج عن نطاق نظريات الكيمياء العربية ــ بل إن كتب الكيميائيين العرب المترجمة استمرت في التداول إلى ما بعد القرن السابع عشر الميلادي ضمن مجموعات كتب الكيمياء الأوروبية المطبوعة. وكانت أعمال خالد بن يزيد وجابر والرازي وابن سينا من أبرز الأعمال المتداولة. ويعتبر كتاب جابر المسمي باللاتينية **Summa perfectionis** (مجموع الكمال) أهم أعمال الكيمياء الصنعوية المتداولة في الغرب حتى القرن السابع عشر عندما بدأت نظريات الكيمياء الحديثة بالظهور.

وقد اتخذ بعض الكيميائيين في أوروبا اتجاها باطنيا روحيا في الكيمياء وهو اتجاه مماثل لأسلوب ابن أميل فى حين سار البعض الآخر على نهج جابر والرازي في الكيمياء الصنعوية المخبرية غير الباطنية. وقد بدأ التمييز بين النهجين عندما أسقطت آل التعريف من كلمة **alchemy** وأصبحت الكيمياء العملية تعرف باسم **chimie** أو **chemistry** واختصت كلمة **alchemy** بالدلالة على الكيمياء الباطنية. ولا يزال للكيمياء الباطنية أتباعها في الغرب، ولكن لم تعد لها صلة بعلم الكيمياء الحديثة. أما الكيمياء الصنعوية العملية على نهج كيمياء جابر والرازي فقد استمرت في التطور التدريجي حتى دخلت مرحلة الكيمياء الحديثة. فالكيمياء الصنعوية العملية هي المرحلة الأولى في تاريخ علم الكيمياء.

كان تطور العلوم عبر التاريخ تدريجيا، وكانت أجيال العلماء اللاحقين تبني عملها على المعارف السابقة وتضيف إليها معلومات أو نظريات جديدة. وينطبق هذا الأمر على الثورة العلمية التي بدأت في القرن السادس عشر؛ فقد ثبت الآن مثلا أن كوبرنيكوس استند إلى نظريات علماء الفلك العرب عندما أثبت أن

الأرض وبقية الكواكب المعروفة تدور حول الشمس.

ولا يختلف الأمر في علم الكيمياء، فقد وضع جابر نظرية الزئبق والكبريت في تكوين المعادن، ثم أدخل الرازي عليها تعديلا بأن أضاف مادة ملحية. وأصبحت نظرية تكوين المعادن من الكبريت والزئبق والملح هي النظرية السائدة في أوروبا واستمر العمل بها حتى نهاية القرن الثامن عشر.

في عام 1669م أي بعد دخول مرحلة علم الكيمياء الحديثة وضع بيشر (Becher) نظريته في تفسير الاحتراق التي استندت في جوهرها إلى نظرية الزئبق والكبريت والملح، ثم تلاه شتال Stahl وأعاد صياغة النظرية في عام 1697م وأصبحت تعرف بنظرية الفلوجستون Phlogiston، وقد آمن بهذه النظرية مشاهير الباحثين الكيميائيين الذين وضعوا أسس الكيمياء الحديثة باكتشافاتهم المهمة مثل بريستلي وشيل وكفندش وبلاك وغيرهم، ولم ينقض أحد هذه النظرية حتى وضع لافوازييه نظريته في الاحتراق في عام 1789م مستندا إلى اكتشافات من سبقوه وإلى التجارب التي قام بها بنفسه وإلى ذلك الإلهام الذي لا بد منه للانتقال بالعلم من مرحلة إلى أخرى. وحول لافوازييه يقول ليبغ (Liebig) أحد مؤسسي علم الكيمياء الحديثة " إنه لم يكتشف مادة جديدة، ولم يكتشف خاصية جديدة ولم يكتشف ظاهرة طبيعية لم تكن معروفة من قبل، ولكن جميع الحقائق العلمية التي كشف عنها كانت النتيجة الحتمية لجهود جميع أولئك الذين سبقوه".

لقد أسهمت نظرية الكبريت والزئبق والملح في قيام الكيمياء الحديثة؛ لأنها ظلت من خلال نظرية الفلوجستون المنبثقة عنها هي الأداة الوحيدة المتوفرة لدى الكيميائيين لتفسير عملية الاحتراق ولإجراء بحوثهم طيلة مائة العام الأولى من قيام الكيمياء الحديثة؛ ولم يكن للافوازييه أن يعثر في النهاية على التفسير الصحيح لعملية الاحتراق إلا بعد أن ثبت للباحثين فشل هذه النظرية.

أما مفهوم الإكسير الذي آمن به الكيميائيون الصنعويون حتى قرون متأخرة فإنه لم يكن هدرا للطاقات وللجهود سعيا وراء المحال. فالكيمياء الصنعوية هي إحدى مراحل التطور التاريخي لعلم الكيمياء. يقول ليبغ أيضا : " لم يكن للعقل البشري أن يبدع فكرة يمكن أن تؤثر على عقول البشر بقوة وإن تدفعهم بحماس إلى السعي الحثيث في أبحاثهم وتجاربهم مثل فكرة الإكسير. فلولا هذه الفكرة لما وصلت الكيمياء إلى مرحلتها الحالية المتقدمة. ذلك أن اجيال الكيميائيين الصنعويين المتعاقبة كان لا بد لها سعيا وراء الإكسير من القيام بالتجارب المخبرية المكثفة على كل المواد التي كانت متاحة لهم. ولم يتركوا عملية من العمليات الكيميائية إلا قاموا بها. ولم يكن بالإمكان انتفاء فكرة الاكسير في النهاية إلا بعد قرون من الجهود المضنية التي أوصلت العلم إلى مرحلة كان لا بد في نهايتها من ظهور نظريات الكيمياء الحديثة".

إن منجزات واكتشافات الكيميائيين العرب كثيرة، ولكننا لا بد أن ننوه بثلاثة من أهم المكتشفات الكيميائية التي تعتبر من الإنجازات الحاسمة في تاريخ العلم والحضارة، أولها الأحماض المعدنية، وهي حمض الأزوت وحمض الكبريت وحمض الكلور والماء الملكي. والثاني : هو الكحول الناتج من تقطير النبيذ؛ والثالث : هو مسحوق البارود الانفجاري الصالح للاستخدام في المدافع.

هذه المكتشفات الثلاثة المهمة كانت ولا تزال موضع الدرس والبحث من قبل المؤرخين الغربيين، ونظرا لغياب النصوص العربية التي تثبت أن الكيميائيين العرب قاموا بهذه الاكتشافات قبل غيرهم فقد نسبت كلها إلى أشخاص أوروبيين. ولكن النصوص العربية مع ترجماتها قد أصبحت متاحة الآن لمؤرخي العلوم، وسوف يؤدي ذلك إلى تصحيح ما كان معروفا حتى الآن حول هذه المكتشفات.

ونوجز فيما يلي بعض إسهامات الكيمياء العربية الأخرى في قيام الكيمياء الحديثة :

- أكد الكيميائيون العرب في كتبهم على أهمية القيام بالتجارب المخبرية.
- صنفوا المواد المعروفة المستخدمة في المخابر وفي الطب والصناعة ووصفوها واكتشفوا مواد جديدة.
- وصفوا وطوروا تجهيزات المخابر الكيميائية.
- وصفوا العمليات (التدابير) الكيميائية مثل التقطير والتصعيد والتكليس والاستتزال وغيرها وطوروا عمليات جديدة.
- اكتشفوا من خلال تجاربهم العديد من المركبات والمستحضرات المستخدمة في الطب وفي الصناعة كالنشادر والقلويات.
- قاموا بدراسات مستفيضة حول المعادن المعروفة كالحديد والنحاس والرصاص والفضة والذهب وطرق معالجتها وقدموا لعلم المعادن مكتشفات مهمة.
- كان لهم السبق في استخدام الكيمياء في الطب، أي في الكيمياء الطبية **iatrochemistry** وقد عرف الطب الذي استخدمت فيه المواد الكيميائية فيما بعد بالطب الكيميائي.
- تزخر اللغات الأوروبية بالمصطلحات الكيميائية ذات الأصل العربي. ومن الأمثلة على الكلمات العربية التي دخلت اللغة اللاتينية وانتقل بعض منها إلى اللغات الأوروبية ما يلي:

الأنبيق	**Alembic**
القلي	**alkali**
الكيمياء	**alchemy**
القصدير	**alcazdir**
القطران	**alchitram**
الكحول	**alcohol**
النشادر	**almizadir**
التنكار	**anticar**
التنور	**athanor**
الإكسير	**elixir**
نفط	**naphtha**
نطرون	**natron**
توتيا	**tutty**

ولا تقل إسهامات العرب في التكنولوجيا الكيميائية أهمية عن الإسهامات التي قدموها من خلال علم الكيمياء. وكانت منتجات هذه الصناعات تصدر إلى أوروبا الغربية ثم انتقلت تقنية صنعها أيضا إلى الغرب. ويجب أن نلاحظ أن مراحل بعض هذه التكنولوجيات الصناعية بقيت هي ذاتها حتى الآن باستثناء أنها تحولت مع التقدم التكنولوجي الحديث من صناعات صغيرة إلى مصانع عملاقة. ونحن نكتفي بإيراد بعض الأمثلة فقط :

- قطروا ماء الورد وكانوا رواد صناعة العطور.
- قطروا النفط الخام وحصلوا على المنتجات النفطية البيضاء السريعة الاشتعال.
- أنتجوا الصابون الصلب والمطيب.
- أنتجوا القلي اللازم لصناعة الصابون والزجاج من النباتات.
- كرروا السكر ونشروا صناعته.
- طوروا تكنولوجيا الورق ونشروا صناعته.
- طوروا تكنولوجيا صناعة الزجاج ونقلوها إلى الغرب.
- طوروا أصنافا من الخزف المزجج وانتقلت منهم غربا.
- طوروا دباغة الجلود وانتقلت هذه التقنية إلى أوروبا.
- أنتجوا أصنافا جيدة من الدهانات والأحبار وترجمت رسائلهم حولها إلى اللاتينية.
- طوروا أصبغة النسيج.

وختاما نقول : إن الكيمياء العربية صنعوية كانت أو غير صنعوية أو صناعية، كانت الأساس الذي بنيت عليه الكيمياء في الغرب، وقد أسهمت إلى حد كبير في قيام الكيمياء الحديثة.

نظرية علم الصنعة كما وردت في كتاب العلم المكتسب لأبي القاسم العراقي

نورد فيما يلي الفصلين اللذين افتتح بهما أبو القاسم العراقي كتاب العلم المكتسب في زراعة الذهب. يبحث الفصل الأول موضوع صناعة الكيمياء، ويبحث الفصل الثاني في إمكان زوال العرض الداخل على النوع إلى أن يرجع إلى نوعيته بالصناعة باستخدام إكسير البياض وإكسير الحمرة، يقول العراقي :

الفصل الأول في موضوع صناعة الكيمياء:

اعلم رحمك الله أن موضوع صناعة الكيمياء نوع واحد حقيقي يسمى المعدن المنطرق، يندرج تحته ستة أشخاص صورية طبيعية غير مقيدة كأشخاص الحيوان والنبات وهي الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والقصدير، تميزت صورة كل منها عن الأخرى بأعراض مفارقة يمكن بعد فرض زوالها بقاء النوعية.لا ندعي فنقول : كل نوعين طبيعيين مختلفين بالحد والحقيقة لا يمكن بالصناعة نقل أحدهما واستحالته إلى الآخر كالإنسان والفرس. وهذه الصور الست كل واحدة منها منتقل إلى الآخر بالصناعة.

أما الرصاص فينتقل إلى الفضة بأن تجعل منه رطلا في نار التخليص، فإن النار تؤثر فيه

تأثير الصلاح والنضج فتحرق منه الأكثر وتخرج الأقل فضة حتى إن الرطل يبقى منه ربع درهم فضة خالصة، فلما أمكن انتقال جزء من الرصاص إلى الفضة لم يمتنع الانتقال في الكل. أما نقل الفضة إلى الذهب فبتكرار السبك فقط، فإنها تنصبغ من النار وتتلزز وتنتقل ويظهر فيها المحك الذهبي، فقد أمكن انتقالها بعض الانتقال مع بقاء النوعية، فلو كانت مختلفة مع الذهب في النوعية لما أمكن أن تنتقل إليه كما لم يمكن أن الفرس ينتقل إلى نوع الإنسان بالصناعة لما كانا مختلفين بالحد والحقيقة. ودليل آخر – وهو أتم من الأول – وهو أن الذهب في معدنه منه ما يوجد كامل الخلقة، ومنه ما يوجد ناقصا فيتخلص الناقص بالتعليق، فيتميز منه فضة وذهب، وكذلك الفضة توجد في معدنها مختلطة بالرصاص فتتخلص منه، فتتميز الفضة من الرصاص. أما علة كون الفضة في معدن الذهب أو أن الحرارة أنضجت ما جاورها من أجزاء المعدن فصيرته ذهبا إن كان معدن الذهب أو فضة إن كان معدن الفضة ولم ينضج ما بعد لقلة إسخان الحرارة.

فقد تبين أن هذه الصور الست كلها نوع واحد، وإنما يتميز بعضها من بعض بأعراض مفارقة وعلتها الغائية أن تصير ذهبا، فما سلم من العرض كان ذهبا، وما اعترضه عرض إما من كيفية باردة فيصير إما فضة أو رصاصين وأما كيفيةحارة فيصير إما نحاسا وإما حيديدا. وإنما مثل هذه الصور الست الواحدة النوعية كمثل الصحيح الماهية في الإنسان، والسقيم فمتى عولج السقيم إلى أن يذهب سقمه ويرجع إلى الصحة عادت إلى أكمل ماهيتها الصحيحة.

الفصل الثاني في رد النوع الذي منه العرض عن بلوغ الكمال إلى كماله الطبيعي بالصناعة:

اعلم أن الصور الست كلها ذهب بالنوعية وهو غايتها. أما ما تركب على النسبة الصالحة في الكم واتفق مع صلاحه صلاح النسبة في الكيفية وتناهت به الطبيعة فصار ذهبا؛ وما اختلف في الكيف حره وبرده برز في المعدن ناقصا. فأما من الكم في هذه الأشخاص الستة فغير مختلف لأن علة الكمية فيها رطوبة ويبوسة وعلة الكيفية حرارة وبرودة. والرطوبة التي تكونت منها إنما هي بخار مائي ودخان أرضي امتزجا على النسبة الصالحة فتكون منهما الصور الست المنطرقة. فإن كانت اليبوسة – أعني الدخان أكثر تكون منها الأحجار المنسحقة – كالمرقشيشا والمغانيس والتوايت والأحجار المناسبة للأجساد المنطرقة من كحل وزرنيخ وغير ذلك؛ وإن كانت الرطوبة – أعني البخار – أكثر يكون منه الزيبق فقط، وهذا إنما يكون في بقاع مخصوصة من الأرض في المكان الذي هو إلى الاعتدال أقرب، أعني اعتدال الزمان فقد صح أن الكمية في هذه الصور بالسوية، فافهم ذلك.

وأعلم أن علة الذهب إنما هو اعتدال الحرارة وعلة نقص بقية الستة عنه إنما هو لزيادة برودة أو لزيادة حرارة. أما نقص الفضة عن الذهب فلزيادة البرودة، ودليل ذلك كون الفضة موجودة في معدن الذهب، والذهب لا يوجد في

معدن الفضة لأن الفضة التي توجد في معدن الذهب قصرت عنها الحرارة فأقعدتها عن الذهبية لكون معدن الذهب أحر من معدن الفضة، فيوجد فيه الفضة والذهب، أما وجود الفضة فلبعدها في المعدن من الحرارة، وأما الذهب فلقربه في المعدن منها. وأما معدن الفضة فلا يوجد فيه ذهب لكونه أبرد من معدن الذهب ويوجد فيه الفضة والأسرب؛ أما وجود الفضة فلمجاورتها وقربها من الحرارة وأما وجود الأسرب فلبعده منها في المعدن ولربما وجد القصدير في معدن آخر بغير هذه الصفة.

فلما نظر الحكماء إلى هذه الصور الستة وجدوها نوعا واحدا منه ناقص ومنه تام ووجدوا الناقص منه في معدن التام علموا أن الاختلاف فيها إنما هو بالكيف ووجدوا الأعراض التي بها تميز بعضها من بعض إنما هي أعراض مفارقة يمكن زوالها بالعلاج فقط فقالوا إما أن يزول العارض عن هذه الأجساد الصورية الخمسة بالنار فقط أو بمركب يصنع لها يلقى عليها فيتم منها ما كان ناقصا وينقص منها ما كان زائدا عن الاعتدال.

فإن كان بالنار فقط فلا يخلو من قسمين إما أن تكون شديدة وإما خفيفة وكل واحد من القسمين إما أن يكون طويل الزمان أو قصيره فنريد أن نبين فعل النار بمفردها مع الأقسام في كل صورة من هذه الصور الناقصة عن الذهب. فنقول أن الفضة إذا وضعت في النار الخفيفة لا ينجح فيها قصر الزمان بل يحتاج إلى المدة الطويلة والسنين العديدة وهذه أشياء تسامها الطبيعة البشرية فلا يقع نفع الفضة أصلا بطول الزمان أو قصره لان طول الزمان تسأمه النفس وتقصر الأعمار عنه وقصر المدة لا ينجح فإذا هي أعني الفضة وضعت في النار الشديدة فاقصر زمانها لا ينجح وإن طالت انصبغت من النار وتلزوت لكن بعد نقص الأكثر ويبقى الأقل مع الخسارة والمؤنة التي لا تفي مع صيرورتها ذهبا بغرامتها فبطلت منفعة النار وحدها في صيرورة الفضة ذهبا لكن قد أوجدنا البرهان واليقين".

وبعد أن يبين العراقي أن النار وحدها لا تفي بالحاجة في معالجة كل من النحاس والحديد والرصاصين يتوصل إلى النتيجة التالية : "فلما تبين لهم ذلك يعني فعل النار بمفردها ألجأهم الضرورة إلى عمل تركيب من عقار أو من عقاقير مختلفة الأنواع، بل ومختلفة الصور تندرج تحت نوع واحد حقيقي لا إضافي، فصنعوا إكسيرين أحدهما للبياض والآخر للحمرة ذائبين لأنهما إن لم يكن ذوب فلا ممازجة، صابرين لأنه لم يكن لأحدهما صبر على النار انتفض التركيب وإذا انتفض التركيب بطلت الصنعة. ويجب أن يكون احدهما حار أحمر؛ ليزيل العرض البارد ويصبغه بلونه أحمر والثاني بارد أبيض ليزيل العرض الحار ويصبغه بلونه أبيض. ويجب ان يكون إذا ألقي على أيّ صورة من هذه الصور يغوص فيها بنشيش، وليكون معينا للنار على تعجيل الفعل ويكون مادة لزوال ذلك العارض، واقيا لهذه الصور من حرق النار، واقيا لرطوباتها مع يبوساتها. فمن كان منها باردا أدخل عليه

الإكسير الحار فيسخنه ويصبغه أحمر وما كان منها حاراً حرارة زائدة عن الاعتدال أدخل عليه إكسير البياض فبرده ويصبغه أبيض ويعدل مزاجه بعد انحرافه؛ لأن الذي منه وجب الاحتراق لهذه الصور في نار التخليص إنما هو التفاوت في الكيف من لين وشدة ورزانة وخفة.

أما الفضة لما دخل عليها إكسير الحمرة رزنها، لا بثقله لكن بصبره وسرعة ذوبه ووقايته لها من النار فعجلت النار الفعل فأتمت طبخها وصبغتها فصارت ذهبا لما زال عنها الخفة والبياض؛ لأن البياض في الفضة لازم للخفة، والخفة لازمة للبرودة وقلة النضج، فلما زالت العلة زال بزوالها المعلول فافهم ذلك، فإنه من أصول هذه الصناعة، ولقد شح به كافة الحكماء عن أبنائهم فضلا عن سائر الناس.

وأما الرصاصان فما نقصهما أن يكونا فضة إلا برودة هي أزيد من برودة الفضة، فصارا معقودين على غير استحكام لقلة الحرارة والنضج. اعلم أن إكسير البياض أحر من الرصاصين، كما أن حرارة الفضة بالإضافة إلى الرصاصين أكثر فإذا ألقي إكسير البياض عليهما زادهما حرارة والتئاما إلى أن يصيرهما في قوام الفضة وحرارتها التي تقاصرت عن الذهب وتطاولت على الرصاصين. فإكسير الفضة ليس ببارد مطلقا وإكسير الذهب ليس بحار مطلقا.

وأما النحاسين فبالنسبة إلى الفضة والذهب أشد حرا ويبسا، والأشياء تقوي بأشكالها وتضعف بأضدادها، فلو القي عليها إكسير الحمرة زادها يبسا فيصيرهما منسحقين لا نفع فيهما البتة، فيجب أولا أن يلقى عليهما إكسير الفضة فيرطبهما ويصيرهما فضة، ثم يلقي عليهما إكسير الذهب، فيصيران ذهبا بعد صيرورتهما فضة فافهم ذلك، وكن به ضنينا".

أ. د. أحمد يوسف الحسن

" سوريا "

المصادر والمراجع

1 - المصادر والمخطوطات :

- **ابن باديس،** أبو تميم شرف الدولة المعز (ت 563هـ/1168م) كتاب عمدة الكتاب وعدة ذوي الألباب، مخطوطة دار الكتب المصرية، ترجمه إلى الإنكليزية مارتن ليفي (انظر المراجع باللغات الأجنبية).
- **الجلدكي،** عز الدين أيدمر بن علي، نهاية الطلب في شرح المكتسب، مخطوطة برلين رقم 4184.
- **العراقي،** أبو القاسم أحمد بن محمد السماوي، العلم المكتسب في زراعة الذهب، المخطوطة رقم 24016، المكتبة البريطانية.

2 ـ المصادر المطبوعة:

- **ابن النديم،** محمد بن إسحق الوراق ت438هـ/1047م
د.ت كتاب الفهرست، القاهرة.
- **البيروني،** أبو الريحان محمد بن أحمد ت 440هـ/1048م
1936م الجماهر في معرفة الجواهر، نشره وحققه كرنكوف، حيدرأباد.
- **التيفاشي،** أحمد بن يوسف ت 651هـ/1253م
1977م كتاب أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، تحقيق محمد يوسف حسن ومحمد بسيوني، القاهرة جابر بن حيان ت 200هـ/815م
د.ت كتاب السبعين،نشره فؤاد سزكين بطريقة الأوفست، فرانكفورت.
1936م مختارات جابر بن حيان، كتاب الراهب، تحقيق بول كراوس، مصر.
- **الجوبري،** زين الدين عبد الرحمن بن عمر الدمشقي ت 630هـ/1232م
1884 المختار في كشف الأسرار، دمشق.
- **الرازي،** أبو بكر محمد بن زكريا ت 323هـ / 935م
- 1343هـ كتاب الأسرار وسر الأسرار، تحقيق محمد تقي دانش بروة، طهران.
- **الرسولي،** الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي ت 695هـ/1295م
1998 المخترع في فنون من الصنع، تحقيق محمد علي صالحية، الكويت.
- **الرماح** نجم الدين حسن(ت 638هـ 1294م).
- 2001 الفروسية والمناصب الحربية، تحقيق ودراسة أحمد يوسف الحسن، معهد التراث العلمي العربي، حلب.
- **الطغرائي،** الحسين بن علي ت 516هـ/ 1122م
1982 حقائق الاستشهاد: رسالة في إثبات الكيمياء والرد على ابن سينا.
- **الهمداني،** الحسن بن أحمد بن يعقوب ت 334هـ/945م

1985 كتاب الجوهرتين العتيقتين المائعتين من الصفراء والبيضاء، حققه وقدم له كرستوفر تول Christopher TOLL، أشرف على طبعه ثانية وترجم دراسة تول، يوسف محمد عبد الله، صنعاء، الجمهورية العربية اليمنية، وزارة الإعلام والثقافة.

3 ـ المراجع العربية والمعرّبة :

- **سزكين**، فؤاد
- 1986 تاريخ التراث العربي، المجلد الرابع، السيمياء والكيمياء والنبات والفلاحة، ترجمة عبد الله حجازي، جامعة الملك سعود، الرياض.
- **قنواتي**، جورج
1997 الخيماء العربية، دائرة معارف العلوم العربية، الجزء الثالث، الفصل 25، تحقيق رشدي راشد، بيروت.
- **نصر**، سيد حسين
- د.ت "الكيمياء وسائر علوم السحر"، الفصل التاسع، العلم في الإسلام، ص : 165 وما بعد.
- **الهاشمي**، محمد يحيى
1958 الإمام الصادق ملهم الكيمياء، حلب

4 ـ المراجع الأجنبية :

- **Allan**, J.W.,
1937 « Abu'l Qasim's Treatise on ceramics » ,
1937 Iran,xi, 111-120.
- **Berthelot,**
1906 Archeologie et Histoire de Sciences, pp/310-363.
- **Berthelot**, M. and R. Duval.
1893 La Chimie au Moyen Age, vols. II and III, Paris.
- **El, Encyclopaedia** of Islam, CD-ROM Edition
- **Grabers,** K,
1948 Kimiya'al-itr, Leipzig.
- **Halleux,** Robert,
1996 "The reception of Arabic alchemy in the West" Encyclopedia of the History of Arabic Science, volume III, ed. Roshdi Rashed, and Regis Morelon, Routledge, ,pp.886-902.
- **Hassan,** Ahmed Y.al-, and Donald R., Hill,
1986 Islamic Technologiy, an illustrated history, CUP and UNESCO.
- **Hassan,** Ahmad Y. al,
2002 "Chemical Techn-ology", in Storia della scienza, vol. III: La civilita islamica, Enciclopedia Italiana, Rome.

- **Leicester,** Henry M.
  1956 The Historical Background of Chemistry, New York, 1956.
- **Levey,** Martin,
  1959 Chemistry and Chemical technology in ancient Mesopotamia, Elsevier.
- **Read,** John,
  1995 From Alchemy to Chemistry, Dover.
- **Rulandus,** Martinus,
  1964 A Lexicon of Alchemy , 1612, translated by A.E. Waite, London, Reproduced by Kessinger, USA
- **Siggel,** Alfred,
  1950 Arabisch – Deutshes Worterbuch der Stoffe, Berlin
- **Stapleton,** H.E, Azo, R.F.& Husain, M.H.
  1972 "Chemistry in Iraq and Persia in the tenth century A.D.", Asiatic Society of Bengal Mem, Vol 8, pp. 315-418.
  1953-56 Ambix vol.5, p.1-43.
- **Stillman,** John Maxson,
  1960 The Story of Alchemy and Early Chemistry, Dover.
- **Toll,** C.,
  1968 Kitab al-jawharatayn, Uppsala.

2002 Science and Technology in Islam, vol.4, Part 2, of the multivolume work on The different Aspects of Islamic Culture, UNESCO.

- **Holmyard,** Eric J,
  1990 Alchemy , Dover.
- **Holmyard,** Eric J,
  1923 "Jabir ibn Hayan", Proc of the Royal Society of Medicine, Section History of Medicine vol. 16.
- **Ibn Badis**, al ,
  1962 Umdat al-kuttab wa- 'uddat dhawi'l-albab, ch.xi, tr. Martin Levey, Medieval Arabic bookmaking and its relation to early chemistry and pharmacology, in Transactions of the American Philosophical Society, n.s. lii/4, Philadelphia.
- **Jung,** C.G.,
  1952 Psychologie und Alchemie, Zurich.
- **Kraus**, P.,
  1942 Jabir ibn Hayyan, Contribution à l'histoire des idées scientifiques dans l'Islam, Vo. I ;Le corpus des écrits jabiriens, Kairo 1934, Vol. II, Jabir et la science grecque, Kairo.

- **Ullmann,** Manfred,
  1972 Die Natur und Geheimwissenschaften im Islam, Leiden.
- **Von Franz,** Marie Louise,
  1981 Alchemy, Inner City Books

5 ـــ العلوم الإنسانية

إن الفكر الإنساني نهر دفاق، شاركت في رفده شعوب كثيرة وأمم في أزمنة قديمة وحديثة، وإذا كان اليونانيون قد برز دورهم في مرحلة ما، فالسبب يكمن في أنه لم تكن لهم هيئة كهنوتية تضع حدوداً على هذا الفكر، ولأنهم أفادوا بموقع بلادهم الجزرى المتساحل في إقامة صلات عديدة بشعوب أخرى أسبق منهم في مجال الحضارة وأعرق.

غير خاف أن الثقافة العربية والعلم العربي كان لهما تأثيرهما الوافر في ثقافة العالم وعلمه، بحكم أن العرب تبنوا ما تناهى إليهم من علوم القدماء وتمثلوه، بخلاف ما كانت عليه الحال في أوروبا في العصور الوسطي، ولم يكونوا في تبنيهم هذا مجرد نقلة، إنما هم تعاملوا مع هذه العلوم بمنهج نقدي، وصححوا ما وقفوا عليه من أخطاء، وأضافوا إليها إضافات جمة، ولدى انتقال هذه العلوم – بعد أن صارت عربيةً – إلى أوروبا في نهايات العصور الوسطى كانت عاملاً حاكماً في نهضتها.

لا أدل على ما نقول من أن جورج سارتون George Sarton يجعل العلم خلال الفترة موضوع بحثنا وبعدها علماً عربياً بامتياز.

وفي تعامل العرب والمسلمين مع العلوم، كانت العلوم الإنسانية أو الإنسانيات هي الأقدم في هذا التعامل من العلوم الطبيعية التي كان يطلق عليها أحياناً تعبير العلوم العقلية أو العلوم التجريبية؛ ذلك لأن الإنسانيات تحكمها وتتحكم في إيقاعها مجموعة من العوامل، وليس عامل العقل وحده ولا التجربة وحدها، ثم إنه كان لهذه الإنسانيات تراث عرفه العرب قبل الإسلام، وكانت معرفتهم به تفوق معرفتهم بما سواه، وزاد من هذه المعرفة نشأة العلوم الإسلامية ثم علوم اللغة العربية، وهاتان المجموعتان من العلوم كانت لهما صلاتهما المديدة بالإنسانيات.

يصعب علينا فى حيز محدود أن نبين مدى إسهام العرب فى هذا المجال، لذا نهجنا نهج الإيجاز بنظرة طائر تحلق ولا تحدق، ثم جعلنا عملنا قصراً على الأدب والتاريخ والجغرافيا والفلسفة، مركزين على معالم النهضة فى هذه الفروع المعرفية وملامحها، وأهم من قاموا عليها وأهم إنجازاتهم، وكيف انتقلت هذه الإنجازات إلى أوروبا والعالم بأسره، ومدى تأثيرها فى تطور العلم الأوروبى على نحو أخص والعلم العالمى على نحو أعم. ونتوقف فى عرضنا هذا عند منتصف القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى، أى عندما وصلت الحضارة العربية الإسلامية إلى أوج بهائها وعطائها.

1. الأدب

تكون البداية أن نعرف الأدب، وهى مهمة شاقة، لأن فنونه – فيما عدا الشعر– لم تتحدد على نحو واضح إلا فى عصرنا الحديث، ومن التعريفات المهمة عندنا ما يورده ابن خلدون (ت 808هـ/1406م) في مقدمته؛ إذ يقول : "ثم إنهم إذا أرادوا حد هذا الفن

قالوا: الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف"، مع ذلك فنحن نلتزم فى دراستنا للأدب وفنونه بما جرى الاتفاق عليه فى الحديث.

يأتي الشعر فى طليعة فنون الأدب عند العرب، باعتباره فن العربية الأول، وهو ابتكار خاص بهم، لم يأخذوه عن غيرهم من الأمم، فكان الشاعر الجاهلى يستمد موضوعاته وصوره، بل خياله الشعرى من البيئة حوله، وهى فى مجملها بيئة بسيطة، ولم يكن تلقى الثقافة من منابعها فى الأقطار المجاورة ظاهرةً عامةً، كما أن التدوين– إذا صح – كان محدوداً.. لذلك دعى الشعر الذى ينتمى إلى عصر الجاهلية "بديوان العرب" أى هو السجل الذى حفظ لهم تراثهم.

بعد الإسلام احتفظ الشعر بمكانته، وأضحى للعرب تراث زاخر به، يصعب على من شاء إحصاؤه، ووصلت الحال إلى أن نظمت بعض الموضوعات التى لا تعد أدباً فى ذاتها مثل " ألفية ابن مالك" في النحو(ت 672هـ/ 1274م) وأرجوزة ابن سينا فى النفس

(ت428هـ/1037م) وغيرهما كثير.

كانت أكثر البلدان تأثراً بالشعر العربي هى البلاد التى جاورها العرب ودخلوها أو داخلوها فى إسبانيا وفرنسا وصقلية، وتحتل الأندلس (التي كانت ذات يوم إسبانيا) مكانةً مهمةً فى تاريخ الشعر العربى، كما تحتل مكانةً أخرى مهمةً فى تاريخ الشعر الأوروبي، وإذا نحن راجعنا الذخيرة لابن بسام (ت 542هـ/ 1148م) نجده يقرر أنه يكاد لا تخلو بلد من بلاد الأندلس من كاتب أو شاعر، كما كان معظم أمراء الأسرة الأموية الحاكمة وخلفائها شعراءً، وهو ما لا نلاحظه بالضرورة عند أسلافهم بالمشرق.

هذا الشعر وغيره من فنون الأدب وجد طريقه إلى نصارى الأندلس المستعربين Los Mozárabes (وهم الأندلسيون النصارى من أصل إسباني نصراني، وكانت لغتهم الأصلية هى اللاتينية أو لهجة منبثقة عنها هى الرومانثية (el Romance).

يقول ألبرو Alvaro القرطبى (ت 241هـ/861 م) الذى عاش فى القرن الثالث هـ /القرن التاسع م : "إن النصارى – إخوانى – مولعون بشعر العرب وقصصهم ويعكفون على أعمال الفقهاء والفلاسفة المسلمين، ليس لدحض ما ورد بها، ولكن ليكتسبوا أسلوباً عربياً صحيحاً وأنيقاً... إن الشباب النصرانى ليست لديه أى فكرة عن أدب أو لغة حاشا العربية، فهم يطالعون الكتب العربية ويتدارسونها فيما بينهم، وينفقون أموالاً جمة في جمعها، ويتغنون بالتراث العربي... بل ينظمون شعرا يفوق فى جزالته شعر العرب أنفسهم". ومع أنه لم يصل إلينا سوى اليسير من هذا الشعر، فإن لهذا النص دلالة على مدى تأثير الشعر العربى فى قوم لم تكن لغتهم الأصلية هى العربية.

فى بدايات القرن الثانى عشر للميلاد ظهر فى إقليم بروافنس **Provence** وهو الإقليم الفرنسي المتوسطى المصاقب لإسبانيا نمط من الشعر الغنائي عرف بشعر التروبادور **Troubadour** أو (**Trovador**) وامتد من هذا الإقليم إلى أقاليم أخرى مجاورة. ولما كان هذا النمط من الشعر غريباً على أوروبا فى ذلك الزمان، فإنه استرعى انتباه باحث إيطالي حاول فى منتصف القرن السادس عشر أن يوضح أصوله الأندلسية، لكن هذه النظرية لم تجد قبولاً فى زمانها.

على أن البحث فى هذه الأصول لم يلبث أن استقر على يدى المستشرق الإسبانى الكبير خليان ريبيرا **Julian Ribera Y Tarrago** (ت **1934**م) الذي يقول : إن شعراء التروبادور لم يفعلوا أكثر من أن قلدوا نماذج الوشاحين والزجالين الأندلسيين قبلهم، خصوصاً أن ظاهرة الشعراء الجوالين **Juglaros** – مسلمين ومسيحيين– المتنقلين على جانبى الحدود، يتلمسون رزقهم، كانت ظاهرةً عامةً سابقةً لظهور شعر التروبادور.

كان جيوم التاسع **Guillaume** كونت پواتييه **Poitiers** (**1071** – **1127**م) هو أول شعراء التروبادور وقد أتيحت له الفرصة لأن يتصل بالمسلمين، ويعيش فى مناخ إسلامي، فقد شارك فى الحملة الصليبية الأولى إلى بلاد الشام (**1101**م) كما شارك فى غزو سَرَقُسْطَة **Zaragoza** (**1118**م).

نستطيع أن نتلمس مظاهر شبه كبير بين شعراء التروبادور وشعراء الموشحات (والموشحات ابتكار أندلسي خالص يعود إلى أواخر القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي) فأهم الموضوعات عند شعراء التروبادور هو الغزل، خصوصاً ما يرتبط منه بوصف الطبيعة، كما اختصوا القافية بعنايتهم، وكانوا يوقعون أشعارهم – شأنهم شأن أهل الأندلس على آلات موسيقية. وغنى عن الذكر أن ابن خلدون يربط بين الغناء وظهور الموشحات.

كذلك تتردد عند هؤلاء الشعراء معان عرفها الأندلسيون، وتدور في إطار الحب العفيف (أو العذري (**Amour courtois**) فى الإسبانية **el Amor Cortes**) وهو نمط من الحب، (والشعر)، عرفه العرب منذ جاهليتهم، فصاروا يمجدون المرأة التى كانت فى السابق مستنقع الخطيئة ويركعون لها، وتتردد عندهم معان عرفها الأندلسيون قبلهم، مثل قسوة المحبوب وصدوده وعذابات الحب وهمومه، والطاعة **Obediencia** ومخاطبة المحبوب بصيغة المذكر، أى حبيبي **Midos** (مذكر **Madonna**) كما تتردد شخصيات مثل الوشاة **Luzengiers** والرقيب **Gardador** والحساد **Envejos** والغيور **Gilos** وقد ترددت هذه الأخيرة فى خرجات الموشحات الأندلسية ذات الأصول الرومانثية فى صورة جلش [الجبوسي "**1998**" **678/1**– **679**]..

هذا كله يذكرنا بابن داود الظاهرى (ت 297هـ/910م) فى كتابه الزهرة " وابن حزم (الظاهري كذلك) (ت456هـ/1064م)، في كتابه " طوق الحمامة ".

استمر تأثير الأندلس فى الشعر الإسباني عهوداً طويلةً بعد ذلك، وهو ما نجد صداه فى "ديوان الحب الطيب" **Libro de Buen Amor** لخوان رويث **Juan RuÍz** كاهن هيتا **el Arcipreste de Hita** (ت 1351م)، ويعد أول الشعراء الغنائيين فى قشتالة **Castilla**، ويعده البعض أعظم شعراء العصور الوسطى، وندّاً للشاعر الإنجليزي الكبير تشوسر **Chaucer** (ت1400) فهو أول من استخدم الزجل ذا القافية الداخلية فى شعره، بل إنه استخدم الكثير من المفردات العربية، ويأتي أميريكو كاسترو **Américo Castro** بمقارنات عديدة بين ما ورد فى "الحب الطيب" لخوان رويث وما ورد فى " طوق الحمامة " لابن حزم.

أما عن غير الشعر الغنائى من فنون الأدب، فنحن نلاحظ أن التراث القصصى اليونانى واللاتينى كان قد ذهب إلى متاهات النسيان فى ظلام العصور الوسطى، ونلاحظ كذلك أن فن القص عند العرب، كانت له أصوله فى الفترة السابقة للإسلام، وبعده أفاد العرب بتراث الأمم القديمة فى هذا الشأن، وتنامت عندهم على مدى الأيام مجموعات قصصية، بينها "كليلة ودمنة " ذات الأصول الهندية والتى ترجمت إلى البهلوية (الفارسية القديمة) ثم نقلها عبد الله ابن المقفع (ت142هـ/759م) إلى العربية، وإن ترجح أنه زاد فيها قصصاً من عنده، وجميعها تتردد على ألسنة الحيوان وتحفل بالحكمة.

نعلم أن "كليلة ودمنة" هذه ترجمت إلى العبرية ومنها إلى اللاتينية، على يدى يوحنا دى كابوا، وجعل عنوانها "مرشد الحياة الإنسانية" **Directorium Vitae Humanae**، لكن ألفونسو العاشر ملك قشتالة (1252 – 1284م) – أمر في سنة 1251م أي عندما كان أميراً – بترجمتها إلى القشتالية (أى الإسبانية القديمة) وكان ذيوعها في إسبانيا مدعاةً لسخط رجال الدين، خشية تهديدها للعقيدة الكاثوليكية، على أن بعضاً من قصصها اتخذ طريقه إلى إسبانيا قبل ذلك بسنوات.

بين هذه المجموعات أيضاً قصة "السندباد" التى ترجمها فى سنة 1253م الأمير فادريك **Fadrique** أخو الملك الفونسو بعنوان "مكائد النساء وحيلهن" **Libro de los engaños y los Esayam- - ientos de las mujeres**

وتضم ستاً وعشرين حكاية، تترابط معاً بحكاية واحدة أساسية.

على أن أهم هذه المجموعـــات بطبيعـــة الحال هي مجموعة " ألف ليلة وليلة " وتعرف في أصلها الهندي بهزار أفسانة (أو هزار أفسان كما في الفهرســـت لابـــن النـــديم (ت 438هـــــ

/1074م) أي " الألف خرافة "، وقد نوه إليها المسعودى (ت 346هـ / 956م) في مروجه، لكن جرى لها تطورات في الوطن العربي خصوصاً في العراق ثم مصر، وإذا كانت قد ترجمت على نحو واضح على يدي جالان Galland الفرنسي في أوائل القرن الثامن عشر، فإن حكاياتها تسربت إلى الغرب قبل ذلك بقرون مديدة.

صار لهذه المجموعات القصصية العربية صداها فى إسبانيا منذ بدايات القرن الثانى عشر للميلاد، حين ظهر كتاب " سلك الكتاب " أو "التربية الكنسية"Diciplina Clericalis، ومؤلفه يهودى إسباني من وشقة Huesca اسمه ربى موسى سفردى (الإسبانى) (ت 1110م) تنصر واتخذ لنفسه اسم بتروس ألفونسى Petrus Alfonsi، وقد ألف كتابه فى الأصل بالعربية، ثم ترجمه إلى اللاتينية، ويضم أربعاً وثلاثين أقصوصة، تدور كلها فى موضوعات شرقية. ويعرف المؤلف نفسه بمصادره الشرقية، مثل كتاب الأمثال لحنين ابن إسحق (ت 260هـ/ 873م) وكتاب الأمثال للمبشر بن فاتك (ت 487هـ/1094م) ويتردد فيه ذكر مصر وبغداد والحج إلى مكة المكرمة، كما تتردد فيه حكايات عن الخل الزائف والخل الوفى وكيد النساء، وبعض هذه الحكايات تتردد على ألسنة الحيوان والطير، وقد بلغ من أهمية هذا الكتاب أنه ترجم كله أو بعضه إلى لغات أوروبية عديدة.

عندما نراجع أهم عمل نثرى إسبانى فى القرن الرابع عشر الميلادي "وهو كتاب أمثال الكونت لوكانورو باترونيو el libro de los Enxemplos del Cande Lucanor et de Patronio لخوان مانويل Juan Manuel (ت 1348م) وهو ابن أخي ألفونسو العاشر. نجد هذا الكتاب مملوءاً بمجموعة من الحكايات والخرافات ذات الأصول العربية، كذلك الحال بالنسبة لكتابه الآخر وهو "كتاب الأحوال" el Libro de los Estados. وجدير بالذكر أن خوان مانويل كان يعرف العربية ويتحدث بها.

يأتي بعد خوان مانويل أنسلمو دى تورميدا Anselmo de Turmeda (ت 1425م أو 1430م) وهو راهب ميورقى، ألف عدة كتب باللغة القطالونية، منها "كتاب مجادلة الحمار" Disputa de l'ase وهو في هذا الكتاب يسخر من رجال الدين والكنيسة، ويتخذ هيئة حوار بين تورميدا الذى يتحدث باسم الإنسان وحمار يتحدث باسم الحيوان، ويدور حول مقولة (أيهما أسمى من الآخر، الإنسان أم الحيوان؟) وفى النهاية يقرر أنسلمو على لسان الحمار أن الإنسان أدنى من الحيوان لعبثه وغبائه وجنونه.

يذهب آسين بلاثيوس Miguel Asin palacios (ت 1944م) وهو في أصله راهب كتورميدا إلى أن هذا الكتاب ما هو إلا ترجمة حرفية فى أحيان كثيرة لفقرات من

الرسالة الثامنة من الجسمانيات والطبيعيات فى رسائل "إخوان الصفا " التى تعود إلى القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادي. وعنوان هذه الرسالة " في كيفية تكوين الحيوانات وأوصافها"، ويأتي بنصوص من العملين يقابل بينها للتعرف على هذا التشابه.

جدير بالذكر أن أنسلمو هذا رحل فيما بعد إلى تونس، حيث أسلم وتلقب بعبد الله الترجمان، وألف كتاباً ضد النصرانية، عنوانه "تحفة الأريب فى الرد على أهل الصليب".

انتقل تأثير المجموعات القصصية العربية إلى خارج إسبانيا، فحفل بها كتاب الديكاميرون **Decameron** لبوكاتيو **Boccaccio** (ت **1375**م) وهو مجموعة حكايات لشباب وفتيات لاذوا بالهرب من الطاعون المعروف "بالموت الأسود"، والمعروف فى الشرق العربى "بالفناء الكبير"، وظلوا عشرة أيام وعشر ليال يحكون حكايات تتماثل فى معظمها مع الأصول العربية خصوصاً " ألف ليلة وليلة ".

نصل الآن إلى درة الأعمال الأدبية لعصر النهضة، ونعنى بها "الكوميديا الإلهية" **Comedia Divina** للشاعر الإيطالى الكبير دانتى الليجيرى **Danta Alighieri** (ت**1321**) ويحكى فيها رحلته إلى الجحيم والمطهر (المعروف إسلامياً بالأعراف) والفردوس، صحبة الشاعر اللاتينى فرجيل **Virgilius** (ت **19** ق.م).

في عام **1918**م خرج ميجيل آسين بلاثيوس بنظرية مثيرة، مفادها أن الكوميديا الإلهية ذات أصول إسلامية، أخصها قصة " المعراج "، ولم يتوافر لهذا العالم الدليل على وجود ترجمات أوروبية لهذه الأصول، اطلع عليها دانتى، إلى أن ظهر هذا الدليل بعد ثلاثين سنة على أيدى الإسبانى سندينو **Sendino** والإيطالى تشيرولى **Cherulli**، فقد اكتشفت ثلاث ترجمات للمعراج باللاتينية والقشتالية والفرنسية تمت قبل صدور الكوميديا الإلهية، وقد نشرت هذه الترجمات جميعها فى مدريد بعنوان "صعود محمد" **La Escala de Mahoma**.

أما عن الملحمة فقد تأخرت فى إسبانيا عنها فى فرنسا وألمانيا، ومن هنا يذهب البعض إلى الأصول الأوروبية (والفرنسية على نحو خاص) لها. لكن ريبيرا طلع بنظرية، يرى فيها أن للملحمة الإسبانية أصولاً عربية أندلسية متأثرة بتراث سابق عليها فى شبه الجزيرة، ففى تاريخ ابن القوطية (ت**367**هـ/ **977**م) حكايات بطولية ذات طابع ملحمى، أدخلت نثراً فى كتب التاريخ، بعد أن كانت منظومةً شعرا.

كذلك نظم العرب أخبار فتح الأندلس وما تلاه شعراً، ومنهم يحيى بن الحكم الغزال (ت **250**هـ/ **864**م) وتمام بن علقمة (ت **283**هـ/**896**م) وابن عبد ربه (ت **329**هـ/**940**م) صاحب "العقد الفريد".

ويذهب الطاهر مكي في دراسته الممتعة لملحمة السيد **el Poema de mío Cíd**،

وهى الملحمة الوطنية الكبرى لإسبانيا إلى تأكيد هذه الأصول العربية، فمكان تأليفها مدينة سالم **Medina Céli** على حدود قشتالة مع المسلمين، مما يترجح معه أن الشاعر من المستعربين الذين يجيدون العربية إلى جانب الرومانثية ثم إن الملحمة – بخلاف ملاحم أخرى أوروبية – تدور حول شخصية تاريخية، لا شخصية أسطورية، وفيها خصائص المجتمع العربى، مثل الكرم والشرف والثأر والمبارزة والصياح عند اقتحام المعركة، ومؤثرات إسلامية، مثل تخميس الغنائم وأداء الدية فى حال القتل الخطأ وزواج ابنتى السيد مرتين.

ثم يعقد مقارنة بين هذه الملحمة والهلالية، فالبطل فى الحالين ثائر على سلطة منفى، يقاتل لحسابه، والملحمتان لا تتناولان من قضايا الحب سوى الحب بين الزوجين، كما أنهما تشتركان فى رسم صورة كريهة لليهود.

والسيد نفسه – كما يروى صاحب الذخيرة – " كانت تدرس بين يديه الكتب، وتقرأ عليه سير العرب، فإذا انتهى إلى أخبار المهلب (بن أبي صفرة ت 83هـ/702م) استخفه الطرب وطفق يعجب منها ويتعجب ".

هناك قصة فلسفية عربية كان لها تأثيرها الوافر فى الفلسفة الأوروبية وفى الأدب الأوروبى معاً، هي قصة "حى بن يقظان" لابن طفيل (ت581هـ/1185م)، ومع أن لهذه القصة مغزى فلسفياً يدور حول فكرة التوفيق بين الفلسفة والدين، إلا أنه كان لها تأثيرها المهم فى القصص الأوروبى، ويكفى أن دانيال ديفو **Daniel Defoe** (ت 1731م) نشر روايته روبنسون كروزو **Robinson Crusoe** بعد عشرة أعوام فقط من صدور الترجمة الإنجليزية "لحى بن يقظان". وإذا كان ابن طفيل قد عاش فى مرحلة تالية للمرحلة التى نؤرخ لها، فإن أصول هذه القصة نجدها عند ابن سينا الذى سبقه بمائتى عام.

أخيراً لدينا نمط من القصص – شاع فى أوروبا فى القرن السادس عشر للميلاد –هو قصص الشطار **La Novela Picaresca**، وإذا نحن تأملنا هذه القصص نجدها قريبة الشبه بالمقامات العربية، فالبطل فى الاثنين فقير ينتمى إلى أصول متواضعة يسعى إلى خلاصه عن طريق بعض الحيل والتكدية (أى الإلحاح فى السؤال)، ومعلوم أن المقامات – وهى فن يعود إلى القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي – نشأت نشأةً مشرقية خالصة، ثم وجدت طريقها إلى الأندلس، حيث حظيت باهتمام فائق من الأندلسيين، ويعد شرح الشريشى (ت 618هـ/ 1222م) لمقامات الحريري (ت 516هـ/1122م) أهم شروحها، وفيما بعد شارك عدد من الأندلسيين فى تأليف مقامات.

2. التاريـــــــخ

عندما نغادر فنون الأدب لنتوجه إلى علم التاريخ، فإننا نقف على أصوله فى حضارات الشرق القديم، ثم هو يخطو خطوات واسعة فى الحضارة اليونانيـــة، ومن رجالـــه "هرودوت"

Herodotus (ت **425** ق.م) "أبو التاريخ" وثوكيديديس**Thucydides** (ت **400**ق.م) مؤرخ الحروب البلوبونيزية. وبعد صعود نجم روما صوب العالمية، ظهر بين الرومان مؤرخون كبار "بينهم سالوستيوس **Sallustius** (ت**34** ق. م) وليفيوس **Livius** (ت **17**م) وتاكيتوس **Tacitus** (ت**116**م) وسويتونيوس (ت**160**م) وقبلهم جميعاً يوليوس قيصر **G. Julius Caesar** (ت **44** ق.م).

يطلق على المرحلة الأولى من العصور الوسطى تعبير العصور المظلمة **AgesDark**، ففي هذه المرحلة التى دامت عدة قرون، كان الأوروبيون – كما نوضح بعد – ينظرون إلى تراث العالم القديم – وهو عندهم تراث يونانى – على أنه وثنية، لذلك لم يفيدوا بما حفل به هذا التراث من جوانب مضيئة، وتأثروا بما ورد فى كتب اليهود، وما حفلت به من أساطير، والشيء الوحيد الذى أخذوه من التراث القديم، هو تأثير الأفلاطونية الحديثة **Neo- Platonism** التى تقدم العواطف على العقل، وجدير بالذكر أن القديس أوغسطين **Augustinus** (ت **430**م) وهو المفكر المؤسس لهذه الحقبة وقف فى شبابه على هذه المدرسة، وكان تصوره للتاريخ قائماً على فكرة الصراع بين مدينة الله **Civitas Dei** ومدينة الشيطان. وسار على نهجه تلميذه الإسبانى أوروسيوس **Orisius** (ت القرن الخامس الميلادي)، وهو آخر مؤرخي العصور القديمة، وأول مؤرخى العصور الوسطى.

استقر العلم – بما فيه التاريخ – فى الأديرة، وقام عليه رهبان تحددت ثقافتهم بالعلم الديني، فلم يفصلوا فيما كتبوه بين التاريخ واللاهوت، وسيطر عليهم التفكير الغيبى والتصديق دون التحقيق، فلم يفهموا السببية التاريخية، وزاد من ذلك ضيق أفقهم الناجم عن عزلتهم فى أديرتهم، وصعوبة اتصالهم بما هو خارج هذه الأديرة، وانصرفوا إلى تدوين أخبار الخوارق والأساطير وكرامات الشهداء والقديسين، ووصلت الحال إلى أن بعض الحوليات الفرنسية أغفلت ذكر معركة تور **Tours** – پواتييه **Poitiers** (بلاط الشهداء) **732/114** م على ما لها من أهمية كبرى فى تاريخ أوروبا. ولم يقدر لعلم التاريخ أن تتحقق له نهضة نسبية إلا بعد انقضاء حقبة العصور المظلمة.

فى حين كان التفكير التاريخى فى أوروبا يغط فى سبات عميق، كان هذا التأليف يشهد فى منطقتنا العربية نهضة لا حدود لها.

نستطيع القول بأن علم التاريخ نشأ عند العرب على غير مثال سابق، أى إنه نشأ نشأة مستقلة لا علاقة لها بغير العرب من الأمم. وتعود البدايات الأولى له إلى عصر ما قبل الإسلام، إذ حرص بعض الإخباريين على حفظ ما وصل إليهم عن أيام العرب وأنساهم والأمم المندثرة والمجاورة. وكانت هذه الأخبار تتناقل عن طريق الرواية. لكن البداية الحقيقية كانت مع الإسلام، وكانت بدايةً عربيةً خالصةً كذلك، فما ترجم

من كتب التاريخ إلى اللغة العربية كان يسيراً، وأشهرها خداى نامه الذى نقله عبد الله بن المقفع من الفارسية.

كانت المدينة المنورة باعتبارها – ومكة المكرمة، مترل الوحى –، هى الحاضنة لعلم التاريخ ومنها انتقل إلى غيرها من الأمصار. ويلاحظ أن القرآن الكريم كان له أثره الوافر فى توجيه الكتابات التاريخية الأولى، فالإنسان هو خليفة الله فى أرضه، وعليه إعمار هذه الأرض، وميزه تعالى على غيره من مخلوقاته بالعلم والحرية والمسئولية، ومن هنا فهو صانع للتاريخ، ثم إن القرآن يتطرق فى كثير من آياته إلى فكرة السببية، وما حاق بأقوام من عقاب لأهم ظلموا، وفى نهايات القصص القرآنية ينوه إلى العبر المستفادة من هذه القصص.

كانت السير والمغازي هي طليعة كتب التاريخ العربية، وأهم كتاب فيها هو سيرة النبى ﷺ لابن إسحق (ت حوالى 150هـ/767م) وهى السيرة التى اختصرها بعده تلميذه ابن هشام

(ت 218هـ/833م) على أنه ما لبث أن جرى تطور فى الكتابة التاريخية مع ظهور علم "مصطلح الحديث" وهو العلم الذى يعنى بالحديث الشريف درايةً وروايةً، أى سنداً ومتناً، وبذا يصير لهذا العلم صلات مديدة بالنقد التاريخى، ويذكر فى هذا الصدد أن الطبري(ت 310هـ/ 922م) كان فى أصله محدثاً، وأراد أن يكون تاريخه الكبير تكملةً لتفسيره الكبير، ومثلما كان يستخدم النقد فى تفسيره صراحةً، فإنه كان يستخدمه فى تاريخه، لذا كان يفضل روايات سيف بن عمر (ت فى عهد الخليفة الرشيد) على روايات الواقدي (207هـ/823م) لأن هذا الأخير كان متهماً عند المدنيين.

ظلت الصلات الحميمة بين التاريخ والحديث تتواصل، وهو ما نشاهده فى كتب "الطبقات" أى التراجم، وأولها طبقات ابن سعد (ت 230هـ/745م) والمقصود بالطبقات هنا طبقات رجال الحديث. ولم يلبث أن اتسع مجال الطبقات ليشمل الطبقات المتخصصة والطبقات العامة فى مجالات شتى.

ترتب على الفتوح الكبيرة – واتساع نطاق الدولة، ودخول شعوب غير عربية فى طاعتها – أن ظهرت كتب فى التاريخ العام تتسم بالعالمية، أى أنها تهتم بتاريخ المسلمين، كما تهتم بتواريخ غير المسلمين، وأولها تاريخ اليعقوبى (ت 292هـ/904م) ليصل هذه الاتجاه إلى ذروته فى تاريخ الطبرى. وقد عبر المسعودى عن هذه الترعة العالمية بقوله : " وليس من لزم جهة وطنه، وقنع بما نمى إليه من الأخبار عن إقليمه، كمن قسم عمره على قطع الأقطار، ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار، واستخراج كل دقيق من معدنه، وإثارة كل نفيس من مكمنه ".

ترتب على الفتوح كذلك ظهور كتب تختص بها وحدها، خصوصاً أنها تعد امتداداً للمغازى، وأهمها فتوح البلدان "للبلاذرى (ت279هـ/892م)، كما ترتب عليها كذلك

ظهور كتب تختص بالخراج أى معرفة أحوال الأرض (الزراعية) وهل فتحت عنوة أم صلحاً. لتقدير ما يجب عليها من أموال. وأهم هذه الكتب فى البداية كتاب (الخراج) لأبي يوسف (ت182هـ/792م) صاحب الإمام أبى حنيفة (ت150هـ/767م) ومع انتشار الإسلام وتنامى التعريب وبزوغ الروح الوطنية فى مختلف الأقطار الإسلامية. خصوصا مع تفكك دوله الخلافة الجامعة. ظهرت تواريخ محلية، كتاريخ مصر وأخبارها لابن عبد الحكم (ت257هـ/870م) وولاة مصر وقضاها للكندى (ت350هـ/961م)، لتصل هذه التواريخ إلى ذروتها فى " المقتبس من أنباء أهل الأندلس لابن حيان (ت 479هـ/1070م).

كذلك أسفر هذا الترزوع المحلى عن ظهور ما يعرف بكتب "الخطط" التى تجمع بين التاريخ والطبوغرافية فى آن، وتربطها صلات حميمة بالجغرافية ورائدها الأول ابن عبد الحكم وبعده الكندى ثم ابن زولاق (ت386هـ/996م) فالقضاعي (ت 454هـ/1062م) إلى أن تصل إلى ذروتها عند المقريزى (ت845هـ/1442م).

وإذا كنا قد أشرنا إلى أهمية ابن حزم فى مجال الأدب فإن له أهمية أخرى تعد لها في مجال تاريخ الأديان بالذات، فكتابه "الفصل فى الملل والأهواء والنحل" هو أهم كتاب فى هذا الشأن، ولا نجد نظيراً له فى تراث الأمم جميعها شرقاً وغرباً خلال العصور الوسطى، وعنه يقول آسين بلاثيوس: "إننا لا نجد بين أيدينا وثيقة هى أغنى ولا أجدر بالثقة من كتاب "الفصل" لابن حزم، تمكننا من تتبع تيار الثقافة الذى لم يتوقف أبداً خلال العصور الوسطى، فيما يتصل بتاريخ الآراء والمذاهب ".

وإذا نحن تناولنا بالدراسة بعضاً من هؤلاء المؤرخين، نلاحظ أهم بخلاف الرهبان كانوا فى مجملهم كثيرى الأسفار، فابن إسحق نفسه ارتحل إلى مصر وزار الإسكندرية، كما كان المسعودى مؤرخاً إلى كونه جغرافياً ورحالة طوحت به همته إلى آفاق بعيدة. وكانوا واسعى الثقافة، لم يقتصروا على علم بذاته دون غيره من علوم، ويحكى عن الطبرى أنه "كان القارئ الذي لا يعرف إلا الفقه، وكالنحوي الذي لا يعرف إلا النحو، وكالحاسب الذي لا يعرف إلا الحساب، وكان عالماً بالعبادات، جامعاً للعلوم، وإذا جمعت بين كتبه وكتب غيره، وجدت لكتبه فضلاً على غيرها ".

ويصعب علينا أن نحصى مآثر المؤرخين العرب، وهى أجل من أن تحصى، فهم – في معظمهم – كانوا يدونون تواريخهم بعيداً عن سلطة الدولة، ولم يكن من أهدافهم إرضاء حاكم من حكامها، وإن مال بعضهم إليهم، ومع أن العديد منهم كانت لديهم انتماءاتهم الفكرية والسياسية الخاصة بهم، إلا أهم فى مجملهم كانوا يتسمون بالأمانة، وابن إسحق نفسه يأتى فى تاريخه بأشعار لمشركين فى هجاء من يترجم له وهو نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام (ابن

الزِّبعرى في بدر وأحد) حتى إن ابن هشام اضطر إلى أن يلطف من حدة هذه الأشعار فى مختصره. وهم فى هذا السياق لا يكتفون برواية ما شاهدوه أو سمعوه من ثقات، فقد كانوا يعاودون وثائق الدولة، وكبار المسئولين فيها، وانفردوا عن معاصريهم الأوروبيين بالتوقيت بالسنين والأشهر والأيام، وهو ما لم تعرفه أوروبا قبل بداية العصر الحديث، كما تفرد بعضهم بمعرفة لغات أخرى غير اللغة التى يدونون بها، واهتموا اهتماماً فائقاً بتأثير البيئة فى صنع أحداث التاريخ، فمن كتب منهم عن تاريخ مصر، كان يبدأ بالحديث عن فضائلها، وهذا من شأنه أن ينتهى به إلى الحديث عن بيئتها.

وإذا نحن اتخذنا ابن حيان القرطبى نموذجاً لهؤلاء المؤرخين، عندما بلغ علم التاريخ مداه، فإننا مع دثور بعض أسفار كتابه "المقتبس" إننا من خلال ما وصل إلينا من هذه الأسفار، نجده قد وضع لنفسه منهجاً محدداً، هو أن يبدأ بالحديث عن الأمير أو الخليفة وملامح شخصيته، ثم يترجم لرجال دولته وتطور العمران فى عصره وأخبار العلم والعلماء، ثم يتناول الأحداث على حسب السنين، فإذا كانت الحادثة تستغرق عدة سنوات، فإنه يواصلها إلى نهايتها، ثم يعاود النسق الحولي، ويترجم بعد ذلك للأعيان وينتهى بالوفيات. وهو فى هذا الإبان يقابل بين التقويمين : الهجري والميلادي، ويقابل بين الروايات، وينحاز إلى العقل وينبذ الأساطير، ويقارن بين وقائع جرت بالأندلس ووقائع أخرى جرت بالمشرق. وهو فى الأحوال جميعها مؤرخ نزيه يقسو على بنى أمية، مع كونه وأهله من صنائعهم، ثم هو كثير المعاودة لوثائق الدولة فضلاً عن الرواية الشفوية، ولدينا ما يرجح أنه كان على دراية باللاتينية الدارجة (عجمية أهل الأندلس) ولم يستنكف أن ينقل عن المستعربين من نصارى الأندلس، بل إنه اطلع على مدونات نصرانية دثرت بعد. وقد صاغ هذا كله بعبارة أدبية راقية وأسلوب أدبى لا يدانيه فيه أحد، الأمر الذى يجعل من كتابه أدباً إلى جانب كونه تاريخاً.

هناك ظاهرة مهمة لا نجد لها مثيلاً فى أوروبا المعاصرة، هي أننا نشاهد العديد من المؤرخين النصارى الذين عاشوا فى كنف دار الإسلام وكتبوا تواريخ الخاصة بهم، كما كتبوا تواريخاً تهمهم والمسلمين باللغة العربية ولغات أخرى غير العربية، ولم يتورعوا عن ذكر ما يدعونه من ظلامات وقعت بهم من قبل مسلمين أو حكام مسلمين، وهذا كله لا نعهده فى أوروبا، إذ لم يظهر فيها خلال الحقبة التى نؤرخ لها مؤرخون ينتمون إلى ديانة أخرى غير النصرانية.

بين هؤلاء المؤرخين يوحنا النقيوسى الذى عاصر الفتح العربى لمصر، وألف كتاباً فى تاريخها قبل هذا الفتح وبعده، وضاع أصله وبقيت منه ترجمة حبشية، وديو نيسيوس التلمحري (عاش فى القرن الثانى الهجرى/ الثامن الميلادى) وسعيد ابن البطريق (ت

321هـ/933م) وساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين (عاش في القرن الرابع / القرن العاشر) ويحيى بن سعيد الأنطاكى (ت بعد 425هـ/1034م).

لم تقف الكتابة التاريخية العربية عند هذا الحد، فقد كان لها صداها فى تجلية الغموض عن جوانب مظلمة فى تاريخ العصور الوسطى فى أوروبا والعالم بأسره، فقد كانت رسالة ابن فضلان (ت بعد 310هـ/922م) وهى رسالة تاريخية – جغرافية، هى أقدم تقرير عن تاريخ روسيا والشعوب المجاورة لها من خزر وبلغار، والحال نفسها مع المسعودى، عندما يتحدث عن غزوات الروس لسواحل بحر الخزر (قزوين) ومع شهرة ملحمة السيد، فإن الأوروبيين كانوا يعتبرونه حتى أواسط القرن التاسع عشر شخصية أسطورية، إلى أن أماطت أبحاث دوزى Dozy اللثام عن تاريخية هذه الشخصية، من خلال تنقيبه فى المخطوطات العربية التى وقف عليها، ولم تكن قد نشرت بعد، وضمنها بحثه Le Cid dapres des Nouveaux Documents.

وقد أدرك الأوربيون فى فترة مبكرة أهمية كتب التاريخ العربية؛ لذا نجد وليم الصورى (ت 1184م) وهو كبير مؤرخى الفرنج فى مملكة بيت المقدس الصليبية يتعلم اللغة العربية، ويطالع بها كتب التاريخ العربية وينقل منها. على أن هذا الاتجاه كان أكثر وضوحاً فى إسبانيا، فقد نهلت العديد من الحوليات الإسبانية المبكرة من هذه الكتب خصوصاً أن معظم الذين قاموا عليها من الإسبان الذين يعودون فى أصولهم إلى مستعربى الأندلس.

بين هذه الحوليات "حولية البلدة " La Crónica Albeldense التى عثر عليها عند دير البلدة، وتضم مختصراً لتاريخ أسبانيا الإسلامية النصرانية حتى نهاية السنوات العشر الأولى من عهد الفونسو الثالث (876م) ملك ليون، والحولية المتنبئة la Crónica Profetica وهى حولية معاصرة للحولية السابقة، ودعيت بذلك، لأنه كانت هناك نبوءة تقول بأن سيادة العرب فى إسبانيا سوف تنتهى فى العام 883م، وهو تاريخ كتابة هذه الحولية، والحولية القوطية la Cronica Gothorum وكتبت فى أوائل القرن الحادى عشر وصاحبها مستعرب من طليطلة Toledo، اعتمد على مصادر عربية، بينها النص الأصلى المفقود لتاريخ الرازى الأندلسى (ت 344هـ/955م) وهو النص الذى ترجم فيما بعد إلى اللغة البرتغالية، ونقل عنها إلى اللغة الأسبانية بعنوان La Crónica de l Moro Rasis.

3. الجغرافيـــا

إذا كان ما أحرزه العرب من نهضة فى مجالى الأدب والتاريخ جاء على غير مثال سابق، فإن الحال تختلف مع علم الجغرافية، إذ تأثر العرب فى هذا العلم بأمم سابقة عليهم خصوصاً اليونانيين. وجدير بالذكر أن مصطلح " جغرافية

" لم يجد طريقه إلى الأدب الجغرافى العربى إلا فى القرن الرابع الهجري/العاشر للميلاد، حين يرد لأول مرة فى الرسالة الرابعة من القسم الجغرافى من رسائل "إخوان الصفا وعنوانه" الرسالة الرابعة فى جغرافيا، يعنى صورة الأرض والأقاليم". ومع تأخر ظهور هذا المصطلح فإن العرب عرفوا مضمونه بعناوين أخرى هى. "صورة الأرض" و"تقويم البلدان" و "المسالك والممالك".

كانت لدى العرب معرفة بالجغرافية قبل الإسلام، فرضتها عليهم حياة التنقل سعياً وراء موارد الكلأ كرعاة، أو سعياً وراء موارد الرزق كتجار، بل إن همتهم طوحت بهم بعيداً إلى بحار الهند والصين، وهو ما نتلمس شواهد عليها في شعرهم، خصوصاً شعر "طرفة " و"الأعشى" وبشر بن أبي خازم الأسدي".

عرف العرب فى هذه المرحلة الرياح الموسمية، وأفادوا بها في رحلاتهم عبر البحر، وكانوا يستخدمون سفناً، يخيطون ألواحها بحبال مصنوعة من لحاء شجر النارجيل (جوز الهند) ثم يطلون قيعانها بالقار. يقول بشر بن أبي خازم الأسدى :

مُعَبَّدِةِ السقائفِ ذاتِ دُسْرٍ
مُضَبَّرةٍ جوانُبها رداحِ

بعد ظهور الإسلام أضيفت دوافع أخرى للنهضة في علم الجغرافية، بعضها دينى يتصل بالرغبة في معرفة أوقات الصلاة وبدايات الشهور والطريق للحج إلى بيت الله الحرام والمشاهد المقدسة. فضلاً عن اتساع دار الإسلام وحاجة المسلمين لمعرفة أحوال البلاد المفتوحة لتقرير ما عليها من أموال، ثم دخول هذه الدار في علاقات – سلماً وحرباً – مع ما يقع خارجها، وأخيراً ما جرى من تطورات ثقافية، جعلت الرحلة في طلب العلم شرطاً أساسياً للعالم أياً كان تخصصه.

كما إن هذه التطورات ذاتها أفضت إلى انتعاش حركة الترجمة، فترجم كتابا "المجسطى" و "الجغرافيا" لبطليموس القلوذى " **Patolemaeus Claudius** عاش في القرن الثانى الميلادى"، وقام بترجمة الكتاب الأول حنين بن إسحق (ت **260**هـ/**873**م) وأصلحها ثابت بن قرة (ت**288**هـ/ **901**م) وقام على ترجمة الكتاب الآخر الكندي (ت **260**هـ/ **872**م) ثم الخوارزمي (ت**232**هـ/**847**م). ومن عجب أن ضاع الأصل اليونانى للمجسطى، وبقيت ترجمته العربية التى نقلها إلى اللاتينية جيراردو الكريمونى **Girardo di Cremona** في سنة **1175**م.

كان للترجمة أثرها الإيجابي الواضح في أن يتعرف العرب إلى ما وصلت إليه معارف الأمم القديمة التى سبقتهم، لكنها في الوقت نفسه كان لها أثرها السلبى الواضح كذلك في أنهم انحازوا إلى أفكار خاطئة وقفوا عليها في تلك الكتب، وظلت حاكمة في مجال علمهم الجغرافى، مثل النظرية اليونانية عن الأقاليم السبعة وعن الربع المعمور في النصف الشمالى من الأرض.

على أنه يحسب للعرب أخذهم بفكرة كروية الأرض – وهى فكرة صحيحة – عن اليونانيين، في حين أنها لم تصبح كذلك عند الأوروبيين إلا في عصر النهضة.

يتفق الجغرافيون العرب على أن الأرض مدورة، كتدوير الكرة، موضوعة فى جوف الفلك كالُمحَّة في جوف البيضة. ويدلل ابن رستة (ت أوائل القرن الرابع هــ/ العاشرم) على ذلك بأن الشمس والقمر وسائر الكواكب لا تطلع في وقت واحد، ولا تغرب في وقت واحد في جميع الأرضين. ويقول المسعودي: "إن الشمس إذا غابت فى أقصى الصين، كان طلوعها على الجزائر العامرة (يقصد الكاناري‍اس **Canarias**) المذكورة فى بحر أوقيانوس الغربى (يقصد المحيط الاطلسى) وإذا غابت فى هذه الجزائر كان طلوعها فى أقصى الصين".

أما عن دوران الأرض حول محورها فقد كان للبيرونى (ت 440هـــ/ 1049م) فضل ريادة هذه النظرية، ومع عدم توصله إلى نتيجة حاسمة فى هذا الخصوص، فإن علماء الجغرافية المحدثين ينظرون إلى بحثه هذا بقدر كبير من الاحترام، في حين يذهب نللينو **C. Nallino** إلى أنه ربما كان أحمد ابن محمد السجزي الرياضي الذي عاش في النصف الثانى من القرن الرابع هـــ/ العاشر م مصدقاً لها.

ما دامت الأرض كروية, فإنها لابد أن يكون لها محيط، ونعلم أنه قد جرت قبل العرب محاولات لقياس هذا المحيط، أشهرها محاولة إراتوسثينيس **Eratosthenes** (ت 194 ق.م) الذى عاش فى الإسكندرية فى زمن البطالمة ملوك مصر. على أن المحاولة التى تمت فى سنة 212هـــ/827م أي في زمن الخليفة العباسي المأمون (198هـــ/ 813م-218هـــ/833م) والتي حددت محيط الأرض ب 41248 كم، هى أدق محاولة، وتقترب فى نتيجتها مما توصل إليه العلم الحديث، ويصفها نللينو بأنها أول قياس حقيقى لمحيط الأرض، وأنها تعد فى أعمال العرب العالمية المجيدة.

ما ذكرناه آنفاً يتصل بالجغرافية الفلكية أو الجغرافية الرياضية، لكن إنجاز العرب الأكبر كان فيما يعرف "بالمسالك والممالك" الذى يقوم على التحقيق والمشاهدة بالدرجة الأولى، أى الرحلة. والرحلة – كما نعلم – هى عين الجغرافى المبصرة. وقد حدد المقدسى (ت حوالي 390هـــ/999م) موارد كتابه فى ثلاثة "أحدها ما عايناه والثانى ما سمعناه من الثقات، والثالث ما وجدناه فى الكتب المصنفة فى هذا الباب وفى غيره. ويضيف اليعقوبي (ت292هـــ/904م)" إني عنيت في عنفوان شبابي وعند اكتمال سنى وحدة ذهنى بعلم أخبار البلدان ومسافة ما بين كل بلد وبلد، لأنى سافرت حديث السن واتصلت أسفارى ودام تغربى...". ويشير أيضاً إلى الأهوال التي صادفها بنفسه، والتى سمع بها من العمانيين عن بحر الهند، وفى المرتين اللتين زار خلالهما جزيرة قنبلو(يترجح أنها مدغشقر) هلك عدة من رفاقه، كما ينوه كذلك إلى أن معلومات

ربابنة عمان وسيراف عن هذا البحر لا تتفق مع نظريات الفلاسفة، ويقصد بالفلاسفة هنا اليونانيين.

كان هؤلاء الجغرافيون الرحالة على نحو عام أمناء فى وصفهم، وإذا استبعدنا بعض ما يذكرونه مما يدخل فى باب العجائب **Mirabilia**، فإن معظم ما تواتر فى كتبهم لا يبتعد كثيراً عما وصل إليه العلم الحديث.

أفاد العرب بمعارفهم الجغرافية فى القيام برحلات بحرية إلى بلاد نائية تقع على أطراف العالم، ويعد ابن خرداذبة أول من وصف الرحلة البحرية إلى المشرق بداية من البصرة عند رأس الخليج إلى أن تصل السفن إلى كولم ملى جنوبي ساحل المليبار في بلاد الهند، ثم إلى جزيرة سرنديب (سريلانكا) وتدخل بحر هركند (خليج البنغال) إلى شبه جزيرة الملايو، وتعبر مضيق شلاهط (مالقة) إلى بلاد الصنف (الصين الهندية) إلى بحر صنخى (بحر الصين) فلوقين (هانوى فى فيتنام) وتنتهي إلى خانقو (كانتون) وسائر موانى الصين.

كان للعرب فضل كبير فى تطور علم الجغرافيا، فقد توصلوا إلى جملة حقائق لم يكن العالم على دراية بها قبلهم، بينها ما يذهب إليه البيرونى من خضوع منابع المياه لقواعد الهيدروستاتيكا **Hydrostatics**، وكيف كان وادى السند ذات يوم قاعاً للبحر ثم غطته الرواسب الفيضية، ثم هو يفسر حركة المد والجزر، ويربط بينها وبين أوجه القمر. أما المسعودي فهو يتحدث عن الرياح الموسمية فى المحيط الهندى ومواعيد هبوبها وأثرها فى الملاحة.

لم يقف العرب عند حد الجغرافية الطبيعية، فقد ولجوا إلى الجغرافية البشرية، ويحدثنا ابن خرداذبة (ت حوالي **300**هـ/**912**م) عن نظام الطبقات فى الهند، ويأتى بأخبار عن دياناتها، ويحدثنا ابن رستة عن شعوب الإمبراطورية البيزنطية والهند الشرقية والصقالية والشعوب الألتائية (وبينها المجريون والفنيون) وغير خاف مانوهنا إليه فى السابق عن رحلة ابن فضلان إلى الأنحاء الجنوبية من روسيا ووصفه لشعوبها.

كذلك عرف العرب الجغرافيا الإقليمية أي الجغرافية التى تختص بإقليم بعينه دون غيره من الأقاليم، فقد صنف الهمدانى كتاباً عن "صفة جزيرة العرب"، كما صنف البيرونى كتاباً عن الهند.

بطبيعة الحال فإن التقدم فى معارف العرب الجغرافية سوف تكون لها آثارها الجمة فى غير مجال، ففى غضون القرن الرابع هـ / العاشرم، ظهر ما صار يعرف عند الغربيين "بأطلس الإسلام"، ويعد عند علماء الجغرافية المحدثين أكثر أصالة من خرائط العالم **Mappae Mundi** التى كانت سائدة فى أوربا خلال العصور الوسطى، وهى خرائط لا تتطابق مع الواقع، وغلبت عليها الأساطير والطابع الدينى. ويعد الإصطخرى رائد الكارتوجرافيا العربية وبعده يأتى البلخى وابن حوقل والمقدسى.

لم يقف الأمر عند هذا الحد فإن المقدسى الذى يعد " أكبر جغرافى عرفته البشرية قاطبة" – كما يقول كرامرز Kramers، – قام بتلوين خريطته على نحو ما يفعل الخرائطيون الآن، وذلك زيادة فى توضيحها فيقول : "ثم فصلنا كور كل إقليم، ونصبنا أمصارها، وذكرنا قصباڤا، ورتبنا مدها وأجنادها، بعد ما مثلناها ورسمنا حدودها وخططها، وحررنا طرقها المعروفة بالحمرة ورمالها الذهبية بالصفرة،وبحارها المالحة بالخضرة، وأنهارها المعروفة بالزرقة، وجبالها المشهورة بالغبرة، ليقرب الوصف إلى الأفهام، ويقف عليه الخاص والعام".

تأثر الجغرافيون في عصر النهضة بهذه الخرائط العربية، ومنهم مارينو سانودو Marino Sanudo الذى زود كتابه الأرض المقدسة Opus Terrae Sanctae الصادر فى سنة 1321 بخرائط، لتوضيح فكرته التى ترمى إلى حصار العالم الإسلامي حصاراً اقتصادياً، وهى فى حقيقة الأمر ليست سوى تكرار للخرائط العربية، مع فارق وحيد، هو أنه جعل مركزها بيت المقدس، فى حين جعل العرب مركزها مكة المكرّمة.

كانت للعرب كذلك ريادقم فى مجال الكشوف الجغرافية، ويذكر أن الخليفة الواثق (227هـ/842م- 232هـ/847م) أرسل سلاماً الترجمان إلى الشمال، بهدف الوصول إلى السد الذى يقال إن الإسكندر ذا القرنين بناه ليحول دون تسرب يأجوج ومأجوج، وإذا كان البعض يرى فى هذه القصة أسطورة فإن دى خويه De Goeje (ت 1909م) يراها واقعةً تاريخية، بل إنه يذهب إلى أن سلاماً هذا ربما أبصر سور الصين العظيم.

هناك رحلة أخرى هي الأشهر بين الرحلات العربية فى مجال الكشوف الجغرافية، وهى رحلة "الإخوة المغررين" التى ترد كاملة عند الإدريسى (ت 564هـ/1169م) ونقلها عنه جغرافيون عرب آخرون. هذه الرحلة التى يحدد بعض الباحثين تاريخها بسنة 1031/422، بدأت من أشبونة Liboa (عاصمة البرتغال الحالية) ووصل أبطالها إلى جزر الأثوريس Azores وكانارياس أي إنهم اكتشفوها قبل البرتغاليين بثلاثمائة سنة.

يذهب بعض آخر إلى أن هؤلاء المغررين وصلوا إلى أمريكا، لكن ليست لدينا – حتى الآن – ما يؤكد هذه الفرضية، ومع ذلك فإن البيرونى ينوه إلى احتمال وجود أرض فى مكان ما بين الجزائر العامرة (كانارياس) والصين، فهو يصف البحر المحيط بأنه " قاطع بين المعمورة وبين ما يمكن أن يكون وراء هذا البحر في الجهتين من بر أو عمارة في جزيرة، إذ ليس بملوك من ظلام الهواء ومن غلظ الماء، ومن اضطراب الطرق وعظم الغرر، مع عدم الفائدة، ولذلك عمل الأوائل فيه وفى سواحله علامات تمنع من سلوكه". العرب إذن كانوا على دراية باحتمال وجود أرض وراء هذا المحيط غرباً، وهى خطوة كبيرة على الطريق إلى العالم الجديد.

وإذا كان الأوربيون قد سعوا ابتداءً منذ منتصف القرن التاسع عشر، من أجل كشف منابع النيل، فإن العرب سبقوهم إلى ذلك، ومنهم عبد الله بن أحمد بن سليم الأسوانى الذى ابتعثه القائد جوهر حوالى عام 360هـ/971م بكتاب إلى قيرقي ملك النوبة يعرض عليه فيه الإسلام وتسديد البقط (أي يلتزم بالمعاهدة التى عقدها المسلمون مع النوبة بعد فتح مصر وما يترتب عليها من واجبات) وقد سجل ابن سليم أخبار رحلته ونتائجها فى كتاب لم يصل إلينا، عنوانه "أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل"، وقد انتهى فى رحلته الى دنقلة، ونستطيع من خلال النقول عنه عند المقريزى أن نتوصل الى حقائق كثيرة عن منابع النيل.

أخيراً كان لنهضة علم الجغرافية عند العرب أثرها فى ظهور علم جديد هو علم "الأوقيانوغرافية " **Oceanographia** وهو علم يقوم على أسس من علوم الحياة والكيمياء والجغرافية والأرض. ومع أن هذا العلم وصل إلى ذروته عند أحمد بن ماجد (ت 910هـ/1504م) فإن المقدسى الذي عاش فى القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي يشير إلى ما وصل إليه هذا العلم فى زمانه فيقول : "وأما أنا فسرت فيه (يقصد بحر الهند الذى يعرف أيضاً ببحر الزنج) نحو ألفى فرسخ (الفرسخ ثلاثة أميال) ودرت على الجزيرة كلها من القلزم (السويس) إلى عبادان، سوى ما توهمت بنا المراكب إلى جزائره ولججه، وصاحبت مشايخ فيه ولدوا ونشاوا من ربانيين وأشاتمة (أي ربابنة كذلك) ورياضيين ووكلاء وتجار، ورأيتهم أبصر الناس به وبمراسيه وأرياحه وجزائره، فسألتهم عنه وعن أسبابه وحدوده، ورأيت معهم دفاتر فى ذلك، يتدارسونها ويعولون عليها ويعملون بما فيها، فعلقت من ذلك صدراً صالحاً، بعد ما ميزت وتدربت، ثم قابلته بالصور التى ذكرت".

تعرف هذه الدفاتر فى علوم البحار بالمرشدات الملاحية **Portulani** (وواحدها **Portulano**)، ويذهب كراتشكوفسكى إلى أن موطن هذه المرشدات الملاحية العربية هو سيراف على الشاطىء الفارسى وعمان على الشاطىء الغربى. ومما يجدر ذكره أن أوربا لم تعرف المرشدات الملاحية قبل مطالع القرن الرابع عشر.

4. الفلسفــة

تختلف الفلسفة عند العرب عن الأدب والتاريخ وإلى حد ما الجغرافية، فى أنها يونانية المنشأ، ولم تكن لدى العرب سابق خبرة بها. والسبب يكمن فى طبيعة البيئة التى عاشوها فى الفترة السابقة لظهور الإسلام، فلم تكن هذه البيئة مناسبةً لظهور فكر فلسفى، مع ما يقال عن تأثيرات للفلسفة اليونانية وفدت إلى مملكة الحيرة العربية فى بلاد العراق. ولا نجد فى الشعر الجاهلى سوى خطرات وجودية عابرة، لا تنبىء عن فكر فلسفى بالضرورة، وهو ما نشاهده فى هذا البيت:

حياة ثم بعث ثم نشر

حديث خرافة يا أم عمرو

عندما ظهر الإسلام، ومع ما احتواه هذا الدين القيم من حث إلى النظر العقلى – والفلسفة أداتها العقل – فإن اهتمام العرب والمسلمين جميعهم فى الصدر الأول كان يتوجه إلى التفكير المتصل بهذا الدين دون غيره، إلى أن شرعوا يأخذون بمنطق اليونانيين لغايات عقدية بحتة، ثم انتقلوا منه إلى غيره من جوانب الفلسفة.

بعد أن انتهى الصراع بين الوثنية والنصرانية بظفر هذه الأخيرة، شرع النصارى فى شن هجوم مضاد على أهم منجزات خصيمتهم، وهو الفكر اليونانى وأغلقت مدرسة أثينا الشـــهيرة في سنة 529م على يـــدى الإمبراطـــور يوستنيـــانوس Justininas (527-565م) وهرب القائمون عليها إلى أراضى الإمبراطورية الساسانية فى عهد كسرى أنو شروان (531- 578م). وكان مولعاً بالثقافة الهيلينية حيث استقروا، وصارت لهم مراكز أربعة مهمة، هي الرها وحران ونصيبين في بلاد الجزيرة، وجند يسابور في بلاد الأهواز (خوزستان) وظلوا يتدارسون الفكر اليونانى القديم لعهود تالية بعد ظهور الإسلام.

قبل أن ينتهي القرن الأول الهجرى / السابع الميلادي، بدأت حركة الترجمة من اللغات الأجنبية – خصوصاً اليونلنية – ويعود الفضل في هذه الريادة إلى الأمير خالد بن يزيد بن معاوية (ت 85هـ/704م) الذي عرف "بحكيم آل مروان ".

ومع أن حركة الترجمة تواصلت بعد هذا الأمير، فإن النهضة الحقيقية لها كانت فى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادي، خصوصاً في عهد الخليفة المأمون، الذي تنسب إليه أو إلى أبيه الرشيد (170-193هـ/786-909م) "دار الحكمة " أو "بيت الحكمة" فى بغداد. وقد غصت هذه الدار بالكتب التى استقدمها المأمون من أصقاع شتى، وقام على ترجمتها صابئة ونساطرة وسريان وعرب، وأشهرهم في البداية حنين بن إسحق العبادى، وكان يسافر إلى بلاد كثيرة في طلب الكتب، كما كان عالماً بالعربية واليونلنية والفارسية. ويذكر أن المأمون "كان يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى العربية مِثْلاً بمثل "كما يروى صاحب " عيون الأنباء ".

جدير بالذكر أن الترجمة، وإن تصاعد زخمها في عهد المأمون، فإنها تواصلت في عهود خلفائه، كما أنها امتدت إلى الأندلس فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر (300-350هـ/912-961م) وعلى وجه أخص في عهد ولده الحكم المستنصر (350-366هـ/961-976م) الذي نهض في الأندلس بدور قريب من دور المأمون في العراق.

ما يخصنا أن الجم الغفير من هذه الكتب كان فى مجال الفلسفة، وليس عملنا هنا أن نحصى ما تم ترجمته منها – وهو كثير – ومن شاء أن يتوسع، فليراجع الفهرست لابن النديم ففيه غايته. ومن عجب أن بعض كتب الفلسفة

اليونانية وكتب العلم اليونانى التى ترجمت إلى اللغة العربية، اندثرت أصولها القديمة، ولم يجد الأوربيون في عصر النهضة سوى هذه الترجمات العربية وما دون على متوها من شروح وهوامش وحواش، فنقلوها إلى لغتهم اللاتينية.

أفاد العرب بهذه الكتب، ووجد الفكر اليونانى القديم طريقه إلى فكرهم، بخلاف ما كانت عليه الحال في أوربا في المرحلة المعاصرة لهم – نقصد العصور المظلمة – فلم تكن لدى المسلمين هيئة كهنوتية، تقف في طريق هذا الفكر، وكانت القاعدة الشرعية عندهم الإباحة، ثم يأتى التقييد بعد ذلك.

وعليه فقد لاحت منذ مطالع القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي طوالع فلسفة عربية إسلامية، تعاملت مع المشكلات التقليدية للفلسفة، وهى مشكلات الإله والعالم والإنسان. وظهر في المشرق عدد من الفلاسفة الكبار أظهرهم – في الفترة موضوع البحث – الكندي (ت260هـ/873م) "فيلسوف العرب "والفارابي (ت 339هـ/950م) "المعلم الثاني" وابن سينا (ت428هـ/1037م) "الشيخ الرئيس"، وبعدهم انتقل لواء الفلسفة من المشرق إلى الأندلس، وأظهر رجالها أبو الوليد ابن رشد (الحفيد) (ت 595هـ/1198م).

اتسمت الفلسفة العربية الإسلامية بخصائص ميزتها عن غيرها من فلسفات، أجملها العالم الكبير إبراهيم مدكور في أربع هي أنها:

تبدأ بالواحد، وتحلل فكرة الألوهية تحليلاً دقيقاً شاملاً لم يسبق إليه، وتمعن فى تصوير البارىء تصويراً أساسه التجريد والتتريه والوحدة المطلقة والكمال التام. وعن الواحد صدر كل شيء، ولا تستطيع النفوس البشرية الكشف عن الحقائق الكلية إلا بمدد سماوي وفيض علوي أو بمعونة العقل الفعال بلغة الفارابى وابن سينا، كما أن لها في أن تسمو عن طريق النظر والتأمل إلى مرتبة الاتصال بالعالم العلوى.

ولأن للروح نصيباً فى الفلسفة الدينية، فإن فلاسفة الإسلام ذهبوا إلى أنها مصدر الحياة والحركة والإدراك، ووسيلة البهجة والسعادة، ففي الكائنات الحية نفوس تعتز بها وتحركها وتمد بعضها بالعلم والمعرفة ورئيس "المدينة الفاضلة " بشر سمت نفسه فتخلصت من شوائب البدن، وأضحى نبياً أو فيلسوفاً، يسوس الناس بالحكمة، ويدير شئونهم بالعدل والقسطاس.

تعول على العقل التعويل كله، فى تفسير مشكلة الألوهية والكون والإنسان، فواجب الوجود عقل محض يعقل ذاته بذاته، وعنه صدر العقل الأول، وهو أول شئ خلقه الله، وعنه صدرت العقول الأخرى التى تدير شئون السماء، فيما عدا العقل العاشر أوالعقل الفعال الذى يرعى شئون الأرض، وعنه صدر عالم الكون والفساد، ومنه الإنسان الذى هو أشرف الكائنات.

والفلاسفة بترعتهم العقلية يلتقون مع المعتزلة الذين سبقوهم إلى تعظيم العقل، وتأولوا النصوص الدينية التى لا تتمشى مع العقل ولا يقرها المنطق.

أي إن الفلاسفة عنوا بالتوفيق بين المدارس الفلسفية المختلفة، والفارابي نفسه كان يؤمن بوحدة الفلسفة، فما دامت الحقيقة هى هدفها، فإن التعارض الظاهر بين أفلاطون وأرسطو، سببه تلاميذهما الذين توهموه، ومن ثم فقد حاول أن يجمع بين آراء الحكيمين، وبذا ترتبط الفلسفة الإسلامية الأفلاطونية بالفلسفة الأرسطية.

لم يقف الفلاسفة المسلمون عند حد التوفيق بين المذاهب الفلسفية، فإنهم جنحوا إلى التوفيق بين الفلسفة والدين، وقد شغلوا جميعهم بهذا الاتجاه من الكندى حتى ابن رشد، وهم وأن لم يأخذوا بفكرة أرسطو عن الألوهية – والتى انتهى فيها إلى أن جعل الله المحرك الذى لا يتحرك – فإنهم وقفوا موقفاً وسطاً من الصلة بين الله والعالم وقول أرسطو بقدم المادة، فقالوا بأن المادة مخلوقة وقديمة معاً، تعهدها الله بعنايته منذ خلقها، ليتحقق للكون ما أعده له من نظام وقوانين ثابتة. وإذا كان أرسطو قد نفى خلود النفس، لأنها صورة والصورة لا وجود لها بمعزل عن المادة، وذلك يهدم المسئولية من أساسها، فإن ابن سينا برهن على الخلود برهنةً مفصلة.

هذا ولم يكتف الفلاسفة المسلمون بالتوفيق بين الفلسفة (فلسفة أرسطو) والدين، بل حاولوا أن يقربوا الدين من الفلسفة، ووجد البعض منهم لبعض قضايا الدين سنداً عقلياً، ومنها الوحي والإلهام، وهما مصدرا النبوة، وعنى الفارابي بذلك عناية كبرى، واستطاع في ضوء نظرية الأحلام أن يفسر النبوة تفسيراً علمياً، وتوسع ابن سينا بعده في هذا المجال، فكون نظرية النبوة، التي اعتبرها ابن رشد بحق من صنع فلاسفة الإسلام وحدهم.

بل إن الحركة العلمية عند العرب سبقت الفلسفة، وجابر بن حيان الكوفي (ت حوالي 200هـ/815م) هو "أبو الكيمياء العربية" وسبق روجر بيكون (ت حوالي 1292م) في أخذه بالملاحظة والتجربة. وقد كان الكندى عالماً قبل أن يكون فيلسوفاً، وحاول أن يبرهن على وجود الله برهنة رياضية، كما كان الفارابي عالماً بالموسيقى وله سفر ضخم فيها هو "الموسيقى الكبير" أما ابن سينا صاحب أكبر موسوعة فلسفية عربية وهي "الشفاء" فكان طبيباً، ويعد كتابه " القانون" أهم المؤلفات الطبية في زمانه وبعد زمانه بآماد، وظل يتدارس في الجامعات الأوروبية حتى القرن السادس عشر.

عندما كانت الفلسفة في أوج ازدهارها بالمشرق الإسلامى، كانت أوروبا ما تزال تعيش عصورها المظلمة، وكان كل ما بلغها من أرسطو – والعهدة على روجر بيكون – هو ما نقله بوئثيوس **Boethius** (ت 524م) من كتب، وهي قاطيغوراس **Categorias** والمقولات **De interpretatione** واستبعدت الثقافة الوثنية باعتبارها من عمل الشيطان.

بدأت رحلة الفلسفة العربية الإسلامية والفلسفة اليونانية المترجمة إلى أوروبا منذ مطالع القرن السادس الهجري /الثاني عشر الميلادي، وذلك بسبب ما جرى من اتصال بين الشرق والغرب في بلاد الشام في زمن الحروب الصليبية وصقلية والأهم الأندلس. ونهض عدد من الأوروبيين لترجمة هذه الكتب إلى اللغة اللاتينية، وتأسست فى طليطلة في العام 519هـ/1125م مدرسة المترجمين الطليطليين Colegio de Traductores Toletanus برعاية من رئيس أساقفتها رايموندو Raymundus (ت 1152م) وكانت أشبه بدار الحكمة الشهيرة في بغداد، حيث جرى ترجمة العديد من الكتب العربية واليونانية في فنون شتى بينها الفلسفة، وكان أشهر من قاموا على هذه المدرسة رودريجو خمينيث دى رادا، Rodrigo Jimenez de Rada (ت 1247م) رئيس أساقفة طليطلة.

شارك في حركة الترجمة هذه بعض رجال الدين المثقفين نصارى ويهوداً متنصرين، أبرزهم في الصدر الأول دومينجو جو نثالث Domingo Gonzalez (ت حوالي 1181م) أسقف شقوبية Segovia ويدعى أيضاً بدومينيكوس جونديسالفى Dominicus Gundisalvi ويوحنا الإسبانى Joannes Hispanus ويدعى أيضاً بابن داود Avendaut (ت منتصف القرن الثاني عشر) وقد تعاونوا معاً في ترجمة العديد من الكتب العربية (واليهودية) ومنها "النفس" و "الطبيعة" و"ما بعد الطبيعة" لابن سينا، وينبوع الحياة Fons Vitae (ويعرف في العبرية بميكور حاييم) لابن جبيرول الأندلسي (ت 462هـ/1070م).

شارك في هذه الحركة كذلك بعض رجال الدين الأوربيين الوافدين إلى إسبانيا، ومنهم جيراردو الكريمونى، ويعزى إليه ترجمة ما يزيد على السبعين كتاباً عربياً، وهرمان الألماني Hermannus Alemanus (ت 1272م) وقد ترجم كتاب "الشعر لأرسطو".

في سنة 1252م اعتلى عرش قشتالة Castilla ألفونسو العاشر (1252 – 1284م) وتفرد بين ملوك عصره جميعهم بمكانة في مجال الثقافة لاتدانيها مكانة غيره من هؤلاء الملوك في إسبانيا وخارجها، وهو ما يذكرنا بالخليفة العباسى المأمون والخليفة الأموى المستنصر، فقد أحاط نفسه بكوكبة من العلماء والأدباء والمترجمين – مسلمين ونصارى ويهود – وحفزهم إلى ترجمة العديد من الكتب العربية في فنون شتى، منها الفلسفة، وقد اشتهر هذا الملك في التاريخ بالعالم أو الحكيم El Sabio.

وعلى نهج طليطلة في إسبانيا، نهضت في بلرم Palermo في صقلية مدرسة وإن كانت أقل شهرة، رعاها روجر الثاني (1130-1154م) صاحب الجغرافي الكبير الشريف الإدريسي، يعمل بها علماء نصارى ويهود في ترجمة الكتب العربية، وبلغت هذه النهضة ذروتها في زمن فردريك الثاني(1212- 1250م)

وكان أبرز هؤلاء العلماء هو ميخائيل سكوت Michael Scutus (ت حوالي 1234م) الذي درس في إيطاليا وارتحل إلى إسبانيا ثم أتى إلى صقلية، وابتداءً من العام 1227م صار مقيماً بالبلاط الإمبراطوري، وقد ترجم العديد من مؤلفات ابن سينا فضلاً عن ابن رشد، وأعد نصاً منقحاً من كتاب فروع الفلسفة لجوند يسالفي.

أفضت الترجمة من العربية إلى أن ظهر جيل من المفكرين الأوربيين الذين تأثروا بالفلسفة العربية، ومنهم جوند يسالفي الذي كتب "خلود النفس" De Immortalitate Animae وقد بناه على آراء ابن سينا وابن جبيرول، وصدور العالم De Prosessione Mundi، وبناه على الأفلاطونية الحديثة كما عرفها المسلمون، كما أن له كتاباً في فروع الفلسفة De Divisione Philosophae سار فيه على نهج الفارابي في إحصاء العلوم. كذلك عاود رايموندو مارتين Raymundo Martín (ت 1286م) تراث المسلمين وكتب الإمام الغزالي (ت505هـ/1111م) خصوصاً " كتابه " تهافت الفلاسفة" وأفاد بهذا التراث في إثبات الخلق من العدم Creatio ex Nihilo.

على أنه تفاوتت مواقع الفلاسفة المسلمين عند الأوربيين، فقد احتفلوا بآثار الكندي العلمية، في حين كان احتفالهم أقل بآثاره الفلسفية، ومع ذلك فقد كان لفلسفته مكانة في الفلسفة المدرسية- Scholasticism- فلسفة العصور الوسطي – خصوصاً في جانب الوحي والإلهام المتصل بنظرية النبوة، ولألبرت الكبير Albertus Magnus (ت 1280م) أول الفلاسفة الأوربيين بحث في النوم واليقظة يحذو فيه حذو الكندي وغيره من فلاسفة الإسلام.

أما عن الفارابي فكثير ما كانت أفكاره ترتبط عند الأوربيين بأفكار ابن سينا، ومن هذه الأفكار فكرة الوجود والماهية والتفرقة بينهما، فالوجود ليس جزءاً من الماهية إلا بالنسبة لله تعالى، وقد صادفت هذه الفكرة نجاحاً عند اللاتين يزيد على نجاحها عند العرب، لصلتها بفكرة الألوهية والتعويل عليها في البرهنة على وجود الله.

بيد أن أكبر فليسوف عربي كان له تأثيره في الفكر الفلسفي اللاتيني، خلال المرحلة التي نؤرخ لها هو ابن سينا، فقد نسخت من "الشفاء" عشرات المخطوطات، وأهم كتاب له هو "كتاب النفس" الذي يبرهن فيه على أن النفس جوهر وصورة معاً، مما يستلزم بالضرورة خلودها، لذا فما كاد يترجم إلى اللاتينية، حتى ذاع وانتشر، ولاقى قبولاً عند فيلسوف مثل ألبرت الكبير الذي أخذ عنه كذلك نظرية الواحد وصدور العقول عنه.

وإذا كان ظهور ابن رشد – فيما بعد – جعله يتصدر المشهد الفلسفي العربي في أخريات العصور الوسطي، إلا أننا نجد معظم رجال القرن

الثالث عشر كانت لهم صلة إما بابن سينا أو ابن رشد أو هما معاً، وفي فلسفة القديس توما الأكويني Thomas Aquinas (ت 1274م) كبير الفلاسفة المدرسين جوانب سينوية وأخرى رشدية. ففي البراهين الثلاثة التي أوردها لإثبات وجود الله بطريق العقل نجد أن البرهان الثالث وهو الأقوى في هذه البراهين قد أخذه عن الفارابي وابن سينا، ويقوم على أساس تقسيم الوجود إلى واجب وممكن، والممكن لا يمكن أن يستمر في حال الإمكان إلى ما لا نهاية، بل لابد من وجود واجب الوجود، تنتهي إليه الممكنات وهو الله. وهو ما عرض له الفارابي في "آراء أهل المدينة الفاضلة" وابن سينا في "النجاة و "الشفاء ".

أ.د. عُبادة كُحيلة (أبو أدهم)
" جامعة القاهرة "



خريطة ابن حوقل
(القرن الرابع هـ/ العاشر م)
آسيا الوسطى وشرق
البحر الأبيض المتوسط
المصدر : منارات الحضارات العربية ص 20

خريطة ابن حوقل (القرن الرابع هـ العاشر م) أسيا الوسطى و ماوراء النهر

المصدر - منارات الحضارة العربية - ص21



العالم حسب الاسطخري – محفوظ من القرن السادس هـ الثاني عشر م

المصادر والمراجع

1 ـ المصادر:

- **ابن أبي أصيبعة**، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم الخزرجي ت 668هـ/1269م
2002 عيون الأنباء في طبقات الأطباء (تسعة أجزاء) تحقيق عامر النجار، القاهرة.
- **ابن بسام**، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني ت 542هـ/1148م
1979 الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (أربعة أقسام) تحقيق إحسان عباس، بيروت.
- **ابن حبان**، أبو مروان حبان بن حبان ت 4790هـ/1070م
2003 المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق محمود علي مكي، السفر الثاني، الرياض.
1973 السفر الثاني (بقية) تحقيق محمود علي مكي، بيروت.
- **ابن خرداذبة**، أبو القاسم عبد الله بن عبد الله بن خرداذبة ت حوالي 300هـ/912م
1889 المسالك والممالك، تحرير دي خويه، ليدن.
- **ابن خلدون**، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ت 808هـ/1406م
1977 المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد، القاهرة.
- **ابن رستة**، أبو علي أحمد بن عمر بن ت نحو 290هـ/902م
1891 كتاب الأعلاق النفيسة، تحرير دي خويه، ليدن.
- **ابن فضلان**، أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد ت بعد 309هـ/921م
1987 رسالة ابن فضلان، تحقيق سامي الدهان، بيروت.
- **ابن النديم**، محمد بن إسحق الوراق ت 438هـ/1047م
1991 الفهرست، تحقيق شعبان خليفة ووليد العوزة، القاهرة، ج2.
- **ابن هشام**، أبو محمد عبد الملك بن هاشم ت 218هـ/833م
د.ت السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، بيروت، ج4.
- **إخوان الصفا**
1996 رسائل إخوان الصفا، القاهرة.
- **الإدريسي**، الشريف أبو عبد الله محمد ابن أحمد بن عبد الله بن إدريس الحسني ت 564هـ/1169م
1970-1985 نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (تسعة أجزاء) تحقيق تشيرو للي وآخرين نابو – روما.
- **البيروني**، أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني ت حوالي 440هـ/1049م
د.ت تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، بيروت.
- **الحميري**، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري ت 866هـ/1461م
1984 الروض المعطار من خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت.

- **عبد الله الترجمان** (انلم دي تورميدا) ت 1425م أو 1430م
1984 تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، تحقيق محمود علي حماية، القاهرة.
- **الغرناطي**، أبو حامد ت 565هـ/1170م
1925 تحفة الألباب ونخبة الإعجاب باريس (مستخرج من المجلة الآسيوية).
- **المسعودي**، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ت 346هـ/957م
1983 مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت.
- **المقدسي**، أبو عبد محمد بن احمد البشاري ت حوالي 390هـ/1000م
1906 أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحرير دي خويه، ليدن.
- **المقريزي**، تقي الدين أحمد بن علي ابن عبد القادر ت 845هـ/1442م
2002-2005 المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (ستة أجزاء) تحقيق أيمن فؤاد سيد، لندن.
- **ياقوت الحموي**، شهاب الدين ياقوت ابن عبد الله الرومي الحموي ت 626هـ/1229م
1991 معجم الأدباء، بيروت، ج6.
- **اليعقوبي**، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح اليعقوبي ت 292هـ/904م
1860 كتاب البلدان، تحرير دي خويه، ليدن.

2 ـ المراجع العربية والمعرّبة :

- **أمين**، أحمد
1971 ضحى الإسلام (ثلاثة أجزاء)، **القاهرة، ج3.**
- **أوليري، ديلاس**
د.ت الفكر العربي ومكانه في التاريخ، ترجمة تمام حسان، القاهرة.
- **بارنز، هارى المر**
1984 تاريخ الكتابة التاريخية، ترجمة محمد عبد الرحمن برج، القاهرة.
- **بالنثيا، جونثالث، انخل**
1955 تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، القاهرة.
- **بدوي**، عبد الرحمن
2004 دور العرب في تكوين الفكر الأوربي، القاهرة.
- **برنال، مارتن**
1997 أثينة السوداء، ترجمة لطفي عبد الوهاب وآخرين، إشراف ومراجعة أحمد عثمان، القاهرة.
- **البطوطي**، ماهر حسن
2005 الرواية الأم، ألف ليلة وليلة والآداب العالمية، القاهرة.
- **جب، هاملتون**
1979 دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة إحسان عباس وآخرين، بيروت.
- **جران**، بيتر
1998 ما بعد المركزية الأوربية، ترجمة عاطف أحمد وآخرين، إشراف ومراجعة رؤوف عباس، القاهرة.

- **الجيوسي**، سلمى الخضراء (محررة)
(1998) الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، بيروت، ج2.
- **جيوم**، ألفريد
1935 الفلسفة والإلهيات، فصل في كتاب تراث الإسلام (قديم)، القاهرة.
- **خلف الله أحمد**، محمد (محرر)
1987 أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية، القاهرة.
- **الشامي**، عبد العال
1981 جهود الجغرافيون المسلمين في رسم الخرائط، الكويت.
- **عزيز أحمد**
1980 تاريخ صقلية الإسلامية، ترجمة أمين توفيق الطيب، بيروت.
- **كاسترو**، أميركو
2002 اسبانيا في تاريخها، ترجمة علي إبراهيم منوفي، القاهرة.
- **كحيلة**، أبو أدهم عبادة بن عبد الرحمن رضا
2001 أندلسيات، القاهرة.
1993 تاريخ النصارى في الأندلس، القاهرة.
2001 عند العرب والبحر، القاهرة.
1998 القطوف الدواني في التاريخ الأسباني، القاهرة.
- **كراتشكوفسكي**، أغناطيوس
1963 تاريخ الأدب الجغرافي العربي (جزءان) ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، القاهرة.
- **مكي**، الطاهر أحمد
1979 ملحمة السيد، القاهرة.
- **مؤنس**، حسين
1986 أطلس تاريخ الإسلام، القاهرة.
1986 تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، القاهرة.
- **نللينو**، كارلو
د.ت علم الفلك، تاريخ عند العرب في القرون الوسطى، القاهرة.

3 ــ المراجع الأجنبية :

- **O'Callaghan :** Joseph
1975 A History of Medieval Spain.
1977 Disciplina Clericalis Trans by P. R. Quarrie London.
- **Sarton :** George
1951 Introduction to the History of Science (2 Vols).
- **Simonet** D. Francisco Javier
1897-1903 Historia de los Mozarabes de Espaha, Madrid.

6. الموسيقى والغناء

برع العرب في تحقيق كثير من الإنجازات الحضارية في شتى أنواع المعارف والعلوم الإنسانية، كالطب والصيدلة والرياضيات والفلك والكيمياء والفيزياء، والعلوم الإنسانية، فضلا عن فن الغناء والموسيقى الذي استأثر باهتمام كبار قدامى المؤرخين، ويعد فن الغناء والموسيقى في العصر العباسي عصر الأوج والازدهار عصر إحدى الفنون الحضارية الراقية التي أثرت في الحضارة الإنسانية بشكل متفاعل ومتميز. ويرجع تاريخ فن الغناء والموسيقى عند العرب إلى العصر الجاهلي لأنهم كانوا أهل طريقة في إنشاد الشعر، ولا يعرفون معنى الشعر إلا من خلال غنائه، ثم جاء الإسلام، واستمر العرب في الغناء، وظهر في مدن كبيرة مثل مكة المكرمة، والمدينة المنورة والشام، وأصبح للغناء مغنيين معروفين، وكثرت مناسباته بحسب الحاجة إليه عند ولاة الأمور. ولكن الطفرة الكبرى التي سجل فيها فن الغناء – والموسيقى أيضا – تطورا كبيرا ومشهودا كان في العصر العباسي الأوج والازدهار، إذ بلغت صناعته ذروة الرقي والتقدم والكمال والانتشار في أرجاء المعمورة، فلقد قال ابن خلدون في مقدمته: "... وما زالت تتدرج إلى أن كملت أيام بني العباس عند إبراهيم بن المهدي وإبراهيم الموصلي وابنه إسحاق وابنه حماد. وكان من ذلك في دولتهم ببغداد ... وكثر ذلك ببغداد وأمصار العراق وانتشر منها إلى غيرها، وكان للموصليين غلام اسمه زرياب أخذ عنهم الغناء فأجاد، فصرفوه إلى المغرب غيرة منه، فلحق بالحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل أمير الأندلس، فبالغ في تكريمه وركب للقائه وأسنى له الجوائز والإقطاعات والجرايات وأحله من دولته وندمائه بمكان، فأورث بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف، وطحا منها بأشبيلية بحر زاخر، وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها إلى بلاد العدوة بأفريقيا والمغرب".

وقد استأثر هذا الفن باهتمام المؤرخين العرب، فراحوا يدونون لنا كل التفاصيل الصغيرة والكبيرة عن صناعة الغناء والموسيقى نشأة، وآلالات، وإيقاعات ولحون، وعلوما متصلة به، وحوادث وأشعارا، ذاكرين لنا العوامل الداخلية والخارجية التي أثرت في تطور هذه الصناعة في العصر العباسي الذهبي، وحقا إن الفن الموسيقي الغنائي الذي يعتمد الآلة والصوت ومادة الشعر قد حظي باهتمام بالغ من الخلفاء بني العباس وأبنائهم، والأمراء، وعمال الولايات، ويعد الاستقرار السياسي، وزيادة العمران وتدفق الثروات الطائلة، إذ يذكر ابن خلدون أيضا قوله : "فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائهم الأمم صاروا إلى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ". فأخذوا ينفقون في سبيل رفاهيتهم عن سعة، ويعيشون عيشة قوامها البذخ والإسراف وحب الظهور، لذلك حفلت قصور الخلافة والأمراء والوزراء وكبار أرباب الدولة بالموسيقيين والمغنيين

والمغنيات من الجواري والقيان والندماء والشعراء، فأصبحت مجالسهم آية من آيات الأبهة والجمال، مع تطور نوعي وكمّي في اللحون والآلات، والشعر الغنائي، كما برزت مدارس ومذاهب موسيقية مختلفة الرأي، وأصبح لمشاهير هذا الفن منزلة رفيعة، وشأن عظيم في الدولة العباسية، فأصبح بعضهم ندماء للخلفاء مقربين منهم، وكانت جوائزهم من الخلفاء تفوق الحصر، وجعلوا لهم الرواتب والإكراميات في المناسبات، وعهدوا بهم إلى بعض أرباب القصر، ينظرون في أمورهم وشؤونهم، وكانوا يصحبونهم في خروجهم للصيد أو نحوه، ويجيزونهم الجوائز الكبرى، ونبغ في عصر الأوج والازدهار للدولة العباسية عدد من الخلفاء وأبنائهم والأشراف والقادة في فن الموسيقى والغناء والشعر الغنائي، كان لهم أثر بارز في تطور هذا الفن ورقيه. فضلا عن انفتاح الحضارة العربية الإسلامية على الحضارات المجاورة، وتفاعل هذه الحضارات، بعضهما مع بعض وهو ما أدى إلى نشاط النقل والترجمة، كل ذلك هيأ الميدان الذي يتسع لعامل الرقي لهذا الفن بشكل جلب انتباه المؤرخين الغربيين ومستشرقيهم.

ومما يؤثر عن ذلك أن طبقات من العلماء والفلاسفة العرب كانوا قد أسهموا إسهاما كبيرا في تطور هذا الفن، وكان لهم أثر عظيم في حضارة أوربا وغيرها، فضلا عما قام به الشعراء من تكيف خطاباتهم الشعرية على أقدار اللحون ومتطلبات الأغراض التي تستهوي أرباب الخلافة والمجتمع. ووجدت في هذا العصر ضروب الغناء المختلفة، فكان هناك الغناء المصحوب بجوقة والآخر الذي كان يصحب بالرقص. وكانت آلات الموسيقى في أغلب الأحيان : الطبل، والدف، والعود، والرباب، والطنبور، والمزمار، والجنك، وتم تطوير بعضها.

ومهما يكن فقد ارتقى الغناء في العصر العباسي، وكثرت ملاهيه وتعددت نواديه. وكان المغنون المحترفون من جهة وأصحاب بيوت النخاسة من جهة أخرى يُعْنَوْنَ جميعا بتخريج جوارٍ وقِيَانٍ مثقفات بهذا الفن، الذي أقبلت عليه جميع طبقات الناس. وقد كثر المغنون والمغنيات في هذا العصر كثرة مفرطة. في بغداد، وحواضر الدولة. فقد أحصيت المغنيات والمغنين في بغداد، سنة (306هـ/819م) كما ذكرها الأزدي الذي عاش في القرن الرابع الهجري: "فبلغن 460 جارية في جانبي بغداد و10 حرائر و75 من الصبيان"، وكانت هذه الإحصائية للمغنيات الظاهرات المعروفات لدى الناس، أما اللاتي كُنَّ يغنين حقيقة فلم يتوصل إلى معرفة عدد هن جميعاً. ويعد تطور فن الغناء والموسيقى من أبرز إسهامات العرب في الحضارة الإنسانية، إذ انتقل تأثير هذا الفن إلى أوربا عبر اليونان والأندلس وصقلية، وامتد إلى الشرق والجنوب وأفريقيا.

مجالس الغناء والموسيقى :

لقد كان لمجالس الغناء والموسيقى في العصر العباسي "الأوج والازدهار" تأثير أساسي ومهم وجوهري في تقدم فن الموسيقى والغناء في

هذا العصر الذي عُد من أزهى وأرقى العصور الحضارية في تاريخ الأمة العربية والحضارة الإنسانية، إذ بلغ هذا الفن درجة الكمال والرقي. وكانت مهمة هذه المجالس هي التسلية والترفيه عن النفس. إذ عدت من الظواهر الحضارية التي كان لها الصدارة في الدولة العباسية. وهذه المجالس على نوعين هما : مجالس الخلفاء وعلية القوم، ومجالس العامة.

أ. مجالس الخلفاء وعِلْيَةَ القوم :

لقد شغف خلفاء بني العباس وحاشيتهم بإقامة مجالس الغناء والموسيقى شغفاً كبيراً. وتعقد هذه المجالس في قصور الخلافة، والأمراء والأشراف، والوزراء، والقواد، والأكابر، والولاة، بصورة منتظمة، كما تقام هذه المجالس في الأعياد، والمناسبات، مثل حفلات الأعراس، والختان ونحوها، بقصد الترويح عن النفس والتسلية، وفيها يتوافد مشاهير المغنين والموسيقيين والشعراء والندماء، والعلماء على مجلس الخليفة عادة، كما يجتمعون في مجالس خاصته، فيغني المغنون والمغنيات من الجواري، ويطرب الجميع، "وكان لا ينصرف عن مجلس الخليفة أحد من ندمائه ولا مطربيه إلا بصلة من مال أو كسوة ".

لذلك حفلت قصور الخلافة وعلية القوم بالمغنين والموسيقيين والجواري المغنيات، وأصبحت مجالسهم آية من آيات الروعة والجمال والأبهة، وطلي بعضهم حيطان مجالسهم كلها بالذهب واللازورد في أحسن نقش.

وكانت لمجالس الغناء والموسيقى فضل كبير في تطور هذا الفن، حتى بلغ درجة الكمال في عصر الدولة العباسية، إذ ذكر المؤرخون عن رعاية الخلفاء وأبنائهم، وكبار مراتب الدولة للغناء والموسيقى، وكان تشجيعهم للمغنين والموسيقيين والمغنيات ولعلماء هذا الفن كبيراً للغاية، فألفت كتب كثيرة في فنون صناعة الغناء والموسيقى. وظهرت طبقة من المغنين والموسيقيين، وحظي أهل هذا الفن بمترلة رفيعة لدى الخلفاء وأبنائهم والأمراء، واتخذوهم من الندماء المقربين، وأغدقوا عليهم الهدايا النفسية. كما كان الخلفاء يصحبون المغنين والموسيقيين والمغنيات والشعراء في أسفارهم وغزواهم وصيدهم وتترهاهم. وكانت تجري في مجالس الخليفة وخاصته، مناظرات ومناقشات ومنافسات تدور حول طبيعة صناعة الغناء والموسيقى، يشارك فيها الخلفاء أنفسهم وعلماء الغناء والموسيقى والشعراء، والندماء من ذوي العقول والمعرفة والحجى. ويروى أن عدداً من الخلفاء وأبنائهم قد أتقنوا صناعة الغناء والموسيقى وحذقوا بها، وكانوا يستحسنون الشعر المغنى، لما له من رقة من المعنى،وجمال الوزن.

ومن مراسيم إقامة مجلس الغناء والموسيقى في دار الخلافة، هي جلوس الخليفة وراء ستارة يحتجب غالبا عن الندماء والمغنين والموسيقيين والجواري المغنيات، فكان يقيمون عند الستارة حاجبا يسمونه صاحب الستارة، يتوسط في نقل ما يريد الخليفة إبلاغه إلى جلسائه

أو ندمائه، واقتدى ببني العباس الأمراء والولاة بالأمصار، وحواضر الدولة. ويسمى مكان جلوس الخليفة وراء الستارة بمقصورة الغناء. وقد روى صاحب الأغاني عن الموسيقي ابن جامع مراسيم دخول المغنين المقصورة. ومن هذه المراسيم تقديم الطعام للمغني وغسول وخلعة وطيب، ووزن العود لكي تستقيم الأوتار وتأخذ الدساتين موضعها قبل الغناء. ومن المراسيم تكريم المغني، وهي سنة اتبعها خلفاء بني العباس وأبنائهم والأمراء، والولاة والأشراف. وسوف نسلط الضوء في هذا المبحث على مجالس الخلافة وعلية القوم وولاة الأمصار وعصر الإمارة في الأندلس بإيجاز؛ نظراً لأهميتها الكبيرة في تشجيع ودعم فن الغناء والموسيقى وتطوره أولا، وثم لها أهمية بالغة في الترويح عن النفس والتسلية والمتعة.

فالخليفة أبو العباس عبد الله الملّقب بالسفاح أول خلفاء بني العباس شجع صناعة الغناء والموسيقى، وكان ميالاً إلى هذا الفن. وكان يطرب من وراء الستارة. فكان في أول أيامه يظهر لندمائه، ثم احتجب عنهم، وذلك لسنة خلت من ملكه. وكان قعوده في المجلس من وراء الستارة. وقال المسعودي : "وكان يطرب من وراء الستر، ويصيح بالمطرب له من المغنين: أحسنت والله !، أعِدْ هذا الصوت". وكان لا ينصرف عنه أحد من ندمائه ولا من مطربيه إلاّ بصلة من مال أو كسوة، ويقول: لا يكون سرورنا معجلاً، ومكافأة من سرنا وأطربنا مؤجلاً.

أما الخليفة أبو جعفر المنصور فقد عرف بأنه أعظم خلفاء بني العباس. في زمنه، شيد مدينة بغداد التي أصبحت عاصمة الدولة العربية الإسلامية ومركز الحضارة للفنون والأدب والعلم، فجذبت حشود غفيرة من الشعراء والمغنين الذين أسبغوا على الخلافة الروعة والجمال والأبهة. وكان أبناء عم الخليفة المنصور، (بني سليمان بن علي) وابنه (المهدي) وابن أخيه (محمد بن أبي العباس) يتشيعون للموسيقى بشكل لا مزيد عليه، ويتسابقون في دعوة الموسيقيين والمغنين.

وكان الخليفة المهدي مغرما بالموسيقى بصورة خاصة. حتى إن قصره الجديد المعروف بقصر المهدي كان مزدحماً بالموسيقيين والمغنين، وكان من بينهم (حكم الوادي، وسياط، وإبراهيم الموصلي، ويزيد حوراء). وكان يسمع المغنين جميعاً، ويحضرون مجلسه، فيغنوه من وراء الستارة.على أنه كان في الوقت نفسه يحرم على ابنيه (الهادي وهارون) لذة الموسيقى والغناء، حتى إنه عاقب إبراهيم الموصلي بالضرب والحبس. وأمر ألا يدخل عليهما أبداً، ولا يغنيهما. ووصف حكم الخليفة المهدي بأنه عهد موسيقى وأدب وفلسفة.

لم تدم خلافة موسى الهادي بن المهدي إلاّ زمناً قصيراً. وما إن بويع بالخلافة حتى استقدم الموسيقيين الذين عاقبهما أبوه المهدي عندما كان ولياً لعهده إلى مجلسه، وهما إبراهيم الموصلي وابن جامع، وكان لهما ويكبيرهم حكم الوادي أعزّ

مكانة ومنزلة في نفسه. وكان للخليفة المهدي ابن أسمه عبد الله أتقن صناعة الغناء والضرب على العود واشتهر بهما.

وقد فاق الخليفة هارون الرشيد الخلفاء العباسيين في ولعه بالغناء والموسيقى. وكان يجزل العطاء للمغنين ولذلك اشتهر في زمنه أعظم الموسيقيين والمغنين ببغداد. ويُعّد إبراهيم الموصلي أول من غنىّ الرشيد بعد أن ولىّ الخلافة. وكان إسحاق الموصلي يغني للرشيد حتى ينام، قال إسحاق: (بينما أنا ذات ليلة عند الرشيد أغنيه إذ طرب لغنائي، وقال: لا تبرح، ولم أزل أغنيه حتى نام، فأمسكت، ووضعت العود في حجري). وكان لهارون الرشيد جماعة من المغنين، منهم إبراهيم الموصلي وابن جامع السهمي، ومخارق، وطبقة أخرى دونهم، منهم: زلزل، وعمرو الغزال، وعلوي، وغيرهم. وكان له زامر يقال له برصوما. وكان إبراهيم أشدهم تصرفاً في الغناء، وابن جامع أحلاهم نغمة. فقال الرشيد يوماً لبرصوما: ما تقول في ابن جامع ؟ فقال : يا أمير المؤمنين، وما أقول في العسل الذي من حيثما ذقته فهو طيب ؟ قال: فإبراهيم الموصلي ؟ قال: هو بستان فيه جميع الثمار والرياحين. قال: فعمرو الغزال؟ قال : هو حسن الوجه يا أمير المؤمنين. وكان الرشيد يجمع المغنين المشاهير في مجلسه ويسمع منهم الأصوات، ويحكمها وينصفها، وكان الرشيد يطرب طرباً شديداً للصوت الحسن، ويكرم صاحبه. وكان الخليفة الرشيد يسمع غناء أخته علّية بنت المهدي، وأخيه إبراهيم، وكانت تصحبه في خروجه. كما كان يصحب معه إبراهيم الموصلي فى أثناء خروجه إلى الحيرة، والرقة، وطوس ونحوهما.

وكان الخليفة الأمين مشغوفاً بالطرب واللهو، يقضي أوقاته كلها مع المللهين والمغنين والمغنيات، يختزن له من الجميلات، ويجلبن من شتى أرجاء الدولة العباسية المترامية الأطراف. وقد عرف بحبه لسائر الفنون، وكان إسحاق الموصلي ومخارق وعلويه من مشاهير الموسيقيين الذين أصابوا من عطاياه وصلاته. وأجاز مرة من غنى له، بملء زورقه ذهباً. وكان الأمين ينصب مجلس الغناء وهو محاصر ليروح عن نفسه في السماع إلى غناء عمه إبراهيم ابن المهدي، وسماع جارية من خواص جواريه تسمى ضعفاً. وهو جالس على شاطئ دجلة.

ولما أفضت الخلافة إلى المأمون هجرَ مجالس الغناء، إذ أقام عشرين شهراً لم يسمع حرفاً من الغناء، ثم كان أول من تغنى بحضرته أبو عيسى بن هارون وهو من المغنيين الموهوبين. ثم واظب على السماع. ودعا إلى مجلسه إسحاق الموصلي وأحمد بن صدقة، وعلويه، وغيرهم من مشاهير المغنين، وعمه إبراهيم بن المهدي، الذي أصبح ينادمه ويسامره ويغنيه. كما كان للمأمون جماعة من المغنيين وفيهم مغن يسمى سوسناً. وكان المأمون يطلب من المغنيين أن يغنوا من شعره. فقد طلب من المغني أحمد بن صدقة أن يغني في عيد الشعانين. حيث روى عن ابن صدقة، وبين يديه عشرون وصيفة جُلبٌ روميات

مزنَّرات قد تَزَيَّنَّ بالديباج الرومي، وعلقن في أعناقهن صلباناً من الذهب، وفي أيديهن الخوص والزيتون فحفظتها، وغنّيته فيها، فلم يزل يشرب، وترقص الوصائف بين يديه أنواع الرقص من الدستبند، إلى الإيلا، حتى طرب، فأمر لي بألف دينار، وأمر بأن ينثر على الجواري ثلاثة آلاف دينار. ونبغ بعهده الفيلسوف الكندي. وشجع المأمون النقل والترجمة من الأمم الأخرى، وخصّ الكتب الموسيقية.

وأولى الخليفة المعتصم اهتماماً بالموسيقى والغناء، واحتضن مجلسه كل مشاهير الموسيقى والغناء، وعلى رأسهم عميدهم إسحاق الموصلي الذي كان صديق الخليفة ونديمه المفضل. ووجد عم الخليفة الموسيقار إبراهيم بن المهدي، حفاوة وإكراماً في مجلس الخليفة أيضا، وغيرهم من المغنيين الذين أصابهم كرمه وجوده، وكان المعتصم يعقد مناظرات للمغنيين في مجلسه، يتبارى فيها المغنون بين يديه، ويغدق العطايا عليهم، فقد خلع عليهم مماطر لها شأن من ألوان شتى.

وممن غنّى من خلفاء بني العباس، ممن دُونِّت له صنعته، الواثق بالله. وكان يُعَدُ أول خليفة عباسي موسيقي مبدع حذق بالشعر والتلحين والغناء والضرب بالعود. وتشير الروايات التاريخية الكثيرة إلى أن (الواثق كان أعلم الخلفاء بالغناء، وبلغت صنعته مائة صوت، وكان أحذق من غنَّى بضرب العود). وقال الأبشيهي في المستطرف: "كان الواثق بن المعتصم أعلم الناس بالغناء، وكان يصنع الألحان العجيبة ويغني بها شعره وشعر غيره". فقد غنى الواثق في شعر لأبي العتاهية، وشعر ليعقوب بن إسحاق الربعي المخزومي، وشعر لذى الرمة، وفي شعر حسان بن ثابت. وفي شعر للعباس بن الأحنف وغنى في شعر لعلي ابن الجهم. وكان الواثق إذا صنع شيئاً من الغناء أخبر إسحاق به وعرضه عليه حتى يصلح ما فيه ثم يظهره. وكان الواثق يجمع المغنيين في مجلسه، ويجلس معهم في حلقة واحدة" فقال لهم الواثق: إني عزمت على الصبوح، ولست أجلس على سرير حتى أختلط بكم ونكون كالشيء الواحد، فاجلسوا معي حلقة، وليكن كل جليس إلى جانبه مغن، فجلسوا كذلك. فقال الواثق: أنا أبدأ، فأخذ عوداً فغنى وشربوا وغنّى من بعده البقية إلاّ إسحاق لم يغن ... فأخذ العود وما زال يغني حتى انقضى ذلك اليوم، وعاد الواثق إلى مجلسه وللواثق بالله في الغناء أخبار وحكايات يطول بذكرها الشرح.

أما الخليفة المتوكل، فقد شجع فنون الغناء والموسيقى. وكان مجلسه يضم مشاهير رجال الموسيقى والغناء أمثال، إسحاق الموصلي، وأحمد بن يحيى المكي، ومحمد بن الحارث، وعمر بن بانة، وعبد الله بن العباس الربيعي، وأحمد بن صدقة، وغيرهم، فضلاً عن المغنيات عريب، وشارية وفريدة وجاريته محبوبة التي حلت من قلبه محلاً جليلاً لم يكن أحد يعادلها عنده. وكانت أيام المتوكل أحسن أيام وأنضرها. فكان مجلسه

يضم كل وسائل اللهو والموسيقى والغناء والمضاحك والهزل. وكان ابنه (أبو عيسى عبد الله) موسيقياً حاذقاً مبدعاً، له صنعه مقدارها أكثر من ثلثمائة صوت. كما كان وزيره محمد بن الفضل الجرجر عالماً بالغناء. وصادر المتوكل كتب الكندي ثم أعادها إليه.

والمنتصر بالله، كان شاعراً ومغنياً. ووصف: بأنه كان حسن العلم بالغناء، وكان إذا قال الشعر صنع فيه، وأمر المغَّنين بإظهاره، فلما ولى الخلافة قطع ذلك وأمر بستر ما تقدم منه. وقرب الخليفة المنتصر بالله المغنيين والندماء في مجلسه، ومنهم البنان بن عمرو الذي يغني شعره، وعريب، وابن المكي وغيرهم.

أما الخليفة المستعين بالله فلم تذكر لنا الروايات التاريخية أثر ينم عن اهتمامه في الغناء والموسيقى. على أن محمد عبد الله بن طاهر أحد عماله كان من أشد هواة الموسيقى اندفاعاً.

وكان الخليفة المعتز مغنياً وشاعراً. وقد غنى المعتز في شعر عدي بن الرقاع. وكان المعتز يطارح بنان المغني بالشعر والغناء. وكان مجلسه يضم الجلساء والمغنون، ويستمتع بسماع شعره يغنيه سلمان بن القصار الطنبوري فقال له: "ويلك ! ألحان الطنبور أملح وأخف فَغَنِّ فيه أنت، فغنى فيه لحناً، فدفع إليه دنانير الخريطة وهي مائة دينار مكية ومائتان على دينار منها (ضرب هذا الدينار بالجوسق بخريطة أمير المؤمنين المعتز بالله) ثم دعا بالخلع والجوائز لسائر الناس، فكان ذلك المجلس من أحسن المجالس".

والخليفة المهتدي بالله، مع حبه للفنون حرم الغناء والشراب والملاهي، وطرد المغنين والمغنيات، وذبح الكباش التي كان يناطح بها بين يدي الخلفاء والديوك، وقتل السباع المحبوسة، ورفع بسط الديباج وكل فرش لم ترد الشريعة بإباحته. وساد الاقتصاد والتقتير دار الخلافة.

وممن ذكر أن له يداً بالغناء وصنعة حسنة الخليفة المعتمد، وكان المعتمد مشغوفاً بالطرب، ومحبة أنواع اللهو والملاهي. ومما نقل من أغانيه أنه غنىّ في شعر الفرزدق، وقد أعاد الندماء والمغنين والمغنيات إلى دار الخلافة. وكان ابن خرداذبة (211 - 300هـ/825 - 911م) الموسيقي والجغرافي من أقرب ندمائه وكان الخليفة المعتمد يطلب من نديمه ابن خرداذبه صاحب كتاب اللهو والملاهي أن يحكي له عن أول من اتخذ العود ونحوه، وأخباره عن ملاهي الروم والهند، وحداء العرب وأول الغناء في العرب، وأثر الغناء، ووصفات المغني الحاذق، وأنواع الطرب، ومنزلة الإيقاع وألقابه والرقص وأنواعه"، وللمعتمد مجالس قد دونت في أنواع من الأدب منها مدح النديم وذكر فضائله، وما قيل في أخلاق النديم وصفاته، وهيئة السماع وأقسامه وأنواعه، وأصول الغناء عند العرب، وأخبار الأعلام من مشهوري المغنيين المتقدمين والمحدثين، وهيئة المجالس ومراتبهم.

وحذق الخليفة المعتضد بالله صناعة الموسيقى والغناء، وعرف بحسن صوته أيام كان أميراً. وأنه جمع النغم العشر في صوت صنعه في

شعر دريد بن الصمة. وقد صنع المعتضد ألحاناً في عدّة أشعار قد صنع فيها الفحول من القدماء والمحدثين، وعارضهم بصنعته فأحسن وشاكل وضاهى، فلم يعجز ولا قصَّر ولا أتى بشيء يعتذر منه. وصنعته في الموسيقى تُناهز المائة صوت، ما فيها ساقط ولا مبذول.

أما الخليفة المكتفي بالله فلم نعرف شيئاً عن موقفه من الموسيقى والغناء، لكن الذي نعلمه أن عبيد الله بن عبد الله بن طاهر بقي يحتل مركزه المرموق في القصر كنديم للخليفة.

وكان الخليفة المقتدر بالله يقضي أيامه ولياليه في صحبة الموسيقيين والمغنيات. وكان مجلسه يحضره كثير من مشاهير المغنين، ومنهم: جحظة، وإبراهيم ابن أبي العبيس، وإبراهيم بن القاسم بن زرزور، وواصف الزامر، وكنيز. وكانت (صلفة) من مغنياته الحظيات.

وأمر الخليفة القاهر بن المعتضد بتحريم القيان، والخمر، وقبض على المغنين. نفى المخانيث وكسر آلات اللهو، وأمر ببيع المغنيات من الجواري، وكان مع ذلك لا يفتر من سماع الغناء. "ولم يبخل على نفسه بمتعة الموسيقى، وكان لديه من المغنيات قدر ما أحب.

وظلت الموسيقى مزدهرة في قصر الخلافة في زمن الخليفة الراضي بالله، وكان الراضي سخياً، جواداً، مقرباً لأهل العلم والأدب والمعرفة، كثير الدنو منهم، فائضاً بجوده عليهم، ولم يكن ينصرف عنه أحد من ندمائه في كل يوم إلا بصلة أو خلعة أو طيب، ومن ندمائه المقربين الصولي، وكان أولاً يعلمه ونادم المكتفي ثم المقتدر دفعة واحدة، وله كتب كثيرة ذكرها ابن النديم في الفهرست، وهكذا أضحت الموسيقى في قصر الخلافة قبلة للعالم الشرقي في زمن الخليفة المتقي بالله، وفي زمن الخليفة المستكفي بالله، وكان المستكفي بالله يكرم جميع من يحضر مجلسه" من الجلساء والمغنين والملهين.

وظلت فنون الغناء والموسيقى في قصور الخلفاء قائمة ومزدهرة مع معارضة رجال الدين لها. فقد ظهر في قصور الخلفاء في عهد السيطرة البويهية الإسراف والبذخ الموسيقي الذي وجد في أيام الخلفاء العظام. وفي هذا العصر نبغ جماعة من الفلاسفة والنظريين الموسيقيين، عرفهم التاريخ باسم (اخوان الصفا)، (334هـ/945م)، التي تألفت في البصرة، بحثت في رسالتها الخامسة المواضيع الموسيقية وربطها بالرياضيات، كما نبغ المؤرخ الجليل محمد ابن إسحاق الوراق، المعروف بابن النديم "صاحب كتاب الفهرست"، المتوفى (438هـ/1047م)، الذي صنف الكتب التي كتبها الموسيقيون عصرئذ. لم ترع قصور الخلفاء فنون الموسيقى وحدها، بل تعدها إلى رعاية الأدب والعلوم بصورة عامة وسرت من قصور الخلفاء إلى قصور البويهيين (334 - 447هـ/945 - 1055م) فكان عز الدولة (334- 356هـ /967 - 977م) يقضي جلّ أوقاته بين الموسيقيين والملهين. وعضد الدولة (367 - 372هـ/977 - 982م) مشيد

البيمارستان العضدي الذي اشتهر ثلاثة قرون بجامعته الطبية، مولعاً هو الآخر بالموسيقى. وكان شمس الدولة (387 - 412هـ/997 - 1021م) راعياً للعالم النظري الموسيقي ابن سينا (370 - 428هـ /980 - 1037م)، وله كتب عدة في الموسيقى النظرية منها : كتاب الشفاء، وكتاب النجاة، وجوامع علم الموسيقى، والمختصر في علم الموسيقى، وكتاب اللواحق. كما اشتهر تلميذ ابن سيناء ابن زيله (440هـ/1048م)، بكتابه (الكافي في الموسيقى)، والذي اعتمد فيه على مؤلفات الكندي والفارابي الموسيقية وهو يخالفهما في استعمال الحروف الأبجدية [أبجد هوز] كرموز للدلالة على النغمات المتسلسلة في السلم الموسيقي، إذ نراه يستعمل هذه الحروف، لا على حسب تسلسلها كحروف، بل بمعناها الحسابي كأعداد متوالية.

مجالس أولاد الخلفاء وكبار القوم :

شغف بإقامة مجالس الغناء والموسيقى أبناء الخلفاء الذكور منهم والإناث والأشراف والقواد والأكابر، وسنذكر منهم من له صنعة في إتقان الموسيقى والغناء بإيجاز :

الأمير إبراهيم بن المهدي (162 - 224هـ/779 - 839م)، وكان إبراهيم أول أولاد الخلفاء وأتقنهم صنعة وأشهرهم ذكراً في الغناء. وكان من أعلم الناس بالنغم والوتر والإيقاعات وأطبعهم في الغناء وأحسنهم صوتاً. كما كان يحسن الإيقاع على الطبل والناي، وكان حاذقا بالغناء وصناعة العود، يضرب به المثل فيهما. وكان الناس يقولون: لم ير في جاهلية ولا إسلام أخ وأخت أحسن غناء من إبراهيم بن المهدي وأخته علية. غنى إبراهيم بن المهدي لأخيه هارون الرشيد، وغنى أيضاً للأمين، وللمأمون، وكما غنى للمعتصم. وكان للأمير إبراهيم بن المهدي صوتاً قوياً، فقد "غنى" صوتاً على أربع طبقات. وقد جرت بين إبراهيم بن المهدي، وإسحاق، مناظرات ومجادلات ومراسلة ومكاتبة ومشافهة في صناعة الغناء، بحضور الناس. فكان إبراهيم بن المهدي يتزعم الحركة الموسيقية المتجددة في الموسيقى، ونشب على أثر ذلك نزاع تاريخي بين مدرسته ومدرسة إسحاق الموصلي التي تميل إلى مدرسة الغناء العربي القديم، وتنكر على الموسيقيين تغيره. ومن مشاهير تلاميذ إبراهيم محمد بن الحارث، وعمر بن بانة وغيرهم. وذكر ابن النديم في فهرسه إبراهيم بن المهدي قائلاً: " لم ير في أولاد الخلفاء قبله أفصح منه ولا أشعر، وله مع ذلك صنعة في الغناء يتقدم بها كل أحد، وكان إسحق وإبراهيم قبله يأخذان عنه ويتحاكم المغنون إليه في صناعتهم... وله من الكتب : كتاب أدب إبراهيم، وكتاب الطبخ، وكتاب الطب، وكتاب الغناء " ["1348هـ 174] وكانت جاريته ريق تحفظ ما كتبه إبراهيم في كتابه "كتاب الغناء"، والذي يسميه الأصفهاني "دفاتر الغناء.

وأما عُلَيّة بنت المهدي (160 - 210هـ/776 - 825م)، فقد قيل: ما اجتمع

في جاهلية ولا إسلام أخ وأخت أحسن غناء من إبراهيم بن المهدي وأخته علّية. وكانت علّية بنت المهدي من أجمل الناس وأظرفهم، تقول الشعر الجيد وتصوغ فيه الألحان الحسنة، وكانت علية حسنة الدين، وكانت لا تغني ولا تشرب النبيذ إلاّ إذا كانت معتزلة الصلاة. فإذا طهرت أقبلت على الصلاة وقراءة القرآن وقراءة الكتب.

وروي عن عريب أنها قالت: أحسن يوم رأيته في الدنيا وأطيبه يوم اجتمعت فيه مع إبراهيم بن المهدي عند أخته علية، وعندها أخوهما يعقوب بن المهدي، وكان أحذق الناس بالزمر. فبدأت علّية فغنت من صنعتها وأخوها يعقوب يزمر عليها. وتعد عليه بأنها أول من عمل الأبرويت الغنائي فقد صنعت شعرا وأصاغت لحنا وغنته ألفي جارية، فطرب الرشيد وقام على رجليه حتى استقبل أم جعفر وعلية وهو في غاية السرور، وقال: لم أر كاليوم قط !. يا مسرور؛ لا تبقين في بيت المال درهماً إلاّ نثرته. فكان مبلغ ما نثره يومئذ ستة آلاف درهم، وما سمع بمثل ذلك اليوم قط.

وحذق بالغناء من أولاد الخلفاء أبو عيسى بن الرشيد. كان من أحسن الناس وجهاً ومجالسة وعشرة. وكان أبو عيسى جميل الوجه جداً، فكان إذا عزم الركوب جلس الناس له حتى يروه أكثر مما كانوا يجلسون للخلفاء. وكانت عريب المأمونية تقول: ما سمعت غناءً أحسن من غناء أبي عيسى بن الرشيد، ولا رأيت وجهاً أحسن من وجهه. قال أبو الفرج الأصفهاني: وكان أبو عيسى جيد الصنعة، وله أغان منسوبة إليه ومعروفة به. وكان المأمون أشدّ الناس حباً له، وكان يُعدّه للأمر بعده، ويذكر ذلك كثيراً.

ومن عرفت له صنعة من أولاد الخلفاء عبد الله بن موسى، كان له في الغناء صنعة حسنة، وله أصوات مذكورة من شعره وكان عبد الله هذا من أضرب الناس بالعود وأحسنهم غناء، وكان له غلام أسود يقال له (قلم) فعلمه الضرب فحذق فيه، فاشترته منه أم جعفر بثلاثمائة ألف درهم.

ومن رويت له صنعة من أولاد الخلفاء عبد الله بن محمد. كان عبد الله ابن محمد الأمين ظريفاً غزلاً يقول شعراً ليناً ويصنعه صنعة صالحة. كان ينادم الواثق ثم نادم بعده سائر الخلفاء إلى المعتمد.

ومن غنى من أولاد الخلفاء أبو عيسى بن المتوكل، قال عبد الله بن المعتز: صنع أبو عيسى أكثر من ثلاثمائة صوت، منها الجيد الصنعة. "وسمعت أبا عيسى بن المتوكل يقول: إذا أتممت صنعة ثلاثمائة صوت وستين صوتاً عدد أيام السنة تركت الصنعة ". فلما أتمها ترك الصنعة. قال الأصفهاني: وهو لَعَمْري من جيد الغناء وفاخر الصنعة. وممن صنع من أولاد الخلفاء ــ فأجاد وأحسن وبرع وتقدم جميع أهل عصره فضلاً وشرفاً وأدباً وظرفاً وتصرفاً في سائر الآداب ــ أبو العباس عبد الله بن المعتز بالله. وكان عبد الله حسن العلم بصناعة الموسيقى والكلام على النغم وعللّها، وله في ذلك وفي غيره من الآداب كتب

مشهورة ومراسلات جرت بينه وبين عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وبين بني حمدون وغيرهم تدل على فضله وغزارة أدبه. ولعبد الله أصوات في شعره ذات صنعة حسنة، وصاغ الألحان لكثير من فحول الشعراء.

ومن غنى من الأشراف والعلماء والقواد والأكابر إبراهيم بن سعد، وكان يبيح السماع ويضرب بالعود ويغني عليه. وكان محمد ابن إسماعيل بن علي بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، عالماً بالفقه والغناء جميعاً. ومنهم أبو دلف العجيلي، وكان ينادم الواثق والمعتصم. ومنهم عبد الله بن طاهر بن حسين وكان مشغوفاً بالموسيقى والغناء، ضم مجلسه مشاهير المغنيين والموسيقيين. وله أصوات كثيرة غنى فيها، وقد تقلد الولايات الكبيرة، مثل مصر والجزيرة وما يلي ذلك وخراسان، وكان يعتني بالغناء ويصنعه، وكذلك ابنه عبيد الله له صنعة في الغناء حسنة متقنة عجيبة، وكان نديماً للمعتضد والمكتفي، وكان يومئذ صاحب الشرطة في بغداد. له كتاب في النغم وعلل الأغاني المسمى "كتاب الآداب الرفيعة". أما منصور ابن طلحة بن طاهر فكان موسيقياً نظرياً، له " كتاب المؤنس في الموسيقى".

مجالس الغناء في الأمصار والأندلس :

ولم تقتصر مجالس الغناء والموسيقى على الخلفاء وأبنائهم والأمراء، بل تعدتهم إلى الولاة في الأمصار والأسر الحاكمة المستقلة، وأصبحت حواضرها بؤرة العلم والأدب والموسيقى. فكانت مجالس الحمدانيين (317 -394هـ/929 - 1003م) في الموصل وحلب خصوصاً ونحوهما تضم مشاهير العلماء والمؤرخين والشعراء والموسيقيين والمغنين. فقد رعى بنو حمدان الفيلسوف والموسيقي الفارابي (339 - 399هـ/950 - 1008م) وأغدقوا عليه، وفي عهدهم وعندهم نبغ مؤرخا الموسيقى والغناء، وهما أبو الفرج الأصفهاني (356هـ/966م) صاحب كتاب الأغاني ذائع الصيت، والمؤرخ الجليل المسعودي المتوفي في عام (346هـ/957م) المصنف لكتب التاريخ وأخبار الملوك. ويروى أن الفيلسوف الفارابي قدم على مجلس سيف الدولة الحمداني، وحدث ما حمله أن يضرب على قانونه لحنا أضحك الحاضرين، ثم غير اللحن فأبكاهم، ثم غيره فأنامهم وانسل من بينهم منصرفاً.

وفي مصر شغف الطولونيون بالغناء والموسيقى، واشتهرت مصر بفنونها، وكان القصر يزهو بغناه وفخامته. وأفرط خمارويه (270 - 282هـ/883-895م) في تعلقه بالغناء والمغنين حتى إنه أمر أن يزين قصره بصور مغنياته وحظاياه. فقد ذكر المؤرخون "أنه عمل في بستان قصره مجلساً له سماه، دار الذهب، طلي حيطانه كلها بالذهب واللازورد في أحسن نقش، وجعل في حيطانه مقدار قامة ونصف صوراً بارزة من خشب معمول على صورته وصور حظاياه والمغنيات اللاتي تغنيه في أحسن تصوير وأبهج تزويق، وجعل على رؤوسهن الأكاليل من الذهب والجواهر المرصعة، وفي آذانها الأخراص

[حلقة الذهب والفضة] الثقال، ولونت أجسامها بأصناف تشبه الثياب من الأصباغ العجيبة، فكان هذا القصر من أعجب ما بني في الدنيا". وذكر عنه أيضا أن خمارويه كان إذا جلس لسماع الغناء وسمع المكبرين يكبرون أمر المغنيات بوقف الغناء، وأخذ يسمع أصوات المكبرين في سكون وخشوع.

وكان الإخشيديون الذين أعقبوا الطولونيون لا يقلون عنهم شغفاً بالموسيقى والأدب، وشجع الإخشيد في مصر الغناء والموسيقى إلى حد الإفراط، فقد كان القصر الإخشيدي في أسنى بهاء بموسيقيه وغنائه، كذلك كانت مجالس الناس وأعيادهم. ويصف المؤرخ المسعودي عيداً من أعياد مصر، وهي ليلة الغطاس أيام زيارته مصر سنة (**330هـ/ 941م**) بقوله : إنه كان يسمع الموسيقى من كل جانب" مع الملاهي والعزف والقصف، وهي أحسن ليلة تكون بمصر، وأشملها سروراً، ولا تغلق فيها الدروب".

فكان المعزّ (**365هـ/ 975م**) أول خليفة فاطمي حكم مصر، وصف بأنه كان "كاملاً عالماً ضرب بسهم نافذ في العلم والفلسفة، من أكبر المشجعين للفنون والعلوم"، وكان ابنه تميم (فاضلاً شاعراً لطيفاً ظريفاً)، مشغوفاً بالموسيقى كأبيه.

وأكمل العزيز الفاطمي (**365 - 386هـ/975 - 996م**) فتح سوريا وقسم كبير من العراق. فأصبحت الدولة الفاطمية تمتد من الفرات حتى ساحل الأطلنطي. وغرق قصر الخليفة في شتى مظاهر الفخفخة والترف التي تجل عن الوصف. وشع منه سناء لم يُرَ له مثل من قبل. كان هذا الخليفة مؤسس مدرسة الأزهر التي بناها سلفه. ومنع الخليفة الحاكم (**386- 411 هـ/ 996 - 1020م**) أصحاب الغناء بين سنتين (**398 -401هـ/1007 - 1010م**) " وأمر أن ينفي المغنون من البلاد، فحضر جميعهم وعقد عليهم توبة وأعفوا من النفي، وهددهم بالقتل إذا مارسوا صناعتهم"، ولكنه كرم في الوقت ذاته جامع الأغاني المعروف بـ(المسبّحي)، وكذلك كرم الموسيقي (ابن الهيثم)، ذلك لأن أدب الموسيقى وعلومها، لم يكن يعد من قبيل الملاهي، ولم يشابه الخليفة الظاهر (**411 - 487هـ/1020 - 1094م**) أباه فقد "كان مشغوفاً باللهو محباً للغناء " فتأنق الناس في أيامه ... واتخذوا المغنيات والرقاصات، وبلغوا من ذلك مبلغاً عظيماً. وانغمس هو في حياة اللهو والترف وكان حبه الغناء والراقصات تشوبه قسوة ووحشية لا توصفان. وكان العهد الفاطمي من ألمع العهود العربية الإسلامية من جهة التقدم الثقافي والفكري في مجال العلم. فقد كانت رعاية الفاطميين للفنون أينع ثمراً على الأغلب، فقد خلفوا سجلاً مجيداً لهندستهم المعمارية وتشجيعهم الصنعة الفنية.

مجالس الغناء والموسيقى عند أمراء الأندلس :

وقد أولع أمراء الأندلس بمجالس الغناء والموسيقى وأجزلوا العطاء للمغنيين والموسيقيين.

ووضع عبد الرحمن الأول (138 – 172هـ/756 – 788م) أسس عظمة الأندلس للأزمنة التالية. فساد السلام ربوع الأندلس، وازدهرت في زمنه الآداب والفنون. وكان يعشق الغناء والموسيقى، ويضم مجلسه عددا من أكابر الفنانين يجري عليهم الأرزاق الواسعة. وكان يستمتع بسماع مغنيته المحبوبة العجفاء التي كانت تؤدي غناءها على ضرب العود، وقد أمر بشرائها من بغداد وإحملت إليه.

كان هشام الأول (172– 180هـ/788 – 796م) يختلف عن سلفه، فهو دَينٌ ورع، لكن ذلك لم يحل بينه وبين جمع رجال العلم والشعر والحكمة حوله. ولم يحدثنا المؤرخون عن موقفه من الموسيقى، ولكن يبدو من اكتظاظ البلاد بالفقهاء والأئمة المالكيين كأن لا محل للموسيقى آنذاك، كما كان الحكم الأول (180 – 206هـ/796 – 821م)، "سمحاً طروباً محباً لمجالس الغناء، يحب الاستمتاع بالحياة. أحب الأدب والعلم والفن وكان سخياً مبسوط اليد. فأخذت الموسيقى في زمنه تحتل مركزها السامي في الأندلس. وغص مجلسه بالمغنيين".

وفي عهد عبد الرحمن الثاني (206 – 238هـ/821 – 852م) وصلت الثقافة والفنون أوج عظمتها في حكمه. فاق ما لقيه فن الغناء والموسيقى من الاهتمام ما لقوه من قبل، وسطع نجم زرياب القادم من بغداد الذي كان يْعّدُ الموسيقي الأول للأمير ونديمه المقرب، وقد أجرى عليه الأمير عبد الرحمن المنح والعطايا الوافرة. وأورث زرياب صناعة الغناء بالأندلس وأولاداً وخلفه كبير أولاده عبد الرحمن في صناعته وحظوته". وكان الحدث التاريخي الأعظم في هذه الحقبة من الزمن إنشاء المعهد الموسيقي الفني المعروف، (بمدرسة زرياب) وجلب المغنيات من (المدينة) ونشر المعارف الموسيقية العربية القديمة. ظلت (مدرسة زرياب) قائمة حتى نهاية الخلافة في الأندلس.

وفي الأندلس كان الأمراء يستبقون إلى الموسيقى والأدب والعلم، فقد ازدهرت الفنون، وتقدمت العلوم وأحرزت بين المعارف السبق والسيادة في زمن حكم الخلفاء محمد الأول (238 – 273هـ/852 – 886م)، والمنذر (273 – 275هـ/886 – 888م)، وعبد الله (275 – 300هـ/ 888 – 912م) الذي كان يضمر حباً للموسيقى. وكان أول ثمرة لهذا الاهتمام بعلم الموسيقى، ابن فرناس (275هـ/ 888م). وقامت في الأندلس أسر حاكمة مستقلة شغفت بالغناء والموسيقى. فاشتهر أمير(قزلونة) عبيد الله ابن أمية برعايته طبقة المغنين وحمايته الفنون بصورة عامة، بينما كان حاكم (أشبيلة) الأمير إبراهيم بن الحجاج (286هـ/899م) موضع حسد البلاد جميعاً بسبب ما جمع من شعراء وموسيقيين لديه، وكان يستقدم رجال العلم من الجزيرة العربية، ويجلب

المغنيات من بغداد، ومن بينهن (قمر) الشهيرة. وقضى الخليفة، المعروف باسم عبد الرحمن الثالث (300 - 350هـ/912 -961م)، على استقلال الأسر الحاكمة، ووصف حكمه بأنه أقوى حكم في بلاد الأندلس. وكان ابن عبد ربه (329هـ/940م) مؤلف كتاب العقد الفريد، شاعراً لهذا الخليفة. وكان يشيد بمدح الموسيقى، فيسميها "مراد السمع، ومرتع النفس ومسلاة الكئيب، وأنس الوحيد، وزاد الراكب...". ويعد كتاب العقد الفريد أحد المصادر الأساسية في فنون الغناء والموسيقى.

وكان الحكم الثاني (350 - 366هـ/961 - 976م) الذي عقب عبد الرحمن الثالث الكبير، كسلفه شديد الكلف والرعاية للثقافة، ولشدة ولعه باقتناء الكتب واجتمعت في خزائنه من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده. إذ قيل :إنها كانت أربعمائة ألف، أرسل هذا الخليفة ألف دينار للأصفهاني صاحب كتاب الأغاني، فكان من أول الذين حصلوا على نسخة من (كتابه العظيم) هذا. إذ قال المقري: "وبعث في كتاب "الأغاني" إلى مصنفه أبي الفرج الأصفهاني، وأرسل إليه فيه بألف دينار من الذهب العين، فبعث إليه بنسخة منه قبل أن يخرجه إلى العراق".

وشغف الخليفة محمد الثاني الملقب بالمهدي (399 - 400هـ/ 1008 - 1009م) بالموسيقى، كان يتجاوب في قصره أصوات مئات العيدان والمزامير. وكان للمستكفي (414- 418هـ/ 1023 - 1027م) ابنة أسمها (ولادة)، وكانت شاعرة وموسيقية مشهورة.

وولع أمراء الطوائف بمجالس الغناء والموسيقى، وكان معظم أمراء الطوائف من عشاق الموسيقى يتنافسون في اقتناء القينات الحسان البارعات في العزف والغناء، ويبذلون في ذلك الأموال الطائلة، وكان في قصورهم منهن أسراب وأسراب. ولاسيما في قصور بني عباد بإشبيلية، وبنى ذي النون بطليطلة، وكانوا يعشقون الغناء والموسيقى، ويصحبون المغنيين معهم في أثناء حملاتهم العسكرية.

وكان المعتمد الملك العبادي مغنياً وضارباً على العود، وكان ابنه عبيد الله الرشيد ملحناً ومغنياً مثقفاً وشاعراً محسناً، يحذق الضرب على العود والمزهر. وكانت أغاني شاعر القصر عبد الجبار بن حميدس العربي الصقلي طرزاً جديداً للموسيقيين الأشبيليين. وقد آثر أحد ملوك بني عباد أن يصحب معه في حلّه وترحاله نسخة من كتاب الأغاني. وكانت أشبيلية تعد قاعة صناعة الملاهي وآلات الطرب. وفي طليطلة أدى البذخ والترف وحفلات بني ذي النون، أن يضرب بها المثل. وطليطلة هي المدينة التي فخرت بالموسيقار أبي الحسين بن أبي جعفر الوقـــشي. وشجع الأمراء رعاية الموسيقى والغناء، وتعلق سكان مالقة بالموسيقى، وغرم أهالي مدينة آبدة بأصناف الملاهي والراقصات المشهورات بحسن الانطباع والصنعة. وفخرت سرقسطة بالرياضي

والموسيقي العظيم (أبي الفضل حداي) ولم تكن الموسيقى في الأندلس وقفاً على طبقة معينة من الناس، بل كانت مباحة لعموم الناس على مختلف مراكزهم الاجتماعية.

مجالس العامـــة :

كانت لمجالس الغناء والموسيقى عند العامة من الناس في العصر العباسي أثر كبير في تطور هذا الفن، فقد شغفت به العامة شغفا بالغا، وكانت مجالس الغناء والموسيقى منتشرة في أنحاء دولة بني العباس، كما ذكرها المؤرخون، في بغداد العاصمة، وأنحاء العراق والشام ومصر، والأندلس والمغرب وغيرها من حواضر الدولة العباسية. وهذه المجالس تحضرها الناس وغايتها اللهو وسماع الغناء والموسيقى، ومشاهدة الرقص أحيانا، وقد يجري فيها تمثيليات مضحكة من قبل المضحكين والهزليين. وتعقد هذه المجالس في الدور والمنتديات والمنتزهات، والأديرة، والحانات، ونجدها أيضا في البر كما نجدها في الشوارع، وفي الأنهر، وفي الطيارات والسميريات، والبساتين.

وكانت مجالس الغناء والطرب تقام كذلك في الأعياد والمواسم والمناسبات وفي حفلات الزواج، والختان وغيرها. وفيها يحضر عازفون يصاحبون المغني أو المغنية في أثناء الغناء، ويستثيرون همم الرقاصات والرقاصين. ولم يكن هؤلاء العازفون من الرجال فقط بل كانوا من النساء أيضا، وكانت كل واحدة منهن تشتهر أو تسمى باسم الآلة التي تعزف عليها كالطبالة والصناجة والعوادة والزامرة والطنبورية.

ومن عوامل انتشار الغناء في العصر العباسي كثرة الجواري والقيان. وكان للموسيقيين المحترفين، وأصحاب بيوت النخاسة والقيان دوراً مهما كبيراً في تدريب الجواري والقيان على أصول فن الغناء الموسيقى، وذلك لرفع شأنهن، فقد اهتم أصحاب دور القيان والنخاسة بتثقيفهن ثقافة موسيقية، نظرا إلى أن أكثرهن من الأعاجم، وعدت الجواري المكيات والمولدات أفضل من غنى، وكانوا يعلمون الجواري السود والصفر فن الغناء وصناعة الموسيقى،وأول من علم الجواري المثمنات كان إبراهيم الموصلي، الذي بالغ بالقيان كل مبالغ ورفع من أقدارهن. وكان الشعراء يختلفون إلى النوادي المشهورة في هذا العصر العباسي وهما: نادي ابن رامين، وكذلك نادي القراطيسي.

مشاهير أعلام الغناء والموسيقى ومدارسهم ومؤلفاتهم:

سياط : (121- 186هـ/739 - 802م) هو : عبد الله بن وهب، ويكنى أبا وهب، وسياطٌ لقب غلب عليه، وهو مكي من خزاعة. كان مقدماً في الغناء رواية وصنعة، مقدماً في الضرب. وهو أستاذ ابن جامع وإبراهيم الموصلي، وعنه أخذا ونقلا، ونقل نظراؤهما الغناء القديم، وأخذه هو عن يونس الكاتب. وكان سياط زوج أم ابن جامع. حكي أن إبراهيم الموصلي غنى صوتاً لسياط، فقال ابنه إسحاق: لمن هذا الغناء يا أبت ؟ قال: "لمن لو عاش ما وجد أبوك خبزاً يأكله: لسياط". وسياط له ثمانية

عشر صوتاً، أوصى ابن جامع عند موته بالمحافظة على غنائه، قال له : " لا تزد في غنائي شيئاً ولا تنقص منه، دعه رأساً برأس، فإنما هو ثمانية عشر صوتا". وذكر ابن خرداذبة بأنها أربعة وعشرون صوتاً، وغنى سياط للخليفة الهادي. وكانت وفاة سياط في أول أيام موسى الهادي.

حكم الوادي: هو الحكم بن ميمون، وكان حكم طويلاً أحول، يكري الجمال، ينقل عليها الزيت من الشام إلى المدينة. وكان واحد عصره في الحذق، وكان ينقر بالدف ويغني مرتجلاً، وعُمِّرَ طويلاً، غنى الوليد ابن عبد الملك، وغنى الرشيد، ومات في الشطر من خلافته. وأخذ الغناء عن عمر الوادي، وقد قيل: إن عمر أخذ عنه. وكان حكم الوادي يُعَدُّ من عظام الموسيقيين في العصر العباسي. وقيل: إنه لم يشتهر بالغناء حتى صار إلى بني العباس، فانقطع إلى محمد بن أبي العباس، فأعجب به واختاره على المغنين وأعجبته أهزاجه. وكان يقال: إنه أهزج الناس. ويقال إنه غنى الأهزاج في آخر عمره، فلامه ابنه على ذلك. وغنى للمهدي فأجازه، فوصله وأحسن إليه". كما أطرب الخليفة الهادي دون غيره من المغنين وهما: إبراهيم الموصلي وابن دحمان، فأعطاه ثلاث بدَر. وزار حكم الوادي الرشيد، فَبَرَّهُ ووصلَه بثلاثمائة ألف درهم. وكتب له بها إلى الأمير إبراهيم بن المهدي، وكان عاملاً له في الشام، فوصله هو أيضاً وأخذ عنه ثلاثمائة صوت بعد أن أقام عنده ثلاثين يوماً.

يحيى المكي وابنه أحمد: هو أبو عثمان يحيى بن مرزوق المكي، وعُمِّرَ مائة وعشرين سنة، وأصاب بالغناء ما لم يصبه أحد من نظرائه، ومات وهو صحيح السمع والبصر والعقل. وكان قدم مع الحجازيين الذين قدموا على المهدي في أول خلافته، فخرج أكثر وبقي يحيى بالعراق هو وولده يخدمون الخلفاء إلى أن انقرضوا، وكان آخرهم محمد بن أحمد بن يحيى المكي، وكان يغني مرتجلاً، ويحضر مجلس المعتمد مع المغنين فيوقع بقضيب على دواة. وكان ابن جامع وإبراهيم الموصلي يأخذون منه الغناء القديم. غنى في مجالس رشيد والأمين والمأمون. وله منزلة عالية في الغناء وعمل " كتاباً في الأغاني" وأهداه إلى عبد الله بن طاهر، وهو يومئذ شاب حديث السن. كانت صنعة يحيى ثلاثة آلاف صوت، منها زهاء ألف صوت لم يقاربه فيها أحد. وسئل ابنه أحمد عن صنعة أبيه فقال: الذي صح عندي منها ألف صوت وثلثمائة صوت، منها مائة وسبعون صوتاً، غلب فيها على الناس جميعاً من تقدم منهم ومن تأخر.

ابن جامع: هو أبو القاسم إسماعيل بن جامع، من سادة قريش، فأبوه من بني سهم رؤساء قريش. مات أبوه عنه وهو حدث، فتزوجت أمه بسياط المغني، فاستهوته صناعة الموسيقى وملكت عليه مذاهبه. فكان زوج أمه أول معلميه، على أنه أخذ كذلك عن يحيى المكي. وكان ابن جامع منقطعاً إلى موسى الهادي في أيام أبيه، فضربه المهدي وطرده، فلما مات المهدي

بعث الفضل بن الربيع إلى مكة، فأحضر ابن جامع في قبة ولم يُعْلِمْ به أحداً. كان ابن جامع أحسن ما يكون غناء إذا حزن، وأحب الرشيد أن يسمع ذلك، وأمر له الرشيد بعشرة آلاف دينار. وسمعته أم جعفر مع الرشيد فأمرت له بمائة ألف درهم لكل بيت غنى فيه، وعوضها الرشيد بكل درهم ديناراً.

إبراهيم الموصلي: (125-188هـ/ 742- 803م) هو إبراهيم بن ماهان بن ميمون، ومولده في سنة خمس وعشرين ومائة بالكوفة، ووفاته ببغداد في سنة ثمان وثمانين ومائة، نشأ عند عرب بني تميم بعدما مات أبوه وهو صغير، فكان ولاؤه لبني تميم. وكان السبب في نسبه إلى الموصل أنه لمّا كبر واشتد وأدرك اشتهى الغناء فطلبه، واشتدّ أخواله عليه في ذلك وبلغوا منه، فهرب منهم إلى الموصل، فأقام بها نحواً من سنة، فلما رجع الى الكوفة قال له إخوانه من الفتيان: مرحباً بالفتى الموصلي، فلقب به، ثم أرتحل الى الرّي في طلب الغناء، فطال مقامه هناك، وأخذ الغناء وأتقنه. وأول خلفاء بني العباس سمعوا غناء إبراهيم الموصلي كان المهدي الذي لم يسمع قبله سوى مغنيين اثنين هما : فليح بن أبي العوراء وسياط. ونهاه المهدي عن الشرب ومصاحبة ابنيه موسى الهادي وهارون الرشيد فلما أبي ضربه وحبسه. فلما ولى موسى الهادي الخلافة استتر إبراهيم منه ولم يظهر له بسبب الأيمان التي حلف بها للمهدي. فلم يزل يطلبه حتى أتى به. ثم غناه لحنه في شعره. قال إسحاق:

" فموله والله الهادي وخوله، وبحسبك أنه أخذ منه في يوم واحد مائة وخمسين ألف دينار. ويعد إبراهيم الموصلي أول من علم الجواري الحان الغناء، رافعاً بذلك من قدرهن، وعلم الجواري المثمنات أبي، فإنه بلغ بالقيان كل مبلغ، ورفع من أقدارهن ". وعظم شأن إبراهيم الموصلي عند الخليفة هارون الرشيد. وهو أول من غنى للرشيد بعد أن ولى الخلافة بشعر له، وأمر له بعشرين ألف درهم، "ويروى كذلك أن إبراهيم كان أول شاعر نال جائزة من الرشيد لمّا وليّ الخلافة. وكان إبراهيم الموصلي نديماً للخليفة الرشيد، وكان يخرج معه فى أثناء أسفاره. ويروي الأصفهاني أن إبراهيم الموصلي صنع تسعمائة صوت. ومات إبراهيم الموصلي ببغداد سنة ثمان وثمانين ومائة، وعمره أربع وستون سنة، وأمر الرشيد ابنه المأمون أن يصلي عليه. ويعد إبراهيم الموصلي مدرسة غنائية موسيقية كبرى، تخرج على يده خلاف ابنه إسحاق، تلاميذ كبار منهم: زلزل، ومخارق، وعلوية، وابن صدقة، وسليمان بن سلام، ومحمد بن الحارث، وذاع اسمه في الغرب، كما ذاع في الشرق عن طريق حكايات ألف ليلة وليلة. وله كتاب في الأغاني ذكره ابن خرداذبة وابن النديم.

إسحاق بن إبراهيم: هو أبو محمد إسحاق بن إبراهيم الموصلّي، ويكنى أبا محمد، وكان الرشيد يولع به فيكنيه أبا صفوان. فهو أعظم موسيقيي القصر العباسي بعد موت والده إبراهيم. قال صاحب الأغاني في ترجمة إسحاق:

"وموضعه من العلم، ومكانه من الأدب، ومحله من الرواية، وتقدمه في الشعر، ومترلته في سائر المحاسن، أشهر من أن يُدل عليه فيها بوصف، وأما الغناء فكان أصغر علومه وأدنى ما يوسم به ... فهو إمام أهل صناعته جميعاً، ورأسهم ومعلمهم، يعرف ذلك منه الخاص والعام، ويشهد به الموافق والمغارق ... وكان المأمون يقول: لولا ما سبق على ألسنة الناس وشهر به عندهم من الغناء لوليته القضاء بحضرتي، فإنه أولى به وأعف وأصدق وأكثر ديناً وأمانة من هؤلاء القضاة. وقد روى الحديث ولقى أهله من شيوخ العراق والحجاز. قال: وهو الذي صحح أجناس الغناء وطرائقه وميزها تميزاً لم يقدر عليه أحد قبله". أخذ الأصوات من عاتكة بنت شهدة المغنية المشهورة، وتعلم الضرب بالعود من زلزل. وغنى بمجالس الرشيد والأمين والمأمون والواثق والمعتصم وغيرهم. وقال الواثق فى حقه: "ما غنابي إسحاق قط إلاّ ظننت أنه قد زيد في ملكي ... وأن إسحاق لنعمة من نعم الملوك التي لم يحظ أحد بمثلها. ولو أن العمر والشباب والنشاط مما يشترى لأشتريتهنّ له بشطر ملكي". وصنع في الغناء زهاء أربعمائة صوت، وتزعم مدرسة الغناء القديم. وتوفي إسحاق ببغداد في أوائل خلافة المتوكل في شهر رمضان سنة (235هـ/849م). وقال المتوكل:" ذهب صدر عظيم من جمال الملك وبهائه وزينته". ويذكر له صاحب كتاب "الفهرست" زهاء أربعين كتاباً من تأليفه في فنون الغناء والموسيقى ومنها: " كتاب الأغاني الكبير، وكتاب أغانيه التي غنى بها، وكتاب أخبار ذي الرمة، وكتاب أخبار المغنيين المكيين، وكتاب أخبار طويس، وكتاب أخبار سعيد ابن مسجح، وكتاب أخبار الدلال، وكتاب أخبار محمد بن عائشة، وكتاب أخبار الأبجر، وكتاب أخبار ابن صاحب الضوء، وكتاب الأختيار من الأغاني للواثق، وكتاب الرقص والزفن، وكتاب الندماء، وكتاب المنادمات، وكتاب النغم والإيقاع، وكتاب قيان الحجاز، وكتاب القيان، وكتاب أخبار معبد وبن سريج وأغانيهما، وكتاب أخبار الغريض". ولقد تفرغ لكتابة سيرة إسحاق الموصلي ابنه حماد، وعلي بن يحيي بن أبي المنصور وغيرهما.

يزيد حوراء: كان يزيد حوراء موسيقياً من أهل المدينة، ويكنى أبا خالد، مغن محسن كثير الصناعة، من طبقة ابن جامع وإبراهيم الموصلي، وكان ممن قدم على المهدي في خلافته فغناه، وكان حسن الصوت حلو الشمائل. فحسده إبراهيم الموصلي على شمائله وألحانه في الغناء، فاشترى عدة جوار وشاركه فيهن، وقال له: علّمهن، فما رزق الله فيهن من ربح فهو بيننا. فكان إبراهيم يأخذ ألحانه عنهن هو وابنه إسحاق، ويأمرهن بتعليم كل من يعرفنه ذلك، حتى شهرها في الناس، فأبطل عليه ما كان منفرداً به من ذلك. كان يزيد حوراء صديقاً لأبي العتاهية الشاعر، وغنى للمهدي من شعره في عُتبةْ فأكرمه. وكان يزيد نظيفاً ظريفاً حسن الوجه جميل الخصال، وكان يتعصب لإبراهيم الموصلي

على ابن جامع، فكان إبراهيم يرفع منه ويشيع ذكره بالجميل، وينبّه على مواضع تندمه وإحسانه، ويبعث بابنه إسحاق إليه يأخذ عنه، فمرض مرضاً شديداً وأحتضر، فاغتم عليه الرشيد، وبعث بمسرور الخادم يبحث عنه.

فليح بن أبي عوراء: رجل من أهل مكة مولى لبني مخزوم، وهو أحد مغني الدولة العباسية، له محل كبير من صناعته وموضع جليل، وهو أحد الثلاثة الذين اختاروا المائة الصوت للرشيد، غنى للمهدي، وكان أول موسيقي يحظى بمنادمته الخليفة ومجالسته بلا ستارة، إذ روى الأصفهاني: أن المهدي كان يسمع المغنيين جميعاً، ويحضرون مجلسه فيغنونه من وراء الستارة لا يرون له وجهاً، إلا فليح بن أبي العوراء.

مخارق : هو مخارق بن يحيى بن ناووس الجزار مولى الرشيد، ويكنى أبا المهنأ، كناه الرشيد بذلك؛ لإحسانه في الغناء. وكان قبله لعاتكة بنت شهدة، وهي من المغنيات المحسنات المتقدمات في الضرب. ونشأ بالمدينة، وقيل : بل كان منشؤه بالكوفة، وعنها أخذ مخارق ثقافته الموسيقية، اشتراه إبراهيم الموصلي، ثم وهبه إلى الفضل بن يحيى ثم صار إلى الرشيد، واعتقه لوجه الله. فكان مخارق عندما يغني يبكي سامعيه لرقة صوته. فكان الرشيد يبكي إذا غنى مخارق. وغنى لإبراهيم الموصلي فجرت دموعه على خديه من أربعة أماكن وهو ينشج أحرّ نشيج. ويذكر عن مخارق أنه غنى في بعض المتنزهات، فسمعت الظباء غناءه فوقفت بالقرب منه مصغية تسمع صوته، فعجب من حضر من رجوعها ووقوفها، "فإذا قطع الغناء، عاودت الظباء نفارها، ومضت راجعة على سننها ". كما كانت الناس تتسابق لسماعه، فقد روى صاحب الأغاني عن ابن المكي قال: وحدثني رجل من كان يألف مخارقاً ويصحبه قال : "كنت معه مرة في طيار ليلاً، فلما توسط دجلة أندفع بأعلى صوته فغنى، فما بقى أحد في الطيار من ملاح ولا غلام ولا خادم إلاّ بكى من رقة صوته، ورأيت الشمع والسرج من جانبي دجلة في صحون القصور والدور يتساعون (يتسارعون) بين يدي أهلها يستمعون غناءه". وكان مخارق يستوقف الناس بحسن صوته في الآذان. وغنى مرّة بين قبرين فترك الناس أعمالهم والتفوا حوله. يسمعون غناءه في شعر أبي العتاهية. كان الخليفة الواثق والخليفة المعتصم يعذران غلمانهم إذا غنى مخارق، حين تركوا القصر وذهبوا لسماع غنائه. وغنى بشعر للمأمون في جارية له فأبكاه. وكان أبو العتاهية الشاعر يعجب بغنائه إعجاباً شديداً، واشتهى سماعه حين حضرته الوفاة. وتوفي مخارق في أول خلافة المتوكل، وقيل : بل في آخر خلافة الواثق. وغنى بمجالس خمسة من الخلفاء: الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق.

مسكين بن صدقة وأسرته: اسمه مسكين بن صدقة من أهل المدينة، مولى لقريش. وكان مليح الغناء، طيب الصوت، كثير الرواية، صالح الصنعة، من أكثر الناس نادرة، وأخفهم روحاً، وأشدهم طمعاً، والحّهم في مسألة. وأبو صدقة من

المغنيين الذين أقدمهم هارون الرشيد من الحجاز في أيامه. وكان الرشيد يطرب لغنائه، ويصحبه معه في أسفاره، وكان الرشيد يعبث به عبثاً شديداً؛ لكثرة نوادره التي تضحك الرشيد. وكان له ابن يقال له: صدقة يغني، وابن ابنه أحمد بن صدقة الطنبوري - أحد المحسنين من الطنبوريين، وله صنعة جيدة، وكان أشبه الناس بجده في المزح والنوادر، وكان ينزل الشام، فوصف للمتوكل، فأمر بإحضاره، فقدم عليه وغناه، فاستحسن غناءه، وأجزل صلته، واشتهاه الناس وكثر من يدعوه، فكسب بذلك أكثر مما كسبه مع المتوكل أضعافاً. وغنى أحمد بن صدقة للمأمون. وكان يرافقه في خروجه إلى الشام، ويغني في شعره.

عَلُّويَهْ: هو علي بن عبد الله بن سيف. ويكنى علّويه أبا الحسن. وكان مغنياً حاذقاً، ومؤدباً محسناً، وصانعاً متفنناً، وضارباً متقدماً، مع خفة روح، وطيب مجالسة، وملاحة نوادر. وكان إبراهيم الموصلي علمه وخرجه وعني به جداً، فبرع وغنى لمحمد الأمين، وعاش إلى أيام المتوكل، ومات بعد إسحاق الموصلي بيسر. وغنى علويه بمجالس الرشيد، والأمين والمأمون، والمعتصم والواثق، وغيرهم.

زبير بن دحمان: كان أبوه موسيقيّاً معروفاً في العصر الأموي. وكان الزبير مكياً أحد المحسنين المتقنين الرّواة الضُّراب، المتقدمين في الصنعة، وقدم على الرشيد من الحجاز، وكان المغنون في أيامه حزبين: أحدهما في حزب إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق، والآخر في حزب إبراهيم بن المهدي وابن جامع، وكان إبراهيم بن المهدي مشعل أسباب هذا التخرب والتعصب لما كان بينه وبين إسحاق وكان الزبير ابن دحمان في حزب إسحاق، وأخوه عبيد الله في حزب إبراهيم بن المهدي. غنى للرشيد من غناء المتقدمين، وأمر له بثلاثين ألف درهم، ولأخيه بعشرين ألف درهم. وفضل الرشيد لحنه على عشرين لحناً صنعها زملاؤه، إذ روى الأصفهاني قائلاً: "وجمع المغنين، فحضر إبراهيم الموصلي، وابن جامع، وفليح، وزبير بن دحمان، والمعلى بن طريف، وحسين بن محرز، وسليم بن سلام، ويحيى المكي، وابنه، وإسحاق، وأبو زكار الأعمى، وأعطاهم الشعر وقال: ليعمل كل واحد منكم فيه لحناً. قال : فلقد عملوا فيه عشرين لحناً، فما أعجب منها إلا بلحن الزبير وحده، أعجب به إعجاباً شديداً، وأجازه خاصة دون الجماعة الجائزة سنية".

زرياب: المولود (160هـ/776م) هو: أبو الحسن علي بن نافع، الملقب بزرياب. لقب به بسبب سواده وفصاحة لسانه، وحلاوة شمائله. شبه بطائر أسود غراد. ولد ببغداد. ويُعد من أشهر الموسيقيين في الأندلس. تتلمذ زرياب على يد إسحاق بن إبراهيم الموصلي، أعظم المغنين والموسيقيين في عصره، وكان له من الحذق في صناعة الغناء والموسيقى، مع طيب الصوت، ما فاق به معلمه إسحاق. وكان إلى علمه بصناعة الغناء، وطيب صوته، شاعراً وأديباً، حلو المعشر

والحديث، عالماً بالنجوم، ومتضلعاً بالعلوم والجغرافية والفلك. وكان إلى ذلك مبتكراً مبدعاً، فأضاف إلى العود وتراً خامساً، ومن ابتكاراته كذلك صنعه مضراب العود من قوادم النسر. ترك زرياب بغداد بعدما غنى للرشيد، فأعجب به، وطار الرشيد طرباً لسماع غناءه، وما لبث أن تعلق بزرياب تعلقاً فأثار ولم يعد يصبر عنه، فأثر هذا حسد معلمه إسحاق الذي أمره أن يغادر بغداد. وفي الأندلس قدم عبد الرحمن بن الحكم زرياب على سائر المغنين بعد أن سمع غناءه. وقدر موهبته الموسيقية حق تقدير، فأدخله في خدمته، وبالغ في إكرامه، "وأنزله في دار من أحسن الدور، وكتب له في كل شهر بمائتي دينار راتباً، وأن يجري على بنيه الذين قدموا معه وكانوا أربعة: عبد الرحمن، وجعفر، وعبيد الله، ويحيي، عشرون دينار لكل واحد منهم كل شهر، وأن يجري على زرياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار، منها لكل عيد ألف دينار، ولكل مهرجان ونوروز خمسمائة دينار وأن يقطع له من الطعام العام ثلثمائة مدى، ثلثها شعير وثلثها قمح، وأقطعه من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها ومن ضياع ما يقوم بأربعين ألف دينار"، وبدأ بمجالسته على النبيذ وسماع غنائه وأحبه حبا شديدا، وقدمه على جميع المغنيين، ولما ملك قلبه واستولى عليه حبه، فتح له باباً خاصاً يستدعيه منه متى أراده. ويذكر المقري: "أن زرياب ادعى أن الجن كانت تعلمه كل ليلة ما بين نوبة إلى صوت واحد، كان يهب من نومه سريعاً فيدعو بجاريتيه غزلان، وهنيدة، فيأخذان عودهما ويأخذ هو عوده، فيطارحهما ليلته، ثم يكتب الشعر، ثم يعود لمضجعه ".

مدرســة زريــاب الموسيقيــة :

وأسس زرياب في الأندلس مدرسة للموسيقى والغناء، وعلى يديه تعلمت الجواري الأندلسيات الغناء العربي، فنشأ منهن جيل من المغنيات جديد، وأصبح الغناء شائعاً مألوفاً. وكان زرياب شديد الخلاص في تعليمه تلامذته الغناء، وكان له فنون في ذلك وأصول يتبعها مع أصحاب الأصوات المختلفة لتقويم أصواتهم، ومن تلاميذ مدرسته أبناؤه الثمانية وبنتاه عليه وحمدونة بالإضافة إلى عدد آخر بعضهم من الغلمان والجواري، أمثال متعة ومصابيح وغيرهم، وكانت لزرياب مراسيم خاصة في اختيار طلبة مدرسته، ومنها أن يكون الطالب ذا صوت مطبوع. إذ يطلب من المتقدم لمدرسته أن يصيح بأعلى صوته : ياحجام، أو : آه، وما شابه ذلك، فإن استمر صوته بمثابة واحدة في العلو نديا صافيا لا تعتريه غنة ولا حبسة ولا ضيق نفس، فحين ذاك يقبله في مدرسته وإلا صرفه. ويبدأ بتدريسه بطريقة فنية، وذلك بأن يطلب من التلميذ بالقعود على الوساد المدور المعروف بالمسورة، وأن يشد صوته جداً إذا كان قوي الصوت، فإن كان لينه أمره أن يشد على بطنه عمامة، فإن ذلك مما يقوي الصوت، ولا يجد متسعاً في الجوف عند الخروج على الفم، فإن كان ألص الأضراس لا يقدر على أن يفتح فاه،

أو كانت عادته زم أسنانه عند النطق، راضه بأن يدخل في فيه قطعة خشب عرضها ثلاث أصابع يبيتها في فمه ليالي حتى ينفرج فكاه. وكان أولاده العشر الذكور والإناث أول تلاميذه في مدرسته : عبد الرحمن، وعبيد الله، ويحيى، وجعفر، ومحمد، وقاسم، وأحمد، وحسن، ومن الإناث ثنتان : علية وحمدونة. وكلهم غنى، ومارس الصناعة واختلفت بهم الطبقة، فكان أعلاهم عبيد الله، ويتلوه عبد الرحمن، كذلك كانت الجارية مصابيح إحدى تلاميذ زرياب. ويروى أن زرياب كان يحفظ عشرة آلاف مقطوعة من الأغاني بألحانها، وقد أدخل زرياب أنواعاً عديدة من المقامات، ووضع للغناء القوانين وكان المغنون يتقيدون بالمراسيم التي وضعها زرياب التي استمرت بالأندلس، إذ يقول المقري: " إن كل من افتتح الغناء يبدأ بالنشيد أول شدوه بأي نقر كان، ويأتي أثره بالبسيط، ويختم بالمحركات والأهزاج تبعا لمراسيم زرياب.

ومن الموسيقيين في الأندلس، عباس بن فرناس، المتوفى (273هـ/886م)، فله فضل كبير في رقي الموسيقى والغناء وصياغة الألحان، وكان شاعراً وأديباً مشهوراً، وقد أبدع إبداعات لطيفة واختراعات عجيبة، وضرب بالعود، وصاغ الألحان الحسنة، وكان مع ذلك مجيداً للشعر، حسن التصرف في طريقته، كثير المحاسن جم الفوائد. وكان الأمير عبد الرحمن الأوسط يستأنس به، وكان يغني بين يديه من رقيق نظمه، وعرف بن فرناس بأنه أول من فك الموسيقى في الأندلس، وأول من أدخل إليها علم العروض الذي وضعه الخليل، ونبغ في الأندلس عدد من كبار الموسيقيين والمغنين والمغنيات ممن يستحقون الذكر. " كان علون وزرقون " أول من دخل الأندلس من المغنيين، دخلا في أيام الحكم بن هشام (179 - 206هـ/795 - 821م) فنفقا عليه، وكان محسنين، لكن غناءهما ذهب لغلبة زرياب عليه وانتزاعه قصب السبق منهما. وكان عباس النسائي عميد الموسيقيين في قصر الحكم الأول، ويأتي بعده المنصور اليهودي، وهو الذي أرسله الحكم الأول لاستقبال زرياب وإيصاله إلى قرطبة. وظهر في الأندلس عدة مغنيات مشهورات فكانت العجفاء" أحسن الناس غناء " بعث عبد الرحمن الأول (138 - 171هـ/755 - 787م) فاشْتُرِيتْ له وحملت إليه من بغداد، وفضل المدينة، كانت مغنية حاذقة، نشأت وتعلمت ببغداد، واشتريت لعبد الرحمن الثاني مع صاحبتها " علم المدينة " ولقبت المغنية " قلم " حظوة كبيرة عند الأمير عبد الرحمن الثاني، وكانت مصابيح جارية الكاتب أبي حفص عمر بن قلهيل الأندلسي، أخذت عن زرياب الغناء، وكانت غاية في الإحسان والنبل وطيب الصوت، وحمدونة وعلية بنتا زرياب، ومتعة، وطرب، وأنس القلوب، وغزلان، وهنيدة جواري زرياب، وقمر الوافدة من بغداد.

عمرو بن بانة : هو عمرو بن محمد بن سليمان بن راشد. مولى ثقيف، وكان أبوه

صاحب ديوان ووجه من وجوهاً الكتاب، وينسب إلى أمه بانة، وكان مغنياً محسناً، وشاعراً صالح الشعر، وصنعته صنعه متوسطة وكان مرتجلاً، وله كتاب في الأغاني أصل من الأصول، وكان يذهب مذهب إبراهيم بن المهدي في الغناء، ويخالف إسحاق الموصلي ويتعصب عليه تعصباً شديداً ويواجهه بنفسه وينصر إبراهيم بن المهدي عليه، وهو معدود في ندماء الخلفاء ومغنيه، وذكره ابن النديم في فهرسته أن : " له من الكتب كتاب مجرد الأغاني. وكان ابن بانة نديماً خصيصاً بالمتوكل أنيساً به، أخذ عن إسحاق وغيره وله صنعة في الغناء، وعاش أيام المعتضد وكان منزله في بغداد وفي بعض الأوقات يمضي إلى سر من رأى وتوفى سنة(278هـ/891م)".

أبو حشيشة : واسمه محمد بن علي بن أمية، ويكنى أبا جعفر من ولد أبي أمية. وأبو حشيشة لقب غلب عليه. وكان طنبورياً حاذقاً بصنعته، وزعم جحظة أنه أخذ عنه، وتوفي وله من الكتب كتاب المغني المجيد، رأيته بخط عتيق، وكتاب أخبار الطنبوريين بحسب ما ذكره ابن النديم بفهرسته. وقال الأصفهاني: " إن أبا حشيشة ألف كتاباً جمع فيه أخباره مع من عاشر وخدم من الخلفاء؛ وهو كتاب مشهور". وخدم جماعة من الخلفاء، أولهم المأمون ومن بعده إلى المعتمد. وكان أكثر انقطاعه إلى أبي أحمد الرشيد أيام حياته، وكان أبوه وجده وأخواله كتاباً، وكان له صنعة تقدم فيها كل طنبوري.

زلـزل: واشتهر زلزل أو منصور زلزل الضارب المتوفى (174هـ/790م) بأنه من خيرة الموسيقيين أوائل العصر العباسي. قال عنه ابن عبد ربه : " كان زلزل أضرب الناس للوتر، لم يكن قبله ولا بعده مثله"، وقال إسحاق الموصلي في مجلس الواثق : " إن زلزلا هو المتقدم في ضرب العود، وكان الضارب الخاص لإبراهيم الموصلي وهو من أقاربه، إذ كانت أخت زلزل زوجة إبراهيم، وعرف عنه أنه أصلح في السلم الموسيقي. فهو الذي أدخل على العود البعد الثالث الأوسط (22 – 27)، كما أنه اخترع العود الكامل المسمى (بعود الشبوط) الذي قام مقام العود الفارسي من ذلك الزمن فيما بعد ".

جحظة : واسمه أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن خالد بن برمك، شاعر مغنٍّ مطبوع في الشعر، حاذق بصناعة غناء الطنبور، وحسن الأدب، بارع في معناه، وقد لقي العلماء والرواة وأخذ عنهم. وتوفي سنة (326هـ/937م) وله من الكتب كتاب الطبيخ، وكتاب الطنبوريين، وكتب غيرها.

عريب المأمونية: " كانت عريب مغنية محسنة، وشاعرة صالحة الشعر، وكانت مليحة الخط والمذاهب في الكلام، ونهاية في الحسن والجمال والظرف، وحسن الصورة وجودة الضرب، وإتقان الصنعة والمعرفة بالنغم والأوتار، والرواية للشعر والأدب، ما روى مثلها في النساء بعد القيان الحجازيات، مثل جميلة وعزة الميلاء وسلامة الزرقاء، ومن جرى مجراهن على قلة

عددهن نظير لها. وكانت فيها من الفضائل التي وصفناها ما ليس لهن مما يكون لمثلها من جواري الخلفاء، ومن نشأ في قصور الخلافة. قال إسحاق الموصلي عنها: "ما رأيت امرأة أضرب من عريب، ولا أحسن صنعة ووجهاً، ولا أخف روحاً، ولا أحسن خطاباً بارعاً، ولا أسرع جواباً، ولا ألعب بالشطرنج والنرد، ولا أجمع لخصلة حسنة لم أر مثلها في امرأة غيرها". غنت عريب للأمين بحضور إبراهيم بن المهدي. واشتراها المأمون بخمسة آلاف دينار من مولاها، الذي رباها وأدبها وعلمها الغناء. وخدمت ثماني خلفاء من بني العباس. وأمر الخليفة المعتمد على الله أن يجمع غناؤها له فجمع. فقد روى ابن المعتز قال :" أمرني المعتمد على الله أن أجمع غناءها، فأخذت منها دفاترها وصحفها التي كانت قد جمعت فيها غناءها فكتبته فكان ألف صوت، وقد قيل أكثر من ذلك ".

محبوبة جارية المتوكل: كانت محبوبة من مولدات البصرة، شاعرة، سريعة الخاطر، مطبوعة، وملكها المتوكل وهي بكر، وبقيت بعده مدة، فما طمع فيها أحد، وكانت أيضاً تغني. وكانت بارعة الحسن والظرف والأدب، مغنية محسنة، وقال صاحب مروج الذهب: " وكانت تقول الشعر وتلحنه وتغني به على العود، وكانت تحسن كل ما يحسنه علماء الناس، فحسن موقعها من المتوكل، وحلت من قلبه محلاً جليلاً لم يكن أحد يعادلها عنده ".

بـــذل: كانت بذل صفراء مولدة من مولدات المدينة، وربيت بالبصرة، وهي إحدى المحسنات المتقدمات، يقال: إنها كانت تغني ثلاثين ألف صوت. ولها كتاب في الأغاني منسوب الأصوات غير مجنس، يشتمل على أثنى عشر ألف صوت، يقال : إنها عملته لعلي بن هشام. وكانت حلوة الوجه ظريفة، ضاربة متقدمة، وابتاعها جعفر ابن موسى الهادي، فأخذها منه محمد الأمين، وأعطاها مالاً جزيلاً. أخذت بذل الصنعة عن أبي سعيد مولى فائد ودحمان وفليح وابن جامع، وإبراهيم، وطبقتهم. وقال جحظة في كتابه: كانت بذل من أحسن الناس غناء في دهرها، وكانت أستاذة كل محسن ومحسنة وكانت صفراء مدينة، وكانت أروى خلق الله تعالى للغناء". وقيل : " إبراهيم بن المهدي كان يعظمها. فصارت إليه، فدعت بعود فغنت في طريقة واحدة وانقطاع واحدة وأصبع واحد مائة صوت لم يعرف منها صوتاً واحداً ".

عبيدة الطنبورية: كانت عبيدة الطنبورية من المحسنات المتقدمات في الصنعة والأدب، يشهد لها بذلك إسحاق بن إبراهيم الموصلي. وكان أبو حشيشة نديم الخلفاء، يعظمها ويعترف لها بالرياسة والأستاذية، وكانت من أحسن الناس وجهاً، وأطيبهم صوتاً، فهي بحق من أحذق المغنيات وأبهرهن في صناعة الموسيقى والأدب. ومن المغنيات المشهورات عاتكة بنت شهد، وقلم الصالحية، وذات الخال، ودنانير البرمكية، وعنان، ودقاق.

حماد الموصلي: وكان حماد بن إسحاق بن إبراهيم الموصلي ابناً وحفيداً لأعظم موسيقيين في الدولة العباسية، أخذ صناعة الموسيقى عن أبيه، وكان حماد أديباً راوية شارك أباه إسحاق في كثير من سماعه، ولحق بكبار مشايخه منهم أبي عبيدة والأصمعي، وألف كتباً في الأدب كثيرة وأخذ أكثر علم أبيه ... وتوفى حماد وله من الكتب : كتاب الأشربة، وكتاب أخبار الحيطة، وكتاب أخبار ذي الرمة، كتاب أخبار عروة بن أذينة، وكتاب غناء إبراهيم جده، وغيرهما.

قريص المغني: قريص الجراحي، وهو من حذاق المغنيين وعلمائهم. وله من الكتب: كتاب صناعة الغناء وأخبار المغنيين، وذكر الأصوات التي غنى فيها على الحروف ولم يتمه، ثم "خرج" وتداوله الناس في ألف ورقة.

أل حمدون: وهو حمدون بن إسماعيل بن داود الكاتب، وهو أول من نادم الخلفاء من أهله، الذي اخذ الغناء عن مخارق وابنه احمد بن حمدون راوية أخباري، وله من الكتب كتاب "الندماء والجلساء ". وكان أبو العبيسي بن حمدون وأبو العنبس بن حمدون موسيقيين في قصر الخليفة المتوكل. وكل أفراد العائلة من مؤيدي الحركة التجديدية التي تزعمها الأمير إبراهيم بن المهدي.

النصيبي : وهو حسن بن موسى. له كتاب الأغاني على حروف المعجم، ألفه للمتوكل، وذكر في هذا الكتاب أشياء من الأغاني لم يذكرها إسحاق ولا عمرو بن بأنه وذكر من أسماء المغنيين والمغنيات في الجاهلية والإسلام كل طريف وغريب. وله كتاب الأغاني على الحروف، كتاب مجردات المغنيين.

أبو أيوب المدني: وأسمه سليمان بن أيوب ابن محمد من أهل المدينة الظرفاء الأدباء عارف بالغناء وأخبار المغنيين وله في ذلك عدة كتب منها : كتاب أخبار عزة الميلاء، وكتاب ابن مسجع، وكتاب قيان الحجاز، وكتاب قيان مكة، وكتاب الأتفاق، وكتاب طبقات المغنيين، وكتاب النغم والإيقاع، وكتاب المنادمين، وكتاب أخبار ظرفاء المدينة، وكتاب أبن أبي عتيق، وكتاب أخبار ابن عائشة، وكتاب أخبار حنين الحيري، وكتاب ابن سريج، وكتاب الغريض.

إبن طرخان : أبو الحسن علي ابن حسن بن طرخان، كان مغنياً حسناً ومتأدباً، ويقول أبن النديم: " أنه حسن المذهب في الغناء وله بضاعة في الأدب، توفى وله من الكتب، كتاب النوادر والأخبار، وكتاب أخبار المغنيين الطنبوريين وغيرهما ".

الخليل بن أحمد: (99 - 174هـ/ 717 - 790م) وأصله من الأزد من فراهيد، كان أعظم مشاهير النحويين واللغويين العرب. وهو أول من أستخرج العروض وحصن به أشعار العرب. وكان من الزهاد في الدنيا المنقطعين إلى العلم وكان شاعراً مقلاً، وتوفى الخليل بالبصرة وعمره أربع وسبعون سنة وله من الكتب المصنفة، كتاب العين، وكتاب العروض، وكتاب الشواهد، وكتاب النقط والشكل، وكتاب فائت

العين، وله كتب في صناعة الموسيقى ذايعة الصيت، وهما: كتاب النغم، وكتاب الإيقاع.

وتُعدُ عائلة آل منجم من الموسيقيين المشهورين في الدولة العباسية، فضلاً عن براعتهم في العزف على الآت الموسيقية، وكانوا شعراء ومؤرخين وندماء للخلفاء. أولهم يحيى بن أبي المنصور : كان مولى للخليفة أبي جعفر المنصور، ومقربا جدا إلى المأمون توفى سنة (112هـ/730م)، وله من الولد محمد وعلي وسعيد والحسن، فأما محمد فكان حسن الأدب والبلاغة فصيح اللسان، له كتب مدونة وأخبار مشهورة، فمن كتبه كتاب أخبار الشعراء، وله معرفة بالغناء والنجوم، وتوفي آخر أيام المعتمد ودفن بسر من رأى. وله من الولد أحمد أبو عيسى عبد الله، وأبو القاسم يحيى أبو أحمد هارون أبو عبد الله ولهارون كتب كثيرة.

أما علي بن يحيى بن أبي المنصور المتوفى (275هـ/888م) فقد نادم المتوكل ومن خاصة ندمائه ومتقدم عنده وخص به وبمن بعده من الخلفاء إلى أيام المعتمد. وكان راوية للأشعار والأخبار شاعراً محسناً قد أخذ عن إسحاق وشاهده، وله صنعة، مقدماً عند الخلفاء يجلس بين أسرهم ويفضون إليه بأسرارهم، ويأمنونه على أخبارهم، وله من الكتب كتاب الشعراء القدماء والإسلامية، وكتاب أخبار إسحاق بن إبراهيم، وكتاب الطبيخ. ونادم ابنه أبو أحمد يحيى بن علي ابن أبي منصور (241 - 300هـ/855 - 912م) الموفق ومن بعده من الخلفاء. وكان متكلماً معتزل المذهب وشاعراً وموسيقياً. عالماً بكتب اليونان. أنشد شيئا من شعره في مجلس المعتضد والمكتفي، وله كتب كثيرة فمن كتبه "كتاب الباهر في أخبار شعراء مخضرمي الدولتين، وكتاب النغم". واشتهر علي بن هارون بن علي (277 - 352هـ/890 - 963م) بأنه كان راوية للشعر، شاعراً أديباً ظريفاً متكلماً جداً، نادم جماعة من الخلفاء. وقال ابن النديم: "رأيناه وسمعنا منه" وله كتب في الموسيقى ومنها: كتاب رسالته بين إبراهيم بن المهدي وإسحاق الموصلي في الغناء. وكان أبو عبد الله بن هارون بن علي بن هارون شاعراً أديباً عارفاً بالغناء، وله صنعة في الكلام، وله كتاب مختار في الأغاني.

الكندي : يُعَدُّ أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي، (174 - 260هـ/790 - 873م) من كبار المفكرين الفلاسفة ومن ألمع من أنجبتهم الحضارة العربية، وهي في مطلع أوج ازدهارها العلمي في العصر العباسي. وقد لقب بحق "فيلسوف العرب". وله كتب كثيرة قد جاوزت 240 كتاباً ورسالة في العلوم المختلفة. واشتهر الكندي في بحوثه في نظريات الموسيقى والألحان وعلم تناسق الألحان، وله كتب في الموسيقى منها : كتاب رسالته الكبرى في التأليف، وكتاب رسالته في ترتيب النغم، وكتاب رسالته في الإيقاع، وكتاب رسالته في المدخل إلى الصناعة الموسيقى، وكتاب رسالته في خبر صناعة التأليف، وكتاب رسالته في الأخبار عن صناعة

الموسيقى، وكتاب المصوتات الوترية، وكتاب مختصر الموسيقى في تأليف النغم وصناعة العود. وقد ترجمت مؤلفاته إلى اللاتينية وعرفتها أوربا. وقد قام بالترجمة الباحث المشهور "جيراد القرموني" (507 - 582هـ/1113 - 1186م). ويذكر فارمر "بأن بعض هذه الكتب قد وصلت إلينا، باختلاف في عناوينها. فلدينا في المتحف البريطاني [رسالة في خبر تأليف الألحان]، وفي مكتبة برلين الحكومية [رسالة في أجزاء خبريات الموسيقى]، [ورسالة في اللحون]، وثم كتاب آخر في هذه المكتبة قد يكون من تأليف الكندي أيضاً. وفي مجموعة مخطوطات المتحف البريطاني كتاب آخر باسم [العزم في تأليف اللحون]. وقد نشر كتابه [رسالة الكندي في خبر صناعة التأليف]. ويعد الكندي أول من أسمى النغم، أي الدرجات الموسيقية بأسماء الحروف الأبجدية، وقد عرفت أوربا هذه الطريقة في تسمية الدرجات الموسيقية في القرن العاشر الميلادي أي بعد عصر الكندي بحوالي قرن من الزمن.

السرخسي: وهو أبو الفرج أحمد بن الطيب السرخسي، المتوفي (285هـ/ 899م)، أعظم تلاميذ الكندي، ولد في سرخس بخراسان، وأصبح معلماً لابن الموفق وبعده للخليفة المعتضد بالله الذي جعله من حاشيته وولاة الحسبة ببغداد. كان السرخسي قد خلف أكثر من ثلاثين كتاباً في مختلف العلوم، كالرياضة، والمنطق، والفلك والفلسفة والموسيقى. فمن بين كتبه النظرية في الموسيقى: كتاب المدخل إلى علم الموسيقى، وكتاب الموسيقى الكبير، وكتاب الموسيقى الصغير، وكتاب اللهو والملاهي في الغناء والمغنيين، وكتاب نزهة الفكر الساهي في المغنيين والغناء والملاهي، وكتاب الدلالة على أسرار الغناء.

الفارابي: وهو أبو نصر محمد بن محمد طرخان، المتوفي (339هـ /950م) من مشاهير العلماء والفلاسفة العرب، ومن المتقدمين في صناعة المنطق والعلوم القديمة، ولقب بالمعلم الثاني، بعد أرسطو، ونعت بأعظم فيلسوف أنجبته بلاد العرب. وكان الفارابي موسيقياً حاذقاً، واحد زمانه في الضرب على العود. وقد درس في بغداد وفي حران، وأقام في حلب في بلاط سيف الدولة الحمداني. ويعد الفارابي أشهر من كتب من العلماء والفلاسفة في الموسيقى، فقد ألف كتاب الموسيقى الكبير، وكلام في الموسيقى، وكتاب إحصاء الإيقاع. ويعزى إلى الفارابي أنه حسن أو اخترع بعض الآلات الموسيقية، مثل الرباب والقانون، كما أدخل على آلة القانون الإغرقية. تحسينات وتغيرات أساسية في النظريات الموسيقية اليونانية القديمة، وتركت آثار الفارابي الموسيقية أثراً بالغاً في أوربا، شأنها في ذلك شأن كتبه الأخرى التي ترجمت إلى اللاتينية. ويعد كتابه الموسيقى الكبير الذي ألفه في بغداد " أكمل ما كتبه العرب عن الموسيقى وأحسن كتاب في علم الموسيقى.

يحيى الموصلي: وكان يحي بن أبي منصور الموصلي في نهاية حسن الأدب، وله من الكتب، كتاب الأغاني، عمله على الحروف، وكتاب العود والملاهي.

أثر الموسيقى العربية في أوروبا :

كانت لصناعة الموسيقى العربية في عصر الازدهار والأوج للأمة العربية إثر واضح في الموسيقى الأوربية، إذ اعترف بها الباحثون الأوربيون أنفسهم في كتبهم وأبحاثهم.

ولقد تأثرت نظريات الموسيقى الأوربية بالمؤلفين العرب الذين ابتكروا كتباً لها أهميتها في صناعة هذا الفن، كتبها الكندي والفارابي وابن سينا وإخوان الصفا وغيرهم. ويعد كتاب الفارابي في الموسيقى أشهر ما ألف في العصور الوسطى في النظريات الموسيقية، وهو يضارع أي كتاب وصل إلى الغرب من المصادر اليونانية، إن لم يفقه بحسب شهادة المؤرخ الشهير ول ديورانت. وقال فارمر: " وكان للفارابي [الفارابيوس] كما يسميه الغرب، أثر عظيم جدا في حضارة أوروبا – العصور الوسطى، وسمي المعلم الثاني [بالنسبة لأرسطو الذي هو الأول]، ونعت بأعظم فيلسوف أنجبته بلاد العرب ".

وتقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه في كتابها " شمس العرب تسطع على الغرب " : "وللعرب فضل كبير على إلهام الموسيقيين الغربيين كثير من ألحانهم. كما ورث الغرب عن العرب زخرفة الألحان ... ولقد بقى ما كتبه ابن سينا والفارابي مرجعا للموسيقيين حتى القرن السابع عشر. ومنهما تعلم الغرب العلاقة بين النغمة 5:4 وهي مسافة الثالثة الكبيرة و 6 : 5 للثالثة الصغيرة. وتطوروا من ذلك إلى النغمة الهارمونية التي تأنس لها الآذان. واهتم الكونت هرمانوس كونتراكوس بمؤلفات الكندي الموسيقية ونقل عنه كتابة النوتة الموسيقية، وهو يعد الكندي من أئمة علماء الموسيقى. أما المقاطع الصولفائية : فا (Fa) مي (Mi) ري (Re) دو (Do) سي (Si) لا (La) صول (Sol) التي يقال : ان الموسيقي الإيطالي جيد فون أريتز قد أخذها عام 1026م عن نشيد يوحنا. فمن المحتمل جدا أن تكون مأخوذة عن الأحرف العربية: دال راء ميم فاء صاد لام سين التي نجدها مع غيرها في مقطوعات من الموسيقي اللاتينية في القرن الحادي عشر.

فلما وفد الطلاب الأوربيون من الشمال على قرطبة بالأندلس أخذوا يظهرون على هذه المؤلفات العربية بعد ترجمتها إلى اللاتينية، إذ كانت الموسيقى أحد فروع مناهج الفنون الحرة، وهي الحساب والموسيقى والهندسة والفلك في الجامعات العربية بالأندلس في القرون الوسطى، وهذه الجامعات كان يحتشد فيها كثير من طلاب العلم من أنحاء أوروبا.

والحقيقة أن تأثير الحضارة العربية الإسلامية لا يتوقف عند التأثير الموسيقي، ولا الأدبي واللغوي، بل يتعداه إلى ما هو أهم وأكثر من ذلك، إذ إن جميع العلوم والمعارف والفنون العربية الإسلامية قد تأثرت بها أوروبا إلى حد

كانت هذه الحضارة العربية هي الأساس والمنطلق إلى النهضة الأوروبية، وكانت الأندلس أكبر معبر لهذه الحضارة إلى تلك الأقطار. وتأثر الشعر الأوروبي الغنائي بطريقة الموشح والزجل الأندلسي، إذ إن الشعر الأوربي المسدس مكون من ستة مصاريع، وتكون قوافي المصاريع الثلاثة الأخيرة هي ذات قوافي المصاريع الثلاثة الأولى على التوالي، فمن الأندلس انتقلت إلى الشمال الأسباني، ومنه إلى الأنحاء الأوروبية الأخرى، فكان لهذه النقول وغيرها عميق الأثر في تطور الغناء والموسيقى في أوروبا.

وشاع شعر الحب العذري (العفيف) في أوروبا، ونلاحظ ذلك الأثر أجلى وأظهر في جنوب فرنسا، كما هو بيّن عند شعراء البروفنسيين. وظهرت "طبقة التروبادور" (الفرق الموسيقية المتجولة)، إذ قلدت هذه الطبقة الزجالين الأندلسيين. كما ظهر عندها فجأة شعر التشبيب (التغزل) بالمرأة لدى شعراء أوروبا الجنوبية. وليس من شك – كما يقول المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال – أن التروبادور النورمندي الذي وضع ملحمة رولان كان على علم بالأندلس. فهذه الأغنية الشهيرة جدا في فرنسا وأوروبا على العموم مدينة لصلة أوروبا بالأندلس. كما أن للموسيقى العربية أثرا كبيرا في تطور الموسيقى الإيطالية، ومما قاله الأستاذ مورينو الأسباني في هذا الصدد : " إن الأغاني الأصيلة للموسيقى الحديثة كانت اقتباسا أندلسيا ... ولم تنتقل إلى أوروبا أنغام الموسيقى وحدها، بل صاحبتها الأغنيات التي تغنى بها، وكان من الطبيعي أن يكون لها آثار الطراز الشعري التي وجدت هناك "، ويضاف إلى ذلك أن كثيراً من التقاليد والأوضاع الموسيقية الأندلسية واضحة أشد الوضوح في الموسيقى والغناء والرقص الأسباني الحديث. ورقصهم الحالي هو بعينه الرقص العربي بما فيه من خفة الراقصات ورشاقتهن والتفنن في الحركات جيئة وذهوباً. ولقد ولع البرتغاليون بالكثير مما تأثرت به إسبانيا، إذ نظم شعراؤها على طريقة الزجل الأندلسي، وإن أصاب قوافيه بعض التغير. وقد نقل أولئك وهؤلاء (البرتغاليون والإسبان) هذا الفن العربي الأندلسي إلى الكثير من الأصقاع التي تغلبتا عليها في أميركا اللاتينية، ولاسيما الأرجنتين والبرازيل، إذ ما زالت موسيقاهم ورقصهم هناك شديد الشبه بالموسيقى والرقص العربي الأندلسي الذي قام على أسس معروفة وقواعد مقررة باقية في تأثيرها. وقد قام المستشرق الأسباني خليان ربيرا بدراسة قيمة في هذا الموضوع، أثبت بالبرهان انتقال بحور الشعر العربي الأندلسي إلى أوروبا. ومن المقطوعات الغنائية التي يتجلى فيها هذا الأثر العربي الأندلسي أنشودة " الأندلسيات الثلاثة " التي نجدها في بلافيو الأسباني، ويرجع موضوع الأغنية وموسيقاها إلى العصر العباسي الأول، ثم انتقلت إلى الأندلس وأسبانيا والبرتغال. وكان التأثير بالموسيقى العربية متفاوتا في الدول الأوروبية المختلفة، ففي فرنسا وخاصة شعراء البروفنس

جنوب فرنسا كان تأثرهم عميقا، حتى إننا لنجد قوالب زجلية أندلسية صرفه في شعر كثيرين منهم. وقد ظل طراز النظام الكامل للزجل الأندلسي باقيا في صناعة الألحان الموسيقية خلال العصور الوسطى، ولاسيما ألحان الروندو التي هي ترجمة للكلمة العربية " نوبة ". أما في إنجلترا فقد كان الزجل شائعا إلى حدٍ ما، واتخذت قوالب الأزجال تصب فيها بعض الأغاني الشعبية عن العذراء وأناشيد عيد الميلاد، ولا زالت بعض الأزجال باقية في الأغاني الشعبية الأيرلندية والأسكتلندية حتى الآن، إذ نجد رباعيات من الطراز الذي كان يصوغه عرب الأندلس. وكذلك ظهر هذا الأثر في ألمانية، فنظم أغاني المينيسنجر بعض القطع الشبيهة بقوافي الزجل الأندلسي. أما في إيطاليا التي تأثرت بالحضارة العربية تأثراً بعيداً عن طريق صقلية والأندلس فنجد أمثلة كثيرة لهذا النوع من التأثير. كالقالب الشعري المسمى "كونتراستو" ومعناه: الخصام. كما نجده في شعر جاكو بون دي تودي الذي صب مدائحه في قالب الزجل الأندلسي. وكما ظهر هذا الأثر في الأغاني الكرنفالية وفي طراز الشعر الإيطالي المعروف بـــ"البالاتا" أي الرقصات في الكثير من الأغاني الشعبية.

واقتبست أوروبا عن الحضارة العربية الآلات الموسيقية، إذ تقول المستشرقة الألمانية هونكه: " فإن أوروبا مدينة للعرب بالكثير من الآلات الموسيقية وردت إلى أوروبا محكمة الصنع عبر إسبانيا تحمل معها أسماءها للعالم الغربي، فمن الآلآت الوترية: العود والماندولا والماندولينا والبندورا. ومن الآلات الوترية ذات القوس : الربابة والربك والربيبة. ومن آلات النفخ : الناي الصغير والناي الخشبي ذو المبسم، والنفير، والتنبول، والبوق، والهورن.ومن الطبول : الطبل والطبلة والصنوج والنقارة. وقد صمم الفارابي – وهو أيضا من علماء الموسيقى العرب القانون – والقانون الذي هو أصل البيانو فيما بعد ".

ويذكر الباحث صبحي أنور رشيد : " أن الكثير من الآلآت الموسيقية العربية الوترية والإيقاعية والهوائية قد أثرت تأثيرا بارزا في الحياة الموسيقية في أوروبا وظلت الأسماء العربية للآلات الموسيقية مستعملة في اللغات الأوروبية لعدة قرون، وهذه الآلات هي: العود والقانون والسنطور والرباب والهارب والرق وطبل الجنب والصنوج المعدنية والنقارات والنفير والزورنة والزلافي ... وأهم تأثير للعرب في الموسيقى العربية هو إدخالهم القوس الموسيقي عن طريق الأندلس وصقلية منذ القرن الحادي عشر. ولا يمكن أن نتصور الموسيقى والأوركسترا الأوروبية من دون القوس الموسيقي وهذا ما يؤكد مدى أهمية تأثير العرب في الموسيقى في أوروبا ... وكذلك نرى الكثير من الآلات الموسيقية العربية منحوتة في جدران وأعمدة الكثير من الكنائس الأوروبية وخصوصاً في فرنسا وإيطاليا وأسبانيا وإنكلترا وصقلية أو مرسومة في اللوحات الفنية للفنانين الأوروبيين.

خاض البحث في أهم الظواهر الكبرى التي سادت في المجتمع العباسي، عصر الازدهار والأوج، ألا وهي ظاهرة الغناء والصناعة الموسيقية التي عدت فيما بعد واحدة من أهم الفنون التي استأثرت باهتمام قادة البيت العباسي، فضلا عن كبار المؤرخين الذين سجلوا لهذا العصر عوامل تطوره السياسي والاقتصادي والعلمي.

وقد برز لدينا أن فن الغناء طال تأثيره الشعر والفلاسفة، وأصبح محط اهتمام أهل المجالس،، فضلا عن كونه نتاج تلاقح الحضارات الأجنبية السائدة آنذاك مع الحضارة العربية الإسلامية في أرفع حالات تطورها. كما سجل البحث ظاهرة كثرة المغنيين والمغنيات والموسيقيين، وتنوع المدارس وشيوع انتشاره فضلا عن كل ذلك يعد هذا الفن واحدا من أهم علامات التطور الحضاري والذوقي عند العرب حتى بذل له أعلى حالات العطاء المادي للقائمين عليه.

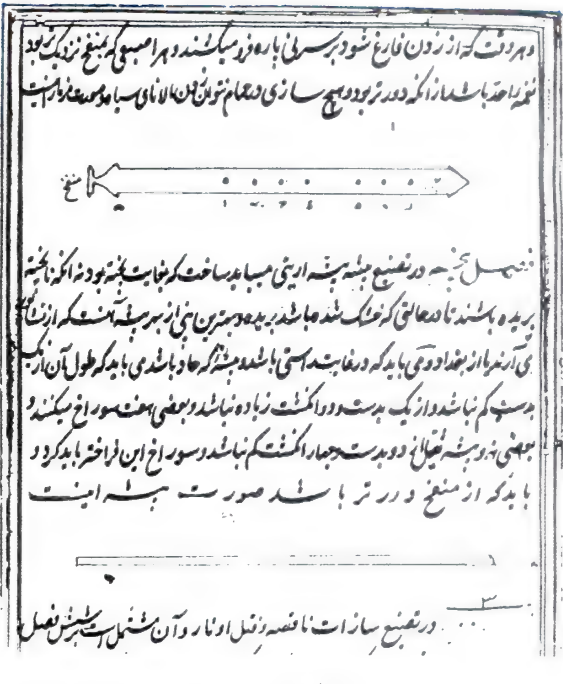
كما نسجل تشعب هذه الظاهرة وكثرة الأخبار عنها في المصادر القديمة ودراسات المعاصرين، وذلك يدل على أهميتها في عالم الفن الذوقي الذي كان له حضور بارز في إشارات القدماء مؤرخين واجتماعين وفلاسفة ونقاد ورواة، كما يكشف البحث عن الحضارة العربية الإسلامية التي لم تكن منغلقة على آفاق الدنيا، إنما كانت تأخذ بالقدر الذي يأتلف مع ذوق المجتمع وحدود الشرعية الإسلامية السمحة.

ودل البحث على أن للعرب باعاً في تطوير هذا الفن ومستلزماته من القواعد والأسس والآلات وطبيعة اللحون بما ينسجم مع روح العصر، تلك هي الحدود المرسومة للبحث، وإن كانت غير ذي مدى تفصيلي إنما بالقدر الذي يفي بعرض المادة على وفق المنهج المحدد.

أ. د. كامل طه الويس
جامعة بغداد

13 - (قصة رياض و بياض) عزف على العود

المصدر - الفن العربى الاسلامى - ج 1 ص 194



المزمار



آلة العود

نوع من العود انقرض اليوم

آلة شبيهة بالهارب الصغير

مجموعة آلات موسيقية : صفحات من كتاب كنز التحف و هو تأليف فارسي هام من القرن الثامن هـ / الرابع عشر ميلادي

المصدر - الفن العربي الاسلامي - ج 1 ص 213



زواج شقيق السلطان أكبر بأغرة سنة 969 هـ موسيقيون وراقصون وراقصات

المصدر: الفن العربى الإسلامى جـ1 ص210

طبق من الخزف ذى البريق المعدنى الفاطمى عليه شخص جالس يعزف الموسيقى

صورة جدارية لراقصتين وجدت تزين جدار واحدة من قاعات قسم الحريم في قصر (الجوسق)

المصادر والمراجع

1 ـ المصـــادر :

- **الأبشيهي**، شهاب الدين محمد بن أحمد، أبي الفتح ت 850هـ/1446م
1986م المستطرف في كل فن مستظرف، بيروت.
- **ابن خرداذبة عبيد الله بن عبد الله** ت نحو 300هـ/912م
1961م مختار من كتاب اللهو والملاهي، نشره عن نسخة يتيمة، الأب أغناطيوس عبده خليفة اليسوعي، بيروت.
- **ابن خلدون**، عبد الرحمن بن محمد ت 808هـ/1405م
1978م المقدمة، بيروت.
- **ابن الطقطقي**، محمد بن علي طباطبا ت 709هـ/1309م
1960م الفخري في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية، بيروت.
- **ابن النديم**، ت ق 438هـ/1047م
1348هـ الفهرست، مصر.
- **الأزدي**، محمد بن محمد أبو المطهر ت 4هـ/ق 10م
1902م حكاية أبي القاسم البغدادي، تحقيق آدم متز، هيدلبرج.
- **الأصفهاني**، أبو الفرج علي بن الحسين ت 356هـ/966م
د.ت الأغاني، بيروت (24 مجلد).
1984م الإماء الشواعر، تحقيق جليل العطية، لبنان.
- **ابن تغري بردي**، جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت 874هـ/1469م
د.ت النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة.
- **ابن عبد ربه**، أبو عمر أحمد بن محمد ابن عبد ربه الأندلسي ت 328هـ/939م
1949م العقد الفريد، القاهرة.
- **ابن المنجم**، يحيي بن علي ت 300هـ/912م
1950م كتاب النغم، تحقيق بهجت الأثري، نشر في مجلة المجمع العلمي العراقي، الجزء الأول.
- **السيوطي**، الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت 911هـ/1505م
1988م تاريخ الخلفاء، بيروت.
- **الشابشتي**، أبو الحسن علي بن محمد ت 388هـ/998م
1966م الديارات، تحقيق كوركيس عواد، بغداد.
- **الفارابي**، أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان ت 339هـ/950م
1967م كتاب الموسيقى الكبير، تحقيق غطاس عبد الملك، مراجعة وتصدير د. محمود أحمد الحفني، القاهرة.

- **القلقشندي،** أحمد بن علي ت 821 هـ / 1418م
1987م صبح الأعشى في صناعة الإنشا، بيروت (14 مجلد).
- **المسعودي،** أبو الحسن علي بن الحسين بن علي ت 346هـ/957م
1958م مروج الذهب ومعادن الجوهر، مصر (4 أجزاء).
- **المقري،** أحمد بن محمد المقري التلمساني ت 1041هـ/1631م
1949م نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، حققه، وضبط غرائبه، وعلق حواشيه محمد محيي الدين عبد الحميد، مصر.
- **المقريزي،** تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي ت 845هـ/1441م
د.ت كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، بيروت، (2 مجلد).
- **النويري،** شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت 732هـ/1331م
د.ت نهاية الأرب في فنون الأدب، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، مطابع كوستاتسوماس، القاهرة (18 مجلد).

2 - المـــراجـــع العربية والمعرّبة:

- **باقر،** طه
1980م موجز في تاريخ العلوم والمعارف، بغداد.
- **بالنثيا،** انخل جنثالث
1955م تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة الدكتور حسين مؤنس، القاهرة.
- **بروفنسال،** ليفي
1951م سلسلة محاضرات عامة في أدب الأندلس وتاريخها، ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة، الإسكندرية.
- **جرجي،** زيدان
1958م تاريخ التمدن الإسلامي، القاهرة، (5 أجزاء).
- **الحجي،** عبد الرحمن علي
1969م تاريخ الموسيقى الأندلسية، بيروت.
- **حسن،** إبراهيم حسن
1964م تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، العصر العباسي الأول، ملتزم النشر والطبع مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة السابعة، (6 أجزاء).
- **ديورانت،** ول
1964م قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، الجزء الثاني من المجلد الرابع، الطبعة الثانية، القاهرة.
- **رشيد،** صبحي أنور
1988م الموسيقى في العصور العربية والإسلامية، المنشور في كتاب العراق في موكب الحضارة، تأليف نخبة من أساتذة التاريخ، بغداد.

1983م الآلات الموسيقية بين العرب وأوروبا في العصور الوسطى، أيام بغداد، بغداد.

1975م الآلات الموسيقية في العصور الإسلامية، بغداد.

- **سعد،** فهمي عبد الرزاق

1983م العامة في بغداد في القرن الثالث والرابع الهجريين، بيروت.

- **شوقي،** ضيف

1986م العصر العباسي الثاني، القاهرة.

1987م الفن ومذاهبه في الشعر العربي، القاهرة.

- **شيخاني،** سمير

1962م أشهر المغنيين العرب، بيروت.

- **ضيف،** شوقي

1969م رسالة الكندي في خبر صناعة التأليف، القاهرة.

- **عنان،** محمد عبد الله

1988م دولة الإسلام في الأندلس، القاهرة.

- **عواد،** ميخائيل

1981م صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي، بيروت.

- **فارمر،** هنري جورج

د.ت تاريخ الموسيقى العربية، بيروت.

- **فهد،** بدري محمد

1967م العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري، بغداد.

- **القاضي،** مختار

1972م أثر المدنية الإسلامية في الحضارة الغربية، القاهرة.

- **متز،** آدم

1967م الحضارة الإسلامية في القرن الرابع للهجري، نقلة إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريد، بيروت (مجلدان).

- **محفوظ،** حسين علي

1977م قاموس الموسيقى العربية، بغداد.

- **مظهر،** جلال

1969م أثر العرب في الحضارة الأوروبية، نهاية عصور الظلام وتأسيس الحضارة الحديثة، بيروت.

- **الويس،** كامل طه

1988م النشاط الترويحي في العصر العباسي، مجلة آفاق، عدد (4) لسنة الثالثة عشر، نيسان، 1988م، مطابع دار الشؤون الثقافية، بغداد.

- **هونكه،** زيغريد

1979م شمس العرب تسطع على الغرب، " أثر الحضارة العربية في أوروبة "، نقله عن الألمانية فاروق بيضون وكمال دسوقي، راجعه ووضع حواشيه مارون عيسى الخوري، بيروت.

الفهرس

فهرس الموضوعات

اللجنة العلمية للكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية :

السادة الأساتذة :

- الدكتور / أحمد يوسف أحمد.
- الدكتور / إدريس الحرير "نائب الرئيس".
- الدكتور / أبو القاسم سعد الله.
- الدكتور / بهجة كامل عبد اللطيف.
- الدكتورة / خيرية قاسمية " المقرر"
- الدكتور / راضى دغفوس
- الدكتور / رؤوف عباس حامد
- الدكتور / عبد الرحمن الطيب الأنصارى "الرئيس"
- الدكتور / محمد إبراهيم أبو سليم "يرحمه الله"
- الدكتور / يوسف محمد عبد الله
- الدكتور / يونان لبيب رزق